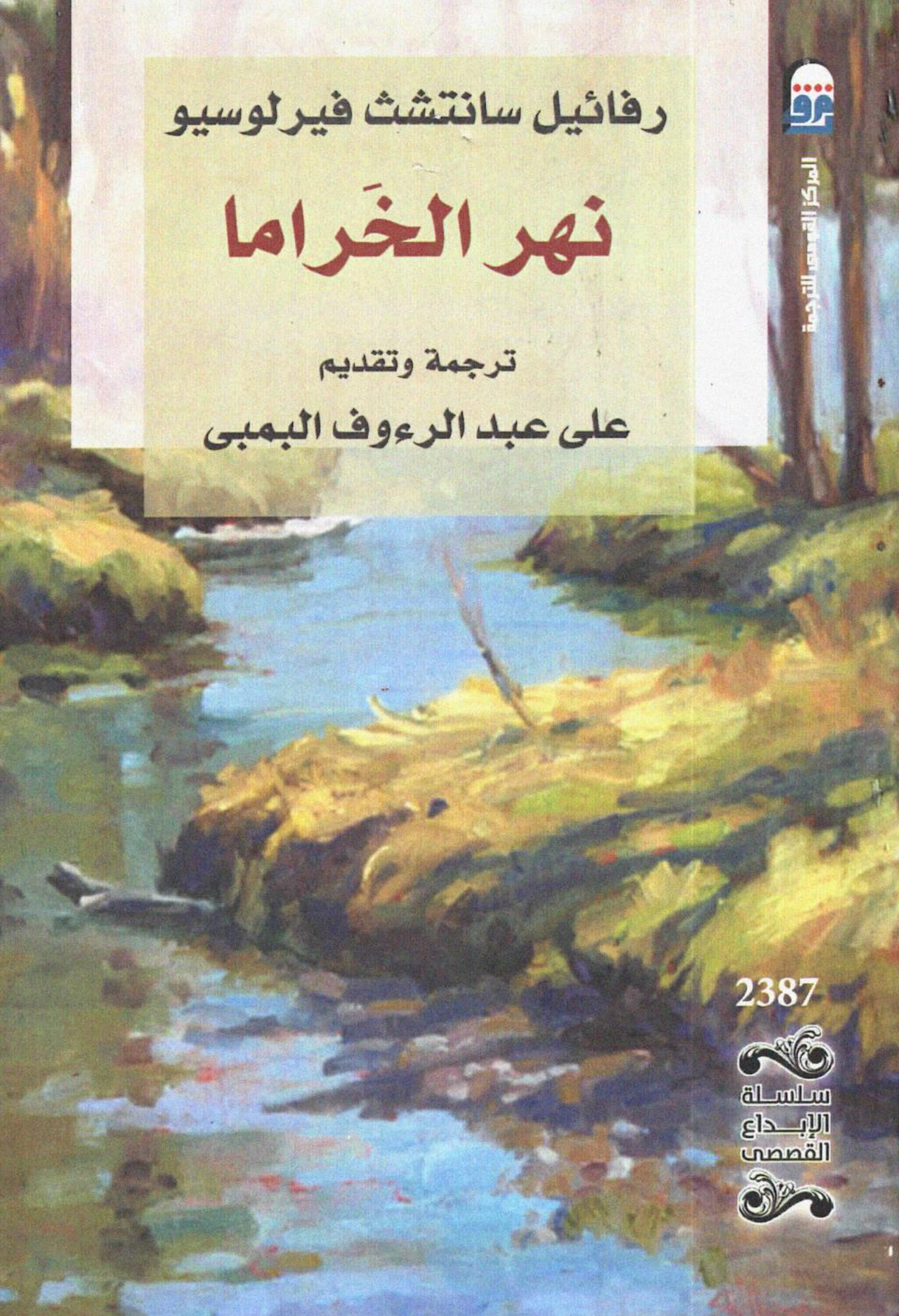


رفائيل سانتشث فيرلوسيو
نهر الخَراما
ترجمة وتقديم
على عبد الرءوف البمبى
المركز القومي للترجمة
2387
سلسلة
الإبداع
القصصي

نهر الخَراما

روايــة

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2387
- نهر الخراما
- رفائيل سانتشث فيرلوسيو
- على عبد الرءوف اليمبى
- اللغة: الإسبانية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
El Jarama
Por: Rafael Sánchez Ferlosio

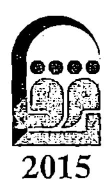
شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

نهر الخَراما

روايــة

تــــــــأليف: رفائيل سانتشث فيرلوسيو

ترجمة وتقديم: على عبد الرءوف البمبى



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

فيرلوسيو، رفائيل سانتشث، ١٩٢٧.
نهر الخراما: رواية/ تأليف: رفائيل سانتشث فيرلوسيو،
ترجمة وتقديم: على عبد الرءوف.
ط ١ – القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٥
٨٨٨ ص، ٢٠ سم
١ – القصص الإسبانية
(أ) عبد الرءوف، على (مُترجم ومقدم)
(ب) العنوان ٨٦٣

رقم الإيداع: ١٦٧٥٦ /٢٠١٤
الترقيم الدولى: I.S.B.N - 978 - 977 - 718 - 795 - 4
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إهداء المترجم

إلى أجمل زهرتين،

على ضفاف نهر العمر:

يارا

وياسين

تقديم المترجم

لاشك أن التعريف بعمل أدبى ما، يتطلب تمهيد الطريـــق إليـــه، من خلال التعريج على الملابسات الاجتماعية والثقافية التى أحاطـــت بمولده، ومن ثمّ لا مفر من إلقاء بعض الضوء على الظروف التـــى واكبت صدور الرواية التى بين أيدينا، وساهمت فى تحديـــد هويتهـــا ورسم معالمها.

١ـ إطلالة على الرواية الإسبانية بعد الحرب الأهلية:

(أ) حقبة الأربعينيات:

يجمع النقاد على أن الحرب الأهلية الإســبانية (١٩٣٦–١٩٣٩) قد هزت المجتمع من أركانه وأحدثت به ارتجاجًا عنيفًـــا، انعكـــست آثاره – بشكل مباشر وحاد – على النشاط الأدبى والفنى بوجه عام، وعلى النثر الروائى بصفة خاصة.

ولتقديم وصف موجز لمسيرة الرواية الإسبانية بعد الحرب الأهلية (وبالتحديد فى حقبة الأربعينيات من القرن الماضى) يجب الأخـذ فـى الحسبان عددًا من الأسباب – أدبية كانت أم غير أدبيـة – كـان لهـا عظيم الأثر فى تحديد إطار هذه المسيرة ودمْغ هويتها. وتتمثـل هـذه الأسباب فى النتائج التى تمخضت عنها الحرب، وأهمها ثلاثة:

ــ العزلة السياسية: فبعد انتصار الجنـرال فرانكـو فـى الحـرب، وإسقاطه للجمهورية الثانية فى تاريخ إسـبانيا الملكيـة (١٩٣١–١٩٣٦)، قاطعت القوى العالمية نظامه، المتهم بالفاشية والتمـرد على السلطة الشرعية، ووصلت القطيعة مداها بطرد إسبانيا مـن «عصبة الأمم» (التى أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية «منظمة الأمم المتحدة»).

وقد أدت هذه العزلة إلى انكفاء إسبانيا على نفسها واعتمادهـا علـى مواردها المحلية، أو ما يمكن أن نطلـق عليـه «الاكتفـاء الـذاتى الاقتصادى»، والذى أدّى بدوره إلى نوع من الاكتفاء الذاتى الثقافى.

ــ النفى الاختيارى أو الاضطرارى لعدد كبير من الروائيين المنتمين للجيل السابق للحرب: بعد انتهاء الحرب الأهلية مباشرة، غادرت

إسبانيا مجموعة متميزة من المبدعين كانت تناصر الجمهورية، لتستقر فى دول أوربية وأمريكية، لاسيما أمريكا اللاتينية. ومن بين هؤلاء الكتاب نذكر: فرانثيسكو أيالا، ورامون خ. سيندر، وماكس آوب.. وبالطبع فإنهم لو ظلوا فى إسبانيا ولم يغادروها لكانوا قد ساهموا فى استمرارية التراث الروائى لسنوات ما قبل الحرب. هذا مع الأخذ فى الاعتبار أن إبداعاتهم فى المنفى ظلت حبيسة أرض المهجر، ولم ينفك عنها حظر مصافحة القارئ الإسبانى إلا بعد مرور سنوات طويلة.

الرقابة الرسمية الصارمة: لقد تحكمت الرقابة الصارمة فى شتى صنوف التعبير، خلال الحرب وفى السنوات التالية لها؛ ولم يكن عملها منوطًا بالأفكار السياسية فحسب، بل يمتد إلى كل ما له علاقة بالدين والعقيدة والعادات والتقاليد الموروثة. ومن هذا المنطلق تم حجب إصدارات كثيرة، من بينها، وعلى سبيل المثال: «عائلة باسكوال دوارتى» و«الخلية» لكاميلو خوسيه ثيلا (جائزة نوبل فى الآداب، ١٩٨٩)؛ «خابيير مارينيو» لتورنتى باييستير؛ «المشاة الأوفياء» لجارثيا سيرّانو...

ومما لاشك فيه أن هذا النوع من الرقابة يخنق الإبداع ويكبّله، بل ويكاد يُجهز عليه؛ وللفرار من براثنها يلجأ الكتّاب عــادة – كمــا حدث فى إسبانيا – إلى ما يُسمى «بالأدب الإشارى أو التلميحى» الذى يتطلب قراءة ما بين السطور.

ونتيجة لما تقدم عرضه، بإيجاز شديد، لم تشهد الرواية الإســبانية فى أربعينيات القرن الماضى تطورًا أو تجديدًا، لا على المستوى الشكلى أو التقنى، وظلت حبيسة فــى دروب الواقعيــة التراثيــة لقصص الصعاليك، أو تقتات على فُتــات المــذهب «الــواقعى» و«الطبيعى» للقرن التاسع عشر، أو على اجترار قــصص بيــو باروخا. وبالطبع، فإن هذا التقوقع والانكفاء على التراث المحلى، كان بسبب العزلة الثقافية وعدم الانفتاح على تيارات التجديد فــى كل من أوربا والولايات المتحدة الأمريكية.

(ب) حقبة الخمسينيات:

أما فى حقبة الخمسينيات (التــى ظهــرت فيهــا روايــة «نهــر الخراما») فقد شهدت الرواية الإسبانية انفراجة ملموســة علــى إثــر خفوت حدّة معوقات فترة الأربعينيات، إيذانًا بتلاشيها بعد ذلك. ويمكن

التأكيد على أنه قد حدث «ذوبان جليد» روائى فى حقبة الخمسينيات، نتيجة للعديد من الأسباب. وقد قام الناقد «سانتوس سانز بيّانويبا» برصدها وتحديدها فى كتابه المهم الذى يحمل عنوان: «اتجاهات الرواية الإسبانية الحالية (١٩٥٠-١٩٧٠)» على النحو التالى:

- خروج إسبانيا من عزلتها الدولية: وقد تمثل هذا فى العودة للانضمام إلى «الأمم المتحدة» (١٩٥٢)، مما أدّى إلى التلاشى التدريجى لما يُعرف بالاكتفاء الذاتى الاقتصادى، وما يستتبعه من اكتفاء ذاتى على الصعيد الثقافى.

- مرونة الرقابة: اتسمت الرقابة خلال هذه الفترة بالمرونة والرّفق، لاسيما بالنسبة للآداب الأجنبية، سواء كانت مقروءة بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى الإسبانية.

- اكتشاف الرواية الأجنبية: لقد ذاعت فى هذه الحقبة أيضًا- عن طريق القراءة أو عن طريق السينما- الرواية الإيطالية المنتمية لتيار الواقعية الجديدة، والتى أثرت تأثيرًا كبيرًا فى تطور الواقعية الاجتماعية الإسبانية. هذا بالإضافة إلى الانفتاح على الرواية الفرنسية، والإبداع الروائى فى الأمريكتين.

تطور «التيمات» الاجتماعية: لم يعد الروائيون يهتمون كثيرًا بموضوع الحرب الأهلية، بل انصرفوا عنها إلى الواقع المحيط بهم، وانكبوا على وصف ما يرونه. وأول رواية واقعية بعد الحرب هى رواية «الخلية» لكاميلو خوسيه ثيلا.

انتهاج دور النشر لسياسة أكثر انفتاحًا: وفى هذا السياق تجدر الإشارة إلى الدور المهم الذى اضطلعت به بعض دور النشر، وفى مقدمتها: إسباسا/ كالبى، وديستينو، وسيكس باررّال.

الجوائز الأدبية: يجمع النقاد على الإشادة بالدور الذى لعبته الجوائز الأدبية فى دفع مسيرة الرواية الإسبانية خلال حقبة الخمسينيات، وتقديم العديد من المبدعين المتميزين. وهكذا فإن جائزة «نادال» (التى تأسست فى عام ١٩٤٤)، وجائزة «بلانيتا» (١٩٥٢)، قد ساهمتا فى التعريف بالكثير من الكتاب الشبان الذين سيصبحون فيما بعد من أساطين الفن الروائى الإسبانى، ومن بينهم نذكر: كارمن لافوريت، وأنا ماريا ماتوتى، وميجيل دى ليبس، وسانتشث فيرلوسيو.

هذا بالإضافة إلى جائزة دار نشر «سيكس باررّال» التى تأسست فى عام ١٩٥٨ تحت اسم «بيبليوتيكا بريبى».

وقد ساهمت الملابسات السابقة فى تهيئة المناخ لنشأة جيل جديد من الروائيين، يُطلق عليهم النقاد: جيل منتصف القرن أو جيل الخمسينيات، وهذا لأن جلّ حيثيات الجيل الأدبى متوافرة فى أعضائه، ومن هذه الحيثيات تشير إلى: ولادتهم فى فترة زمنية محددة (من ١٩٢٤ إلى ١٩٣٦)؛ نشأتهم فى ظروف اجتماعية مماثلة؛ تكوينهم الثقافى المتشابه واطلاعهم على الآداب الأوربية والأمريكية؛ الصداقة المتينة التى تجمع بينهم؛ صدور بواكير أعمالهم فى تواريخ متقاربة...إلخ.

ولا يعنى ما تقدم أن هناك تماثلاً تامًا بين إنتاج كتّاب هذا الجيل، لأنه توجد بينهم اختلافات تصل إلى حدّ الأهمية فى بعض الأحيان. وبناءً عليه فقد قام النقاد بتصنيفهم إلى مجموعتين أو تيارين، رغم التداخل الشديد بينهما: تيار «الواقعية الجديدة» وتيار «الرواية الاجتماعية»، والفارق الوحيد بينهما يكمن- طبقًا لهؤلاء النقاد- فى أن التيار الأول رغم تصديه الدائم والمستمر لتحليل المجتمع الإسبانى تحليلاً «سيسيولوجيًا»، فإنه يقتصر- فى الغالب- على عرض الحقائق دون نقدها؛ أما التيار الثانى فقد سدّ هذه الخُلّة، بمعنى أنه لا يكتفى بعرض الحقائق، بل يقوم أيضًا بنقدها والتعليق عليها.

وينضوى تحت لواء التيار الأول هؤلاء الكتّاب: كارمن مارتين جايتى، وأنا ماريا ماتوتى، وإجناثيو ألديكويا، وخيسوس فرنانـدث سانتوس، وسانتشث فيرلوسيو.. أما قائمة التيار الثانى فتضم: أنطونيو فيرّيس، وأرماندو لوبث ساليناس، وكابايير و بونالد، وخوان مارسى، وألفونسو جروسّو، وخيسوس لوبث باتشيكو، وخوان جارثيا أورتلانو.

*** الخصائص العامة لواقعية الخمسينيات بتياريها:**

على الرغم من الرؤية النقدية السابقة التى تتحدث عن تيارين فى الإنتاج الروائى لجيل الخمسينيات، فإن الواقعية عند كليهما تتميز بجملة من السمات والخصائص المشتركة، ومن بينها تجدر الإشارة إلى ما يلى:

ـ تمحور «تيمات» هذا النوع من الرواية حول المجتمع وقضاياه.

ـ الاهتمام بالمضمون وتصدره لقائمة الأولويات بالنسبة للمؤلف، واحتلال الشكل اللغوى والتكنيك الروائى للمراتب التالية.

ـ يكون المؤلف مجرد ملاحظ وناقل للواقع المحيط به، على غرار التكنيك السينمائى، فهو يحكى ما يرى وما يسمع، ويختفى تمامًا من الحكاية، انطلاقًا من الرغبة فى الموضوعية، وإن كان هذا ظاهريًا فحسب.

ـ أن البطولة فيها تكون جماعية وليست فردية: أى إن عددًا كبيرًا من الشخصيات هو الذى يتولى تمثيل المجتمع المعنىّ بالحديث. وهذا مع الأخذ فى الاعتبار بأن البطولة الجماعية لا تسمح بسبْر أغوار الشخصيات، لأن النظر إليها يكاد يقتصر على المظهر الخارجى.

ـ يحظى الحوار (الديالوج) بأهمية تفوق الحدث، بحيث يمكن من خلاله التعرف على الشخصيات ومستواها الاجتماعى والثقافى، والتعرف أيضًا على تنامى الموضوع.

ـ وعلى الصعيد البنيوى، نجد أن الرواية الاجتماعية تتميز بالبساطة، لأن الحكاية فيها تتطور فى خط أفقى (التسلسل الزمنى للأحداث)، وتكون مصحوبة بالوصف الضرورى الذى لا غنى عنه. هذا بالإضافة إلى أن أحداثها تتطور فى مجال زمنى قصير.

٢ – المؤلف والرواية:

(أ) **المؤلف:**

مؤلف الرواية التى بين أيدينا هو الكاتب الإسبانى «رفائيل سانتشث فيرلوسيو»، المولود بالعاصمة الإيطالية روما فى الرابع من

ديسمبر عام ١٩٢٧. وهو من أم إيطالية، تزوجها أبـــوه «سانتــشث ماثاس» عندما كان يعمل مراسلاً صحفيًا بإيطاليا...

درس كاتبنا الفلسفة والآداب، وكان متزوجًا بالروائية المعروفة: كارمن مارتين جايتى (١٩٢٥-٢٠٠٠).

صدر كتابه الأول، الذى يحمل عنوان:«حيل وألاعيب ألفانوى» فى عام ١٩٥١، وهو كتاب يصعب تصنيف جنسه الأدبى، وإن كـــان المؤلف يصفه فى الإهداء الذى يتصدر الكتاب بقوله: «إنهـــا حكايـــة مليئة بالأكاذيب الحقيقية».

وفى عام ١٩٥٦ نشر روايته الرائعة «نهر الخراما»، الحـــائزة على جائزة «نادال»، الشهيرة. وبعد إصدار هذه الروايـــة انـــصرف فيرلوسيو عن الإبداع الروائى لمدة عشرين عامًـــا تقريبًـــا، عكـــف خلالها على التأليف العلمى واللغوى، الذى أسفر عـــن العديـــد مـــن العناوين المهمة فى كلا المجالين.

(ب) الروايـة:

لاشك أن رواية «نهر الخَراما»، التى انتهـــى المؤلـــف مـــن كتابتها فى شهر مارس من عـــام ١٩٥٥، وحـــصلت علـــى جـــائزة

«نادال» فى العام نفسه، ثم نُشرت فى العام التالى (١٩٥٦)، تعتبر من المعالم الخالدة للأدب الإسبانى فى القرن العشرين. ويجمع النقاد على أنها من أفضل الروايات التى صدرت فى ذلك القرن، بل إن البعض منهم (مثل الناقد **Riley**، وآخرين) يعتبرونها الأفضل على الإطلاق. ولأهمية هذه الرواية فقد أُعيد طبعها عشرات المرات فى دور نشر مختلفة، كما تُرجمت إلى كل لغات العالم الحيّة (ولكنها لم تترجم إلى العربية قبل الآن، رغم مرور زهاء ستين عامًا على صدورها، وقد يكون هذا بسبب صعوبة اللغة المكتوبة بها)، وتحولت أيضًا إلى أكثر من فيلم سينمائى.

والقيمة الحقيقية للرواية (والتى نالت على أساسها الأفضلية المطلقة على بنات جنسها) تكمن فى مَعْلَمين أساسيين:

- اللغة العامية المستخدمة فى الحوار، والتى وصلت إلى درجة من الإتقان لم تُعهد من قبل؛ وهذا لأن المؤلف ليس مجرد ناقل لها من الواقع المحيط به، بل إنه أعاد تصنيعها وقولبتها – ببراعة فنية منقطعة النظير – لتصبح جزءًا لا يتجزأ من الشخصيات المتحاورة، بحيث لا ينطق بها سوى تلك الشخصيات، ولا يمكن أن تصدر عن غيرها.

- أما المَعْلم الثانى فيخص الدقة المتناهية فى وصف عناصر الطبيعة والمشاهد الروائية، باقتضاب واقتدار، وبلغة متشامخة تهتك أستار الإعجاز.

أما بالنسبة لمضمون الرواية فهو شديد البساطة: إذ ينقل لنا الكاتب وقائع رحلة قام بها أحد عشر مدريديًا، ما بين شاب وفتاة، ينتمون إلى أسفل السلّم الاجتماعى، لقضاء عطلة يوم أحد من شهر أغسطس القائظ على شاطئ نهر الخراما، بالقرب من قرية «سان فرناندو دى هنارس»، التى تبعد عن العاصمة مدريد بحوالى ستة عشر كيلو مترًا. ويقضى أبطال الرواية النهار كله تقريبًا دون حدوث شىء يلفت الانتباه، إذ يقتصر نشاطهم على ما يتم عادة فى مثل هذه الرحلات: يشربون، ويأكلون، ويستحمون، ويتحدثون، ويرقصون، ويتحابون، ويتخاصم البعض منهم كذلك... ولكن هذه المشاهد العادية الرتيبة، والغاصّة بالحوارات التافهة، تنقلب فجأة رأسًا على عقب، عندما تغرق إحدى الفتيات فى النهر مع حلول الليل.

ولا يقتصر عدد الشخصيات على الأحد عشر فتى وفتاة، بل إن عددًا مماثلاً تقريبًا من الأصدقاء المدريديين ينضم إليهم بعد فوات

العصر بقليل؛ ناهيك عنِ مجموعة أخرى من الشخصيات (يصل عدد أفرادها إلى حوالى سبعة وعشرين فردًا) تتمثل فى زبائن وروّاد خان«موريثيو» الذى قصدته المجموعة الأولى صباحًا وتركت فيه أمتعتها ودراجاتها. وهذا بالإضافة إلى مجموعات أخرى من المصطافين وممثلو العدالة والشرطة...إلخ. أى إن هناك حشدًا هائلاً من الشخصيات، موزعًا على أماكن متعددة، حيث تجرى الأحداث متزامنة، وأبرز هذه الأماكن ثلاثة: شاطئ النهر، واستراحة أو خان موريثيو، وخان السيدة أوريليا.

الواقعية وتجلياتها التقنية فى الرواية:

- من الإشارة السابقة إلى أعداد الشخصيات يمكن التأكيد على أن سمة البطولة الجماعية تتجلى بشكل واضح فى هذه الرواية، التى تتسبب كثرة شخصياتها أحيانًا فى جعل القارئ يشعر بالارتباك فى تحديد هوية المتحاور، وخاصة عندما يضرب المؤلف صفحًا عنها فى بعض المواقف التى تشهد حضور العديدين منهم.

- وعلى الصعيد البنيوى، نجد أن الحكاية تسير فى خط أفقى (التسلسل الزمنى للأحداث). كما أن الرواية ليست مقسمة إلى

فصول أو أجزاء، بل تتوالى فيها الأحداث التى تجرى بأماكن متفرقة وفى توقيت واحد، ولا يفصل فيها بين حدث رئيسى وما يليه سوى مسافة بيضاء (خالية من الكتابة) توازى سطرين تقريبًا.

ومن أبرز تجليات الواقعية فى الرواية، الاهتمام الشديد بتأطير الزمان والمكان. وعلى صعيد الإطار الزمنى نجد أن الكاتب قد استعان بكل الوسائل لتسليط الضوء عليه وتحديده بدقة، ومن بين هذه الوسائل نشير إلى:

- قيام المؤلف بتصدير روايته بنص لليوناردو دافنشى عن الزمن، يقول فيه: «المياه التى نلمسها فى الأنهار- هى اللاحقات للواتى مضين- والأوليات لمنْ هنَّ قادمات- وهكذا يكون يومنا الراهن»
- أن أحداث الرواية (التى تناهز صفحاتها الأربعمائة) تستغرق فترة زمنية، قصيرة ومحددة (ست عشرة ساعة): من التاسعة إلا ربعًا من صباح يوم أحد، إلى ما قبل الواحدة بعد منتصف الليل بعشر دقائق. وفى هذا السياق توجد إشارات مباشرة إلى الوقت (كأن يسأل أحد ما عن الساعة، فيرد عليه آخر بذكرها له)، ويصل عدد هذه الإشارات المباشرة إلى ست عشرة مرة فى ثنايا الرواية.

ولم يكتف الكاتب بالإشارات المباشرة للوقت، بل استعان أيـضًا بعنصرين أساسيين من عناصر الطبيعة، وهمـا: الـشمس (نهـارًا) والقمر (ليلاً)، حيث قام برصد حركتهما وانعكـاس نورهمـا علـى الكائنات وعناصر الطبيعة الأخرى (من أشجار، وسـهول، وتـلال، ووديان، وصفحة النهر...إلخ).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القمر الذى يظهر فى الأحداث هـو البدر، أى القمر الكامل لمنتصف الشهر، الذى يظهر مع بداية الليـل ويختفى بنهايته، بمعنى أن دلالته الزمنية تستغرق الليل كلـه، كمـا تستغرق الشمس النهار.

وهكذا، فلا يكاد يمر حدث من الأحداث إلا ويحمل بين تلافيفـه إشارة تربطه بالوقت، سواء كانت هذه الإشارة مباشرة (عن طريـق الساعة) أم غير مباشرة (عن طريق وصف مظاهر الطبيعة).

أما بالنسبة للإطار المكانى فهو محدد بشكل بارز ومكثـف، لأن الأماكن التى تجرى فى كنفها الأحداث (النهر، القرى، الاسـتراحات أو الخانات، الطرق، الوديان، السهول...) معروفة وثابتة جغرافيًـا؛ بل إن المؤلف يقوم- إضافة إلى هذا- بترسيخ معالمها وهيئاتها مـن خلال وصفه الدقيق لجزئياتها ومكوّناتها الصغيرة، التى قـد تخفـى على سكانها أنفسهم.

كما لجأ الكاتب أيضًا إلى تقنية مبتكرة، ساهمت إلى حدّ كبير في خلْع عباءة الواقع الجغرافي، المحدد والثابت، على الإبداع الخيالي، ونعني بها وضْع أحداث الرواية كلها بين فقرات من كتاب جغرافيا حقيقي (كتاب: الوصف الطبيعي والجغرافي لمحافظة مدريد، للمؤلف كاسيانو دي برادو، الصادر في مدريد، عام ١٨٦٤) تتعلق بالوصف الجيولوجي والطبيعي لمنبع نهر الخراما، وخط سيره حتى المصبّ.. وقيام المؤلف بوضْع الفقرات التي بدأ بها بين قوسين، ثم وضْع الفقرات التي ختم بها بين قوسين أيضًا، مسبوقين بثلاث نقاط، يعني استمرارية النص الجغرافي من بداية الرواية إلى نهايتها، وهذا في حدّ ذاته بمثابة تأكيد على النص/ الإطار.

* اللغة المستخدمة ومستوياتها:

أشرنا من قبل إلى انكباب فيرلوسيو على الدراسات اللغوية، والذي أسفر عن عناوين المهمة في هذا المجال، كما أشرنا إلى أن إحدى الميزات الأساسية التي تتمتع بها الرواية تكمن في اللغة المكتوبة بها. وهذه اللغة تضم مستويين مختلفين ومتباينين تمامًا: اللغة الدارجة التي يستخدمها المتحاورون المنتمون إلى الأوساط

الشعبية (ريفية كانت أم حضرية)؛ واللغة الفصحى التي يستخدمها الراوى/ الكاميرا فى وصف الأحداث ومشاهد الطبيعة.

- ويتمتع المستوى الأول بأهمية مطلقة، لأن الحوارات بلغتها العامية تستحوذ على حوالى ٨٠% من جملة الرواية. وتتجلى فى هذه الحوارات معظم السمات والخصائص المميزة للغة العامية الدّارجة، وسوف نقتصر فيما يلى على الإشارة إلى أبرزها:

- خاصية الشفّاهة: إذ إنّ الحوارات عادة ما تكون مصحوبة بإيماءات، سواء من الرأس أو الوجه أو الفم أو اليدين...إلخ. هذا بالإضافة إلى عنصر الصوت وطبقاته (هامس، منخفض، عالٍ...)، ونغمته (حادة، رخيمة، رقيقة، باكية، تصالحية، توافقية...). ولا يكاد يخلو موقف فى الرواية من هذين العنصرين، اللذين يعمد الرّاوى إلى بيانهما وإثباتهما فى جملة اعتراضية (بين شرطتين).

- الإسراف فى استخدام النداء وصيغة التعجب بعلامتها المعروفة، والتى تنم عن انفعال المتحدث.

الانتقال فجأة، ودون سابق إنذار، من ضمير المتكلم إلى المخاطب، والعكس.

إلحاق أداة التعريف (ال) بالأسماء الأعلام، مثل إلتشاماريس، الأنيانو، الكارميلو...

الاستخدام المفرط للتكئات (**comodines**) اللغوية؛ وهى عبارة عن كلمة، أو أكثر، لا تربطها أية علاقة دلالية بفحوى الجملة، يبدأ بها المتحاور كلامه، وكأنه يستعد بها للشروع فيما يريد قوله.

ولا تكاد تخلو بداية أى حوار من إحدى هذه التكئات، ومن أكثرها شيوعًا فى الرواية هاتين:**Bueno** (حسنًا)، **Pues** (إذن).

اللجوء المستمر إلى الحذف والإضمار، والسكوت فى أحيان كثيرة عن تكملة العبارة، اعتمادًا على فهم الطرف الثانى للمعنى المقصود. وفى هذه الحالة تتم الإشارة إلى المسكوت عنه بثلاث نقاط.

الانعتاق من القواعد الصارمة للغة، مما ينجم عنه خلو الجمل من الروابط وغياب الترتيب المنطقى المتعارف عليه لأجزاء الجملة، وهذا يؤدى إلى صعوبة فهمها، وبالتالى صعوبة ترجمتها إلى نص مقروء، مستوفٍ لمبادئ النحو والصرف وعلم التراكيب.

- وعلى صعيد المفردات نجدِ كمًّا هائلاً من الألفاظ والتعابير المغرقة فى المحلية؛ فضلاً عن استخدام المتحاورين المفرط لضمائر الإشارة فى كثير من المواقف، سواء كان بغرض تفادى التصريح بالمشار إليه أو توخيًا للإيجاز.

ومن اللافت للنظر أيضًا التوسع الكبير فى استخدام لفظة «شىء» وجمعها «أشياء»، وهى لفظة مبتذلة ومستهلكة، يطلقها محدودو الثقافة على كل ما لا يهتدون إلى معرفة اسمه المحدد والصحيح، سواء كان يتعلق بأمر مادى أو معنوى.

- أما بالنسبة للغة الفصحى التى يستخدمها الراوى/ الكاميرا فى وصف المشاهد وعناصر الطبيعة (المتجهمة والشرسة فى معظم الأحيان)، فنجد أيضًا أنها لغة متفردة فى بابها؛ وهذا لأنه يختار الكثير من المفردات الغريبة المهجورة، والتعابير والمصطلحات الموحشة؛ ولا يلقى بالاً للقواعد التراثية للغة؛ ولا يهتم بالترتيب المنطقى لأجزاء الجملة (الطويلة عادة)؛ ويُكثر من الجمل الاعتراضية التى تعوق الفهم؛ ويضرب صفْحًا عن أدوات الرّبط بين الجمل أو بين أجزاء الجملة الواحدة؛ ويكتفى أحيانًا

بذكر النعوت دون الأفعال...إلخ. وبالطبع فـإن هـذا متعمـد ومقصود من جانبه، وأنه يسعى من ورائه لتحقيق هـدف مـا. ويكمن هذا الهدف – من وجهة نظرنا – فى استبدال الوصـف الشخصى بالتصوير الفوتوغرافى؛ ومن المعروف أن الكـاميرا آلة غير عاقلة، لا تقع على الأشياء بطريقة ممنهجة ومنطقيـة. إنه يريد أن نتعرف على ما تنقله الكاميرا من خلال المـشاهدة المباشرة التى لا تحتاج إلى ضوابط قواعدية، وليس عن طريق القراءة أو الاستماع.

ويتضح من هذا التقديم الموجز– المقصود بـه فحـسب تمهيـد الطريق أمام القارئ العزيز– أن رواية «نهر الخراما» بمثابة منبـع ثرّ، وأنها حافلة بالجوانب الخصبة العميقة التى يحتاج جلاؤهـا إلـى عدد غير قليل من الصفحات، ومن ثمّ فإن احتلالهـا لقمـة الإبـداع الروائى الإسبانى خلال القرن العشرين لا ينبع من فراغ..

أ.د. على عبد الرءوف البمبى

(صناديد مركز طنطا)

فى أكتوبر ٢٠١٢

المياه التى نلمسها فى الأنهار
هى اللاحقات للواتى مضين
والأوليات لمن هنّ قادمات؛
وهكذا يكون يومنا الراهن.

ليوناردو دافنشى

نهر الخراما



[سوف أقدم وصفًا موجزًا لهذه الأنهار وفقًا لترتيبها، بادئًا بنهر الخراما: منابعه الأولى موجودة فى المنطقة الأردوازية الجرانيتية بالمنحدر الجنوبى لجبال "سومس سييرّا"، بين قمتى «ثيبوييرا» و«إكسكومونيون». يجرى ملامسًا محافظة مدريد عند «أوزْيولة» وطواحين «مونتيخو دى لا سييرّا» و «برادنا دل رينكون»؛ ثم يدخل بعد ذلك محافظة «وادى الحجارة»، مجتازًا ألواحًا أردوازية سيلوريّة حتى يصل إلى الدير الذى كان يُعرف بـ «بونابال». وبعد ذلك يخترق، فى مسيل ضيق للغاية، القطاع الجيرى الطباشيرى- وهو امتداد لقطاع «بونتون دى لا أوليبا» المتجه من «تاماخون» نحو «سيجوينثا»، مارًا بـ «كونجوسترينا»-. وبعد«بونتون دى لا أوليبا» بقليل يتحد مع نهر«لوثويا»، ثم ينحرف بعد ذلك جهة الجنوب مُشكلاً غوطة «تورّى لاجونا»، تاركًا إلى اليسار «أوثيدا» التى تعلوه بثمانين مترًا، حيث توجد قنطرة خشبية. وهو يشكل خطًا فاصلاً بين المحافظتين منذ النقطة التى يلتحم فيها مع نهر «لوثويا». وقبل عدة كيلومرات من «إسبرتال»، وعند قطاع الرمال الطوفانية التى ترجع إلى العصر الجيولوجى الرابع، يتوغل

فى محافظة مدريد، حيث تشرد مياهه فى مسيل حائر، لا تستفيد منه الزراعة. وفى «تلامنكا» فحسب، أمكن الاستفادة من مياهه فى عمل مَسْقى قصير جدًا لإدارة طاحونة بحجرين. وفى «تلامنكا» نفسها توجد عليه قنطرة، لا نفع منها حاليًا، لأن النهر رفضها منذ سنوات جَدّ بعيدة وشقّ لنفسه طريقًا آخر. وفى المسافة الفاصلة بين «تلامنكا» و«باراكويّوس»(*) يتم اجتيازه بقوارب من شتى الأنواع؛ أما فى «بيبيروس» - التى تبعد ستّة عشر كيلومترا عن مدريد - فتوجد عليه قنطرة يمر عبرها طريق أراجون/ قطلونية...]

ـــ هل تأذن لي بفتح الستارة؟

كان يجلس بالطريقة نفسها دومًا: ظهره ناحية ظلمة الحائط الخلفى؛ ووجهه ناحية الباب، باتجاه الضوء. أما طاولة البار فهى ممددة على يساره. كان يضع الكرسى بحيث يكون أحد جنبيه ملاصقًا للحائط حتى يتمكن من الاعتماد بذراعه الأيمن على مستده، ووضع ذراعه الأيسر على طاولة البار. وهكذا فقد كان

(*) الأعلام الجغرافية الواردة من قبل تقع جميعها فى محافظتى مدريد ووادى الحجارة – المترجم.

يُدخل نفسه فى المكان وكأنه يدخل كوّة مطوّقًا جسده من ثلاثة جوانب، وتاركًا الجانب الرابع للضوء. كان يريد أن يبقى الطريق أمام وجهه مفتوحًا، ولم يكن يطيق أن تقطع عليه الستارة النظر إلى خارج الباب.

ـ هل تأذن لي بفتح الستارة؟

وافق صاحب الخان(*) بإيماءة من رأسه.كانت الستارة عبارة عن نسيج كتانىّ ثقيل، من قماش الأكياس.

سرعان ما عُرف عنه هذا الهَوَس، وفور جلوسه ذات صباح فى ركنه المعتاد، كان صاحب الخان هو الذى بادر شخصيًا بفتح الستارة، دون أن يطلب الآخر ذلك منه. وقد قام بهذا الآن، ولكن بطريقة متكلفة، بإيماءة تلميحية، مما جعل الآخر يحس بالإهانة.

ـ لو أن فتح الستارة يضايقك، فما كان عليك سوى قوله، كى أنصرف للشرب فى مكان آخر؛ ولكن تصرفك اللاذع هذا ليس بالطريقة المثلى للرد علىّ.

(*) الخان (venta) هو نُزُل أو استراحة أو فندق متواضع على الطريق، وصاحبه يُسمى (ventero) – المترجم-.

ـ ولكن، يا رجل، لوثيو، ألا يمكن الهزار معك ولــو بمزحـــة جـدّ ضئيلة؟ لا يضايقنى، يا رجل؛ بسبب الذباب لا غير، ونحــن الآن فى الصيف؛ ولكن الأمر سواء بالنسبة لي، مادمت مرتاحًا هكذا. يتملكنى العجب فحسب من هواك فى النظر إلى الخارج. ألــست ضجرًا من رؤيته؟ هذه الشجرة نفسها دومًا وهذه الفِلْقة الــصغيرة من الطريق وهذا السور الطينى.

ـ المسألة لا تتعلق بما يمكن أو لا يمكن رؤيته. لا أدرى حتى إذا ما كنت أراه؛ ولكن يروق لي أن يكون مفتوحًا، نزْوة أو ســمِّها مــا شئت. أمّا على الوجه الآخر، فمما يجعل الصدر ضيقًا حرجًــا ألا تدرى ماذا تفعل بالعينين أو أين تضعهما. وفــضلاً عمــا تقــدم، تعجبنى رؤية منْ يمر.

ـ رؤية منْ لا يمر، تريد أن تقول.

صمت الاثنان. ساعدا صاحب الخان المشعران على طاولة البار، والتقل الكامل لنصفه العلوى فوقهما. على أسمنت الأرضية كــان يضطجع شريط من شعاع الشمس. عندما تناهت صافرة القطــار إلى مسمعيه، تحدث صاحب الخان:

ــ إنها التاسعة إلا ربعًا.

غيّر الاثنان من وضعهما بشكل طفيف لا يكاد يُحس. جاء من الداخل صوت امرأة:

ــ لتطلب من هذا، عندما يأتى، البقاء هذا المساء للخدمة فى الحديقة، لأن خوستينا لا تستطيع. سوف يأتى خطيبها فى الرابعة لاصطحابها.

أجاب صاحب الخان باتجاه الدهليز القادم منه الصوت:

ــ وهذا(*) أيضًا يمكنه اختيار يوم وسط الأسبوع للخروج معها. تعرفين أننى أحتاج خوستينا هنا أيام الآحاد.

دخلت المرأة، ورأسها مائلة، «تُعافر» بالمشط فى أنشوطة مِن شعرها الضارب إلى الشُّهبة، قالت:

ــ لم تذنب الصبية(**) حتى تبقى هنا «للمرمطة» كل أيام الآحاد؛ لها الحق أيضًا فى الذهاب إلى السينما.

(*) هذا (Éste) ضمير إشارة، يُراد به خطيب الفتاة، والإشارة هنا تحمل معنى تحقيريًا – المترجم

(**) من المشهور بين الأصدقاء والأقارب ونحوهما (لاسيما فى الأوساط الشعبية) النداء على الشاب بلفظة "يا بنى، يا طفل، يا صبى..." وعلى الشابة بلفظة "يا بنتى، يا طفلة، يا صبية..." ومعظم أحداث الرواية تدور بين أصدقاء وصديقات (من مختلف الأعمار)، من الطبقة الشعبية، ومن ثمّ فمن الطبيعى استخدامهم للشائع فى اللغة العامية – المترجم

ـ لا أحد يسلبها حق الذهاب إلى السينما. أقول فحسب، ليفعلا هـذا في يوم آخر.

ـ وهل لدى الآخر، في يوم عمل، وقت يسمح له بالقدوم من مدريـد والعودة إليها بصحبة الفتاة، إذا كان يغادر العمـل فـي الـسابعة والنصف، أو بعد ذلك بكثير؟

ـ حسنًا، يا امرأة، لم أقل شيئًا. ليفعلا ما يحلو لهما.

فكّت المرأة أنشوطة شعرها، وتتجه إلى زوجها الآن، وهي أكثـر حرية، بنبرة مغايرة:

ـ وفضلاً عما تقدم، فهو إذا كان يخرج معها يوم الأحـد بالتحديـد فلأنه لا يعجبه قيام الفتاة بالخدمة في الحديقة لتتحمـل مـضطرة نظرات الزبائن وفظاظتهم. وفي هذا أعطيه الحق كله.

ـ آه، الأمر لا يعجبك إذن؟ ومن يكون هو لكي يحدد مـا يجـب أن تفعله ابنتي أو لا تفعله؟ يا فرحتي! سيعلمني الآن كيف أربيها.

ـ أنت في حاجة إلى هذا! نعم. لو كنت تفهم ما تعنيه فتاة ما تمسكت بها هنا، كي تتنقل من مائدة إلى أخرى، وكأنهـا صـبي حانـة.

ينقصك أن تعلم ولو لمرة واحدة أن الفتاة هى أمر شائك- كانت تتناقش مع زوجها عبر طاولة البار، وتلوّح بالمشط الكبير الأسود أمام وجهه-. يبدو حتى كذبًا، يا موريثيو، أنك تتجاوز الحد بهذا الشكل مع ابنتك. يسرنى أن يخرج معها، وأنا أمتدح رغبته فى هذا، ها قد رأيت.

ــ هيا، سوف يحولنا جميعًا إلى سادة.

كان لوثيو ينظر بالتناوب إليهما.

ــ لا سادة ولا غيره. ستخرج الفتاة اليوم، انتهى الأمر.

دلفت إلى الداخل للانتهاء من تسريح شعرها. نظر موريثيو إلى الآخر ثم هزّ كتفيه. نظر الاثنان بعد ذلك ناحية الباب. قال موريثيو متنهدًا:

ــ نخترع لأنفسنا هنا شيئًا جديدًا كل يوم.

صمت الاثنان. اتسع قليلاً مستطيل الشمس ذاك، وانعكس على السقف. كان الذباب يطنّ فى ومْضَة التراب والضوء. غيّر لوثيو من وضعه ثم قال:

ـــ سيأتى اليوم أناس إلى النهر.

ـــ نعم، أكثر منِ الأحد الماضى، على ما أظن. مع اشتداد وطأة الحرّ هذا الأسبوع...

ـــ لابد من أن يأتى اليوم أناس كثيرون، صَدِّقْنى.

ـــ إذا كنا فى الريف والحرّ لا يهمد، فما بال مدريد إذن؟

ـــ سيكون النهر حافلاً بالناس.

ـــ لابد أن درجة الحرارة كانت ثلاثين وخمسًا وثلاثين، أمس وأول أمس.

ـــ نعم، سيأتون اليوم، لابد أن تأتى اليوم جموع من البشر للاستحمام فى النهر.

نتائج العام الكرتونية كانت تُبدى ألوانها الصارخة. الانعكاسات المنبعثة من الأرض، من بقعة الشمس، كانت تتلاشى فى الظلال وتجعلها لامعة وضّاحة، مثل جلاء المقاصف. تألق على الأرفف البللور المختال لزجاجات العَرَقىِّ و«الأنيس»(*) البيضاء، التى

(*) العرقى والأنيس (Anís) من المشروبات الكحولية؛ والمشروب الأخير بطعم ورائحة اليانسون- المترجم.

تعرض مربعاتها الصغيرة، مثل أحجار كريمة، وأجسادها السلحفية الشفافة. رضّات، وحزوز، وأنشوطات، وخشونات، وآثار أكواب، كانت ترتسم على طاولة البار الخشبية، الممسوحة بعناية. كان موريثيو يتسلى باقتلاع خيط حلفاء أصفر، ظل متدليًا من أحد المسامير. ثمة صابون وأوساخ كانا عالقين فى الفُرج الموجودة بين الألواح. كانت العروق الخشبية الأكثر مقاومة للتآكل ظاهرة فى الألواح، وظل سطحها المتموج مرسومًا على ساعدىّ موريثيو. تسلّى بعد ذلك بالنظر إلى الرسم، وشرع فى هرش الجلد المحمرّ بتلذذ. كان لوثيو مشغولاً بما يهمه. كان يرى من إطار الباب أرضًا داكنة ومزارع زيتون، وبيوت القرية على مسافة كيلومتر، والأطلال البارزة للمصنع القديم. وعلى الجانب الآخر كانت هناك الأراضى المتموجة التى تصل إلى الأفق ذاته، والمستتر خلف شريط واطئ متسخ، كأنه لضباب، أو لتراب وغبار البيادر. ومن هنالك إلى الأعالى، السماء ملساء، رابطة الجأش، مثل صلب درع، دون أدنى خلل بالنظام.

غطى ذلك الرجل الباب كاملاً بكتفيه. كان قد نظر إلى جهة وإلى الأخرى فى اللحظة التى همّ فيها بالدخول. أظلم المكان عند اجتيازه للفجوة.

ـــ فى أى مكان أترك لك هذا؟ صباح الخير.

كان يحمل على جانب من العنق لوحًا من الثلج، ملفوفًا بخيش.

ـــ أهلاً، ديمتريو. اتركه هنا مؤقتًا؛ ينبغى تكسيره أولاً. أحضر الألواح الأخرى قبل أن تأكلها الشمس.

ساعده موريثيو فى فك لفافة الخيش. عاود الآخر الخروج. بحث موريثيو عن مطرقته فى كل الأدراج. دخل ديمتريو مرة أخرى باللوح الثانى.

ـــ أين تركت عربة الكارّو، لم نسمعك؟

ـــ فى الظل. (كنت عايزنى أسيبها فين؟).

ـــ استغربت. هل أحضرت أيضًا الصناديق؟

ـــ نعم، اثنين؛ صندوق بيرة، والآخر مياه غازية؛ ألم يكن هذا؟

ـــ كان هذا، نعم. اذهب لإحضار اللوح الآخر، سوف يذوب. هذه المطرقة اللعينة! فاوستينا! هنا، يأخذون منك الأشياء من مكانها وبعد ذلك لا يتجشمون عناء إعادتها إلى حيث كانت. فاوستينا!

رفع رأسه فوجدها أمامه.

ـــ ماذا تريد؟ أنا هنا. يكفى النداء علىّ مرة واحدة، لست صماء.

ـــ آه، أين وضعتم المطرقة، أود أن أعرف.

ـــ لو يعضك كلب– أشارت إلى الأرفف–. انظر إليها.

ـــ تضعونها فى أماكن، أعوذ بالله! وما فائدة الأدراج؟

ـــ تريد شيئًا آخر؟

ـــ لاااا(*).

لمست فاوستينا أثناء خروجها كتف لوثيو وأشارت بإصبعها الإبهام إلى الخلف، ثم همهمت:

ـــ ها قد عرفته.

غمز لوثيو بعينه وهزّ ظهره. وضع الحوذىّ لوح الثلج الأخير إلى جوار الألواح السابقة.

ـــ لا تحضر الصندوقين الآن. ساعدنى فى تكسير الثلج، من فضلك.

(*) حرف اللين أو المتحرك فى أداة النفى "لا" (No)، مكرر هنا بهذا الشكل (Nooo)، ومن ثمّ لزم إضافة ما يقابله فى الترجمة. وسوف نجد فى مواضع أخرى قادمة من الرواية نماذج أخرى لإطالة نطق بعض الحروف فى كلمات كثيرة – المترجم–.

كان ديمتريو يمسك باللوح وموريثيو يهشمه ضـــربًا بالمطرقـــة. قفزت فِلْقة ثلج حتى موريثيو؛ نظر إليها وهى تذوب بسرعة فوق كُم سُتْرته إلى أن تحولت إلى نقطة صغيرة.

ــ خذ بالك، التكسير ليس على ما يرام، هكذا سيصبح الثلج مُجــزءًا أكثر من اللازم، يمكنك إحضار الصندوقين الآن.

خرج ديمتريو من جديد. تحدث لوثيو، مشيرًا إلى الباب:

ــ فتى طيب، هذا.

ــ ثقيل الظل بعض الشىء، لكنه طيب.على ضمانتى.

ــ لا يشبه والده. ذلك...

ــ لحسن الحظ أنه تركه يتيمًا فى الوقت المناسب.

ــ حظ!

ــ ما هو فيه وهو كبير، سببه التعاسة.

ــ ورغم بعض الزَّهْو الذى لديه، فإنك لو طلبت منه شيئًا ينجزه فـــى الحال، وكأنه يفعله لنفسه. آخرون، فى سنّه، يتطـــاولون عليــك، معتقدين أنك تستذلهم.

أعلن الخيال من جديد عن حضور ديمتريو.

ـــ أتساعدنى، يا سيد موريثيو؟

ـــ هات.

خرج صاحب الخان من وراء طاولة البار وساعده فى إنزال الصندوقين. ظلت الزجاجات ترنّ بعد ذلك لفترة ليست بالقصيرة، مثل الإوز، عند نقلها، واحدة بواحدة، من الصندوقين إلى صندوق الثلج. وضع موريثيو الزجاجة الأخيرة وصبّ لديمتريو كأسًا من العرقى.

ـــ لنرى إن كان بإمكانك العودة إلى هنا فى المساء كى تمد لي يد العون.

ـــ لقد رتبت أمورى على الذهاب إلى المرقص هذا المساء، يا سيد موريثيو؛ لو يمكنك تكليف آخر، سيكون أفضل.

ـــ فى إثر إحداهن تمضى أنت، عندما تنفق بضعة «دوروس»(*) على الرقص. لا عليك، لا حيلة لنا فى أمرك. ابنتى ذاهبة إلى السينما؛ لا أدرى لمنْ أتوجه بالطلب.

(*) (Duro) دورو، وجمعها دوروس: مسكوكة فئة خمس بيزيتات. وكانت هذه العملة من الورق، ثم أصبحت معدنية. ومن المعروف أن "البيزيتة" كانت هى العملة المستخدمة فى إسبانيا قبل "اليورو" – المترجم–.

ـ ليساعدك السيد لوثيو، إذن، فهو لا يفعل شيئًا على الإطلاق.

ـ لقد فعلت ما يكفى عندما كنت مثلك.

ـ ماذا فعلت؟ لنرى.

ـ أشياء كثيرة؛ أكثر مما فعلته أنت.

ـ أخبرنى بواحدة...

ـ أكثر منك.

ـ لا أعتقد.

ـ انظر، يا فتى، أنت لا تعرف شيئًا إلى الآن. أمامك الكثير حتى تتعلم.

ـ هيا، خذ ما يخصك ولا تشتبك مع السيد لوثيو. ثلاثة «دروس» فوق الطاولة. كان قد استخرجها من الدرج باليد المبتلة. نشفها بعد ذلك فى قطعة قماش. أخذ ديمتريو الورقات الثلاث.

ـ حسنًا، سيكون هذا فى يوم آخر. أتمنى لك التسلية والمتعة فى المرقص. سأتحمل قدر الاستطاعة المسئولية وحدى.

ـ سوف أترك العربة هنا، لأننى تأخرت. إلى اللقاء غدًا.

ـــ صحبتك السلامة.

عاد ديمتريو إلى شمس الطريق. قال موريثيو:

ـــ لن تجبره. إن ما يفعله لي يفوق بكثير ما ينبغى عليه عمله. تعتقد هذه(*) أن بإمكان الواحد أن يكون تحت تصرفه من يريد وعندما يريد. إذا كان يستهوى البُنَيّة الذهاب إلى السينما، فلهذا أيضًا الحق نفسه، لأن اليوم هو يوم أحد بالنسبة للجميع. لا يمكن تجاوز الحد مع الناس؛ وحصول أىّ واحد على بقشيش لا ينتقص من قدر المعروف الذى يقدمه لي والمتمثل فى بقائه هنا عطلة الأحد بطولها لخدمة الزبائن.

ـــ بالطبع. ولكن النساء يتصرفن فى كل شىء وكأنه متاع خاص بهن. حتى مع الأشخاص.

ـــ نعم، ولكنها، وعلى النقيض،لا تقبل أن يوجه أحد مجرد النظر إلى ابنتها، ألم تسمع ما قالته منذ قليل؟

ـــ إذا كان هذا هو طبعهن، فلن يستطيع أحد تغييره.

(*) هذه: ضمير الإشارة هنا يعود على زوجة صاحب الخان.

ـ سأعمل هذا المساء مثل عبد لأتمكن من تلبية الطلبات.

ـ بالتأكيد. سترى الجمهور المتدفق عليك اليوم. لم تصل الساعة إلى العاشرة بعد، وبدأ الحرّ يعلن عن نفسه.

ـ يا له من صيف! لا يوجد منْ يقاومه.

ـ هذا هو الأفضل لك، كلما اشتد القيظ امتلأ المحل أكثر.

ـ بالتأكيد. لو لم يكن من أجل أيام مثل هذا اليوم، ما استحق الأمر تقريبًا عناء تضييع الوقت خلف طاولة البار. ولكن كثرة الزبائن الآن لا تدانى كثرتهم فى السابق، ولا يمكن حتى القول إنها أقل منها بكثير؛ توجد الآن وبشكل مبالغ فيه مطاعم (استراحات)(*) متاخمة للنهر وللطريق العمومى. فيما قبل، كنت هنا تقريبًا لوحدى. أنت لم تعرف هذا المكان فى أزمانه الهانئة.

ـ ولكن الجميل فيه أنه أكثر انعزالاً.

ـ لا تعتقد هذا. أصبح الناس- ولا أدرى لماذا- يفضلون تلك الاستراحات، هكذا وسط الضجيج، بحيث يكون النهر والطريق

(*) Merendero: مطعم تقدم فيه وجبات خفيفة، أو مكان مخصص للأكل عند العصر. ويمكن أن يُطلق أيضًا على الاستراحة فى الطريق العام – المترجم-.

العام فى متناول أيديهم، لاسيما منْ لديه سيارته الخاصة، حتى لا يتجشم عناء السير فى هذا الجزء السيئ من الطريق.

ـ متى سيصلحونه نهائيًا؟

ـ مطلقًا.

بعد هبوب ريح واهنة ضئيلة، زحفت على الأرض بين الطريق والسور الطينى، تشكلت فى الحقول المحصودة دوّامة من غبار البيادر. تراقصت الدوّامة للحظة، مثل قمع ضخم، فى إطار الباب ثم خمدت هناك، تاركة خطها الحلزونى مرسومًا فى التراب.

ـ لقد هبّت الريح – قال لوثيو–.

دخلت خوستينا، قادمة من الدهليز.

ـ صباح الخير، يا سيد لوثيو. أنت هنا؟

ـ أشرقت الأنوار– أجاب ناظرًا إليها–. أهلاً، أيتها الجميلة.

ـ أبى، أعطنى ثلاثين بيزيتة.

نظر إليها موريثيو هنيهة، فتح الدرج واستخرج منه البيزيتات. نظر إلى ابنته مجددًا والنقود فى يده، ثم قال:

ـ انظرى، يا بنتى، أخبريها...

جاء من داخل البيت صوت. ردت خوستينا:

ـ أنا قادمة، يا أمى.

دخلت، تاركة أباها والكلمة على طرف لسانه والنقود فى يده. عادت فى التوّ تقريبًا.

ـ تقول أعطنى خمسينًا بدلاً من ثلاثين.

فتح موريثيو* الدرج ثانية وأضاف أربعة "دروس" للستة التى كانت معه.

ـ شكرًا، يا أبى، ماذا كنت ستقوله لي منذ لحظة؟

ـ لا شىء.

نظرت خوستينا إلى الاثنين، أعربت عن استغرابها بإيماءة من ذقنها وعينيها، ثم عادت للدخول.

دوّى صوت محرك، تم الضغط على دوّاسة البنزين مرتين ثم توقف الضجيج أمام الباب. سُمعت أصوات تحت الشمس.

ـ دعينى أساعدك.

ـ لا، لا، أنا وحدى، يا سيبَس(*)

أطلّ موريثيو. كانت تترجل من على موتوسيكل بصندوق جانبى فتاة ترتدى بنطالاً. اتجه نحو الاثنين.

ـ كيف حالك، يا فتى؟ مرة أخرى هنا؟

ـ انظرى، يا بولينا، ما زال يتذكرنا. كيف حال حضرتك؟

ـ وكيف لا أتذكركما؟ بخير، وأنتما.

ـ كما ترى حضرتك؛ لقضاء اليوم هنا.

كانت الفتاة ترتدى بنطالاً خاصًا بالرجال، وكبيرًا جدًا عليها، رجلاه مشمرتان من أسفل. وكانت تضع على رأسها منديلاً ذا لون أزرق وأحمر، ملفوفًا كالشريط حول صُدْغيها، وطرفاه متدليان إلى جانب.

ـ لكى تستمتعا بالريف، أليس كذلك؟

(*) "سيبَس": اختصار للاسم "سيبستيان". ومن المعتاد لجوء منْ تربطهم علاقة وثيقة (كالأصدقاء والأقارب مثلاً) إلى استخدام هذا الاختصار، كنوع من التدليل أو المحبة. وسوف نرى مثالاً آخر على هذا بعد أسطر قليلة، عندما يتم النداء على الفتاة "بولينا" بالاسم المختصر "بولى". وسوف يتكرر هذا مع بقية الأسماء فى الرواية – المترجم –.

ــ نعم يا سيدى؛ للاستحمام فى النهر.

ــ لا يطيق أحد البقاء فى مدريد هذه الأيام. ماذا تتناولان؟

ــ لا أدرى. ماذا تتناولين أنت، يا بولى؟

ــ تناولتُ فطورى قبل الخروج. لا أريد شيئًا.

ــ هذا لا يمنع، أنا أيضًا فطرت– توجه إلى موريثيو–. ألا توجد لديك قهوة؟

ــ أعتقد أنها جاهزة فى المطبخ. سأرى.

دلف إلى الدهليز. شدّت الفتاة زميلها من قميصه:

ــ يا لمنظرك!

ــ أيتها الفتاة، السفر على موتوسيكل متعة؛ لا تشعرين بالحرّ. وعلى خلاف هذا، فعندما تتوقفين تتسلقين. سيتأخر هؤلاء بعض الوقت.

ــ كان من المفروض أن يبكروا بالخروج أكثر من هذا.

دخل موريثيو ومعه الغلاّية:

ــ توجد قهوة. سأقدمها لك حالاً. هل جئتما أنتما الاثنان فحسب؟

وضع كوبًا.

ـــ أوى(*)، لا، كثيرون نحن؛ يأتى الآخرون على الدراجات.

ـــ حسناً. ضَعْ السكر الذى تريده. لم يكن معكما هــذا الموتوســيكل العام الماضى. هل اشتريتماه؟

ـــ إنه ليس ملكى. ومن أين لي بمثله؟ إنه من الجراج الــذى أعمــل فيه. رئيسى فى العمل يتركه لنا بعض الآحاد.

ـــ وهكذا لا تتكلفان سوى ثمن البنزين.

ـــ أجل.

ـــ مرحى، كنت أقول لنفسى: منْ كانوا هنا العام الماضى لم يعــودوا هذا الصيف، هل القادمون اليوم هم الذين كانوا هنا من قبل؟

ـــ البعض منهم جاء من قبل، والبعض الآخر لا تعرفه. نحــن أحــد عشر. أليس كذلك يا بولينا؟

ـــ الإجمالى أحد عشر– أكدت الفتاة لموريثيو–. أتدرى حضرتك أننا كنا اثنى عشر؟، ولكن واحدًا منا تخلت عنه صديقته فى اللحظــة الأخيرة. لم تسمح لها والدتها بالقدوم.

(*) أوى (Huy): صوت يُقصد به التعجب – المترجم–.

ــ مفهوم. وذلك الطويل، الذى كان يغنى بصوت رائع؟ أهو قادم؟

ــ آه، ميجيل– قال سيبس–. نعم، إنه آتٍ. يا لقوة ذاكرتك!

ــ كم كان غناء هذا الفتى رائعًا!

ــ ومازال يغنى. لقد مررنا عليه فى طريق باراخاس السريع، وتركناه هنالك فى الخلف. سوف يصلون بعد حوالى نصف ساعة من الآن، حسب تقديرى. أليست المسافة من هناك وحتى القنطرة هى ستة عشر كيلومترًا؟

ــ ومازالت ستة عشر كيلومترًا– وافقه موريثيو–؛ الموتوسيكل يذلل الصعاب، ويجعل من السفر متعة.

ــ نعم، التنقل بالموتوسيكل أكثر من رائع. وبعد ذلك، وعندما تتوقف، تشعر بمداهمة الحرّ بغتة. أمّا فى أثناء السير، فإن الهواء المنعش يداعب الوجه كله. اسمع، كنت سأقول لك... لن يكون لديك مانع، حقًا؟، فى أن نترك الدراجات هنا، مثلما فعلنا العام الماضى.

ــ يمكنكم فعل ما يحلو لكم. طلباتكم أوامر بالنسبة لي.

ــ شكرًا جزيلاً. وما حال النبيذ؟ هل هو نفسه أيضًا؟

ـ ليس هو نفسه، ولكنه أفضل تقريبًا. (يستاهل بُقّك).

ـ حسنًا؛ من المناسب إذن أن تملأ لنا... أربع زجاجات للفترة الصباحية.

ـ أنا رهن إشارتكم.

ـ أربع زجاجات، يا سيبس؟ أنت مجنون. وماذا سنصنع بهذه الكمية الكبيرة؟ ها أنتم تبادرون بالمبالغة.

ـ لا تتفوهى بأشياء غريبة؛ الزجاجات الأربع ستطير فى غمضة عين، حتى دون أن ندرى.

ـ حسنًا؛ دماغك ناشفة، بوسعك الشرب بحساب حتى لا تسكر، اتفقنا؟، تبدأون بعد ذلك فى ارتكاب الأخطاء ويتعكر صفو العطلة بالنبيذ المشئوم؛ ملعونة هى الحاجة إليه حتى لو كانت من أجل قضاء وقت طيب.

ـ لا داعى للضيق، أيتها الشابة- تدخل لوثيو طرفًا ثالثًا فى الحوار. دعيه الآن. ليغتنم الفرصة. النبيذ الذى يشربه اليوم سيظل بمثابة رصيد له عندما تتزوجان، ولذا فسوف تقل بالتأكيد الكمية التى سيشربها حينذاك بمقدار عدة أباريق.

ـ يوم الزواج سيكون يومًا آخر. ما يخص اليوم هو لليوم.

ـ لا تعيراه اهتمامًا– قال موريثيو–. إنه كائن خطير. أعرفه. لا تلتفتا إلى مشورته.

ـ هنا، يعرفون الواحد أكثر من اللازم– قال لوثيو، ضاحكًا–. وهذا مَكْمَن السوء. لا كرامة لنبى فى وطنه.

ـ جرّب إذن الذهاب إلى مكان آخر، لنرى إذا كانوا سيحتفون بك كما هو الحال هنا.

انتحى لوثيو بالشابة جانبًا، وقال لها بصوت خفيض، ومداريًا على الصوت بظاهر كفّه: «يقول هذا لأننى موضع ثقته؛ من أجل هذا فحسب، أتعرفين؟».

ابتسمت بولينا.

ـ ما هى الأسرار التى تُفضى بها إلى الفتاة؟ ألا ترى أن هذا يضايق خطيبها؟

كان سيبستيان يبتَسم أيضًا:

ـ هذا صحيح– قال–. أنا جدّ غيور...، ومن ثمّ احترس.

ـــ أوى، لقد تملكته الغيرة! يا سعدى يا هنائى!

كان سيبستيان ينظر إليها، جرّها من الكتفين نحوه.

ـــ تعالى هنا، تعالى هنا، يا طائر السّنونو. اسمعى: أنخرج إلى هنالك لرؤية ما إذا كان هؤلاء قد جاءوا؟

ـــ كما تريد. ما الساعة؟

ـــ العاشرة إلا خمسًا وعشرين دقيقة؛ إنهم علــى وشــك الوصــول. إلى لقاء قريب، أيها السيدان.

ـــ إلى اللقاء.

خرجا. تمشيا نحو مزلقان السكة الحديد. قالت بولينا:

ـــ يا له من رجل غريب! حذار، إنه يفعل أشياء صعبة بالوجه.

ـــ ماذا كان يقول لكِ؟

ـــ لا شىء؛ كلام لا أدرى ماذا عن أن الآخر يثق فيه. يا له من حرّ، يا فتى!

ـــ نعم، إنى أتحرق شوقًا لوصول هؤلاء، كى ألقى بنفسى فى المــاء سريعًا.

ـ حذارِ من ارتكاب حماقة الاستحمام قبل الحادية عشرة والنـصف؛ لأن هذا يضر بعملية الهضم.

ـ مرحى، لا تدخرين وسعًا فى العناية بى، يا بولى. ستكونين هكـذا عندما نتزوج؟

ـ وهل هذا يهمك؟ الأمر سواء بالنسبة لك، مادمت لا تحفـل بهـذه العناية، ولست أدرى حتى فى ماذا تفيدنى.

ـ ما تقولينه يفيد دومًا، يا زُهرتى(*). يسرنى ما تقولينه.

ـ عجبًا، وما الذى أستفيده أنا من كونه يسرك؟، إذا كنت لا تعمل به بعد ذلك.

ـ يزداد حبى لك: هذا ما تكسبينه. أيبدو لكِ قليلاً؟

ـ صحبتك السلامة، ألست مغرورًا بعض الشىء! يا للهول!

ـ أحبك؛ أنت شمسى.

ـ بالنسبة للشموس، لدينا الآن ما يكفي بواحدة، يا بنىّ. وبالطبع لسنا فى حاجة إلى شمس أخرى، لاسيما فى يوم مثل هذا. انظر: هـا هو القطار قادم.

(*) المقصود بـ "زُهرة" هنا الكوكب المعروف بهذا الاسم – المترجم–.

ـ هل نعدّ العربات؟

ـ يا للعنة؛ ولماذا؟

ـ هكذا، مزاج.

ـ زوج(*) ظريف- قال لوثيو-؛ ها هى الزبائن تتقاطر عليك.

كان موريثيو يشطف الزجاجات، قال:

ـ لقد أتيا إلى هنا العام الماضى. ولكن يبدو لي أنهما لم يكونا مخطوبين وقتذاك. لابد أن الخطبة تمت فيما بعد.

ـ الشىء الوحيد الذى يعيبها هو البنطال الذى ترتديه. شىء فى غاية القبح! لماذا يلبسون هكذا؟(**).

ـ من أجل ركوب الموتوسيكل، يا رجل؛ البنطال فى هذه الحالة أفضل، وأكثر تحشمًا.

(*) زوج (Pareja): يُراد به الزوج من الإنسان أو الحيوان أو الأشياء. واللفظة تُطلق على الخطيب وخطيبته، والزوج وزوجته، والصديق وصديقته... إلخ- المترجم.

(**) تدور أحداث هذه الرواية فى منتصف القرن الماضى (العشرين)، ومن ثمّ فقد كان من الغريب والمستهجن فى ذلك الوقت ارتداء الفتيات للبنطال، لأنه كان حِكرًا على الرجال – المترجم-.

ـ عجبًا. لا تعجبنى الفتيات اللاتى يرتدين ملابس على هذا النحو. إنها تبدو مثل الجندى المستجد.

ـ لأنه كبير عليها بعض الشىء؛ قد يكون بنطال أحد إخوتها.

ـ فتاة هذا الزمن لا تعتبر هكذا إلا بتنّورة جميلة؛ أمّا ما عدا هذا فإنه يشوّه الصورة. مدريد هذه لم يعد فيها ذوق؛ لا يعرفون الآن ماذا يرتدون.

ـ حسنًا، فى مدريد، تجد النساء مرتديات بذوق لم تشاهد مثله طوال حياتك فى القرى. يا لها من أقمشة ويا له من تفصيل ويا له كل شىء!

ـ هذا لا يمنع. ترى أيضًا مناظر فى غاية العجب. إنها فى نهاية المطاف المركز، عاصمة إسبانيا، وكل ما هو موجود يصب فيها؛ يجب أن يكون هناك، غصبًا، الأفضل والأسوأ.

ـ ومع هذا، فالأشياء الجيدة فى مدريد أكثر من السيئة.

ـ بالنسبة لنا، لمنْ ينتمون إلى الريف أمثالنا. ولكن هيا اذهب واسألهم عن الجيد هناك. وإن لم تفعل، فها هو النموذج. إنه ماثل لديك هنا؛ تأمل كيف يأتون لقضاء عطلة أيام الآحاد. إيه؟. بالطبع

لأنهم يسأمون العاصمة؛ لو كانوا على راحتهم فيها ما غادروها. والمسألة لا تتعلق بواحد أو اثنين... إنهم بالآلاف! منْ يخرجون كل أحد، فرارًا من الحريق. ومن ثمّ لا يمكن لأحد القول أين يكمن الجيد، ينتهى الأمر بالناس إلى الضجر من كل شىء، حتى فى العواصم.

كان موريثيو قد انتهى من تعبئة الزجاجات ويقوم الآن بمسحها بقطعة قماش. كانا صامتين، ولوثيو ينظر إلى مستطيل الحقول المحدد بإطار الباب الخالى.

ـ ما هذه الأرض!– قال.

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ ماذا؟

ـ ما انتهيت من قوله.

ـ ما هذه الأرض ؟ لأننى أنظر إلى الحقول.

ـ مفهوم.

ـ لا، لا تضحك. علام تضحك؟

ـ عليك. مزاجك رائق بعض الشىء هذا الصباح.

ـ وهل هذا يبسطك؟

ـ كثيرًا جدًا.

ـ لا تدرى كم أنا مسرور لذلك.

كانت الحقول ملوّنة بالأحمر القانى لجذامات القمح. مُغْرة* موحشة، دون ظل، تحت السُّبات المعتم غير الملموس لذلك الغطاء من النُسالة المتربة. كانت تستند، متموّجة، إلى بعضها البعض منحدرات متتابعة، مثل أصلاب وأصلاب حيوانات مُتعبة. كان يجرى، مختبئًا، غائرًا بين القطعان، نهر الخراما. وهناك على الجانب الآخر، ما زالت الأراضى البور تكرر ثانية ذاك اللون نفسه لجذامات القمح، كما لو أن شمس الصيف المحرقة قد جعلت من كل تنويعات الأرض لونًا واحدًا فحسب: مُغْرة متسخة.

ـ تريد التدخين؟ – سأل لوثيو.

(*) مُغْرة: مسحوق أكسيد الحديد، ويوجد فى الطبيعة مختلطًا بالطُفَال، وقد يكون أصفر أو أحمر بنيًا، ويستعمل فى أعمال الطلاء – المترجم–.

ــ الآن لا؛ فيما بعد. شكرًا.

ــ إذن، لن ألفّ أنا أيضًا السيجارة الأولى لهذا اليوم؛ أنت لا تـدخن كذلك إلا فى وقت متأخر. كلما تأخرت أكثر فى البدء كلما كـان هذا أفضل للكحة. آه، هل ستذهب فاوستينا أو ابنتك إلـى سـان فرناندو؟

ــ بعد قليل، على ما أظن، لماذا؟

ــ لن تمانع لو كلفتهما بشراء علبة تبغ؟

ــ عليك بهما. أخبرهما بما تريد عندما تخرجان. ألن تعود إلى البيت ساعة الغداء؟

ــ لا أعتقد. أخى وزوجته يقضيان اليوم فى مدريد، عند أقاربها. فى تلك الساعة سيكونان فى القطار.

ــ لن تفكر فى تناول الغداء حينئذ؟

ــ (شوف). لو مرّا علىّ هنا سيسلمانى الطعام، وبهذا الشكل يعفيانى من الذهاب. وإذا لم يمرّا فسوف تتركه لي سلفتى جـاهزا علـى مائدة المطبخ هناك.

ـ وماذا تريد بعد، سيدى الماركيز؟ ألا ترى أنهما سيأتيان محملين بالأشياء، وفوق هذا فإن عليهما توصيل الطعام إلى مقر سعادتك؟

ـ آه، دعك من هذا، (شوف). لو واتتنى الرغبة سأذهب، وإذا لم تواتنى سأنتظر حتى قدوم الليل، الأمر سواء.

مرّ قطار البضائع وظهرت مجموعة الدراجات كلها على الجانب الآخر من المزلقان. شرعت بولينا فى الصياح عند رؤيتهم، والتلويح لهم بيدها:

ـ ميجيل! أليثيا! نحن هنا!

ـ أهلاً يا أولاد(*) – كانوا يردون من الجانب الآخر–، هل انتظرتمونا طويلاً؟

ارتفعت عارضتا المزلقان ببطء. اقتحم راكبو الدرّاجات سكّة القطار ومقاودها بأيديهم.

(*) رغم أن كلمة (Niño) (مفرد مذكر) تعنى طفل أو ولد صغير أو صبى...، إلا أنها تطلق فى الوسط العائلى والشعبى وبين الأصدقاء على الشاب والرجل أيضًا. وما ينطبق على هذه الكلمة فى صورتها السابقة، ينطبق أيضًا على المفرد المؤنث منها وعلى الجمع بنوعيه – المترجم–.

ـ كم نتباهى كما ينبغى بالموتوسيكل!– قال ميجيل وهو يقترب من سيبس وخطيبته–.

كانوا قادمين بوجوه يكسوها العرق. الفتيات يضعن على رؤوسهن، مثل بولينا، مناديل ملوّنة ومتدلية الأطراف. أمّا الفتيان، فكان يرتدى معظمهم قمصاناً بيضاء. كان أحدهم يلبس قميصًا مخططًا، بخطوط أفقية، بيضاء وزرقاء، مثل البحّارة؛ ويغطى رأسه بمنديل جيب، معقود كل طرف من أطرافه الأربعة بعقدة؛ كما كان يُدخل طرف رجلى البنطال فى الشراب. وعلى النقيض فقد أحضر آخرون مشابك من المخصصة للسير بالدراجات. أمّا الفتاة الأخيرة، طويلة القامة، المفرطة فى اتخاذ كافة الاحتياطات ضد حوادث السقوط على الأرض، فكانت تلعن الدراجة فى أثناء مرورها على سكّة القطار.

ـ آى، يا بنى، يا لها من قطعة خُردة صعبة المرتقى!

كانت تضع على عينيها نظارة زرقاء، شديدة التأنق، طرفاها مرتفعان من الجانبين، وكأنهما يطيلان الحاجبين، ويضفيان على الوجه سمتًا أسطوريًا ويجعلانه أشبه بالوجه اليابانى. كانت ترتدى بنطالاً أيضًا، وعندما وصلت إلى بولينا قالت لها:

ـ أوفيت بوعدى، كما ترين.

كانت بولينا تنظر إلى بنطالها:

ـ إنه جميل عليك؛ على مقاسك ولا المرسوم رسمًا. بنطالى منظره قبيح إلى جواره. لمنْ يكون؟

ـ إنه بنطال أخى لويس.

ـ سيأكل منك (حتة). استديرى، لأرى.

أدارت الأخرى ردفيها، دون ترك الدراجة، بحركة مدروسة.

ـ تتفعين موديلاً!- كان يضحك صاحب القميص المخطط-. هكذا تكون المنحنيات!

ـ المعاكسات فيما بعد، سيداهمنا القطار هنا- ردت عليه الفتاة، مغادرة سكة القطار.

ـ هل انثقبت إطارات البعض؟- سأل سيبستيان.

ـ أبدًا. كانت ميلى تتوقف كل عشرين مترًا، قائلة إنها لا تقدر على هذا الخَبَب، وإن أحدًا لن يجبرها على أن تجهد نفسها أكثر من اللازم.

ــ ولأى نوع من الخَبب تكون ميلى مستعدة؟

ــ آه، هذا...

ــ لأى شيء، لم يطلب منكم أحد انتظــارى، أنــا وحــدى أعــرف الوصول مثلكم.

ــ أنتِ وحدك، بهذا البنطال لن تستطيعى الذهاب بعيدًا، صدقينى.

ــ لا أستطيع؟ ولماذا؟

ــ لأن أكثر من واحد سيحلو له مرافقتك.

ــ آى، بكل سرور؛ شريطة ألا يكون مثلك...

ــ حسنًا، ماذا نفعل هنا فى الشمس؟ هيا بنا!

ــ يمكن قراءة الطالع لميلى هنا.

ــ يمكنك إرجاء هذا لما بعد، فى مكان به قليل من الظل.

شرع البعض منهم فى التحرك.

ــ ألم يكن فى مقدورك أن تحضر لي دراجة أقل سوءًا؟

ـ يا بنى، إنها الأولى التى أعطوها لي. هل كنت تريد السير على قائمتيك الصغيرتين؟

ـ هيا، نحن نجيد الركوب، ولا يوجد ما يستدعى السير على الأقدام.

ـ أقسم لك بأنها أسوأ قطعة خردة ركبتها فى حياتى؛ إنها مثل دراجات الجيش، تلك المطلية باللون الفحمى، وهى غنية من التعريف.

ـ ما هى الحالة التى وصل عليها الطعام؟

ـ لا ندرى- أجاب سيبستيان-، إنه ما زال فى صندوق الموتوسيكل. سنرى الآن إن كان ثمة تلفيات، وهذا ما أظنه.

كان ميجيل وفتاة أخرى يسيران، والدراجتان بأيديهما، فى معيّة من جاءا لاستقبالهما؛ أمّا الآخرون فكانوا قد ركبوا الدراجات ثانية وتقدموا عليهم. قالت بولينا:

ـ بالطبع كان كل شيء يتقافز بشدة؛ كانت الحلل تعزف موسيقى مجنونة كما لو كان قد ركبها ألف عفريت.

ـ المهم ألا تكون قد انفتحت...

ـ أتدرى أن صاحب الخان ما زال يتذكرنا؟ لقد تعرف علىّ فى الحال.

ـــ آه، شيء جميل.

ـــ ما زال يتذكرك أيضًا؛ حقًا يا بولينا؟ لقد سأل عن "الفتى الذى كان يغنى"، وهذا بالحرف ما قاله.

اقترب الآخرون من الخان. كان صاحب القميص المخطط يـــسير فى المقدمة على يمين الطريق. تجاوزته إحدى الفتيات.

ـــ من هنا، يا لوثى– نادى عليها–. حيث أكون أنا. ذلك، انظرى، ها هو.

استدارت الفتاة بالدراجة ولزمت الطريق، مع الآخرين.

ـــ أين هى الحديقة؟

ـــ ألا ترين هذا السور الخلفى الذى تطل الأشجار من فوقه قليلاً؟

كانت المجموعة قد وصلت كلها؛ توقفت أمام الباب.

ـــ آه، هذا جيد!

ـــ ميلى هى الأخيرة دومًا، هل دققت النظر؟

نظر أحدهم إلى واجهة الخان وقرأ:

ـــ مسموح بالوجبات الخفيفة!

ـــ ما أشد حاجتى الآن لابتلاع كوب ضخم من الماء! مثل كاتدرائية.

ـــ وأنا لكأس من النبيذ.

ـــ فى هذه الساعة؟ مبكرًا!

كانوا يدخلون.

ـــ حذارِ يا صبية، الدّرجة.

ـــ شكرًا.

ـــ أين سنترك الدراجات ؟

ـــ هنا فى الخارج مؤقتًا، إلى أن يقولوا لنا أين نضعها.

ـــ ألم تأتِ قط إلى هذا المكان؟

ـــ أتيت، عدة مرات.

ـــ صباح الخير.

ـــ أشرقت الأنوار، صباح الخير.

ـــ فرناندو، ساعدنى من فضلك؛ لقد شبكت تنورتى.

ـــ الجو منعش هنا.

ـــ نعم، يستطيع الواحد أن يأخذ نَفَسه على الأقل.

ــ مازلت أتذكر وجهك.

ــ كيف حال حضرتك؟

ــ كما ترون؛ منتظرًا إياكم. تملكتنى الدهشة لعدم رؤيـــة ولا حتــى خيالكم هذا الصيف.

ــ هلا تكرمت وأحضرت لي من فضلك كوب ماء.

ــ بالطبع. والطويل الذى كان يغنى؟ ألم تقل إنه قادم معكم؟

ــ آه، نعم؛ أنه آت هنالك وراءنا، على قدميه، مع خطيبتـــه، ومـــع اللذين كانا يركبان الموتوسيكل. يبدو أن الشمس تعجبهم.

ــ حسنًا، شمس اليوم لا تعجب أحدًا. وعلى فكرة، زجاجــات النبيــذ هذه تخص حضراتكم.

كانت الزجاجات مصطفة، تلمع على طاولة البار، الأربع متساوية فى كل شىء، عبوّة لتر، نبيذ أحمر.

ــ طلبها الآخران فور وصولهما.

ــ حسنًا، لنفتتحها إذن. منْ يريد الشرب يا شباب؟

ــ تريّث، يا مجنون.

ـــ لماذا؟

ـــ دع الزجاجات للنهر، أمّا الآن، إن كان ضروريًا، فعدّة كئوس إضافية.

ـــ حسناً، المهم نشرب. هل تريد نبيذاً يا سانتوس؟

ـــ لو تقدموه لي لن أرفض.

ـــ سأشرب ماءً...

ـــ لا تشرب كثيرًا إذن، جسدك ساخن بعد المجهود الذى بذلته.

ـــ إلى الآن لم يُخرج هؤلاء الحلل من صندوق الموتوسيكل؛ لا أدرى ماذا كانوا يصنعون طوال هذا الوقت.

ـــ تيتو، هل تريد كأسا؟

ـــ أُفَضّل الماء حاليًا. ستكون لنا صولات وجولات مع النبيذ فيما بعد.

ـــ وأنتم، ماذا ؟ ماء، نبيذ، كازوزة، برتقـال، كوكـاكولا، أنانـاس استوائى؟

ـــ تبدو وكأنك البائع يا فتى، تنفع تكون نادل من الدرجة الأولى.

ـــ سوف أجلس يا شباب، أتدرون ما قولى لكم؟ لن أشرب شيئًا حتى يذهب عنى هذا الإحساس بالاختناق الشديد.

ـ تفعل خيرًا. هل تريدين كازوزة يا لوثيتا؟

ـ نعم.

ـ إنها أفضل من الماء بالطبع، لأننى سأبردها- قال موريثيو وهو ينحنى على صندوق الثلج-؛ أمّا الماء فهو من الصنبور، لا يختلف عن حرارة الجو.

ـ سيكون، إذن، مثل الشوربة.

ـ إنه جيد- قال تيتو-؛ يُذهب العطش.

ـ بما أن أجسادنا حارّة- أضافت ميلى، وهى مسترخية على كرسيّها-، لا ينبغى تناول الأشياء التى تكون باردة أكثر من اللازم.

كان جسدها طويلاً، وردفاها عريضان، ويوشى قماش البنطال بلحم مكتنز تحته. كانت تمد ذراعيها العاريين فوق الرخام البارد للمائدة.

قال سانتوس لصاحب الخان:

ـ ما رأيك لو وضعنا الدراجات فى الحديقة، مثل العام الماضى؟

ـ لا مانع، لا مانع؛ وقتما تريدون.

ـ هيا بنا، إذن؛ وعلى كل واحد إحضار دراجته.

ـ تعرفون مكان الحديقة. إنها هنا، فى نهاية هذا الدهليز.

ـ أعرف، شكرًا جزيلاً، مازلت أتذكر المكان.

خرجوا لإحضار الدراجات فى أثناء وصول الأربعة الآخرين إلى الخان. قال سانتوس:

ـ سيبس، يمكنك إحضار الأمتعة من صندوق الموتوسيكل فى أثناء قيامنا بوضع الدراجات فى الحديقة.

دخل ميجيل واتجه بابتسامة إلى صاحب الخان:

ـ كيف حال حضرتك؟ عرفت أنك سألت عنى.

ـ بخير، شكرًا جزيلاً، تسعدنى رؤيتكم كثيرًا. كنت أقول قبل مجيئك إننى كنت مندهشًا لعدم رؤيتكم هنا هذا العام.

ـ وها نحن أولاء بين يديك.

كان الآخرون يمرون بالدراجات من أمام طاولة البار، ثم يدلفون إلى الدهليز متجهين إلى الحديقة الموجودة بالفناء الخلفى. كانت عبارة عن ثلاثة أسوار من الطوب القديم مغلقة بالجدار الخلفى

للبيت والذى يشكل ضلعها الرابع. كانت توجد بها مناطق مغطاة بنبات العَوْسَج، فضلاً عن كرْم أمريكى يتسلق أسلاكًا أفقية، وثلاث أشجار صغيرة من السنْط.

ـــ انظر، يا لها من حديقة طريفة!– قالت ميلى.

كانت الموائد مرصوصة على طول الأسوار الثلاثة، تحت عريشة الكرم. وهى موائد كالحة ذات أرجل مقصيّة، ومن بينها اثنتان كبيرتان من خشب الصنوبر. وتنتشر حولها كراسى قابلة للانطواء أو مقاعد بدائية من جذوع الأشجار، مثبتة فى الأرض إلى جوار الحائط. فى خلف البيت، ومن خلال النافذة المفتوحة كانت تُرى المرأة فى المطبخ، كما كانت توجد نافذة أخرى مماثلة على الجانب الآخر من الدهليز حيث يلمع طلاء الكروم لسرير، وغطاء أصفر.

ـــ اسندوها هنا.

تركوا الدراجات مسنودة على الصندوق المُرقّم للعبة الضفدعة؛ وضع سانتوس أصابعه فى الفم البرونزى.

ـــ احترس، إنها تعض.

ـ سنلعبها فيما بعد، إيه؟

ـ فى المساء. سنجعلها فرجة فى المساء.

ـ بدأتم؟ لا يتقصنا إلا هذا! سوف تضجروننا، نحن الفتيات، بهذا الاكتشاف، ولم لا!

ـ أقول أيضًا، إن منْ تجرهم لعبة الضفدعة إلى حبائلها سيكونون بمثابة الصيد الثمين لنا، وسوف نكسب منهم ما يوازى مكسب الجائزة الكبزى(*).

كانوا يعودون من الدهليز. تخلّف عنهم صاحب القميص المخطط وصاح:

ـ انظر، أنت! انظر لحظة!

التفت إليه سانتوس فى عتمة الدهليز، ورآه من خلال إطار الباب يؤدى إحدى حركات الجمباز فى الجذع الرفيع لشجرة من الشجرات الثلاث بالحديقة.

(*) تُلعب هذه اللعبة لمجرد التسلية، وقد تكون مصحوبة برهانات مالية أو غيرها. أمّا بالنسبة للجائزة الكبرى (El gordo) فالمقصود بها جائزة اليانصيب التى يتم السحب عليها وإعلان الفائز بها خلال الاحتفالات بأعياد رأس السنة – المترجم.

ـ هيا، يا دانييل؛ لا داعى للعبث، أعرف أنك رجل رياضى.

جاء قائلاً:

ـ أنت لا تستطيع فعل هذا.

دخل المحل وراءهم. كانوا قد أحضروا الحِلّل، وموريثيو يحفظها لهم فى أحد منعطفات طاولة البار.

ـ يمكننا النزول الآن– قال ميجيل–. ما الساعة؟

ـ تقترب من العاشرة– أجابه سانتوس–. بالنسبة لي، وقتما تحبون– ثم أتى على ما بقى فى كأس النبيذ دفعة واحدة.

ـ هيا، إذن، هيا بنا الآن. ليأخذ أحدكم الزجاجات.

ـ سوف نعود ظهرًا لأخذ هذا؛ لا أدرى إذا كنا سنتناول الغداء عند النهر أم سنصعد إلى هنا؛ الأمر يتوقف عليهم.

ـ أنتم أصحاب القرار، وبالنسبة للحلل فأنتم تعرفون أنها هنا فى الحفظ والصون.

ـ إلى اللقاء فيما بعد، عندئذ.

ـ تمنياتى للجميع بالاستمتاع وقضاء وقت طيب.

ـ شكرًا جزيلاً، وداعًا.

شاهد لوثيو صورهم الجانبية التى يعكسها الضوء لـدى عتبة الباب، وهى تمرق واحدة إثر أخرى ثم تتعطف ناحية اليسار باتجاه الطريق. وبعد ذلك أصبح إطار الباب فارغًا مرة أخرى؛ مستطيلاً أصفر يخطف الأبصار. ابتعدت الأصوات.

ـ إللهو والتسلية للشباب!– قال لوثيو–؛ إنهم فى هذه السنّ. ولكن ألم تلاحظ الرقّة التى عليها الفتاة الأخرى وهى بالبنطال؛ هـذه نعـم تتمتع بخفة الظل وجمال القدّ المناسبين لارتدائه.

ثم رسم فى الهواء، ناحية الباب المُضاء، هيئتها بكلتا يديه.

ـ أرأيت يا رجل، أرأيت أن المسألة لا تتعلق بالبنطال فى حد ذاتـه، بل بمنْ ترتديه؟. استخرج الآن هذه السيجارة، هيا.

أخذ لوثيو يفتش فى جيوبه بصعوبة بالغة لاستخراج لفافة التبـغ وورق البَفْرة، رافعًا كتفيه للعثور عليهما فى أى موضع عميق مـن تلك الجيوب، إلى أن أفلح فى اسـتخراجهما مـن أحـدها. أخـذهما موريثيو من على طاولة البار وقال فى أثناء قيامه بلفّ سيجارة:

ـ لا ينبغى التبكير بالتدخين؛ كلما قاومت وقتًا أطول، كلما شكرتك عليه الصحة أكثر.

ـ وما هى الساعة الآن، حتى تقول هذا الكلام؟

ـ يا رجل، يصدمنى أن تكون أنت الذى يسأل هذا السؤال. هل يهمك الوقت، أو أهمك قط؟

صدرت عن لوثيو تعويجة لقسمات جانب كامل من وجهه:

ـ آه، نعم، وهل يدهشك هذا كثيرًا؟ ها أنت ترى، ربما لأنى أمضى نحو الشيخوخة.

ـ لستَ مسنًا. المسألة تتلخص فى عدم قيامك بأية حركة طوال اليوم. لقد تخدّر جسدك نتيجة لعدم قيامك بأى تمرين، فى كونك...

ـ تمرينات؟. لست بحاجة إليها. لدىّ منها ما يكفى...

ـ متى؟ فكّرنى!

ـ كيف متى؟ من قبل!

ـ من قبل ماذا؟

ـ قبل ذلك. هناك. إنت فاكر إننا لم نكن نقوم بتمرينـــات. يتـــصور الناس أن الواحد لم يكن يفعل سوى الجلوس هنـــاك وانتظـــار أن يحضروا له الطعام– كان موريثيو ينظر إليه بانتباه، تاركًـــا إيّـــاه يتحدث، أملاً فى سماع المزيد–. لم نكن نلعب هناك، بل نصارع، كأننا بالضبط فى سجن، ولا نتوقف إلا بعد حلول الليل. أسوأ مـــا يكون. ودون مقابل تقريبًا– رفع عينيـــه مـــن علـــى الـــسيجارة، ووجههما نحو وجه موريثيو–. حسنًا، إلام تنظر؟

عاد موريثيو إلى ما انقطع عنه، وخلّص من لفّ السيجارة.

ـ أبدًا، إلى لا شىء، سوف...– انسحب نحو منتصف طاولة البار–، سوف أملأ قارورتين، ستتوافد الجموع عما قريـــب. خوســـتينا! خوستينا!

أجاب الصوت من الداخل:

ـ أنا قادمة، يا أبى!

ظهرت فى الباب:

ـ أخبرنى، ماذا تريد؟

ـ قولى لأمك، لو كنتما تنويان الذهاب إلى سان فرناندو فلتعجل؛ الوقت يتأخر وأنا أحتاج هذه الأشياء فى منتصف النهار. وبالمناسبة، السيد لوثيو كان يريد أن يطلب منك شيئًا. أنت، أخبرها بما تريد.

ـ لا شيء، يا بنتى؛ لو لم يضايقكما، فأرجو أن تمرا على محل إكسبريس لشراء علبه دخان مفروم. من العلب الخضراء.

ـ ولم لا؟

ـ انتظرى، سوف أعطيك النقود.

ـ بعد عودتى؛ ما الفارق!- ردت الفتاة، ثم دلفت إلى الدهليز.

استطرد لوثيو زاعقًا:

ـ وورق بَفْرة، ماركة بامبو...

ـ ألا تريد أن يحضرا لك الطعام أيضًا؟

ـ اسكت، الأمر سواء. إيّاك أن تقول لهما ولو نصف كلمة.

كانوا يمضون مسرعين، مشتاقين لرؤية النهر. عبروا الطريق العام وواصلوا السير فى طريق عمودىّ عليه. سألت ميلى:

ـ هل هو بعيد؟

ـ عند هذه الأشجار، ألا ترينها؟

كانت تطل أمامهم أطراف قمم الأشجار. لا شك أنه انحدار مباغت، يقطعه المسيل ومكان الأشجار.

ـ هل هو كبير؟

ـ سوف ترينه.

لم يروه إلا بعد بلوغهم حافة المنحدر. ظهر فجأة. لم يكن يبدو أن ثمة نهر تقريبًا. كانت المياه أيضًا من ذلك اللون نفسه، المستمر من مكان إلى آخر، دون أن يغيّره المجرى، كما لو أن تلك الأرض نفسها هى التى تجرى سائلة فى النهر.

ـ يا له من نهر...- قالت ميلى-... وهل هذا يُدعى نهر أيضًا؟

ـ ربما تقولين هذا لأنه متعكر- ردت عليها لوثى.

كانوا قد توقفوا للنظر إليه من على الساتر الترابى المسطح، الذى يرتفع ما بين عشرة إلى خمسة عشر مترًا عن مستوى الشاطئ.

ـ لقد خاب أملى، يا بنتى. لا نهر ولا غيـره. خيبـة أمـل راكبـة (جمل).

ـ ألم تشاهدا الخَراما قط؟- قال ميجيل-. الخَراما هكذا دومًا؛ علـى هذا اللون نفسه.

ـ إنه لا يعجبنى. يبدو متسخًا.

ـ هذه ليست وساخة، يا امرأة؛ إنه الطمى الذى يحمله. يبدو متسخًا، ولكن لا. سترين كم هى لذيذة مياهه.

ـ آه، لا أفكر فى شربها، ولا حتى فى الأحلام.

ـ لا يعنى كلامه، أنها صالحة للشرب، يا ميلـى- كـان يـضحك دانييل-. لذيذة فى الاستحمام.

أشار تيتو بيده ناحية اليسار، باتجاه أعلى النهر:

ـ انظروا: من هناك فوق، يمر القطار.

كان ثمة قنطرة من الحجارة ذات ستّة عيون كبيرة؛ فضلاً عـن أخرى (عين المشاتل)، هنالك فى الخلف، إلى جوار البيـوت الواقعـة على الطريق العمومى. أمّا مكان الأشجار، الموجـودة تحـت أقـدام

المنحدر، فكان عبارة عن جزيرة طويلة على شكل مغزل، تقسم التيار إلى فرعين متفاوتى الحجم. الفرع القريب، الضيق والمتاخم للساتر الترابى، كان خاليًا من الماء نتيجة لحرارة الصيف. وبهذا الشكل فقد كانت الجزيرة موصولة بالأرض من ناحية هذا الضلع، ويمكن الوصول إليها، بطولها، بمجرد عبور شريط الوحْل الأحمر اللزج. وفى الجانب الأيمن فحسب من هذا الشريط ما زال يوجد القليل من الماء؛ إنه ذراع ميت يفصل بالطين طرف الجزيرة، مشكلاً شبه جزيرة مدببة. وأمام رأس زاوية شبه الجزيرة تلك، حيث يتحد الذراع الميت بالفرع الثانى، كانت المياه راكدة فى خزان واسع، أمام سدّ أسمنتى لطاحونة ماء أو ريّ. وللهبوط إلى مكان الأشجار، يتحول الطريق إلى سلم صغير وعْر، منحوت فى أرضية المنحدر نفسها.

ـــ هيا بنا الآن؛ الشمس تلسع.

لم تكن الدرجات مستوية، بل مطموسة تقريبًا. تعالت الضحكات من تحت عندما انزلقت إحدى الفتيات على الوحْل وجلست بمؤخرتها على الخطين اللذين تركهما كعبا حذائها، كاشفة عن ساقيها. اعتراها الاستياء فى البداية، متفاجأة لرؤية نفسها هكذا، لكنها ما لبثت أن رفعت رأسها ضاحكة، عندما وجدت الآخرين يضحكون.

ـ يا لها من بطة!، أنا مثل البطة...- كانت تقول وهى جالسة على الأرض-.

أخذها سانتوس من يديها وشدّها إلى أعلى، لكنها لم تستطع النهوض، من كثرة الضحك.

ـ أنا مثل البطة!- كانت تكرر مسرورة.

ـ هل أصابك مكروه؟

ـ لا! إنه وثير.

ـ امتعتينا بهذا المشهد الحافل، يا كارميلا؛ لقد ظهر منك حتى مكان التطعيم.

ـ حسنًا، يا له من أمر مفزع؛ لو لم تكونوا قد رأيتم غير هذا.

ـ لقد صورتنا جميعًا، من موقعها هذا.

ـ هيا، أيتها الطفلة، انهضى دون تلكؤ.

ـ مهلاً، يا رجل، مهلاً...- وعادت للضحك..

ـ عليك بغسيل التنّورة فى النهر، عندما نستحم- نصحتها أليثيا-. سوف تجف فى غمضة عين.

ـ من الطرائف ذائعة الصيت أيضًا السَّقطة المخزية لفرناندو في اليوم الذى ذهبنا فيه إلى «ناباثيرّادا»(*)، ألا تذكرونها؟

ـ على ما أظن. فى كل مرّة يحين الدَّوْر على أحدنا.

ـ منْ يتذكر هو أنا؛ لا أنسى الضرّ الذى حاق بى من جرّاء تلك الأهازيج الشيطانية.

ـ أساءك ما فعلناه ساعتها من الضحك وخلافه.

ـ طبعًا، ولكنى كنت على وشك الاستمتاع بما حدث.

ـ لماذا يضحك الجميع عندما يسقط أحد؟ يكفى أن يسقط الواحد حتى يشرع الآخرون فى الضحك.

ـ لأن السقوط يذكرنا بمهرجى السيرك- ردت ميلى.

كانت توجد مجموعات تحت الشجر، كومْات من البشر جالسة فى الظل فوق أوراق صحف وأغطية مفروشة. لا يوجد عشب تقريبًا، بل أرض محلوقة ومتربة فحسب. لم تصمد سوى خُصلات

(*) (Navacerrada)، سلسلة جبال تبعد حوالى ثلاثين كيلومترًا عن شمال العاصمة مدريد - المترجم-.

متفرقة من النجيل، ملتوية ومكفّتة بالتراب. فوق التراب قُلل وبطيخ وقُفف من الجلد. هناك كلب يحاول عضّ كرة. كان يجرى بين مرميين مرتجلين لاعبون حُفاة. جذوع الأشجار كانت مُعذّبة بحزوز؛ أوشكت الحروف الأكثر قِدمًا منها على الالتئام، متماهية على اللحاءات مع الطبيعة؛ ميمات وراءات وخاءات صارت، شيئًا فشيئا، جزءًا من الأشجار ذاتها، تقلدت مظهر العلامات الطبيعية وانخرطت فى الحياة النباتية. المياه الضاربة للاحمرار والاصفرار تجرى، مُضفّرة تارة، ومبعثرة تارة أخرى، ألياف التيار التى تشبه العضلات الطويلة للنهر. على الشاطئ شجر أسل، ومجموعات من سيقان نباتية تطل من الماء وتحجز العُكارة فى كرات كبيرة دكناء. ومن مكان إلى آخر تبرز مصطبة من الطين، فى مستوى سطح الماء، مثل كرش أحمر مستطيل تحت الشمس.

ـ جلسنا هنا العام الماضى، بين هذه الجذوع الأربعة.

ـ فى الحقيقة، لا يوجد سوى القليل من العشب.

ـ تأكله قطعان الماشية.

ـ وأحذية الناس.

وفى المكان نفسه، بين شجرتين، افترشـوا بُـرنُس سـانتوس الأسود، فسارعت ميلى بالاستواء عليه دون انتظار لأحد.

ـ تبدين مثل قط يا ميلى- قالوا لها-، تجيدين الاستيلاء على أفـضل مكان، مثل القطط تمامًا.

ـ وليذهب الآخرون إلى الجحيم. اتركى ولو حتى ثُلْمة صغيرة.

ـ حسنًا، يا بنتى؛ سوف أنهض إذا كنتم تريدون، لكى ترتاحوا.

نهضت من جديد وغادرت المكان.

ـ لا يستدعى هذا الانفعال، يا امرأة. تعالى هنا، اجلسى كما كنـتِ، و(بلاش قرف).

لم تعرهم اهتمامًا ومشت بين الأشجار.

ـ (شُفْت)؟ ماذا قالوا لها حتى ينقلب مزاجها هكذا؟

ـ دعيها وشأنها. منْ يحمل جرّة مثقوبة يخرّ عليه ماؤها.

كان دانييل قد ابتعد وأخذ يفتش فى لحاء أحد الجـذوع. اقتربـت منه ميلى:

ـ عن ماذا تفتش؟

رفع رأسه متفاجئًا:

ـــ إيه؟ لا شىء.

ابتسمت أميليا:

ـــ لا تكن عنيفًا، يا بنى. ألا يمكننى رؤيته؟

ـــ اتركينى، هيا؛ أشياء تخصنى.

كان يغطى الجذع بظهره.

ـــ يا لثقل دمك أيها الفتى!- ضحكت ميلى... الأمر يتعلــق بســرّ، إيه؟. مُت بغيظك إذن لأننى مُصرّة على اكتشافه.

ـــ لا تكونى سَمِجَة.

كانت ميلى تفتش بين الحروف من على جانبى دانييل.

ـــ أتراهن بشىء على أننى سوف أجده؟

ـــ حذارِ، يا لك من فضولية!

ـــ حالكم اليوم لا يسرّ عدوًا ولا حبيبًا!

استبد بها السأم، وعندئذ استدارت نصف استدارة، باتجاه الآخــرين. كانت كارمن ممددة على بُرنس سانتوس، وتحملق فى قمــم الأشــجار. ظهرت رأس ميلى فوقها، فى الاتجاه المعاكس للأوراق العالية.

ـ اجلسى، يا ميلى، فى المكان متسع لنا نحن الاثنتين.

نظرت إليها ميلى دون أن تجيب، وبعد ذلك تصفحت بعينيها الشاطئ والأشجار ومجموعات البشر، ثم قالت:

ـ أين هم الآخرون؟

ـ تعنين منْ؟

ـ زكريا والعصابة.

ـ آه، هؤلاء؛ منْ يدرى! هل هم قادمون فعلاً؟

ـ طبعًا. فى القطار. اتفقوا على هذا ليلة أمس مع فرناندو. أليس كذلك يافرناندو؟

تابعت ميلى النظر.

ـ لن تشاهدى ولو خيالهم بأى موضع.

ـ قالوا إنهم ذاهبون إلى مكان لا أدرى ماذا يعرفونه– أضاف تيتو وهو يجرّف التراب –. وعلى أية حال لسنا بحاجة إليهم فى أى شىء...

التفتت إليه ميلى بغتة، أقلعت بعد ذلك عن النظر ثم تمددت على البُرنس، إلى جوار كارمن.

ـ لا تشعر الواحدة بالراحة ولا حتى فى الظل- قالت.

كان سانتوس يتابع مباراة حامية الوطيس لكرة القدم تدور فى رقعة خالية من الغابة بين بضعة فتيان يرتدون المايوه وبين كرة سميكة حمراء. «إنها لك، إنها لك، أيها الفتى...» كان يردد سانتوس بصوت خفيض بينه وبين نفسه. كانوا يركضون تحت الشمس مخلفين وراءهم سحابة من التراب. كانت المجموعة كلها مضطجعة الآن أو مرتكزة بمرافقها على الأرض، ووجوهها ناحية النهر. كان فرناندو واقفًا إلى جوار تيتو، وشرع الأخير فى الدوران بعصبيّة حول شبشب زميله، راسمًا قالب الشبشب فى التراب. التفت إليه فرناندو.

ـ ماذا تفعل بى؟- نظرت نحوهما المجموعة كلها-. يا لها من فُرجة، يا فتى!. تبدون مثل كتيبة من الكسالى النيام. ثلة متنطعين!

كان يحك قفاه، تمطع نافشًا صدره.

ـ هيا، افسحو لي مكانًا، سأستلقى أنا أيضًا، لكى يكتمل العدد.

كان يلف ويدور حول المجموعة، باحثًا عن مكان يأوى إليه.

ـ تلف وتدور أكثر من الكلاب السَّلْوقية عندما تريد الإقعاء. (إركن فى أى حتة).

ـ هاك يا بنى؛ بما أنك تحب انتقاء الأفضل فسوف نتخلى لك عن هذه الثّلمة حتى تكف عن إصابتنا جميعًا بالدّوار من كثرة الذهاب والإياب.

ـ ودون خلو رِجْل، ما دام لحضرتك.

تركن له فجوة على البُرْنس، إلى جوار سيقانهن.

ـ شكرًا يا ميلى، يا غالية؛ لم أكن انتظر منكِ أقل من هذا.

جلس. كان يتجول بين الأشجار مصوراتى طاعن فى السنّ، يجرجر بإحدى يديه حاملاً كرتونيا، ويمسك بالأخرى القاعدة ذات الثلاث قوائم للكاميرا الموجودة على إحدى كتفيه. كان يرتدى غُلالة صفراء واقية من التراب فوق القميص الصيفى.

ـ خسارة أننا لم نحضر آلة تصوير.

ـ عندك حق. لدى أخى كاميرا ماركة "بوى" كان قد اشتراها من المغرب.

ـ كان لازم تفتكرى تطلبيها منه.

ـ وهذا ما أقوله أنا أيضًا.

ـ لم أتذكر. كان متحمسًا لها فى البداية والتقط بها فيلمين، لكنه وضعها بعد ذلك فى أحد الأدراج، ولا يدرى الآن أين هى.

ـ الصور الفورية تبديد للمال. مكلفة للغاية.

ـ لا مجال للحديث عن هذه الصور بالطبع؛ ولكن التقاط الصور فى الأيام التى نخرج فيها للفسحة يعتبر شىء طيب بالتأكيد، إذ تروق لك الفُرجة عليها بعد حين من الدهر. "انظر للوجه الأبله لفلان"، ويتملكك الضحك طويلاً...

ـ شىء جميل فعلاً. إلى الآن لم نلتقط أية صورة جماعية، للعصابة كلها، بما فيها صمويل وزكريا والباقون– قال فرناندو.

ـ وما علاقتنا بهذين؟ إنهما ليسا من الشِّلّة.

ـ حسنًا، ليسا من شلّتك أنت. أمّا بالنسبة لي، فإنهما منها. أنا وصمويل نعرف بعضنا منذ الصغر.

لم يكن المصورّاتى يقول شيئًا، بل يقتصر على التوقف أمام المجموعات بنظرة متسائلة، بينما يشير بإصبعه الإبهام إلى صندوق الكاميرا الموجود خلف قفاه. وفى بعض الأحيان، عندما يلاحظ التردد على إحدى المجموعات بعدم الرد الفورى عليه بـ "لا" كان يهز رأسه ويضيف "فورية" وكأنه أمر معلوم للجميع، وبعد ذلك يهز كتفيه ويبتعد مع حامله، ويعود لأخذ نفس عميق من الغليون (البايب) الذى يمسكه بأسنانه. كان الدخان يحيط بالغليون من كل اتجاه، وكأنه قاطرة قديمة.

ــ أعتقد أنه يمكننا الآن الاستحمام- قال سيبستيان.

ــ انتظر يا رجل، لا تكن عجولاً. هل تريدون جرعة نبيذ، أفضل؟

ــ هيا، هذا حقيقى. أحضر الزجاجة.

ــ وماذا عن دانى؟ أين هو؟

ــ ألم يتذكر أحد منا أيضًا إحضار كوب؟

ــ أحضرت واحدًا من المستخدم فى تنظيف الأسنان- قالت أليثيا- أتدرين أنه الكوب الذى أغسل به فمى؟ ولكنه هناك فوق مع الحلل.

ـ لسنا فى حاجة إلى كوب. ألا ترين أنهم صبّوا لنا البيرة ذات مـــرة فى غطاء من الفلّين؟

ـ ها هو دانى. أنظروا إليه.

كان يحوم حول الأشجار والمجموعـــات البـــشرية. توقـــف الآن لمشاهدة مباراة كرة القدم.

ـ دانييل، دانى!- نادى عليه سيبستيان بصوت عالٍ.

ـ سترون كم سيأتى مسرعًا... انظر، يا دانييل!- كان يلوّح بالزجاجـــة فى الهواء حتى يراها الآخر-. تعالِ هنا، يا بنى، لترمم عظامك!

تردد دانييل، لكنه ما لبث أن اتجه من جديد نحو المجموعة.

ـ ألم تشاهدوا كيف حضر؟ - كان يضحك سيبستيان-. لا يتخلـــف. يكفى أن تشير لهذا بزجاجة النبيذ حتى يطيعك مثل حَمَل صغير.

جاء دون أن يقول شيئًا، تفقد المكان خلف المتحلقـــين واحتـــل طرفًا منه إلى جوار ميجيل.

ـ ماذا كنت تفعل هناك؟

ـ لا شىء. أتجول.

ـ كنت تتفحص الفتيات؟.خذ، اشرب.

ـ المسكين جاء وحده، دون رفيقة...

ـ لست بحاجة إليها.

أمال زجاجة النبيذ لتتساقط فى حلقه دفقة طويلة وعميقة. أخذ بعد ذلك نَفَسَه ومسح ذقنه بيده.

ـ كنت ستجهز عليها كلها، يا بنى. اعطنى. كيف حاله؟

ـ بِباخن.

ـ لو أصبح باردًا، لا أدرى عندئذ...

ـ اسمع، ولماذا لا نضع الأخريات فى النهر حتى يبردن؟

ـ فكرة طيبة؛ ممكن.

ـ هيا، يا سانتيتوس(*)، أتحفنا بهذه المَكْرُمَة، أنت أقربنا إلى النهر ولا تفعل شيئًا حاليًا.

ـ (سيبك)، (سيبك). إن طعمه الجيد فى فمى لن يلحقه التغيير حتى لو كان ساخنًا.

(*) سانتيتوس: تصغير للاسم العلم "سانتوس"، ويستخدم بين الأصدقاء والأقارب ونحوهما (لا سيما فى الطبقات الشعبية) بغرض التدليل أو إظهار المحبة والود...إلخ. ولهذا الغرض نفسه يمكن أن نضيف لجوء الأصدقاء والأقارب إلى اختصار الأسماء، مثل: دانى، بدلاً من دانييل؛ ميلى، بدلاً من إميليا؛ سيبس، بدلاً من سيبستيان؛ تيتو بدلاً من ألبرتو ... إلخ – المترجم-.

ــ كسول أنت، يا فتى. أيكلفك النهوض كثيرًا من العناء؟

ــ أكثر مما تتخيل.

ــ لقد وُلد هذا متعبًا.

ــ لا، يا بنى، لم أولد متعبًا، ولكن التعب أدركنى بعد ذلك. أتعب وأشقى طوال الأسبوع من كثرة الحركة.

ــ أتظن أن الآخرين يمضون الأسبوع فى التسلية بهرش سُررَهِم بالأظفار.

ــ قولوا ما تريدون. أمّا أنا، فقد جئت طلبًا للراحة. من الآحاد لا يجود علينا الأسبوع إلا بواحد، وينبغى استغلاله. لا داعى للمماحكة إذن وأعطنى البزّازة.

ــ حسنًا، يا بنى، حسنًا؛ سأذهب أنا– قال سيبس.

نهض وحمل الزجاجات الأخريات إلى النهر.

ــ يا بنات، ألن تشربن؟

ــ كان الواجب عليكم البدء من هنا.

ــ معذرة، يا فتاة.

ـ لا، يا سيدى. ما دام الأمر يتعلق بالنبيذ فالرجـال أولاً؛ والبَـواَقى للنساء، ألا تعرفن هذا؟

ـ أهذا رأيك؟ (قلة ذوق) لا تختلف عن سلوكيات أخرى معيبة.

كانت الحرارة تتزايد، وكارمن تتسلى برفـع ذراعيهـا وتـشبُيك أصابعها. نظر سانتوس إلى النهر ثم أطبق عينيه من شدة الشمس.

ـ حانت الآن ساعة الاستحمام– قال–. سوف أخلع ملابسى على الأقل.

ـ عنده حق، ماذا نصنع هنا، مرتدين الملابس حتى الآن؟. لـو لـم نكن سنلقى بأنفسنا فى الماء، فمن المستحسن أن نكون بـالملابس الداخلية، هذا رأيى.

نهضت ميلى ونظرت إلى كافة الأرجاء، ثم تمطتْ قائلة:

ـ لم يظهر صمويل ولا هؤلاء.

ـ لا تملين من السؤال عنهم.

ـ على النهر أعداد غير قليلة من البشر، ولا يمكن أن يقـع نظـرك عليهم بسهولة.

ـ كان من الأفضل ألا يحملوا إلى النهر أكثر من زجـاجتين؛ هـذه الزجاجة تشهق، كما يُقال، الشهقات الأخيرة.

ـ إنها تطير كالدخان، يا فتى. شىء مفزع.

ـ نحن أيضًا كثيرون.

عادت ميلى إلى التمدد ثانية. الآن يرجع سيبستيان.

ـ ماذا يحدث؟ هل أجهزتم على الزجاجة؟

ـ هذا قَدَرُها.

ـ ألم تحضرى "بيسونتى"(*) يا ميلى؟

ـ بلى، إنها فى الحقيبة. هاتها من عندكِ.

ـ حسنًا- قال فرناندو-؛ لتعطنا ميلى سيجارة من هذا التبغ الأشقر.

ـ آسفة، يا بنى، فهذا التبغ لنا نحن الفتيات؛ أمّا أنتم فلن يفرق معكم لو دخنتم من التبغ الأسود.

ـ أين يمكن للواحد خلع ملابسه؟- سأل سانتوس عند قيامه.

ـ هناك، خلف تلك الشجيرات. سأذهب معك.

(*) "بيسونتى": إحدى ماركات علب السجائر. يوجد فى إسبانيا صنفان من السجائر: صنف معبأ بتبغ أشقر اللون (مثل السجائر الأمريكية والإنجليزية والمصرية...إلخ)؛ وصنف آخر معبأ بتبغ يميل لونه إلى السواد، وهو حامٍ بعض الشىء - المترجم-.

ـــ حسنًا، أيتها الأنيقات، أتسمحن لي بالبُرنس؟

ـــ انسَ! لن نتزحزح من هنا. نحن مستريحات عليه، وفوق هذا أنت لا تحتاجه.

ـــ ما هذه التَنْبلة التى نحن عليها جميعًا هذا الصباح.

ـــ ومن النوع الحاد.

اتجه كل من سانتوس وتيتو إلى مكان به عدة شجيرات صغيرات، أسفل المنحدر.

سأل سانتوس:

ـــ ماذا جرى لدانييل؟

ـــ آه، أنا لا أعرف، ماذا حدث له؟

ـــ ألا تلاحظ أنه كالغضبان من شىء؟. لا يتفوّه بكلمة.

ـــ مزاجه هكذا، أنا أعرفه. أحيانًا تجده أول منْ يبادر بإحداث الهَرَج والمَرَج، كما تجده أحيانًا أخرى واجمًا ساهمًا.

ـــ الهواء بدأ يتحرك، هذا ممتع.

ـــ اتركه حتى يخرج من حالته تلك وينتعش وحده.

كانت أم وابنتها تقشران بطاطس وبصلاً هناك. الفتاة التى يناهز عمرها خمسة عشر ربيعًا ترتدى المـــايوه، ولهـــا ســـاقان رفيعتـــان يكسوهما زغب مُذَهَّب. يوجد قِشْر بالقرب من زجاجة زيت، وإلـــى جوارهِ منْشفة (فوطة) وردية وصبّانة من الألومنيوم. كان ثمة أحـــد فى النهر ينادى، ملوّحًا بيده، ونصف جسده مختبـــئ تحـــت الميـــاه البرتقالية: «أمّاه، أمّاه، انظرى إلى ... »؛ كان رَجْع الصوت يتـــردد رائقًا. «أراك يا بنى، احترس...!». الأجساد بلون المياه تقريبًا.

ـــ فى هذه الشجيرات– قال تيتو.

كانت هنالك شجيرات عَوْسج، وأوراقها الداكنة الخـــشنة مغطـــاة بتراب كثيف. كما كانت توجد على مقربة منها بقعة سوداء من بقايـــا شجيرات عَوْسج أخرى محروقة، وأطراف سيقانها بلون الفحم تقريبًـــا. كان تيتو ينظر إلى الجذع الواهن لسانتوس عندما خلع الأخير قميصه:

ـــ يا لها من بَشْرة بيضاء!

ـ طبعًا، أنتم تذهبون إلى حمامات السباحة. لا يتوافر لــدىّ الوقــت قط، إنها المرة الأولى التى أغطس فيها هذا الصيف.

ـ أنا أيضًا لم أذهب سوى مرتين أو ثلاثة. لون بشرتى هو قمحــى أصلاً. سوف تصبح مثل سرطان الماء، سترى.

ـ أعرف، ولذا كنت أريد البُرْنس. لا يناسبنى فى أول يوم التعرض مدة طويلة للشمس.

كان ألبرتو يمرّر يديه على كتفيه. نظر حوله.

ـ الفتيات، وما أدراك ما الفتيات– قال–، أشك كثيرًا فــى إمكانيــة قبولهن فكرة التعرى فى هذا المكان. يرونك من جميع الاتجاهات.

ـ لا شك أنهن يرتدين المايوهات تحت الملابس. سيكون من السهل عليهن بعد ذلك التخلص منها خلف أول جذع شجرة يقابلهن، وكله تمام.

ـ تحمل الحرارة مزاج عندهن. اسمع: ميلى هى التى تبــدو اليــوم سخيفة بعض الشىء.

ـ وما الداعى لقولك هذا؟

ـ لا أدرى... ألم تسمع أسئلتها الكثيرة عن زكريا والآخرين؟

ـــ وهل فى هذا ما يُضير؟

ـــ يا رجل، وما يدرينى؛ ولكن كثرة سؤالها يعنى أنها جاءت معنا على غير رغبة منها. كان بوسعها الانضمام إلى (الشلّة) الأخرى، ما رأيك؟

هزّ سانتوس كتفيه.

ـــ هى وشأنها– قال–. بالنسبة لي... الأفضل أن يلزم كل واحد حدوده، وألا يهتم بما يفعله الآخرون.

الطريق الأكثر استقامة للقدوم من قرية كوسلادا حتى المزلقان هو شريط السكة الحديد. لم يكن يهمه الحذاء. أهَمّه من قبل عندما كان جديدًا. الآن، وللنظافة التى هو عليها فحسب عاد ليهمه قليلاً وهو يسير على الزّلط الحاد للسكة الحديد. أحيانًا، وعندما لا ينظر إليه أحد، كان يمشى، مجتهدًا فى جعل جسده متوازنًا، فوق القضيب. قامت طفلة البيت الصغير، الأشبه بالعشّة، والتى ترتدى فستانًا أحمر، بزجر الدجاجات التى تدوس ملابسها المنشورة على الأرض. على

أوراق العريشة، الموجودة فوق الباب، هبـــاب القطـــارات(*). رأتـــه الطفلة قادمًا وتوقفت للنظر إليه. لم تـــضحك علـــى صـــعوده فـــوق القضيب، لكنها صاحت فيه فجأة:

ــ القطار قادم!

بادر الرجل صاحب الحذاء الأبيض بالالتفات إلى الخلف بغتـــة: كانت مزحة. جرت الطفلة لتحتمى بالبيت مثل قـــط صـــغير. تـــرك الرجل السكة الحديد عند المزلقان وانحرف جهة اليمين. يضع قدميـــه هنا بحذر أيضًا، حتى لا يوسخ له غبـــار الطريـــق بيـــاض ظـــاهر القدمين.

ــ صباح الخير.

ــ صباح الخير.

تقابل مع خوستينا وأمها فى أثناء خروجهمـــا ومعهمـــا قُفَّتـــان. نظرت إليه الفتاة من أعلى إلى أسفل وابتعدت محتمية مـــن الـــشمس بالمنديل الملوّن الذى كان فوق رأسها.

(*) كانت القاطرات فى ذلك الوقت (خمسينيات القرن الماضى) تسير بالفحم، ويتصاعد من فوّهتها دخان كثيف – المترجم–.

ـ كيف الحال؟

ـ لا جديد. كما ترى.

ـ أصبّ لك كأسًا؟

ـ نعم.

نظر إلى الخارج. كان يرى المرأتين في الطريق. وضع الأظفار على طاولة البار، ثمّ التفت إلى موريثيو عندما رنّ الكأس.

ـ هل كان خوليو هنا ليلة أمس؟

ـ منْ تقصد في الاثنين؟

ـ الملاحظ.

ـ لا، لم يأت الملاحظ. الآخر، نعم.

ـ سيأتي هذه الليلة؟

ـ الملاحظ؟ أظن هذا.

وضع الرجل صاحب الحذاء الأبيض شفتيه على حافة كأس النبيذ ونظر ناحية الباب من جديد.

ــ حرّ (بالزّوفة).

ــ يشتد، نعم. يبدو أنه ينتظر أيام الآحاد لكى يضيق الخناق أكثر.

ــ إنه لا ينتظر أيام العُطْلة – قال لوثيو –. ينبغى رؤية النهـر فـى هذه الساعات؛ كيف ستكون الناس عليه.

ــ هذا صحيح – رد الآخر ثم التفت إلى موريثيو–. متأكد أنت أنه قادم؟

ــ هذا ما أظنه، أقول لك. وشبه مؤكد لأن اليوم إجازة(*).

ظل لبرهة مراقبًا الرجل صاحب الحذاء الأبيض ثم انسحب نحو حوض الغسيل. لا يتفوه الآخر بكلمة. ظل ثلاثتهم وكأنهم ينتظرون.

ــ ولكن حذارِ، فنحن لم نفعل طوال حياتنا سوى أن نجعل من أنفسنا مثارًا للسخرية– قال بعد ذلك الرجل صاحب الحذاء الأبـيض–. صبّ لي كأسًا أخرى، لو تكرمت.

أمسك موريثيو بالزجاجة ونظر إليه فى فضول. وبصوت فطن سأل:

ــ حضرتك(**) تدرى ما تقول.

(*) يوم الأحد هو يوم إجازة أو العطلة الأسبوعية الرسمية فى إسبانيا – المترجم–.

(**) يتوجه المتحاورون فى اللغة الإسبانية إلى بعضهم البعض إما بضمير المخاطب (أنت، أنـتم، أنتن) أو بصيغة الاحترام (حضرتك، حضراتكم، حضراتكن). والصيغة الأولى تستخدم بين من لا كلّفة بينهم (كالأصدقاء)، كما يتوجه بها الأعلى إلى الأدنى (سواء فـى الـسنّ أو المقـام=

مناسبة؟

سكت من جديد.

ـ لتقل أنت.

ـ الشيء الوحيد الذى أستطيع قوله إنه كان علىّ البقاء فى مسقط رأسى، وألا أغادره. كان هذا هو الأفضل لي؛ ولكن الأمور لا يتم إدراكها إلا متأخرًا.

كان لوثيو وموريثيو يرقبانه. عاد الأخير لسؤاله:

ـ هل ساءت بك الأحوال؟ ماذا خطر ببالك، لو كان يمكن معرفته؟

رفع الآخر رأسه من على الكأس، ثم نظر إلى موريثيو بالحاجبين، بحركة مدروسة بعناية. تنشّق بصوت مسموع:

=...إلخ). أمّا صيغة الاحترام فتستخدم بين منْ ليسوا أصدقاء صداقة وطيدة، كما يتوجه بها الأدنى إلى الأعلى. وفتيان وفتيات الرواية يستخدمون الصيغة الأولى؛ أمّا منْ عداهم فيستخدمون صيغة الاحترام. ولما كانت صيغة الاحترام تتسم بالثقل فى الترجمة وتعتبر ممجوجة فى أحيان كثيرة، فقد آثرنا استبدالها بالصيغة الأولى، هذا باستثناء المواقف التى لا تحتمل هذا الاستبدال – المترجم-.

ـ ترهات. ترهات عادات قروية تكلف الواحد الغمّ والكَّدَر. ولكن العبيط هو أنا، لأننى عملت لها حسابًا.

بلع ريقه؛ وقفة؛ نظر نحو الحقول وتحدث من جديد:

ـ الموضوع كله مجرد سياسة. سياسة ضئيلة، كما هو معلوم. لجرذان، ولكنها سياسة فى كل الأحوال. البعض فى شأن ما، والبعض الآخر فى شأن غيره. وفى محل الحلاقة الكلام كثير؛ أكثر من اللازم. ولابد أن تتحمل غصبًا عنك ما يخوضون فيه مهما كان نوعه، لأنك إذا لم تتحمله، ينفضون عنك؛ ولو تحملته، يورطونك. يبدو أن مرتادى المحل لا يأتون إلا بغرض التخلص من كل ما فى أجوافهم من سوء، من كل السموم والأدران المُدَّخرة لديهم أو لديهن. وهكذا، وبمجرد تصبين لحاهم والمرور عليها بالموسىّ، لا شىء أكثر من هذا، تجد نفسك متورطًا فى أمر ما. ويتلقف الجميع أية زلّة لسان لك- كان يومئ فى أثناء حديثه؛ ينظر بين الفينة والفينة نحو الباب، دون هوادة؛ ثم يتوقف، لتتراكم كلماته-. جاءنى، إذن، هذا الصباح الأبيلاردو، تعرفانه- أمّن الآخران على كلامه-؛ حسنًا، جاءنى وأخبرنى إنه سمع ثلاثة أو أربعة يقولون إنهم سوف يفرضون علىّ الحظر، حتى لا يأتى

أحد بتاتًا للحلاقة فى المحل، والسبب حسب قـولهم، إن المحـل أصبح موئلاً للسوء ومصدر أذى لأشخاص كثيرين فى القريـة- مَسْمَرَ التمهل ونظر إليهما دون أن يتنفس؛ استرد قـواه-. وكمـا تريان، فهل من مصلحتى، فى مسألة أكل العيش تحديدًا، أن أكون مصدر أذى لأحد... إذا كان الكرسى ذاته يفهم هذا! ماذا يريدون أن أفعل؟ إنهاضهم من على كرسى الحلاقة وطردهم إلى الشارع، وأنصاف وجوههم ملطخة بالصابون؟ أو ماذا؟ أو أقـوم بوضـع الفوطة فى أفواههم...

ـ لا يوجد أسوأ من القيل والقال فى محل حلاقة- قال لوثيو-. إنـه يُحدث ضررًا بالغًا.

كان يبدو وكأنه يتحدث عن حشرة؛ عـن بـق أو قَمْـل... ألـحّ موريثيو:

ـ وهذه المرة، ماذا جرى؟

ـ خوليو هذا... لا شىء، الحكاية إن جبيرمو سانـشث يـستأجر منـى المخزن ولا يريد إخلاءه، وهذا ينشر الشائعات التى تـسيئ لـسمعته وتجعله مثارًا للسخرية فى كل مكان؛ وفى اليوم الآخر، كان الجمعة،

انسحب من لسانه، بينما كنت أحلق له، وشتمه بأقذع الألفاظ، وكل هذا دون أن يدرى أن هناك شخصًا آخر جالسًا على الكرسى الخلفى، تربطه بجبيرمو صداقة حميمة. والرجل لم يكذب خبرًا، بالطبع، ونقل القصة فى الحال إلى الآخر. ولكما أن تتخيلا...

رفع دانييل الزجاجة فى الهواء ثم شرع فى الاستلقاء متتبعًا اتجاه مسار السائل. شَرِق فى النهاية ونهض، محتقنًا من الكحّة. قالت أليثيا:

ـــ لا بأس عليك. إنها نتيجة اللهفة.

كان ميجيل يُربّت براحته على ظهره.

ـــ لا داعى، يا ميجيل؛ لا تشغل بالك، لقد ذهبت الشَّرْقة. حدث هذا بسبب الوضع غير المريح الذى كنت عليه.

ـــ لا، ما لم تكن له ضرورة هو شرب النبيذ الآن –قالت بولينا–. الشرب مع الغداء أكثر من كافٍ، ولكن يبدو أنكم لا تستطيعون قضاء الوقت دون شرب.

التفت إليها دانييل:

ـــ قولى هذا لسيبستيان، لو أردتِ. أمّا أنا، فدعينى أعيش.

ـ أقوله، يا بنى، لمصلحتك، وحتى لا يتعكر صفْو عطلتنا. ولكن، هوّن عليك يا فتى، لن أتوجه إليك ثانية بنصف كلمة. أنت وما تريد.

تدخل سيبستيان:

ـ لم تقل لك الفتاة أى شيء منذ ذلك الخميس، حتى تتبـرى بـالردّ عليها هكذا.

ـ أنا لا أعكر صفو العطلة لأى مخلوق، يا سيبستيان. لو كان لزاما علىّ تعكير صفْو عطلة ما، فأنا كفيل بهذا وحدى.

قاطعهما ميجيل ضاحكًا:

ـ لا تتضايق، يا دانييل. الشيء الوحيد هنا الذى يجب علينا تعكيـر صفْوه هو النبيذ.

ضحك الجميع.

ـ عين العقل! ولن تكون هذه أية حماقة.

ـ لا فَضّ فوك يا ميجيل. هو (ده) الكلام. تَدَخُّل مُوَفّق.

ـ لا أحد مثله يعرف إيجاد المخرج المناسب. لسان من الذهب...!

ـ ها هما قادمان. لدى الرغبة فى إلقاء نفسى فى الماء.

كانا قادمين من ناحية الأشجار، مرتدين المايوه.

ـ انتظروا قليلاً، حتى يجربا المياه أولاً. كلما مرّ وقت أطول كلما زادت سخونتنا أكثر.

ـ هذا لا يصح! يجب أن ننزل الماء كلنا معًا! وإلا، تنتفى البهجة.

ـ مفهوم- قال سيبس-؛ هذا هو الأحسن. كلنا معًا.

ـ أنتما جاهزان؟- قال ميجيل للآخريْن اللذين وصلا فى التوّ.

ـ نعم، ولكن اسمع: أقول لو نزلنا الماء، ينبغى أن يبقى أحدنا هنا لحراسة متعلقاتنا. لا يمكن تركها وحدها.

ـ لا تشغل بالك- قال دانييل-. سأبقى أنا. ليست لدى الآن رغبة فى الاستحمام.

ـ هيا، إذن، كى نخلع ملابسنا؛ أنت يا سيبستيان، هلم بنا.

مشى فرناندو، وسيبس، وميجيل. كانت الحرارة فى تصاعد مستمر واضطروا إلى حث الخطى، ولأن الشمس كانت تتخلل غصون الأشجار فقد ظهرت خيالاتهم تجرى على الأرض.

سأل أحدهم:

ــ إلى أين يذهب هذا النهر؟ أيعرف أحدكم إلى أين يذهب؟

ــ إلى البحر، مثل جميع الأنهار– أجابه سانتوس.

ــ يا لك من ظريف! فَسّرت الماء بعد الجهد بالماء. أريد أن أقول من أين يمرّ.

ــ حسب علمى فهو يلتقى بنهر «هنارس» من بعد «سان فرناندو»؛ وبعد ذلك بكثير، بالتأكيد عند «أرنخويث» و«إيبيسكاس»، يصب فى نهر التّاجه.

ــ قل، أنت، أليس هذا هو نفسه الذى يمرّ من عند «تورّى لاجونا»؟

ــ لا أعرف هذا، وإن كنت أعتقد أن ما تقوله صحيح. أعرف أنه ينبع من الجبل.

لا توجد أشجار على الجانب الآخر من النهر. كانوا يرون، من موقعهم تحت الظلال الفاترة، بضعة شجيرات صغيرة على الضفّة نفسها، وخلفها السهل، أملَسَ، مثل جلد أرنب برّى، عارضًا أرضه الجرداء تحت الشمس. كانت المياه تجرى فحسب فى العيون الوسطى

للقنطرة، تاركة العينين الأوليين، فى الجزء الذى هناك، جافتين. كان ظل قوسى هاتين العينين يُغطى مجموعــات أخــرى مــن البــشر، معسكرة على الرمال، تحت القبتين شديدتى الارتفاع.

ــ أعتقد أن أناسًا ماتوا أثناء الحرب(*) فى هذا النهر.

ــ نعم، يا رجل، أعلى النهر هناك، عند «باراكويّوس دل خرامــا»؛ حدثت هناك اشتباكات عنيفة؛ ولكن الجبهة كانت على امتداد النهر كلهُ؛ حتى «تيتولثيا» ذاتها.

ــ تيتولثيا؟

ــ ألم تسمع اسم هذه القرية؟. خالى، أخو والدتى، ســقط فــى هــذا الهجوم، وبالتحديد فى تيتولثيا، ومن هنا أعــرف الاســم. جاءنــا الخبر ونحن على مائدة العشاء، مازلت أتذكر.

ــ ولنا أن نتخيل أن هذا النهر كان الجبهة- قالت ميلىـ، حيث سقط الكثير من القتلى.

ــ أقول. ومع هذا فنحن نستحم فيه ناعمى البال.

(*) هى الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦- ١٩٣٩) التى انتصر فيهــا الجنــرال فرانكــو علــى الجمهوريين، وظل يحكم إسبانيا حتى وفاته فى عام ١٩٧٥- المترجم.

ـ وكأن شيئًا لم يحدث؛ وربما كانت توجد جثة فى المكان الذى تستحم فيه.

قاطعتهم لوثيتا:

ـ كفى. ونَبْش الماضى الآن يعتبر أيضًا هَوَس.

عاد الثلاثة الآخرون. سأل ميجيل:

ـ عما كنتم تتحدثون؟

ـ أبدا، سيرة الأموات لا تُعجب لوثيتا.

ـ ومنْ هم هؤلاء الأموات؟

ـ الذين ماتوا وقت الحرب. كنت أقول لهم إن عددًا من القتلى سقط هنا أيضًا، ومن بينهم خالى.

ـ آه... حسنًا، وبعد كل هذا الوقت الذى أضعتموه فى الكلام، ما هى الساعة؟

ـ الثانية عشرة إلا خمس دقائق.

ـ حينئذ، ماذا؟ أنتن، أيتها النساء، بوسعكن أيضًا التفكير فى خلع الملابس. وأنت، يا دانييل، ما هو قرارك النهائى؟ ستبقى هنا لحراسة الأغراض؟

التفت إليه دانى:

ـ إيه؟ نعم، نعم، سأظل هنا مؤقتًا، سوف أستحم فيما بعد، متأخرًا.

كان سيبستيان قد شرع فى الوثب والقيام بحركات بهلوانية؛ كـان يضع راحتيه على الأرض ويحاول الدوران عليهما بكامل جسده، ورجلاه مرفوعتان إلى أعلى. أُطلق صيحة مثل طرزان.

ـ ماذا يفعل هذا المجنون؟- قالت كارمن.

ـ لا شىء، (فاكر نفسه) من الهنود الحمر.

ـ تنقص عقله بعض الصواميل.

أخذ يتدحرج الآن ويقفز حتى وصل إلى الماء واختبره بإحـدى قدميه، ثم رجع وهو فى غاية السرور.

ـ يا فتى، (ياه) على الماء!

ـ (ياه)، فى ماذا؟

ـ فى الحلاوة. إنه مدهش.

ـ هل هو ساخن؟

- ليس ساخنًا؛ المطلوب؛ مثالىّ. وأنتن يا بنات، مـــاذا تفعلـــن إلـــى الآن، لا أرى واحدة منكن بالمـــايوه. هيـــا!. هيـــا! لا أســتطيع الانتظار ولو حتى لمدة خمسْ دقائق. لا أتحمل أكثر من هذا.

شرعت الفتيات فى التحرك؛ نهضن بتثاقل. جرى ســيبس مـــرة أخرى، ووقع فى ورْطة مع كلب بعد تعثره فيه. جـــرى الكلـــب خلفه، ملاحقًا إياه بالنباح. كان سيبستيان يرفع ساقيه، كما لو كان خائفًا من انغراز أسنان الكلب فى اللحم المكشوف. أثار المـــشهد ضحك أفراد المجموعة وأخذ فرناندو يحرّض الكلب عليه: "عليك به!". رجل سمين، ذو كرْش مثل كرْش بوذا، وسُرّة عميقة مغطاة بالزّغب، نهض بعد أن غطى ظهره لدى خروجه من الظل بفوطة ملوّنة، واتجه نحو سيبس. نادى على الكلب:

- أورو(*)! تعال هنا، يا أورو! أطع، يا أورو! أورو، أيها الجميـــل! لا تخف لن يؤذيك. لم يعض أحدًا من قبل. أورو! ماذا قلت لـــك؟ اهدأ، يا أورو...!

(*) أورو (oro) تعنى فى الإسبانية "ذهب" – المترجم

كان يحرك فى الهواء السّير الجلدى قريبًا من الكلب، دون النيّة فى ضربه، وأخيرًا امتثل الكلب. ابتسم الرجل لسيبستيان ثم ابتعد من جديد نحو مجموعته

ــ كان المفروض أن يعضك. لو فعل لأسعدنى هذا، تصوّر.

ــ لماذا، يا امرأة؟

ــ لتتعلم ألا تكون أضحوكة.

ــ لا أعتقد أن هذا يضايق أحدًا. وفوق هذا فإن الكلب هو الذى بدأ.

ــ إنه يضايقنى أنا. يضايقنى أن تكون هدفًا لنظرات الناس.

ــ كلام فارغ! هيا، هيا لتلحقى بهن لكى تنتهين فى أقرب وقت ممكن؛ لنرى إذا كنا سنستحم فى يومنا هذا.

عاد سيبس للجلوس، لاهثًا، فى أثناء ابتعاد خطيبته نحو الفتيات الأخريات. طوى ميجيل بنطاله بعناية فائقة، ورتّب أغراضه تحت جذع شجرة.

ــ أنت، يا دانييل، كل أغراضى مُجَمَّعة هنا، هل تسمعنى؟

التفت إليه الآخر دون رغبة.

ـــ حسنًا.

بين الأشجار، يتدرب الآن على الملاكمة، كـل مـن سـانتوس ونيتو. نظر ميجيل إلى الكوْمة التى تضم ملابس وأحذية الآخـرين، والمُلقاة على الأرض دون ترتيب.

ـــ انظر، يا سيبس، يمكنك لو أردت وضْع أغراضك هنا، إلى جوار متعلقاتى.

كان يشير إلى المكان، إلى جوار جذع الشجرة.

ـــ وما الفارق؟

ـــ أبدًا، ولكن لو أردت فالأفضل أن تكون هناك... هذا ما يبدو لى.

ـــ لا فرق، يا رجل، ليست لدى أدنى رغبة الآن فى النهوض.

صدرت عن ميجيل إيماءة استسلام وظل ينظر إلى الأغـراض المبعثرة على الأرض؛ تردد، ولكنه سرعان ما قام بعد ذلك، دون أن يقول شيئًا، بلملمة ملابس الآخرين المتكوّمة ونقلها إلى جوار جـذع الشجرة، ثم رتّبها على غرار ما فعل بأغراضه.

ـــ أليست أفضل هكذا؟

التفت إليه سيبستيان شاردًا.

ـ إيه؟ آه، نعم، إنها أفضل بهذا الشكل- غيّر نغمة صوته-. اسمع: وسانتوس، ماذا دهاه؟

أشار بيده نحو الأشجار، إلى المكان الذى يوجد به كل من سانتوس وفرناندو وتيتو، حيث كان سانتوس على وشك السقوط، وهو يلاكم، فوق أغراض إحدى العائلات. "سوف تهشمون لي الإبريق، وماذا بعد؟"، كانت تقول لهم السيدة.

ـ يا لَبشرتكِ القمحيّة! ماذا فعلت لتكونى قمحية هكذا؟

كانت اثنتان منهن تمسكان بُرنس سانتوس، على شكل ستارة، بينما تتعرى الأخريان خلفه.

ـ لن تصدقى أننى لم أتعرض للشمس تقريبًا.

ـ يبدو أنها تلتصق بك فى الحال. أنا، على العكس، الوقت الذى أحتاجه لكى أصبح قمحية لا يسعه صيف واحد.

كانت الممسكتان بالبرنس تنظران إلى ما يُوهَىْ الأخريين، اللذين ظهرا بعد تحررهما من الملابس التى كانت فوقهما.

ـ إنه جميل جدًا؛ من أين اشتريتيه؟

ـــ من «سيبو»[*]؛ خمِّنى كم يساوى؟

ـــ لا أدرى، مائتى بيزيته؟

ـــ أقلّ، بمائة وخمس وستين.

ـــ رخيص، إنه يبدو حتى وكأنه من الصوف. والآن امسكى أنتِ من هنا. سوف يتملكنى الخجل من شدة بياض بشرتى

كانت ميلى وبولينا خارج الستارة الآن وهما بالمايوه، تتبادلان النظرات.

ـــ أسْرِعا، أنتما.

كن يرغبن فى الذهاب، زُمرة واحدة، إلى حيث يوجد الفتيان. كانت لوثى ترتدى مايوها من الصوف الأسود. والاثنتان الأخريان، الأكثر قمحاوية، ترتديان مايوهين من نسيج الكريتون المطبوع والمنتهى بشريط مطاطى مكرمش. أمّا مايوه ميلى فكان أخضر اللون. لم يكن يدرين ماذا يفعلن بعد ذلك، ويتبادلن النظرات وهن متشككات فى أثناء لملمة الملابس.

(*) "سيبو" (Sepu) هو أحد المحلات الشهيرة فى مدريد، ويقع فى شارع هام بوسط العاصمة الإسبانية يُسمى (Gran Vía) – المترجم

اقتصرن على إجراء المقارنة بينهن بالنظرات، والضحك وإثارة الضجيج وإحكام المايوهات مرة بعد أخرى.

ــ انتظرن أيتها الفتيات؛ لا تسبقنني!

كانت ميلى وأليثيا تتهامسان وتضحكان ضحكات خافتة، والأخريان تريدان معرفة سبب ضحكهما. وفى أثناء مشيهن بعد ذلك نحو بقية أفراد المجموعة اندست كارمن ولوثى بينهما، فى محاولة منهما للاختباء، ولما لاحظت أليثيا هذا انتحت جانبًا وشدّت لوثيتا من معصمها ودفعتها إلى الأمام. أطلقت لوثى صيحة فزع واختبأت وراء جذع شجرة.

ــ يا لك من بلهاء! تعالى هنا.

ــ ماذا حدث للوثيتا؟- سأل فرناندو.

ــ إنها خجلة من شدة بياض بشرتها.

ــ يا للعته!.

ولكن الخجل كان قد تمكن منها الآن أكثر لأن الجميع أصبح يسلط النظر عليها. كانت تضحك، محمّرة من الخجل، وتطل بوجهها من وراء جذع شَجرة الحَوَر.

ــ اذهبن، أنتن، سوف ألحق بكن.

صاح تيتو فجأة:

ــ علينا بها.

ركض فرناندو وسانتوس وسيبس خلف تيتو، وهم يصرخون في اتجاه الشجرة حيث توجد لوثى، لكنها ابتعدت قليلاً ثم شرعت في الجرى المتعرج نحو الماء، لكنهم تمكنوا في النهاية من اللحاق بها. أوقعوها على الأرض وأمسك كل منهم بطرف من أطرافها الأربعة، بينما كانت تصرخ وتحاول التملص منهم. حملوها إلى الماء. كان ميجيل والفتيات الأخريات يتابعون المشهد من موقعهم تحت ظلال الأشجار. كانت لوثى تصرخ:

ــ اتركونى، اتركونى! لا تلقونى فى الماء دفعة واحدة. لا، لااا، النجدة...!

لم يكن أحد يدرى هل كانت تضحك أم تبكى. اكتفوا ببلها قليلاً ثم وضعوها على الضفة.

ــ يا لكم من متوحشين! كنتم على وشك خلع معصمى.

عاد تيتو للاقتراب منها:

ــ مسكينة، يا بنتى!– قال بنغمة هزلية– أرنى. سوف أعالجك، أيتها الجميلة. ألا تريدين أن أعالجك؟

انسحبت بغتة.

ــ دَعْنى! الذنب ذنبك! أنتم متوحشون، فعلاً.

قلّد تيتو صوت لوثيتا الذى يشبه صوت طفلة:

ــ إنهم قُساة القلوب، حقا يا حياتى؟ هل أضربهم؟ سوف أضربهم حالاً... خذ، خذ! جزاءً لسوئكم!

كان يضحك.

ــ نعم، وفوق هذا، السخرية والاستهزاء.

ــ هيا، يا لوثى؛ أيتها الجميلة، إنها مجرد دعابات؛ لا تغضبى. هل نطلب منكِ الصفح والغفران...؟ ليطلب الجميع العفو من لوثى، ركوعًا.

ركع الأربعة وهم يضحكون أمام لوثى، التى كانت تتفاداهم. ولكن الآخرون واصلوا خلفها، سيرًا على الرُّكب، وأياديهم متشابكة، فى تقليد ساخر لمشهد النّدم. كانت تنظر حواليها، إلى الناس، لترى إن كانوا يتابعون ما يجرى.

ـ حذارِ، أنتم سخفاء- كانت تضحك مغتاظة-. لا تجعلونا فُرجة للناس، كفى.

وضعت بعد ذلك إحدى قدميها فى النهر ورشّت الماء نحوهم.

ـ سوف أرشّكم بالماء...

نهضوا صارخين وابتعدوا. كان ميجيل والفتيات الأخريات قد اقتربوا.

ـ ليكن هذا المزاح الثقيل بينكم أنتم- قالت ميلى-. من السهل جدًا عليكم استباحته مع لوثيتا. لنرى إن كان بإمكانكم الآن، أيها الهمَج.

كان سيبس هو الذى صاح لدى عودته نحو الماء فجأة:

ـ آخر واحد سوف ينزل الماء. تعرفون...!

غطس الجميع: ميجيل، وتيتو، وأليثيا، وفرناندو، وسانتوس، وكارمن، وبولينا، وسيبستيان. ظلتا على الضفة فحسب كل من ميلى ولوثيتا، تتأملان صخب الأجساد والصرخات والزّبد.

ـ ما يصيبنى بشىء من التقزز هو هذا الطين العالق بالأقدام- قالت ميلى-؛ يبدو لي وكأن حشرة مختبأة فيه.

كان الدخان المحمّل برائحة الطبيخ والشجيرات المحترقة يهيم بين المعسكرات ثم يتفكك ناحية الأشجار. تغلى ثخينة «البقيّة»(*) عند العائلة المجاورة، والمرأة التى ترتدى السوّاد تبتعد عن اللهب والدخان اللذين يريدان الصعود إلى وجهها. رآها دانييل منهمكة فى التقاط الأطراف التى شاطت من شعرها. كانت عيناه تقع، فى كل مرة تنحنى فيها المرأة لغَرْز الملعقة فى الفوران الغليظ، على باطن ركبتيها ناصعتى البياض تحت القماش الأسود المشابه للطاسة. وصلَت الطفلة، تقطر ماءً، بالمايوه السماوى. مررت على رقبة أمها ذلك الذراع النحيل، اللامع بالماء، وطبعت قُبلة على خدّها الملوّث بهباب الفرن. "آى، دعينى يا بنتى، أنتِ تبللينني...!". قفزت ساقاها العاريتان على مقربة من النار. أخذت مِقْوَد الكلب وهربت نحو الماء. تبعتها عينا الأم، متفادية جذوع الأشجار، إلى أن اشتعل، مذهبا، الجسد الصغير والنحيف تحت الشمس.

هنالك، فى الضوء الداكن الخاطف للبصر والمُدْمِى للعيون، حشود من الرؤوس والجذوع البشرية فى المياه الضاربة للحمرة،

(*) "بقيّة" (Paella): من أشهر الوجبات الإسبانية، وهى لون من الطبيخ قوامه الأرز بالزعفران، والمختلط بالبازلاء (أو أى صنف آخر من الخضروات والبقوليات)، والمضاف إليه أيضا قطع الدجاج (أو اللحم) والمحار والقشْريات (مثل الجمبرى)- المترجم.

وأعضاء تظهر لحظيًا وهى تضرب التيار. كان يغلى علـــى طـــول النهر هيجان متنقل لأجساد، مصحوبًا بصرير الأصـــوات وصـــدى الصرخات المعدنية المتعملقة القادمة من أعالى النهر إلى أسفل قباب القنطرة. تتألق فى القمة شمس بيضاء شديدة الارتفاع، مثـــل مـــرآة صغيرة متأرجحة. أمّا الضوء تحت، فكان أحمر، ثخينًا ومبهرًا. كان يدعس الأرض، ويسحق ما عليها من نتوءات وهيئات، كأنـــه قـــدم عملاقة. كان دانييل طريحًا على بطنه ومُخبئًا وجهه. وصـــل إلـــى مسمعيه بعد ذلك صخب جديد، حفيف مباغـــت يـــصمّ الآذان. رفـــع جسده المُخدَّر فجأة وتراءى له فى الـــضوء الـــذى يُعمـــى العيـــون المستحمون فى النهر وهم يلوّحون بأذرعتهم. كانوا يوجهون التحيـــة للقطار الذى يدوّى أعلى القنطرة، فوق الجميـــع، بـــصخب طويـــل متكرر، بقعقعة مُنْهَكَة لا آخر لها، غطّت على كل الأصوات. كـــان يمر بكامله، تاركًا وراءه السلامات غيـــر المـــسموعة، والأذرعـــة المرفوعة تجاه الصور الجانبية لمئات النوافذ الآبقة والمجهولة. ظلت القنطرة ترتجف، كأن بها قشعريرة، بعد مرور العربة الأخيرة. وفى الصمت المنذهل عادت للتوطن ثانية الأصوات السابقة. رأى دانييـــل على الشاطئ امرأة مُشَمِّرة تنّورتها من منتصف الفخذين وهى تغسل بالصابون طفلاً عاريًا. أخذ فـــى التلاشـــى، بـــبطء، ذراع الـــدخان العريض الذى تركه القطار فوق النهر.

دخل اثنان: أحدهما فى زىّ حاجب محكمة[*]؛ ومتين البنية الآخر يرتدى قميصًا، إبطاه مصبوغان بالعرق. ربّت براحته على ظهر الرجل صاحب الحذاء الأبيض:

ـ ماذ حدث اليوم، أيها الحلاّق؟ ما هو الضِرْس الذى يوجعك اليوم؟

ـ ضرس العقل- أجابه بابتسامة متكلّفة ونظر فى مواربة إلى صاحب الخان-. كنا نتحدث عن الحياة وهمومها.

ـ يهمنى إذن، إنه موضوع مهم دائمًا. ولكن موريثيو يفقه فى هذا أكثر منا. وهكذا فكل يوم يمرّ يكون «دورو» (أقسى)[**] من سابقه. أليس هذا صحيحًا؟

ـ «دورو»؟ «دورو» من أى نوع؟

ـ «دورو» من النقود. أنت بهذا أكثر من عليم.

ـ الصبر جميل؛ فى هذا...، ماذا تشربان؟

(*) (Alguacil): هذه الكلمة لها معانٍ كثيرة، منها: حاجب محكمة، مُحضر، شرطى، حاكم بلد (قديمًا)، إلخ - المترجم-.

(**) (Duro) لها معنيان: قاسى أو صلب، كما تطلق على عملة إسبانية فئة خمس بيزيتات، والمتحاوران يتلاعبان بالمعنيين - المترجم-.

ـــ عَرَقى «كلابل»[*] – ثم التفت حاجب المحكمـــة إلـــى رفيقـــه–. وأنت؟

ـــ فات وقت القرنفل. أُفَضّل تناول النبيذ.

صوته صوت أبله؛ ترك الكلمة الأخيرة هادئة مستكنة، وكأنهـــا صدى لشيء ما. خيّم الصمت. توقفت يدا موريثيو فى الهواء، وكأنه نسى ما كان يفعل. كان يُحَس بالسقف قريبًا، وبدا وكأنهم يـــستمعون للقرميد فوقه، وهو يقرقع تحت الشمس. وفى الجهة المقابلة لمستطيل الباب تبدو الحقول كلها منسحقة، مثل خُبزة طريّة مخلـــوط دقيقهـــا بالنُّخالة. لم تكن تأتى أصوات من النهر، ولا من جهـــة المزلقـــان، ولا من كوسلادا، ولامن سان فرناندو. الزجاجات تلمع على الأرفف فحسب. فى لحظات مثل هذه، يصدر سؤال: "كم الساعة؟".

ـــ ذبحتُ عنزة هذا الصباح.

ـــ إنها الثانية عشرة تمامًا.

ـــ أقوله لأعرف إن كنت تريد رجلاً منها، كى أرسل فى طلبها لك.

(*) "كلابل" (Clavel) المقصود بها هنا نوع من مشروب العَرَقى برائحة القرنفل؛ أمّا كلمة القرنفل الواردة فى السطر التالى فالمقصود بها الزهرة المعروفة بهذا الاسم – المترجم–.

ـ هذا الصباح؟ كيف، واليوم ليس يوم ذبح؟(*)

ـ أصابها مكروه ليلاً. أرسلوا إلى يسألوننى إن كنت أريدها؛ وأخذتها لنفسى. لن أترك الحيوان المسكين يعانى إلى يوم غد. ماذا؟ (عايز)؟

ـ لا تعمل حسابى، لن أستطيع بيعه. كل منْ يأتى إلى هنا يحضر معه أكْلَه. الشىء الوحيد الذى يطلبونه، بخلاف المشروبات، علب الزيتون. أمّا أن يطلبوا شيئًا مطبوخًا فهذا غير وارد. أنت تعرف أنه لو كان يلزمنى فلن آخذه من غيرك.

ـ أعرف، ولكنه لحم جيد؛ عنزة عمرها سنتان، سمينة ومُلْحِمَة. ما جرى هو أنهم تركوا الحيوان مربوطًا فى الحظيرة، (تكعبل) فى الحبل وكُسرت ساقه.

ـ منْ هو صاحبها؟

ـ لويس، صاحب اللوكاندة. لديه ست عنزات أخريات، ولكنه لا يعرف شيئًا، البتة. لا يفهم كلمة فى تربية الحيوانات.

(*) أثرت الحرب الأهلية الإسبانية (١٩٣٦ - ١٩٣٩) بشكل واضح ومخيف على الاقتصاد والحياة الاجتماعية، لاسيما فى فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى؛ ومن مظاهر هذا التأثر تحديد الحكومة ليوم معين فى الأسبوع (الإثنين) لذبح المواشى - المترجم-.

ــ آه، نحن نعرف هذا. وهل يفهم فى أى شىء علـــى الإطـــلاق؟. إنها مجرد نزوات من جانبه ورغبة فى التورط فيما لا يخـــصه. أشترى اليوم هذا، وأعود لبيعه غدًا. يريد أن يغتنى فى يـــومين، وهنا يكمن الخطأ؛ ليس هذا هو الطريق. يجـــب الـــصبر علـــى الأشياء والعناية بها لكى تؤتى ثمارها. لا ينفع هنا ولا يشفع نفـــاد الصبر ولا حُسن النية. لا يكفى فى الممتلكات مجرد حيازتها، بل ينبغى أيضًا معرفة الطريقة المُثلى لاستغلالها.

كان حاجب المحكمة يومئ برأســـه، علامـــة علـــى الموافقـــة، ومشيرًا إلى موريثيو وكأنه يشير إلى كلام مُنَزّل. وفى تعزيز منه لما سبق انبرى قائلاً:

ــ لا يكفى، هذه ليست كافية، لا. إضافة إلى هذا، يجب...

صدرت عن يده إيماءة مبهرجة. التفت إليه موريثيو:

ــ مالكَ أنت!- قال له-. ولكن ماذا تعرف أنت! هل امتلكت شـــيئًا ذات مرة طوال حياتك...؟

حرّك لوثيو وجهه إلى ناحية ليرى، من بين رؤوس الآخـــرين، شيئًا فى الخارج؛ أشار إلى إطار الباب ثم قال:

ـــ انظروا: هؤلاء أيضًا لديهم اليوم لحم.

نظر الجميع: كانت تُرى، ليس بعيدًا، فوق التلال الصفراء، حلقة من الصقور فى السماء؛ مخروط لولبىّ، رأس زاويته إلى أسفل، مشيرًا إلى نقطة محددة على الأرض.

تحدث موريثيو:

ـــ يا للأشياء التى يشير إليها هذا؛ لا أريد ولا حتى رؤيتها؛ مجرد تخيّلها يُهيج أحشائى.

ـــ إنها دويبات مُقْرِفة.

ـــ كلٌ ميسر لما خُلق له – قال لوثيو– بالتأكيد يصيبها القرف نفسه مما نأكله نحن. المسألة مسألة تعوّد. لقد علمونا أن هناك أشياءً معينة سيئة ولذا نعافها ونشمئز منها؛ ولكنهم لو علمونا بطريقة مغايرة لأصبح الأمر مختلفًا.

كان موريثيو يتململ:

ـــ هيا، دعك من هذا! أستحلفك بمنْ تحب. دعك الآن من التخاريف والوساخة، لأنك سوف تتسبب فى مرضى.

كان الجزّار يضحك ضحكات مجلجلة.

ظل الرجل صاحب الحذاء الأبيض ناظرًا إلى الخارج، بعينين مترويتين.

ألحّ لوثيو:

ــ الفارق فى نهاية المطاف ليس كبيرًا: نحن نأكلها قبل يومين من موعد أكلهم لها.

عاد الجزّار للضحك.

ــ انظر، إذا لم تنتبه...!– قال موريثيو متوعدًا.

ــ نحن من دم ولحم، صح؟ أم أنك مخلوق من شىء آخر؟ وإذا لم تكن مثلنا، فأخبرنا هنا بنوعية تركيبتك. ألستُ على حق؟ قل له هذا؛ أنت جزّار ولابد أن تكون أعْرَف بهذا من أى أحد آخر.

كانوا يضحكون. تدخل حاجب المحكمة، على استحياء، وبعينين يتطاير منهما الشَّرَر:

ــ لقد أكلوا هذا الشتاء قطًا؛ هاهنا! على تلك المائدة نفسها.

أشار بإصبعه، كان مثل المضطرب من جرّاء ما يقول.

ـ ها هنا...!

واجهه موريثيو:

ـ ماذا تقول أنت؟ وما علاقة هذا بما نحن فيه؟ وما هذه القصة التى تخترعها؟

ـ هاهنا –كرر الآخر–. كنتَ تحسبه أرنبًا بريًا، لكنه كان قطًا؛ أنا متأكد.

التفت الرجل صاحب الحذاء الأبيض نحو الداخل وقال دون أن يضحك:

ـ تتقافز الآن فى هذا المكان كل القطط والكلاب التى أكلناها فى أثناء الحرب. كان طعمها آنذاك ألذّ من لحم البقر حاليًا؛ أمّا لو وضعوها اليوم أمامى فسوف أتقيأ بكل تأكيد.

قال لوثيو:

ـ أرأيت يا موريثيو؟ هذا يعزز وجهة نظرى. المسألة راجعة للعادة؛ عندما تشتد الحاجة تعتاد غصبًا عنك على الشىء الآخر.

نظر الرجل صاحب الحذاء الأبيض إلى الصقور ثانية. كانت الحلقات تهبط من السماء الصافية لتغطس فى تلك الطبقة الواطئة من

الهواء المُتْرِب، نحو شىء منتن ينقلى فى الأرض، وكأنه فى قاع طاسة هائلة.

ــ أَنْعِم النظر فيما قاله لك الحلاق– ظل لوثيو يتحدث–. صبّ لنا كأسًا، هيا، لا تتكدر اليوم، سوف يأتى لا أدرى كم من الخلائق. سوف ترعبهم بهذا الوجه.

ــ وهل تريد أنت أيضًا؟

التفت الرجل صاحب الحذاء الأبيض:

ــ قل لي... نعم، هات، هات.

وعاد من جديد للنظر إلى الخارج.

قال الجزّار:

ــ ولى، عَرَقى، مرة أخرى.

قدَّم موريثيو الأكواب. أخذ حاجب المحكمة رشفة وهو ينظر إلى صور الفتيات على النتائج السنوية الملوّنة. التفت موريثيو، متتبعًا خط سير عينيه، قال:

ـ ماذا؟ يعجبنك؟

ـ نعم- أجاب حاجب المحكمة- نعم، يعجبنني، نعم.

كانت العصبية تتملكه عندما يتكلم، وكأنما سرت فـــى أوصـــاله صدمة كهربائية؛ ابتسم بعينيه الصغيرتين.

ـ يا رجل- قال موريثيو-، إذا كن يعجبنك كثيــرًا وهــن مجــرد رسومات، فما بال لو كنَّ من لحم ودم!

ردّ الجزار:

ـ لهذا؟ هذا ممن يفضلهن مرسومات. حقًا، أنت؟ فهؤلاء لا يحــدثن ضررًا.

ـ يفعل خيرًا، إذن- قال لوثيو-؛ لأنه يتخفف هكذا من التعقيدات.

المقصود بالكلام كان ينظر إليهم دون أن يدرى بماذا يــردّ. ألــحّ الجزار بخبث:

ـ قد يكون لأنه خرج ذات مرة مسلوقًا.

ـ أنا...؟

شرب الكأس واصطنع، فى أثناء تعديله لوضع القلنسوة على رأسه، ابتسامة ملغزة، وكأنه يزيد أن يفهمهم أنهم مخطئون. كان موريثيو والجزار يضحكان كالأطفال. أبعد الرجل صاحب الحذاء الأبيض نظره عن الصقور وعاد للشرب من كأسه، قال:

ـــ كان بإمكانهم دفن هذه الجِيَف.

والجزار:

ـــ ومنْ يجرؤ على الحفر تحت الشمس، مع الصلابة التى عليها الأرض؟ منْ تريد أن يتجشم عناء هذا العمل من أجل رأس من الماشية لم تعدِ تصلح لشىء؟ الأحياء مُتْعِبون بما فيه الكفاية ولا يتركون مجالاً لانشغال المرء بالأموات.

ـــ ولو حتى من منطلق كونه تدبيرًا من تدابير النظافة والحفاظ على الصحة، هذا لا غير.

ـــ نظافة وصحة؟ لا توجد فى الحقول نظافة ولا صحة، إنهما من أجل محلات الحلاقة. أمّا النظافة الوحيدة التى يمكن أن توجد فى الريف فتتكفل بها، كما ترى، هذه الدويبات.

ـ ونعم النظافة التى سيتركون عليها المكان!

ـ لا داعى للعجب. سترى غدًا كيف سيصبح ذلك المكان نظيفًا تمامًا. يمكنكِ أن تقرف منها ما تشاء، لكنها ليست مؤذية بأيه حال. على العكس: إن ما تفعله فائدة لنا. لولم يقوموا بهذا العمل لظلت الجيفة ملقاة على الأرض لمدة شهر.

اقتصر الرجل صاحب الحذاء الأبيض على لَيّ فمه، متشككًا، والتفت من جديد نحو الباب. أمّا حاجب المحكمة فكان يهز رأسه، موافقًا، ويشير إلى الجزار بإيماءة استحسان.

كانت ميلى تستظرف برش الماء، وتضع على شعرها طاقية من البلاستيك. قالت لها لوثى، قبل ذلك، على الشاطئ:

ـ كم أن هذه الطاقيّة جميلة عليكِ! ومن أين تقولين أنكِ اشتريتيها؟

ـ أحضرها لي أخى من المغرب.

ـ إنها جميلة جدًا. ربما تكون أمريكية.

ـ أعتقد هذا...

وبعد ذلك، نزلت الاثنتان الماء، وأخذتا تضحكان كلمـــا تقــدمتا فيه: غمر فى البداية الساقين ثم وصل إلى البطن وأخيرًا إلى الصدر. كانتا تتوقفان وتتبادلان النظرات، فتتعالى الضحكات التى تنتقل بينهما كالعدوى، كأنهما فى حالة دغدغة عصبية. رشت كل منهما الأخرى بالماء وتجاذبتا، صارختين، وعندما انتهى بهما الأمر إلـــى الابــتلال بالكامل كانتا تلهثان من الــضحك. كانتـــا قـــد لحقتـــا الآن ببـــاقى المجموعة، فى نقطة يغطى فيها الماء أعلى الصدر بقليـــل. ميجيـــل وأليثيا فحسب، اللذان يحسنان العوْم أفضل من الآخـــرين، كانـــا قـــد ابتعدا نحو الداخل، جهة السَّد، فى المنطقة الأكثر عمقًا.

وفى الماء المتعكر والمأهول بالناس، كان الكل يتكلم، وينـــادى البعض على البعض الآخر صارخًا، وكأنهم ليسوا سببًا فى إحـــداث تلك الجلبة المتنامية وزيادتها، بل الصخب الحى للنهر ذاته هو الـــذى يجعلهم يصرخون، كل مرة أشد من سابقتها، حتى يفهم كل منهم مـــا يقوله الآخر.

كانت لوثى مع سانتوس وكارمن وبولينا. كـــوّن أربعـــتهم حلقـــة، متماسكين بالأذرع، وكانوا يصعدون ويهبطون فى إيقاع متحد: يضعون رؤوسهم فى الماء ثم يقفزون بعد ذلك إلى أعلى، بين الزّبد. انتحت ميلى

قليلاً واعتمدت على نفسها فى تحسين طريقة عومْها قدر المستطاع. كان تيتو وفرناندو يضحكان على إصرارها.

ــ ماذا جرى؟- قالت لهما-. أنتما فى العوْم لا يُشق لكما غبار! هيا، ابتعدا من هنا، يامِرْلان(*)، لا تزعجانى. ألا يمكن للواحدة...

سخر منها تيتو:

ــ تريدين أن تكونى إستر ويليامز(**)...! (دا) بعيد عن (شنبك)!

ــ يا أبله!

اقترب منها تيتو وأمسك عقبها ثم جرّها منه وهو يضحك.

ــ اتركنى، أيها القذر، اتركنى...!!- كانت ميلى تصرخ وهى تضرب بذراعيها الماء حتى لا تغوص رأسها فيه.

جاء فرناندو من الخلف وقفز على ظهر تيتو إلى أن جعله يغوص بكامله فى الماء. كانت ميلى تنتظر، بعد أن تحررت، إلى العراك المتحرك لفرناندو وتكهنت بصراع الآخر تحت الماء.

(*) مِرْلان: نوع من السمك، ويسمى أيضًا "أبوحنك" و"نازلى" - المترجم

(**) إستر و يليامز: سبَّاحة مشهورة فى خمسينيات القرن الماضى - المترجم

ـــ هذا ما تستحقه! احتفظ به هكذا لبعض الوقت، لأنه أبله.

وسرعان ما خرج فرناندو مندفعًا إلى أعلى، وظهرت رأس تيتو بين الزبد.

ـــ يسعدنى هذا! الجزاء من جنس العمل!- قالت له ميلى فى أثناء التقاطه لأنفاسه محاولاً استرجاع الهواء الذى فقده.

التفت فجأة.

ـــ فرناندو، فرناندو، أن يهاجمك أحد من الخلف...

اشتبك الاثنان فى عراك هائج وعنيف؛ دوّامة طرطشة صمّاء للماء، حيث يتقلب الجسدان وتظهر وتختفى الأعضاء الزّلقة؛ العضلات متشنجة والرأسان تريدان التنفس بشغف. فزعت ميلى أخيرًا عندما رأت الفم الجذع لفرناندو وهو يطلّ للحظة من فوران الماء ثم يعود للغوص من جديد.

ـــ سانتوس!- صاحت-. سيبستيان! سوف يؤذيان نفسيهما! تعاليا!

حضر الآخرون وفى الحال انفضّ العراك. الآن، تيتو وفرناندو يتبادلان النظرات منهكين، يلهثان ويسعلان، دون القدرة على الكلام؛ وكل منهما يفرك رقبته وصدره بكلتا اليدين.

ـ يا له من مُزاح عكر!– قال لهما سانتوس–. عبث محفوف بالمخاطر!

نظر إليه فرناندو بطرف عينه ورفع إصبعه، مشيرًا إلى تيتو، ولكنه لم يكن قادرًا حتى الآن على الكلام.

ـ كان على وشك أن يغرق أحدكما– علّقت بولينا–. يبدو أنكما لا تعرفان ما هو الماء.

ـ تَعرّض لي الاثنان– قالت ميلى–، ولكن خاب مسعاهما وجاءت النتيجة عكس ما أرادا.

وأخيرًا استطاع فرناندو الكلام:

ـ هذا... (هزاره) دائمًا هكذا... لا يعرف حدودًا للمزاح...

ـ أنت الذى بدأت! وهل أبقى ساكنًا بلا حراك؟

ـ لم تكن لي معك أية مشكلة. أنت بالفعل مثل مرتادى حمامات السباحة المتجاسرين عديمى الحياء، وكنت تريد استعمال رذالتك مع ميلى.

ـ لن تتشاجرا الآن لهذا السبب؟– تدخل سيبستيان طرفًا ثالثًا فى الحوار–.

ـ هذا المخلوق ليس إلا حيوانًا– احتج فرنانــدو–. ينقــصه حتــى الإدراك. لماذا يدفعنى إلى العراك فى الماء؟ لقد قاسينا الأمــرَّين نحن الاثنان بالطبع ولم تكن هناك وسيلة للانفصال، للتخلص من الكرْب الذى تملك الواحد نتيجة لمحاولته، جاهــدًا، رفــع رأســه لالتقاط الأنفاس... لقد ركبه العَتَه...!

ـ حسنًا يا فرناندو، لنترك هذا إن أردت– قال تيتو–. الأفــضل أن تسكت.

ـ لا، لن أسكت!

اقترب من تيتو وأومأ نحو صدره بإشارة من يده.

ـ فرناندو عنده حق– قالت ميلى.

توسط سيبس بين الاثنين.

ـ هيا الآن – قال لهما–. (صافى يالبن). اتركا هذا ولا تتشاجرا.

نظر تيتو إلى ميلى حانقًا.

ـ نعم يا سيدى– تشجّع فرناندو–. ولا أريدك أيضًا أن تتوجه إلــى بكلمة طوال يومنا هذا.

ـ لا تشغل بالك يا بنى، ولا حتى لمدة شهر- ردّ تيتو.

بدا الحزن على وجهه؛ استدار نصف استدارة وابتعد نحو الشاطئ، مستعينًا بدفع الماء بكلتا يديه.

ـ أمر طبيعى!- قال فرناندو موجهًا كلامه للآخرين.

نظرت بولينا إلى تيتو وهو يبتعد وقالت مغتمة:

ـ يا لها من غباوة...! لا أدرى لماذا تصرّان على التشاجر هذا الصباح، وقد أتينا جميعًا مستبشرين... مجرد رغبة فى إفساد الأمور ولا شىء أكثر.

ـ أخبريه بهذا. لا تقوليه لي.

ـ فعلاً- قالت ميلى-؛ كان الأحمق تيتو هو الذى...

قاطعها سانتوس:

ـ وأنت أيضًا عليك ألا تثيرى حفيظة أحد. يعجبك دائمًا إيقاع الفُرقة بين الناس؛ وكأنكِ تتلذذين بهذا.

ـ أنا لا أوقع الفُرقة بين الناس، أتعلم هذا؟. تيتو هو الذى تعمد مضايقتى. لا أسمح لهذا ولا لغيره بأن يضع يده علىّ، أفهمت؟

ـ حسنًا، يا بنتى، حسنًا– قال سانتوس فى نبرة تعنى عدم رغبته فى مواصلة الحوار–؛ لا تصيحى فىّ هكذا. أنا ليس لي لا فى الثور ولا فى الطحين. كلوا بعضكم.

ـ لا داعى إذن لتدخلك.

ابتعدت ميلى بصحبة فرناندو.

ـ هذه تزداد كل يوم حماقة– قال سانتوس لكارمن–؛ (هيّه فاكره نفسها إيه).

ـ لقد قلت لك هذا من قبل. ليست هذه هى المرة الأولى. تعتقد دائمًا أن الكل يجرى وراءها ويحاول الاحتكاك بها. والطامة الكبرى أن هذا يعجبها؛ بل إنه غاية المنى بالنسبة لها.

ـ إنها تثير الفضائح. متصنعة مثل قمة شجرة صنوبر. أنا لا أطيقها، صراحة ودون مواربة.

ـ ولا أنا.

انضما إلى لوثى وبولينا وسيبستيان.

ـ هيا، لنشكل الحلقة كما فعلنا من قبل.

ـ اسمع، نادوا على تيتو – قالت لوثى.

ـ اتركيه؛ هذا لن يأتى. لقد غضب.

ـ وهل هو غضبان منا؟

ـ من الجميع، تقريبًا.

ـ يا له من فتى مسكين! – قالت لوثيتا –. ما كان ينبغى أن نتركه يمضى هكذا.

مسحت بعينيها الشاطئ لتفتش عنه. هنالك الآن مع ابنته الرجل السمين الذى يشبه بوذا، يتعاونان على تصبين «أورو» الذى كان يحاول التملص من بين أيديهما.

كان فرناندو وميلى قد ابتعدا نحو المياه العميقة، باتجاه ميجيل وخطيبته. الماء يلامس الآن أكتافهما، ولا تجرؤ ميلى على التقدم أكثر.

ـ إلى! – كانت تصيح –. أليثيا!

ردت عليها بصيحة سرور، وهى تلوّح بيدها.

ـ هل المياه عميقة عندكما حيث توجدان؟

ـ نعم، عميقة إلى حدٍ ما- أجابت أليثيا-. لا تأتى، لو كنتِ خائفة.

ـ لا تسمعى كلامها يا ميلى- قال ميجيل-. لا تترددا فى القدوم؛ هنا يمكنكما الانطلاق وإجادة التدريب على العوم.

رفضت ميلى بإيماءة من رأسها وقالت لفرناندو:

ـ لن أذهب؛ أخاف أن يحلّ بى التعب.

ثم صاحت من جديد باتجاه أليثيا وميجيل:

ـ اسمعى، تعاليا أنتما. لدينا ما يجب أن نقصه عليكما.

ـ يا أم لسان زالف- قال فرناندو-. ستُفرجين لهما عما بصَدرك كاملاً؟ يالأهمية الشىء الذى سيسمعانه!

ـ يا أبله، هذا من أجل أن يأتيا فحسب.

ـ نعم، نعم، من أجل أن يأتيا... أنتِ، يا بنتى، ليس لك مثيل. أنتِ قادرة، لو كان لكِ مزاج، على تحريك نصف البشرية. وفوق هذا تتمتعين بتلك الموهبة التى تجعل الناس تعجب بكِ، وأنا، على الأقل من جهتى، لا أقدر على تحمل أفعالكِ.

ـــ آه، نعم؟- قالت في نبرة شك متكلفة-. كثيرة هي الأشياء التي أفعلها ويجب على الآخرين تحملها؟

ـــ كم يعجبكِ أن يقولوا لكِ هذا! إيه؟ تشعرين بالملاطفة ممنْ يقصّ عليكِ هذه الأشياء...

ـــ أنا؟

ـــ دعِكِ من المداراة الآن، هيا، لقد أعلنتِ عن نفسكِ بوضوح تام.

ـــ يا لك من حاقد!- قالت نصف مستاءة ومُشْهرة ابتسامة-. تعرف كيف تكون حقودًا يا بنى؛ عندما تصدر منك هذه الضحكة التي تشبه ضحكة الأرنب. هـ ى ى ى! لقد تملكني الغيظ لأنه كان على وشك أن يقتلك، تصوّر!- كانت تهزه من وجهه وهي تجزّ على أسنانها وتغمز بعينيها- هـ ى ى ى، يا لها من ضحكة أرنب!- وتضحك، متسلية بغيظها ذاته-. أحمق، حقود! الآن يأتي الآخرون...

الآن يتسلى سانتوس بإخافة كارمن، لأنه جرّها إلى منطقة يغطي فيها الماء كتفيها.

ـ انظروا لهذه، وللخوف الذى اعتراهـا!- كـان يـصيح باتجـاه الآخرين وهو يضحك.

حاولت الفتاة تدبير أمرها بالاعتماد على كلتا يديها، وأخذت تمدّ رقبتها إلى أعلى وكأنها تريد الابتعاد قدر الإمكان عن الماء.

ـ متجاسر وقليل الحياء، أنت متجاسر وقليل الحياء! آى، النهر هنـا عميق يا سانتوس، آى، لا تتركنى، الماء يغطينى!

أمالت نصفها العلوى كله على سانتوس، وتعلقت بكتفيه.

ـ واضح أنكِ تثنين الركبتين. ضعى قدميكِ على الأرض يا امـرأة، وسترين أن الماء لن يغطيكِ. أنت تنشبين أظفارك فى جسدى! لا داعى للخوف المبالغ فيه.

ـ أنت متجاسر وقليل الحياء، تتسلى على حسابى، وتنـادى علـى الآخرين لكى يضحكوا- كانـت تحـتج بنبـرة صـوت متقلبـة الأطوار-. أريد الخروج.

كان الثلاثة الآخرون خلفهما، وسيبستيان يعوم بحركات خرقاء، فى شكل دوائر، محدثًا جلبة كبيرة بالزبد، ومتعثرًا على الـدوام فـى الناس التى يغص بها النهر. كان هناك طفل بين ذراعى والده، يبكى

ويرفس بقدميه ويصرخ صرخات مرعبة كلما أحس بقرب الماء منه، بينما يقتصر والده على رش رأسه بالماء وتكرار النداء عليه قائلاً: "خلاص، يا بنى، خلاص...". كانت بولينا ولوثى تنظران إليه.

ــ يا للاطفال! لا أدرى سر الإصرار على استحمامهم.

ــ لقد بدأت أشعر بالبرد– قالت لوثى–. مكثنا طويلاً فى الماء. هل نخرج؟

ــ انتظرى لنرى ماذا يفعل سيبس.

أجالت بصرها بين الناس جميعًا للبحث عنه.

ــ إنه هناك– قالت لوثى–؛ انظرى إليه. إنه يتجه نحو أولئك.

كان يتجه، سباحة، ناحية ميجيل والباقين.

ــ من الفضيحة التى يثيرها بعومه فحسب تعرفين أين هو– علّقت بولينا–. لا يوجد شخص واحد فى النهر كله يثير ربع ما يثيره من الزبد. ولا حتى "كوين ميرى"، يا بنتى. هيا بنا.

عثرتا على تيتو مستلقيًا تحت الشمس المتسللة بين الأشجار. اقتربتا.

ـ ماذا تفعل؟

ـ فى الشمس كما تريان. هل خرجتما الآن؟

ـ نعم- قالت لوثى-. هل يضايقك لو أخذنا حمام شمس إلى جوارك هنا؟

ـ وهل يحتاج هذا إلى إذن منى، يالوثيتا!

ـ لا أدرى... ربما يروق لك البقاء وحيدًا.

احمرّت خجلاً.

ـ يا لها من ظنون!

تمددت بولينا ولوثيتا إلى جواره.

ـ الشمس مطلوبة الآن- قالت بولينا-.

ـ قاسية قليلاً. بدأت أشعر بهذا. ربما لخروجنا للتوّ من الماء.

ـ وماذا يفعل دانى؟ هل ذهبت إلى حيث يوجد؟

ـ إنه يواصل هناك. اقتربت لأخذ سيجارة، ولم يحرك ساكنًا، ما زال متكدرًا.

قالت بولينا:

ـ أن يتجشم الواحد العناء ويأتى إلى النهر من أجل هذا...!

دخل بغتة، محتكًا ببنطال الرجل ذى الحذاء الأبيض، كلب أصفر اللون. شرع فى الاحتفال بالموجودين، مبتهجًا ومتلويًا، وكأنه يريد تحيتهم. أقعى بعد ذلك فى الفجوة الملاصقة للباب ونظر فى اتجاه الخارج وبقى ساكنًا. كان يحرك ذيله فيصطدم باللوح الأخير من طاولة البار، محدثًا رنّات خفيفة.

ـ حذارِ من الكلب هذا- قال موريثيو-، إنه والشّغب صنوان.

ـ يشبه صاحبه- قال الجزار فى ملاحظة منه-، لديه نفس خصال التشاماريس.

ـ ينتهى المطاف بالكلاب جميعًا إلى أن يصبحوا على شاكلة أصحابهم- تدخل لوثيو طرفًا ثالثًا فى الحوار-؛ لم تزل إلى الآن علامة العضّة التى أضرمها فى ساقى كلب أسود لدى سلفتى.

أطلق الجزار ضحكة مجلجلة.

ـ أصابك من الحب جانب!– قال–.

عاد الكلب لإحداث جلبة؛ كان يدخل رجلان؛ وضع فمه وأنفه على بنطال الرجل ذو الحذاء الأبيض وأخذ يتشممه.

ـ صباح الخير للجميع.

التفت الرجل ذو الحذاء الأبيض عندما أحس بخطْم الكلب على ساقه.

ـ أثوفرى، اهدأ– زعق فيه صاحبه.

امتثل الكلب.

ـ كيف الحال؟– سأل موريثيو–.

ـ حرّ شديد. هل أحضرت بيرة؟

ـ إنها فى الثلج منذ الصباح.

ـ تعجبنى هكذا.

ـ علينا انتظار أيام الآحاد لكى نتناول البيرة هنا.

ـ لو أردتم أحضرها كل يوم، بشرط أن تتعهدوا باستهلاك صندوق منها فى اليوم. أمّا خلاف هذا فلا جدوى منها، لأن الضغط سوف يتسرب منها فيما بعد ولن أجد منْ يتناولها منى.

ـ لمنْ هذا الموتوسيكل الموجود بالخارج؟- سأل الذى دخل مع صاحب الكلب-.

ـ لفتيان من مدريد جاءوا لقضاء الأحد هنا.

ـ حسبته موتوسيكل طبيب توريّخون. إنه من نفس الماركة.

ـ أنا لا أميّز بينها- قال موريثيو- يبدو لي أنها جميعًا واحدة. هذه الكراكيب بالنسبة لي...

ـ الموتوسيكل شيء جيد- رد الجزّار-. إنه ممتاز لمنْ يتعين عليه التنقل على الطريق العام. تسير بسرعة ومرتاحًا. لو أمكن استخدامه فى حقل واسع مستعرض، سترى كيف يتهافت عليه الجميع ولن يتوانى العامل الزراعى فى استبدال الحصان به. لا يحتاج هذا إلى تفكير.

ـ بشرط أن يكونَ لديه مال وفير.

غمز موريثيو بعينه وأعلن:

ـ هذا يملكه.

ـ قل لنا، يا أنيانو، كم يساوى موتوسيكل من هؤلاء؟

ـ (شوف)... ماكينة «ديكوبى»[*] من هذا الموديل، قوة محركها خمسة أحصنة، وبخاصية النقل الآلى للحركة بدون جنزير؛ غالية بالطبع...

ـ ضع رقمًا تقريبيًا.

ـ من خمس وثلاثين إلى أربعين ورقة مالية[**]؛ على حسب الاستخدام.

ـ هذا هو- علّق الجزار-؛ خمسة أمثال سعر الحصان. طبعًا، ألم تقل أنها قوة خمسة؟

ـ نعم يا سيدى، خمسة.

ـ عندك - قال لوثيو-؛ هذا يعنى أن قيمة الأحصنة من لحم ودم تساوى قيمة المصنوعة من الصلب. إنها فى نهاية المطاف أحصنة سواء كانت هذه أو تلك.

ـ حذارِ؛ الأمر لا يتعلق بأحصنة من الصلب، بل من البخار.

(*) "ديكوبى"، هى إحدى ماركات الموتوسيكل وقتذاك - المترجم-.

(**) المقصود بالورقة المالية هنا هى الورقة فئة المائة بيزيتة (العملة التى كانت تستخدم فى إسبانيا قبل اليورو) - المترجم-.

ـــ من البخار يا سيدى، (ولا تزعل نفسك)؛ الأمر لن يختلف بالنسبة لموضوعنا.

علّق حاجب المحكمة منفعلاً:

ـــ تتحدثان كما لو أن الموتوسيكل مزوّد بخمسة أحصنة محبوسة فى المحرك - كان يضحك-، ولذا يصدر عنها كل هذا الصخب عندما تسير. وبالطبع كلما زاد عدد الأحصنة التى لديها، كلما زاد الصخب أكثر. لو أن محرك إحداها به مائة، تصور إذن- كان ينفض أصابعه محدثًا صوتًا- ما يمكن أن تثيره!

أرخى أنيانو رباط العنق. كان يرتدى بدلة متواضعة فاتحة اللون، حوافِ كُمّيْها متآكلة، ويطل من جيبه العلوى غطاء قلم رصاص أصفر. مرّر أصابعه على جلد الرقبة اللامعة بالعرق. كان إلتشاماريس يرتدى صديريًا ذا لون رمادى فاتح، به سوسته على الصدر. كانت السوسته مفتوحة عن آخرها، والقميص مفتوح حتى الزّر الثالث؛ تطوّق معصم يده اليمنى أسورة من الجلد، وفى الإصبع البِنْصر دبلة. قال فجأة:

ـــ ها هو الدخان، يا سادة.

قَدّم للوثيو علبة تبغ غامقة اللون. يميل أنيانو إلى القِصر؛ كان يسند ظهره ويعتمد بكوعيه على طاولة البار، وينظر باتجاه خلفية المكان، إلى خزانة المأكولات المصنوعة من خشب الصنوبر، وعلى صور مطبوعة بالألوان فوق بساط موجود خلف رأس حاجب المحكمة؛ كانت صورًا لأرانب وشمام وحمامة ميتة. اعتقد حاجب المحكمة أن الأنيانو ينظر إليه، تردد، انزاح جانبًا؛ ثم نظر بعد ذلك إلى خلفية المكان أيضًا، عندما لاحظ أن الأنيانو ظل موجهًا عينيه إلى هناك. ربما كان سيقول شيئًا عن الصور المطبوعة بالألوان، ولكن الأنيانو غيّر من وضعه وأخذ كأس البيرة من على طاولة البار.

الآن تدخل المرأتان، العائدتان من سان فرناندو، محملتين. اقتربت خوستينا من لوثيو وسلّمته التبغ؛ قائلة له:

ــ ها هى علبة الدخان.

ــ ألا يُزيد العرقى من إحساسك بالحرّ؟- سأل أنيانو الجزار-.

ــ أبدًا، وعلى عكس ما يُعتقد، فإن البيرة هى التى تجعلك حرّانًا أكثر. كلما شربت منها، كلما طالبك الجسد بالمزيد، وبهذا الشكل يتحول الواحد فى النهاية إلى قِربة ماء- مرّر إليه علبة الدخان-. تفضل.

ـ يمكن أن يكون هذا صحيحًا أيضًا- علّق إلتشاماريس-. إنه مثل الاستحمام: أحيانًا (يطق) فى دماغى الاستحمام فى النهر؛ للنظافة ليس إلا، وما يحدث أنك تجد الماء فى البداية وكأنه يرطب، ولكن ينتهى بك الأمر بعد ذلك إلى العرق أكثر من الأول.

كان حاجب المحكمة يتابع بعينيه علبة الدخان وهى تتنقل من يد إلى الأخرى. الآن يعطيها أنيانو لموريثيو.

ـ شكرًا، فرغت منها للتو وألقيتها- أشار بذقنه إلى عُقْب سيجارة على الأرض - أعطها لكارميلو.

التقط حاجب المحكمة علبة الدخان بشىء من الابتهاج، مثل طفل يتلقى قطعة حلوى.

ـ حسنًا، نلف سيجارة...- قال مطرقعًا لسانه-.

ـ لا يفلّ الحديد إلا الحديد- قال لوثيو-؛ البرد بالبرد، والحرّ بالحر. بمجرد أن تفرك وجهك فى الشتاء بالثلج تجده مثل زهرة الخشخاش، من شدّة الاحمرار والتوهج. لا يوجد شىء مثل هذا لاسترداد النشاط والوعى. وهذا نفس ما يحدث له مع العرقى؛ من الواضح أنه يُحَصِّنه ضد الحرارة.

ـ ولماذا لا تتناوله عندئذ، محتذيًا النموذج الموجود هنا؟

وضع لوثيو كفّه على بطنه، فى إشارة منه إليها:

ـ آه، يا صديقى؛ ليست لدىّ هذه الصحة. الهرّة لا يعجبها العرقى، تقول لا. يعتريها غضب عارم، وتشرع فى الخدش والعض. لا تحتمل حتى أن يدوس ذيلها أحد.

ابتسم إلتشاماريس:

ـ أنت أيضًا؟-. تعانى أيضًا من القرحة؟

هزّ لوثيو رأسه موافقًا.

ـ سلِّم على هؤلاء الخمسة- واصل إلتشاماريس، وتصافحا باليدين-. (بُص شوف) بالأمس القريب دار بيننا نفس هذا الحديث فى كوسلادا وأخذنا نعدّ، من باب الفضول ليس إلا، لنرى عدد الذين لديهم قرحة المعدة من بين معارفنا فى القرية. ضع فى اعتبارك أننا كنا أربعة فحسب؛ كم تقدّر العدد الذى توصلنا إليه؟ ضع رقمًا تخمينيًا.

كان على وشك أن يحفظ فى جيبه، شارد الذهن، علبة الدخان التى أعادها إليه كارميلو، ولكن الأخير جذب كمّ قميصه وأشار، بحاجبيه المرفوعين إلى الرجل ذى الحذاء الأبيض الذى كان يواصل

الجلوس فى الفجوة، معطيًا ظهره، وينظر باتجاه الصقور. اقترب منه إلتشاماريس، ثم ربّت على كتفه بعلبة الدخان.

ــ تريد التدخين...

التفت الرجل ذو الحذاء الأبيض.

ــ هيا، لا أدرى ماذا دهاك اليوم. أراك غير متحمس على ما يبدو لمشاركتنا الحديث. دعك من النظر إلى الخارج و(خلّيك) معنا هنا؛ لتكون على علم بما نخوض فيه وتسلّى نفسك بما يدور من أحاديث.

اقتصر الآخر على ليّ فمه بابتسامة مشوّشة وأخذ علبة الدخان قائلاً:

ــ شكرًا، لا تدرى ما أنا عليه اليوم... سأخذ منك سيجارة.

رجع إلتشاماريس إلى وسط الحلقة.

ــ حسنًا، لنرى ياسيد لوثيو– قال له–، (تفتكر) كم قرحة عددناها فى كوسلادا ذلك اليوم؟

ــ لا أدرى... ربما دستة؟

وكزه إلتشاماريس فى كتفه، وضغط على كلماته، متهيجًا:

ـ سبع عشرة! ما لا يقل عن سبع عشرة قرحة معدة. ما رأيك؟ إيه؟

تحوّل إلى بعض الشىء من العدوانية.

ـ ليس سيئًا، لا يا سيدى. ليس متوسطًا سيئًا.لا تظن أنه لا يوجد فى سان فرناندو مثلها، إن لم يزيد.

انفجر الجزار ضاحكًا.

ـ هذا! نُجرى الآن مسابقة بين القريتين، لنرى فى أيهما توجد قُرَح أكثر. ويا لها من مصادفة! حتى الأنيانو موجود معنا هنا، لكى يملى عليكم شروط المسابقة، مثلما نفعل فى الأعياد. إيه؟ كيف الحال؟

ـ أنت تضحك– قال له إلتشاماريس–. الثيران فى أحسن حال مادمت تراها من خارج الأسوار! لو كنت تعانى من قرحة، أو من هرّة كما يطلق عليها وبحق السيد لوثيو، تعضك من الداخل، فلن يكون هذا قولك. لن تضحك كثيرًا. وسوف تكره العرقى، ولكن بأسرع مما تتصور.

ـ كلام، يعيش الناس بها سنوات طويلة. هناك أمراض أخرى أسوأ منها.

- تستطيع التحمل ما دمت تعتنى بصحتك- قال لوثيو-، ولكن فى يوم لا يخطر لك على بال يداهمك ثقب لعين يودى بك إلى الجحيم. قليل من المزاح مع الهرّة. إنها دويبة لا تعرف اللعب.

- وتحرم الواحد من الكثير. فضلاً عما تسببه من آلام ومضايقات وسوء مزاج.

- مضايقات كثيرة، بالطبع، لا تحصى- أكّد لوثيو على كلامه-.

- هيا يا لوثيو، (عايز) تفهمنى الآن... أنت لا تحرم نفسك من شيء. على آخر النهار تكون قد شربت أكثر من أى واحد فينا. والآن تمثل دور الضحية.

- لأن الأمر بالنسبة لي سواء: أن تطول بى الحياة عشر سنوات أو تقصر خمسًا. فى مثل أعمارنا هذه لا يختلف الأمر كثيرًا. على الأقل ينزاح سريعًا العائق من أمام سلفتى- كان يضحك من بين أسنانه- أمامكم نموذج لواحدة لا يرد بمخيلتها أن تقول لي ذات يوم ولو من باب تأدية الواجب: "اعتن بنفسك، يا لوثيو". لا يرد بخاطرها هذا الشيء، وأنّى لها بهذا الخاطر!

- شرعت فى النّبش- قال موريثيو-. أنت لا تُقحم منذ فترة سيرتها فى الكلام، والآن جاء عليها الدور كى تتحفها بلمزة أخرى.

لا يمكنك تركها مستريحة فترة طويلة ومتواصلة من الزمن. كنت مندهشاً وفى غاية العجب.

ضحك الآخرون.

كانت الأجساد ترنّ وهى تغوص فى المياه المتجمعة أمام السدّ. كانت تتراءى للحظة على حافة السدّ، وبعد ذلك الطرطشات التى تحدثها عند اصطدامها بسطح الماء. كان للأصوات جَرْس واضح فى الماء، مثل صدى معدن النيكل. كان ميجيل وأليثيا فى معيّة فرناندو وميلى؛ الآن يضحك الأربعة على سيبس الذى كان يتجه نحوهم عومًا.

ــ تبدو من الطريقة التى تتقدم بها يا فتى مثل أى شىء فيما عدا إنسان يعوم.

ــ وما يحدثه من جلبة يفوق ضجيج قشر عين الجمل. لا يمكن أن يثير ولو حتى بيديه نصف هذه الجلبة.

وصل سيبس لاهثًا.

ــ ما بالكم؟

ـ لا شيء. أنت الذى تخلط بين العوم والمصارعة الحرّة؛ يبدو وكأنك تتعارك مع الماء.

ـ آه، كل فرد له أسلوبه الخاص– ردّ سيبستيان–.

ـ وجهة نظر مقبولة بالطبع.

ـ وماذا تفعلون؟

ـ كان هذان يحكيان لنا تفاصيل المشاحنة.

ـ علمت بها. ولكن، اسمع، ودانييل، لم لا يستحم؟

ـ لا أحد يستطيع التكهن بما سيفعله.

ـ صحيح. ابحث عنه أنت– قال فرناندو وهو يشير بإصبعه السبّابة ناحية الأشجار–؛ يا للنوم الذى يسيطر على الأندلسى(*)! لم يأتِ هذا للاستحمام.

ـ هيا بنا ننادى عليه.

ـ هيا، الجميع فى وقت واحد؛ عندما أعدّ حتى ثلاثة. جاهزون. واحد، اثنان، وثلاثة...!

(*) (gaché) أو (gacho): اسم يطلقه الغجر على أهل الأندلس، ويحمل تعريضنا بميلهم إلى الكسل والنوم الكثير– المترجم–.

ــ دانيييل!!

ــ بصوت أعلى.

ــ دانيييل!!

ــ هذا لا يكفى. وأنت يا ميلى، لماذا لا تنادى معنا؟

ــ باه(*)، دعه ينام. هو وشأنه.

ــ إنه قادر على احتساء زجاجة النبيذ الأخرى بمفرده.

ــ لا تظن أن يقع هذا منى موقع الغرابة أو الدهشة.

ــ ماذا، عندئذ؟ هل نخرج؟

كان يعود إلى الشاطئ آنذاك أناس كثيرون للاستلقاء تحت الشمس. كانت الفضاءات بين الأشجار مكتظة بأشخاص فى ملابس الاستحمام، جالسين فى التراب فوق مناشف وبرانس. وعلى حافة الخزان وبطولها كله كان يطلّ صف من الرؤوس؛ الأجساد غير مرئية لأنها متمددة فى الجهة المقابلة لأخذ حمام شمس على المسطح

(*) (Bah) (باه): صيحة استهانة أو احتقار – المترجم-.

الأسمنتى المائل؛ أمّا فى هذه الجهة فتظهر فحسب الرؤوس والأذرع المتدلية، التى تبلغ الماء بأطراف الأصابع وتتسلى برشّه هنا وهناك.

ـ ينبغى الاقتراب فى صمت– كان يقترح فرناندو–؛ وأن نمسك به كلنا فجأة ونوسعه ضربًا على مؤخرته أو نحمله بملابسه إلى النهر، كما هو.

ـ تريد أن تعميها بدلاً من تكحيلها؛ سوف يزداد غيظًا على غيظ.

ـ سيتضاعف غضبه؛ وهذا أسوأ بالنسبة له.

ـ لا داعى لهذا– قال ميجيل–. من الأفضل ترك المزاح جانبًا لأنه ينتهى دائمًا بخاتمة سيئة؛ لقد رأيت ما حدث من قبل.

وبمجرد أن لمست أقدامهم الشاطئ شرعوا فى الجرى، صائحين. بقيت ميلى وحدها متأخرة، تمشى الهوينى. وصلوا إلى دانييل وأخذوا يدورون حوله ويصيحون:

ـ دانييل! دانييليتو! استيقظ، الساعة تدق الثامنة! استيقظ، يا فتى، ستصل متأخرًا، لقد فتحوا محل الأحذية! دانييل، الإفطار! سوف تبرد قهوتك...!

كان ينظر بطرف عينه، معشيًا من الضوء، ويبتسم دون رغبة، ويضرب الهواء بقبضته، لترويعهم، كما لو كانوا يعاسيب.

ـ أفِقْ، يا فتى.

ـ لتتركونى. هيا. الماء يتناثر من أجسادكم فوقى. ارحلوا جميعًا دفعة واحدة وابحثوا عن آخر كى تضايقونه...

ـ ألا تفكر فى الاستحمام؟- سأله ميجيل-.

ـ لا. أنا مستريح هكذا. اذهبوا لترطبوا أجسادكم.

ـ دمك خفيف، يا بنى.

أحس ميجيل بضربات خفيفة على ظهره، التفت.

ـ انظر. من رأيى أن نتركه- قال له فرناندو وهو يشير إلى الزجاجة الفارغة-، ألا ترى؟

الآن، عاد دانييل لإخفاء وجهه بين ذراعيه.

ـ نعم، من الأفضل تركه.

أخرجوا المناشف وجففوا أجسادهم. يوجد الآن أناس أقل فى النهر. كانت تصل من أحد الأماكن روائح طعام الغداء؛ وفى

معسكر آخر غير بعيد كانوا يضربون بالملاعق فوق أغطية وأطباق من الألمنيوم مسببين الإزعاج للجميع.

الآن تقول كارمن لخطيبها:

ــ انظر كيف أصبحت أصابعى. تبدو مثل الزبيب.

ــ يا لهما من يدين مسكينتين! ولكنك ترتجفين، يا بنتى، مثل جَـرْو صغير!

ــ طبعًا...– أجابته بنغمة متدللة–.

ــ هيا بنا نخرج. يبدو لي أنكِ والماء لستما على وفاق. لا ينبغى أن تخافى منه كثيرًا، يا امرأة.

اتجها نحو الشاطئ وهما متخاصران، يدفعان الماء بركبهما فى شىء من العَنَت.

ــ أنت الذى تستعرض بتخويفى، وتتسلى بهذا.

ــ حتى تعتادى، يا كارميلا، ويختفى الاحترام الذى تكنينـــه للمـــاء، ولكى تزول عنكِ الرهبة.

كانا يتثاقلان الخطى فى إيقاع متحد، يلهوان، وينظران إلى الماء الذى يغطى سيقانهما، ويقل منسوبه تبعًا لاقترابهما من الشاطئ.

ــ يا لنعومة الطين هذا!– قالت كارمن–، ألا يروقك الــدَّوْس عليــه لنعومته كالحرير؟

ــ يبدو وكأنه جيلاتين.

انحنى سانتوس وغمس يده فى الماء ليستخرج قبضة من الطين الضارب للاحمرار، والذى كان يتفلت من بين أصابعه. جعلــه بعــد ذلك يقطّر على ظهر الفتاة.

توقفت لتنظيف ظهرها، قالت بعد ذلك:

ــ اسمع يا سانتوس، هل صحيح أن السباحين الحقيقيــين يــدهنون أجسادهم كلها بالشحم حتى لا يشعرون بالبرد؟

ــ نعم، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بتحطيم رقم قياسىّ فى التحمــل؛ مثل عبور مخاضة قنال المانش، على سبيل المثال.

ــ يا لها إذن من تعقيدات!

تخاصرا من جديد. كان سانتوس ينظر حواليه.

ــ لا أرى هؤلاء.

ــ وفيمَ تريدهم؟ إنهم مزعجون بما فيه الكفاية هذا الصباح.

ـ نعم، فعلاً. الأفضل أن نكون أنا وأنت وحدنا. أليس كذلك ياحبى؟ دون الاحتياج إلى أحد.

توقفا لدى الشاطئ، ونظرت إليه كارمن ووافقت مبتسمة، ثم قالت له:

ـ يا دون جوان.

ـ اشطفى الآن هذه التنّورة وضعيها فى الشمس لكى تجف.

نادى عليهما الآخرون وسألوهما إذا كانا سيشاركان فى لعبة «البيدولا»(*)، فذهب معهم سانتوس وبقيت كارمن لغسل تنورتها الملطخة بالطين من جرّاء سقْطة الصباح. انضمت بولينا أيضًا إلى المشاركين فى اللعبة. أمّا تيتو ولوثيتا ففضلا الاستمرار فى حمام الشمس. كان سيبستيان هو الذى تطوع بالانحناء أولاً، ثم تشكلت السلسلة على امتداد النهر من الآخرين. كان الذى ينتهى من القفز

(*) "بيدولة" (pídola): لعبة جماعية، تصطف فيها بالعرض مجموعة أفراد، منحنية فى هيئة الركوع، وبين كل فرد والآخر مسافة تسمح بحرية القفز، ويقوم أحدهم (وهو الذى لم ينحنِ مثلهم) بالقفز على الباقين، وبعد انتهائه ينحنى فى آخر الصفّ ليقوم الذى أصبح فى بداية الصف بالقفز مثله، وهكذا دواليك. ومنْ يتعثر ويسقط فى أثناء القفز يعاقبونه بعقاب ما -المترجم-.

يأخذ موضعه على بُعد عدة خطوات ممنْ ينتهى به الصف، وهكـذا على التوالى، إلى أن يأتى الدور على الأخير فيبدأ القفز من جديـد، وهكذا دواليك. لم تكن ميلى تعدم منْ يقول لها«هُبْ!»(*) ويرفع ردفيه فى لحظة القفز لكى يسقطها على الأرض. ولكن كانت هـى التـى استطاعت إسقاط فرناندو، على سبيل الانتقام، فأثارت بهـذا ضـحك الآخرين.

ـ هيا أيها الصبى! هذا لتتعلم ألا تعاكس ميلى.

تحالفوا كلهم بعد ذلك ضد ميجيل.

ـ لنرى إن كان بإمكاننا إسقاط ذى الـرجلين الطـويلتين- كـانوا يقولون-.

كانت السلسلة تتقدم رويدا رويدا على الشاطئ، وكـان ميجيـل قاسيًا فى الشدّ مما اضطر الفتيات إلى الخروج من الصف، محتجات بأنهن يتعرضن للخشونة المنافية لأصول اللعبة. وفى النهايـة سـقط ميجيل متكورًا بعد اصطدامه بظهر سيبس، وفى الحال تكوّموا عليه.

(*) "هُبْ" (Hop): صيحة تحفيز وتشجيع، يُقصد بها التشكيك فى قدرات المتسابق – المترجم-.

حاولوا جرّ ميجيل نحو الماء، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة عليه، وانتهى الأمر بأربعتهم إلى السقوط فى النهر. خرجوا ضاحكين والماء يتقاطر منهم.

ـــ يا له من ميجيل! يا له من دويبة!

ـــ لا يوجد منْ يقدر عليه، نظرًا لقوته.

كانت الفتيات ينظرن إليهم. قالت بولينا:

ـــ لابد أن يكون (هزارهم) متوحشًا. إن لم يكن هكذا، لا يعجبهم.

ـــ ميجيل هو الأشد قوة- قالت ميلى-؛ ثلاثة ضد واحد ولم يقدروا عليه.

ارتدت كارمن البلوزة فوق المايوه، وشمرتّها بعقدة على الخصر، فى أثناء نشرها للتنورة كى تجف. سمعت دانييل ينادى عليها. كان منظره مسليًا، وهو يحك قفاه، ووجهه محمر بكامله من أثر النوم، وعلامات الأرض مرتسمة، كالجدرى، فوق خدّيه. أخرج صوتًا مشوبًا بالفزع:

ـــ أين ذهب الجميع؟

ــ إنهم هنالك يا رجل- ردت عليه-؛ إنهم هنالك، ألا تراهم؟

لم يكن دانى قد استفاق من خَدَره.

ــ ما كل هذا الشرود والتوهان الذى أنت فيه، يا بنى؟

رفع يديه وفرك بهما عينيه. نظر بعد ذلك مشوشاً إلى الضوء الساطع للنهر، الذى يُدمى العيون. لا يستحم الآن سوى عدد قليل. وبين الأشجار هنا، رأى طفلين عاريين مُكْرشين، وفوق رأسيهما قبعتان من قماش أبيض؛ وبعيدًا عنهما رأى ميلى فى الشمس. التفت ثانية نحو كارمن فلم يجدها. تمدد على ظهره.

قالت لوثيتا:

ــ لم يتصرف معكَ فرناندو بشكل لائق...

ــ لا أدرى- قال تيتو-. لا تكلمينى الآن عن فرناندو.

ــ ميلى هى صاحبة الذنب فى كل هذا، أليس كذلك؟

كان الاثنان متمددين على بطنيهما، معتمدين بالمرافق على الأرض. هزّ تيتو كتفيه:

ـ أو أيًا منْ كان. الأمر سواء.

ـ اسمع، ما رأيك فى ميلى؟

ـ ميلى؟ من أية ناحية؟

ـ إذا كانت تبدو ظريفة، وهلّم جرّا؛ لا أدرى.

ـ فى فترات.

ـ إنها حسنة القدّ.

ـ بالتأكيد.

ـ على أية حال فهى معجبة بنفسها بشكل مبالغ فيه، ألا تعتقد هذا أيضًا؟

ـ وما يدرينى، يا بنتى. لماذا تدفعيننى للحديث عن ميلى الآن؟ وما الداعى لهذا الاهتمام من الأساس؟

ـ لابد وأن نتحدث عن شىء ما...

نطقت الجملة السابقة بنغمة منكسرة، وكأنها تعلن انسحابها من مواصلة الحديث. التفت نحوها تيتو ونظر إليها بابتسامة اعتذار:

ــ أنا آسف، يا حلوة. الانشغال الآن بالحديث عن ميلى هــو الــذى يثير حفيظتى؛ لا تملين من السؤال عنها.

ــ بالنسبة لنا، معاشر الفتيات، يروق لنا معرفة آراء الفتيــان فينــا؛ لو كنتم ترونا مغترات أو ما شابه.

ــ أنتِ لست كذلك.

ــ لا؟

توقفت وكأنها تنتظر مواصلة تيتو الكلام؛ ثم أضافت بعد ذلك:

ــ بل الأحرى نعم؛ أكون هكذا أحيانًا، على خلاف ما تعتقد.

أطبق الصمت لبضع لحظات؛ ثم عادت لوثى للسؤال:

ــ تيتو، كيف تبدو لك الفتاة التى ترتدى بنطالاً؟ مثل ميلى.

ــ وكيف ستبدو لي؟ لا شيء إذن؛ مجرد لباس مثل أى لباس آخر.

ــ ولكن، هل يعجبك أن ترتديه فتاة؟

ــ لا أدرى. يتوقف هذا على مدى مناسبته لها، حسب ظنى.

ـ تصوّر أنه ورد بخاطرى ارتداؤه ولكنى لم أجرؤ فى النهاية. فى عيد القُرْبان ذهبنا فى رحلة إلى الإسكوريال(*). كنت على وشك شرائه وخانتنى الشجاعة.

ـ تحفظات بلهاء ولا معنى لها. من الآخر، ماذا يمكن أن يحدث لكِ؟

ـ أن أكون مثارًا للسخرية؛ أيبدو لك هذا قليلاً؟

ـ هناك أشكال أخرى عديدة لإثارة السخرية. هذا بالإضافة إلى أننى لا أدرى لماذا ستكونين أنتِ بالتحديد مثارًا للسخرية؟

ـ لأننى لا أتمتع بقوام فارِع لارتداء البنطال.

ـ فى كل الأحوال أنتِ لستِ قصيرة يا فتاة. قامتك مناسبة. وليس من الضرورى أيضًا للتمتع بقدّ جميل أن تكونى طويلة جدًا.

ـ أيبدو لك أننى أتمتع بقدّ حسن؟

ـ بالطبع تملكين هذا القدّ. أنتِ فتاة يمكن أن تثير الإعجاب، وهذا ما أعتقده.

(*) "إسكوريال" (Escorial): مدينة تاريخية تبعد عن شمال مدريد بحوالى خمسين كيلومترًا. وتضم رُفات ملوك وأمراء وأميرات إسبانيا منذ القرن السادس عشر. وبها أيضًا مكتبة أثرية ضخمة تحوى أعدادًا كبيرة من الكتب والمخطوطات العربية النادرة – المترجم-.

فكرت برويّة عدة لحظات، ثم قالت:

ــ على أية حال، أنا أعرف أننى لو كنت أبدو لك على خلاف هــذا فلن تقول لي سوى ما قلته.

ــ آه، حسنًا، ولكنه لا يبدو لي– نظر إليها مبتسمًا–. هيا بنــا مــن الشمس، فنحن نُشوى أحياءً.

نهضا من على الأرض.

تحدث الجزار من جديد، بنغمة حصيفة متحوّطة:

ــ لا أدرى أيضًا سببًا لما تقوله حضرتك عن السنين. ما زال يمكنك أن تجد شُغْلاً مناسبًا، لو سعيت إلى ذلك.

هزّ لوثيو منكبيه:

ــ وأين؟ ولم تعد لدىّ دراية الآن بعمل شىء تقريبًا...؟ وأنا مُطارد بشبح الماضى؟

سأل أنيانو:

ــ وماذا كانت مهنة حضرتك؟

ـ خبّاز. كانت لدىّ طاحونة فى «كولمينار». باعها شريكى واحتفظ بالنقود لنفسه. من المعلوم أنه كان يعتمد على أننى لن أخرج قط من المكان الآخر. قالوا بعد ذلك إنه ذهب إلى«لاكورونيا» ليتاجر أو ليعمل لا أدرى فى ماذا. رحل الخسيس ومعه كل شىء، تاركًا لى هنا المنّ والسلوى. واذهب إلى هناك إذن لتفتش عنه...

ـ ولكن هذا لايمكن أن يكون! ألم تكن هناك أوراق؟ تسجيل فى مكان ما؛ رخصة باسم حضرتك؟ أى إثبات.

بدا الاهتمام الآن على وجه الرجل ذى الحذاء الأبيض.

ـ أوراق؟ أية أوراق؟- رد لوثيو-. لم تكن هناك خزائن فى تلك السنوات لكى نبحث فيها عن أوراق، ولا ما يدعو لإثبات أى شىء. كل واحد ساهم بما يقدر عليه، وفتش بعد ذلك عن عرّاف ليدلك عن الذى أعطاك. وقد أطاح هذا بأية رغبة من جانبى للوقوف على قدمىّ من جديد.

ـ (يسلم بُقّك)- تدخل الرجل ذو الحذاء الأبيض موافقًا-. تريد حضرتك أن تقول إنه لم يبق سوى الغم والكدر. فى هذه الحالة يصبح المرء مثل من سقط طريحًا عندما أوقعوه. حضرتك فاهم الحياة جيدًا.

ـ لا تظن أن فهمها لم يكلفنى الكثير. وعلى هذا كان الاستمرار فى الجهل بها أجدى بمراحل. عندما تكتسب الخبرة فى النهاية تجد أنها كلفتك غاليًا، غاليًا جدًا، بحيث يكون انعدامها مثل وجودها؛ ويصبح الأمر سواء لديك.

ـ لست موافقًا- قال أنيانو-، أنا لا أتفق مع حضرتك. أسوأ شىء فى هذا العالم هو الاستسلام للهزيمة. لا ينبغى هذا إطلاقًا. من الضرورى الاستفاقة من جديد. إلى الأمام دومًا.

ـ تعتقد حضرتك؟- رد لوثيو محدقًا بعينيه، ثم تبنى بعد ذلك نغمة جديدة، صبورة-. (تعالى نشوف)، وأنت، كم عدد سنوات عمرك يا فتى؟ أظنها جدّ قليلة ولا تؤهلك لمعرفة شىء من ذلك، بل للعب البِلى على أقصى تقدير...

احمرّ أنيانو، واسودّ ما بين حاجبيه. استمر لوثيو:

ـ بمعنى أنه لا يجب الاستسلام للهزيمة؟ ستعرف ذات مرة، لو توصلت إلى معرفته، أن منْ يستسلم للهزيمة أو لا يستسلم لها ليس هو المرء نفسه... سوف تعلم. ومن ثمّ ما كان ينبغى لك فتح فمك بكلمة، ها قد عرفت ما أريد إيصاله لك.

ـ ويبدو لي أنه ما زال أمام حضرتك الكثير لتتعلمه! وإضافة إلى هذا فلم يعطك أحد الثقة لكى تخاطبنى بأنت[*]! الآن تتشدق الشيوخ بالمعارف العميقة!

كان إلتشاماريس يجره من ذراعه لكى يهدأ. قال لوثيو ببرود:

ـ لست مسنًا، فاهم؟. ما أنت إلا صبى. غِرّ جاهل ووقح. هذا ما يجرى. لا أكثر ولا أقل.

كان أنيانو هائجًا للغاية. قال له موريثيو:

ـ هيا، يا أنيانو، لا داعى للانفعال.

ـ لست منفعلاً. هذا السيد الموجود هنا يعتقد أنه يعرف أكثر من أى فرد آخر، ولا يتورع عن الإهانة وتوجيه السُّباب. أنا لست غِرًّا ولا جاهلاً. أنا درست على الأقل، وهذا شىء لم يفعله هو. أتممت

(*) تستخدم صيغة الاحترام (حضرتك) بين منْ بينهم كلْفة فى التعامل؛ أمّا المخاطبة بأنت فتكون بين منْ لا كلفة بينهم. ونوجه عناية القارئ الكريم إلى أن الأحد عشر شابًا وفتاة (فضلاً عمنْ سينضمون إليهم لاحقًا من الأصدقاء) يستخدمون الصيغة الثانية؛ أمّا بقية الشخصيات فتستخدم فى تحاورها صيغة الاحترام... ومن هنا جاءت ثورة أنيانو لمخاطبة لوثيو له بأنت .. كما نلفت النظر أيضًا إلى استحالة النقل الحرفى لصيغة الاحترام وهى فى سياق جملة حوارية إلى العربية لأسباب كثيرة، نذكر من بينها فحسب أنها تُعتبر فى اللغة الإسبانية بمثابة الضمير الثالث (مفردًا كان أم جمعًا) ويتم تصريف الفعل معها على هذا الأساس، ومن ثمّ لا يمكن أن نقول فى العربية: "ذهب حضرتك أو قال حضرتك... إلخ) – المترجم–.

المرحلة الثانوية كلها، ولا يحق لأحد أن ينادينى بأنت أو يخاطبنى بهذه الطريقة.

كان إلتشاماريس يتململ. غمز الجزار بعينه وقال بصوت خفيض، متسليًا:

ـ الآن، الآن... الآن يُقحم ذكر الثقافة.

استمر أنيانو، متوهجًا كله من شدة الغيظ:

ـ فى الحساب والقواعد والجغرافيا، وفى أى شىء، أتحدى هذا السيد وقتما يريد! لنرى إن كان يعرف كثيرًا كما يدعى. لم يحطم المرء مرفقيه طيلة سبع سنوات لكى يأتى بعد ذلك خباز متقاعد وينعتك بالجهل أو ليعطيك دروسًا فى أى شىء!

ـ فى الحياة يا بنى، فى الحياة- قال أحد الموجودين-.

كان موريثيو يرفع يديه فى الهواء ويومئ بهما إلى أنيانو إيماءات تطييب خاطر، ويصفّر صفيرًا خافتًا كى تخمد ثورته:

ـ تشاس س س... اهدأ- كان يقول له-. اهدأ يا رجل؛ لا أحد يحطّ من قدْر دراستك وتثقيفك. لا يوجد ازدراء فى هذه الناحية. نعرف جميعًا ما تساويه هذه الأشياء، ومدى تكلفة اكتسابها. لم يشكك أحد هنا فى ثقافة حضرتك، ولم ينتقص منها.

ــ ماذا يظن نفسه إذن حتى يخاطبنى بأنت، هكذا فجأة ودون مقدمات؟ (دا) كلام!. لقد التحقت بوظيفة ولي عمل بفضل دراساتى، ومن حقى أن أُعامل كما ينبغى، بما يتناسب مع مكانتى... أليس كذلك؟

كادت الدموع تطفر من عينيه وسط موجة الغضب العارمة، ولكن الحاضرين كانوا يضحكون عليه من بين أسنانهم.

ــ نعم يا رجل، نعم- كان يقول له موريثيو-، كل هذا جدير بالاحترام؛ ولا ينكره أحد.

ــ أتسمح بأن تقول لي ما أدين لك به؟

كانت النقود فى يده.

ــ إحدى عشرة بيزيته.

وضع النقود فوق المائدة، وترك كأس بيرة لم يأخذ منه إلا رشْفَة.

ــ ألن تشرب هذا؟

ــ لا، إنه لذلك السيد. سلام.

خرج مندفعًا لدرجة أنه كاد يصطدم بالرجل ذى الحذاء الأبيض والذى تنحى جانبًا وذراعاه مفتوحان، كمن يفسح الطريق لمرور ثور، وقال مُشيِّعًا الآخر فى أثناء اختفائه من الباب: «ها هو ذاهب».

ـ يا له من جاهل متجاسر!- قال موريثيو-. يعتقد هؤلاء الفتيان بمجرد إلمامهم بحرفين أن لديهم الحق فى مناطحة الناس جميعًا.

ـ إنه فتى طيب- رد إلتشاماريس-. يؤسفنى حدوث هذه الأشياء. أنا أعرف أن الغمّ سيركبه لفترة طويلة من جرّاء ما حدث للتوّ. يروق له التعامل مع الجميع والإحساس بتقديرهم له. لو أدرك أنهم يستثقلونه فى مكان ما، يتألم ألمًا يفوق الألم من الحياة.

ـ ليتألم إذن - رد موريثيو-. لماذا يُقحم نفسه فيما ليس له فيه؟ أتمنى رؤيته فى مدريد على هذا الغرور.

ـ إنه ليس سيئًا، أقول لك. لو عرفته عن قُرب وأخذته على (قَدْ) عقله فسوف تحبه. أنا أقدّره، وأقولها بصدق. تعامل معه وستجد أنه فتى نبيلاً، لا يقوى على فعل شىء خبيث.

ـ وما حدث هنا هذا الصباح، وتدخله فيما لا يعنيه، ولكنه نال جزاءه- أكّد الجزار-.

ـ قولوا ما تشاءون؛ ولكن السيد لوثيو يتحمل بعض الذنب؛ أراد تعذيبه أكثر من اللازم.

ـ أردت معرفة إلى أين سينتهى بنا المطاف بالتصويبات والنصائح التافهة. كنت أريد معرفة كيف سيستقبل مخاطبته بالكيفية التى اعتاد التوجه بها إلى الأشخاص. إذ لم تقل أحصنة من البخار، ينبرى الصبى فى الحال لكى يعلمك ما ينبغى أن تقول. من الضرورى الإصغاء لكل ما يُقال!

ـ ولكن ما كان ينبغي لك أيضًا يا سيد لوثيو أن تخاطبه بأنت. هذا ما جرحه فى الصميم.

ـ ولم لا؟ كان من الممكن أن أكون والده! فيما قبل كان الناس جميعًا يخاطبون الفتيان فى سنّ هذا بكلمة "أنت". لا أدرى ماذا جرى فى الدنيا لكى يتحول المرء فى غمضة عين إلى شخصية مهمة. قل لأنه يعمل فى البلدية ولذا يبدو له أنه يتمتع بميزة ترفع من قدره شيئًا ما؛ ولكننى لا آبه بمثل هذه الترهات، لقد فات أوانها، ولا يمكن أن أعتاد على التوجه بكلمة «حضرتك» إلى فتى فى مثل هذا العمر. لقد استثقلته وعاملته بما يناسبه، ولا شىء أكثر.

ـ (عفارِم عليك)، فسرعان ما تصعد الآلة الكاتبة إلى أدمغة متصنّعى العظمة هؤلاء، القابعين خلف الشبابيك. هذا ما يحدث لهم. أخبرنى إذا لم يكن يعاملونك وكأنهم سادة العالم، عندما تلمّ

بك بليّة الاضطرار لاستخراج أية أوراق أو اعتماد أى طلب رسمى. وانظر كيف يتربحون من تعقيدهم الحياة أكثر فأكثر؟ هل ينتجون شيئًا مفيدًا؟ احتياجك لهم فى وريقات أربعة لا تستدعى كل هذه الخيلاء والطنطنة الفارغة! وبفضل وجود مَنْ يتكفل بتعقيد الحياة واختراع أوراق جديدة كل يوم يستطيع أناس مثل هؤلاء الحصول على لقمة العيش. وإلا، كنا سنرى العجب العُجاب؛ إنهم شرذمة من العَجَزَة الطُّلقاء والمتضورين جوعًا يمرحون فى جنبات العالم.

ــ مرحى، يا سيد موريثيو، تريد أن تجعل الفتى عِبْرة. صدقنى لو قلت لك إن الفتى سليم الطويّة، ولا يحمل شرًا بداخله.

ــ يا سيدى عرفنا أنه غير مجبول على الشر- تدخل الجزار فى محاولة منه لإعادة الأمور إلى نصابها-. المسألة تتعلق فحسب بالزّهو الذى يتملكه، والمذموم فى فتى فى مثل سنّه. كم يبلغ عمر أنيانو؟ لا يزيد عن ثلاثة وعشرين عامًا أو أربعة وعشرين...

كان الرجل ذو الحذاء الأبيض يستمع فى صمت، وكارميلو ينظف بكمّه التراب العالق بالكاب ويلمّع شعار البلدية. قال لوثيو:

ـ الزّهو شيء يجب أن يعرف المرء كيف يتحلى به. لو لديك منه القليل، فهذا سيئ؛ يدوسونك ويعاملونك مثل تركيّ(*). ولو لديك منه، في المقابل، الكثير، فهذا أسوأ؛ لأنك تكون عندئذ مثل الذي يصفع نفسه بنفسه. ما يجب أن تتحلى به في هذه الحياة هو الاتزان، حتى لا تكون مثار غيظ أحد ولكي لا تحطم رأسك أيضًا في جدار عجرفتك ذاتها.

ـ مثل المتبجح الآخر صاحب الدكان- قال موريثيو-، وقد رأيت ما حدث له. وكله بسبب عنجهيته. وعلام كان يتكبر فلان هذا؟ على اليافطة الكبيرة التي كانت معلقة على الباب وفيها اسمه؟ انظر إذن ما آل إليه حاله. كثير من العنجهية لكي يُفلس ويتحول، فضلاً عن هذا، إلى مهرّج أمام عيون الجميع.

تدخل الرجل ذو الحذاء الأبيض:

ـ لم يكن سيئًا ذلك الرجل. كان يتعامل جيدًا مع الذين يتعاملون معه. هذا ما أقوله عنه رغم غيابه وبُعده عنا، ولا أنسى ذكر ما

(*) دارت حروب كثيرة في القرنين السادس عشر والسابع عشر بين الإمبراطورية الإسبانية (التي كانت تمثل القوة الأوروبية الأعظم في ذلك الحين) وبين الإمبراطورية العثمانية (التي تمثل العالم الإسلامي)، ومن ثمّ فقد ظل العداء مستحكمًا بينهما طيلة عدة قرون. وبالطبع فقد كانت المعاملة التي يتلقاها التركي (أسيرًا أم حرًا) هي أسوأ معاملة – المترجم-.

كان عليه من كرم. حلق عندى مرات لا تُحصى، وأعرف أنه كان رجلاً ودودًا. حديثه شيق ولطيف. أتذكر أنه فى كل مرة قال فيها نكتة أو ذكر نادرة من النوادر كان يرفع رأسه من على مسند الكرسى ويلتفت فى جميع الاتجاهات، والصابون على وجهه، ليرى وقع النكتة ومدى تجاوب الحاضرين معها. كان يفعل هذا دومًا. مازلت أتذكر.

ـ وهل وصلتك أخبار عنه بعد ذلك؟- سأل موريثيو-.

ـ لا شيء تقريبًا. أعتقد أنه رحل إلى قرية زوجته، واسمها... هذه القرية الكائنة بمنطقة«كاثيرش»؛ نعم يا رجل، ما اسم القرية تلك...؟ أظن أنها «نابالمورال»، نعم هى. «نابالمورال دى لاماتا». وهى قرية كبيرة، بالمناسبة.

كان يطفو فوق سطح النهر غصن شجرة.

ـ انظر، يبدو حيوانًا؛ كيف يتحرك!- قال فرناندو-؛ إنه تمساح.

كان غصنًا أخضر، مقطوعًا حديثًا؛ يتوقف المرة تلو المرة لدى اصطدامه بالرمال القريبة من سطح المَاء، ثم يدور حول نفسه ويبحر من جديد، ببطء، بازغًا فى المياه الحمراء.

كانوا معجبين بالنظر إليه.

ـــ أنا جوعانة– قالت أليثيا–؛ أعتقد أننا يجب أن نفكر الآن فى تناول الغداء.

بعض الصَّبْيَة كانوا قد خرجوا لتوّهم من النهر ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إليه عندما شاهدوا الغصن. أمسكوه من أحد طرفيه وأخرجوه من الماء،ثم جرّوه على الأرض مثل لُمّة البغال التى تسحب ثورًا ميتًا إلى خارج ميدان المصارعة. مشوا كلهم نحو كوْمة الأمتعة حيث يوجد دانييل، فخرجت كارمن للقائهم.

سألها سانتوس:

ـــ وماذا يفعل هذا؟ ما زال نائمًا؟

ـــ استفاق قليلاً من قبل، وجرت لي معه إحدى الطرائف... إنه فى تَوَهان لايمكن أن تتخيله. مُحنّط على الآخر.

كان تيتو ولوثيتا بالقرب من دانييل. شُوهد تيتو يتمطى فاتحًا ذراعيه، ومعرضًا صدره للشمس.

ـ حسنًا- قال ميجيل عندما وصلا-؛ كيف تريدون أن نـنظم هـذا؟ نتناول الغداء هنا أم تفضلون الصعود؟

ردّ فرناندو:

ـ أعتقد أننا سنكون على راحتنا أكثر فوق.

ـ إطلاقًا- احتجت ميلى-؛ كيف يمكننا الصعود إلى هناك مع هـذه الحرارة المفزعة؛ مستحيل. فكرة سيئة.

ـ هنا، بالطبع. من ستواتيه الشجاعة للتحرك الآن؟ يا لها من مشقة! ألا تعتقد؟ يجب علينا ارتداء الملابس، ناهيك عن التبعات الأخرى.

ـ أنا قلت ما قلته لأننا سنجد هناك مائدة فى الحديقة وكراسى نجلس عليها، وحتى مفرشًا لو أردنا.

ـ يا رجل، هذا لا يعوض التعب الذى سينالنا فى المقابل. وإضـافة إلى هذا، يا فرحتنا بالأكل بهذه الطريقة، كان الأفضل عندئذ الأكل فى البيت. ولماذا يأتى الناس إلى الريف؟ لقد أتينا لقضاء اليوم فى الفسحة والتنزه وينبغى أن نتناول غداءنا كما يجب أن يُؤكل. أمّـا خلاف هذا فلا يهم بالمرّة. زهقنا من الأكل التقليدى.

ـ واضح. تكمن المتعة فى التنوع، كما يقول لك المثل.

ـ هنا يا رجل. بدون تردد، ولا داعى للتفكير أكثر.

ـ لنرى من سيصعد عندئذ لإحضار الحلل والصوانى.

ـ القرعة هى التى ستحدد.

ـ نلجأ إذن إلى (حَزّر فَزّر)[*]، موافقون؟

ـ أنت مجنون يا فتى- قالت أليثيا-، سنصاب، نحن الفتيات، بالإغماء من شدة الجوع فى أثناء الساعة التى ستستغرقها هذه اللعبة.

ـ لعبة (حزّر فَزّر) مثيرة أكثر.

ـ حسنًا، دعوكم الآن من البحث عن الإثارة والجأوا إلى أى شىء آخر. سريعًا.

ـ هيا، سيكون سريعًا مثل الأسمنت- قال ميجيل-؛ سترون. نلجأ إلى لعبة الأوراق. من معه قلم رصاص؟ ألا يوجد مع أحد منكم قلم رصاص؟

(*) (حزّر فزّر): لعبة حظ يمارسها الصبية، وتكمن فى قيام أحدهم بوضع قطعة صغيرة من الحجارة (أو ما شابهها) فى قبضة إحدى يديه، ثم يمدّ قبضتيه مقفولتين أمام المتسابق، لكى يشير إلى القبضة التى يتوقع وجود قطعة الحجارة فيها. والمكسب والخسارة مرهونان بالتوفيق فى تحديد القبضة الممسكة بقطعة الحجارة – المترجم-.

ـ ومن سيرد بخاطره إحضار قلم رصاص إلى الريف؟ ماذا كنت تتصور أننا فاعلون به؟

ـ ألن يفرق معك لو كان قلم روج؟- سألت ميلى-. لو ينفع، أخرجه.

ـ أحضريه إلى هنا، نعم يؤدى الغرض.

ـ أنت، ناولنى الحقيبة، من فضلك.

ـ إنها قادمة إليك.

تلقفتها ميلى فى الهواء. وفى أثناء بحثها عنِ القلم داخل الحقيبة، قالت:

ـ ولكن لا تقضى عليه، سمعت؟ إنه من النوع الغالى.

ـ لا تشغلى بالكِ. اسمع، والآن تنقصنا الأوراق.

ـ خذ- قالت ميلى وهى تعطى قلم الروج لميجيل-. لا داعى للضغط عليه؛ بمجرد أن يلمس الورقة سيترك علامة عليها.

ـ هنا توجد أوراق، انظر.

التقط تيتو صحيفة من على الأرض وانتزع قصاصة طويلة من إحدى حوافّها.

أخرجت ميلى علبة السجائر "بيسونت" من حقيبتها:

ــ تريدين، يا أليثيا؟

ــ حسنًا، نعم، هاتِ سيجارة.

ــ أقول يجب صعود اثنين، لأن واحدًا بمفرده لن يستطيع حمل ما هنالك.

قام ميجيل بتجزئة قصاصة الورق.

ــ نعم، اثنان، بالطبع.

ــ لن يفلت دانى من الاقتراع– قال فرناندو–. اعمل حسابه. سيفلت منا هكذا بألاعيب الاختفاء. إنه استنطاع.

ــ الشقى فى السماء السابعة الآن.

ــ ليقف إذن على قدميه.

ــ توجد ثلاث وريقات بيضاء واثنتان بهما علامة الصليب. منْ يقع حظه فى الصليب يبادر بارتداء ملابسه والصعود لإحضار الطعام. مفهوم؟

ـ مفهوم.

أشعلت ميلى وأليثيا سيجارتيهما بينما كان سانتوس ينظر إليهما ويقول ضاحكًا:

ـ رؤية النساء يدخن تجعل المرء يزهد تمامًا فى التبغ.

ـ يا للهمجية! تريدون كل شىء لكم وحدكم أيها الرجال. المزايا التى تتمتعون بها أكثر من كافية.

ـ وعلى سبيل المثال؟

كانوا قد انتهوا من طىّ الوريقات وصاح فرناندو باتجاه الفتيات:

ـ لنرى، يد بريئة! بأسرع ما يمكن! يد بريئة لالتقاط الكرة(*).

نظرت الفتيات إلى بعضهن البعض، ضاحكات.

(*) فى عمليات السحب على جوائز اليانصيب أو غيرها، يقوم صبى أو صبية (يد بريئة) باستخراج إحدى الكرات الصغيرة من صندوق زجاجى شفاف، ويسلمها لأحد المشرفين على العملية ليقوم بفتحها أمام المشاهدين واستخراج الوريقة التى تحمل اسم الفائز. وهؤلاء الشباب يحاكون- على سبيل المزاح- ما يجرى فى عمليات السحب على الجوائز الجماهيرية- المترجم-.

ـ لنرى،- قال سيبستيان-، من هى صاحبة اليد البريئة من بينكن؟

ردت ميلى فى خبث:

ـ لوثيتا! لوثيتا هى الأكثر براءة من بين الجميع.

ـ إنها بالطبع لوثى- ألحُّوا من بين الضحكات-. فلتخرج لوثى!

ـ هيا يا لوثى، ألبسوك العِمَّة- قال لهـا فرنانـدو-؛ وقـع عليـك الاختيار لسحب الوريقات. تعالى هنا.

سألت لوثى وهى محمرة من الخجل:

ـ وماذا يجب أن أفعل؟

ـ سنشرح لكِ ما تفعلينه حالاً؛ إنه سهل للغاية. وأنـتِ يـا ميلـى، أعطنا أيتها الأنيقة شيئًا آخر: قبعتكِ هذه مناسبة جدًا لكى نـضع فيها الوريقات.

ـ يا فتى، كل شىء يجب أن تزودكم به ميلى. خذ القبعة، هيا.

أخذ سيبس القبعة ووضع فيها الوريقات، ثم شرع فى تقليبها بينما يقول:

ـ ثلاثة مكاييل من "البيرموت" واثنان من "الخينيبرا"(*)، قطرات من النعناع، وفِلْقة ثلج، اخفق المحتوى جيدا واخدم نفسك فـــى التـــوْ. مُدِّى يدك أيتها الجميلة لوثى.

ـ انظرى، تقفين هنا وتعطينا ظهرك ثم تسحبين الوريقات، وريقـــة وريقة، وبعد سحب كل وريقة تسألينني: "وهذه، لمنْ؟"، وســـوف أعطيك أنا الاسم الذى سيكون من نصيبه ماهو مُـــدَّون بالوريقـــة التى قمتِ أنتِ بسحبها، اتفقنا؟

أومأت لوثى برأسها إيماءة موافقة.

ـ هيا، إذن.

ـ بعد لحظات قليلة سوف يبدأ السحب!- كان سيبس يقول بـــصوت مازح-. أصيخوا السمع للورقة الفائزة!

كانت لوثيتا قد تمركزت وأخذت موقعها.

ـ ومن هو صاحب الحظ الميمون؟

ـ الكرة فى طريقها للخروج أيها السادة!- قال ميجيل-. شـــدّى يـــا لوثيتا، اسحبى الأولى الآن.

(*) البيرموت والخينيبرا، من المشروبات الكحولية – المترجم-.

ـــ ها هى. لمنْ تكون؟

نظر ميجيل، إلى المجموعة كلها:

ـــ ل ل ل... لسانتوس.

ـــ والآن، ماذا أفعل؟ هل أفتحها؟

ـــ بالطبع؛ لكى نرى المدوَّن فيها.

خيّم الصمت فى أثناء فك لوثى لطيات الوريقة.

ـــ لا توجد بها أية علامة. الورقة بيضاء.

ـــ لقد انعتق إذن.

ـــ حظك حلو، يا فتى!

ـــ إيه! أطلعينا على الوريقة، أطلعينا عليها.

ـــ أتشكك فى لوثيتا، أيها البائس؟ لو كنت...!

ـــ هيا! إلى التسلية بسحب وريقة أخرى!

ـــ هل أسحبها الآن ؟

ـــ نعم، نعم، السرعة مطلوبة.

ـــ ها هى. لمنْ؟

ـــ لتيتو نفسه.

انعتق تيتو أيضًا. لم يقل شيئًا؛ كان واقفًا واقتصر على الجلوس.

ـــ مدهش!– قال له سانتوس–. لن نصعد، لا أنت ولا أنا.

الورقة التالية كانت من نصيب فرناندو؛ كانت بها علامة الصليب.

ـــ الخمسة عشر مليونًا فى «أرجوييس»(*)!– صاح سيبستيان–.

ـــ أنا مبسوطة– قالت ميلى–؛ ألم تكن تريد الصعود؟ يمكنك إذن ارتداء ملابسك حالاً.

ـــ انتظرى، يا امرأة، حتى يظهر الآخر. لنرى منْ هو نصفى الثانى. استمرى، أنتِ!

ـــ والآن، لمنْ؟– سألت لوثى–.

(*) (Argüelles) أرجوييس: حى معروف فى العاصمة مدريد، وإليه ينتمى فرناندو الذى أصابته القرعة – المترجم–.

ـ لي أنا– أجاب ميجيل–.

كانت الوريقة بيضاء. احتج سيبستيان:

ـ يا لك من ذكى! (الخفيف) ليس ماكرًا ولا (دياوله). لأنه يعرف صعوبة خروج ورقتين متتابعتين وبهما العلامة، انتظر حتى تظهر الأولى، ثم زجّ باسمه بعدها مباشرة. هذا ما يُسمى باللعب غير النظيف.

ـ سجّل احتجاجك إذن فى دفتر الالتماسات. أخرى، يا لوثى.

جاء الدور هذه المرة على دانى، وخرجت الوريقة حاملة العلامة. أحدثوا ضجة كبيرة من حوله.

ـ لقد حالفك الحظ السعيد، يا دانى!

ـ خذ، يا بنى! وهذا لكى تستفيق.

رفع دانييل رأسه ووجهه متعكرًا من المزاح. اقترب منه فرناندو وربّت على ظهره.

ـ ها قد عرفت يا جميل. رست القرعة عليك.

أزاح دانييل يد فرناندو بحدّة.

ـ لن أذهب.

ـ ولم لا؟

ـ ولم لا! من أجل الأكل، لن أذهب.

ـ لن تذهب؟ ما معنى هذا؟- توجه إلى الآخرين-. اسمع، أنت، هل سمعتم ما يقول؟ يختار ما هو على مزاجه! يجب أن تصعد مثلى. يضايقك الصعود، يعكر مزاجك! أتعتقد أننى أيضًا سعيد بذلك؟ لست سعيدًا على الإطلاق، ورغم هذا سوف أصعد.

تدخل سيبستيان بنيّة المصالحة:

ـ يا رجل، لا تقتلنى الآن بعنادك يا دانييل. أنت الوحيد الذى يرتدى ملابسه هنا؛ ولن يكلفك الأمر أدنى مشقة. لا تكن السبب فى إرباكنا جميعًا؛ الفتيات تتضورن جوعًا.

ـ أنا، لا. لست جوعانًا، كما ترى. ولا أفكر فى إدخال لقمة فى فمى، ومن ثمّ لا يوجد ما يستدعى صعودى.

ـ كان يمكنك أن تخبرنا بهذا قبل إجراء القرعة، لكنها رست عليك الآن، وستذهب. ستذهب حتى لو لم تواتيك الرغبة فى الأكل بعد ذلك!- كان يصيح فيه فرناندو-.

وعندما وجد الآخر لا يحرك ساكنًا جذبه من الفانلة.

ـ ألم تفهمنى؟ لتنهض! أقول لك عليك بالنهوض!

حاول دانييل التخلص بحركة عنيفة من يد فرناندو، ثم واجهه قائلاً:

ـ دعنى وشأنى! قلت إننى لن أذهب! لا تعلمنى ما يجب أو ما لا يجب أن يكون!، هل أوضح لك أكثر!

ـ (شغل استعباط)، إذا لم تقنعوه...

ـ يا لجمالك، يا فتى! ليس لديك ولا حتى شعرة خجل. ولكن على أى أساس ستكون أنت مختلفًا عن الآخرين؟ منْ تظن نفسك هنا؟

ـ هيا، يا فرناندو؛ اتركه– قال له ميجيل–؛ الأفضل أن تتركه. ماذا سنفعل له؟ ليس بوسعنا أيضًا أن نجعله يصعد غصبًا عنه. سوف أصعد أنا بدلاً منه، ويا دار ما دخلك شر. هيا، أنا وأنت. سنترك طعامه هناك، مادام يتعلل بعدم شعوره بالجوع، الجزاء من جنس العمل.

ـ ليس هذا من حقه، يا ميجيل ! علامة الصليب كانت من نصيبه، فلماذا لا يصعد! كيف نتركه يفعل ما يحلو له، لا لشىء، إلا أن هذا مزاجه؟ إنه هنا مثل الطفل المدلَّل.

ـــ وماذا تريدنى أن أصنع له؟ لن تسوقه بالقوة؟

ـــ إذا لم يصعد دانييل، فأنا أيضًا مثله. هذا قرارى. ليصعد سانتوس.

ـــ أشبعتمونا ضجرًا!- قالت بولينا-. أتدرون كم الساعة الآن؟

ـــ ذهابى بمثابة عقوبة لا أستحقها. لقد أعفانى الاقتراع. ويجب احترامه.

ـــ وأنا أيضًا أؤيد فرناندو فى عدم الذهاب- قالت ميلى-سيكون عبيطًا لو ذهب.

ـــ يا لأنانية دانى!

ـــ ليس لديه أدنى شعور بالزمالة- تدخلت أليثيا، فى تعزيز منها للقول السابق-. ستكون مغفلاً لو ذهبت أنت.

ـــ نقطينا بسكاتك.

ـــ ولماذا أصمت؟ هل هذا ما أستحقه لأننى تصديت للدفاع عنك! وإضافة إلى ما تقدم، لا تحدثنى بهذه الطريقة.

ـــ حسنًا- قاطعهم ميجيل-. سوف أصعد أنا. لو هناك متطوع آخر، فليأت. وإلا، سأصعد وحدى.

نهض تيتو.

ـ سأذهب معك، انتظر.

أمال سيبس رأسه على حجر بولينا، وقال:

ـ ما دمتما ستصعدان، خذا معكما هذه الزجاجات الثلاث لملئها ثانية بالنبيذ.

أخذا، فى صمت، ثيابهما والزجاجات وابتعدا فى اتجاه شجيرات العوسج لارتداء ملابسهما.

ـ يا له من يوم!– قال تيتو–. هل حكوا لك ما حدث لي مع فرناندو؟

ـ أخبرتنا به ميلى.

ـ ميلى بؤرة مشكلات. الذنب كله ذنبها، ومع هذا لا تتورع بعد ذلك عن الثرثرة هنا وهناك. والآن دانييل وإصراره على عدم الصعود. وهكذا، وكما هو حاصل، لا مجال اليوم بطوله لالتقاط الأنفاس، كلما انتهينا من مشكلة دخلنا فى أخرى أنكى وأضل سبيلا.

ـ لا داعى للكدر من هذا. احتكاكات عادية وموجودة دائمًا. ولا داعى أيضًا لأن تعطيها أهمية أكبر مما تستحق.

ـــ نعم، ولكن، هل جئنا لقضاء يوم جميل أم لكى يتشاجر البعض مع البعض الآخر؟ هذا يصيبنى بالسأم. كما أن احتمال هذا الوضع على مدار الساعة يُتلف الأعصاب ويثير الملل. برنامج حافل.

ـــ (شوف)؛ في البداية كان مزاحًا، لكنه أصبح غير مقبول فيما بعد، أقسم لك أننى فكرت، للنفاد بجلدى، فى أخذ الدراجة والعودة إلى مدريد. تمامًا كما تسمع. وإذا كنت لم أفعل فمن أجلكم بالطبع، من أجلك أنت ومن أجل أليثيا، فضلاً عن اثنين أو ثلاثة آخرين.

ـــ لو أقدمت على هذا لكنت ارتكبت حماقة كبيرة. الأمر لا يستحق.

ـــ فرناندو صديق عزيز، ولكنك ترى ما يفعله. أخبرنى أنت لماذا هو بالذات الذى يُقدم على التصرف معى فى النهر بهذا الشكل، فى حين أننى أتغاضى عن أفعاله مع الآخرين مهما كانت. وكل هذا بسبب ميلى، إنها هى المذنبة ولا أحد سواها.

ـــ ماذا؟ وهل أنت أيضًا معجب بميلى؟

ـــ أنا؟ حسنًا! أنا لا أُعيرها أىّ اهتمام. ومنذ اليوم أكثر، تصوّر. اليوم هو الحد الفاصل فى العلاقة بينى وبينها. لقد انتهت ميلى بالنسبة لي. "أهلاً، كيف الحال"؛ مساء الخير"، هذا كل ما تعنيه ميلى بالنسبة لي، من الآن فصاعدًا. لا أكثر ولا أقل.

ـ مهلاً يا فتى، يا للقرارات التى تتخذها أنت أيضًا! أصبحت فى غاية الصرامة والحزم.

ـ نعم، وسوف تثبت لك الأيام صدق كلامى. إنها فى غاية التفاهة، يا رجل. تنهمر الأزمات على اليمين وعلى اليسار حيثما وُجدت. ليست إلا مثيرة للمشكلات وفاضحة.

كان ميجيل يبتسم فى أثناء ربطه للحزام.

ـ ما كل هذه الضغينة التى ملأت قلبك، يا فتى! أنا جاهز؛ عندما تريد.

ـ هيا بنا.

شرعا فى المشى.

ـ ومنْ هو الذى كنت تقول إنه معجب بميلى؟- سأل تيتو-.

ـ أنا ؟ لا أحد. لا أدرى شيئًا.

ـ كنت تتحدث منذ لحظة عن لا أدرى منْ.

ـ لم أقل شيئًا. ولا أعرفه. إنها فتاة تتمتع دون شك بكل مقومات الجمال، وأظن أنه من الطبيعى أن يُعجب بها أكثر من واحد.

كانا يصعدان الساتر الطينى من على السلّم الصغير المتعرج والمنحوت فيه.

ـ ولكنى لا أعرف أحدًا بعينه.

صمتا من جرّاء تعب الصعود، وعندما وصلا إلى أعلى توقفا، لاهثين، ثم التفتا للنظر وراءهما. كانت قمم الأشجار تتجاوز رأسيهما. كان يُرى السدّ ومتسع المياه المتجمعة أمامه. وعلى الضفة الأخرى أشجار صفصاف وأعواد الخير فحسب، فضلاً عن بعض المجموعات التى ما زالت تعسكر هناك، مستهلكة الظل. وخلف هذا بكثير قطيع من النعاج يتجمع فى السهل، مثل بحر صغير هائم على وجهه؛ والرّاعى بقبعته حائلة البياض يقترب فى فضول من الشاطئ، وينظر مستغربًا إلى الناس وجسده مسنود على الهراوة.

ـ وأنت، هل تعتقد أن فرناندو يخطب ودّ ميلى؟ - سأل تيتو-.

ـ ممكن.

شريط القطار يمضى مرتفعًا فوق مصطبته الاصطناعية، قاطعًا فى خط مستقيم السهل كله. الشجيرات الصغيرة التى تغطى الأرض تصعد المنحدرات لتخدش عجلات القطار ذاتها. وفى الخلفية، حيث تبدأ الروابى، لم تنقطع أيضًا استقامة السكة الحديد، إذ تتغلغل فى تلك

الروابى، فالقة الأرض من خلال حفرة ضيقة. ومـــن هنـــا تتكـــشف أمامهما أيضًا خلفية السدّ بقطاعها الأسفل. الآن، مئات من الأشخاص فى لباس البحر يأخذون حمام شمس على السطح الأسمنتى المائـــل. أكداس، هائجة، فوق السّفُود، والأشكال الصغيرة تأتلف فـــى أكـــوام منفصلة ومتعددة الألوان لأجزاء بشرية: أذرع، وســـيقان، ورؤوس، وجذوع، ومايوهات، فى فوضى مشتبكة ومسترخية.

ــ هيا بنا، يا تيتو، إنهم ينتظروننا. لو يعلمون أننا مازلنا هنا...

تستعيد المياه سرعتها فى الجزء السفلى من الخزان، حيث توجد أهوسة تصريف الماء. تجرى هنالك مسرعة وسطحية بـــين حـــصى متدحرج وقشرة أرضية حمراء بها خصلات خضراء مـــن عـــروق النجيل. وهنا، على مقربة، توجد بحـــذاء النهـــر عـــدة اســـتراحات، الواحدة تلو الأخرى، عبارة عن نُزُل من طابق واحد. الأكثـــر قربًـــا منها مُقامة فوق المنحدر الذى شكّله التحات؛ أمّا المجـــاورة للخـــزان فهى فى مستوى سطح الماء، بحيث تُرى من علٍ، وتتراءى النـــاس وهى تتناول الغداء أو تتنقل بين عرائش الكرْم. كانت تصل بوضوح الأصوات، والقهقهات، وخبطات القبضات والأوانى الخزفيـــة علـــى الموائد الخشبية، والدخان، ورائحة الأطعمة المقليـــة، مـــع الـــذهاب

والإياب، فيما بين أغصان وأوراق أشجار التوت التى لا تُحصى، للصوانى بأيدى الخادمات أو جرسون مُرتّجل، بربطة عنق وجاكتة بيضاء. الاستراحتان العلويتان اللتان يمر بجوارهما الآن تيتو وميجيل، تغصان بأناس أكثر هدوءًا يتناولون طعامهم بين محادثات مكتومة. عادا من الطريق المحاذى للنهر نحو الطريق العمومى المسفلت، محميان من على الجانب الأيمن بسلك معدنى يحيط بمزرعة عنب. أمّا المزرعة التى على اليسار فكانت مستباحة، تسطو عليها جهارًا وتقتحمها من الجهات الأربع موجات لا تتوقف من الصبية. تمكن اليأس من الحارس المسنّ، واقتصر، عاجزًا، على إلقاء الحجارة والشتائم.

ــ يقضى هذا الأحد بطوله فى الصياح– قال تيتو–.

وعندما وصلا إلى الطريق العمومى شاهدا مزرعات أخرى مغلقة على نفسها بأسوار متوّجة بشظايا زجاجية.

ــ هذا عمل غير صالح– قال ميجيل وهو يشير إلى الأسوار–؛ يحتاج تنفيذ فكرة مثل هذه لدم فاسد.

ــ البعض يخاف من السرقة أكثر من الموت الزؤام.

ـ لا يرضى بالسرقة أحد، كما هو معلوم. ولكن تبنى فكرة مثل هذه لتفاديها غير مقبول بالمرّة. الأمر فى حد ذاته غير ذات بال، ولكن المصيبة تكمن فيما يرمز إليه. على ماذا بالداخل يظنون أنهم يحافظون؟ لا يكشف لك هذا إلا عن الأنانية المفرطة والتهالك البغيض على ما يخصهم.

ـ بالطبع. إنه شيء دميم حقًا.

ـ يا رَجُل! لابد أن الذى اخترع شظايا الزجاج هذه، أيًّا منْ كان، قد ارتاح وهنأ باله. إنه، بالتأكيد، الرجل الأسوأ طويّة والأشد بخلاً فى هذا العالم. ابن زانية كامل الأوصاف.

ـ كلامك صحيح.

كانا قد وصلا إلى خان موريثيو.

ـ مساء الخير.

ـ كيف الحال، يا فتيان؟ وما حال الاستحمام معكم؟

ـ على ما يرام.

ـ ستأكلون هنا أخيرًا؟

ـــ لا. سنأكل تحت. أتينا لحمل الأغراض.

ـــ يبدو لي أنه اختيار رائع. تريدون نبيذًا إضافيًا، إيـــه؟ أرى أنكـــم أجهزتم على ما أخذتموه هذا الصباح.

أخذ موريثيو الزجاجات من على طاولة البار. قال لوثيو:

ـــ هيا، صبّ كأسين لهما على حسابى؛ واملأ هنا للآخرين.

التفت ميجيل:

ـــ شكرًا جزيلا.

ـــ هذا شىء بسيط، لا يستحق الشكر.

تقدم حاجب المحكمة وسأل موريثيو:

ـــ أليس هذا هو السيد الذى كنت تقول إنه يغنى؟

نظر إليه موريثيو بوجه مُوَبِّخ.

ـــ نعم، وماذا تريد منه؟– قال متجهًا إلى الآخرين–. ســترى الآن، سترى كم أن لزاما عليه ألا يترك أحدًا لينعم بالهدوء.

ضرب الحاجب صفحًا عما يقوله الآخر، واتجه نحــو ميجيــل متحمسًا:

ـ لن تمانع حضرتك فى أن أتوجه إليك بالتحية. اسمى كارميلو خيل جارثيا؛ وأنا محب متطرف للغناء.

كان يتحدث إليه وكأنه يتحدث إلى مطرب ذائع الصيت.

ـ تشرفنا.

ـ الشرف لي. لاسيما وعلى وجه الخصوص للفلامنكو- واصل حاجب المحكمة كلامه-. أتعرف أننى فى الشتاء الماضى، لا، بل ما قبل الماضى، اضطررت للقيام بتضحية: اشتريت الجهاز(*). بمعنى أننى أهديت لنفسى ما كنت أتمنى أن تقدمه لي الملوك السَّحرة(**). وكل هذا حبًا فى الغناء؛ لا تظن أن هذا لم يضطرنى إلى حرمان نفسى من أشياء ليست بالقليلة. ولكننى لست نادمًا على ما فعلت، لأنه يستحق. نعم، يا رجل، لقد تعرفت على بيبى

(*) المقصود بالجهاز هنا هو جهاز الراديو، وكان من المقتنيات الثمينة حينذاك (فى خمسينيات القرن الماضى)، ولا يقدر على شرائه سوى ميسورى الحال – المترجم-.

(**) يحتفل الإسبان (وغيرهم من الشعوب الأوروبية) كل عام بعيد ظهور الملوك السحرة (ملتشور، وبلتسار، وجسبار). وفى هذه المناسبة يتلقى الأطفال الهدايا التى يتمنونها، ويقوم بتوزيعها عليهم منْ يجسدون شخصيات هؤلاء الملوك أو القادرون من أهل الخير أو الأقارب والأهل. وينتظر الأطفال (لاسيما الفقراء منهم) حلول هذا العيد بفارغ الصبر لتحقيق أحلامهم – المترجم-.

بينتو وخوانيتو بالديراما، وهما من أساطين الغناء فى هذا البـاب، أعتقد هذا، أعتقد هذا...

ـ إيه، ولكن لا تحسبنى واحدًا من المحترفين– قال له–. أغنى قليلاً، ولا شىء أكثر. للأصدقاء.

ـ لاشك فى أنك تؤديه على أساس جيد. لنرى لو يـسعدنى الحـظ بسماعك بعضًا من الوقت. سنتذوق عندئذ حلاوة ما هـو رقيـق ومرهف بجد.

كان موريثيو يتململ:

ـ ولكن، اترك يده، يا بلوى! العرق الذى ينضح من يدك فى يَوْمنـا هذا ليس بالقليل حتى تمدها وتمسك بها الأيادى!

امتثل الحاجب.

ـ دعه– قال ميجيل–؛ إنه لمن غاية اللطف من جانبه...

ـ لا، يا رجل؛ إنه بمجرد تجرعه لكأسين يصبح ثقيل الظل مع كـل من يحسبه من شيعته. إن ما يسعى إليه بالتأكيد هو دفع حضرتك الآن للغناء دفعًا، ولكن هكذا، على البارد، على الرِّيق!

احتج حاجب المحكمة:

ــ افتراء! أعرف بما فيه الكفاية ما يستلزمه الشروع في الغناء. أتظن أنني لا أعرف هذا؟ لن يطلب منه أحد التورط هنا في الغناء دون مقدمات. من الضروري اندماج المرء في الجو المحيط به، وأن يتم التسخين على نار هادئة، شيئًا فشيئًا، حقًا؟، لكي يخرج الصوت رقيقًا ومرهفًا، أليس كذلك؟

ــ هيا، الآن. لم لا تسمع الكلام وتترك الفتى في حاله؟ ماذا يمكن أن يهمه في هذه الاسطوانة المشروخة التي تفرضها عليه فرضًا؟ ألا ترى أنك تضجر الناس؟

ــ ماذا سيحدث، يا رجل؟ كانت لدي رغبة كبيرة في تحية الشاب هنا وتبادل الانطباعات معه حول هواية محببة ومشتركة بيننا. حقًا أنني لم أضايق حضرتك؟

ــ إطلاقًا؛ على العكس تمامًا...

كان الجزار وإلتشاماريس يكادان يفطسان من الضحك.

ــ يا لكارميلو هذا! إنه كابوس، يا ساتر!

تخلى تينو عن كبح جماح رغبته فى الضحك، وانـــضم أيــضًا كارميلو بعد ذلك إلى موجة الضحكات العامة، بوجه مذهول وسعيد، وكأنه يحس بالتملق لكونه المتسبب فيها. الرجل ذو الحذاء الأبــيض هو الوحيد الذى لم يكن يضحك. ظهرت بالباب طفلة ترتــدى ثوبًــا أحمر؛ قالت من على العتبة:

ـــ أبى...– وانحبس صوتها بغتة لدى اكتشافها وجــود الرجــل ذى الحذاء الأبيض–.

نادى عليها موريثيو:

ـــ تعالى، أيتها الجميلة. لا تقفى عندك فى الشمس.

ترددت الطفلة. ألحّ عندئذ إلتشاماريس:

ـــ ولكن، ادخلى يا ماريتا؛ لا تكونى بلهاء. لن يأكلك أحد.

دخلت مندفعة، وعبرت كالشعاع لتحتضن بنطال إلتشاماريس. قبّل الأخير شعرها وقال:

ـــ ولكن، يا بنتى، ما كل هذا الخجل الذى نزل عليك اليوم، مع أنــك لستِ هكذا بالمرّة؟ قولى: ماذا تريدين؟

ـ أمى تقول لك الغداء جاهز.

ـ حسنًا، سوف تذهب حالاً.

كانت الطفلة تلتصق أكثر فأكثر بساقىّ والدها، معطية ظهرها للحاضرين جميعًا.

اقترب الرجل ذو الحذاء الأبيض وأقعى إلى جوارها؛ قال لها مبتسمًا:

ـ وإذا كنت قد عرفت أنك طفلة هذا الصباح. لا تظنى أننى لم أعرفك أيتها السحلية الصغيرة.

كانت تخبئ وجهها بين ساقىّ إلتشاماريس. ألحّ الرجل ذو الحذاء الأبيض من جديد:

ـ التفتى، يا امرأة، انظرى هنا لحظة. أتظنين أننى غاضب من هذا؟

ظهر نصف وجه الطفلة وعليه مشروع ابتسامة؛ ثم اختبأ ثانية. استمر الآخر:

ـ ألا تريدين أن تكونى خطيبتى؟

الآن، تضحك الطفلة أكثر؛ أظهرت وجهها كله فجأة. قال لها أبوها:

ـ ما تلك الأسرار التى بينك وبين الحلاق؟

ـ أشياء تخصنا– قال الرجل ذو الحذاء الأبيض–، أيتها الجميلة، ما اسمك؟

ـ مارى.

دلق إلتشاماريس محتوى الكأس فى جوفه دفعة واحدة، ثم قال:

ـ بينكما أمور مريبة لا تخلو من صعلكة. هيا، يا بنتى، إلى البيت.

ـ لديك صبية خفيفة الظل– قال له الرجل ذو الحذاء الأبيض فى أثناء نهوضه–. حسناً أيتها الجميلة مارى، سنلتقى. تعرفين أين.

ـ هيا، يا بنتى، رُدّى على الحلاق على الأقل، ما دمتما صديقين عزيزين.

ـ مع السلامة، سيدى الحلاق.

ـ ألن تعطينى قبلة؟

أحنى رأسه للطفلة فقبلته بحركة آلية، لامسة إيّاه بالكاد.

ـ هكذا. إلى اللقاء، أيتها الأنيقة.

ـ إلى اللقاء يا سادة. هيا يا أثوفرى...!

نهض الكلب بقفزة واحدة وخرج من الباب، أمام صاحبيه.

ـ إلى اللقاء فى المساء.

علّق الرجل ذو الحذاء الأبيض:

ـ لديه فتاة كبيرة بعض الشىء، رغم أنه ما زال فى شرخ الشباب. كم عمرها تقريبًا؟

ـ ست أو سبع سنوات بالتأكيد.

قال ميجيل لموريثيو:

ـ اسمع، ألا يمكن أن تترك لنا إبريقًا وبعض قطع الثلج لإعداد "سنجريّا"(*)؟

ـ لا تعتقدوا أن لدىّ ثلجًا كثيرًا. ينبغى أن أجعله يكفينى حتى ساعة الإغلاق ليلاً. سأنظر فيما يمكن أن أزودكم به الآن. الإبريق موجود، فاوستينا! ستأخذون كازوزة فى هذه الحالة.

(*) "سنجريّا": اسم مشروب كحولى خفيف، قوامه النبيذ والليمون والسكر والأفاويه. ويمكن إضافة أشياء أخرى إلى السابقة، كما سيتضح فيما بعد- المترجم-.

ـ نعم. وليمون– رد تيتو–، لو أمكن.

ـ أعتقد أنه يوجد ليمون.

دخلت فاوستينا.

ـ ماذا؟

ـ ابحثى هنالك عن إبريق، لهؤلاء الشباب. وليمون.

أومأت المرأة برأسها ثم عادت للدخول.

ـ ونعم التفكير– قال لوثيو–؛ فى هذا الحرّ "السنجريّا" المعدَّة جيدًا مطلوبة. ولو كنت مكانكما، أتعرفان ماذا كنت سأضيف إليها؟ ثلاثة أو أربعة كئوس من الخينيبرا. وهكذا فإن الكحول الذى سيُفقد عند إضافة الكازوزة سيتم استرداده، بمعنى أن كحول الخينيبرا سوف يعوّضه، إيه؟ ما رأيكما فى هذه الروشتة؟

ـ إنها جيدة، ولكن هذا به الكثير من الإضافات، وسوف يصعد بعد ذلك إلى رؤوس الفتيات حتى لو لم يشربن سوى القليل منه.

ـ آه، حسنًا، فى هذه الحالة... لو أردتما وضع صاحبات التنورات فى الاعتبار فلن أتدخل هنا. ولكن أود أن ألفت نظرك إلى أننا لم

نكن نقيم وزنًا فى زماننا لمثل هذه الاعتبارات؛ كان يُفعل ما فى الإمكان. من المعلوم الآن...

دخلت فاوستينا؛ تركت الإبريق فوق طاولة البار. عادت للدخول من جديد، ولكنها توقفت لدى الباب واتجهت نحو تيتو وهى تشير بإصبعها السبّابة إلى الإبريق.

ـــ لا تكسروه لي. إيه؟ إنه الإبريق الوحيد الذى لدىّ. ومن ثمّ برجاء الحرص والانتباه.

ـــ لا تشغلى بالكِ يا سيدتى؛ سنحرص عليه أكثر مما لو كان ملكنا.

تابعت فاوستينا السير نحو الدهليز.

ـــ والليمون!– شيَّعها موريثيو زاعقًا فى أثناء رفعه لغطاء صندوق الثلج–.

استخرج بعض القطع ووضعها داخل الإبريق.

ـــ هذا يكفى. شكرًا جزيلا.

ـــ كم زجاجة كازوزة تريدون؟

ـــ ما رأيك، يا ميجيل؟ كم نأخذ؟

كان ميجيل منهمكًا فى إعداد أجربة زجاجات النبيذ والصوانى.

ــ يعنى... ليحضر لنا ثمانِ زجاجات، مثلاً. أظن أن ثمان تكفى وزيادة، إضافة إلى زجاجة نبيذ أخرى كبيرة. لابد أن الزجاجة الباقية لديهم تحت قد فرغت الآن.

ــ ثمان، عندئذ.

دخلت فاوستينا. قالت:

ــ الليمون.

وضعته إلى جوار الإبريق بخبطة حاسمة، ثم خرجت.

كان ميجيل وتيتو يجهزان الأمتعة. علّق الجزّار:

ــ حضرت منكم، إذن، مجموعة كبيرة.

ــ إجمالى منْ جاءوا أحد عشر فردا- توجه إلى موريثيو-. اسمع، من فضلك صبّ للحاضرين كئوسًا على حسابنا.

ــ شكرًا، أيها الشاب.

ــ لا شكر على واجب.

ــ أمر سيئ أن يكون العدد فرديًا فى رحلة أو نزهة- قال لوثيو-. يوجد دائمًا واحد زائد عن الحاجة.

ـــ اطمئن؛ الزائد عن الحاجة سكر ونام مثل حجر. إنه لـــم يـــستحم حتى– ردّ ميجيل–.

سأله تيتو:

ـــ اسمع، بالمناسبة، وصينية دانييل، ماذا سنفعل بها؟ هـــل نأخـــذها معنا؟

ـــ طبعًا، هل تريد أن نبادله عملاً دنيئًا بمثله؟

ـــ هو الذى ارتكبه معنا أولاً.

ـــ وهل ستنتقم منه بسبب هذه التفاهة؟

ـــ لا، أبدًا! الأمر لا يهمنى على الإطلاق. أنتم منْ قررتم هذا. أما بالنـــسبة لي، فليس لدىّ مانع بالتأكيد من إنزالها له، (واللى يزعل يطق).

عندما فرغ ميجيل من تجهيز الأمتعة ألقى بالتحية:

ـــ حسنًا، إلى اللقاء إذن.

ـــ نتمنى لكم مواصلة قضاء وقت طيب.

ـــ مع السلامة، أيها الشابان. على مهلكما، حذارِ من التعثر، الحمولة كبيرة.

ـ عُلِم؛ شكرًا. مع السلامة.

خرج كلاهما، والأجربة مُعلَّقة على الكتفين والرقبة. كان ميجيل يحمل ثلاث زجاجات بيديه، وتيتو ممسكًا بزجاجة النبيذ والإبريق الأزرق الذى أحضرته لهما فاوستينا.

سأل الجزّار:

ـ ما الساعة الآن؟

ـ ساعة الغداء. تجاوزت الثانية والنصف.

ـ عاد حاجب المحكمة لخلع القبعة وشرع فى هرْش رأسه. قال له الجزّار:

ـ بتحرقك؟

ـ بتحرقه من وهج الذكاء الخالص- علّق موريثيو-.

تثاءب الجزّار وأطلّ من على عتبة الباب. كانت تُسمع الموسيقى القادمة من بعيد، قال:

ـ تصل إلى هنا أصداء ما يدور عند النهر.

ـ لابد أنها جمهرة كبيرة من الناس، نعم.

ـ كنا نحن، أهالى القرى، منْ نقوم سابقًا– قال الرجل ذو الحذاء الأبيض– بالتنزه وقضاء الأعياد فى العاصمة والمدن الكبيرة. والآن، تغيّر الحال، أصبح سكان المدن هم الذين يأتون إلى الريف.

ـ لا أحد يقنع بما فى يده– قال لوثيو–. يتوق دومًا للنقيض.

ـ (على حَسَب)– ردّ كارميلو–؛ أنا لو كنت فى مدينة من المدن الكبيرة مثل مدريد وأريد الترويح عن نفسى بفسحة قصيرة وخاطفة، فمن الطبيعى أن أهفو إلى كل ما هو موجود هنا. ولكن لو الواحد قاعد بكرامته ولو حتى فى خيمة بمدريد سيكون، مهما كان شأنه ضئيلاً، أحسن من عمدة فى "تورِّيخونِ"، بكل ما لهذه القرية من أهمية. إذا كان المثل بيقول: «من مدريد إلى الجنة»، فهل بعد هذا كلام يُقال!

التفت إليه الجزّار مبتسمًا:

ـ حسنًا، وماذا ستفعل أنت فى مدريد؟، لنرى. أخبرنا بما ستفعله.

ـ أنا...؟ ماذا سأفعل...؟- استضاء وجهه-. ما الذى سأفعله أنا فى العاصمة مدريد؟- طرقع بلسانه، كمنْ سيشرع فى قصّ حكاية مُبهرة-. أول شىء... سأذهب إلى خيّاط، لكى يُفَصّل لي بدلة جيدة. على أعلى مستوى. طقم كامل بخمسمائة بيزيتة...

كان يمرر يديه على الجاكتة البالية، وكأنه يحوّلها إلى هيئة أخرى. قاطعه موريثيو:

ـ بخمسمائة بيزيتة؟ ولكن تعتقد كم يمكن أن تكلفك بدلة تفصيل فى مدريد؟

ـ الخمسمائة بيزيتة، يا بنى، لا تكفى ثمنًا للصديرى وحده.

ـ يا سيدى، المبلغ الذى تحتاجه- تدخل الآخر قائلاً-. منْ يقول خمسمائة، يقول سبعمائة...

ـ لا بأس، يا رجل، استمر. نفترض أنك بسبعمائة يمكن أن ترتدى بدلة ولو حتى متوسطة المستوى. ماذا ستفعل بعد ذلك؟ هيا. استمر.

ـ سأخرج بعد ذلك إلى الشارع مرتديًا بدلتى، (ومتمكيج على الآخر)، منديل حرير هنا، فى هذا الجيب العلوى، إيه؟ وكرافتته،

وساعة يد ميقاتية، وأقوم بجولة فى شارع "جران بيّـا"(*). علـى مهلى، ذهابًا وعودة فقط، وأستريح إثر ذلك بالجلوس فى شـرفة مقهى...، ماذا يُسمى ذلك؟ آه، "زهرة"، فى شرفة مقهى "زهـرة". وأنا مستريح فى مقعدى هناك سوف أصفق عدة تصفيقات خفيفة- أومأ بحركة التصفيق-، فيأتي الجرسون: بيرة فاخرة (دوبل) مـع ... حصّة من البطاطس المقلية، هذا هو. آه، وماسـح الأحذيـة. أرسلوا إلى حالاً ماسح الأحذية لكى يلمّع لي الحذاء...

نظر الرجل ذو الحذاء الأبيض إلى ظاهر قدميه. قال لوثيو:

ـ آه، يا صديقى! أعرف أنك سوف تقول هذا، تـصوّر. كنـت أراه قادمًا.

ـ ماذا؟

ـ إن أولَ منْ ستنادى عليه هو ماسح الأحذية. كنت متأكدًا.

ـ ولماذا كنت متأكدًا من هذا؟

(*) "جران بيّا" (Gran Vía): من أهم شوارع وسط العاصمة مدريد – المترجم-.

ـ لأننى أعرف. لا يمكن أن أخطئ. ألا ترى أننى أحمل على كاهلى سنوات كثيرة؟ من المؤكد أن أول شيء يخطر على بال كل الذين يتحدثون عن الحياة الهانئة الرَّغدة هو قدوم أحد لكى يلمع لهم الأحذية.

ـ يمكننا الشروع فى الزجاجة الرابعة.

ـ على لحم البطن؟- ردّت أليثيا-. سيكون أثرها الآن جيدًا لو كان معها أى فاتح للشهية.

ـ انظرى، إذن- قال فرناندو-؛ فى النهر يوجد سرطان الماء. انزلى يمكن تصطادى واحدًا.

ـ يا لك من ظريف!

اقترح سيبستيان:

ـ ألم يمر من هنا منذ لحظات بائع الفول السودانى؟ يمكن أن نشترى منه ببيزيتتين، وهكذا يكون عندنا مَزّه؟

ـ مرّ على مقربة منذ فترة قصيرة. رجل يرتدى جاكتة بيضاء ويضع على رأسه قبعة من ورق الجرائد، مثل قبعة "بيبو وبيبا".

ـ انظروا حواليكم، ممكن تجدوه.

ـ آه منك يا بنتى، كل ما يُشْتَمُّ منه رائحة الأكل...- قالت لها ميلى-.

ـ لو يكون هو حقًا؛ لو يكون... انظر إليه! ها هو الرجل هناك! أليس هو ذلك الرجل؟

أشارت إليه حيث يقف بين الأشجار مع مجموعة أخرى؛ بقعة من الشمس كانت تومض فوق بياض القماش. أدخل فرناندو خنصرى إصبعين فى فمه وأطلق صَفْرة طويلة تجاه البائع. كان يتلقى نقودًا من الزبائن وأشار إليهم باليد الأخرى إشارة تعنى الانتظار وأنه قادم إليهم فى الحال.

ـ كيف لمحتيه بهذه السرعة!- تعجب فرناندو-.

ـ إنها فيما يتعلق بالأكل... حدِّث ولا حَرَج.

احتجت أليثيا:

ـ ولا داعى أيضًا لأن تمرضونى الآن. كأننى شَرِهة من الطراز الأول.

ـ هذا ليس سيئًا، بل إنه علامة على الصحة.

كان سيس قد نهض للحظة لينظر من خلف بولينا إلى حلقة من الناس قريبة منهم؛ قال:

ـ وبمناسبة الكلام عن الأكل، ألم تصل إليكم الرائحة الزكيّة لطبيخ "البقيّة" هذه؟

ـ إنها فى خياشيمى منذ فترة، يا بنى- أجابه سانتوس-؛ ولكننى لم أرد إخباركم حتى لا تزداد معاناتكم. لا مانع لدىّ الآن من الاقتراب عن طيب خاطر لأرى هل يفسحون لي مكانًا بينهم.

هنالك، تأكل عائلة بوذا "البقيّة"، وتقوم عن بكرة أبيها بدسّ الملاعق وإخراجها من الطاسة نفسها. "من ينظَر خلفه هنا، تفوته الرحلة"، كان يقول بوذا ضاحكًا باستفاضة، مع الاستمرار فى البلع والسعال فى أثناء الضحك إلى أن أصبح محتقنًا بكامله، وصاخبًا. يوجد الآن حفيف هادئ بين الأشجار، وتصل أصداء الموسيقى المنبعثة من راديوهات الاستراحات. «آه، يا برتغال، لماذا أحبك كثيرًا...!». كانت ظلال الأشجار تشير باتجاه الشمال، ناحية "سوموسييرا". لم يكن هنالك أحد فى النهر.

ـ صباح الخير للجميع- قال وهو ينزل السلّة لكى يعرض البضاعة-. ماذا أضع لكم؟

ـ فول سودانى.

ـ المكيال ببيزيتة- أبان لهم فى يده عن قدح خشبىّ بدلاّيات حديدية-. كم تريدون؟

ـ بخمس بيزيتات.

ـ عندك يا فرناندو- قالت أليثيا-؛ هذا المكيال لي. يدفع ثمنه ميجيل.

كان الآخر يفتش عن النقود:

ـ (بقى دا كلام)- ردّ عليها-. لا ينقص إلا هذا.

ـ أنا التى طلبته. معى هنا كيس نقود ميجيل.

ـ لا تتعبينى معك يا أليثيا؛ وما علاقة كيس نقود ميجيل بما نحن فيه. ألن نأكله نحن فيما بيننا؟ لا داعى عندئذ لهذا.

ـ مرحى! لقد حانت ساعة المجاملات- قالت ميلى-. كنت تنوين ألا تعزمى عليه أحدًا غير خطيبك.

ـ بالطبع لا، يا امرأة. ولكننى أنا التى طلبت الفول السودانى.

ـ وما الفارق؟

ـ تناول فرناندو القرطاس من يد الرجل وأعطاه البيزيتات الخمس.

ـ احترس حتى لا يسقط على الأرض- قال الرجل- أرجو أن تقضوا وقتًا طيبًا.

ابتعد بين الأشجار؛ "يا محمص، يا لذيذ!".

استدار سييس نصف استدارة على حِجْر بولينا، وقال لها:

ـ هيا، يا بولى، يا زهرتي، اهرشى ظهرى قليلاً.

ـ (بلاش) لكاعة!

ـ إنه يحرقنى، يا امرأة.

ـ ما كان ينبغى أن تجلس فى الشمس. إضافة إلى أننى لو هرشته سيزداد الطين بلّة. ما يمكن أن أفعله لِك هو دهنه بكريم "نيڤيا"؛ هذا نعم.

ـ لا أريد دهانًا، سوف يلزق فيه كل التراب.

ـــ لا شىء عندئذ، يا بنى، أنا آسفة. ولا نصف كلمة عن الهَرْش.

كانت أيادى الجميع تمتد مرة تِلْو الأخـرى إلـى كـيس الفـول السودانى. خشخشة القشر جعلت بولينا تلتفت.

ـــ يجب أن تكون عينا الواحدة هنا فى منتصف رأسها– قالت ميلى–. منْ لا يجرى، يضيع.

ـــ إحساسنا بالجوع يطغى على الشعور بالخجل.

كان طنين الخشخشة مستمرًا، مثل صوت مِطْحنة صغيرة. كان الكيس مُلقَى على الأرض، وسط الجميع، ويتساقط القشر على الأفخاذ العارية. قال فرناندو:

ـــ فى عام ١٩٤٠ و ١٩٤١ كانوا يصنعون البنّ من أشياء مثل هذه.

ـــ منْ أخبرك بهذا؟

ـــ أنا أعرف هذا، ومتأكد منه. ومن الخَرّوب وأشياء أسـوأ. هكـذا كانت تلك القهوة المقززة.

ـــ لم يكن ذلك بُنًا ولا شيئًا من هذا القبيل– ردّ عليه سانتوس–.

ـ لا فرق بين هذا وذاك. الحكاية أنهم كانوا يصنعونه من قشر الفول السودانى، ويسمونه فى المحلات بُنّ.

التفتت بولينا نحو الكيس وأخذت منه حفنة كبيرة من الفول السودانى.

ـ إيه، أنتِ- قالت أليثيا-، إلى أين أنتِ ذاهبة بكل هذا؟

ـ حبّة حبّة، يا بنتى! ملعقة وخطوة إلى الخلف.

ـ إنها من أجلى ومن أجل سيبستيان؛ بما أن هذا لا يريد التحرك. لا أفكر فى أخذ المزيد- ردّت بولينا-.

اندفعت الأيدى بعد ذلك إلى الكيس لتتخاطف حبّات الفول، واستلقوا جميعًا ببطونهم فوقه، متصارعين ومتنازعين على الفريسة، بين الأصوات والضحكات. بقيت على الأرض ورقة الجريدة ممزقة إربًا وبعض حبّات الفول منسحقة، وممرمغة فى التراب.

ـ لا حق لكم فى هذا- قالت ميلى-؛ لم أستطع الحصول إلا على حبتين فقط. أبانت لهم عما فى يدها.

ـ صحصحى!- قال لها فرناندو-.

اتجهت ميلى إلى أليثيا:

ـــ وأنتِ، يا أليثيا، كم أخذتِ؟

ـــ حفنة كبيرة. كلى معى أيضًا لو كنتِ تريدين.

كان دانييل ينظر إلى الجميع بطرف عينه وخـدّه علـى الأرض. عندما شاهدت لوثيتا عينيه المفتوحتين عزمت عليه بالفول السودانى.

ـــ هل تريد، أنت؟

رفض دانى بهزّة من رأسه؛ عقف يديه تحت قفاه ونظر إلى قمم الأشجار.

ـــ عادة ما تنتهى هذه الأشياء هكذا- قالت كارمن-.

ـــ هكذا، كيف؟

ـــ أى إلى الفوضى المطلقة. الأكثر توحشًا بين الجميع هـو الـذى يفوز بنصيب الأسد. مثلما يحدث بالضبط فى حفـلات الزفـاف بالقرى، حيث يلقون بالبيزيتات علـى بـاب الكنيـسة ليـشاهدوا الزوبعة الترابية التى يثيرها الصبية.

ـ وهل حضرتِ حفلة زفاف بإحدى القرى؟

ـ فى العام ما قبل الماضى.

ـ لابد أنها مسلّية.

ـ مسلّية لو عثرتِ على أحد تضحكين معه. أما لو وجدتِ نفسك على الترابيزة محشورة بين عمودين خشبيين لا يفعلان سوى السؤال عما إذا كنت سأذهب للرقص فى الدار البيضاء أو باسابوجا(*)، فسوف تموتين كمدًا، صدقينى يستبد بك سأم، يا بنتى، لا ينفك عنك لمدة أسبوعين.

ـ وما وجه الإساءة فى توجههم إليك بأسئلة من هذا النوع؟ أرى أن...

(*) الدار البيضاء، مدينة معروفة بالمغرب؛ أمَّا «باسابوجا» هذه فلا وجود لها، لأنها مخترعة على سبيل الاستهجان. والجملة كناية عن الضجر الناجم عن سماع أسئلة غريبة وسخيفة لأنها لا تتناسب مع طبيعة المتلقى أو اهتماماته – المترجم–.

ـ من رزالتهم ومن الطريقة الغبية وغير اللائقة التى يتوجهون بها إلى فتاة فى الحديث. تحسين بأنك دجاجة فى حظيرة غريبة، وتتمنين المغادرة فى أقرب فرصة. ترين أنهم يجتهدون لكى يجعلونكِ تضحكين ولكن دون جدوى؛ الشيء الوحيد الذى يتوصلون إليه هو جعلك تزدادين عنفًا كل مرّة. وينقلب هذا العنف عليهم أيضًا، لضآلة روح المزاح عند هؤلاء البؤساء وللمجهود الذى يبذلونه من أجل تسليتك. لم أقضِ وقتًا فى حفل أسوأ من هذا، ولا أفكر فى خوض هذه التجربة ثانية.

ـ ما تفعله الواحدة فى موقف كهذا- قالت ميلى- هو إدخالهم فى متاهات والسخرية منهم والتعالى عليهم.

ـ أنت نعم، تفعلين هذا، لا يخامرنى أدنى شك، لأن هذا يجعلك تشعرين بالتسلية، أنا أعرف.

ـ ما الذى يجعلك تكلميننى بهذه الصورة؟ أنا لا أفهم، يا كارمن، حقيقة.

تدخلت أليثيا دون أن تعطى الفرصة لكارمن كى ترد.

ـ أنا، (شوفى)، بالنسبة لي، القرى لا تعجبنى. حياة هادئة...- توقفت، مفكرة...- وإضافة إلى هذا، الناس جميعًا يعرفون بعضهم البعض.

ــ الهدوء يصيبنى بالضجر – قالت ميلى–، يشلّنى؛ الهدوء هو أكثــر شيء يحطم أعصابى. أما بالنسبة لمعرفة الناس لبعضهم البعض، فيا لها من نُكتة! هل سيكون فى الحياة حافز لو الكل يعرف الكل؟ أنا آسفة، لست مقتنعة بحياة القرى؛ لابد أنها الملل بعينه.

ــ أوافقك الرأى يا ميلى– قال فرناندو–، لا يمكن أن يثير حماســك أو تطلعك لأى شيء إذا كنتِ تعرفين أنك غدًا وبعد غــد واليــوم الذى يليه ثم الذى يليه والعام كله ستفعلين الشيء نفسه، الوجــوه نفسها، والأماكن بعينها، دون اختلاف. هذه حياة مملــة، لا روح فيها. مثل عمل المرء تمامًا، فالحضور كل يوم وأداء المهام نفسها يجعلك تتمنين الرحيل. الحياة هكذا فى القرية؛ على نفس الوتيرة.

ــ ولكنك تتخفف فى المقابل من التعقيدات وصداع الرأس. كل شيء فى متناول يدك.

ــ إنها بالنسبة لي بسيطة للغاية، سالخة– قالت ميلى–، كيف أوضح لك؟. حياة هكذا لا طعم لها. هل يوجد فيها ما يثير الاهتمام؟

ــ لا شيء إذن. وهل هناك حاجة لما يثير الاهتمام. تعيشين مرتاحة وراضية بما هو فى حوزتك وكفى.

ـ نعم، وأنت جالسة على كرسى وتحملقين فى الـسماء الـصافية. مثالى.

ـ ولا هذا أيضًا، يا امرأة. لا داعى للمبالغة الآن. لا يخلو مكان من وسائله الترفيهية. وأنتِ لا تعرفين الأعياد فى القرى؛ يلهو الناس ويشبعون تسلية.

ـ انظرى إذن، لو كان الأمر كذلك، يا بختهم، لأننى، ومن جهتـى، عادة ما ينتابنى الملل من كل شىء مع أننى أعيش فـى مدريـد. تخيلى كيف سيكون عندئذ وقع الحياة الأخرى بالنسبة لي.

ـ المسألة مسألة طباع وما اعتاد عليه كل إنسان.

ـ ما يجعلنى ملولة الآن هو عدم رجوع هذين من فوق لكـى نتنـاول غداءنا. الناس يأكلون حولنا بينما نحن هنا، فُرجة للرائح والغادى.

ـ الساعة تقترب من الثالثة– قال فرناندو–.

كان ينظر من خلال الأشجار تجاه سلم المنحدر، حيث يترقبون ظهورهما.

ـ ولكن ماذا يفعلان، لكى يتأخرا بهذا الشكل؟

ـ لقد فعل المسكينان الكثير بتطوعهما بالذهاب- قالت بولينا-، دون سبب واحد يجعلهما مجبرين على ذلك. لا وجه للشكوى إذن؛ هذا هو الشيء المؤكد.

ـ لا حديث عن الشكوى، لا أحد يشتكى هنا- قال سانتوس-؛ المعدة هى التى تعلن احتجاجها.

ـ واضح، لا يوجد منْ يستطيع إسكاتها. تخبرك دومًا بالحقيقة.

ـ وتخبرك بها فى الوقت المضبوط، بلا تقديم ولا تأخير؛ وبوضوح أبلغ من وضوح الشمس.

رفع سيبستيان رأسه والتفت إلى الآخرين:

ـ ما يعجبنى بشدة فى القرى هو التين الشوكى.

ضحكوا جميعًا.

قال ميجيل:

ـ لقد تأخرنا كثيرًا. لابد أنهم يصبون علينا اللعنات.

ـ الذنب ذنبك أنت– ردّ تيتو–، لكثرة المعجبين الذين يلاحقونك أينما حللت.

ـ إنها ضريبة الشهرة يا فتى– قال ميجيل ضاحكًا– ماذا تريدنى أن أفعل لها؟ المرء مدين لجمهوره.

ـ منْ الذى قام بعمل هذه الدعَاية لك؟

ـ صاحب الخان بالتأكيد، ألا ترى أنه يعرفنى منذ أصياف خلت.

ـ لابد أن الآخر قد اعتقد أنك المغنى الشهير "فليتا"، أو ما هو أدنى منه بقليل.

ـ لقد حسبنى شيئًا كهذا.

كانا عائدين من على الطريق، فى المسافة الواقعة بين مزارع الكروم، والموازية للشريط المعدنى. وحارس مزرعة العنب غير المحاطة بالأسوار الذى أحضروا له الغداء كان يمضغ طعامه وهو يتسلى بالنظر إلى أجفان الكرْم. لم يكن يمر أحد بالمنطقة وما حواليها. تناهى إلى الآذان غطيط لاهث لمحرّك، وظهر فى طريق الاستراحات تاكسى قديم من الحَضَر، متقدمًا باتجاه تيتو وميجيل. انتحيا جانبًا، مفسحين مكانًا لعبور السيارة التى كانت تتهادى، مكتظة

بالركاب، وترفع خلفها على الطريق ذيلاً من التراب. أطلق حارس المزرعة المسنّ سيلاً من اللعنات على التاكسى، وعلى السحابة الترابية السوداء والكبيرة التى طالت ملعقته، وعلى يوم الأحد. التقط الحلّة بسرعة من على الأرض لكى يغطيها ويحمى الطعام. رفع عينيه نحو تيتو وميجيل؛ لم يكن قد رآهما قادمين.

ـ ولا حتى الأكل!- صاح نحوهما-. لا يتركون للمرء ولا حتى الفرصة ليأكل! الزبالة! ازداد صوته ارتفاعًا عندما رأى أن أحدًا يستمع إليه:

ـ أيام الآحاد، زفت وهباب!

كان ما زال يطوّح الحلة فى الهواء، لكنه مالبث أن رماها بقوة على الأرض. انسكبت صلصة وفاصوليا على الطين، وتطايرتا فوق الأجفان. عاد للجلوس بعد ذلك ثم أخرج، بحركات خرقاء، علبة الدخان ودفتر البفْرة، وأخذت أصابعه ترتعش بعنف وهى تلف السيجارة.

استأنف تيتو وميجيل سيرهما من جديد.

ـ إنه معتوه– قال تيتو–، يرمى الطعام بهذه الطريقة...

ـ الغضب لا يفيد. الشيء الوحيد الذى يخرج به من هذا هو إيـذاء نفسه بنفسه.

ـ آه. ليس باستطاعة أحد منا أخذ هذا فى الحسبان عندما يكون ثائرًا ثورة عارمة. لو تحكم المرء فى نفسه فى الوقت المناسب يتفادى الكثير من المآسى والكروب.

كانا قد وصلا إلى حافة المنحدر. وعندما أطلا عليه تعالت من تحت فجأة الأصوات القادمة من جهة الأشجار والاستراحات. كان ثمة رجع صدى لتصفيق بمكان ما. نظر تيتو فى الإبريق؛ قال:

ـ لن يسعفنا الثلج. لقد ذاب تقريبًا.

شرعا فى الهبوط بحرص شديد من على السلّم الطينى الصغير.

ـ انظروا إليهما!. إنهما قادمان أخيرًا.

هاجت المجموعة وماجت عن بكرة أبيها. كانوا ينادون: «ميجيل»؛ بينما يضحك ميجيل منتشيًا بكونه المتسبب فى الهيجان. ساعدوهما فى إنزال الأمتعة كلها.

ـــ وفى هذا الإبريق، ماذا تحضران؟

ـــ ألم تنسيا شيئًا؟

ـــ لا، يا امرأة، لا.

كانوا يموجون بين الأجربة، يبحث كل منهم عن صينيته.

ـــ هذه الحمراء تخصنى.

ـــ يوجد ثلج فى الإبريق، من أجل ماذا هذا الثلج؟

ـــ هل أحضرتما نبيذًا إضافيًا؟

ـــ ها هو، ألا تراه؟

ـــ أوه، هذا نبيذ كثير، على ما يبدو لي!

ـــ ومن أين سرقتما الليمون؟

ـــ لو لم تقلع عن جذب هذا الشريط فسوف تقضى على الجراب.

ـــ قليل من النظام!

ـــ قل، لمنْ هذا الليمون؟

ـــ للسيد فيديريكو كاراميكو(*).

(*) "فيديريكو كاراميكو"، من الأسماء المخترعة والإيقاعية التى يُقصد بها المزاح مع المتحـــاور. المترجم-.

ـــ يا ظريف...

ـــ اسمع، وثلج، وكل (اللى) نفسك فيه.

ـــ لنرى، لنرى... ولكنه أصبح شبه مُفَكّك.

ـــ احكم أنت: الوقت الذى تأخراه كافٍ حتى لإذابة مفتاح إنجليزى.

ـــ هيا، إلى الطعام!

ـــ هنا، كل نعجة مع كبشها.

ـــ ونعجتى، منْ تكون؟

ـــ أنا، أنا نعجتك– قالت ميلى لفرناندو–.

ـــ ... الجميلة! اجلسى هنا، يامليكتى.

ـــ لو تأخرتما قليلاً عن هذا كنا سنشوى دانييل– قال سانتوس–.

ـــ لابد أنه أصبح قابلاً للطى والنشر بدون انكسار.

ـــ لو ألمّت بك نوْبة سُكْر لن تجعلك تتحرك. بالتأكيد تسعون فى المائة من لحم دانييل أصبح كحولاً صافيًا.

ـ والعشرة فى المائة الباقية سوء خلق- أضاف فرناندو-.

ردت أليثيا:

ـ لا تتكلم أنت. لقد كان السبب فى انعتاقك من الصعود لإحضار الطعام.

ـ الكلام يخرج من أفواههم كالرصاص- أضافت كارمن-.

رفع دانييل وجهه ونظر إلى فرناندو:

ـ يسرك كثيرًا مضايقة الآخرين هذا اليوم، كما هو واضح. لا أوصيك بالاستمرار فى هذا الاتجاه. تعرف عندئذ...

أجابه فرناندو:

ـ آه، هيا! جعلك هذا تستفيق الآن، لقد حان الوقت. ألم تحضرا صينية دانى؟

ـ إنها هناك. لابد أن الباقية هذه تخصه.

ـ هيا، ألم نتفق على عدم إحضارها له!

رفع ميجيل صوته:

ـ لا اتفاق ولا قرف! لو صعدت أنت، كان بوسعك عندئذ ألا تحضرها.

ـ حسنًا، يا ميجيل، حسنًا؛ لا تغضب هكذا.

ـ ميجيل عنده حق- قاطعتهما كارمن-. ألم يحضرا لك صينيتك؟ احمد ربنا واسكت.

ـ هذا ما أسميه أنا بروح الزمالة.

تدخلت ميلى طرفًا ثالثًا:

ـ أقول لكم كفى. هل سنأكل أم لا؟ اجلس يا فرناندو.

ـ ما يجرى هنا هو بحر خضم، ترتفع أمواجه تارة وتنخفض تارة أخرى.

ـ والآن تأتى أخرى لتدلى بدلوها ولكن لتزيد الطين بلّة. سوف تجبروننى على الغناء-قال ميجيل-، فلربما تسكتون. وأنت يا تيتو، لماذا أنت واقف هكذا مثل سادن الكنيسة؟

ـ هيا!، سوف يبرد الطعام- قال سانتوس مُحَفِّزًا-.

قالت ميلى:

ـ غنّى، يا ميجيل، هيا. هيا، أطْرِبْنا ونحن نأكل.

خلع تيتو القميص وجلس إلى جوار ميجيل.

ــ ألن تتعرى أنت؟ سوف تحس بالرطوبة أكثر.

رفض الآخر بهزّة من رأسه. كان يرفع غطاء طاسة حمراء مربوطة بدوبارة ويستطلع محتواها.

ــ اسمع، أنت– قال تيتو بغتة–، والسنجريّا؟

ــ لا ترفع صوتك، لقد نسيت! بسرعة إذن قبل أن يتلاشى الثلج.

ــ والليمون؟ أين هو؟

ــ هل رأى أحد منكم الليمون؟

ــ إنه يبرد فى الثلاجة.

ــ ناد عليه لكى يحضر.

ــ لا داعى للاستظراف، ستضيع منكم السنجريّا. الثلج على وشك التبخر.

ــ ألم تحفظيه يا ميلى داخل المايوه؟– قال لها فرناندو–. لنرى، هيا يا ميلى...

ــ تعال ابحث عنه يا شاطر– أجابته ميلى–؛ لنرى إذا كان سيلسعك. ولكن اللّسْعَة ستكون من الصفعة التى سأسددها لك.

ـــ ولكنه هنا! أليست فى وجوهكم عيون؟ لقد انسحق قليلاً، ولكنه ما زال يحتفظ بعصارته.

ـــ ناولنى إيّاه.

وضع ميجيل أصابعه، على شكل شبكة، فوق فوّهة الإبريق وأنزل فُضالة الثلج على التراب. قطّع تيتو الليمون إلى شرائح.

ـــ كيف سننزع أغطية زجاجات الكازوزة؟

ـــ مع سيبس مطواة متعددة الوظائف.

نظّف سيبستيان النّصل فى الفوطة وناول ميجيل المطواة. قالت كارمن:

ـــ اتركوا زجاجتين لمنْ لا يريد السنجريّا.

ـــ الموجودون هنا كلهم يريدون سنجريّا.

ردت بولينا:

ـــ اتركو لي زجاجة كازوزة. أنا لا أشرب سنجريّا.

ـــ ضع الليمون– قال ميجيل والإبريق فى يده–.

ألقى تيتو شرائح الليمون على الـثلج الموجـود بالقـاع. أخـذ الإبريق بعد ذلك، وقام ميجيل بفـتح زجاجـات الكـازوزة وأفـرغ محتواها أيضًا فى الإبريق.

ـ والنبيذ.

كان تيتو ينظر، فى أثناء إمساكه بالإبريق الذى يُفرغ فيه ميجيل النبيذ، نحو دانييل.

ـ مستعدون– قال ميجيل–. لديكم هنا سنجريًا مثل المصنوعة فـى «ماباموندى».

كان يحمل الإبريق فى يده. جلس تيتو إلى جوار دانييل.

ـ ماذا تفعل يا دانى؟ ألن تأكل؟ لديك هنا مكان.

ـ لا أريد مضايقتكم.

ـ دعك من الحماقة الآن. استلم صينيتك. وابدأ فى الأكل حالاً.

التفت سانتوس لرؤية طعام سيبس:

ـ لنرى ماذا وضعوا لك هنا.

ـ لا شىء. كفتة وفاصوليا.

كان يغطى صينيته بورق ألومنيوم.

ـ أستبدلها معك دون النظر إلى محتواها.

ـ لن أستبدل صينيتى بكوْمة حطب.

ـ ستكون أنت الكسبان، تخيّل.

كان تيتو يلحّ على دانييل:

ـ تريدنى أن أرجوك. هيا، الآن؛ لا تكن كالسلحفاة.

تدخل سيبستيان وسانتوس:

ـ لو ظللت هكذا، سنوزع طعامك علينا. أنت أدرى بمصلحتك.

نهض دانييل وأخذ صينيته، تلاقت نظرته بنظرة ميلى. قالت الأخيرة لأليثيا وهى تخفض بصرها إلى الأرض وتعدّل من وضع حمّالة المايوه:

ـ ولا يوجد أيضًا ما يستدعى بقاءه هكذا...

جلس دانييل.

رآه سيبستيان متجهمًا بعض الشىء، فأمسكه من قفاه وهزّه:

ـ هوب(*)، يا دانييل! الإيثيلين هو الذى يسدّ نفسك.

ـ الأكل من حين إلى آخر محمود أيضًا- قال سانتوس لـدانييل بنبـرة نُصح-، تناول من هذه الأشياء، ألا تراها؟. نحن نعرف أن النبيذ هو إكسير الحياة، ولكن هذا لا يُلحق أيضًا الضرر بأحد. دون شـراهة، بالطبع. لا تعافه، جرِّب ولو قليلاً. سوف تعتاد عليه شيئًا فشيئًا..

كان يبتسم فى أثناء كلامه له، ويفصل بأصابعه، وبعناية فائقـة، بين البطاطس المقلية وبين باقى محتوى صينية. نظر دانييل، فبادلـه الأخير النظر وهو يبتسم، ثم قال له:

ـ يا لك من مهرج كبير...!

غمز له سانتوس بعينه غمزة حادّة وضربه بيده على ركبته:

ـ آه، يا دانييل!- صاح فيه-. آه منك، يا جميل! اسمع كلام أخيـك الصغير الذى يعتنى بك ويقدم لك النصائح الغالية عن الحياة.

استخرج سيبس شرائح لحم بعظمها من صينيته؛ كانت الزبـدة المقليـة بها قد تجمدت. نظر إلى أصابعه المدهونة بالشحم وشرع فى لعقها.

(*) "هوب" (Aúpa): صيحة لتشجيع الأطفال الصغار على الاعتلاء – المترجم-.

ـ يبدو أنك تلحس– قال سانتوس–.

ـ وكيف عرفت!– أجاب سيبستيان–. ألم أقل لك ستكون أنت الخسران! ماذا، هل تريد واحدة؟

أخرج شريحة لحم من الصينية وقدّمها له. أخذ سانتوس الشريحة ورفعها من العظمة فى الهواء ثم جعلها تسقط فى فمه، مثل قماشة عَلَم صغير.

لم تكن لوثى تأكل تقريبًا. كانت تنظر إلى البعض ثم إلى البعض الآخر، وكأنها تريد تقديم شىء إلى أحد ما:

ـ لقد أحضرت فطائر محشوّة. جرِّبوها؛ إنها محشوّة بالفلفل الرّومى، ولذيذة.

ـ أنا لا أحب الفلفل الرّومى– قالت لها بولينا–.

ـ وأنت يا كارمن؟

كان أمامهن فرناندو وأليثيا وميلى. كانت أليثيا متوقفة عن الأكل وتفرك بمنديل مبلل بالكازوزة بقعة شحم سقطت على قماش المايوه. كانت لوثى تأكل إحدى فطائرها المحشوّة وتمسكها بفوطة ورقية مدوّنة عليها هذه الحروف:«**ILSA**».

قال لها دانى:

ـــ نحن نسرق هذه الفُوَط من الشركة، أليس كذلك؟

ـــ لابد أن نخرج منها بفائدة ولو زهيدة.معى الكثير. خذ منها ما شئت.

ـــ شكرًا. أنا أمرّ من هناك كثيرًا وباستمرار، ولم يحالفنى الحظ قـــط بأن أضبطك متلبسة بالبيع للزبائن. فى أىّ وقت تعملين؟

ـــ فى الصباح، دائمًا.

ـــ ولكن، فى أىّ مكان؟ أليس هو المكان الذى يقع خلف فتحة متـــرو الأنفاق؟

ـــ هو نفسه. أقف هناك مثل عمود النور من العاشرة صباحًا.

ـــ غريب إذن...

كان يهز منكبيه.

ـــ ها هى السنجريّا! منْ يريد أن يشرب؟

امتد ذراعا ميلى القمحاوان نحـــو الإبريـــق، مـــن فـــوق رؤوس الجميع:

ـــ أعطنى.

أمسكت الكوب، أرجعت شعرها إلى الوراء، وحملت السنجريّا إلى شفتيها. تسرّب خيط رفيع من السنجريّا إلى ذقنها، ثم انسال نحو تقويرة المايوه.

ـ يا لها من رطبة! ألا تريدين الشرب يا أليثيا؟

انتقل الإبريق من ذراع إلى آخر. قالت لوثيتا:

ـ هل تعجبك؟

كانت كارمن قد قضمت الفطيرة:

ـ كثيرًا.

قدمت لوثى صينيتها إلى دانى:

ـ وأنت، يا دانى؟ ألا تريد أن تتذوق فطائرى؟- سألته-.

قال الرجل ذو الحذاء الأبيض من موقعه لدى الباب:

ـ من الغريب ظهور تاكسى من مدريد بهذه النواحى؛ سيارة من هؤلاء فى قلب الريف!

ـ هل يتجه إلى هنا؟- سأل موريثيو من الداخل-.

ـ هكذا يبدو.

ـ إنه أوكانيا، بالتأكيد. أخبرنى أنه سيأتى فى يوم من أيام الآحاد.

اجتازت السيارة الطريق العام واستلمت الطريق المفضى إلى الخان، تاركة خلفها عمودًا طويلاً وضخمًا من التراب. خرج موريثيو إلى الباب لكى يراه وهو قادم. كانت كتلة التراب تنزاح ببطء لتتلاشى بين قمم أشجار مزرعة زيتون.

ـ متى ستفكر فى استبدال عربة الترام هذه بمركبة محترمة؟- صاح موريثيو باتجاه نافذة السائق الذى كان يرجع القهقرى ليركن السيارة فى الظل-.

ظل موريثيو ملازمًا له، وكلتا يديه فوق حافة الزجاج. كان أوكانيا يضحك دون أن يرد عليه. جذب فرملة اليد ثم أجاب قائلاً:

ـ عندما تكون معى النقود التى لديك.

فتح موريثيو باب السائق وتعانقا باحتفالية كبيرة إلى جوار السيارة.

خرجت سيدة سمينة، وفتاة، وأطفال كُثر، وأخو أوكانيا وزوجته. قالت السمينة لموريثيو:

ـ حضرتك دائم المشاغبة مع زوجى. فاوستينا؟ بخير؟ والصبية؟

ـ كلنا بخير. وحضراتكم كما أرى.

وضع موريثيو يده على إحدى تلك الرؤوس الشقراء. نظر بعد ذلك إلى الشابة:

ـ مرحى. كبرت هذه وغدت امرأة. ستشرع عما قريب فى التنكيد عليكما.

ـ إنها تفعل هذا الآن- ردت السمينة-. هل تعرف سلفى وزوجته؟

كانت تنطق السين الأولى فى كلمة "زوجة" "إكس" وكأنها ليست زوجته حاليًا(*).

ـ تشرفنا. كيف حال حضرتكما؟

كان الاثنان نحيفان. جفف السائق أوكانيا عرقه بمنديل ثم قال:

ـ ها هو موريثيو أمامكم؛ موريثيو الكبير.

قالت السمينة:

(*) (Esposa) تعنى فى الإسبانية «زوجة»، ولكن المرأة السمينة تنطقها هكذا: «Exposa» بما يعنى«الزوجة السابقة»، وبالطبع فهى لا تقصد هذا – المترجم-.

ـ إنهما يعرفان حضرتك. لقد سمعانا نتحدث عنك مئات المرات. اسمك على لسان فيليب دائمًا. قد ينسى أولاده، ولكنه لا ينساك. وأنتم! هيا! ماذا تفعلون هنا كالأصنام؟ هيا، ساعدوا أباكم فى إخراج الأمتعة من شنطة السيارة.

التفتت إلى الفتاة:

ـ وأنت، يا فيليسيتا، مهمتك حمل الزجاجات حتى لا يكسروها لي.

ثم التفتت من جديد إلى موريثيو:

ـ إنهم عفاريت! يعلنون الحرب على كل ما هو زجاجى أو من الخزف والصينى.

كانت تهز رأسها.

ـ فى مثل أعمارهم...- قال موريثيو-. إن لم يكن لديكم مانع فهيا بنا ندخل، الشمس حامية جدًا.

رآهم الرجل ذو الحذاء الأبيض قادمين من موقعه لدى الباب.

ـ عندكم هنا نهر جميل. لا مجال لديكم للشكوى- واصلت كلامها.

أفسح لها الرجل ذو الحذاء الأبيض الطريق، ونظر بطرف عينه إلى نصفها العلوى.

ـ احترسوا من الدّرجة هذه- حذّر موريثيو-.

ألقت المرأة بتحيةٍ موجزة:

ـ مساء الخير.

دخل الزوجان خلفها. ابتعد حاجب المحكمة عن طاولة البار ويداه معقوفتان خلف ظهره.

قدّم لهم موريثيو عدة كراسى.

ـ والناس الذين يأتون إلى هنا- قالت السمينة فى أثناء جلوسها-؛ يزيد عددهم عامًا بعد آخر. النهر الذى عندنا، فى المقابل، لا تسر هيئته عدوًا ولا حبيبًا. منثنارس(*) مثار للسخرية، يبدو مثل طشت غسيل، بمياهه القذرة التى يحملها، إنه نقطة الضعف فى مدريد ومصدر خجلها.

ـ أعتقد أنهم يحاولون تحسينه الآن.

(*) منثنارس (Manzanares): النهر الوحيد الذى يمر بجنوب العاصمة مدريد، وهو نهر صغير شحيح الماء، وقد كان مثارًا لسخرية الأدباء الإسبان على مر العصور، ومن بينهم الشاعر الكبير «كيبيدو» – المترجم-.

ـ هيهات. لا يُصلح هذا النهر ولا حتى تشرشل ذاته لو عينوه عمدة لمدريد، رغم كل المواهب الفذّة التى تضفيها«الصحافة» على هذا الرجل.

ـ المسألة مسألة فلوس.

ـ بما أنهم لن ينقلوا مدريد بكاملها... لا أدرى أيضًا كيف اختاروا مكانًا مثل هذا لإقامة عاصمة لإسبانيا. لابد أن الناس الذين اختاروه فى الزمن القديم، هناك...- كانت تشير بيدها بعيدًا- كانوا جهلاء. كان بإمكانهم اختيار نهر يشبه النهر الحقيقى. فى مكان واسع وجميل كما ينبغى.

كانت رأس فيليب أوكانيا غائصة فى داخل السيارة. كان قد أنزل مسند الكرسى الخلفى وشرع فى إخراج الأمتعة من هناك وتسليمها من خلال الباب لأيدى الأبناء الذين يلتقطونها منه. وإذا لم يجد أحيانًا أية يد جاهزة يأتى صوته من الأعماق:

ـ هيا! لا تجعلونى انتظر هكذا.

أخرج جسده فى النهاية وقال:

ـ احملوا الأمتعة واذهبوا، هيا.

وزّعوا ما أخرجوه بين أربعتهم. قالت فيليسيتا:

ـ سأحمل الزجاجات كما قالت أمي.

حرّك فيليب أذرعة تدوير الزجاج. مشى الأبناء الأربعة نحو بيت موريثيو، محملين بالأمتعة كلها. كان الولدان، شديدا الشقرة، واللذان ينتعلان صندلين مطاطين وفى لباس البحر، لا يكفان عن النظر فى جميع الاتجاهات. رنّت أبواب التاكسى فى الخلف. أغلقها فيليب بالمفتاح، وفى أثناء قدومه التفت التفاتة مواربة وألقى نظرة سريعة على الإطارات. كان يصفّر فى أثناء قدومه. يدخل أولاده الآن.

ـ ضعوا كل شىء هنا فوق، مؤقتًا- قالت الأم-؛ على مهلك يا خوانيتو.- اتجهت إلى صاحب الخان:

ـ كيف حال الحديقة؟ يوجد فيها ظل مثل العام الماضى؟

ـ بل أكثر. زرعت فيها هذا الشتاء عشر شجيرات لبلاب، وهى تغطى الآن مساحة معتبرة. ستكونون أفضل هناك.

كانت فاوستينا قادمة من الدهليز، وهى تجفف إحدى يديها فى المنديل. تراجعت إلى الخلف بعد وصولها إلى الباب ذاته، حين شاهدت ظهر التى وصلت فى التوّ.

قال أخو أوكانيا:

ـ هذا جميل جدًا؛ بالحديقة وكله، فى الجزء الخلفى. لابد أن مردوده الاستثمارى جيد فى الصيف.

ـ لا تعتقد هذا- أجاب موريثيو- (اللى بيعملوا شغل كويس) هم الموجودون على النهر والطريق العام. لا يصل إلى هنا سوى القليلين. الوضع سيئ.

سحبت فيليسيتا كرسيًا وجلست على مقربة من والدتها، فى هيئة وديعة. كان أحد الأطفال ينظر إلى لوثيو ويتفحصه من الرأس إلى أخمص القدمين.

ـ هذا علاجه سهل. يمكنك جلْب الناس إلى هنا بوضع عدّة أسهم ويافطة على الطريق العمومى توضح مسار القدوم.

دخل موريثيو خلف طولة البار:

ـ يمنعوننى من وضعها. يتطلب هذا دفع ضرائب للدولة.

ـ معروف؛ بدون ضرائب ولاحتى فى الأحلام. ولكن المدفوع فيها لا يذهب هباءً.

ظهر فيليب على عتبة الباب وأحد أصابعه فـــى حلقــه سلــسلة المفاتيح التى كانت تدور مخشخشة.

ـــ الكل موجود هنا – قال–.

دخلت فاوستينا فى الوقت نفسه من الباب الداخلى. كانت قد خلعت المنديل ومازالت تسوّى وهى قادمة من وضْع إحدى بِنَس شعرها.

ـــ عيناى لا تصدقان!

التفتت امرأة فيليب. كان كارميلو والجزّارينظران إلـــى أرفــف الزجاجات. سلّمت فاوستينا على السيدة أوكانيا وارتدت إلى الخلــف، متقمصة هيئة الدهشة والاستحسان.

ـــ تزدادين حلاوة عامًا بعد عام!

أطبقت الأخرى جفنيها وأرجحت رأسها، متكلفة ابتسامة متواضعة وشكّاءة:

ـــ لا تعتقدى هذا يا فاوستينا، لا تعتقدى هذا؛ المظاهر خادعة، يترك الزمن بصماته على الواحدة مثل أىّ كائن حى آخر. لسوء الحــظ ليس الأمر كما تقولين...

كان لوثيو ينظر إلى الجميع دونما تحفظ أو حياء.

ـ قضيت شتاء فى غاية السوء. لو دققت النظر... لست أنا من كانت هنا العام الماضى، لا.

تفل الجزّار ودعس بقدمه عُقْب سيجارة مشتعل، منتهزًا الفرصة للنظر فى مواربة جهة الخلف.

ـ الحياة تترك آثارها- غيّرت النغمة التى تتحدث بها-. هل تعرفين سلفى وزوجته؟

سلّمت عليهما فاوستينا عبْر المائدة. قالت الأخرى:

ـ تشرفنا.

كان يُلاحظ على ردّها اللكنة القطلونية(*).

ـ البيت بيتكم؛ أنتم من العائلة هنا؛ كما هو الحال دائمًا.

كانت امرأة فيليب هى التى سبقت وقدمت الشكر نيابة عن سلفتها. وفى أثناء تحية فاوستينا لفيليب كان كارميلو والجزّار يدفعان

(*) قطلونية (Cataluña): إقليم معروف فى شمال شرق إسبانيا، وعاصمته برشلونة. ولهذا الإقليم لغته الخاصة (القطلونية)، فضلاً عن الإسبانية. وتلك السيدة تنتمى لهذا الإقليم، ومن ثمّ يشوب كلامها اللكنة المحلية - المترجم-.

الحساب لموريثيو. كان الرجل ذو الحذاء الأبيض يعلو ويهبط على طرف قدميه وهو يتطلع إلى السقف.

ـ الزم الهدوء، يا خوانيتو!- قالت فيليسيتا لأخيها-.

كان الصبى يدور ويدور حول إحدى الموائد، ممررًا يده على رخامها، ومحدثًا بفمه أزيز سفينة بخارية. تحولت اليد عندئذ إلى طائرة وأقلعت من فوق المائدة لتمر ملامسة شعر فيليسيتا. لم تتمكن الفتاة من إسقاطها باللطمة التى أخطأت الهدف فى الهواء.

ـ أمى، انظرى إلى خوانيتو.

ـ أتمنى لكم قضاء وقت طيب- قال الجزّار وهو فى طريقه إلى الخروج-.

لمس حاجب المحكمة القبعة بإصبعه السبّابة، فى إشارة منه بالتحية. ودّعهما الرجل ذو الحذاء الأبيض بإيماءة من ذقنه.

ـ هل ستبقى؟ - سأله الجزّار-.

ـ لبعض الوقت - وأشار إلى ساعة اليد دون أن ينظر إليها-.

ـ خرج كارميلو وزميله فى اتجاه الشمس واستلما طريق سان فرناندو. الآن تدخل خوستى مرتدية ثياب عطلة الأحد.

ـ أصبحت ابنتكما شابة يانعة– قالت زوجة فيليب متجهة إلى موريثيو–.

كانت الفتاة تضحك دونما خجل، وهى واقفة إلى جوار السمينة التى كانت تضع يدها على ردف الفتاة كما لو كانت تختبر ما عليه من تماسك وصلابة.

ـ لديها الآن خطيب ؟– سألت وعيناها متجهتان إلى خوستى–.

ـ نعم لديها، نعم– أجابت الأم، وابتسمت ويداها معقوفتان–.

كانت فيليسيتا تنظر إلى خوستى باهتمام. اقترب الرجل ذو الحذاء الأبيض من لوثيو، دون أن يتكلما. قال أوكانيا لزوجته:

ـ الساعة الثالثة والنصف، يا بيترا. أظن أن الوقت قد حان للانتقال إلى الحديقة.

ـ هيا بنا، هيا بنا – قالت وهى تتحرك–؛ بالنسبة لي، عندما تريدون.

نهض الجميع. امتدت يد خوستى لأخذ بعض الحاجيات.

ـ أوى، لا عليك يا فتاة، لا تتعبى نفسك، الأيادى هنا ولله الحمد أكثر من الهمّ على القلب، لكى تحمل هذا وأكثر منه بكثير. لا تفعلى أنت شيئًا. دعى الأولاد يحملونها؛ لنستفيد منهم بحاجة على الأقل.

ـــ لا تعب ولا حاجة– ردّت خوستينا–.

وانطلقت نحو الدهليز ومعها سلّة. خرج موريثيـو مــن وراء طاولة البار وتقدم الجميع، وكأنه يفسح لهم الطريق، ولكى ينــصحهم فى الحديقة بالجلوس على المائدة التِى تناسبهم.

ـــ لا تتركوا شيئًا – قالت بيترا–.

كانت تسوق أولادها أمامها، باتجاه الدهليز. دخلت فى إثــرهم، وتبعها سلفاها، وأخيرًا فيليب. قال لوثيو للرجل ذى الحذاء الأبــيض وهو يشير برأسه إلى الباب الذى اجتازه الجمْع:

ـــ لابد أن يستميت هذا على عجلة القيادة، مادام متعلقًا برقبته أربعة أشبال يجلسون فى البيت منتظرين الخبز.

ـــ ويمزقون الأحذية– أضاف الآخر–.

كانت تنزلق من على رقبة سيبس خيوط عرق ملوثة بــالتراب وتختفى بين شعر صدره الكثيف. كتفاه مستديران، وساعداه قويّــان. كان يتساقط من يديه الصلبتين مثل الأدوات الحديدية فتات من العجّة

فوق فخذيه. أما سانتوس، الأبيض والأمرد، مقارنة به، فكـان يمـد ذراعه إلى صينية لوثى:

ــ أتسمحين لي؟

ــ خذ، بالله عليك.

ــ كيف تدعو نفسك بنفسك للاقتراب!

ــ نعم، ستتركون الفتاة دون فطيرة واحدة.

ــ إنها من أجل ذلك. أحضرت منها الكثير؛ خذها، يا سانتوس.

تغشى الشمس قمم الأشجار، وتخترق الأوراق متنوعة الاخضرار. تغمز بومضات معدنية بين فجوات الأوراق وتجرح قطريًا محيط الأحراج بأسهم تراب مشتعل، تلامس الأرض وتلوح فى الظلال مثل حراشف[*] من الضوء. كانت تُنَقِّط بشامات مستديرة، وعملات ذهبية، ظهرى أليثيا وميلى، وقميص ميجيل، وتمضى إلى وسط الحلقة متلألئة على الزجاجات وأغطية قماش الألبكا، وألومنيوم الصوانى، والطاسة الحمراء، وإبريق السنجريًا، الجاثمة كلها هناك على فُوَط بيضاء أو بمربعات زرقاء، مبسوطة فوق التراب.

(*) حراشف، مفردها حرشف، وهى فُلوس السمك، أو ما يُعرف بقشره – المترجم-.

ـ السانتوس انسرع! كأن أحدًا يطارده. يلتهم بشكل لاغبار عليه.

ـ لابد من أخذ الحياة فى الحسبان، يا فتى. وأنت أيضًا لا تتصرف بطريقة سيئة.

ـ لا أصل ولا حتى لنصف ما تفعل. أنت لا تتوقف، تبذل قصارى جهدك.

ـ رؤيته وهو يأكل تجلب المتعة- قالت كارمن-.

ـ آه، نعم؟ انظر لهذه، هل أخذت بالك من اللفتة الرقيقة؟ وتستمتع برؤيته وهو يأكل. تستحق هذه أن يُطلق عليها مسمى خطيبة، أرأيت؟

ـ أعتقد هذا. ولكنه لا يُدرك قيمة ما تحت يده، كله عنده سواء. هذا مؤكد.

ـ لا يمكن العثور كل يوم على فتاة مثل هذه. إنها جوهرة نادرة بالتأكيد. لديه من الحظ بأكثر مما يستحق.

ـ بل يستحق هذا وأكثر- احتجت كارمن-. ولا تتخذا أيضًا من الثناء علىّ ذريعة للتقليل من شأنه الآن. آه، يا خطيبى المسكين!

ـ أووووى! (دا شغل على تقيل)!– كان يضحك سيبستيان–. ألم أقل لك؟

نظروا جميعًا وهم يضحكون إلى سانتوس وكارمن. قال سانتوس:

ـ حسنًا، يا(حَوّش)! ماذا دهاكم الآن؟ تريدون سلبها منى؟– مدّ أحد ذراعيه على كتفى كارمن وضمها إلى جنبه، متظاهرًا بالجشع، بينما يده الأخرى ممسكة بشوكة ويتوعد مبتسمًا–:

ـ منْ يقترب...!

ـ نعم، نعم، تعمل الآن مسرحية كبيرة– قال سيبس–؛ وبعد ذلك لا تتورع عن ضربها خوازيق بالجملة حين تجعل المسكينة تنتظر على النواصى عُرضة لسخرية الناس وتعليقاتهم السخيفة.

ـ أكاذيب! هذا ليس صحيحًا.

ـ لتقم هى إذن بقوله، لنرى إن كان صحيحًا أم لا.

ـ سوف أقذفك ...!– موّه سانتوس بجسده، حاملاً علبة سردين فى يده.

ـ هذا ما قدرت عليه!

ـــ "تشاس"، "تشاس"[*]، أرنيها لحظة...- قاطعــه ميجيــل-. هــذه العلبة.

ـــ هذه؟

ـــ نعم، هذه؛ (شوف) أنت...!

رمى سانتوس العلبة وتلقفها ميجيل فى الهواء:

ـــ تريد أن تقتلنى!- تعجب-. هذا ما ظننته. ســردين! مــع أخينــا سردين ويُدارى كالثعلب! ألا تعتقد أنك ترتكــب جُرمًــا!- كــان ينظر، مطوّحًا رأسه يمينا ويسارا.

ـــ معك سردين!- قال فرناندو-. يا لك من لصّ! لماذا تخفيه؟ مــن أجل التحلية؟

ـــ وما أدرانى، يا رجل. تركته تحسبًا للميريندا[**].

ـــ اخرس! كان معك علبة سردين وعامل فيها عبيط. مــع أن مــزّة السردين ليس لها مثيل. إضافة إلى أنها بالزيت. سكوته على هذا، يا فتى، يستحق عليه ركلة جزاء؛ نعم، ركلة جزاء.

(*) "تشاس": صوت يحدثه بفمه لإخافة المتحاور وتهديده برمى العلبة عليه – المترجم-.

(**) "ميريندا" (Merienda): وجبة خفيفة بين الغداء والعشاء – المترجم-.

ـ أنا لن أعتقها- قال فرناندو-. أبدا لم يفت الوقت على النّيل منها بالفتّاحة. ناولني المطواة يا سيبس. معك مطواة، أليس كذلك؟

ـ مطواة سيبس؟ يا لها من أسئلة! بها آلات أكثر مما تحويه حقيبة جراح.

ـ سنفتحها حالاً- قال فرناندو وهو يأخذ المطواة-.

ـ لا تلوّثني، إيه؟- حذرته ميلي-. احترس من تلويثي بالزيت.

انسحبت. نظر ميجيل إلى فرناندو الذى كان (يعافر) لرشق الفتّاحة فى العلبة:

ـ اعطها لي. سأفتحها أنا.

ـ لا، دعني- كان متترسًا بكتفه-. رغم ما تنعتونها به من أوصاف إلا أن المطواة العجيبة هذه لا تساوى خردلة.

ـ (روح العب بعيد يا شاطر)- احتج سيبستيان-. العَجَزة هم الذين يلقون دائمًا بالتّهم على العدّة.

ـ افتحوها أنتم، عندئذ.

انتزعها ميجيل من يديه:

ـ هاتها، يا بنى، هاتها.

كان يمر، تحت وهج الشمس، رجل حالك السَّوَاد، يحمل على ظهره اسطوانة من الفلّين.«الدَّندرمة»، كان يصيح مدلّلاً. كان صوته ثاقبًا، كالصوت الخارج من عود بوص جاف.. «الدَّندرمة المثلجة!». القبعة البيضاء كانت تبرز وجهه. تفتتت السردينات من جرّاء فتح العلبة. دهن سيبس بإحداها قطعة خبز وبسطها بالمطواة وكأنها زبدة. نظف سلاح المطواة بشفتيه.

ـ يا قذر!- وبّخته بولينا.

ـ هنا، لا يُفقد شيء.

ـ اسمع، نتناول بعد ذلك دندرمة- قالت كارمن-.

توقف بائع الدَّندرمة فى رقعة بها ظلّ لكى يبيع لفتاة ترتدى مايوهًا. تداعى عليه صبية آخرون من مجموعات شتى.

ـ يجب التنبيه عليه بالمرور من هنا بعد خمس دقائق.

ـ أتظن أنه يمكن أن يرجع من أجلك وحدك!

ـ آه، وأنا أشاركك الطلب- قالت كارمن-. لن تفوتنى الدَّندرمة. من يريد؟

اقترب فرناندو بعلبة السردين من تيتو:

ـــ هل تريد سردينه، ياألبِرتو؟

رفع تيتو وجهه ونظر إليه؛ كان فرناندو يبتسم له:

ـــ نعم.

أمسك فرناندو بالعلبة، بينما شرع الآخر في إخراج قطع السردين على شريحة خبز قام بسندها على حافة العلبة. وبعد ذلك، أمال فرناندو العلبة قليلاً ليُسقط له على الشريحة قطرات من الزيت.

ـــ شكرًا، يا فرناندو.

ـــ لا شكر على واجب، يا رجل، لا شكر على واجب– ردّ عليه فرناندو ثم ربّت على خدّه–.

رفع تيتو عينيه وتبادلا الابتسامات.

سقطت قطعة سردين على بنطال تيتو؛ قال في الحال:

ـــ لا يهم. ليست له أهمية.

ـــ تصالحتما، (كده كويس).

ـ أنا أيضًا أريد دندرمة.

ـ وأنا.

ـ والأعور.

ـ الجوقة كلها تريد.

نهض سانتوس وسيبستيان للذهاب إلى حيث يقف بائع الدّندرمة. أرادت لوثيتا إعطاء سيبس بيزيتة فكّة:

ـ خذ يا سيبس، أحضر لي أيضًا.

ـ لا تتصرفى معى بعدم لياقة، يا لوثيتا، احتفظى بالنقود.

ـ لا...

ولكن سيبس لم يستمع إليها ومشى نحو بائع الدّندرمة. كان سانتوس ينقل قدميه الحافيتين بسرعة مبالغ فيها، لأن الأرض التى يدوس عليها فى الشمس كانت تلسع باطنهما.

ـ سانتوس نحيف جدًا– قالت بولينا–. لنرى إذا كنت ستولينه عناية أكبر.

ـ هذه هى طبيعته- ردت عليها كارمن-. لن يزيد وزنه عما هو عليه الآن.

كان فرناندو ما يزال واقفاً وسط الحلقة وعلبة السردين فى يده. نظر ناحية سانتوس وسيبستيان اللذين كانا قد وصلا إلى جوار البائع، ونادى:

ـ كيف تتفق الدّندرمة مع هذا الزيت للسردين المحفوظ؟

ـ ما هذه التخاريف التى تخطر ببالك، يا فتى!- احتجت ميلى-. إنها كفيلة بجعل الواحدة تفقد رغبتها فى الطعام. يا لها من همجية!

كان فرناندو يتسلى. رمى العلبة، بعيدًا.

كان البائع يضع اسطوانة الفلّين على الأرض، ويصنّع منها الدّندرمة دونما توقف بآلته الصغيرة التى اختفى منها طلاء النيكل. كان هناك كلب يشمشم إلى جوار الاسطوانة؛ وعثر على قطعة بسكويت مفتتة. «امش من هنا».

تراجع الكلب خطوتين، لكنه ما لبث أن عاد فى الحال إلى البسكويتة.

ـــ فى الطابور، فى الطابور!– كان يقول الصبية.

كانوا يتزاحمون فى صفّ، الواحد فى ظهر الآخر.

ـــ من أية داهية أتيت! لقد جئت قبلك.

ـــ يا سلام! ولكن إذا كنت أنا هنا منذ عشرة أيام، يا دودة!

ـــ لا تتدافعوا. يوجد ما يكفى الجميع– كان البائع يُهدئ من روعهم–.

كان سانتوس وسيبستيان يبرزّان، بقامتهما الطويلة، الواقفين فى الصفّ. ضحكت عليهما بولينا من مكانها فى الحلقة:

ـــ إنهما يشبهان، يا بنتى، زوجًا من اليعاسيب!

قال سيبستيان للبائع:

ـــ لو ذهبت معنا إلى هناك سيكون الأمر أسهل.

ـــ وكيف أفعل؟ ألا تشاهدان الزبائن؟ اللهم إلا إذا انتظرتما حتى أفرغ من هؤلاء...

ـــ لا، أعطنا حينئذ. سوف نتصرف.

ـــ كم عددكم؟

التفت سيبستيان إلى سانتوس:

ـ هل قال دانى إنه يريد؟

ـ لا أدرى.

ـ اسأله، لكى نعرف.

كان الواقفون فى الطابور يحتجون: «هيا الآن، سوف تـذوب (دى) حكاية شرحها طويل!». صاح سانتوس:

ـ دانييل!

نهض المعنى بالنداء، هناك فى الحلقة، وأومأ بإشارة استفهام.

ـ هل تريد دندرمة؟

كل أنظار الواقفين كانت معلقة بدانييل الذى أومأ موافقًا.

ـ هيا، يقول نعم– قال أحد الصبية الواقفين فى الطابور–.

كان البائع قد أعدّ ثلاث بسكويتات دندرمة، وهى الآن بين يـدى سيبستيان.

ـ أكمل حتى إحدى عشرة– قال له سانتوس–.

رفع صبى قمحى اللون عينيه نحو البائع وطرقع أصابعه قائلاً:

ــ هيا، إحدى عشرة.

ثم أطلّ بوجهه فى النُّقْرة الصغيرة للاسطوانة، وكأنه يريد أن يعرف كم تبقى.

قال سيبس ويداه مشغولتان بخمس بسكويتات:

ــ سأذهب بما معى قبل أن يذوب. خذ الفلوس منى.

أشار بذقنه إلى حزام المايوه حيث كانت عالقة به ثلاث وريقات فئة الخمس بيزيتات؛ فأخذها سانتوس.

كان يتعارك فتيان. كانا قد فارقا الصفّ وسقطا متدحرجين فى الشمس. ظل الآخرون بلا حراك، يراقبون العِراك من مواقعهم فى الطابور. كان سانتوس يتناول الدَّندرمة من البائع ويلْتفت بين الفينة والفينة إلى المتصارعين. أحدث الأصغر بأظفاره فى الأكبر منه خدوشًا بالشّفة والوَجْنة. كانت ترتفع أصوات التشجيع من الطابور. تكفتا بالتراب، وألحق كل منهما الضرر بالآخر دون أن تصدر عنهما كلمة واحدة؛ لُهاث متهدج فحسب وعرق. كان كلاهما يرتدى المايوه.

«هيا، أيها الذكر، إنه لك!». وجثة أحدهما ملتـصقة الآن بـالأرض وذراعا الآخر لا يعطيانه فرصة للتململ؛ أما على مستوى الـسيقان فكانت الأفضلية للأصغر لأنه كان يطوّق خِصْر الثانى بساقيه. دفـع سانتوس الحساب وظل يراقب العِراك، بينما كان أصـدقاؤه ينـادون عليه من موقعهم فى الحلقة: «إيه، امشِ من عندك!».

ـ يا للخجل!– صاحت امرأة فى اتجاه الـواقفين فـى الطـابور–. تتركوهما يسيئان لبعضهما هكذا، وتتفرجون! مثـل الحيوانـات! كيف تسمحون بمشهد كهذا!

اقتربت من العِراك وشدّت أحدهما من ذراعه، محاولـة الفـصل بينهما:

ـ هيا، يا متوحش، اتركه! تتعاركان بهذه الصورة..!

لم يحفلا بها. قال لها البائع:

ـ اتركيهما، يا سيدتى! ليستمرا فى العِراك. هذا صحى. هكذا تتربى فيهما الشجاعة.

ـ وحضرتك مثلهما! حيوان آخر!

لم يغضب البائع وواصل تصنيعه للدَّندرمة:

ــ نحن جميعًا حيوانات، يا سيدتى، هكذا خُلقنا. عرفتِ الآن منْ نحن؟

مشى سانتوس عدة أمتار والتفت للنظر من جديد، بينما كانوا يواصلون النداء عليه من الحلقة. كان المتصارعان مكفتين بالتراب، وعلى ظهريهما خدوش أظفار وآثار أصابع. كان البائع يبتسم من خلف ظهر المرأة التى كانت تبتعد.

ــ يا برودك، يا أخى! أصبحت الدَّندرمة فى خبر كان.

أنزل يديه المحملتين وسط الحلقة.

ــ هل كنت تظن أنك فى حفل بهيج، أم ماذا؟

كان ينزلق من على أصابع سانتوس مِزْراب أصيفر لجيلاتى سائل، وبولينا تلحس الدَّندرمة وتضحك.كان الآخرون يحررون سانتوس من حمولته.

ــ لقد تضاءلت إلى النصف– احتج فرناندو–. إذا كانت البسكويتة قد لانت، أيها الوغد!

قال سانتوس وهو يلعق الدَّندرمة:

ـ كان مشهدًا مشحونًا بالانفعال والإثارة. كانا يتعاركان بشكل رائع. تفنن الصغيران وأخرجا ما فى جعبتيهما.

ـ ألم أقل لك؟ كان يظن نفسه فى ميدان سباق أو فى حلبة مصارعة.

أمسك سيبستيان فكّه فجأة، فى إيماءة ألم:

ـ ضرسى...!

ألقى بالدَّندرمة على الأرض، وتراجع إلى الخلف دون أن يترك فكّه.

ـ لا يوجد ما هو أسوأ من الجيلاتى للأسنان- قالت لوثيتا-. هل يؤلمك كثيرًا ؟

أومأ موافقًا بحركة من رأسه. رفعت عَصْفة ريح غير مألوفة التراب والأوراق بين الأشجار، وجعلت الجميع يغلقون عيونهم ويحمون الدَّندرمة بين أيديهم.

ـ وما هذا؟- سأل أحدهم-.

أسرع بائع الدَّندرمة بتغطية أسطوانة الفلين. استمرت عصفة الهواء تلك نصف دقيقة بالكاد وابتعدت ناحية السهل المقابل، متجاوزة، بترابها المجرور، عينى الراعى الساكنتين بلا حراك.

ـ إنها بشائر الخريف– قال فرناندو–.

عاد كل شىء إلى ما كان عليه، وباشر رجل الجيلاتى مهمته فى البيع من جديد.

ـ نعم، إنه الخريف– قالت ميلى–، وماذا نبغى أكثر من هذا! ليته يكونْ جنين الخريف.

ثم نظرت إلى قمم الأشجار التى كانت تتمايل بفعل الريح. كان ميجيل مستلقيًا إلى جوار أليثيا ويعبث فى قدمها.

ـ لا، فى باطن القدم لا؛ هذا يجعلنى أشعر بالدغدغة.

كان هناك شخصان فى النهر، كل منهما بعيد عن الآخر، يتحدثان بأصوات مطوّلة. سأل فرناندو:

ـ ماذا بينك وبين الخريف يا ميلى؟ لماذا تودين أن يأتى سريعًا؟

كانت لوثى هى الوحيدة التى مازالت تلعق البقيـــة الباقيـــة مـــن الدَّندرمة.

ـ أنا دائمًا متسرعة بالنسبة لمرور الوقت– قالت ميلى–. ما يُعجــب هو التغيير. أشعر بالملل عندما يستمر شىء ما أطول من اللازم.

استلقت ووضعت يديها تحت قفاها.

كان شعر إبطيها منتوفًا.

ـ بالنسبة لما يخصك ويخصنى، وطبقًا لحالة كـــل واحـــد ومفهومـــه، لايمكن القول سوى أن ورقة «الدَّبش»(*) كانت من نصيب كلينا فـــى هذه الحياة– قال الرجل ذو الحذاء الأبيض للوثيو–. ولكن هذا أيـــضًا فيه ما فيه. أما أن يكون لديك أربعة أبناء، فلاشك أنه همّ ثقيل.

وافقه لوثيو بهزّة من رأسه.

(*) «الدّبش»، هى ورقة الدومينو التى تحمل ستة أصفار فى نصفها العلوى، ومثلهما فى النـــصف السفلى. وتعتبر فى لعبة الدومينو بمثابة الورقة الميته التى لا تصلح للمناورة (ومثلها فى هـــذا «البياضة»، أىّ الورقة ذات النصفين الأبيضين)، والمقصود بها هنا المصادفة أو الحظ السيئ – المترجم–.

ـ على الأقل، نحن- قال-، لو متنا فلن نتسبب في إلحاق الأذى بأحد. وربما نكون قد أزلنا بموتنا عائقًا.

ـ أنا أزلته من جهتى بالنسبة لمنْ يخصوننى. كارت بوستال فى أعياد الميلاد باسم أختى، وهذا فى الأعوام التى أتذكر فيها إرساله لها، وإلى هنا انتهت العلاقة بيننا. العائق الذى أمثله فحسب ربما يكمن فى إمكانية توصلهم لقراءته.

ـ ماذا لديك من الأهل؟ الوالدن؟

ـ أم وأخوة. أبى توفى. وأمى تزوجت فى ثانية.

ـ فقدت والدك إذن منذ وقت طويل.

ـ طويل جدًا. عام ١٩٣٥. كان لدىّ وقتها سبعة عشر عامًا وكنت الأكبر. التحقت بالخدمة العسكرية فى التاسعة عشرة، وعندما رجعت من الجبهة وجدت ربًّا آخر للبيت.

أخذ لوثيو جرْعة من كأس النبيذ وقال:

ـ هذا لا يعجب أحدًا على الإطلاق.

ـــ ولا مثقال ذرة. استقبلونى فى البداية بكثير من التودد المصطنع، ليروا هل سأبتلع الشراب المرّ ولكننى لم ابتلعه. تصورْ؟ امرأة فى التاسعة والثلاثين من العمر ولديها ثلاثة أبناء كبار، لا يشكون من مآزق مالية أو غيرها، وتفكر فى الزواج ثانية.

كان لونثيو يُؤمِّن على كلامه بإيماءة متفهمة.

ــ لم أكن أجرؤ على الخروج ولا حتى إلى الشارع، ولا التجول بالقرية، تخيل، من شدة الخجل. عرف منْ بالقرية أننى أتهرب من الجميع. ولم يجرؤ أحد، ولا حتى أعز الأصدقاء، أن يفاتحنى بكلمة عن الجُرْسة(*) التى حدثت ليلة الزفاف. أختى الصغيرة هى التى حكته لي، بعد خمسة عشر يومًا من عودتى. سقط جلد وجهى من الخجل. أتدرى ماذا فعلت عندئذ؟ استيقظت فجر اليوم التالى؛ أعددت الحقيبة، وفور تجهيزى لكل شىء ذهبت إلى الحظيرة ونزعت الجلاجل من على أحد الثيران التى لدينا– تنفس بعمق، بوجه تكسوه المرارة؛ نظر إلى الباب، ممررًا يده على

(*) الكلمة الموجودة فى النص هى: (Cencerro)، وتعنى: الضوضاء التى تُثار فى القرى بجلاجل البقر وأمثالها ليلة عُرْس الأرامل للاستهزاء منهن. والجرسة فى اللغة العربية تعنى: التسميع والتنديد بمنْ اقترف ما ينافى المروءة – المترجم–.

فمه-. كانا ما يزالان نائمين. وقفت على باب غرفة النوم، وبإحدى يدىّ الحقيبة وبالأخرى الجلاجل، وأخذت أرنّ وظللت أرنّها جميعًا هناك، أمام الزوجين السعيدين. هذا وداعى لكما. هاجت الدنيا وماجت. استيقظوا. لم يتدخل إخوتى لأننى الأكبر، ولأنهم فى نهاية المطاف لابد أن يكونوا مؤيدين لما أفعله، رغم أنهم لم يريدوا البوْح به. حاول الخنزير أن يضربنى. قال لي: «أتفعل هذا مع والدتك؟». «أنا لا أفعله لوالدتى فحسب»، أجبته. «إنه لك قبل أن يكون لها». هجم علىّ كالحيوان، ولكنى لم أجعله يلمسنى، واستمررت فى رنّ الجلاجل أمام وجهه. كانت أمى تزعق من المخدع وتتفوه بمئات ومئات البذاءات عن والدى المتوفى وتشبهنى به. لم تنهض من مخدعها. وعندئذ رميت الجلاجل عليها ومشيت. أختى هى الوحيدة التى خرجت ورائى باكية حتى السيارة، المسكينة. وعرف كل منْ بالقرية تقريبًا. ولك أن تتصور حجم ما أصاب المسكينة من همّ ونكد، ولم تكن قد أكملت حينئذ سوى خمس عشرة سنة.

كان لوثيو مُطرقًا، ينبش الأرض بإحدى قدميه.

ـ أمور محزنة تحدث فى الأسر. وهل تمكنت من تدبير أمورك بعد ذلك؟

ـ فى عمرى آنذاك، وبعد أهوال الحرب وما جرى فيها لـم تكـن لترهبنى الدنيا أو تخيفنى. تعلمت مهنة الحلاقة فى الجبهـة؛ بمـا أنك لو حلقت يومًا لهذا واليوم الآخر لغيره ينتهى بك الأمـر لأن تصبح حلاق الوِحْدة التى أنت فيها. وبناءً عليه فقد شددت الرِّحال إلى «برغش» التى أعرف فيها «صولاً» كان يعـاملنى معاملـة طيبة فى الجبهة. وهذا «الصول» هو الذى بحث لي عـن مكـان أعمل فيه. وهناك أتقنت قصّ الشعر، ولكن صادفتنى فى النهايـة بعض المضايقات مما جعلنى أرحل أيضًا. ومن وقتها إلى يومنـا هذا وأنا أتنقل من مكان إلى آخر. لا يستقر بى مقام. وكوسـلادا هى أول مكان أعمل فيه لحسابى الخاص. وكما ترى، فإنهم حتى لا يدعون المرء يكافح أو يستريح من المنغصات. ولذا أقول لـك إن «الدّبش» هو حظى فى هذه الحياة. ما رأيك؟ صحيح هـذا أم غير صحيح؟

ـ قطعًا. هذا صحيح. عندما يخرج المرء معوجًا من بيته، بذنب أو بدونه، يلازمه الاعوجاج دائمًا أينما ذهب فى هذا العالم. لا يمكن لأى شىء أن يُقوّم اعوجاجه. لن ينصلح حالك فى الحياة مادام الحظ السيئ كان حليفك فى الخروج. لو تصرف معك أهلك تصرفًا معيبًا، أو كنت أنت الذى تصرف معهم هكذا، فالأمر سواء. إنك تحمل هذا الشىء بداخلك ولا يوجد من يستطيع تخليصك منه، مهما طالت السنون وبعدت المسافات.

ـ نعم، يمكن أن يكون كما تقول...

ـ بلا أدنى شك. وهل يوجد شىء يدمغ المرء ويقرر مصيره أكثر من المعاملة أو الخلاف الذى حدث لك فى بيتك؟ وهكذا تكون أنت، مُعَدًّا للكدر أو لتأنيب الضمير الذى تجرجره وراءك رغمًا عنك؛ وفى هذا الفَلَك سيدور كل ما يربطك بالحياة من شئون. وهذا مما لا يمكن نقضه، مهما كانت درجة التصميم من جانبك ومهما أهلكت نفسك طلبًا للنجاح. ما خرجت به من البيت، أيًّا ما كان نوعه، يظل ملازمًا لك على الدوام.

ـ «الدّبش» أو «البياضة»(*) كما أقول.

(*) «البياضة» : ورقة الدومينو ذات النصفين الأبيضين. ومن المعروف أن عدد أوراق الدومينو هو ثمانية وعشرون – المترجم–.

ـــ أو أية ورقة تطلع لك من الأوراق الثمانية والعشرين. ولكنك لـــن تتعتق منها. إنه لعب لا يخامره الغش ولا يدخل فيه. أنا أعــرف هذا جيدا، ورقتى إن لم تكن «الدّبش» فهى أخرى تنزع، بالتأكيد، إلى السواد.

ـــ نعم، سمعتك من قبل تتحدث عن الطاحونة وما جرى بشأنها.

ـــ ومثل الطاحونة، كل شيء. سقونى المرّ فى كل شىء، وأوسعونى ضربًا على الوجْنة نفسها. ولكننى الآن، وعلى خلافك أنت، يجب علىّ الاعترَاف بأن حقى فى الشكوى أقل منك بكثير. لم يكونـــوا هم، لا، بل أنا الذى تصرفت بشكل سيئ مع أهلى. على الأقــل، هذا ما يبدو لي. ومن ثمّ لامناص، كما يُقال، من السكوت والصبر على المكاره مهما كانت. على كل ما جرى وما هو فى طريقــه إلى الحدوث.

كان الرجل ذو الحذاء الأبيض يمرر يديه علـــى وجهـــه. ســـاد الصمت لبرهة. قال بعد ذلك:

ـــ وهكذا فقد انسدت نفس الواحد حتى عن الزواج. من سنتين كنـــت على وشك، ولكننى تراجعت فى الوقت المناسب. وأعتقد أن هـــذا

كان فى صالحى وفى صالحها وفى صالح منْ كـــانوا ســـيأتون.
ما رأيك؟

أزاحت بيترا أفرع اللبلاب والكرْم الأمريكى المتدلية من علُ.

ــ من الدرجة الأولى!– قال أوكانيا وهو يجلس–.

كانت خوستى ترش الأرض بحفنتيها. وعلى يسار المائدة حيــث جلسوا كانت تُرى حظيرة صغيرة للطيور، محاطة بشبكة معدنية، ينظر منها، بأذنين منتصبين، أرنب سمين للواصلين حديثًا. ألصق الثلاثة الصغار وجوههم وأيديهم بالشكل السداسى للسلك المعدنى، للفُرجة على الأرنب.

ــ إنه شديد البياض!– قالت الطفلة–.

اقترب الأرنب بمقدار شبر وتحــرك، متــشممًا الأنــف. علّــق خوانيتو:

ــ إنه لا يعير اهتمامًا للدجاج.

ــ طبيعى! لأنه لا يوجد تواصل بينهما، ألا ترى أنهما من ســـلالتين مختلفتين؟

ـ انظروا كيف يحرك فتحتى أنفه!

ـ يا له من شىء غريب!- قال الأكبر-. أعرف صبيًا فى الحىّ يحركهما مثله.

ـ عيناه حمراوان!- تعجبت الطفلة بدهشة مبالغ فيها.

تراجع قليلاً أماديو، أكبرهم.

ـ لا تتكئوا هكذا حتى لا يسقط السلك المعدنى- حذّر أخويه-.

رنّ صوت خلفهم. لم يتحرك سوى أماديو.

ـ هيا بنا، أمنا تنادى.

فزع الأرنب عندما شاهد أماديو يتحرك. قال خوانيتو:

ـ سيدخل هناك.

نادت الأم من جديد. توقف الأرنب على باب عشّته. ألح أماديو:

ـ هيا بنا!

ـ انتظر، لنرى ما يفعل الآن.

كانت خوستينا واقفة خلفهم؛ لم يشعروا بقدومها.

ــ أمكم تنادى عليكم.

التفتوا مبهوتين بسماع الصوت. كانت خوستينا تبتسم.

ــ ماذا؟ هل أعجبتكم الأرنبة؟ إنها جميلة، أليس كذلك؟ أتعرفون ماذا تُسمى؟

ــ وهل لها اسم؟

ــ بالطبع لها اسم. تُسمى خيلدا.

ظهرت خيبة الأمل على وجه الطفلة.

ــ خيلدا؟ لا يعجبنى. إنه اسم قبيح.

ضحكت خوستينا.

قالت بيترا:

ــ اسمع يا موريثو. رأينا ونحن قادمون إلى هنا ضيعة على يسار الطريق العمومى بها حديقة رائعة، وبالتأكيد أنت تعرفها ولديك معلومات عنها، أليس كذلك؟

ــ أعرف الضيعة التى تقصدينها، نعم. إنه بيت ريفىّ كان قد بناه كوتشيريتو البلباوىّ(*)، مصارع الثيران ذلك، بالتأكيد سمعتم عنه.

(*) البلباوى: نسبة إلى "بلباو"، وهى عاصمة إقليم الباسك فى شمال إسبانيا – المترجم–.

ــ ولكن هذا مات من زمان- قال فيليب-.

ــ نعم، مات وشبع موتًا. عندما اشترى هذه الأرض لم يكن يوجد شىء من كل هذا. لم يكن موجودًا على الأرجح حينذاك سوى أربعة بيوت مجاورة للنهر.

شرحت بيترا:

ــ لقد لفتت انتباهنا ونحن قادمون، أليس كذلك، يا فيليب؟ الممر الطويل المفضى إلى الشاليه، والأشجار الكثيفة. لابد أنها أعجوبة خالصة، طبقًا لما يتراءى منها للمشاهد من عند السور.

ــ نعم، إنها هكذا، نعم. هى الآن ملك أناس آخرين.

ــ إنها كبيرة جدًا! لابد أنها تساوى بيزيتات كثيرة- قال أوكانيا-. كانوا يعرفون كيف يعيشون وقتئذ، مقارنة بالمساكن المضحكة التى يقيمها الناس حاليًا.

كان موريثيو واقفًا إلى جوار المائدة التى يجلسون عليها. وفى الخلفية، كانت تُرى فاوستينا من إطار النافذة وهى تطبخ.

ــ ولكن، ماذا يفعل هؤلاء الأولاد؟ أماديو، تعال فورًا- صاحت بيترا-.

ـــ فى برشلونة، وفى بونانوبا تحديدًا– قالت سلفة أوكانيـــا–، توجـــد أبراج جميلة، مَشيّدة بذوق رفيع، حدائق غنّـــاء، إيـــه؟ بنـــوافير وزليجات، تساوى الملايين. كل الناس معها، تعـــرف؟– كانـــت تُحدث بإصبعها الإبهام والسبّابة إشارة تعنى وفرة المال–.

ـــ نعم، توجد هناك– قال موريثيو–، صناعات كثيرة.

نادت بيترا مجددًا:

ـــ ولكن، يا أولاد! بيتريتا! تعالوا هنا حالاً!– خفضت صوتها– ياللهم من أولاد! لا فرق بين الأربعة تقريبًا.

جاءوا.

ـــ هيا، اجلسوا لكى تأكلوا. ألم تسمعونى أنادى عليكم؟ من العيب أن تجعلوا الكبار ينتظرونكم هكذا.

فيليسا إلى جوار أمها تنظر إليها، كما لو كانـــت تـــدعمها فيمـــا توجهه إليهم من توبيخ.

قدمت لهم خوستينا المبرر وهى تبتسم:

ـــ كانوا يتفرجون على الأرنبة. لا تنهريهم. لا تتاح لهم الفرصة فى مدريد لرؤية هذا.

ـــ إنها بيضاء– قالت بيتريتا، متحمسة–؛ أتعرفين، يا أماه، إن أذنيها حمراوان؟

ـــ كلى وأنت ساكتة– ردت عليها أمها–.

كانوا يأكلون بلهفة وسعادة. يمدون أذرعتهم على المائدة فى جميع الاتجاهات للإمساك بهذا الشىء أو ذاك، وإن كان الأمر لا يخلـــو فى مرات عديدة من تلقيهم اللكمات من جانب والدتهم.

ـــ اطلبوا الأشياء. أليست لديكم ألسنة؟ سيتحول هذا إلى فوضى.

قال فيليب أوكانيا:

ـــ مثل دون خوان بلمونت لم يـــأت أىّ مـــصارع. لا «مـــانوليتى» ولا غيره. فرق شاسع!

أمّن موريثيو على كلامه:

ـــ نعم، ذلك، نعم. يعطيك الانطباع بأنه يفعل كل شىء بذقنه؛ الشىء نفسه وهو ينشر القماشة الحمراء بيديه أمامه فى انتظار الثور، أو عند تقدمه لقتله، أو عند تلقيه هتافات الاستحسان والتصفيق. أعتقد أنه كان يقتلها بذقنه بدلاً من السيف.

ـ وتلك الطريقة التى كان يناور بها الثيران بقماشته الحمراء، على مهل، برباطة جأش، وبعناية واهتمام، وكأنك تشاهد نجارًا يعمل فى ورشته أو حلاقًا فى دكانه أو ساعاتيًا؛ لا فرق البتة.

تحدث أخوه:

ـ من حسن حظى أننى شاهدته، منذ ثمان سنوات تقريبًا، فى مهرجان بمدينة "كاثيريث"، يطعن الثور ويقتله وقدماه على الأرض. يا للهالة التى كان عليها! حيوان متشامخ.

ـ موريثيو- قالت بيترا- لم نقل لك تفضل. ألا تريد تناول بعض الحلوى؟

ـ شكرًا، يا سيدتى. لم نتناول غداءنا إلى الآن.

ـ حقًا؟

ـ ليس هذا رفضًا. سآخذها منك فيما بعد- التفت إلى أوكانيا-. من الذين سيصارعون فى "لاس بينتاس"(*) هذا المساء؟ هل علمت من سيكونون؟

(*) «لاس بينتاس» (Las Ventas): أشهر ميادين مصارعة الثيران فى إسبانيا، وهو عبارة عن استاد ضخم يتسع لعشرات الآلاف من المتفرجين، ويقع فى العاصمة مدريد، ومنه تبث على الهواء مباشرة وقائع الأشواط الستة لمباراة المصارعة، حيث يتم مصارعة ثور فى كل شوط - المترجم-.

ـ رفائيل أورتيجا؛ سوف يصارع وحده الثيران الستة. إيرادات هذه المصارعة مخصصة لصندوق رعاية الأيتام والأرامل.

ـ إنه يتسم أيضًا بالإقدام والجسارة. قليلون اليوم مـنْ يستطيعون مصارعة الثيران الستة وحدهم. وأقل منهم بكثير منْ يفعلون هذا مجانًا، مثلما سيحدث هذا المساء.

ـ ينتمى أورتيجا هذا إلى السلالة القديمة. لديه المقدرة فى جعل الثور يمر من النقطة التى يريدها فى القماشة الحمراء، غالبًا ما تكون فى وسطها، بحيث يجعلك تحس بكل ثقل وقوة تلك الكتلة الهائلة من اللحم. مصداقية هذا المصارع وجوهره أفضل عندى بكثير من الازدهاء الفارغ بالجمال والرشاقة من جانب آخرين، مع أنهم لا يتنازلون عن تقاضى ضعف الأتعاب فى أىّ مكان يذهبون إليه.

كان موريثيو واقفًا؛ جسده مائل نحو المائدة، ويعتمد بإحدى يديه على مسند كرسى بيتريثا وباليد الأخرى على مسند كرسى أماديو. قال:

ـ أنا لا أعرفه. قرأت عنه فى الصحف فقط. منذ أربع سنوات على الأقل وأنا لا أشاهد مصارعة للثيران.

نادت عليه زوجته من نافذة المطبخ. سُمعت ضربة، وخرج قط منطلقًا كالسهم إلى الحديقة؛ ومن جديد الصوت فى النافذة:

ـــ أعوذ بالله! لا أريد رؤيتكم أيتها الدويبات، وخصوصًا فى المطبخ!

استلقى القط على فَرْشة من الأوراق الجافة تحت اللبلاب.

ـــ ماذا كنت تريدين؟- سأل موريثيو بصوت عالٍ-.

ـــ تعاليا لنأكل.

كانت خوستينا فى حظيرة الدواجن. خرجت بعد ذلك وفى يـــدها بيضة. سألها أبوها وهى متجهة إلى البيت:

ـــ لمنْ تكون؟

ـــ من الدجاجة المُنَقَّطة. مضى عليها (بالنهارده) أربعة أيام دون أن تضع.

كانت سلفة أوكانيا تقول لزوجها:

ـــ لا تملأ بطنك بالبيستو(*)، يا سيرخيو؛ تعرف أنك نصف مريض، وسوف يصيبك هذا بوعكة صحية.

(*) «بيستو» (Pisto): اسم طبيخ قوامه الطماطم والفلفل الأخضر والبيض، مع بعض الإضـــافات الأخرى – المترجم-.

تدخلت بيترا:

ـ دعيه يأكل، أنت أيضًا. يوم إجازة. لن يظل يفكر فى الصحة على الدوام.

ـ انظرى، إذا لم يعتن بنفسه، فسوف تتفاقم حالته.

كانت فيليسيتا تنظر بالتناوب إلى زوجة عمها وأمها، وكأنها تبحث عمنْ لديه الحق منهما. نادى خوانيتو على القط بأصابعه، صفرّ له.

ـ اعطه هذه– قالت له بيتريتا–.

كانت قطعة لحم. ولكن القط لم يأت. قال أوكانيا لزوجته:

ـ يجب أن نطلب من هذا على الأقل أن يعدّ لنا بعض الكئوس والقهوة. نجعله ينتفع ولو بشيء مادمنا قد أتينا للأكل هنا.

ـ افعل ما تريد. إنه لطيف للغاية وربما لا يحاسبك عليها.

ـ سوف يحاسب عليها بالطبع. ولماذا لن يتقاضى ثمنها؟

ـ أفضالك عليه كثيرة...!

ـ وأفضاله علىّ أيضًا كذلك. يا لها من نكتة! لو قاوم سأضع التقود في فمه. يتملكني الخجل لأننا أحضرنا معنا كل شيء حتى النبيذ، بدلاً من استهلاكه منه.

ـ آه، بما أنك لم تقل شيئًا...- ردت الزوجة-. والآن تخرج علىّ بهذا الكلام.

وصل الأرنب الأبيض إلى الشبكة المعدنية وانتصب واقفًا، ويداه على السلك، مُظهرًا كرشه.

ـ انظر، انظر! كيف يقف على قدميه!- صاح خوانيتو-.

نظروا جميعًا.

ـ يا لجماله!- قالت الطفلة-. يا لجماله!

ـ سيكون أجمل في صينية طبيخ بالصلصة- قال أخو أوكانيا ضاحكًا.

نهرته سلفته:

ـ أنت أيضًا! ما هذه الأشياء التي تقولها للطفلة المفتونة بالحيوان؟ قولي له لا، يا بنتي. عمك قلبه أسود. قولي له لن يذبحه أحد. وعندما نأتي العام القادم سوف نحضر له الخسّ، وأنت وحدك ستقدمينه له كي يأكل. حقًا، يا بنتي؟

ـ نعم، يا أمى- أجابت بيتريتا دون أن تُبعد عينيها عن الأرنب.

ـ سنحمل طعامنا غدًا ونخرج إلى الحديقة للأكل هنالك- قال موريثيو-. الواحد على وشك أن يُشوى من حرارة اللهب وهو يأكل هنا.

لم ترد فاوستينا. كانت تخبط فى الحلل.

ـ يا له من أوكانيا! كم أنه يفهم فى الحياة!- استمر موريثيو، مشيرًا بالملعقة نحو النافذة، حيث تُرى من خلالها مائدة الأغراب-. هذا لا يدّخر شيئًا. واليوم الذى يركن فيه على جانب ورقتين ماليتين يكون فحسب بغرض القدوم، فى يوم مثل هذا، لقضاء عطلة الأحد مع الأسرة- شفط الحساء من الملعقة-. وكما ترين، ففى أيام الآحاد لا تتوقف التاكسيات عن التحميل ويأخذون منك خمس بيزيتات زيادة عن العدّاد فى كل توصيلة إلى استادات كرة القدم أو إلى ميدان مصارعة الثيران. يفقد كل هذا وهو فى منتهى السعادة.

ـ ولماذا لا يأتى فى يوم وسط الأسبوع؟- سألت خوستى-. لن يضر كثيرًا.

ـ من أجل أخيه، من الواضح أن إجازته يوم الأحد. يغتنمون الفرصة لقضاء أطول وقت ممكن فى سعادة وانطلاق. هكذا ينبغى أن يعيش

المرء. أما عكس هذا فمثل ذلك الذى يقولون إنه فقد عشرين كيلو من وزنه من جراء بحثه عن صيدلية بها ميزان.

ردت عليه فاوستينا،

ـ إذا كنت مفتونا بهذا النظام، فلماذا لا تفعل أنت أيضًا الشيء نفسه ابتداء من الغد؟ انظر، عليك بإغلاق المحل غدًا والتفرغ للحياة السعيدة. إيه؟ لماذا لا تفعله؟

جاء صوت من الدهليز، صادرًا من داخل المحل.

ـ ماذا تعتقد إذن؟ هل كنت تظن أن الرغبة لن تواتينى فى بعض الأحيان؟ لأنى لا أستمع لك... هيا، اخرجى وانظرى ماذا يريدون. أخبريهم أننى أتناول الغداء.

خرجت فاوستينا. أوقف موريثيو الملعقة فى الهواء ونظر لابنته. خفض بصره نحو الحساء وقال:

ـ فى أية ساعة سيأتى خطيبك؟

ـ فى الرابعة والنصف أو الخامسة على ما أظن. يتوقف هذا على ما إذا كان سيأتى فى حافلة النقل العام أم فى القطار.

ـــ ستذهبان إلى السينما؟ – على ما أظن.

سكت موريثيو لبرهة؛ نظر من النافذة المفتوحة إلى الحديقة؛ كانت سلفة أوكانيا تضحك...

ـــ ضع المبدأ، هيا.

نهضت خوستينا. استمر الأب:

ـــ ألا تعرفين إلى أية حفلة أنتما ذاهبان؟

ـــ آى، يا أبى! ما الداعى لكثرةِ السؤال؟ سنذهب إلى أية سيتما، ما الفارق؟ وما يدرينى الآن؟– غيّرت نغمة صوتها–. من كثرة الأسئلة يُخيّل إلى أنك تسعى وراء معرفة شىء ما. أنا لست بلهاء.

ـــ أنا، يا بنتى؟ لا شىء. افعلى ما يحلو لكِ.

وصلت مجددًا ضحكة من الخارج.

ـــ ماذا تفعلان أيام الآحاد؟

ـــ ألا تعرف؟ وماذا تريد أن نفعل؟ لا، لا تجعل فكرك يذهب بعيدًا.

ـــ جيد، ماذا استجدّ عندئذ لكى يبدو لكِ سيئًا مدّ يد العون لأبيك هنا ومساعدته فى خدمة الزبائن بالحديقةِ؟ ما أصل الحكاية، ومن أين تنبع؟

ـــ كيف! ومن الذى قال لك شيئًا كهذا؟

ـــ والدتك، هذا الصباح. تقول إن خطيبــك لا يعجبــه أن تخــدمى الزبائن وتتنقلى بين الموائد، لأن هذا يبدو له (جليطــة) أو كــلام فارغ. وهى أيضًا توافقه الرأى.

ـــ آى، يا أمى! الآن! أنا استمع فى هذه اللحظة ولأول مــرة لتلــك الحكاية. نحن فى حالة يُرثى لها!

ـــ ألم تكونى تعرفين؟ عندئذ...؟ قولى الحقيقة.

ـــ إنها الحقيقة، يا أبى.

ـــ كفى يا بنتى، لا داعى للمزيد. هل أنتِ موافقة على هذا؟

ـــ أنا؟ دعه يأتى. سوف يتسلى هذا المساء، وينبسط على الآخر.

أطلّت رأس الكلب أثوفرى، متشممة. صاحت فيه خِوستينا.

ـــ أيها الكلب! مشئوم هذا الكلب! أكثر شىء أمقته فى الحيــاة هــو بالضبط هذا: التواطؤ والطعن من الخلف. أنا أعرف اليوم الــذى حدث فيه هذا التواطؤ، متى كان؟ يوم، الأسبوع الماضى، نعــم، وجد أمى وحدها. كان هذا اليوم بالتأكيد هو الذى تم فيه الاتفــاق بينهما. ولماذا اللف والدوران الطويل من جانبك لكى تخبرنى به؟

ـ آه، وما أدرانى! بما أنه لا يوجد فى الغالب منْ يفهمكــن معــشر النساء...

هزّ منكبيه.

حفظت فاوستينا النقود التى أعطاهـا لهـا الرجـل ذو الحـذاء الأبيض. غضّنت أنفها وهى تنظر إلى لوثيو، ثم قالت وهـى تـشير بصدغها إلى الباب الذى انتهى الآخر من الخروج منه:

ـ وهذا...؟

ـ رجل طيب. من خيرة الرجال.

ـ لا أدرى أية حياة ينتهجها. قد يكون رجلاً طيبًا، أنا لا أشكك فـى هذا، ولكنى لا أفهمه، لا أراه واضحًا...

دخل بعد ذلك إلتشاماريس مع أثوفرى، كلبه الأصفر. ودخل فى إثرهما حاجب المحكمة، ثم الجزّارالسابق وفى معيته جزّارآخر مـن سان فرناندو، وعندئذ زحر أثوفرى وهزّ ذيله.

ـ مساء الخير.

ـ فاوستينا ـ حيّاها الجزّار الجديد، مشددًا على نطق المدّ الأخير من الكلمة، ومحملاً إيّاه بنبرة ثقة.

أخذ الكلب يتشمم رائحة الأغراب فى الدهليز أمامه، وعندما همّ بالترحيب بعائلة أوكانيا مرّ من أمامه القط فى منتصف الحديقة وصدرت بادرة شجار؛ ولكن القط كان هو الذى صمد متحديًا بينما تراجع أثوفرى وخلفه صوت خوستينا، التى كانت تصيح فيه «أيها الكلب...!» عندما أطلّ برأسه فى المطبخ.

ـ ألن تصبى لنا القهوة؟

ـ إنها مازالت على النار.

كان الجزّار الثانى أكثر طولاً وأشد نحافة، ولكنه يتمتع مثل زميله بخفة الظلّ وروح الدعابة. كان يقوّس ظهره مثل قط أو راكب دراجة، ويحنى رأسه إلى أسفل لكى يتحدث مع الآخرين. قرأ على الأرفف:

ـ «أوخين مورالس(*)». مشروب قديم. إنه من أجلك، لأنك تحب العرقى – وكزه بكوعه–.

(*) «أوخين» : اسم لنوع من العرقى، وهو مشروب كحولى قوى. أما «مورالس» فهو اسم المنتج أو الموزّع للأوخين – المترجم–.

ـ الأوخين ليس مشروبًا اعتياديًا. لا يمكن تناوله كل يوم.

خرجت فاوستينا من وراء طاولة البار لإحضار القهوة.

ـ علمت أنك سقيت الذلّ هذا الصباح، لـذلك الـسخيف، موظـف البلدية. إنه ليس محصنًا ضد النقد.

نظر لوثيو إلى الآخرين وقال لهم:

ـ لا داعى لفتح الموضوع ثانية.

دخل موريثيو:

ـ مساء الخير...

ـ ماذا؟ هل لدينا زيارة؟

أومأ بنعم:

ـ إنه صاحب هذا التاكسى الذى شاهدتموه بالتأكيد عند دخولكم. إنه صديق منذ سنوات عدّة.

ـ بما أنه أقدم من التاكسى، فلا شك أنه صديق عزيز.

ـ يا رجل! لا يمكن أن تدوم صداقة فى هذا العالم دوام هذا الأثـر الحُجرى– كان يضحك إلتشاماريس–.

ـ مازالت هناك مركبات أقدم من هذا تسير على الطريق.

ـ لو وضعوا عليه نظَارة وغطّوه بملاءة، ستجد غاندى ماثلاً أمامك.

ـ والآن، اتركوا التاكسى فى حاله. لقد قيل فيه ما يكفى- قطع عليهم موريثيو الطريق-.

كان الآخرون يضحكون. دخلت خوستينا بغلاّية القهوة.

ـ تفضل يا أبى- التفتت إلى الطويل-. ماذا؟ السيد كلاوديو؟ ألم نذهب اليوم للصيد؟

ـ لا، يا بنيتى؛ ما يمكن اصطياده اليوم لا يستحق العناء، نظرًا لوجود كل هؤلاء الناس. هؤلاء أسماك سمينة جدًا بحيث لا تنفع معهم السنّارة.

وصل صوت فاوستينا، قادمًا من الدهليز. قال موريثيو:

ـ هيا، يا بنتى، صُبّى لهم القهوة. سأتغيب لحظة- وخرج-.

ـ أبوك، اليوم، مشغول (لشوشته) مع هؤلاء المدريديين الذين جاءوا. أما الآخرون، فليس لديه وقت ولا حتى للنظر إلى وجوهنا.

ـــ الرجل مسرور. يستمتع. ألا ترى أنهما لم يلتقيا منذ الصيف الماضى؟

وضعت الفناجين وشرعت فى صبّ القهوة.

ـــ وفى أية مناسبة تعارفا؟

ـــ عندما كان والدى فى مستشفى المديرية وساقه مكسورة. كان الآخر فى السرير المجاور هناك لتعرضه بسيارته لحادث. نحن، والدتى وأنا، تعرفنا أيضًا فى المكان نفسه على عائلته، عندما كنا نذهب للزيارة يومى الخميس والأحد من كل أسبوع. انظر، اتفقا على أن يتعهد الذى يأخذ تصريح المغادرة أولاً بإقامة احتفال على حسابه ويدعو إليه الآخر، مع العائلتين. كان هذا هو الاتفاق المبرم بينهما.

ـــ ومنْ الذى خرج منهما أولاً؟

ـــ أوكانيا. وعليه فقد شددنا الرحال يوم أحد إلى مدريد، ولم يكن والدى قد خلع الجبس، لحضور الاحتفال.

ـــ نعم، مازلت أذكر متى كانت ساق والدك فى الجبس؛ منذ ست سنوات على الأقل.

ـ كان هذا فى شهر ابريل، يعنى من ست سنوات (وشويّة). كانـت طفلتهما الصغيرة ما تزال ترضع آنذاك...

ـ لا يشكو والدك إذن من أىّ أثر لعرج نتيجة لذلك الكسر - قـال الجزّار الطويل -.

ـ عندما يسوء الجوّ يعرج وتوجعه ساقه.

ـ ولكنه لا يعطى أية إشارة - قاطعهم لوثيو -. المرّة التى يصيب فيهـا فى تقدير حالة الجوّ تكون عن طريق الصدفة البحتة. ومادام لا يوجد جهاز يهدينا إلا ساق والدك فعلى الأرصاد الجوية السلام.

ضحك الآخرون. قال كلاوديو:

ـ عندما (يكلبش) هذا النوع من التعارف يتحول إلـى صـداقة مـدى الحياة. ولكن هذا يحدث مرات قليلة، لأنه بالنسبة لي علـى الأقـل، عندما كنت فى المستشفى لإجراء عملية فإن الذين أوقعنى الحظ فـى مشاركتهم العنبر كان من الأهون علىّ رؤية العمى ولا رؤيتهم.

ـ ولكن هذين، أوكانيا وأبى، على العكـس، كانـا يبـدوان مثـل الأخوين؛ مما كان يجعلنا نضحك تعجبًا. كان كل واحـد منهمـا يُهدى للآخر كل ما عنده؛ يقضيان اليوم فى تقديم كل منهما للأخر

هذا الشيء أو ذاك، لدرجة أن أمى كانت تقول على سبيل المزاح علينا أن نقدم ما نحمله لوالدك إلى أوكانيا، وأن تقوم عائلة أوكانيا بتقديم ما تحمله لوالدى، وبهذا الشكل نوفر عليهما عناء تبادلهما لكل شيء.

ــ والدك كريم. الكل يتوادّ ويتآلف معه. وإذا كان الآخر من العينة نفسها أيضًا، فما قلتيه يبين بوضوح تام حقيقة الأمر– علّق إلتشاماريس–.

كانت خوستينا تشبّك ذراعيها فوق طاولة البار وتؤرجح إحدى ساقيها. اقترب منها الجزّار الطويل وتحدث معها، مميلاً رأسه:

ــ حسنًا، يا صْبية، أظن أنك لا تمانعين فى تشريفنا اليوم.

رفعت خوستينا رأسها:

ــ عن ماذا تحدثنى؟

ــ وعن ماذا سيكون، يا بنتى؟– ردّ الجزّار وأشار بإصبعه السبّابة وصدغه إلى الحديقة–.

قالت خوستينا وهى تضحك:

ـ مرحى؛ أنت لا تتغير أبدًا. ألا تستطيعون الاستغناء عنى؟

ـ لا، يا بنتى، أنت البطلة. ومنْ غيرك يستطيع إضافة الملح وإضفاء المتعة والإثارة على اللعبة؟. الضفدعة بدونك مثل الطبيخ بدون لحم. وإضافة إلى ما تقدم، هل يقدر أحد على منافستى فى اللعبة سواكِ؟

ـ إيه، بدون (فَشْر)- احتج إلتشاماريس-.

ـ أنبه عليكم مقدمًا بأن خطيبى سيأتى فى الخامسة لاصطحابى.

ـ هيا عندئذ؛ لا داعى للتأجيل. كلما أسرعنا كان أفضل. لدينا بالضبط وقت يتسع لمبارتين.

قال إلتشاماريس:

ـ هيا، يا خوستينا، أنت وأنا ضد شعبة اللحوم. سنضربهما علقة، سترين.

ترددت خوستينا للحظة:

ـ ولكن...- حزمت أمرها ولم تكمل-. هيا بنا-.

«نحن لا نفعل شيئًا هنا الآن. هيا بنا». علّق بائع الدّندرمة أسطوانة الفلين على ظهره وابتعد فى اتجاه الرّابية. رنّ غُطْس منفرد فى النهر من جرّاء إلقاء كلب فيه؛ وبعد ذلك تعالى الصراخ من إحدى العائلات بسبب نفْض الكلب لما عليه من ماء فوق الناس. التفت الموجودون جميعًا نحو مصدر الصراخ ليتبينوا كُنْهه. "لا يتركون الواحد ينعم بالقيلولة"- دمدم دانييل-. كانت الشمس قد انتقلت إلى الضفة اليمنى للخراما. وعلى مبعدة، يختط مصنع أسمنت «بيكلبارو» طبقة مطوّلة من الدخان نحو سماء مدريد. فى الصمت، سُمعت بين المجموعة بقبقة أمعاء، علّق أحدهم قائلاً: "أحشاء أحدنا تغنى...".

ـ إنها تغنى لي- قال سيبستيان ضاحكًا-. السردين يصلى صلاة التسابيح.

استلقت أليثيا على بطنها، معتمدة بكوعيها على الأرض، ومحتفظة برأسها عالية، فوق وجه ميجيل. الآن تنظر إليهما ميلى من وراء نظارتها الشمسية. كان ميجيل يداعب الأخرى وينفخ فى رقبتها. ظلت ميلى ترقبهما.

ـ ألا تريدين يا أليثيا أن أسرّح لك شعرك قليلاً؟- سألت فجأة-.

ـ إيه؟ لا، شكرًا. الآن لا، يا ميلى. فيما بعد، (ماشى)؟

ـ الوقت المناسب له الآن، قبل أن يجف كله. سوف يكث(*)، وإذا لم يتم تسريحه الآن...

ـ أوى، يجف؛ لو كان من أجل هذا، فإنه شبع جفافًا من ساعتين!

ـ حسنًا، افعلى ما يحلو لك.

نظرت ميلى إلى الجهة الأخرى. أخذت تنبش الأرض بعُصَيَّة، تخط حروفًا ثم تمحوها؛ وترسم بعد ذلك، وفى سرعة شديدة، خطوطًا وصلبانًا. وفى النهاية كسرت العصيّة فى الأرض والتفتت إلى فرناندو. لم تستطع رؤية عينيه، لأنه كان يشبّك ساعديه فوق وجهه، ليحتمى من الضوء.

ـ لقد نام هذا.

كانت المياه الساكنة أمام السدّ تردّ تجاه الأشجار صدى الصوت القادم من راديوهات الاستراحات. نظرت ميلى من جديد إلى أليثيا وميجيل.

(*) كثّ (الشعر): اجتمع والتف وكثر فى غير طول ولا دقّة – المترجم-.

ـ سوف يتسخ هذا القميص– قالت الآن–.

ـ قميصى؟ أنا؟

ـ نعم أنت. ستجده ملطخًا بالتراب عندما ترتديه. تستلقيان حيث أنتما، غير مكترثين بشىء...!

هزّ ميجيل منكبيه، قال لها:

ـ الأمر سواء. سألقيه فى كل الأحوال، عندما أصل ليلاً إلى بيتى، فى سلّة الملابس المتسخة.

لم تجب ميلى. استلقت على ظهرها، ويداها معقوفتان خلف قفاها.

ـ حرّ مُقْرف...!– تنهدت–.

من لدن ظل الأشجار، كان يُعمى العيون البريق الحانق للضفة الأخرى، المخفوقة بالشمس؛ وبلاطة شاسعة من الضوء كانت تسحق الأراضى البور المهجورة، ماحية نعاج القطيع الصغير على خلفية السهول الضاربة إلى البياض. قالت لوثيتا:

ـ كم أن ظهرى يحرقنى كثيرًا! لا أطيق وضعه على الأرض.

رفعت جذعها حتى استوت جالسة، ثم أضافت:

ـ هل يتطوع أحدكم بدهنى بقليل من كريم نيڤيا؟– كانت تنظر إلى تيتو–.

كان تيتو مستلقيًا إلى جوارها، نظر إليها. ولوثى:

ـ إيه؟ هل تتكرم، يا تيتو، بتقديم هذه الخدمةِ لي؟

ـ نعم، يا امرأة، أدهنك.

ـ شكرًا. إنه يحرقنى كثيرًا؛ لدرجة لا تتخيلها.

أمالت ميلى رأسها جهة كتفها، وأخذت تتابع مرة أخرى، من خلف نظارتها السوداء، المداعبات بين أليثيا و ميجيل. قالت لهما الآن:

ـ اسمع، يا ميجيل، ألا ترغبان فى تدخين سيجارة؟. أنا أدعوكما.

ـ آه، سيجارة، هذا نعم.

ـ سأخرج لكما العلبة إذن.

قالت لوثيتا:

ـ ناولنى الحقيبة، من فضلك، الكريم موجود فيها.

مدّت يدها لكى يعطيها لها تيتو.

ـ سأفتش عنه بنفسى- قال هو-.

ـ لا؛ لا تكن متطفلاً- أمسكته من ذراعه-. اعطنى هذه الحقيبة، يا تيتو.

أبعدها الآخر عن متناول يدها.

ـ استمتع بالتجسس. هل لديك أسرار، يا لوثى؟

ـ لدىّ أشيائى. لا أحب أن يتجسس علىّ أحد. وبعد ذلك تدَّعون أننا نهوى التلصص، ومفتونات بحب الاستطلاع. هيا، أعطها لي.

سلّمها تيتو الحقيبة.

ـ حسناً، يا بنتى؛ خذيها. نحترم أسرارك.

ـ لا توجد أسرار. لا تشغل بالك، ليس لدىّ سرّ. ستصاب بخيبة أمل كبيرة. الآن، لو أردت، يمكننى إطلاعك على محتواها، بدون تردد. لا أتمتع بأهمية تذكر، يا بنى، ولا داعى لتقليب المواجع.

فتشت بيدها فى الحقيبة، بحثًا عن علبة النيڤيا.

ـ لماذا تمانعين عندئذ فى رؤيتها؟

ـ يعجبنى أن تكون فى يدى، وأن أكون أنا فحسب مـنْ تعـرض محتواها. ولا أحب أن تعبث بها أيادى الآخرين. خذ العلبة.

استلقت على بطنها.

ـ وعلى وجه الخصوص الكتفين- نَبَّهته-.

الآن، يزعق أحد ما، بأعالى النهر، تحت قباب القنطرة، ويصل صدى صوته مقعرًا. التفتت بولينا. فى أعلى القنطرة، وعند مدخلها، تضرب أشعة الشمس اللونين الأزرق والأصفر لسيمافور السكة الحديد. كانت رأس سيبس فوق ساقى بولينا؛ مدّ يده حتى لمس بأصابعه نُدْبة صغيرة على عقب سانتوس:

ـ ما هذه الكدْمة التى لديك؟- سأله-.

قلّص الآخر ساقه.

ـ لا تضغط عليها، إنها تؤلم. من المباراة.

ـ متى؟

ـ الأحد الماضى، فى ملعب «إلِيبا». ضد فريق «فيرسا».

ـ صحيح؟ وكيف انتهت؟

ـ انتهت بتبادل الصفعات فى منتصف الشوط الأول.

ضحك سيبستيان:

ـ والسبب؟

ـ السبب الدائم والمعتاد. كانوا مثل الحيوانات. أشبعناهم صفعًا؛ كل واحد منهم أخذ نصيبه، بالعدل والقسطاس- كان يحرك يده اليمنى فى الهواء، بإشارة تعنى علقة-.

ـ تنتهى دائمًا هكذا، مادام لا يوجد قائدان للفريقين لفرض الاحترام.

ـ احترام! القوة وحدها هى التى تُحترم هنا.

ـ وهذا، عندما يكون اللاعبون يحترمونهما، وهذا غير مضمون على الدوام، إذْ يوجد فى معظم الأحيان منْ يخرج عن طوْعهما. يعنى انفضّ السّامر بالكرّ والفرّ؟

ـ بل لعبنا بعد ذلك مباراة ودّية، بين بعضنا البعض. كوّنا فريقين، وأكملنا النقص بعدد ممنْ جاءوا للفُرجة. انسحب فريق«فيرسا» وقفاه (يقمّر عيش)- قال سانتوس-.

كان يضع ظهر يده على عينيه، اتقاءً للـضوء. كانـت بولينـا تهرش ظهر سيبس ، قالت:

ــ اسمع، فى مصنعك، تعمل أيضًا فتيات، أليس كذلك، يا سانتوس؟

ــ للتغليف فقط. يعملن فى قسم آخر غير قسمنا. إننا لا نراهن حتى.

ــ لستَ فى حاجة لرؤيتهن– قالت كارمن–.

ــ إطلاقًا، يا حبى– أجابها ضاحكًا–.

وأراد أن يطال ذقنها بذراعه الممدود.

ــ امسك.

ــ حسنًا، ولكن دون تصنّع زائد.

ــ هل تغارين على هذا الشخص؟– سألت بولينا–.

أجابتها كارمن وهى تهز منكبيها:

ــ بالقدر الطبيعى.

ــ أوى؛ الطبيعى! رحماك يا رب!– قال سانتوس–. إنها مثل خوانا المجنونة!

فى الجماعة القريبة، كانت تتناقش باحتدام امرأتان فى موضوع الولادة والإجهاض وحول منْ هو الأكثر جمالاً فى الطفلين حديثى الولادة. الرجل الذى كان معهما لم يكن ينبس ببنْت شفة، بل يقتصر على النظر إليهما وهو يدخن. إنه بوذا السابق، ولكنه يرتدى الآن ملابسه. كان دانييل نائمًا. جفلت الأغنام فى السهل المقابل، لأن عددًا من الأشخاص كانوا يجرون عاريين، مقلدين السلاحف. كانت ترنّ على الأرض الضربات المعتمة للأظلاف، وكأنها فوق بطانية. والآن نباح الكلاب وصفّارات الراعى. جفلت لوثيتا:

ـ هنا لا، يا تيتو، أنت تدغدغنى.

كانت تُحس الرائحة العنبرية لكريم نيڤيا. عاد للمرور بائع الدّندرمة؛ نادوا عليه من مجموعة قريبة. "لم يبق معى شىء"– أجاب–. رفع دانى رأسه وحملق فيه لبرهة.

ـ يا له من رجل قبيح...!– قال–، ثم عاد لإخفاء وجهه ناحية الأرض.

ـ وهل أساء إليك بشىء؟– قالت لوثى–.

كانت ميلى تنظر إلى الخط الواضح الذى تركته علـــى كتفهـا حمّالة المايوه. فتح فرناندو عينيه وأشار ناحية الـسماء، بـين قمـم الأشجار.

ـ انظروا إلى العصافير.

كانت تحوم فى الأعالى، على غير هدى، وتتحدر بأجنحتها الـساكنة فوق قمم الأشجار. تصرخ ملتاثة.

ـ ماذا تُسمى؟- سألت ميلى-.

ـ الورْوار.

ـ لونها رائع.

ـ ألوانها زاهية، نعم. كان فى يدى واحد منها حيّا- قال ميجيـل-. ألا تتذكرين، يا أليثيا؟ كان قد كُسرأحد جناحيه بعد ارتطامه بكابل التلغراف، فى «لوس مولينوس»، عندما كنا فـى رحلـة. كـان العصفور المسكين عاجزًا.

ـ لابد أن شكلها بديع على مقربة.

ـ وأكثر من بديع. أصرّت هذه على حمله إلى البيت لتربيته. ولكـن هذا النوع من العصافير يموت منك لا محالة فى القفص. لاسـيما إذا كان مكسور الجناح مثل ذلك العصفور.

ـــ ما الساعة التى نحن فيها، أنت؟

ـــ السادسة إلا ربعًا.

ـــ (لسّه)؟- قالت ميلى-.

هناك، فى الشمس، على ضفة النهر، وفوق اللون الصدئ للمياه كانت تقوم سيدة، ترتدى طاقمًا من الحرير الأسود، بدعْك حلل كوبالت وأطباق ألومنيوم بالرمل. كانت الأطباق ترسل بلمعان متقطع، مثل طلقات الفلاش،عندما تتعامد عليها أشعة الشمس.

ـــ الرقص! لا أسمح حتى لهذا بأن يرقص- قالت بولينا-.

أزاحت سيبستيان من على حجرها.

ـــ حسنًا، أنتِ، خلاص.

ـــ يا فتى، أتمنى لو كانت لي عشرة أظهر لكى يهرشوها لي طول الوقت. لا تظن أننى أمزح. وعندما ينتهون من هرْش العاشر يكون رقم واحد قد بدأ يلسعنى من جديد...

ـــ بمعنى- استمرت بولينا- ألا أترك له أدنى فرصة ليرقص. ولكننى، أرجو أن تفهمينى، لو وجدت أنه سيجعل من نفسه عُرضة للسخرية فى حفل زفاف لم أذهب إليه معه، وأنا أضرب

مثلاً، أو فى أىّ التزام آخر، أيّا كان نوعه، فأنى أصرّح له بـأداء رقصتين أو ثلاث حتى لا أتسبب فى إحراجه، أتفهميننى؟

ـ آه، ولكننى لا أرى فى بقاء المرء جالسًا على كرسى مـا يثيـر السخرية- أجابتها كارمن-. لا أجد فى هذا ما يدعو للخجل، مـن أية جهة.

ـ يا بنتى، يجب أن تعترفى أولاً- قالت بولينا- أن الرجل فيه عِرق هيافة، وعندئذ ستفهمين كم سيحز فى نفسه أن يظل جالسًا علـى كرسى حزين بينما يلهو الآخرون ويتسلون. سيقولون إن خطيبته حمقاء أو ما شابه.

ـ (شوقى)، يبدو أن وجهتى نظرينا مختلفتان فى هذا الموضوع. من لديه خطيبة تراعى الشكليات، فعليه أن يـشاركها فيمـا تفرضـه عليها التقاليد، دون اعتبار لأحد أو لأى شىء، لأننى أعتقد أن هذا هو الصواب. أما التسليم بضرورة تمتع الرجال بحريات أكثر منا فلا أجد له أيضًا تفسيرًا.

ـ انظر إلى النساء، وكيف يغزلن وينقضن غزلهن- قال سـيبس-. هيا بنا، يا سانتوس، فنحن هنا شُرَّابتا خُرْج. هيا نقـوم بجولـة، ربما يحالفنا الحظ فى اصطياد غزالتين حلوتين.

كان يضحك. قال سانتوس بصوت مسترخ:

ـ لن أبرح مكانى حتى لو مرّت من هنا مارلين مونرو شخصيًا.

كان مستلقيًا على ظهره ورافعًا ذراعيه نحو السماء.

ـ حسنًا، هذا ما أتمنى رؤيته. لو مرت بالفعل هذه الشقراء أمامنا هنا، سترى كيف ستنهض كالبرق، وتقفز كالمجنون.

ـ مرحى، جيد جدًا، جميل للغاية- قالت بولينا-؛ اعملا لنا اعتبارًا على الأقل.

ـ إيه، حسنًا، هذا نعم؛ لإضفاء الحسن على الموجود، أيتها الفطساء.- ضحك سيبستيان-، لإضفاء الحسن على الموجود. معلوم.

أراد مداعبتها، ولكنها انسحبت.

ـ ابتعد، أيها السخيف!، يكفى لسانك الزالف.

ـ آه، اسمع، بالمناسبة- قال سيبس- شيئًا مسليًا. وعلى ذكر مارلين مونرو، ألا تعرفون ما قالته فى الصحف؟

ـ لا. لنرى. ماذا قالت؟

ـ فى إحدى هذه اللقاءات التى يجرونها مع الفنانين والفنانات صرحت قائلة: "يعجبنى أن يكون كل جزء من أجزاء جسدى أشقر اللون". جميل، أليس كذلك؟

ـ أنا لا أجد، حقيقة، ما يسترعى النظر فى هذا التصريح- قالت بولينا-.

ـ لا، يا رجل- احتج سانتوس-؛ لم تقل هذا. لا تتلف أعصابى.

ـ فى أمريكا، أيها الأبله، نعم. وهل قمت أنا باختراعه؟

ـ لا أدرى، لا أدرى؛ ربما يكون قد صدر عنها...

ـ كلام ماسخ، يفتقد إلى الظرف، بالتأكيد- أصرّت بولينا-.

نظروا إلى أعلى. كانت هنالك طائرة قادمة على ارتفاع منخفض. كانت تمر فوقهم بالضبط ويبدو وكأنها ستقص قمم الأشجار بأجنحتها. غطّى الطنين على الهمهمات فى كل أرجاء منطقة الأشجار.

ـ إنها تمر قريبة جدًا منا- قالت ميلى-.

ـ إنها ذات أربعة محركات.

ـ لأنها ستهبط الآن- شرح فرناندو-. سوف تنزل حالاً على ممر «باراخاس»(*)، بمجرد تخطيها للطريق العمومى.

ـ يا بخت منْ فيها!

ـ فى هذه لا، يا امرأة؛ بل الأحرى القول يا بخت منْ يكون على متن طائرة تقلع.

ـ هل تبغى السفر إلى ريو دى جانيرو؟

ـ إنهم يقيمون فيها كرنڤالات...

ـ كرنڤالات ريو مدهشة.

ـ احتفالات (لاس فايّاس)(**) بلنسية إلى جوارها مثل إشعال عود ثقاب.

ـ إنهم لا يحرقون شيئاً هناك.

(*) «باراخاس» : مطار مدريد الدولى الشهير، الذى يستقبل أيضًا الرحلات المحلية، ويقع فى منطقة « باراخاس »، وهى قرية صغيرة على مشارف غرب العاصمة الإسبانية. – المترجم-.

(**) «لاس فايّاس» هى الاحتفالات الشهيرة لمدينة بلنسية، وتُقام بمناسبة عيد القديس يوسف وتنصب فيها صور وأشكال ضخمة متخذة من الورق المقوى، وفى نهاية الاحتفالات يتم حرق كل هذه الأشكال والتماثيل والصور بحيث تبدو المدينة وكأنها تحترق بكاملها – المترجم-.

ـــ حسنًا، ولكنها عامرة بالهرج والمرج، وبالأقنعة التنكرية.

ـــ ولماذا لا يتركونك هنا تضع قناعًا تنكريًا؟

ـــ لتضييق الخناق على النشالين، يا رجل. ألا تدرك أن هذا يعتبر بمثابة الفرصة الكبيرة لهم؟

ـــ وفى ريو دى جانيرو، ألا يوجد نشالون؟

ـــ هناك أموال وفيرة! تخيل حجم عائدات البرازيل من تصدير البن لكل الأمم.

ـــ وكما ترى، فهو من الرزائل.

ـــ والشيء نفسه بالنسبة للتبغ فى كوبا. المنتجات المرزولة تجلب المال الوفير دائمًا.

ـــ وعلى العكس أنت تنتج القمح، فضلاً عن باقى منتجاتنا هنا.

ـــ هيا نزرع البن إذن، ولنرى إذا كانوا سيتركوننا بعد سنتين من الآن نرتدى الأقنعة.

ـــ الأقنعة الحيوانية(*)!

(*) (Careta) تعنى القناع التنكرى؛ أما (Carota) فتعنى غرّة الحيوان، والكلمتان تتفقان فى كل الحروف فيما عدا حرف واحد؛ وقد استغل المتحاوران هذا الاختلاف الطفيف للتلاعب بمعنيهما – المترجم–.

ـــ هذه نرتديها يوميًا فى الشارع- قال سيبستيان-.

ـــ ألا يطلقون على ريو، مدينة الكرنڤال؟

ـــ إنه مستديم. ولذا فإن السفر إلى ريو دى جانيرو حلم بعيد المنال، يا ميلى.

ـــ بعيد، حقًا. يتعين عليك أيضًا الانتظام فى صف طويل للحصول على تذكرة سفر.

ـــ أنا؟ ولم لا؟ ولو من أجل إشباع الفضول...

ـــ بل من أجل كل شىء. لرؤية ريو دى جانيرو، ومشاهدة كرنڤالات ريو دى جانيرو.

ـــ لو هبط علىّ، من حيث لا أحتسب، مبلغ من المال، يمكننى السفر إلى هناك. لن أكون بمفردى، بل ضمن مجموعة من أجل اقتسام مصروفات الزيارة.

ـــ نعم، لو يسعدنا الحظ بالسهم الخشبى الصغير لـ «روليتا» اليانصيب.

ـــ يا له من حلم متواضع!؛ حقًا؟

ــ والخليج[*]؟

ــ أيضًا... إلى الخليج أيضًا... إنه لا يقل باعًا كذلك.

ــ أستُرقة، هى الأفضل.

ــ ستجعلنى أموت من الضحك، يا أخى!

ــ لم تكن نكتة.

ــ لا؟

ــ لا.

ــ ماذا كانت، إذن؟

ــ إنها أطول تذكرة قد أتمكن من دفع ثمنها.

ــ آه، حسنًا، وفى الدرجة الثالثة.

ــ عندك حق. وعلى هذا فالتفكير فى السفر إلى ريو دى جانيرو مجرد نكتة. وإلى الخليج نكتة أخرى. وإلى... إلى أين ستشترون التذاكر الآن؟

(*) المقصود به خليج مدينة «أسترقة» فى شمال إسبانيا – المترجم–.

ـ مهلاً، يا سانتوس؛ أنا لديّ ورقة يانصيب فـي البيـت. ربمـا لا يكون هذا نكتة بالنسبة لي.

ـ وإلى أين ستذهب أبعد من ذلك؟

ـ لماذا ؟

ـ لنرى! كلما جمح الخيال، كلما زادت النكتـة. أنـا ذاهـب إلـى أستُرقة، أستُرقة؛ أعطنى تذكرة إلى أستُرقة، كم تساوى؟ الكثيـر. هذا هو المكان الأكثر جمالاً بالنسبة لي. أما إلى ما هو أبعد مـن أستُرقة، فلا أملك شيئًا الآن. ومن هنا تبدأ النكتة. لقد زال مفعول تذكرتى فى أستُرقة.

ـ الفانتازيا لا تدفع ثمن تذكرة.

ـ نعم، إنها كذلك– قال سانتوس–. لا تدفع. (ببلاش)، شيء رائـع– توقف لحظة–. مثل الجوع. لا يكلفك شيئًا أيضًا.

لم يكن يمشى أحد تقريبًا تحت الشمس، بعيدًا عن ظل الأشجار. على مستوى سطح الماء كانت تتراقص، دقيقة وشـفّافة، قـشعريرة البخار. كانت ميلى تنظر حواليها. تحوم ثانية عصافير الورْوار فوق قمم الأشجار. كان يُسمع صراخها.

ـ ماذا نفعل؟

ردت عليها أليثيا:

ـ ما هو موعد لقائك بصمويل وزكريا والآخرين؟

ـ بالتأكيد سيصلون إلى الاستراحة فى السابعة أو السابعة والنصف.

ـ ولو ذهبنا للرقص فى تورّيخون؟- اقترح فرناندو-.

وافق سيبستيان:

ـ نعم، يا سيدى، فكرة مدهشة، عبقرية.

ـ آه، السير بالدراجة من جديد؟ لا توجد لدى الواحدة مجرد القـدرة على تحريك البدّال.

ـ المسافة لا تُذكر؛ إنها ها هنا.

ـ انسَ، لا تورّيخون ولا كلام فارغ! انزع هذه الفكرة من دماغك.

غنى سيبس:

ـ «ثلاثون عامًا عمرها- أديليدا هو اسمها- عندما ترقص- ترفـع التنّورة- ترفع التنّورة - ترفع التنّورة ...».

ـ ماذا دهاه الآن؟

ـ لقد ركبه عفريت.

نهض سيبستيان وشرع فى الرقص، رافعًا يديه إلى أعلى، ومحدثًا بهما حركات قبيحة على نحو مضحك.

ـ « ثلاثون عامًا عمرها– أديليدا هو اسمها...!».

ـ مثل وابل المطر، بالتأكيد.

ـ أنت تثير التراب، يا بلوى!

عاد سيبس للاستلقاء فجأة وأخذ يقهقه.

ـ أنا مثل العنزة المجنونة ! هذا حقيقى.

ـ (كويس) إنك اعترفت.

ـ إلى الرقص فى تورّيخون. الموافق منكم يرفع إصبعه.

ـ ألقوا بهذا فى الماء! يا له من مملّ!

ـ سكوت! نتفق، نعم أم لا؟

ـ لا يوجد شىء نتفق عليه. لن يذهب أحد إلى تورّيخون. افعلوا ما يحلو لكم هنا وشكر الله سعيكم.

ـ « ثلاثون عامًا عمرها– أديليدا هو اسمها...!».

ـ امش من هنا! كفاية يا رجل. سيبستيان، من فضلك...

ـ سنذهب إلى تورّيخون ونقلبها (دنْدرة)، بالمواهب الجيدة التى لدينا...

ـ التى ستغادر هى أنا، لو تماديتم فى هذا المخطط، أقول لك.

ـ لا تقلقى، يا ميلى، لا تُبالى بهذا المختل عقليًا.

ـ صحيح، يا رجل... صواميل عقله مفكوكة.

ـ ألا تدرك بأنك تصيب الآخرين بالسأم؟– نهرت بولينا سانتوس –. ألا ترى؟ أم أنه يعجبك تصديع رؤوسنا؟

ـ لقد ماتت هذه الفكرة، وينبغى كسر حدّة الملل بأى شكل من الأشكال.

ـ نعم، ولكن ليس عن هذا الطريق. ما ستتحصل عليه هو إثارة ضجر الفتيات هنا.

ـ وها أنت ترانى– قالت ميلى– أشد ضجرًا من قرد فى قفص.

ـ تريدين فحسب أن نعمل ما يروق لك.

ـ لا، يا سيدى؛ لا أريد أن يفعل أحد شيئًا. أقول فحسب إننـــى لـــن أذهب إلى توريّخون. كل واحد حرّ.

ـ آه، شكرًا على التوضيح.

ـ يا لك من سخيف، يا بنى!

ـ وهكذا، فنحن لا نجد ما نفعله. ما أقترحه...

ـ أين هو النبيذ؟- قاطعه فرناندو-. يجب علينا أولاً تنقية الصوت.

ـ سوف أنفذ هذا فى الحال.

ـ وأنت، يا تيتو، ماذا كنت ستقول؟- سأل ميجيل-.

ـ لا، لا شىء.

عاد للاستلقاء من جديد. أمسك سانتوس بالزجاجة، قال:

ـ منْ يريد الشرب من الزجاجة مباشرة؟

ـ أنا. ناولنى إياها.

صفق فرناندو تصفيقة وأعطى للآخر إشارة بـــأن يُلقـــى إليـــه الزجاجة من موقعه فى الطرف المقابل من الحلقـــة. تلقاهـــا علـــى

صدره، وكأنه يوقف كرة قدم. تساقطت عدة قطرات من النبيذ على صدره العارى:

ـ إيه، ولا أفضل حارس مرمى.

ـ لا داعى للهزار فى الأمور الجادة.

صبّ فرناندو النبيذ فى حنجرته، وعندئذ انعكس بريق الشمس على الزجاج وعلى ذراعيه المرفوعين إلى أعلى. كان النبيذ يرنّ فى فمه.

ـ أنت، ألا تعرف أن غدًا هو الإثنين![*] – كان يستعجله ميجيل–.

أنزل فرناندو الزجاجة وهو يلهث:

ـ إنه مدهش! خذ.

ـ ألَنْ تشرب، يا ألبرتو؟– سأل ميجيل–.

ـ اشرب أنت أولاً، يا رجل، مادامت الزجاجة فى يدك. الأمر سيّان.

(*) من المعروف أن يوم الإثنين هو بداية الأسبوع فى إسبانيا، أىّ أنه أول أيام العمل، ولما كان ميجيل يريد ألا يأتى زميله على محتوى الزجاجة فقد قام بتنبيهه إلى أنه ذاهب إلى العمل غدًا، ومن ثمّ ينبغى عليه الاقتصاد فى الشرب – المترجم–.

ـ لا تكن شديد الأدب هكذا، يا فتى، فهو قبيح من جانبك.

كانت لوثى تجلس صامتة بين تيتو ودانييل؛ جسدها منكمش، تعانق ساقيها بكلا ذراعيها، وذقنها على ركبتيها. كانت تتأرجح أرجحة خفيفة يمنة ويسارا.

شرب ميجيل.

ـ ألا يوجد معكم عود ثقاب؟- سأل رجل كان قد اقترب منهم-.

كان يرتدى فانلة ذات لون أزرق غامق، وبيده سيجارة.

ـ ولم لا؟

وبينما كان ميجيل يفتش عن علبة الكبريت، كان الآخر يتفحص الفتيات، واحدة واحدة.

ـ يا له من رجل صفيق الوجه!- قالت لوثى عندما ابتعد الرجل-. يوجد منْ لا يغلف نظراته بشيء من المداراة.

ـ ماذا فعل؟

ـ كان ينظر إلينا جميعًا، من أعلى إلى أسفل، دون أدنى مواربة.

ـ هذا لا يؤلم- قال فرناندو-.

ردت عليه ميلى:

ـ ولكنه يضايق.

ـ هيا، لا داعى للتمثيل؛ يعجبكن أن تكن هدفًا للنظرات.

ـ أوه! بل نحن مغرمات بهذا، ولا أقول لك أكثر. نحن نسمن عليها. ما أحلى المعاكسات!

ـ نعم، يا امرأة؛ إنها محمودة.

صدرت عن ميلى إيماءة بنفاد الصبر ونظرت نحو أعالى النهر، إلى ما هو أبعد من ظلال الأشجار. كان هنالك، عند القاع الرملى، أسفل القنطرة، عدد من البغال. الرجل ذو الملابس المعتمة، الذى هبط معهم إلى المسقَى، كان ينتظر فى الشمس فى أثناء شرب البغال. طرح البغل الذى انتهى من الشرب أولاً نفسه على الأرض، مكروبًا من ملاحقة الذباب، وشرع فى التمرغ على صلبه بعنف، رافسًا الهواء بأقدامه، وحاكًا وخزات جروحه فى الأرض، ومثيرًا غيمة من التراب. عاد سيبستيان للاستلقاء. هو وبولينا الآن منتحيان جانبًا، ومعطيان ظهريهما للآخرين. انتفض دانييل بشدة عندما لمست لوثيتا ذراعه بالكريستال المبلل للزجاجة.

ـــ ماذا؟

ـــ اعتراك الفزع! ماذا كنت تحسبه؟

ـــ لا أدرى، دويبة، أو حشرة، على الأقل...

كانت لوثيتا تضحك؛ أبانت له عن الزجاجة:

ـــ حسناً، يا رجل. هل تريد؟

ـــ ناولينى، يا له من دواء! تتسلين على حسابى.

كانت كارمن جالسة، وظهرها إلى جذع شجرة؛ بينما تستند رأس سانتوس على صدرها. كانت تنفخ فى شعره وتمشط صدغيه بأظفارها:

ـــ يجب أن تقص شعرك الآن، يا حياتى.

كانت تفرد خصلات شعره وتمدها، وكأنها تريد أن تبين له كم هى طويلة.

ـــ أريد القيام بجولة– قالت ميلى–. هل تصحبنى، يا فرناندو؟

ـــ من ناحيتى، بكل سرور.

ـ هيا بنا إذن. هل تأتيان معنا؟- أضافت، وهى تلتفت إلــى أليثيــا وميجيل.

ـ الجو حار جدًا، يا بنتى. إلى أين أنتما ذاهبان فى هــذه الساعــة؟

ـ إلى أىّ مكان. لا أستطيع المكوث هنا أطول من ذلك. لا أطيــق، حقًا، تحمل الجلوس دون فعل شىء. أتسمحان؟

ـ بالطبع، يا امرأة. تمشيا، مادامت لديكما الرغبة- قالــت أليثيــا-. ولكن ستعودان إلى هنا، أليس كذلك؟

ـ نعم، واضح؛ إنها مجرد جولة قصيرة.

وقف كل من فرناندو وميلى.

ـ سنتمشى هكذا، بالملابس التى علينا؟- سأل فرناندو-.

كانت ميلى تمرر يديها على جسدها كله، لتنفض عنه التــراب، ولتعدّل من وضع المايوه:

ـ ماذا تقول؟- نظرت إلى فرنانــدو-. آه، لا؛ ســأرتدى البنطــال وأضع فى قدمى الشبشب. تعال أنت على الكيفية التــى تراهــا. ناولينى هذا يا أليثيا، من فضلك.

ـــ وأنا سأرتدى ملابسى أيضًا. مازالت الشمس تضرب بقسوة، وليس من الحكمة فى شىء السير عارى الظهر.

كانت أليثيا تراقب ميلى وهى تلبس البنطال فوق المايوه. وصل دوىّ قطار بضائع لدى عبوره القنطرة. كانت بولينا تنظر إلى عربات البضائع، الملوّنة بلون الدم الجاف، والتى تعرض، وهى على المنحدر، بعد خروجها واحدة إثر أخرى من القنطرة، جوانبها القريبة لأشعة الشمس القادمة من جهة السهول.

ـــ هل تقومين بعدّ العربات؟– سألها سيبستيان–.

ـــ بالطبع لا. بل أنظر إلى ذلك الجبل، هناك.

أشارت إلى الأفق: إلى قمة «البيسو» فى قلعة هنارس، والتى تبدو بيضاء ومعتمة فى ذلك الجو المبهر للقيظ. ونحوها يجرى الآن القطار، لاهثا ومقعقعا، بعد خروجه كاملاً من القنطرة. ربطت ميلى الشبشب؛ قالت لها أليثيا:

ـــ حاولى الرجوع قبل السابعة، لكى نصعد كلنا معًا.

ـــ لا تشغلى با لك. هل ستستحمون مرة أخرى؟

ـــ لا أعتقد. إيه، يا ميجيل؟

ـ صعب.

ـ هذا هو الأفضل تقريبًا، لأننا سنلتقى بعد ذلك بالآخرين. ألن ترتدى البلوزة؟

ـ لا. سوف توخزنى من فوق، لو لبستها على المايوه.

كان فرناندو قد رجع من عند شجيرات العوسج، مرتديًا ملابسه.

ـ عندما تريدين- قال لميلى التى كانت تنظر إلى وجهها فى مرآة صغيرة-.

ـ ها أنت؟- سألت، وهى تميل علبة البودرة حتى ترى فرناندو فى المرآة.

ابتسم فرناندو:

ـ يا للأشياء التى تتعلمنها من الأفلام!

ـ مثل ماذا؟

ـ فكرة التحدث مع شخص ما من خلال المرآة. لقد تعلمتيها من الممثلة «هايدى لامار».

ـ يا له من ظن ليس له أساس، يا بنى! هل كل ما تفعلهُ الواحدة لابد أن يكون تقليدًا لأحد ما؟ أنا لست بحاجة لتقليد أحد فى أىّ شـــىء، عرفت؟

ـ لقد تعكر مزاجك، ألا ترين؟- قال فرنانـــدو-. لـــم أكـــن أريـــد مضايقتك يا ميلى. نحن نعرف أن ما فيك نابع منك، وأنك مكتفية بذاتك وزيادة. أنا لا أختلف معك فى هذا.

وضعت ميلى النظارة على عينيها:

ـ من أجل هذا. وشكرًا على التصحيح. هيا بنا وقتما تحب.

ابتسم فرناندو وقدّم لها ذراعه؛ بإيماءة شهامة، غـــامزًا بعينـــه. أخذته ميلى من ذراعه ومشيا مسافة مِترين، مقلدين مـــشهد التمثيـــل الصامت. التفتت ميلى بعد ذلك وهى تضحك ناحية أليثيـــا وميجيـــل وسألتهما:

ـ كيف الحال؟

كان ميجيل يضحك أيضًا.

ـ جيد جدًا، يا بنتى، كان أداؤكما رائعًا. يمكن أن يتعاقدوا معكما فى المسرح. اذهبا ولا تتأخرا.

ـ إلى اللقاء إذن– قالت ميلى–. والآن اترك ذراعى، يا عسل، لأن حرارة الجو لا تُطاق.

ابتعدا. ومن خلفهما نظر تيتو إلى كتفى ميلى المحَمَصَّيْن وإلى الجزء العارى من ظهرها فى تقويرة المايوه. قامة فرناندو تزيد قليلاً عن قامة ميلى التى تضع الآن يديها فى جيبى البنطال. كان يتحدثان.

اقترب بعد ذلك سانتوس على يديه وركبتيه من أليثيا وميجيل:

ـ سأختلس سيجارة من السجائر التى تحتفظ بها هذه – قال لهما.

ـ أنت تتمادى فى الهزار– قالت أليثيا–؛ ستعرف أنك فتحت الحقيبة وستثور ثائرتها.

ـ لن تعرف. هل تريد سيجارة أخرى، يا ميجيل؟

ـ (شوف) الذوق! يريد فضلاً عن ذلك توريط الآخرين.

ـ لا، لا، يا فتى، لا توقعنى فى مشكلات، شكرًا جزيلاً.

أخذ سانتوس سيجارة من الحقيبة وعاد إلى جوار كارمن.

تصل الآن رائحة لاذعة، من دخان خفيف، وكأن أحدًا يحرق على مقربة أوراق أشجار جافة وقمامة. لم يكن الدخان مرئيًا؛ بل تُحس رائحته فحسب.

ـ ومنْ الذى أمرك بسرقة سجائر من هذه؟- سألته كارمن-، وأنت تعرف منْ هى. لو عرفت ستعمل منها فضيحة، ولسنا بحاجة إلى المزيد من (الدوْشة).

ـ يا امرأة، وإذا كانت السجائر لا توحشها إلا على فترات متباعدة. ومن جهة أخرى فإنها لم تعدّهم.

ـ إنها قادرة على هذا.

ـ هيا، لا داعى للمبالغة أيضًا. (إنت حاطّة) الفتاة المسكينة فى دماغك. كيف تتصورين أنها يمكن أن تقوم بعدّ السجائر؟ من الظن السيئ التفكير فى أمر مشابه. هل بدأت تغارين أنت أيضًا من ميلى؟

كانت ممسكة بصدغى سانتوس وتحرك رأسه يمنةً ويسارًا بينما تهمهم فى شعره قائلة:

ـ بتفتكر دائمًا أننى أغار عليك من الناس جميعًا؛ منْ تظن نفسك؟، أيها الأبله.

لمست بشفتيها صدغه وأخذت تنفخ الهواء خلف أذنه. سُمعت صفارات فى النهر. نهض ميجيل وأليثيا وانتقلا إلى جوار بولينا وسيبستيان.

ـ لا يضايقكما الانتقال إلى جواركما هنا؟ المكان الذى كنا فيه أصبح معرضًا للشمس. لن نكون بمثابة عائق لكما، حقا؟

ـ إطلاقًا، يا رجل؛ بل على العكس تمامًا. زيارتكما مـشكورة- ردّ عليه سيبستيان، رافعًا رأسه للحظة-.

أخذا مكانيهما. نظر دانييل إلى الأزواج الثلاثة ثم التفت إلى تيتو ولوثيتا:

ـ يجب الأخذ بأسباب المتعة والتسلية هنا- قال لهمـا-. فتـرة المـساء تمضى كالبرق، وينبغى التورط قليلاً. لا يوجد لدينا خيار آخر، كمـا هو واضح، ومن ثمّ فليحضر هذا النبيذ ما دام لم يبق لنا سواه.

نظر إليه ألبرتو بفتور، وأعطاه الزجاجة.

ـ قل أنت نعم، يا دانييل- قالت لوثيتا-؛ ما ينقصنا هو التشجيع.

ـ وأىّ ثالوث يمكن أن نشكله نحن الآن؟ إذا لم نكـن ثـالوث قـاع الدورى، الذى يهبط آليا إلى القسم الثانى. لا أدرى ماذا سـيكون غير هذا.

ـ اسمع، يا تيتو؛ ولكن دون أن تسرف فى الـشرب الآن. الـشرط نور. إيه، يا لوثى؟، لو استحمر سنطرده، ما رأيك؟

نظرت لوثى إلى وجهى كليهما ثم قالت:

ــ أعتقد أننا هنا على راحتنا نحن الثلاثة... يمكننا قضاء وقت مدهش.

لم تنزل عينيها من على وجه تيتو، وكأنها تنتظر رؤية الشجاعة عليه، وأضافت:

ــ تيتو، ارفع هذا الوجه، يا تيتو.

ــ أطع، يا رجل، ألا تسمع كيف تقوله لك؟ لا يجب أن نعيده عليك مرة أخرى.

ــ موافق، يا فتى. ليس شيئًا بالنسبة لي. إذا كان ما ستقدمان عليه الآن متوقف بشدة على إجابتى، فها أنذا أقول لكما إننى على ما يرام.

ــ سنرى إذا كان القول يُصدقه الفعل- قال دانييل-. الإسراف هنا ممنوع. ها قد عرفت.

التفت بعد ذلك إلى لوثيتا:

ــ لنرى أولاً، يا لوثيتا، ما هى الكمية التى لدينا من النبيذ؟

نظرت لوثيتا حواليها ثم أجابت:

ـــ قليل من النبيذ فى زجاجة، فضلاً عن زجاجتين كاملتين- كانــت تلوّح فى الهواء بالزجاجة شبه الفارغة، محركة الفُضالة الباقيــة فى قاعها.

ـــ نحن أغنياء!- قال دانييل-، مليونيرات تقريبًا! يمكننا التحليق بهذا بعيدًا؛ بعيدًا جدًا. أحضريه.

ـــ نعم، سنرى الآن- قال تيتو-.

أخذ دانييل زجاجة، وبعد أن نزع عنها السدّادة الفلّينية قدّمها إلــى لوثيتا:

ـــ اشربى.

ـــ أنتَ أولاً.

ـــ بل أنتِ. افتتحى الأمسية.

وضعت لوثيتا شفتيها على فوّهة الزجاجة وأخذت تعبّ، وعندئــذ لمس دانييل ذراعها:

ـــ إيه، يا صبية، ولكن بدون شَفْط.

ـ لا أجيد طريقة أخرى للشرب. يتساقط منى...

وبعد أن انتهت، نظفت بأصابعها بقعة أحمر شفاه من على عنق الزجاجة ثم ناولتها لدانييل:

ـ خذ، أيها المتوجس؛ أنا لا يُشق لي غُبار.

ـ مزايا الريف- قال أوكانيا-؛ ها هى أمامكم. من عشّة الفراخ إلى الطاسة مباشرة.

أمّنت زوجته على كلامه:

ـ وبهذا الشكل تنعم بما فى الأشياء من خير، وبأزهد الأسعار.

ـ بالطبع. دون وسطاء كثيرين، لا يفعلون سوى تعقيد الأمور ورفع ثمن كل شيء، دون أن يعود عليك هذا، كمستهلكة، بأية فائدة.

ـ لكى تصل إلى يديك بيضة- استمرت بيترا- يكون ثلثا محتواها قد ضاعا فى الطريق.

ـ مهلاً- احتج سلفها، مبتسمًا-، مهلاً، ألا يعنى هذا أن الآخرين، من المساكين أمثالنا، الذين يعيشون على المبادلات، ليس من حقهم الحياة!

ـ وهنا مربط الفرس. أنتم، أنتم الذين تفسدون الأسعار؛ وسبب كـل النوائب التى تهبط على رؤوسنا، نحن معاشر الزوجات التعيسات المحكوم عليهن بالنزول إلى الأسواق كل أيام السنة. أنتم.

ـ ولكن، افسحى لغيرك ولو مكانًا صغيرًا، يا امرأة. اتركى الكل يعيش.

ـ الحبل متروك لكم على الغارب. ما باليد حيلة. ولكن رؤية الموجود أمامنا هنا يلفت نظر الواحدة غصبًا عنها، ويجعلها تشتاق إليه.

ـ نعم، عندك حق، يا امرأة- وافق سلفها-، لا أحد يسلبك هذا الحق. لامناص من الاعتراف بأن ما يحدث هنا رائع. أعتقد لو أن لدى أىّ واحد دجاجة تبيض، كما هو مفروض، كل يوم بيضة، فلا شك أن هذا بمثابة خير عميم له. إنها تساوى وزنها مالاً.

ـ آه، أرأيت؟ بدلاً من تربية عصافير الكنارى- تدخلت زوجته-؛ فإن الأجدى والأنفع أن يكون لدينا فى بيتنا تسعة أو عشرة من الطيور الدّاجنة.

كانت تفخم بشدة نطقها لحرف (V) المتكرر فى كلامها السابق.

ـ فى البيت! فوق الدولاب؟ أنت لا تدركين أبعاد ما يستوجبه حيازة دجاجات بيّاضة، ومدى صعوبته.

ـ حسنًا، إذا كان للاعتبار الذى تتحدث عنه، فالعناية بالأقفاص تتطلب أيضًا جهدًا كبيرًا... وهل تفيدنا بشىء هذه العصافير رائعة الجمال؟ هل تقدم لنا شيئًا عصافير الكنارى هذه؟

ـ الغناء.

كانت بيترا توزع الجاتوه على أبنائها ، بترتيب الأعمار، من الأدنى إلى الأعلى. تسلمت الصغيرة نصيبها وأخذت تراقب ما يتلقاه إخوتها.

ـ (نشوف)؟- قال لها خوانيتو-. أنا على استعداد للمبادلة معك.

ـ لا أريد- رفضت الطفلة، محركة لِبْدتها، ثم ابتعدت متحمسة وقطعة الجاتوه بين يديها-.

تلكأت كثيرًا بعد ذلك قبل الشروع فى تناولها.

ـ من الجميل اقتناء حيوانات أليفة فى البيت- قال فيليب-؛ أيًا كان نوعها. إنها خير صاحب، يتعلق المرء بها دائمًا ويتسلى معها.

ـ نعم، لدينا ما يكفينا– قالت بيترا– بهؤلاء الأربعة؛ ولا أدرى من أجل ماذا نطمح فى المزيد. أعتقد أن لدينا أطنانا من التسلية ولن يضيرنا لو أهدينا منها جوالين لكل منْ يشتهيها. هذا ما ينقصنا، تعرف؟

ـ آه، انظرى؛ هذا لا يعنى شيئًا. لدىّ صديقة متزوجة فى برشلونة، عندها ثلاثة أبناء، ورغم هذا فهى مُغْرمة بالقطط وتقتنى خمسة منهن فى البيت.

ـ يا للقرف! وخمسة فقط!

ـ حسنًا، إنها وجهات نظر. (شوفى)، لو كنت لا تحبين الحيوانات فإنك تسيئين صنعًا باقتنائهم.

ـ وأىّ سوء!– قالت بيترا–. أعوذ بالله من رائحتهم! ومهما بذلتِ من مجهود فى التنظيف لن تستطيعى مجاراتهم، لأنهم يوسخون بأكثر مما تقدرين على لملمته وراءهم. إنه عذابٌ ما بعده عذاب، تجرين خلفهم من طلعة النهار إلى دخول الليل بالمقشة والجاروف. والنبى اعملى معروف (وسيبينى) فى حالى! مالىَ أنا والدويبات! لا قطط ولا كلاب ولا حتى سيرتهم! (هوه فيه حدّ مسلّطك علىّ)؟

انفجرت سلفة أوكانيا ضاحكة:

ــ اعذرينى، يا بيترا، لقد جعلتينى أضحك، إيه؟ لا يجب أن تأخذيه على محمل سيئ. تدفعيننى للضحك بهذه الأشياء الفكاهية التى تقولينها– كانت تضحك وهى تضرب ذراع بيترا–. آه، أنت دائمًا مسلية للغاية؛ دمك خفيف، وعلى طبيعتك.

نظرت إليها بيترا فى البداية بارتياب، ولكنها ما لبثت أن شاركتها الضحك وهى تنظر إلى نفسها. اتحدت الضحكات، ولم يعد هنالك من سبيل لإيقافها.

ــ أنتما كالبلهاوات– قال زوج القطلونية–. تبًّا لكما!

لم يكن يضحك على المائدة سواهما، وغدت أنظار الجميع معلقة بهما.

ــ على ماذا تضحكان، يا أبى؟– سألت بيتريتا مستثارة، وهى تجذب أبيها من القميص لكى يحفل بها– قل، على ماذا تضحكان؟

ــ عن لا شىء، يا بنتى، لا شىء– أجاب فيليب بنغمة احتفالية–؛ أمك، أصابتها لوثة.

ـــ آى، يا إلهى... لقد (انهدّ حيلى)...!- قالت بيترا، وهى منهكة من الضحك-. كنت سأموت من الضحك!

ـــ (كويس) أنكما تتمتعان بروح الدعابة. هذا صحىّ.

ـــ أوه، هذه لا تُبارى، تعرف؟- قالت السلْفة متعجبة-. لا تُبارى!

خمدت الضحكات. كان الأطفال ينظرون إلى وجوه الكبـــار، دون أن يعرفوا ماذا يقولون.

قال فيليب لأخيه:

ـــ سيرخيو، ما رأيك فى السيجار الآن؟ هل نقوم بإشعاله؟

ـــ إلى بِه، هيا- أجابه الآخر، محدثًا حركة بذراعيه، مثل من يستعد للقيام بعمل مهم-.

نفض الفُتات من على حجره. سلّمه فيليب سيجارًا:

ـــ خذ. إنه رائع، سترى.

مرّر فيليب أوكانيا السيجار على أنفه وأخذ يتحـــسس البنطـــال والچاكت المعلّق على مسند الكرسى، منتظرًا خشخشة علبة الكبريت فى أىّ موضع منهما.

ـ النار هذه المرة على حسابى- قال أخوه-.

ـ أبى، هل يعجبك كثيرًا تدخين هذا السيجار؟- سألته بيتريتا-.

ـ نعم، يا بنتى، مثلما يعجبك الجاتوه الذى أكلتيه الآن بسرعة ونَهَمْ.

ـ ويعجبك أيضًا، يا عمى؟

كان سيرخيو مشغولاً بإشعال السيجار، فأجابت الزوجة بدلاً منه:

ـ عمك يحب دائمًا كل ما يجعل صحته تسوء أكثر.

ألقى عليها سيرخيو نظرة، رافعًا عينيه من على السيجار وعود الثقاب؛ ثم شفط بعد ذلك بعمق، بينما كانت بيتريتا تتابع بعينيها خط سير الذيل الدخانى لعود الثقاب، الذى سقط منطفئًا على أرض الحديقة.

ـ وكيف نتخفف من امتلاء هذه المعدة؟- سأل فيليب-.

ـ بالطريقة المعتادة.

ـ ما هو محمود لا يُحدث ضررًا أبدا، أفيقى، يا نينيتا. لن يحدث لزوجك شيء نتيجة لتجاوزات اليوم الصغيرة. الحياة الحلوة لا تتسبب فى تعب أحد. لم أسمع إطلاقًا أن أحدًا مات من هذا.

ـ ما تقوله، يا فيليب، يُجافى الحقيقة. هناك طعام صحى وآخر عسر الهضم. سيرخيو يعانى على الدوام من معدة نصف مريضة. ولكننى سأتركه وشأنه، إيه؟ عقله فى رأسه يعرف خلاصه...

نهض خوانيتو من على الكرسى.

ـ إيه، يا ولد، إلى أين أنت ذاهب؟- سألته بيترا-.

عاد خوانيتو للجلوس، دون أن يقل شيئًا. سأل أماديو:

ـ ألا يمكننا الذهاب إلى حيث توجد الأرنبة، يا أمى؟

ـ هل انتهيتم؟ دعونى أنظر إلى وجوهكم...

انتشحت وجوههم، آليًا، بوشاح الأدب، أمام عينى الأم المسلطتين عليهم.

ـ حسنًا. ولكن حذارِ من التحرك من هنا، فأنا أراكم، إيه؟ كونوا مؤدبين ولو لمرة واحدة. اذهبوا.

نهضوا قفزًا، وجروا نحو عشّة الطيور.

ـ ألا تريدين الذهاب معهم، يا فيليسيتا؟

احمرّت فيليسا خجلاً.

ـ لا يهمنى– ردت بتحفظ–.

سُمع عويل بيتريتا التى سقطت بكاملها وسط الحديقة. كانت تبكى وفمها على الأرض، دون أن تنهض. همّ سيرخيو بالقيام لإغاثتها، ولكن الأم أوقفته:

ـ دعها، يا سيرخيو. لا تذهب. انهضى حالاً، يا بنت، إذا لم تكونى تريدين أن أجعلك أنا تنهضين.

ضاعفت بيتريتا من بكائها.

ـ أرى أنك تستحقين الآن جلْدة بالسَّوْط! ماذا قلت لك؟

ـ ربما تكون قد تأذيت حقًا– ألمح سلفها–.

ـ ماذا! إذا كنت أعرف هذه وكأننى ولدتها. فما بالك إذن إذا كنت أنا أمها التى ولدتها، (شوف) أنت. لديها من الحيل ما تتفوق به على الثعلب بكثير.

نهضت بيتريتا وظلت تبكى إلى جوار السور والنباتات المتسلقة. اقترب منها أماديو وجرّها من ذراعها، محاولاً إبعادها من هناك؛ ولكن الطفلة قاومت، متشبثة بالبكاء بين أوراق الكرْم الأمريكى.

ـ ألم تكونى تريدين رؤية الأرنبة، يا أُخَيّة؟- كانَ يقول لها أماديو-. يا لك من بكاءة...!

كانت فيليسيتا جالسة إلى جوار أمها، ذراعاها متشابكان فوق صدرها، وعيناها كابيتان ساكنتان، لا تنظران إلى أىّ اتجاه؛ مُلْغِزة وغائبة؛ وكأنها تعانى من وحْدة بالغة. شدّ فيليب نَفَسًا عميقًا من السيجار:

ـ ممتاز؟

وافقه أخوه والدخان يملأ فمه. نظرت إليه نينيتا. كان سيرخيو يتأمل الرماد على طرف السيجار، وإبطه الأيمن على حافة مسند الكرسى، وذراعه متدليًا خلف المسند. كانت أصابعه الشاردة تداعب وريقات شجر اللبلاب. تنهدت بيترا: "آى، يا إلهى...!" فارتفع جذعها الوافر مع التنهيدة ثم عاد لإفراغ ما به من هواء. نظرت إلى أبنائها. كانت بيتريتا قد انضمت إلى أخويها بعد أن سكن روعها. الثلاثة كانوا ملتصقين بالشبكة المعدنية، ومعطين ظهورهم لبقية العالم. قضمت "الأرنبة الكبيرة البيضاء" ورقة خسّ بقواطعها الحادة ثم رفعت وجهها ونظرت إلى الأطفال، ماضغة ما قضمته، ومحركة

بسرعة شديدة أنفها وشاربها وخدّيها البيضاوين المستديرين والمُشْعرين. قال خوانيتو:

ــ لا أحد يأكل بسرعة مثلها. آه لو اقتربت منها دجاجة! سوف تقضمها من عُرْفها وتُسيل دمها.

ــ هراء؛ لن تفعل هذا!- احتجت بيتريثا-.

قال فيليب أوكانيا:

ــ ينبغى أن نطلب الآن، ونحن ندخن، القهوة وعددًا من الكئوس. من المناسب الجمع بين المتع كلها.

ــ وهل انتهى صديقك من تناول غدائه؟

نظر فيليب ناحية البيت، إلى نافذة المطبخ. لم يكن هنالك موريثيو، ولاخوستى، بل تُرى فحسب المرأة وهى تأكل واقفة: طبق الشوربة بيدها اليسرى، بينما تُزيح باليمنى، دون ترك الملعقة، خصلة الشعر المتدلية على جبهتها.

ــ لا أراه فى المطبخ.

شاهدته فاوستينا ينظر إليها، أطلّت من النافذة:

ـ هل تبحثون عن زوجى؟- سألت بصوت عالٍ-. سأنادى عليه حالاً.

ـ لا تتعبى نفسك، لا تتعبى نفسك. فيما بعد لو أمكن.

ولكنها كانت قد اختفت نحو الداخل.

ـ من حُسن الحظ أن معى سيجارًا آخر. سأعطيه له. أعرف أنه يعجبه.

ـ وأنا ركنت لهم هنا على جانب هذه القطع الثلاث من الجاتوه- قالت بيترا-. ولو حتى من باب الذوق. لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها!

ظهر موريثيو بعد ذلك لدى الباب:

ـ هل استمتعتم بالأكل؟

ـ شكرًا جزيلاً، يا موريثيو- أجابت بيترا-. وكيف لا نستمتع فى هذا المكان الرائع وفى هذا الظل الظليل الذى أعددتموه؟

ـ الرغبة فى الطعام مصدرها المجهود الذى بذلتموه فى الاستحمام بالنهر. هذا ما حدث بالأحرى.

ـ اسكت، الجلوس هنا أكثر من رائع. لقد احتفظت لكم ببعض قطع الجاتوه. – خذها قدّمت إليه علبة الكرتون–.

ـ ولماذا تكلفون أنفسكم؟ ستحرمون الأولاد من أكل الجاتوه، وإعجابهم بمثل هذه الأشياء مُضاعف، ولا يوجد هنا ما يمكن أن نعوضهم به عنها...

ـ خذوها من فضلكم ولا تشغلوا بالكم بالأولاد؛ لو أكل الواحد منهم أكثر من قطعة يُصاب بإسهال ومغص معوى وأنا (مش مستحملة). هذا بالإضافة إلى أن لدىّ الرغبة فى (عزومتكم) ولو على هذا الشىء البسيط التافه؛ خذها وخلاص؛ لأنكم إذا لم تأخذوها ستعود إلى مدريد كما هى؛ ومن ثمّ فلا داعى لاختلاق الأعذار.

ـ (ماشى)، حتى لا تتصورون أنه رفض...

تناول علبة الكرتون التى امتدت بها يد بيترا عبر المائدة، وفى قاعها تظهر قطع الجاتوه الثلاث المتلاصقة، ثم اتجه إلى نافذة المطبخ وترك على قاعدتها السفلى العلبة لفاوستينا. أطلّت المرأة وصاحت ناحية فيليب:

ـ شكرًا جزيلاً.

أجابتها بيترا، وهى تبتسم، بإيماءة من يدها. يعود الآن موريثيو نحو المائدة وهو يأكل قطعته.

ـ هذه حلويات راقية بالفعل. عن هذا لا يعرفون شيئًا هنا. لا يعرفون وليست لديهم أدنى فكرة عما يكون. ما يفعلونه هنا مجرد أشياء بسيطة وعادية ومِلاط من الدقيق يقف هنا- أشار إلى معدته-. أما الحلويات الراقية مثل هذه، فلا شيء، ولا يعرفونها حتى.

ـ أنا لست معك فى هذا- قالت بيترا-. فِى القرى أيضًا لديكم أشياؤكم. ما يتميز به كل مكان. وعلى ما أعتقد فكل مكان بارع فى تخصصه، ويقدم أصنافًا مميزة من الحلويات. وتحضرنى الآن «مانتيكادا»(*) أسترقة، و«ماثابان»(*) طليطلة، وتورتات «ألكاثار دى سان خوان»...- كانت تعدّ على أصابعها وهى تتحدث، وكأنها تنسب لموريثيو، بصفته قروىّ، كل ما يتم عمله فى قرى إسبانيا جميعها-. حلوى الزبدة فى «سوريه»، و«تورّون»(*) قادش، وآلاف التخصصات الرائعة، (ما تقولّيش).

ـ معلوم، أنا أعرف كل هذا. ولكننا لا نعرف فى هذه النواحى سوى اللوز المكفَّت لقلعة هنارس.

ـ معروف طبعًا. اللوز المكفَّت! إنه أشهر من النار على العلم! وينتمى لمنطقتكم. لوز قلعة هنارس المكفَّت شىء أصيل مائة فى المائة.

(*) هذه أنواع من الحلوى تشتهر بها المناطق المنسوبة إليها – المترجم-.

ــ والكعك السكران فى وادى الحجارة- أضاف فيليب.

ــ ولكن هذا ينتسب إلى منطقة بعيدة- ردّ عليه موريثيو-. لمنطقة «القرية»(*).

استثنى بحركة من يده عندما نطق كلمة "القرية"، وكأنه يريد استبعادها.

ــ ونحن (Nosaltres) لدينا سجق ونقانق «بيك».

ــ نعم، ولكن تحدثى بالإسبانية، يا نينيتا-.نهرها زوجها-. قولى nosotros (نحن) كما ينبغى أن تُقال. أنتِ فى قشتالة، ولست فى قطلونية، أليس كذلك؟، تحدثى إذن بالقشتالية(**).

(*) «القرية» (Alcarria): لفظة عربية كما نرى، والمقصود بها منطقة شاسعة فى محافظة وادى الحجارة، تضم العشرات من القرى والنجوع. وللروائى الإسبانى الشهير «كاميلو خوسيه ثيلا» (جائزة نوبل ١٩٨٩) كتابان معروفان عن هذه المنطقة، الأول بعنوان "رحلة إلى القرية"، والثانى بعنوان "رحلة جديدة إلى القرية" - المترجم-.

(**) اللغة الإسبانية (أو القشتالية) هى فى الأساس لغة مملكة قشتالة فى العصور الوسطى، وبعد أن فرضت قشتالة هيمنتها على الممالك المجاورة لها أصبحت لغتها هى اللغة الرسمية فى جميع أنحاء إسبانيا ثم فى العالم الجديد بعد ذلك. والزوج ينبه هنا زوجته إلى ضرورة استخدامها للغة الإسبانية (القشتالية) لأنها فى أرض قشتالية، أىّ تقول للتعبير عن الضمير "نحن": (Nosotros) بدلاً من (Nosaltres) التى نطقتها- المترجم.

ـــ معذرة، يا رجل، معذرة. وردت على لسانى سهوا. لم يتغير شىء.

كان فيليب يشفط من السيجار ويضحك. أخرج بعد ذلك السيجار الثالث:

ـــ خذ، يا موريثيو. أحضرت هذا لك.

ـــ آه، سآخذ منك هذا دون مماحكة، وآسف إن لم أتبع أصول اللياقة فى أخذه– قال موريثيو، مميلاً رأسه إلى جانب–. يعجبنى السيجار كثيرًا. شكرًا، يا صديقى.

ـــ لا شكر على واجب. اسمع، هل تتكرم بإحضار القليل من القهوة مع بعض الكئوس؟

ـــ (شوف)، البن ليس على ما يُرام. أنا لا أضمنه لك.

ـــ لا فرق. لا تشغل بالك أنت. ليست على رأسنا ريشة. يكفى أن يكون شيئًا أسود.

ـــ (اللى تشوفه). أنا أعمل ما علىّ بلفت نظرك مقدمًا.

ـــ أحضرها، أحضرها. لن تكون أسوأ مما نشربه فى كثير من كافتيريات مدريد، حيث يقولون لك إنه بن مخصوص ويدبسونك

في ثلاث بيزيتات، ليتضح بعد ذلك أنه ليس سوى عـصير جُبّـة كاهن(*).

ـ حسنًا. والكئوس، من أىّ نوع ستكون؟

التفت فيليب إلى الجالسين معه؛ ثم رفـع حاجبيـه فـى إيمـاءة استفهام.

ـ أنا أريد «كونياك»- قالت نينيتا-.

وزوجها:

ـ وأنا شرحه.

ـ وخادمتك، «أنيس مسكرٍ».

ـ الإجمالى، ثلاثة «كونياك » وواحد «أنيس»- لخصّ فيليب-.

ـ اتفقنا. وأربعة قهوة. سأعود حالاً بكل هذا - مشى-.

وفى أثناء دخوله الدهليز تقابل مع خوستينا، التى كانت قادمة فى صحبة كارميلو وإلتشاماريس والجزّاريْن. التصق بالحـائط، مفـسحًا لهم الطريق.

(*) الجُبّة: الرداء الذى يلبسه القسيس، وهى حالكة السواد. والمقصود بالعصير هنا: الماء الأسـود المتمخض عن غسيل الجبّة - المترجم-.

ـ نحن ذاهبون للتبارى فى لعبة الضفدعة ومعنا ابنتك- قال له الجزّار كلاوديو بصوت عال-، أتسمح لها؟

هزّ موريثيو منكبيه:

ـ من جهتى، لا مانع.

دلف إلى الحانة وأضاف، متجهًا إلى لوثيو:

ـ (ناس هايصة) فى اللعب بالكعوب(*)؛ أما كعباى فسوف تورمان من كثرة العمل...!

توقفت خوستينا إلى جوار المطبخ:

ـ سوف أحضر البِلْى.

كان البِلْى موجودًا فى درج مائدة من خشب الصنوبر، بين السكاكين والشوك وفتّاحات علب الصفيح.

ـ كارميلو خارج اللعب- قال إنتشاماريس ثم التفت ناحية مائدة عائلة أوكانيا-:

(*) لعبة الضفدعة البرونزية بصندوقها الخشبى ورحاها من الألعاب التى تعتمد دقة التصويب فيها على حركة الكعب وإتزان القدم، والجملة تحمل تعريضًا بمنْ يحركون كعوبهم للعب ومنْ يحركونها من كثرة العمل – المترجم-.

ـ بالهناء والشفاء. مساء الخير.

ـ شكرًا؛ ونتمنى لكم قضاء وقت طيب.

ـ الفُرجة بالنسبة لي لا تقل متعة عن المشاركة فى اللعب- قال كارميلو-.

عادت خوستينا:

ـ لنرى منْ سيبدأ اللعب.

ـ أنت، يا خوستينا- قال كلاوديو- (إحنا برضه بنفهم). الآنسات أولاً.

ـ يا لك من ذكى!- ردت عليه- ما هذا الكرم من جانبك!

ـ آه، سحبت كلامى. لو أردتما نبدأ نحن، ما الفرق؟

أعطته خوستينا البِلْى. عدّ إلتشاماريس خمس خطوات من عند صندوق الضفدعة، ورسم خطًا على التراب بمقدمة حذائه. تمركز كلاوديو على الخط، وجذعه منحنيًا إلى الأمام، وبعد أخذ وضْع الاستعداد للرمى توقف قائلاً:

ـ انتظروا، سوف أبعد هذه الدراجات التى تعوق طريق التصويب.

ـــ بدأنا باختراع الحجج!

ساعد كارميلو فى سحب الدراجات. قال إلتشاماريس لخوستينا:

ـــ انظرى، سوف أرمى قبلكِ، تعرفين؟ لأننى الأضعف فـــى الاثنـــين. وهكذا تكونين أنتِ الأخيرة، أى نقطة التحول فى المباراة، ولتركزى قَدْر الإمكان حتى نتفوق عليهما، ما رأيك؟- غمز لها بعينه-.

ردت خوستينا:

ـــ موافقة.

ـــ هل تتآمران علينا؟

ـــ نعم- أجابت خوستينا-.

كان كارميلو والآخر قد أخليا طريق التصويب من الدراجات.

ـــ هيا، لينزل فريق الجزارين إلى أرض الملعب.

كلاوديو إلى جوار الخط، مدّ إلى الوراء رجله اليسرى وانحنى كثيرًا بجذعه جهة الأمام. أرجح ذراعه عدة مرات، وقطع البِلْى بـــين أصابعه، راسمًا فى الهواء عدة أقواس، تمتد من الركبة إلى الجبهـــة، ومركزًا بشدة. خرجت من بين أصابعه البِلْية الأولـــى، فاصـــطدمت

بشفة الضفدعة ثم سقطت على التراب. تلتها التسع بلْيات الأخريــات، والتى اصطدمت بالحديد والخشب أو تقافزت عليهما، مسجلة بعــض النجاحات. أصابت السابعة الضفدعة، وسقطت التاسعة فى الرّحـــى. كانت على الأرض بِلْيتان.

ـــ بداية سيئة- قال له الجزّار الثانى-.

ـــ إنها الجولة الأولى، يا رجل، إلى أن أندمج وأسخن.

عدّ إلتشاماريس النقاط وجمع البِلْى.

ـــ ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسون نقطة لكما. والآن جاء دورى.

ـــ (شدّ حيلك)- أوصته خوستينا-.

ـــ أهديك هذه التسديدة - قال الآخر، رافعًا يده-.

كان ذراعه شبه ممدود إلى الأمام، والبِلْية فى مـــستوى عينـــه اليُمنى، فى خطٍ موازٍ لفم الضفدعة، غامزًا بعينه. أنـــزل بعـــد ذلـــك ذراعه ببطء نحو أسفل بطنه، وعند نقطة محددة خرج الذراع والبِلْية منطلقين. أصاب الضفدعة فى الرمية الأولى والتفت إلى خوستى:

ـــ الأولى فى الجبهة.

ـ ثم قال بتؤده وهو ينزل ذراعه للمرة الثانية:

ـ وهذه... من أجل التعادل.

ولكنه لم يتحصل على شيء ذى بال بعد ذلك، ولم تجلب له التسع بلْيات الأخريات حزنًا ولا سرورًا.

ـ لو لم تلتفت لتتحدث عندما كنت فى وضع الاستعداد للرمى...– نهرته خوستينا–.

يبدو أن خيبة أمل المنافس قد غمرت الجزّار الآخر بالسعادة، كما يتضح من طريقته الوثّابة فى رمى البِلْى، لأن إحداها قفزت لترن فى جرس إحدى الدراجات. كان يرمى بشكل غير منتظم ويسرح كثيرًا؛ ولكنه استطاع إدخال بلْيتين فى الضفدعة. احتفى بالإنجاز مهللاً: "عفارم!". وهكذا أصبحت خوستينا فى موقف صعب. ومع هذا فقد قال كارميلو:

ـ ستريان الآن ما لم يخطر لكما على بال.

ونظر إلى تقويرة فستان خوستينا عندما انحنت. طبعت خوستى قُبلة على البِلْية الأولى، وعيناها مسمرتان على الضفدعة. وضعت

يدها بعد ذلك عند وسطها ثم أخرجت لسانها على الشفة السفلى وأسرع الذراع إلى أعلى فخرجت منه البِلْية منطلقة. كانت قدمها اليسرى تظل معلقة فى الهواء بعد كل رمية، وكأنها ستفقد الاتزان. استطاعت إدخال بلْيتين فى الضفدعة، ولكنها لم تُدرك التعادل مع الآخريْن اللذين مازالا يسبقان بحوالى ألفى نقطة. وزاد هذا الفارق من النقاط على يد كلاوديو فى الجولة التالية، عندما استطاع إدخال بلْيتين؛ بينما لم يُفلح إلتشاماريس فى تحسين معدّله السابق. ولم يتمكن الجزّار الآخر أيضًا من استغلال دوره واستطاع فى آخر لحظة إسقاط بلْيتين فى الرّحى.

ـ لنرى إذا كنت قادرة الآن، يا خوستينا، على زيادة عدد نقاطنا– قال لها إلتشاماريس عندما تقدمت للرمى–.

أصابت خوستى الهدف ثلاث مرات، وصدرت عنها إيماءة غاضبة بعد سقوط البلْية من على الشفتين البرونزيتين للضفدعة فوق الأرض.

ـ حظ هباب!

حافظ كلاوديو على المتوسط السابق فى الجولة الثالثة؛ ولكن إلتشاماريس لم يتحسن كثيرًا، واكتفى بتسجيل رميتين فى الضفدعة، ومثلهما فى الرّحى.

ـ ما زال بإمكاننا اللحاق بهما- قال بعد نجاحه فى إدخال البلْية الثانية فى فم الضفدعة-.

تحسن الجزّار القصير هذه المرّة بعض الشىء عن المرة السابقة، ولكنه لم يوسع فارق النقاط بما فيه الكفاية.

ـ والآن يأتى العم باكو بالضربة الحاسمة- قال كارميلو عندما تقدمت خوستينا لأخذ دورها فى الرّمى-.

وفى هذه الأثناء، كان أولاد أوكانيا قد اقتربوا لمشاهدة المباراة.

ـ الهمّة، يا خوستى!- قال إلتشاماريس-. الفوز بيدك.

نظرت حواليها؛ ثم ضربت بمقدمة حذائها فى التراب، للتمكين لقدمها، ثم انحنت تجاه الضفدعة وهى تبتسم. اخفقت فى البلّية الأولى، ولكن الثانية والثالثة دخلتا الفم البرونزى. كان إلتشاماريس يهصر قبضتيه بشدة.

ـ هيا، أيتها الشجاعة- همس-.

تدحرجت الرابعة على الأرض، «ضللت الطريق». لم تدخل أيضًا البلْيتان التاليتان.

كان إلتشاماريس يهز رأسه، والكلب أثوفرى يرفع أذنيه، ناظرًا إلى صاحبه. وبعد ذلك، واحدة تِلْو أخرى، أربع رميات، خالصات، لا تشوبهن شائبة، دخلن فم الضفدعة، واستقر بهن المقام في قاع الصندوق الخشبى.

ـ مساء الخير– قال مُطيلاً مدّ الكلمة الأولى–.

كان قادمًا ومعه سلّة مستديرة، مُعلّقة على ساعده.

ـ هل يمكن رؤية سيدة البيت؟– أضاف مبتسمًا لموريثيو، بطريقة احتفالية–.

عندما خلع قبعة القش المرنة، والمتآكلة، أبان عن جُذامة من الشعر الأبيض الخفيف، تصعد مثل دخان شارد إلى الصلعة المحمرّة. كان محتوى السلّة مغطى بفوطة.

ـ تفضل يا سيد «سنَيدر»؛ لابد أنها فى المطبخ. تعرف حضرتك الطريق.

انحنى انحناءة خفيفة واتجه إلى حيث أخبروه. مدّ لوثيو عنقه ناحية السلّة التى تمرّ بجواره، وتظاهر بأنه يتشمم:

ـ أشياء لذيذة تحملها حضرتك هنا.

توقف المسنّ «شْنَيدر»(*) لدى الباب وأجاب، رافعًا الساعد بالسلّة المتدلية:

ـ هذه، من طيبات منتجات بستانى. هدية للسيدة فاوستينا. كتاب تعليم أصول الدين المسيحى يقول: "قدّم عُشر بواكير الثمار لكنيسة الرب"، والسيدة فاوستينا مثل الكنيسة، طيبة معى ومع زوجتى، ولهذا أحضر لها.

صدرت عنه قهقهة موجزة.

ـ هل يمكننى الدخول؟- سأل لدى الباب، بابتسامة جديدة-.

التفتت فاوستينا من حيث تقف، أمام حوض الغسيل:

ـ تفضل يا سيد سنَيدر؛ مثلك لا يحتاج إلى استئذان.

دخل شْنَيدر بانحناءة أخرى. كانت القبعة مستريحة على بطنه، ممسكًا إيّاها بأطراف أصابعه. وضع السلّة فوق المشمّع. جففت فاوستينا يديها. فى الخارج، كان بلْى الضفدعة يرنّ فى البرونز وفى الخشب.

(*) هذا الرجل الألمانى المسنّ يُدعى «شنيدر»، ولكن أهل القرية ينطقون الشين سينًا. والرجل ينطق الإسبانية بلكنة ألمانية، ويخطئ كثيرًا فى تركيب الجمل ونطق المفردات، وهذا واضح فى النص الإسبانى، ولكن من المتعذر ترجمة ما يقوله ترجمة حرفية لأن الجمل ستصبح عندئذ فى غاية الركاكة، وغير مفهومة، ومن ثمّ لزم التنويه- المترجم-.

ــ ولكن، ماذا تحضر اليوم؟ ماذا صعد إلى رأسك مجددًا؟ أقسم (أننى فى نصف هدومى) من مبالغتك فى الاهتمام بى.

كان شنَيدر يضحك.

ــ تين– قال، مفعمًا بالرضى والسرور–. جربى تين شنَيدر.

ــ لا تين ولا غيره– ردت فاوستينا–. ما كان ينبغى أن تزعج نفسك. لا أفكر،حقيقة، هذه المرة فى أخذه منك، حتى لو (زعلت). ولهذا، اعمل فىّ معروف وخذ هذه السلّة. هيا!، (مش فاضل) إلا أن تهدى لنا البيت! هل ستحضر إلى هنا كل ثمار هذه الأشجار؟

ــ من فضلك، جرّبى تين شنَيدر. لقد أعدّت زوجتى هذه السلّة خصيصًا لحضرتك.

ــ لن تنال ما تهدف إليه، أؤكد لك.

عاود شنَيدر الضحك:

ــ ستضربنى لو رجعت إلى البيت بالتين. إنها زوجة مرعبة– كان يضحك–. وسوف أشعر بالمهانة لو لم تتذوقى تين بستانى.

ولكن فاوستينا أخذت السلّة وحاولت تعليقها فى ساعده:

ـ اعمل معروف (وشيل) هذا من هنا يا سنيدر. ما ستتحصل عليه هو إزعاجى.

كانت تصدر عن شنَيدر دائمًا القهقهة المحسوبة ذاتها. تلقى السلّة بيديه، ولكنه بدلاً من تعليقها فى ساعده أزاح عنها الفوطة فظهرت حبّات التين، المتساوية الأحجام والمرتبة بعناية على شكل دوائر مركزية. التقط بإصبعين حبة التين التى تتوسط الدوائر جميعها وقدّمها إلى فاوستينا، بحفاوة بروتوكولية:

ـ تذوقى، يا فاوستينا، حبة التين اللذيذة هذه التى يسعدنى تقديمها لحضرتك.

كان يحرك فى أثناء كلامه، بإيماءة فروسية، ومثل منْ يرتدى قفازًا، حبة التين إلى أعلى وإلى أسفل، حركات توقيعية.

ـ لا فاوستينا، ولا غيرها- قالت هى-. ما كان ينبغى أن تفعل هذا. سوف آخذها حتى لا تعتقد أنه ازدراء من جانبى، ولكن بشرط ألا تعود مرة أخرى لإزعاجى بأى نوع من الهدايا. مفهوم؟

ـ كُلى حبة التين، وبعد ذلك قولى لي رأيك.

ـ لست بحاجة لتذوقها حتى أعرف أنها لذيذة جدًا. أعرف مقدمًا أنها لابد أن تكون شيئًا طيبًا، شَهْدًا مُكررًا، مثل كل ما تنتجه حضرتك فى هذا البستان.

كانت تنظر إلى حبة التين وهو يقشّرها. أضافت:

ـ يكفى النظر إلى شكله وإلى قشرته التى تنفصل عنه. ما لا أفهمه هو ماذا تستفيده حضرتك من أن يكون لديك هنالك أشجار رائعة الجمال ومشمولة بالعناية الفائقة، إذا كنت لا تفعل بعد ذلك سوى إهداء كل ما تجمعه منها؟

ـ يفيد فى اكتساب الأصدقاء الطيبين، مثل السيد موريثيو والسيدة فاوستينا. قيمة هذا تفوق بكثير ما تساويه الفاكهة أو الأشجار أو البستان، بل كل هذا مجتمعًا.

عاد للضحك. حملت فاوستينا بعد ذلك حبة التين إلى فمها، بينما كان يتطلع إليها ساكنًا مترقبًا.

ـ حذارِ من هذا السيد؛ إنه ليس ساذجًا!- قال لوثيو، مشيرًا بصدغه إلى الدهليز-.

ــ (ما تقولليش). إنه مصمم على مواصلة تقديم الشكر لنا، منذ تلــك القضية الخاصة بالبيت، وتراه ماثلاً هنا كل يوم إثنين وكل ثلاثاء ومعه هدية.

ــ عجيب أمر هذا الرجل!

ــ طبيعة هؤلاء الناس هكذا. أيّا كان السبب. نوع التربية التى تلقوها فى بلدهم. وما يدرينى. يعتقدون أن لزامًا عليهم شكرك أبد الدهر، لا لشىء إلا لأن الواحد قد تجشم عناء الشهادة لصالحهم. إنهمــا، هو وزوجته، من الناس الطيبين المساكين. الجريمة الحقيرة التــى تعرضت لها ابنتهما الوحيدة كفيلة بتمرير حياتهما علــى الــدوام، وجعلهما يبغضان أمَّة بأسرها.

ــ سمعت شيئًا عن هذا. ماذا كان بالتحديد؟

ــ جريمة لا يمكن حتى حكايتها. وغد حقير مــن مدريــد أغواهــا وحاول إجهاضها فقتلها. شىء مرعب، كما ترى، مع الأخذ فــى الاعتبار أنها الابنة الوحيدة.

ــ أتَفَهَّم.

ــ إننى أتصوره وكأنهم فعلوه مع ابنتى، أســأل الله الــسلامة. مــن يحس بوقع هذا هو فحسب منْ تكون لديه ابنة، وليس له ســواها،

مثله ومثلى، هل تفهمنى؟ ولذا فأنا أتفهّم وأعى جيدًا حجم ما عاناه هذا الألمانى المسكين؛ ومدى ما يتطلبه تحملّه من إذعان وصبر كما تحملاه هما.

كان لوثيو يُؤَمِّن برأسه على ما يسمعه وهو مطرق إلى الأرض. مضت فترة صمت. تحدث موريثيو من جديد:

ـ الآن، نعم، لديه بستان ولا فى الأحلام. لابد أن له دراية تامة ومعرفة طويلة بالتطعيم وخلافه. لو مررت من هناك الآن لرأيت الأشجار وأدركت مدى ما تحظى به من عناية. أوراق الأشجار جميعها مدهونة بالدّبق لمنع النمل من الصعود وأكل ثمارها.

ـ مما لا شك فيه أن الرجل يصحو مبكرًا قبل أىّ إنسان آخر. مهما مررت مبكرًا تجده دائمًا هنالك، مشتبكًا مع الثمار. الأشجار تشكر منْ يتعب من أجلها. لابد أن هؤلاء الناس، أقصد الألمان، يحبون جميعًا، وبلا استثناء، العمل، ويتفانون فيه. وهذا ما يُفسر سرّ تفوق ألمانيا السابق، وهى الآن فى طريق العودة إلى ما كانت عليه فور تحرير يديها من بعض القيود.

ـ مثلما يحدث عندنا...!

ـــ بالتأكيد، ولكن فى الاتجاه المعاكس. يجب الاحتذاء بهذا البلد فـــى أشياء كثيرة، دون عقد المقارنات. وعلى سبيل المثال ما تـــذكره أنت الآن بشأن الامتنان والشكر.

ـــ القضية، وبدون لفّ ودوران، قضية عادات أخرى، وتربية وقـــيم مختلفة، ومثابرة فى عمل كل شيء. أما نحن هُنا، فكل ما نفعلـــه مرتجلاً، وخاضعًا للأهواء المؤقتة. وغدًا ينال منا التعب.

ـــ واضح، إنه العزم والتصميم والمثابرة، وكلها مفقودة هنا. لا تـــستطيع الإنكار أيضًا أن هناك مواهب أخرى، ولكن ما نكرتـــه، ولا يوجـــد لدينا عنه ولا حتى فكرة، يدفع حثيثًا إلى الأمام... لا يوجد هنا شـــيء من هذا، بل عَصفة ريح هوجاء، وسلّم لي على المترو.

ـــ حسنًا، ونهجهم فى العمل لا يختلف عن نهجهـــم فـــى الـــصداقة. المثابرة نفسها. وكما ترى، فهنا يبدو حتى مثيرًا للـــسخرية، هـــذا الرجل الذى يأتى إليك كل يوم محملاً بالقرابين والهدايا، لمجـــرد أننا شهدنا لصالحه فى الدعوى المقامـــة عليـــه، رغـــم أن عـــدم الانحياز لأى طرف من الطرفين شيء منطقى، فضلاً عن كونـــه إحقاقًا للحق وانتصارًا للعدالة. لا تتخيل كيف كان حالـــه عنـــدما

أرادوا انتزاع البيت منه. الناس هنا يظنون أنهم استعبدونا أو على أقل تقدير اشترونا.

ـ بل قُلْ إن سبب هذا يرجع، كما هو منطقى، إلى اعتقاد الرجل أنه مادام يعيش فى بلد أجنبى فإن العالم كله سيقف ضده وفى صفّ ابن البلد. ولما وجد أن الأمر ليس هكذا، وأن هناك مَنْ يُؤثر المواجهة، مهما كانت العواقب، من أجله، تحركت مشاعر الامتنان لديه، ومن ثمّ فمن الطبيعى حدوث ما تراه.

ـ لا تعتقد أن صداقة ما كانت تجمعنى به قبل هذا الموضوع. كنت أعرفه، بالطبع، لأنه يعيش منذ سنوات طويلة فى سان فرناندو، وأقابله هنا وهناك. مجرد صباح الخير أو مساء الخير ودُمتم. لم تكن بيننا معرفة غير هذه. ولكن عندما تعيّن علىّ أن أشهد، فقد شهدت من منطلق الحرص على تحقيق العدالة، لا بدافع الصداقة.

نظر لوثيو إلى صاحب الخان بثبات، ثم قال له:

ـ ولكنك كنت تعرف ما جرى لابنته عندما تقدمت للشهادة فى القضية. ألم يكونوا قد حكوا لك عن تلك الحادثة آنذاك؟

ـ ماذا؟ نعم يا رجل، كان قد مرّ عليها وقتئذ ما لا يقل عن ثمان سنوات. ولكن، ما الداعى للسؤال عن هذا الآن؟

ـ لا لشىء. لأن هذا ربما يكون السبب لاتخاذك قرار الوقوف فى صف سنَيدر، دون أن تدرى؛ ومبعث هذا الافتراض من جانبى هو ما سمعتك تقوله منذ لحظات.

أمسك موريثيو شفته السفلى بأصابعه، متأملاً، ثم قال بعد ذلك:

ـ وهل هذا ما تظنه؟ أنا لا أتذكره حتى.

نظر ناحية الباب وأضاف:

ـ ولا يمكننى أيضًا أن أؤكد لك الشىء ولا نقيضه. (شوف أنت). لا أحد يعرف لماذا نفعل الأشياء.

تحدث لوثيو بتؤدة:

ـ لم أسلّم قط بأن هاجس العدالة هو الباعث الجوهرى لتصرفات البشر. لا توجد فى نهاية المطاف سوى العدالة التى يحملها المرء بداخله- أشار إلى صدره بالإصبع السبّابة-؛ وحتى بالنسبة لأولئك الذين يتصرفون بنزاهة ودون هوى. ضع فى اعتبارك أنه

حتى فى هؤلاء يوجد دائمًا، رغم أنه يبدو صعبًا، غرض مستتر، من أىّ نوع كان، يجعلهم ينحازون للتصرف بطريقة ما.

كان موريثيو ينظر إليه؛ أجاب:

ـــ ولكن هذا لا يمكننا معرفته حقًا، لا أنت ولا أنا.

ـــ ما انتهيت من قوله، يعزز وجهة نظرى.

كانا يتمشيان فى اتجاه سير المياه، بين المجموعات البشرية.

ـــ لا أدرى ماذا دهاهم اليوم– قالت ميلى–؛ إنهم أكثر وَخَمًا...

كان فرناندو يعيد بركلة كرة تهادت حتى قدميه. قفزت الكرة باتجاه أغصان شجرة؛ احتج أحد الصبية: "كنتَ على وشك أن تضيعها لي، بجعلها تعلق هناك!". عاد فرناندو إلى جوار ميلى:

ـــ لياقتى ممتازة. ماذا كنتِ تقولين؟

ـــ لا شىء.

كانت ميلى تضع يديها فى جيبى البنطال. تتفحص المجموعات:

ـ أين ذهب هؤلاء؟

ـ تقصدين منْ؟

ـ صمويل والشلّة.

ـ سوف ترينهم، يا امرأة. سنلتقى جميعًا فى الاستراحة. ما الداعى لهذه اللهفة؟

ـ آه، لا، لا يوجد أىّ داع.

ـ ولم السؤال إذن؟

وصلا إلى الرّابية التى تنتهى عندها الأشجار. عبرا، من فوق قنطرة الألواح الصغيرة الضيقة، الذراع الميت للنهر. وهو عبارة عن مدخل أو رأس ساحلى من المياه الراكدة القذرة، ينتهى بعد مسافة قصيرة باتجاه أعالى النهر. إنه البقية الأخيرة للفرِع الذى تجرى به المياه شتاءً، فاصلة اليابسة عن الجزيرة التى توجد بها الأشجار. وهذا الفرع جاف الآن فى معظمه، بحيث يسمح باتحاد الجزيرة باليابسة، باستثناء موضع هذا الجزء الأخير الذى تتشكل عنده شبه جزيرة موصولة بدورها بالأرض من خلال القنطرة الخشبية الضيقة.

ـ إنها غير مضمونة– قالت ميلى وهى تنظر إلى المياه الغامقة، الضاربة إلى الاخضرار–.

تنمو على الجانب الآخر أفرع وأفرع لشجيرات صغيرة؛ ظلال متسخة، بمزق متدلية من (العفْش) والطحالب والروّث الجاف، شبيهة بأكاليل عفنة، وزبد نُفايات نباتية تركها الفيضان وراءه فى وقت مضى.

عبرا القنطرة، مسرعيْن.

ـ المكان هنا فى غاية الدمامة...

وفجأة قطعت عليهما الطريق موجة من الموسيقى والصّخب. شاهدا موائد، ومفارش بمربعات بيضاء وحمراء، تحت ظلال شجرة عملاقة، وهدير أناس جالسين، واصطدام الكئوس والزجاجات الصغيرة، تحت صوت مذياع مفتوح عن آخره. كانت الساحة مربعة، يحدها من جهة النهر رصيف الأهوسة ومغلقة بالمنحدر وبالزاوية التى تشكلها واجهات أبنية الاستراحات، المصطفة على شكل L، بجدَرانها البيضاء وعرائشها ولافتاتها ذات اللون النيليّ. توجد أيضًا نباتات الجرانيوم. وعند النظر إلى أعلى تبدو الشجرة الضخمة وكأنها قبة

خضراء تحمى وتصون كل شيء. كانت تُــرى العجــلات المــسنّنة للأهوسة، على طرف الرصيف، والمياه العميقة، ذات اللون البرتقالى، التى تشكل دوّامات، تلعق وتتحسس القاعدة الأسمنتية التى تجبر التيــار على الاندفاع نحو مضيق التصريف، حيث يجأر عنــد تحــرره مــن جديد، خارجًا من السدّ. مرّا على طول الرصيف، بحذاء الموائد، فنظر بعض الموجودين إلى ميلى، وظلوا يتابعونها بعيونهم. توقفت ميلى عند الأهوسة و نظرت باتجاه الأشخاص الذين مازالوا مستلقين فى الشمس فوق القطاع الأسمنتى المنحدر، الموجود بظهر السدّ.

ــ هل ترين أحدا منهم؟- سأل فرناندو-.

لم تجب ميلى؛ أقلعت عن النظر، واستأنفت السير. كانت الميــاه المتحررة تتبدد من جديد، بعد مرورها من الأهوسة، ليعود النهر إلى جزره الصغيرة الحمراء، الملطخة ببعض الخَضَار. ســارا لمــسافة بحذاء القناة التى تستفيد من مياه الخزان وتنحرف جهة اليمين، وتركا خلف ظهريهما هدير الهويس، والأصوات والموسيقى. الــضفة هنــا عبارة عن سهل، فى مستوى سطح النهر، مثل الضفة المواجهة.

ــ يا له من منظر أخّاذ!- قالت ميلى-. المكان هنا جميل.

يوجد على اليمين، وبحذاء القناة الصغيرة، صف من أشجار الحَوَر، يبتعد معها بعيدًا، على مرمى البصر. كان هنالك أناس قليلون، وبالأحرى عدة مجموعات من الصبية، منهمكة في إلقاء الحجارة إلى جوار الماء، لاصطياد لا أحد يعلم ماذا. تتراءى في الخلفية أشجار الدرْدار العالية التى تطوّق البساتين؛ وعلى اليمين، فى الأعالى، أسوار وبيوت سان فرناندو. تصل الآن، واضحة، عبْر المرْج، نغمات أغنية «سيبونوى». شرعت ميلى فى الرقص وسط السهل وأخذت تغنى:

ـ ع ع على هديل الأكف، أفكر فيك...

ـ يا لك من مجنونة!

نظرت إلى فرناندو:

ـ يا فتى، الرجلان تتحركان وحدهما، تجاوبا مع الإيقاع.

ـ يا لك من مجنونة!- كرر تعجبه السابق-.

ضحكت ميلى. نظرا ناحية المكان القادمة منه الموسيقى. كانت استراحة أخرى فى وسط المنحدر، على بُعْد مائة متر تقريبًا من النهر؛ تحمل لافتة كبيرة تقول حروفها السوداء، المتآكل دهانها بعض

الشيء: «استراحة نيويورك الكبيرة». يبدو أنها استراحة للصيادين والبستانيين. كان يوجد عدد قليل من الناس على موائدها الخارجية. رقصت ميلى من جديد:

ـــ سيبونوى، أنا أحبك، وأموت فى حبك...

كانت توجد كوّة من ألواح خشبية قديمة، وفوق البياض الجلىّ لمدخنة ترتفع بقعة دخان. شرعت أشجار الحَوَر فى مدّ ظلالها الطويلة ناحية الشرق، ورغم هذا مازالت الشمس فى الأعالى تدور حول نفسها بسرعة مُدَوِّخة، لتزيد من سخونة الصوف المتسخ للأراضى البور، والأكفال الزّلقة للروابى. جعلها أحد ما تلمع للحظة على زنك جردل جديد وعلى دفقة ماء تبعثرت فوق التراب، وجعلها أحد ما تصطبغ فى حمرة كأس مرفوعة ومتجرعة دفعة واحدة، ومازال أحد ما يحتفظ بها على شعره وظهره وقُرْطيه، وكأنها يد سحرية. كانت تئز على الأرض أزيزًا مكتومًا، مثل أسراب زنابير أسطورية، بوكزات لانهائية، مكثفة ومتعبة، لذبذبات ضوء مُلحّة، فوق ما هو نظيف ومتسخ، ما هو جديد وقديم، بصورة كتيمة. شاهدا سبع شجرات سَرْو تتزلجن سورًا ضاربًا للاصفرار.

ـــ لا شك أنها المقابر.

كانت بجوار بيت فلاّحى، على طريق قديم يهبط من القرية إلى المخاضة، عمودى على النهر.

ــ شيء ظريف!– قالت ميلى–؛ مقابر القرى كلها تكون فى مكان عالٍ، وهنا على النقيض، المقابر إلى جوار النهر، والسكان فى الأعالى.

ــ هذا هو مكانها الحقيقى، حيث تشاهدينها هنا. لو حدث، على حين غفلة، فيضان كبير فى أحد الأعوام، وحالفه بعض التوفيق، فسوف يجرف أمامه الأموات جميعًا.

ــ من الأفضل، يا فتى، أن يجرف الأموات لا الأحياء.

ــ هذا صحيح أيضًا. ربما فكروا فى هذا. يا لها من حياة! ويقولون بعد ذلك إن سكان القرى أقل فطنة.

كانت تُرى من خلال السياج الصلبان الحديدية، المائلة كلها تقريبًا، بازغة بين الحشائش البريّة التى تأكل المدقّات بين صفوف الأضرحة. خلية من المحاريب فى الخلفية، وبياض منطفئ لِرخام بائس يبرز غريبًا فى بعض الأماكن، بين حديد صدئ وقوالب طوب، وأحراج وهجران. كما تتراءى هنالك، غير واضحة المعالم، فوق الشواهد البيضاء، وبين المربعات المتصلة والموحّدة للمحاريب،

لافتات، وأقمشة حائلة اللون، وصور، وزهور كريستال مع زهـور جافة مبعثرة. مازالت تصل إلى هناك أصداء الموسـيقى، وصـوت المذياع، وسيبونوى، وصرخات الفتيان فى النهر. كانت تتوقف فجـأة وتهبط، مخففة الصدمة، مثل ندف الـثلج، فـوق الـصلبان وأرض الأموات. مرّ خلفهما رجل مع جحش محمل بأعواد الذرة الخضراء، بأوراقها التى تحدث صخبًا طازجًا فوق الخَبَب القصير عندما تحتـك ببعضها البعض. كان الحوذىّ القاتم يمشى مـسرعًا؛ نظـر بلمحـة خاطفة إلى ذراعى ميلى وبعد أن حثّ دابتـه، مـصفرًا بفمـه، أدار وجهه بغتة إلى الطريق وغزّ السير.

ــ «يا لوحدة الأموات...!»– أنشد فرناندو بنغمة تفخيمية وساخرة.

ــ لقد غدونا رومانسيين– قالت ميلى ضاحكة، وهى تُبعد وجنتيها عـن حديد السياج–. يمكننا الآن البحث عن مكان آخر، مبهج قليلاً.

القناة القادمة من الخزان تجتاز الطريق من تحت قنطـرة مـن الطوب القديم وتنساب فى عدة مساقى لرىّ حقول تبدو عليها مظاهر الاعتناء الشديد، على الجانب الآخر. وعلى حـاجز القنطـرة يوجـد ولدان وبنت، يكسرون شيئًا ما. نظروا إلى ميلى بوقاحة، ثم شـرعوا فى الجرى بعد ذلك، مترافصين، نحو البيت الفلاّحى، وهم يـشيعون ميلى بسخرية لم يتضح كنهها.

ـ يستغربون ارتدائى للبنطال.

ـ سوف يعتادون عما قريب على رؤيته عندما يأتى الأمريكان للعمل بالقرب من توريّخون(*) - قال فرناندو-.

كانا عائدين على مهل.

ـ أىّ أمريكان؟

ـ الذين سيأتون لبناء المطار. سوف يقيمونه هنالك، فى ذلك المكان- كان يشير بيده-. ألم تكونى تعرفين؟

ـ لا. السياسة بالنسبة لي... أنا أطالع فقط إعلانات دور السينما.

ـ يجب أن تكونى على دراية أكثر بالأمور، يا ميلى.

ـ على دراية أكثر بالأمور؟ (ده اللى كان ناقص!). ومن أجل ماذا؟

سكتت الموسيقى. انطلق نحو الفضاء المفتوح صوت واضح وعالٍ، معلناً عن الأغنية التالية، وعن قائمة بأسماء الثلاثة أو الأربعة

(*) شيّد الأمريكان فى منتصف خمسينيات القرن الماضى قاعدة جوية ضخمة على مقربة من قرية «توريّخون»، ولم يتم تفكيك هذه القاعدة إلا فى نهاية القرن الماضى، بناءً على طلب حكومة إسبانيا الاشتراكية آنذاك - المترجم-.

أشخاص المهداة إليهم وكأنهم يسمعونه بعيدًا هناك، مختبئين أو شاردين فى مكان ما على جنبات النهر، أو قابعين خلف أحد أحراج السهل.

ـ لنرى متى ستخطر ببالك هذه اللفتة وتهدينى أغنية فى المذياع– قالت ميلى–.

ـ أوعدك، عندما تتوافر لدىّ ثلاثون بيزيتة.

عادت الموسيقى للرّنين، وتبعها صوت بطيئ يغنى.

ـ فى العام القادم إذن...

سمعا صوتًا خلفهما. التفتا.

ـ هل تنادى علىّ؟– سأل فرناندو، مشيرًا إلى صدره بالإصبع السبّابة–.

كانا شرطيين؛ ظهرا من وراء المقابر ويتجهان نحوهما.

أومأ بالإيجاب الأطول فيهما، محدثًا بيديه إشارة وكأنه يقول: "ومنْ سيكون غيرك"؟.

خفّ فرناندو للقائهما، بينما ظلت ميلى فى الخلف، ناظرة. ولكن الطويل أشار إليها بإصبعه:

ـ وحضرتك أيضًا، يا آنسة، لو تكرمت.

ـ أنا؟- سألت ميلى بتحفظ؛ ولكنها لم تتحرك-.

وصل الشرطيان ومعهما فرناندو إلى حيث تقف. سأل فرناندو بصوت مهذب:

ـ ماذا حدث؟

ولكن الشرطى اتجه إلى ميلى:

ـ ألا تعرفين أنه لايمكن المشى هنا بهذا الشكل؟

ـ أىّ شكل؟

ـ هكذا، كما تمشين حضرتك.

أشار إلى نصفها العلوى، المغطى فحسب بالمايوه.

ـ آه، أنا آسفة؛ لم أكن أعرف، حقيقة.

ـ لم تكونى تعرفين؟- تدخل الشرطى الآخر، الأكبر سنًا، محركًا رأسه بابتسامة منْ لا يعوزه الحق-. لقد رأيناكما من هناك فوق، وأنتما ملتصقان بسياج المقابر. ولن تقولا لي إنكما لا تعرفان ما هى، لأن هذا يعتبر عدم احترام. لا يمت هذا التصرف بصلة

للهيبة والوقار اللذين يجب التحلّى بهما فى مثل هذه الأماكن. لـن تقولى لي إنك لا تعرفين هذا؟ إنه حسّ عام.

تابع الشرطىّ الأكثر طولاً:

ـ العالم كله يعرف هذه الأشياء. المقابر يجب أن تُحترم، شأنها فـى ذلك شأن الكنائس، لا فرق. من الضرورى مراعـاة الأصـول. وإضافة إلى ما تقدم، فهنا، حيث نوجد الآن، لا يمكن أن تمـشى حضرتك بالطريقة التى أنتِ عليها الآن.

تدخل فرناندو، طرفًا ثالثًا، قائلاً بلطف:

ـ لا، (شوف) حضرتك، ما حدث، ببساطة، هو أننـا كنـا نتجـول للبحث عن بعض الأصدقاء، وقادتنا أقـدامنا إلـى هنـا دون أن نشعر. هذا ما حدث.

أجاب الشرطى الأكبر سنًا:

ـ يجب المشى باحتراس فى المرة القادمة. على المرء أن ينتبه جيدًا لموطىء قدميه. لدينا أوامر بألا يبتعد أحد عن شاطئ النهر إلا إذا كان مرتديًا ملابسه كلها، كما ينبغى- توجه إلى ميلى-. ومن ثـمّ

غطّى نفسك لو تكرمت، لو كان معك ما ترتدينه، أما إذا لم يكن معك شيء، فعودا أدراجكما. أنتِ لستِ طفلة.

أعلنت ميلى موافقتها بطريقة جافة:

ــ نعم، سنعود حالاً.

ــ معذرة- قال فرناندو-؛ نعرف الآن ما ينبغى عمله فى المرة القادمة.

ــ هيا إذن؛ يمكنكما الانصراف- قال لهما الأكبر سنًا، محركًا ذقنه.

ــ حسنًا، مساء الخير إذن- ردّ فرناندو-.

ــ صحبتكما السلامة- ودّعهما الشرطىّ الأكبر سنًا بصوت ضجر.

خطى فرناندو وميلى عِدة خطوات، صامتين. وبعد أن أصبحا على مسافة كافية قال فرناندو:

ــ يا لهما من فزّاعتين! اعتقدت أنهما سيفرضان علينا غرامة، وتضيع بهذا الشكل النقود المزمع إنفاقها فى إهدائك الأغنية. كنتِ، يا بنتى، على وشك البقاء دون الأغنية المأمولة.

ـ (شوف)- قالت هى، مغتاظة-؛ كنت أفضل ألف مرة أن يجردونى من النقود والحرمان من تلك الأغنية المزعومة على أن أتجه إليهما بالطريقة التى تحدثت بها.

ـ ماذا تقولين؟ وأية طريقة تلك التى تحدثت بها معهما؟

ـ طريقة الانكماش والتزلف والانصياع...

ـ آه، وماذا كان علىّ أن أفعل فى مخاطبتى إيّاهما، برأيك؟ (أمّا عليكى حاجات!). ربما كنت تريديننى أن أتطاول عليهما.

ـ ليس من الضرورى التطاول؛ يكفى أن يظل المرء محافظًا على مكانته، دون اللجوء إلى التدنى أو الحديث بصوت معسول، تزلفًا لهما. وإضافة إلى هذا، فلم يكن هناك ما يستدعى انشغالك، لأن الغرامة لم تكن ستدفعها من جيبك فى كل الأحوال. لا أقبل أن يتحمل أحد عنى أية غرامة.

التفتت ميلى برأسها. كان الشرطيان ما يزالان يقفان هنالك، فى الخلف، ينظران إلى شىء ما. أخرجت لهما لسانها. ابتسم فرناندو بجفاف:

ـ أتعرفين ما أقوله لك، يا ميلى؟ (إنت لسّه بدرى عليك). يبدو أن ما تعرفينه عن الحياة لا يساوى خردلة.

ـ أعرف عنها أكثر مما تعرفه أنت، تصورّ.

أنكر فرناندو برأسه.

ـ ليست لديك أدنى فكرة عن طبيعة منْ تتعاملين معهم، هؤلاء يعاملون الناس بنفس الطريقة التى يعاملهم بها رؤساؤهم، وغاية المنى عندهم أن يتجاوز أحد حدوده أو (يجَحِّش) فيهم لكى (يخزوقوه) كما (يخزوقهم) كبراؤهم لو تجرأوا عليهم. كل منْ هو فى مرتبة سفلى يفتش دائمًا عمنْ هو أقل منه رُتبة. ألم تسمعى ما قاله أحدهما «يمكنكما الانصراف» وكأننا فى معسكر؟

ـ حسنًا، يا فرناندو، أنا لا أنصاع لأحد. أهون عندى دفع الغرامة عُنْوة، لو اقتضى الأمر، من التدنى أمام أىّ شخص. هذه هى شخصيتى التى أُعجب بها ولا أرضى عنها بديلاً.

ـ صحيح، لو كنتِ رجلاً ما قلت هذا الكلام. اعترفى أن تماديك فى الترفّع سببه كونك امرأة، واشكرى هذه الصفة؛ لأنك لو تحولت

فجأة إلى رجل، سترين كيف ستتغير سريعًا طريقتك فى التفكير. وإلا، فسوف تتهاوى عليك الهراوات من كل جانب بأكثر مما تتهاوى على حصيرة حلْفاء. عرفتُ متكبرين أعتى منك بكثير، ولكنهم بعد التمرغ مرتين فى التراب تابوا وأنابوا. ضعى ما أقوله لك حلقة فى أذنك.

ــ حاضر، يا رجل، حاضر؛ لقد أُحطت علمًا. مبروك عليك المليمات العشر.

نظر إليها فرناندو، وقال، متحسسًا جبهته:

ــ (راسك ناشفة). ما ينقصك هو خطيب (يشكمك).

ــ (يشكمنى) أنا ؟. نِعْم الناصح أنت! أو (لأشكمه) أنا.

قرعات جرس النحاس الأصفر كانت ترنّ فى الطوب الداكن للمحطة، تحت اللافتة الطويلة التى تقول: «سان فرناندو دى هنارس– كوسلادا». إنها المحطة الثالثة بعد مدريد: «باييكاس، بيكلبارو، سان فرناندو دى هنارس – كوسلادا». وبعد قرعات الجرس، دخل إلى الرصيف، محدثًا صريرًا، القطار القادم من

مدريد. فى عربة الدرجة الثالثة، الخاوية تقريبًا، رجل مسنّ وفتاة ترتدى بلوزة صفراء، وأمام أرجلهما قُفَّة مزينة برقاع جلدية، على شكل سمك موسى، سوداء وبنيّة. قالا «مع السلامة» لصاحب السُّترة البيضاء الذى كان جالسًا على المقعد المقابل. «رحلة سعيدة» ردّ عليهما. ظلّ فى الرّدهة الصغيرة، المواجهة للباب، حتى توقف القطار. ترجّل عشرة أو اثنا عشر شخصًا وخرجوا، كلٌ إلى وجهته، من المحطة المفتوحة على الحقول وعلى الضياع المبعثرة. فى الخلف، تحرك القطار من جديد، بينما توقف ذلك الشخص إلى جوار كُشك للأدوات الكهربائية والتفت برأسه: كان ينظر إليه المسنّ والفتاة من العربة المتحركة. خرج بعد ذلك من بين المبنيين؛ ولكى يمرّ أزاح عدة ملاءات منشورة بالطول. كانت توجد ثلاث شاحنات صغيرة، مصطفة خلف المحطة، والدجاجات تنقر فى التراب، إلى جوار الإطارات. الطّرنْش(*). وخلفه يوجد بيت، مثل غيره من البيوت التى تضم مساكن العاملين فى هيئة السكك الحديدية (RENFE)، بحظائر دواجنها وبقدونس النافذة، وطشوتها وجِفان الغسيل. صاحوا عليه من بعيد:

(*) الطّرنْش: هو خزّان مخلفات دورات المياه – المترجم-.

ـــ ماذا، ذاهب إلى الفتاة؟

كان صوتًا معروفًا؛ التفت:

ـــ ما باليد حيلة! إلى اللقاء، يا لوكاس.

ـــ مع السلامة؛ تسلّى قدر ما تستطيع.

سلك الطريق العمومى. مرّ بجوار ثلاثة «شاليهات» جديدة تقريبًا، من المخصصات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، بحدائقها الصغيرة البادية للعيان، والمحاطة بأسلاك معدنية. كانت تقف على باب أحدها سيارة «بويك» وضّاءة، بكرسيين، أحدهما أصفر والآخر سماوىّ. توقف للحظة ليتأمل الفرش والتابلوه وعجلة القيادة. كان بها راديو. نظر بعد ذلك، من فوق «الدّوكو» اللامع إلى الستائر المواربة للشاليه. كانت الشمس ساحقة. مشى من جديد وفصل بإصبعين ياقة القميص الملزوقة فى الجلد من جرّاء العرق الغزير؛ أرخى رباط العنق. نظر إلى أسفل، إلى الحجارة ذات الزوايا المفكوكة من الأرضية. أسيجة من الأسلاك المعدنية، ستائر خضراء، أشجار لوز. «يُباع بيض» على حائط، و«خردوات» على آخر. وصل إلى القنطرة الصغيرة التى يبدأ الطريق بعدها فى الارتفاع قليلاً؛ شاهد

على يساره قطعة ضاربة للاحمرار من النهر، ومقدمة منطقة الأشجار، وألوان الناس. وبعد ذلك ضيعة «كوتشيريتو البلباوى» الكبيرة، بأشجارها الوارفة التى تحجب رؤية النهر. الشمس المرفوضة من سور شديد البياض تُعمى العيون.

ظهر على عتبة الباب.

ـ مساء الخير.

ـ مساء الخير، يا مانولو- ردّ لوثيو-.

نظر إليه موريثيو لبرهة لاغير.

ـ أهلاً، كيف الحال؟- همهم وهو يخفض عينيه باتجاه حوض الغسيل-.

شرع فى غسيل الكئوس. توقف الآخر عند لوثيو؛ كان يمرر يده على جبهته ويستنشق الهواء بصوت مسموع. نظر إليه لوثيو.

ـ واضح، خَنْقة رباط العنق...- قال له-؛ من الطبيعى أن يتصبب المرء عرقًا.

أخرج مانولو منديلاً أبيض من الجيب العلوى للسُتْرة وأخذ يمرره داخل ياقة القميص. كان يلاحظ موريثيو.

ـ مجرد رؤيتها يصيبنى بالدّوار- استمر لوثيو-. قطعة الثياب التى لا فائدة منها البتة. إنها لا تنفع حتى لكى يشنق بها الواحد نفسه، لكونها قصيرة.

ـ عادات- ردّ مانولو-.

ـ مستلزمات حياة الحَضَر؛ «إيتيكيت» ممجوج، وينبغى نفيه.

ـ مفهوم - اتجه إلى موريثيو-. هل تتكرم حضرتك وتعطنى كوبًا كبيرًا من الماء البارد؟

رفع موريثيو عينيه.

ـ بارد؟ سيكون من نفس درجة حرارة الجو، الماء العادى.

ـ حسنًا، فليكن، الموجود...

ملأ الآخر الكوب، "مما نشربه جميعًا"، همهم وهو يضعه على طاولة البار.

ـ إيه؟ ماذا تقول؟ لم أسمعك يا سيد موريثيو. ماذا كنت تقول؟

ـ أقول إن هذا الماء هو الذى نشربه كلنا هنا. العادى. أما البارد، كما تطلب، فهو غير موجود، إلا إذا كان من القُلّة، وهو أيضًا لا

يختلف كثيرًا عن العادى. هذا بالإضافة إلى أن الثلاث التى كنت محتفظًا بها لهذا الصيف قد تهشمت الأسبوع الماضى، وأنا بصراحة لست على استعداد لقضاء الصيف كله فى شراء القُلل؛ يكفينى منها ثلاث على ما أعتقد.

ـ ولكن الأمر لا يستدعى كل هذا، يا سيد موريثيو، ما دام لم يشتك أحد هنا.

ـ لا يستدعى! لقد طلبت ماءً باردًا، لهذا أقوله لك، لكى تعرف كل ما يتعلق بهذا الخصوص. وها أنت قد سمعته، الماء هنا تبعًا لحالة الجو، وهكذا نشربه. هذه هى الحكاية. ماء بارد، لا يوجد.

ابتسم مانولو ابتسامة مفتعلة.

ـ آه منك، يا سيد موريثيو! لم يكن طلبى للماء البارد سوى مجرد قَول. مثل الجمل الجاهزة المستخدمة عادة، ألا تفهمنى؟ ترد على اللسان بهذا الشكل، ولا شىء أكثر.

ـ أنا لا أسَمّى الشىء إلا باسمه. معلوم؟ سَمّه أنت جملة جاهزة أو ما شئت، ولكننى عندما أقول ماءً باردًا فهذا يعنى أننى أريده باردًا بالفعل. أما ما عدا ذلك فبمثابة الحديث على شاكلة البُلهاء، وهذه هى الحقيقة التى لا مراء فيها.

ـ حسنًا، من الواضح أن حضرتك تريد توريطى.

ـ أنا؟ براءة من الله. وما الذى جعله يرد بخاطرك.

نظر إليه مانولو بابتسامة منطفئة.

ـ إنه واضح للعيان. لا تُنكر.

ـ يا للعته! وهل لدىّ مزاج لمثل هذا!

ـ ومنْ الذى لديه فى هذه الأمسية الحارقة!

ـ إيه؟ ربنا وحده هو الذى يعلم. لم يتضح هذا تمامًا.

ـ آه، أعتقد أن...

ـ دعك من هذا، هيا. لا داعى للاستقصاء.

ـ كما تحب حضرتك. ولكن أود أن ألفت نظرك بأنه لا داعى لأن تشغل بالك بى، أريد أن أقول إن المزاح لا يُضيرنى على الإطلاق، وإننى قادر على التسامح مع كل منْ يتسلى على حسابى، دون أن يتسبب هذا فى إزعاجى، لأننى أعرف أيضًا كيف أتسلى على حساب الغير وقتما أريد، هل تفهمنى؟

ـ يسعدنى ما تقول، أيها الفتى. الأفضل هكذا، بمعنى أن يكون لدى المرء قليل من المكر، حتى يستطيع مجابهة المواقف العصيبة الوعرة عند تعامله مع الآخرين، لأنه فى بعض الأحيان يحتاج المرء إلى لجام. أليس صحيحًا؟ ويا له من لجام! يجب أن يكون محكومًا بلجام قوى ولأطول فترة ممكنة.

اكتسى وجه مانولو بالحذر فجأة؛ تأخر قليلاً فى الردّ:

ـ (شوف)، أنا لا أحتاج ولا حتى للجام، لأننى أتجاهل المواقف الوعرة، وأجعلها تمر من تحت ساقى...

ـ صحيح؟ ينبغى أن يأخذ المرء حذْره من الاعتقاد بأنه فوق الأشياء، لأنه بالركون إلى هذا قد يجد نفسه فجأة تحت الأقدام، وهنا مكمن الخطورة.

ـ سيكون عديم الحذر إذن؛ والدنيا لا تخلو من أمثاله.

ـ ومنْ يعتقد أنه ليس عديم الحذر. هذا أيضًا! إذ يوجد منْ يعتقدون أنهم يتمتعون بذكاء لا حدود له، فى حين أنهم الأكثر بلاهة من بين الجميع، ويحملون وجوهًا تنطق بالبلادة فى اللحظة التى...

ـ إيه! المساعدة هنا!- نادى بإلحاح صوت من خارج الباب، ضاربًا بشىء ما على إفريزه.

ـ ماذا حدث؟

نظروا باتجاه عتبة الباب. كان أحد ما جالسًا على كرسىّ متحرك، وآخر بملابس سوداء يمسك بعارضة مسند الكرسى الواقف أمام باب الخان.

ـ ألن يخرج أحد، أم ماذا؟- كان الكسيح يستعجل بضربات جديدة على الخشب-.

ـ إنه كوكا ودون مارثيال- قال لوثيو-.

خرج مانولو ليمد لهما يد العون. وبعد إجراء بعض المناورات فى الكرسىّ المتحرك دخل الذى يرتدى الملابس السوداء والكسيح بين ذراعيه. كان مشوّه الخِلْقة وضئيل الحجم.

ـ أين أضع هذا؟- سأل مانولو من الخارج-.

التفت الكسيح من موقعه، فوق ذراعى دون مارثيال، تجاه الباب، وصاح:

ـ ضعه هنا، على مقربة؛ أىّ مكان تختاره (كويس).

اتجه إلى الموجودين بينما كان الآخر يُجلسه:

ـ حسنًا، ماذا جرى؟ ألا توجد نقاط هذا المساء؟ لا يُرى هنا سوى القليل من الحركة والنشاط رغم أن اليوم هو الأحد. اسمع، أريد كأس «أنيس»، وأنت، ماذا تتناول يا مارثيال؟ وهكذا، لا يوجد منافسون هذه الأمسية؟

قرّب دون مارثيال المائدة من الكرسى الذى أجلس عليه رفيقه وقال:

ـ وأنا، كونياك. ما الأخبار؟

ـ حرّ.

أدخل دون مارثيال يده فى جيب السترة وجعل النقود المعدنية تخشخش.

قال الكسيح لمانولو:

ـ لا يمكن طلب شيء منك، لأن لديك التزامات لا مفرّ منها. وبالقطع حضرتك، يا لوثيو، إيه؟

ـ لست فى حاجة إليهما- قال موريثيو-، هنالـك بالـداخل يوجـد صديقك العزيز كارميلو ومعه كلاوديو والآخرون.

ـ آه، جميل! وما الذى يمنعهم من القدوم؟ ينبغى النداء علـيهم فـى الحال.

ـ إنهم يلعبون لعبة الضفدعة فى الحديقة.

ـ لعبة الضفدعة؟ وهل هناك ضفدعة أفضل منى للعب معهـا؟ أنـا هنا الضفدعة الوحيدة الحقيقية. لا توجد ضفادع سواى. هل يمكن أن يكون المرء أكثر من هذا؟ يبدو وكأننى قد خرجت للتـوّ مـن بِركة- كان يضحك-.

ـ الصخب الذى يُحدثه نصف الرجل هذا لا يعادله صـخب- قـال دون مارثيال وهو يحمل إليه الكأس الذى انتهـى موريثيـو مـن إعداده-. هل رأيت حالة مشابهة؟ خذ، هيا، خذ لنـرى إذا كنـت ستسكت قليلاً بهذا أو تقطع النَّفَس.

ـ أيها الدمويّ...!- أجابه الكسيح وهو يرمى على بنطاله بكـرات من الفُتات.

ـ أنت الأكثر سوءًا من مُفتقر بعد غنى، يا كوكا/ كونيا. ولأنـــه لا يمكن ضربك...- أومأ بحركة تهديد من يـــده-. تتـــدرع بهـــذا وتحتمى به، بحالة نصف الرجل التى أنت عليها. منْ ستكون لديه الشجاعة لضرب ضفدعة، كما أطلقت على نفسك منذ قليل؟

ـ حسنًا، لندع كوكا/كونيا هذا.

ضحك دون مارثيال وهو يعلّق السترة على مسند الكرسى.

ـ ها هو أماكم: يضع لنفسه لقبا (اسم شهرة). وبعـــد ذلـــك تنقلـــب سحنته ويتكدر لو ناداه أحد به. أرأيت شيئًا مماثلاً؟

جلس دون مارثيال فى مواجهة الكسيح. سأل مانولو.

ـ آه، هل هو الذى قام باختراع هذا اللقب لنفسه؟ كيف خطر هذا بباله؟

ـ ألا تعرف؟ إنه يفعل أشياء لا يصدقها عقل. لا شىء، ذات يـــوم، فى بداية الصيف الماضى على ما يبدو لي، كـــان الرجـــل فـــى الطريق العمومى، على هذا الكرسى الذى يبلى من جرّاء الطواف بالعالم، ووجد نفسه إلى جوار عربة صغيرة من عربات الكوكـــا/ كولا تلك، أتدرون ماذا أقصد؟، العربات الملوّنة المكتوب عليهـــا

بحروف كبيرة اسم هذا المشروب... المهم، إنها إحدى هذه العربات. ولما أصبح كرسيّه بمحاذاة العربة الأخرى، وملاصقًا لها، التفت نحوى وإلى آخر كان فى صحبتنا وقال دون مقدمات: "إذا كانت هذه كوكا/ كولا، فأنا على أقل تقدير كوكا/ كونيا". لا تتخيل حضرتك الضحك الذى ضحكناه تلك الأمسية... المفارقة تكمن فى أن لقبه الحقيقى هو «كوكا»؛ إنها مصادفة مزدوجة. ما رأيك؟

ـ إنه المزاح، روح الدعابة والمزاح– أمّن مانولو على كلامه–.

ـ حسنًا، ولكنه بعد مضى عدة أيام على تلك الواقعة صعد إلى رأسه ألا نناديه بهذا اللقب، (شُفت). وهكذا لا يمكن للمرء معه الاهتداء إلى أىّ طريق يسلك.

ـ لقد أصبح الآن مستهلكًا. تخترعون لي لقبًا آخر أو تنادوننى باسمى الأول (الاسم العلم). هيا، والآن طِرْ طيرانًا لتنادى على كارميلو. أسرع. ليمثل هنا أمام هذه المائدة، ولكن حالاً. هيا الآن تحرك. أمسكه من أذنه وأحضره.

كان يدفع دون مارثيال بالمائدة الموجودة بينهما، لإجباره على النهوض.

ـ أنا ذاهب يا رجل، أنا ذاهب. تعرف أننى هنا من أجل تنفيذ أوامرك. أنت تأمر، وأنا أطيع.

نهض وصبّ الكأس فى حلْقه دفعة واحدة ثم اتجه إلى الحديقة. كان كوكا/كونيا يصيح مشيعًا له:

ـ ولا تترك أحدًا هناك.

ـ بالتأكيد السيد «سنيدر» هناك أيضًا – قال موريثيو–. إنه مغرم أيضًا بلعب الدومينو. ربما يتملكه الحماس كذلك.

ـ آه، صحيح؟ أوه، هذا! إنه مدمن لعب. يعجبنى حقًا اللعب مع السيد «سنيدر». خلاص. المباراة جاهزة.

كان أولاد أوكانيا ينظرون إلى وجهى خوستينا والجزار الطويل.

ـ لقد فازت هذه– قال خوانيتو–.

التفتت خوستينا إلى بيتريتا وانحنت لتعطيها قُبلة.

ـ وهل تعجبك أيضًا هذه اللعبة، يا (أمّورة)؟ كنت تريدين اللعب؟

ـ أنت تفوزين دائمًا، أليس كذلك؟– قالت لها الطفلة–.

كانت خوستينا تعدّل لها رقبة الفستان وتلتقط من على شعرها ورقة لبلاب جافة.

– لا، يا حياتى– ردت عليها–؛ أخسر أيضًا، فى بعض الأحيان.

وللتنافس من أجل جمع البِلْى من على أرض الحديقة كان خوانيتو وأماديو يتعاركان، ويحتك، أثناء العراك، ظهراهما العاريان والمحمرّان بفعل أشعة الشمس بالتعريشة. كان أثوفرى يقفز حوليهما، محركًا ذيله؛ معربًا عن رغبته فى اللعب معهما.

– الفتاة تلعب وكأنها ملاك– قالت بيترا من على المائدة.

وافقها سيرخيو:

– تلعب بإتقان.

كان موريثيو قد أحضر الكئوس والقهوة.

– ها هى أمامك لعبة من الألعاب الموجودة على الدوام– علّق فيليب، لا يخبو بريقها ولا تنتهى موضتها.

– واضح، إنها ليست مثل كرة القدم والألعاب التافهة والعشوائية الموجودة هذه الأيام، والتى تنتشر كالحمى بين الشباب، ولكنها سرعان ما تختفى فجأة فى يوم لا يخطر لأحد على بال.

ـــ وهى مضيعة كبيرة للوقت ونموذج سيئ للصبية– قالت بيترا–. إنها تُفسد النّشء.

ـــ ألا تتذكر، يا سيرخيو، لعبة «اليويو» التى كانت موجودة قبل بداية الحرب الأهلية بقليل؟– سأل فيليب أخيه–.

ـــ نعم أتذكر، نعم.

ـــ كانت تلك اللعبة أيضًا من الاختراعات التافهة والمثيرة للسخرية من جميع النواحى. الناس كلها كانت مشغولة باليويو السعيد وتقضى النهار بطوله فى ضربه إلى أعلى وإلى أسفل.

قال سيرخيو:

ـــ هذا لأن المجتمع مشوّش، ومهيأ للإصابة بعدوى أىّ شىء يظهر، وبمجرد أن يبدأ واحد يقلده الآخرون مثل الكراكىّ(*).

ـــ لأن الناس فى الحَضَر موحولون الآن إلى الأذقان بأشياء كثيرة، ولذا فبمجرد ظهور شىء جديد، ولو فى منتهى البساطة والسطحية، تجدهم ينكبون عليه لكى يسأموه أيضًا بعد قليل.

(*) الكراكىّ (مفردها كركىّ) وهو طائر كبير أغبر اللون، طويل العنق والرجلين، أبتر الذّنب، قليل اللحم، يأوى إلى الماء أحيانًا – المترجم–.

ـ مفهوم. أتعرف من تذكرت الآن وكان مهووسًا أيضًا بلعبة الضفدعة؟- قال سيرخيو-. ألا تتذكر ذلك الصديق، الفتى الأشقر، الذى كان ملازمًا لي، أيام العزوبية، عندما كنتم تعيشون فى شارع أجيلا؟

ـ نعم، أعرف منْ تقصد. كان أيضًا وكيلاً تجاريًا لسلعة أخرى؛ انتظر... وكيلاً للكولونيا أو شيئًا من هذا القبيل.

ـ للعطور. هو بعينه. يُسمى ناتاليو. كان يلعب أيضًا هذه اللعبة، ولكن بطريقة مدهشة. كان يَدَّعى، وإن كنت لم أشاهده يفعل ذلك، بأنه يتمكن من وضع البلْيات العشر فى فم الضفدعة. قد يكون مبالغًا فيما يقول؛ المهم أنه كان يؤكد على هذا، وأنا بنفسى تفرجت عليه، ورغم أنه لم يتمكن أمامى من وضْع البلْيات العشر إلا أنه لم يكن يجعل، على الأقل، أحدًا يتفوق عليه؛ هذا مؤكد.

ـ نعم، يا رجل، لقد قابلت ناتاليو (بتاعك ده) منذ وقت ليس ببعيد وسلّمت عليه. التقيته مؤخرًا مرتين على الأقل. المرة الأخيرة كانت فى الأسبوع المقدس هذا العام، عندما كنتما فى برشلونة.

ـ أنا مشتاق بالفعل، يا رجل، لمعرفة أحواله وكيف تمضى به الحياة. هل تحدثت معه؟

ـ أبدًا؛ أهلاً ومع السلامة لا غير. الشيء الوحيد الذى يمكن إخبارك به هو أن الرجل كان يبدو مثل ماركيز، من الهيئة التى كان عليها.

ـ حسن المظهر والثياب؟

ـ متوسط الحال. الانطباع الذى خرجت به، وبصراحة، هو أنه من أولئك الذين يحرصون على السير فى الشارع بملابس أنيقة، بينما يتضورون جوعًا فى البيت. هذا هو الانطباع الذى خرجت به من مجرد رؤيته.

ـ ربما تكون أحواله قد انتعشت، يا رجل.

ـ لا، يا سيدى. هذا الشيء تتم ملاحظته فى الحال؛ من الوهلة الأولى يستطيع المرء التمييز بين من يرتدى الثياب الفاخرة لأنه فى بحبوحة ورغد من العيش، من الذى يبذل تضحيات حقيقية ليتمكن من ارتدائها بقصد الظهور بمستوى أفضل من مستواه المادى ومن الطبقة التى ينتمى إليها.

ـ تريد أن تُفهمنى أنك أيضًا قادر على معرفة كل شىء فى لحظة- قال سيرخيو-. كيف يتسنى لك معرفة دواخل الناس بمجرد تحيتهم فى الشارع؟

ـ يا رجل، ألا ترى أن قضاء اليوم بطوله فى نقل أشخاص بالسيارة كفيل بجعل المرء قادرًا على هتك المستور وأن يكون مزودًا بعين فاحصة تنفذ إلى الخبايا وتقف على أدق التفاصيل؟ صدقنى لو قلت لك إن ناتاليو هذا لا يكسب ولا حتى ربع ما يتظاهر بكسبه.

ـ حسنًا، حتى لو كان الأمر كما تقول، فإن ما يفعله الرجل المسكين له ما يبرره، وليس صادرًا عن غواية ولا ضلال. لا تحسب أن تصرفه هذا ينطوى على غرور أو شغف بالتحلى بالملابس. الحكاية وما فيها أنه يعرف أن حُسْن المظهر يعتبر من اللوازم التى لا غنى عنها لكى يشق لنفسه طريقًا فى الحياة. وهو مطلوب بشدة فى مهنتنا أكثر من أية مهنة أخرى.

ـ التمثيل التجارى...؟

ـ آه، لا يخامرك الشك فى ذلك. يبدو ضربًا من العته ولكنه الواقع، أنك إذا دخلت أىّ مكان بمنتج جديد وكنت مرتديًا ملابس أنيقة، ومع (شوية) كلام معسول وبشاشة وجه وتظاهر بالأهمية (والذى منه)، تفهم ما أقصده، فإنهم يحفلون بك أضعافًا مضاعفة، وتبيع من منتجك كميات أكثر بكثير مما إذا مثلت هناك (مبهدل) الثياب، وعلى أىّ وضع والسلام، وفاتحتهم دون مقدمات فى الموضوع الذى يهمك.

ـ لو كانت المسألة كما تقول فأنا لا أرى فيها أىّ وجه من وجوه الاستحسان. ما علاقة المظهر بالبيع والشراء؟

ـ التجارة هى هكذا، يا فيليب، فى عالم اليوم. ماذا نفعل حيالها؟. لا أنت ولا أنا نستطيع إصلاح هذا الوضْع. وهكذا فليس أمام المرء من وسيلة سوى التكيف مع واقع الحياة والاضطرار لفعل الأشياء بالكيفية التى تفرضها الظروف.

ـ ولكن هذا ليس له مبرر...

ـ أنا أعرف هذا، يا فيليب، وأتفق معك. نعرف أن المرء بشخصه وأن قيمتك هى نفسها سواء كنت بهذه الثياب أو بغيرها، ولا أختلف معك فى أن المنتج هو نفسه أيضًا وأنه لو كان جيدًا فإنك لن تزيده جوْدة بالملابس الأنيقة، ولن تجعله أيضًا جيدًا لو كان رديئًا. ولكن هذا ما نقوله، أنت وأنا، ونحن جالسان هنا الآن، ندخن السيجار ونتبادل الحديث العائلى الخاص. ولكن اذهب، وتهاون ولو قليلاً هناك، وستجد أن السفينة سوف تغرق بك فى غضون أيام ثلاثة لا غير. أفِق يا فيليب، فهذه ليست سوى الحقيقة. المظهر هو الذى يأمر وينهى فى أيامنا هذه، وما ينطبق على التجارة ينطبق أيضًا على كل شئون الحياة البشرية.

ـ حسنًا، ولكن لا داعى أيضًا للمبالغة، ففى كثير من الأماكن ما زالت قيمة المرء تتمثل فى مَخْبره لا فى مظهره. لا أنازعك الرأى فى التجارة لأنك أعرف بها منى. أما فى غيرها، فقف عندك، لا تحاول إقناعى. من الشطط تعميم النموذج الواحد على الأشياء كلها.

ـ نعم، يا رجل، نعم، فى كل شىء تقريبًا. فى كل شىء. لا أدرى من أين استقيت الفكرة العالقة برأسك. أليس صحيحًا أنك لو تكاسلت يومين عن تلميع السيارة بالفوطة الصفراء، وعلى مدار الساعة، فلن تُحَمِّل ولا حتى ربع ما تحمله عادة من الزبائن؟ أو قارن نفسك، مثلاً، بالذين لديهم الآن تلك السيارات الجديدة. قف إلى جوار أحدهم (وشوف) منْ سيقوم بعمل مشاوير أكثر.

تدخلت بيترا، مؤيدة وجهة نظر سلفها:

ـ أرأيت؟ طبعًا! لا فائدة، يا سيرخيو، لا فائدة؛ لا جدوى من النقاش معه. لن تجعله ينزل عما هو فى دماغه. لقد قلت له هذا، وأكثر منه، آلاف المرات! منذ خمس سنوات على الأقل وأنا أقول له: "لنجتهد، يا فيليب، وندخر بعض الشىء، لكى تطلب سيارة

أخرى، من سيارات الرّينو الممتازة التى يقدمونها الآن بتسهيلات كبيرة، لدرجة أن المرء لا يكاد يحس بأقساطها..."، لا أدرى كم من المرات كررتِ هذا عليه حتى زهقت، ولكنه يزداد عنادًا، ويتمسك أكثر بالسيارة التى معه، إلى أن يأتى اليوم الذى تتفكك فيه إلى قطع بينما يسير بها فى شارع «جران بيّا». وبعد ذلك، أخبرنى، يا عزيزى سيرخيو، ماذا سنفعل بعدها؛ من أين سيحصل هؤلاء الأطفال على قوتهم يوم أن تتأبى هذه الخُرْدة على المشى وتقول لن أتقدم من هنا خطوة واحدة إلى الأمام. وكل هذا بسبب (نشوفية) الدماغ، صدقنى. هيا، من الواضح أنه من الضرورى... من غير مدخرات ولا أىّ شىء للمستقبل!

ــ حسنًا، يا بنتى؛ ولكن هذا لا علاقة له بموضوع حديثنا. لا أدرى، حقيقة، ما هو الدافع لكل ما تذكرينه الآن!

ــ ليكن ما يكون! يبدو كذبًا عدم تقديرك للمسئولية وعدم تفكيرك فى الغد ولديك من الأبناء أربعة. أنا لا أخترع شيئًا، ولست وحدى التى تقول هذا الكلام، بل إن أخاك أيضًا يشاركنى الرأى.

ــ حسنًا، يا امرأة، أريد أن أعرف فى ماذا يشاركك أخى، إذا كان سيرخيو لم يتلفظ بكلمة فى الموضوع؟ لنرى إذا كنت على دراية

ولو قليلة بفحوى الحديث، حتى تقحمى نفسك فيه وتجتزئى منه ما توظفينه لصالحك. أنت لا تفعلين سوى انتظار الكلمة المناسبة لكى تبنين عليها ما تريدين، وتشوشين علينا الحديث.

ـ ولديك الشجاعة...! هل تقدر الآن أن تقول فى وجهى إن أخاك لم يتحدث عن سيارات «الرّينو» الجديدة؟ وإن كنت أعرف مقدمًا إن (مفيش فايدة). هل تعرف نفسك؟ أنت لا تسمع إلا ما يهمك سماعه، ولأننى التى تخبرك بالحقيقة، تعتبر كلامى تغييرًا لمجرى الحديث. أنا أعرف جيدًا، أعرفك، يا بنى، أعرفك حق المعرفة.

ـ لا داعى الآن (للزعل) من أجل أمر تافه، يا امرأة– تدخل سيرخيو–.

ـ ليس تافها يا سلفى. لسوء الحظ ليس تافها على الإطلاق. (شوف) واحكم! أنا أتقلب على جمر النار بسبب هذا الموضوع. لا يغمض لي جفن ليلاً ولا أستريح كلما تخيلت اليوم الذى تنتهى فيه بالكامل صلاحية هذا الحنطور العتيق. لا أريد ولا حتى التفكير فيه...– غطّت عينيها بالكفيّن، فى إيماءة مستغلقة، وكأنها تريد إخفاء الطّالع المشئوم للمستقبل–. إن ما ينفقه، يومًا بعد يوم، فى الإصلاح فقط، (خد بالك)، يكفى لسداد ثمن الرّينو كاملاً. كما تسمع.

ـــ ولكن، هل تفهمين شيئًا فى السيارات، يا امرأة، حتى تتكلمى كثيرًا كما تتكلمين؟ تفهمين شيئًا؟ انطقى. هل ستعلميننى، أنا، الميكانيكا الآن؟

ـــ الميكانيكا، لا. لا أدعى هذا، بل أتحدث عن المسئولية وقراءة رب الأسرة للمستقبل. هذا نعم. لابد أن يكونا موضع اهتمامك وشغلك الشاغل، وأنت لست هكذا.

التفت فيليب إلى أخيه:

ـــ اثنا عشر عامًا، ما قولك؟، وأنا أصارع بهذه السيارة نفسها، لكى يأتى اليوم من يرشدنى إلى ما يجب أن أفعله حيالها.

ـــ ألا تلاحظ أنك أنت الذى يقوم بتغيير مجرى الحديث؟ هل عرفت الآن؟ انظر كيف تلوذ بالفرار فى الحال وتشرد بعيدًا عندما يحدثونك بما لا تود سماعه. لا فائدة، يا سيرخيو، كما ترى؛ لا توجد طريقة للتعامل مع هذا الرجل، لا توجد طريقة... لا تحصل منه على شىء محدد. أخبرينى، أنت يا نينيتا، هل لديه حق فى هذا– كانت تهز رأسها من جهة إلى أخرى–، وهناك أربعة أولاد فى البيت... أنا...

قالت نينيتا:

ـ ما تقوله بيترا صحيح، يا فيليب. من الضرورى توفير بعض الضمانات للمستقبل. يجب أن تشترى عربة جديدة. سوف تسعد بها بالتأكيد وتريحك، ولن تأسف بعد ذلك...

سُمع صوت فيليسيتا:

ـ لا تبكى يا أماه، لماذا تبكين؟، هيا...

كانت بيترا تجفف عينيها بمنديل؛ رفعت رأسها:

ـ أنا لا أبكى، يا بنتى. ماذا سيبكينى؟ أبوك هو... حسنًا، لا شىء؛ (مفيش حاجة).

نظرت بعينيها المخمرّتين جهة الحديقة.

ـ الصبر جميل- قال سيرخيو بصوت خفيض-.

كان أوكانيا يتململ على كرسيّه، ضجِرا.

أخذت نينيتا يد سلفتها وضمتها بين يديها فوق المائدة.

ظهر الآن دون مارثيال على باب الدهليز. قدّم التحية للجالسين على المائدة بهزّة موجزة من رأسه. كان أولاد أوكانيا يتمرغون فى التراب من أجل التقاط البِلْى.

ـ أتعرفين أننى اليد اليمنى لوالدي؟- قالت بيتريتا وهى تحتضن ساقى خوستينا-.

ـ ومن قال لك هذا؟

ـ أبى.

أمسك دون مارثيال كارميلو من رقبته وسحبه نحو البيت. توقف هنيهه لدى مروره إلى جوار خوستينا وأسرّ فى أذنها بصوت نصف مكتوم:

ـ خطيبك موجود هناك بالداخل. لا أدرى إذا كنت تعرفين أم لا.

ألقت خوستينا بنظرة سريعة على باب الدهليز، ثم أجابت قائلة:

ـ لينتظر إذن.

كان فيليب أوكانيا يلعب بالكأس الفارغ: يضعه على قاعدته ثم يقلبه على فوّهته. أطفأ السيجار فى رجل الكرسى. كان أثوفرى يؤدى بعض الحركات، يقفز ويأخذ وضع الاستعداد للعب أمام أطفال أوكانيا الذين لا يعيروه اهتمامًا. وأخيرًا وضع أماميتيه على ظهر أماديو العارى.

ـــ أيها ال ك ك ل ل ب...!

شرع الأخوان فى الجرى وراء الكلب الذى بادر بالهرب؛ بينمـا كانت بيتريتا تضرب، وهى تحتضن سـاقى خوسـتينا، الأرض بقدميها، وتقول لها متعجلة:

ـــ احملينى، احملينى...

حملتها خوستينا بين ذراعيها، وأخذت بيتريتا تنظر، من علُ، إلى أخويها اللذين كانا يذرعان الحديقة جيئة وذهابا. كانـت الطفلـة تضحك، محركة رأسها حركات مباغتـة علـى جـانبى وجـه خوستينا، لتتابع السباق، ووثبات وتمويهات أثوفرى الذى يلعب مع خوانيتو وأماديو.

ـــ سوف تنطحيننى، يا (عكروتة).

قال سيرخيو:

ـــ لم يكن يومًا سيئًا، على أىّ حال. وهذه التعريشة، تبـدو ضـئيلة، ولكنها تحمى كثيراً من الشمس.

لم يرد عليه أحد. كانت نينيتا تتحسس طرف تنّورة سلفتها.

ـــ هل هذه هى التنّورة التى قمتِ بتفصيلها؟

ـــ نعم، هى.

ـ آه، إنها جميلة، إيه؟

كان الجزّار كلاوديو على وشك رمى البِلْى، ولكنه توقف عندما مرّ أمامه الكلب والطفلان.

ـ نادِ على هذه الدويبة، أنت. لا تخربان ما نفعله الآن، بالاستعانة بالكلب.

ـ أثوفرى، تعال هنا. اهدأ، يا أثوفرى- صاح فيه إلتشاماريس-.

ـ ألا تريان أنهم يلعبون؟- قالت من على المائدة زوجة أوكانيا-. لماذا المضايقة؟ لماذا تقحمان أنفسكما دائمًا؟ تعاليا هنا حالاً.

أطاع أماديو وخوانيتو والدتهما؛ وأثوفرى صاحبه. وبعد ذلك أخذا ينظران إلى الكلب، الممدد إلى جوار اللبلاب، على الطرف الآخر من الحديقة.

كانت فاوستينا واقفة إلى جوار المائدة، تجفف الملاعق والشوّك بفوطة ثم تضعهم على المشمّع، أمام يدىّ شنيدر. كان جالسًا، والقبعة المرنة من القش المتسخ فوق ساقيه.

ـ أعدك بالمرور لرؤيتها هذا الأسبوع- قالت فاوستينا-، يوم الخميس على أقصى تقدير. فى أول فرصة سانحة.

كان قشر حبتين أو ثلاث من التين ما زال مُلقى على المشمّع.

ـ المسكينة «فراى بيرتا» عجوز- قال شنّيدر-؛ ولا تقوى على الخروج كثيرًا. أنا أشدّ منها قوة.

ـ تبدو حضرتك وكأنك فى ريعان الشباب.

ـ أنا آكل فاكهتى، وهى صحية لجسدى- كان يضحك ضحكته الآلية الموجزة-. ولذا أهدى منها لحضرتك.

ـ آه، يا سيد سنيدر، علىّ وعلى (اللى) جرى لي! إن فاكهتك، ودون بخسها قدرها، لا تستطيع، لا هى ولا غيرها، أن تجلعنى أشعر بالتحسن. منذ ثلاث سنوات وأنا أجهل معنى الصحة.

توقفت، وأنزلت الفوطة حتى خصرها، لتهز رأسها هزّات حانية. تنهدت بعد ذلك وأخذت ملاعق وشوك أخرى من حوض الغسيل.

ـ يجب أن تعيشى حضرتك، يا سيدة فاوستينا، إلى سنّ التسعين- قال شنّيدر، وأصابع يديه ممدودة كلها-. هل تسمحين لي بتدخين سيجارة؟

ـــ لا داعى لأن تطلب. إذنك معك.

ـــ شكرًا جزيلاً.

فتش عن علبة الدخان فى الجيب الداخلى للسترة.

ـــ وهكذا فإنها تبقى وحيدة فى البيت أيام الآحاد. أنا آسفة لأن ضغط العمل يصادف أيام الآحاد دائمًا، وإلا كنت اقتربت عن طيب خاطر لتمضية بعض الوقت معها.

ـــ أوه، إنها تخيط، وتقرأ وتتأمل– كان يلف السيجارة بعناية شديدة–. إنها جالسة فى هدوء على الكرسى وتخيط. كله ترقيع– رفع ذراعه من على المشمع لكى يُظهر كمّ سترته، المتآكل والمرقع–. لا نشترى جديدًا حتى يوافينا الأجل. خياطة، خياطة، خياطة (وبس)– كان يضرب غرزًا وهمية فى الهواء–. ملابس قديمة مثل شنَيدر الطاعن فى السنّ، ومثل الزوجة العجوز. الملابس مستمرة حتى يأتى الموت. نحن لا ننفق مالاً فى شراء ملابس: خياطة، خياطة، خياطة (وبس).

التقطت فاوستينا قشر التين من على المائدة ورمته من النافذة الصغيرة الموجودة فوق الفرن. وصل من على الجانب الآخر هرج ومرج الدجاج.

ـ نعم، لسنا فى حاجة، نحن العجائز، إلى التظاهر.

فتحت غطاء غلاّية كانت على النار، وأفرغت محتواهــا، مــن خلال بزبوز القهوة، فى فنجان. وضعته بعد ذلك أمام شـنَيدر علــى المشمع، وبجواره طبق وسكر وملعقة صغيرة.

ـ قهوة برتغالية– قالت له–، لعلها تعجبك.

ـ «دانك شون»(*)– أجاب بسرعة–. قهوة السيدة فاوستينا لذيذة دائمًا.

كان يضحك وهو يضيف السكر. جلست فاوستينا فى مواجهتــه وذراعاها معقوفان فوق المشمع. قلّب شنَيدر السكر وحمل ملعقة قهوة إلى فمه.

ـ كيف الحال؟

تذوق شنَيدر بلسانه. حرّك الملعقة ثلاث مرات فى الهواء وكأنها عصا مايسترو، وهو يقول:

ـ رائعة. رائعة. رائعة.

ـ يسعدنى أنها أعجبتك. لا تخبر زوجى ولو بكلمة عن هــذا؛ لقــد اشتريتها من وراء ظهره، ولو عرف سينتهى أمرها فى يومين.

(*) «دانك شون» كلمتان ألمانيتان، معناهما: شكرًا جزيلاً – المترجم–.

رفعت عينيها. كان كارميلو ودون مارثيال يدخلان المطبخ:

ـ مساء الخير.

التفت شنّيدر من على الكرسى باتجاه الباب:

ـ أوه، صديقاى العزيزان. تسعدنى رؤيتكما كثيرًا. هل أنتما بخير؟ هل أنتما بخير؟

كان يحييهما بانحناءات قصيرة من رأسه وهو يبتسم لكليهما.

ـ كيف حالك يا سيد سنيدر؟- قال دون مارثيال-. أنت جالس هنا لاحتساء قهوتك، إيه؟ يبدو أنهم يعاملونك فى هذا البيت أحسن معاملة؛ لا يحق لك الشكوى بعد ذلك.

ـ أوه، لا، لا؛ إطلاقًا- وكان يضحك-.

وضع بعد ذلك الإصبع السبّابة على صدر دون مارثيال وأضاف وهو ينقر بإصبعه:

ـ أنا قادر على التكهن بسبب مجيئك إلى هنا.

التفت من جديد وهو يضحك إلى الفنجان الذى ينبعث منه البخار.

ـ يعرف جيدًا السبب. انظر إلى السعادة البادية على وجهه. ولكن لا تستعجل؛ اشرب قهوتك على مهل حتى لا تكتوى بسخونتها.

كان كارميلو يبتسم دون أن يتكلم. قالت فاوستينا:

ـ لقد جئتما وقلبتما لي حاله رأسًا على عقب بهذه اللعبة السعيدة، ولا توجد وسيلة الآن لجعله يشرب القهوة فى طمأنينة.

ألقى شنَيدر محتوى الفنجان فى حلقه دفعة واحدة ثم نهض قائلاً:

ـ السبب فى مجيئكما هو استدعائى لمعركة الدومينو. وأنا جاهز؛ عندما تريدان.

أخذ القبعة والتفت إلى فاوستينا بتحية موقرة:

ـ سيدة فاوستينا، أنا ممتن لقهوتك.

أشار إلى الباب بيده الممدودة، داعيًا إيّاهما للمرور، بطريقة احتفالية.

ـ حضرتك أولاً– قال له دون مارثيال–.

خرج ثلاثتهم من المطبخ. صاح كوكا/كونيا عندما رآهم قادمين:

ـ ها هى الأوراق وها هو لوح تسجيل النقاط. كيف الحال، يا سيد سنَيدر؟ هل أنت مستعد للنزال؟

ـ على أتم الاستعداد- أجابه-.

يلامس الجزء العلوى من صدر كوكا/كونيا حافة الرخام، وتطل بالكاد كتفاه من أعلى المنضدة، بتلك الرأس الخالية من رقبة والمدمجة فى عنق القفص الصدرى. ذراعاه يعومان فوق الرخام لتقليب أوراق الدومينو.

ـ دخل شخص يرتدى (عفريته) زرقاء مشحّمة، وجبهته ترشح عرقًا. ألقى بالتحية.

ـ اليوم أيضًا؟- سأله لوثيو-.

ـ اليوم أيضًا يا سيد لوثيو؛ حتى فى أيام الآحاد. انتهيت حالاً من ركْن عربة النقل.

شنَيدر يزامل دون مارثيال فى اللعب.

ـ اجلس إلى جوارى، يا كارميلو- قال كوكا/كونيا-. سترى ماذا سنفعل بهذين.

حكّ مانولو نعل حذائه بالأرضية الأسمنتية ثم قال لصاحب الخان:

ـ بعد إذنك، سوف أدخل.

ـ حسنًا، يا رجل؛ افعل ما يحلو لك.

عندما دخل مانولو، قال موريثيو:

ـ يا له من عنصر!

ـ مرحى، (إنت شايل الفتى على دماغك وزاعق). هذا أمر شائع ومعلوم. (مفيش حد بيطيق صهره، لله فلله). حتى لو كان أطيب من القديس أنطونيو.

ـ (بلاش) سان أنطونيو! بنى آدم سمج. تكلفه وتظاهره بما ليس فيه أطول من هنا إلى «ليما»(*). أقسم أننى لا أطيق رؤيته أمامى، بهذا الخطِم الجبس الذى يستعرض به الأندلسى(**).

ـ ستكون شاكرًا وممتنًا له- قال السائق- يوم أن ينجبان لك حفيدًا وتراه يجرى هنا أمامك.

(*) «ليما» هى عاصمة جمهورية «بيرو» بأمريكا الجنوبية . وطول المسافة هنا كناية عن شدة التكلف والحذلقة – المترجم-.

(**) الكلمة فى النص الإسبانى هى (gacho)، وهى لقب تحقيرى يطلقه الغجر على أهل الأندلس- المترجم-.

قدّم له موريثيو كأسًا:

ـ هنا؟ وبما ستكون عليه هذه الخليقة، والتى ستحمل بالتأكيد صفات الأب والقليل النادر من الجد. يا لها عندئذ من جوهرة! من يعرف!

ـ لقد وصل سواد قلبك إلى حدّ بغضك مقدمًا لخليقة مسكينة لم توضع بذرتها بعد.

كان «الدّبش» من نصيب دون مارثيال.

ـ الدّبش نازل- قال وهو يضعه على المائدة بإيماءة قرف وكأنه يضع صرصورًا-.

كان كوكا/كونيا يتفحص أوراقه:

ـ الردّ جاهز حالاً.

كان شنّيدر يضع أوراقه فى هدوء ورقّة، بينما يخبط كوكا/كونيا أوراقه على المائدة وكأنها طلقات بندقية.

ـ المتين قادم- صاح بعد ذلك-.

ـ ولكن، متانة ماذا؟- قال دون مارثيال-. سوف تودى بهذه الضربات حتى بمتانة البيت الذى نجلس فيه. أليس الأمر سواء بالنسبة لك لو خففت من وقع ضرباتك؟

ـ وكيف ستكون نفسها؟ الورقة التى تطرقع جيدًا تساوى ضعف قيمتها. معنوياتكما تنهار، ولذلك تحتجان.

ضحك شنَيدر ووضع ورقته بتحفظ.

ـ لا تضحك، سأجعلك الآن تطلب الفَوَات(*)، فى الدَّوْر القادم.

ـ أشك فى هذا- أجاب الآخر متفحصًا أوراقه-. لا أعتقد أننى سأطلب الفَوات.

ـ سترى.

كان كارميلو يتسلى بالنظر إلى كوكا/كونيا، وكأنه فى غاية الرضى والسرور من مزاملته فى المباراة. ولكنه عندما أطبق بعد ذلك على الورقة بيده ولم ينزل بها، انفجر فيه كوكا/كونيا صارخًا:

ـ يا (دى) المصيبة! لقد ارتكبت خطأ شنيعًا، يا مهجة قلبى. فى ماذا كنت تفكر؟ (مفيش) عقل! إذا كنت تراهما على فيض الكريم، اقفل عندئذ بالورقة السابعة، مهما كانت العواقب، ولا تفتح لهما

(*) يطلب الفَوات فى الدومينو: أىَ يُحيل اللعب إلى منْ يليه فى الدور لعدم وجود ورقة مناسبة للنزول بها – المترجم-.

اللعب مرة أخرى. فى ماذا تحتاج الورقة السابعة ذات النقاط الأربع؟ اللهم إلا إذا كنت محتفظًا بها للدورة القادمة... ما كل هذا الذكاء! تطلب الفَوات! يا فضيحتى! طاعون يلمّك...!

ـ إيه، أنت، كفاك- قاطعه دون مارثيال-. حذار لأنك تورد نفسك موارد الهلاك. على ماذا توجه السُّباب لكارميلو؟ أنت مثل النساء اللواتى يتطاولن دومًا على خلق الله جميعًا، اعتمادًا على ضعفهن. إنهن يستمدن القوة بالركون إلى هذا الضعف. أنت هكذا. تتجرأ على توبيخه لأنك تعرف أنه لن يُقدم على ضربك، لأنك ضفدعة منتفخة لا تتحمل ولا حتى نصف صفعة.

ـ ضفدعة، ضفدعةٌ! هزّ الأوراق واسكت، يا وكيل الأعمال! أنا ضفدعة (وبس) ولكنك ضفدع جبليّ منحول؛ تعرف ما أعنيه.

ـ (هُسّ)! لا تقحم نفسك فى المهنة. تعرف أننى لا أحب (الهزار) فى هذا الشأن الخاص.

ـ هيا، أنا قادم- قاطعه كوكا/كونيا-، بالخمسة!

ضرب الرخام بالورقة ضربة جافة.

ـ وماذا عن حفل زفافكما، يا ميجيل؟- سأل سيبستيان-.

كان ميجيل ممددًا، وساعده الأيمن فوق جفنيه المطبقين؛ قال:

ـ لا أدرى. لا تحدثنى عن حفلات زفاف الآن. اليوم عطلة.

ـ أنت بتدلّع. لا أدرى ما المشكلة التى تواجهكما. كنا نريد أن نفعل مثلكما: أنت وخطيبتك.

ـ هيهات! لا تظن أن المسألة فى غاية البساطة.

ـ يعتمد هذا على الموقف الذى تتبناه...

ـ هذا لا يعنى شيئًا، يا سيبس. هناك عوامل ينبغى أن يعمل المرء لها حسابًا. أنا لا أعيش بمفردى، وعندما يكونون معتادين فى البيت على تلقى راتبى الشهرى للمساهمة فى النفقات، فإنك تصعّب عليهم الحياة لو جعلتهم يرضخون لفقدانه بين عشية وضحاها. هذا بالإضافة إلى تعقيدات أخرى، لا أدرى كنهها، إنها ورْطة.

ـ رغم أننى لا أود إقحام نفسى أو التدخل في حياة أحد، لكننى سأصارحك بالحقيقة يا فتى: أعتقد أن المرء من حقه فى لحظة معينة الزواج على أية حال. اللهم إلا إذا كانت لديه مسئوليات

جسيمة، مثل الإنفاق على مَرْضَى أو شيء من هذا القبيل. أما إذا كانت الحكاية تتعلق فقط بتعريضهم لضيق أكثر قليلاً، وأعني الجانب المادى، فيجب عليه عندئذ الحسم فى اتخاذ القرار، دون تردد أو مماحكة. تقول إنك ستقطع عنهم راتبًا يعملون حسابهم عليه إلى يومنا هذا، وإيه يعنى؟ الكل له الحق فى الحياة. ومن جهة أخرى، فإنك برحيلك تكون قد أنقصت فمًا من الأفواه على مائدة الطعام. ولهذا أقول لك، إننى لو كنت مكانك، وإن كنت أعرف أنك ستعترض بعدم إلمامى بخبايا الأمور، أليس كذلك؟

ـ بالنسبة لما يخص العائلة، سألفلف البطانية حول رأسى، وأدعها تغنى "ظلموه"(*). هذا هو رأيى على الأقل. إنها وجهة نظرى.

ـ الكلام (مفيش) أسهل منه، ولكن الأمور ليست بهذه البساطة يا سيبستيان. لا يمكن لأحد من الخارج أن يُقدّم تصورًا ولو تقريبيًا عن الأحابيل والصراعات الموجودة فى بيت من البيوت. ناهيك عن آلاف التفصيلات الصغيرة والتوافه التى تمرح من

(*) لفلفة البطانية حول الرأس: كناية عن صمّ الآذان، وعدم الاهتمام بما يدور حول المرء. أما ترك الأسرة تغنى "ظلموه" فهى كناية أيضًا عن عدم الاكتراث بالعواقب – المترجم–.

جانب آخر طوال اليوم، عندما تكون فى عائلة تزيد عن أربعة أو خمسة أفراد. لا تعتقد أن هذا شيء سهل.

ــ هذا ما نعرفه جميعًا؛ ولكن لابد من المقاومة والتصدى رغم كل شيء.

ــ لا، يا رجل، لا؛ بل من الأفضل التحمل وانتظار الوقت المناسب.

تثاءبت أليثيا، وخبطت بأصابعها على الفم المفتوح. نظرت ناحية النهر. قالت بعد ذلك لسيبس، وهى تطوّح رأسها يُمنة ويسارا:

ــ لا تحفل به، يا سيبستيان. اتركه. الأسباب ليست هى المهمة، سواء كان هذا السبب أو ذاك. جوهر القضية يكمن فيما يستطيع المرء أن يفعله؛ أما أن يكون ميّالاً على الدوام لاختلاق الأعذار بالنسبة لما يخصه من أعباء، ولا يعدم الوسيلة لتبرير كل شيء، فهذا أمر غير مقبول.

وكز سيبس ميجيل فى ذراعه:

ــ (إدّيله، إدّى). يطلقن من أفواههن الرصاص. من العيار الثقيل. هذه من اللواتى تلدغن. ونقول بعد ذلك إن النساء تصدقن كل شيء.

ابتسم ميجيل ابتسامة ملتوية. نظر إلى خطيبته من فوق رأسها واعترته الجدّية:

ـ أنتما تهرفان بما لا تعرفان. كان من الأفضل عدم الخوض في هذا الموضوع. أخبرتك من قبل.

ـ أنت الذى واصلته، يا ميجيل. لا تقل لي شيئًا. نبهتك فى البداية إلى أننى غير متحمس للتدخل فى حياة أحد. إذا كان قد حرقك ما قالته خطيبتك، فلا تترك الحمار وتتشطر على البردعة.

ـ هيا، (فذّ) من هنا، وتجول بعيدًا. اتركنى الآن. لقد أخطأت وانتهى الأمر.

ـ عندك. يا لك من رجل! تتهمنى بالوقوع فى الخطأ، (وزعلان كمان)! وتصب جام غضبك علىّ الآن. لا يمكن ولا حتى لمسه.

لم يرد ميجيل. تدخلت بولينا:

ـ عنده حق. ليس لديك مسوّغ لإصلاح حياة أحد. فى حياتك ما يكفى، بحيث لا يدع لك مجالاً لتنصيب نفسك مصلحًا لحياة الغير. لقد ردوا عليك بأدب، رغم تدخلك السافر وغير المناسب، ولا أريد قول المزيد.

ـ أنت أيضًا؟ ويل لمنْ يقع فريسة وسط متربصين! أقسم أننى لا أستوعب ما يحدث.

ــ الأمر واضح– قال ميجيل–. لم يكن ليقولوه لك أكثر وضوحًا من هذا. وعندما تقوله لك خطيبتك، يا سيبستيان، فلسبب ما بالتأكيد.

قالت أليثيا:

ــ (شوف) يا ميجيل، الذى لا يعرفك لا يشتريك.

ــ أنا لا أتحدث معك، يا أليثيا. لقد قلت ما يكفى وزيـــادة. (نقطينـــا بسكاتك).

ــ حسنًا، يا ميجيل– قال سيبس–، أريد أن أسألك سؤالاً: هل نحــن أصدقاء أم لا؟ لأننا لو كنا هكذا،حسبما أعتقد، فإننى بــصراحة لا أفهم الداعى لهذا كله. ألا يمكننا ولا حتى تبادل الانطباعات حول شئون كلينا؟

ــ أنت لا تفهم هذا، إيه؟– توقف ميجيل ثم تنفس من أنفه، متنهــدًا؛ رفع جذعه فوق مرفقيه ونظر إلى جميع الاتجاهات، نحو النهــر والقناطر–. ولا أفهمه أنا أيضًا، يا سيبس، لو شــئت أن أخبــرك بالحقيقة. الواحد مكتوى ومحروق على الآخر. لا شىء غير هذا. وفى هذه الحالة لا تطيق ولا حتى مجــرد الكـــلام فيمـــا يقــض مضجعك– مرّر إحدى يديه على جبهته وبحث، فوق الأشـــجار،

عن الشمس بناظريه-. التعقيدات لا يحبها أحد. وأنت لديك الحق، وأنا، وذلك البعيد عنا. وفى الوقت نفسه ليس مع أحد الحق، هذا ما يجرى، ومن ثمّ لا توجد شهية للكلام. لا تغضب منى. تعرف أننى دائمًا...

ابتسم ابتسامة صريحة. تحدث سيبس:

ـ لك اندفاعات، يا فتى، تترك الواحد حيرانا. تعتريك فجأة الجدية المفرطة ويستولى عليك الشطط واللامعقولية. ولكن من جهتى، أنت تعرف جيدًا أننى لا يمكن أن أغضب منك، إضافة إلى...

قاطعه ميجيل:

ـ (خلاص بقه). الموضوع انتهى. أعطنى سيجارة، هيا.

ـ لنعرف إلى أين وصل هذان الآخران- قالت بولينا-.

اقترب سيبستيان من جذع الشجرة الأخرى (ليعزم) بالسجائر على سانتوس، الذى كان فى جلسة غرامية مع كارمن.

ـ إيه!- قال سيبس-؛ لنرى إذا كنتما سوف تستسلمان للمتعة هنا، وعلى رؤوس الأشهاد. ألا تريد التدخين؟

ـ تقصدنى أنا؟

ـ لا، بل ذلك الآخر.

ـ شكرًا، يا جميل. لا أريد التدخين حاليًا.

ـ حسنًا، إلى اللقاء إذن. استمتعا قدر استطاعتكما.

عاد سيبستيان من جديد إلى مجموعته. سألته أليثيا:

ـ فى ماذا كنت تتكلم معهما؟

ـ لا شىء، إنهما هنالك، عريس وعروسة.

ـ أتركهما يعيشان حياتهما.

ـ لا تشغلى بالكِ، (بُكرة) يتحملان مسئولية عيشها بجد.

ـ ولكن على أساس جيد- قال ميجيل- لم أرَ فى حياتى، يا فتى، خطيبًا وخطيبة ملهوفين على بعضهما هكذا-.

ـ بل قل إن الحياة فى وقتنا الراهن غير مناسبة لهذا- علّقت بولينا-.

ـ يا امرأة، بدون قليل من الانبساط من حين إلى آخر- ردّ ميجيل-، لقفزت من السبت إلى الإثنين(*) دون أن تنتبهى إلى أنك تعيشين فى هذه الدنيا.

(*) القفز من السبت إلى الإثنين: كناية عن عدم استمتاع المرء بما ينبغى الاستمتاع به فى الوقت المناسب - المترجم

ـ يبدو لي، انطلاقًا من الحالة التى هى عليها، أنها لن تصمد طويلاً. لن تفيق من الإغماءات فى أحسن الأحوال.

ـ أبدًا. لقد أجروا لها أشعة هذا الشتاء، واتضح أنها سليمة مائة فى المائة– قال سيبس–. لم يجدوا عندها شيئًا. كلام فارغ. كل ما تعانى منه هو أن بنيتها غير قابلة للامتلاء والثخانة.

ـ ما لا أراه واضحًا– قالت بولينا– هو النهج الذى يسيران عليه فى الحياة؛ لا يفكران حتى فى المستقبل. مضى على خطوبتهما عامان على الأقل ولم يخطر على بالهما ادخار ولا حتى بيزيتة واحدة.

ـ هذا هو الأسوأ– علّقت أليثيا.

ـ هذه هى الحقيقة– قال سيبستيان–. لا يحمل هذا أى همّ للدنيا. لا يتردد فى الذهاب مع خطيبته إلى المراقص الغالية ولا فى شراء الهدايا لها، ولا فى مشاركتنا العزومات بالبارات والمقاهى.

ـ (شوف)، ما دام يرى أنه قادر على فعله، فلا تثريب عليه. لا يمكن لأحد أن يعيب عليه هذا– قال ميجيل–.

ـ (سيبك). كلنا هنا، ورغم بعض الفروق المادية، نعرف معنى أن تكون فى محفظة المرء خمسون بيزيتة. وبتحرقه. ولكن هذا لا يُعفى أيضًا من ضرورة التفكير فى الغد– ردّ سيبستيان–.

ـ فى الغد...!- قال ميجيل، مُرجعًا رأسه إلى الخلف-. نحن نصدّع دائمًا أمخاخنا، وزيادة عن اللزوم، بهذا الغد الهانئ. واليوم مــاذا؟ يذهب إلى الجحيم؟ وفى اليوم الذى تزول عنك الغشاوة فيه تــأتى عربة نقل وتدعك طريحًا وسط الشارع. والنتيجــة أنــك عــشت مغفلاً طوال حياتك، وأن الخبز الذى صــنعته بيــدك لــم يكــن إلا قربانًا(*). إنها مزحة حزينة. ماذا يعود علينا، بحق الشياطين، من إعمال الفكر وحمّل همّ الغد المأفون! لا تشغل البال بماضـــى الزمان ولا بآت العيش قبل الأوان. هذا هــو الأنــسب للحيــاة. ولا شىء أكثر.

كان سيبستيان ينظر إليه مفكرًا، قال:

ـ أنا لا أتفق معك فى الرأى، يا ميجيل. المفارقة تكمن بالتحديد فى مخاطرة المرء بفعل الأشياء، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عمــا يمكن أن يطرأ. نعرف أن التصرف هكذا ينطوى على كثير مــن اللامبالاة. ومن جهة أخرى، فإن هذا النــوع مــن التــصرف لا ينطوى على حكمة أو ذكاء، وهو فى متناول الجميع.

(*) (hostia): هو الخبز المدوّر الذى يعده المرء، لا بغرض الأكل منه، بل لتقديمه قربانًا للكنيسة. والجملة الأخيرة كناية عن عدم استفادة المرء بما يصنعه، وضياع جهده هباءً – المترجم-.

ـ أنت تعتقد هذا. بمعنى أن المخاطرة تنتفى عمن يعيش فى هذه الدنيا بحساب، ويعمل على تأمين ظهره؟ ألا ينطوى هذا التصرف أيضًا على مخاطرة؟ إن التصرف الذى تدافع عنه لا يحتاج، على عكس نقيضه، ولا حتى إلى جرأة.

كان يمر بعض الأشخاص وهم يغنون. لم يكن يعرف سيبستيان بماذا يجيب.

ـ يا رجل- ردّ أخيرًا-، لو نظرت إلى الحياة من أية زاوية ستجدها مفعمة بالمخاطر.

ـ المحصلة إذن، هو أنك لا تستطيع فى النهاية اجتلاء وجه الحقيقة، لا فى هذا التصرف أو ذاك، ومن ثمّ فالأفضل ألا نصدّع رؤوسنا، وألا نحمل الأشياء على محمل الجد.

ـ صحيح، ولكن على الأقل، يجب أيضًا أن...

كانت أليثيا تترنم بالغناء:

ـ أخْذ الحياة بجدية... عبط وخيبة قوية...

انفجرت، هى وبولينا، ضاحكتين.

ـ يا لحماقة النساء!- قال سيبستيان-.

مدّ بعد ذلك ذراعه وشدّ بولينا نحوه.

ــ تعالى إلى حضنى، تعالى.

تخلصت منه بولينا بحركة سريعة مباغتة:

ــ آى، يا بنى! لا تلمس ظهرى؛ إنه يؤلمنى. يحرقنى كله من الشمس.

مررت يديها على كتفيها العاريين، وكأنها تخفف عنهما الحرقان.

ــ لو لم تتعرضى وقتًا طويلاً للشمس لما استمر حرقان ظهرك إلى الآن. ستقولين إن أشعتها تجعلكن قمحاوات. سترين ما ينتظرك هذه الليلة.

ــ اطمئن، أنا معتادة على النوم على بطنى.

ــ على بطنك؟ لابد وأن تكونى فاتنة وأنت على هذا الوضع.

غنى ميجيل بنغمة ساخرة إلى جوار أذن سيبس:

ــ ... لرؤية/ لرؤية/ لرؤية هيئتك وأنت نائمة... خـا، خـا، خـا! الحياة الرومانسية تعجبنى. لا داعى (للزعل).

كان سيبستيان يداعب قفاها:

ــ ابعد عن هنا. أنزل يدك. هكذا يرى الناس حولنا؛ يرانا الناس...

نظرت أليثيا بنفاد صبر إلى ما حولها.

ــ لن يأتى هؤلاء– قالت–.

نظر ميجيل إلى الساعة. أمال سيبستيان رأسه من جديد على ساقى بولينا؛ قال:

ــ وهل نحن مستعجلون؟ لنستلقى هنا، عامًا بأكمله!

أخذ الوضع المناسب وأراح جسده. كان يمر قطار بضائع متجهًا إلى مدريد. التفتت بولينا إلى القنطرة؛ لمحت بين ألواح حواجزِ بعض العربات أخطام عجول.

ــ حيوانات...– قالت لنفسها–.

انزلقت بعض قطرات النبيذ من على رقبة لوثيتا وسقطت على التراب..

ـــ ولوثيتا أيضًا تشرب بطريقة جيدة هذا المساء(*).

ـــ هذا لا يكاد يُصدق! لن نكون أقل باعًا.

كانت لوثيتا تحرك شعرها:

ـــ حتى لا تقولوا إننا لا نستطيع أن نفعل مثلكم.

ـــ بل قولى نعم نستطيع، يا جوهرة. لابد أن نكون مستعدين للحياة العصرية. ناولينى الزجاجة، من فضلك.

قال نيتو:

ـــ على مهلك، أنت أيضًا. لا أحد يجرى وراءنا.

ـــ بالنسبة لي، يوجد منْ يجرى ورائى.

ـــ آه، لن أقول شيئًا عندئذ. خذ الزجاجة، خذ. ومنْ الذى يجرى وراءك، إن حق لي السؤال؟

ابتسم دانييل وهو ينظر إلى نيتو ثم هزّ منكبيه:

(*) الطريقة الجيدة المقصودة هى احتساء النبيذ من فوّهة الزجاجة دون ملامستها للفم، ويتطلب هذا وجود مسافة كافية بينهما، وكلما زادت المسافة برزت أكثر مهارة الشّارب – المترجم-.

ـ الحياة وخلافه.

ابتلع جرعة طويلة. كان تيتو ولوثيتا ينظران إليه.

ـ كل واحد هنا يعبر بطريقته عن غايته من الحياة- قالت هى-.

ـ قد يكون هذا صحيحًا. بالنسبة لي، فإن ما أتــوق إليــه الآن هــو تناول سندويتش وبداخله شريحة لحم صُلْب مما ينتجونــه هنــا. سأصبح مثل الفهد.

ـ هل أنت جوعان؟ فتّش إذن فى الصوانى فلربما عثرت فيها على شىء.

ـ مستحيل!، أنا واثق من هذا. صينيتى على الأقل أشد نظافة مــن المعروضات فى ڤاترينة.

ـ يبدو لي أنه قد بقيت لدىّ قطعة أو قطعتان من الفطائر المحشوة- قالت لوثيتا-. ناولنى الصينية لنلقى نظرة عليها.

ـ إنها صوانى كثيرة، يا لوثيتا، أين هى صينيتك؟

ـ البعيدة هنالك. تلك. عيبها الوحيد أنها قد تحللت بالتأكيد فى مثــل هذه الساعة من النهار.

ـ وكأنها سليمة. سترين كيف تسترد عافيتها سريعًا.

فتحا الصينية. كانت الفطائر المحشوّة فى القاع، مفتتة قليلاً.

صاح تيتو متعجبًا:

ــ يا للهول! جبال حقيقية من الفطائر. سيصبح جسدى بهـذا مثـل جسدِ السلطان.

ــ إنها من أجل هذا. لقد حالفك الحظ.

ــ تستحقين أن أقول لك، شكرًا يا فاتنة.

ــ لا شكر على واجب، يا فتى.

ــ كل شىء موجود هنا، وكأنك فى بوتيك– علّق دانييل–.

ــ هل تريدان، ولو قليلاً؟

ــ انسَ. وهل هناك (نِفْس) لأكل شىء الآن!

ــ أنت يا دانييل، تعيش على الهواء– قالت لوثيتا–. لا أدرى كيـف لا تكون أكثر نحافة مما أنت عليه.

ــ وأنت، يا لوثيتا، لا تريدين أيضًا؟

ــ لا، يا تيتو، شكرًا جزيلاً.

ـ بل الشكر لكِ.

أدخل أصابعه وحمل إلى فمه قطعًا من إحدى الفطائر.

ـ إنها أكثر من رائعة!– كان يقول بفم ممتلئ، تكسوه ذرّات الفُتات–.

ـ تعجبك، صح؟

ـ ليست فاسدة، لا يا سيدى.

ـ لا تحتاج إلى الاعتراف بهذا– أضاف دانييل–.

ـ ناولينى النبيذ، من فضلك، فهذا يتطلب سائلاً فوقه.

ـ جفافها، مع شدة الحرارة، لا تجعلك قادرًا على ابتلاعها. يبدو وكأنك تأكل«بُلبورون»(*). ماذا، يا لوثى، نجعله يضحك؟

ـ دع المسكين يأكل فى طمأنينة على الأقل.

قدّما له الزجاجة. استمر تيتو فى قرض قطعة بعد أخرى من الفطيرة المحشوّة؛ قال:

ـ لن يجعلنى أضحك ولا شارلى شابلن ذاته.

(*) «بُلبورون» (polvorón): نوع من الحلوى الإسبانية، قوامها الدقيق والسمن، ومكَفّته بالسكر الناعم – المترجم–.

استدار دانييل نصف استدارة على الأرض:

ــ لا أتحمل رؤيتك، يا فتى، وأنت تأكل. أشعر اليوم بـــالنفور مـــن الطعام. يصيبنى الغثيان، فعلاً، لمجرد رؤية أحد يأكل أمامى.

ــ هل تشكو من شيء؟- سألته لوثى، وهى تنظر إلى وجهه-.

ــ لا أدرى.

ــ لست معلولاً- قال تيتو-؛ صدقنى. لأنك لا تنفر، فى المقابل، من النبيذ، بل تستسيغه.

ــ ولا حتى النبيذ.

ــ مجرد كلام! لو شربت منه الآن...

ــ ليست لي قابلية لأى شيء، صراحة.

ــ أنا لا أفهمك، يا بنى. إذا كنت تشعر بالنفور من النبيذ، كما تقول، فلا أدرى منْ يجبرك على شربه. أرأيت هذا، يا لوثيتا؟ عقـــل هـــذا الرجل ليس سليمًا.

هزّت لوثيتا منكبيها.

ـ لا أحد يجبرنى على شربه، وإنما هو الاضطرار. وماذا سنفعل هنا، إذا لم نحتسى النبيذ؟

ـ الرغبة موجودة فى هذه الحالة أيضًا- قال تيتو-. لا أستطيع فهم هذا الرجل. لقد أتيت إلى النهر إذن لقضاء وقت سيئ. لا تستحم، ولا تأكل، وتخرج علينا الآن بمثل هذا الكلام. كان من الأفضل عندئذ البقاء فى مدريد، ويا دار ما دخلك شر.

ـ ربما لأنه يشكو من كآبة ما- علّقت لوثيتا مبتسمة-.

ـ آه، عندك حق. ربما يكون هذا هو السبب. هيا، يا جميل، لقد سبرنا أغوارك. اعترف أمامنا الآن.

كان دانييل ينظر جهة الأشجار وهو مستلقٍ على ظهره. أدار عينيه نحوهما وقال مبتسمًا:

ـ ماذا؟. لا يوجد ما أعترف به.

ـ نعم، أيها الثعلب؛ لا داعى الآن للمراوغة. أفصِحْ لنا عما تخفيه فى هذا القليب. أنت هنا فى مأمن، وبين صديقين لن يفشيا لك سرًّا.

ـ يا لكما من زوجٍ! ماذا تريدان أن أحكى لكما؟

ــ أنت تشرب لكى تنسى.

ــ بل أشرب لأن الفرصة سانحة، ولأننى استيقظت هذا الصباح فى حالة...

ــ أية حالة تقصد؟

ــ إنها حالة خاصة، بالتأكيد.

ــ اسكت، يا مجنون...

ــ لا أحد يدرى منْ هو الأكثر جنونًا هنا.

ــ بل هو معروف؛ نعم.

ــ نعم؟ حسنًا، إنه أنا، ارتحت! ناولنى النبيذ.

ــ خذ، يا أخى، كى تسوء حالتك أكثر.

ــ أو لتصبح أفضل. منْ يدرى!

وافقه تيتو:

ــ فعلاً، هذا ممكن. تتكشف النتيجة فيما بعد. النبيذ يُشفى فى بعض الحالات.

ـ هيا بنا، إلى هنالك. إلى العُلى بالوليد(*).

أمال الزجاجة حتى أصبح قعرها ناظرًا إلى السماء، فتدفق السائل دفقات طويلة مجلجلة.

ـ نحمد ربنا أنه ليست لديه رغبة- قال تيتو للوثيتا، واكزًا إيّاها بكوعه-.

أنزل الزجاجة وأخذ نفسًا عميقًا. قال بعد ذلك، وهو ينظر إليهما بوجه تكسوه الابتسامة:

ـ ليتقدم التالى.

ـ الدور عليك، يا لوثيتا. لنرى كيف تتصرفين.

أمسكت بالزجاجة وقالت قبل أن تشرب:

ـ سَيُشفى ثلاثتنا بهذا، أو تتمحى عقولنا تمامًا.

كان تيتو ودانييل يستحثانها، بصخب، فى أثناء شربها:

ـ شدّى (حيلك)، أيتها الشجاعة! اكشفى لنا عن مواهبك!

(*) المقصود بالوليد أو الطفل الصغير هنا: زجاجة النبيذ – المترجم-.

أنزلت لوثيتا الزجاجة وقالت لهما:

ــ حسنًا، تتعهدان بحملى بعد ذلك إلى بيتى، اتفقنا؟

ــ منْ يدرى... لا أحد يعلم منْ سيحمل من.

كانوا جالسين، جنبًا إلى جنب، لوثيتا فى الوسط. شرب تيتو أيضًا. قال دانييل.

ــ أشعر الآن بأننى فى بداية رحلة المتعة.

تلاصقت رؤوسهم، وتشابكت خلف ظهورهم أذرع ثلاثتهم. كانوا يضحكون وهم ينظرون إلى بعضهم البعض. تابع دانييل حديثه:

ــ أتدرين، يا لوثى، أنك فتاة رائعة؟ كنت أجهل حتى اليوم، وبصراحة، مقدار قيمتك الحقيقية. أنت أفضل ما فى الشلّة. وما يكنه صدرى ينطق به لسانى، دونْ مواربة. أليس كذلك، يا تيتو؟ ألا توافقنى الرأى؟ ألست معى فى أن لوثى تختلف كثيرًا عن الأخريات، تختلف كثيرًا...؟

كان الثلاثة يتمايلون، متماسكين، ورؤوسهم متلاصقة.

ــ والأفضل فى اللطف– تابع دانييل–، وفى الجمال...

ـــ أوى، فى الجمال، يا بنى! هل أنا حقًا جميلة؟ هذا يـــرى الأشـــياء مضاعفة الآن. ألم أقل لك؟ لاشك أنك تهذى، يا فتى، حين تصفنى بالجمال.

ـــ اسكتى أنت. لم يطلب أحد رأيك. قلت إنك جميلـــة وانتهـــى الأمـــر. وإضافة إلى ما تقدم، فقد خطرت لي فكرة. ســـوف نطلـــق عليـــك... سوف نطلق عليك... سوف نطلق عليك. حسنًا، الأمر سواء. لقبًا ما.

وضعت خوستينا بيتريتا على الأرض:

ـــ اتركينى الآن، يا جميلة، لقد جاء دورى.

جرت الطفلة نحو المائدة التى يجلس عليها أبواها.

عدّ كلاوديو النقاط وهو يجمع البِلى، ثم أعطاه لخوستينا:

ـــ هيا، أيتها البطلة، لنرى إذا كنت ستكررين الآن ما فعلتيه من قبل.

كان فيليب أوكانيا يتأمل أظفاره. أرادت بيتريتا الجلـــوس علـــى الكرسى الذى يجلس عليه أماديو.

ـــ أيتها البلهاء، ألا ترين أن الكرسى لا يسعنا نحن الاثنين؟

أخذت بيتريتا يدىّ أماديو وشرعت فى اللعب بهما:

ـــ اترك لي يديك ساكنتين بلا حراك– قالت له–.

كان سيرخيو متشحًا بالصمت.

ـــ ماكينة «سنجر» التى تركتها لي والدتى، رحمة الله عليها– قالت نينيتا–، ما زالت فى برشلونة، فى بيت أختى. تظن أنها ستحتفظ بها لنفسها، أتدرين؟ ولكن هيهات، إنها واهمة.

ـــ ألم تطلبيها منها؟

ـــ أرسلت إليها خطابين بهذا المعنى، وفى المرة التى كنا فيها هناك تجاهلت الموضوع. ولكن هذا لن يكون، إيه؟ لن يكون. لو ذهبنا فى سبتمبر لقضاء خمسة عشر يومًا عندهم سوف أحضرها معى، سترين.

ـــ ماكينة خياطة، وفوق هذا ماركة سنجر، تعتبر بمثابة جوهرة فى أى بيت. لا تلتفتى لأية اعتبارات وأحضريها معك بأى شكل من الأشكال.

ـــ أوعدك بهذا. سترين أن هذه الماكينة سوف تأتى إلى مدريد فى سبتمبر. هذه مسألة مفروغ منها.

ـ وتنفع للبيت ولكل شيء، هل فى هذا شـك؟- تابعـت بيتـرا-. لا يمكن التخلى بسهولة عن ماكينة خياطة. فى يوم من الأيام قـد تلمّ ضائقة بالبيت فتجدين عندئذ شيئًا يعود عليك ببعض النقود من خلال الحياكة للآخرين، وبهذا الشكل تستطيعين درء الخطر ولـو قليلاً إلى أن تتحسن الأحوال لو أرادت التحسن. طبعًا. لو ماكينـة خياطة فى البيت فلن يأخذك على حين غِرّة أى انحراف طـارئ فى أحوال المعيشة.

عدّلت من وضع البِنس فى الشعر المنكوش. وافقتها السلفة:

ـ أنا معكِ فيما تقولين. إنها فى هذا الخصوص مثل ماكينة تـصنيع الأوراق النقدية. لقد حرمتنى أختى ببقاء الماكينـة لـديها زهـاء سنتين واستعمالها لنفسها فحسب من بعض النقود.

ـ من أجل هذا إذن، لا تكونى عبيطة وانتزعيها من بين يديها فـى أقرب فرصة. كيف تتركين أحدًا يستفيد من شىء يخصك! تخيلي، يا امرأة، ما كنت ستدخرينه من مجرد قيامك بالتفـصيل. هـذا بالإضافة إلى أن تلك الماكينات ليست خالدة أبد الدهر حتـى لـو كانت سنجر. كل شيء يُستهلك، وكلما تأخرتِ أكثر في استردادها كلما ساءت حالتها أكثر. هذا أيضًا.

ـ أنا زهقان، يا أمى– قال خوانيتو، وهو يتململ على الكرسى–.

ـ اذهبوا إلى حيث توجد الأرنبة، هيا.

ـ لقد شاهدناها.

.لم تحفل به بيترا؛ وانتبهت لسلفتها.

ـ تعرفين أنها أيضًا أنانية؟ ولذا فالعلاقة بيننا ليست جيدة، بل أقرب إلى السوء. إنها أصغر منى سنًا وتزوجت قبلى، (شفتى)؟ وهذا مجرد مثال، من أمثلة أخرى، تفهميننى طبعًا؟ رغم أننى كنت مخطوبة لسيرخيو قبل أن تتعرف هى على زوجها.

ـ معلوم أن الإخوة الصغار يكونون دائمًا أكثر أنانية من الكبار.

ـ وهناك أمر آخر– وضعت يدها على ركبة بيترا–، فى مقابل كل خمسة عشر يومًا يقضيها الأخ «رامونيت» ببيتهم فى برشلونة، يقضى شهرًا على الأقل فى بيتنا.

.ألقت بيترا نظرة على أبنائها الذين يواصلون التململ على كراسيهم.

ـ أنا لا أفهمك يا نينيتا– تنهدت–. ماكينتى ماركة«سيجما» وليست لها شهرة كبيرة ولا ما هو أقل من ذلك، لأن من يقول«سنجر»

يعنى الضمان والجودة، ورغم هذا فإنها لـــم تخـــذلنى إلـــى الآن وتقضى لي المصلحة. سترين على أولادى الكثير من الثياب التى فصّلتها بيدىّ هاتين.

ــ أنت عظيمة القيمة، يا بيترا. هل هناك شىء لا تستطيعين عملـــه؟ تفصلين، وتقصين وتحيكين؛ لا يصعب عليكِ شىء. أنت (ســـت) بيت ممتازة!

ــ أوى، لا تعظمى من قدرى هكذا، يا نينيتا، ولا ترفعينى أيضًا إلى عنان السماء– قالت بيترا، وهى تضحك مــن الحنجــرة–. لــن أنازعك الرأى على أى حال، ولكننـــى أود أن أقــول لـــك، دون مدعاة للزهو من جانبى طبعًا، إنه لو قُدّر لي ذات يـــوم الحياكـــة للغير فلن أكون أقل باعًا ممنْ يُجدن فى عملهن. انظرى...

التفتت إلى فيليسيتا وأنهضتها من على كرسيها لتعرض ما تلبسه على سلفتها:

ــ أترين؟، هذا الفستان نفسه. استديرى، يا بنتى. هذا، (شفتى)؟. إنه فستان جيد، حسبما أرى. ثوب لا تخجلين من أن تصحبك به الفتاة إلى أى مكان. ولكن اهدئى يا بنتى، ولا تتحركى! إيه، يا نينيتـــا؟ ما رأيك؟

ـــ آى، يا أمى، لا تدفعينى هكذا...

ـــ اخرسى! ألا ترين هذه، يا نينيتا؟ الكرمشات... لقد أوسعته قليلاً من هنا لكى يأخذ هذا الشكل المنفوش، ألا ترين؟ (شفتى معمول إزّاى)؟؛ وهذه الطيّة الصغيرة فى الخلف، قد...

ـــ ولكن، لا ترفعى، يا أمى، التنّورة– قالت الفتاة بصوت خافت وهى تنظر متألمة نحو الحديقة–.

ـــ اهدئى، ولا تتحركى قط! ألا ترين أننى أُفَرّج عمتك على الفستان؟

ألقى مانولو بتحية موجزة، محركًا رأسه ناحية عائلة أوكانيا. كانت فيليسيتا مُحْمَرّة من الخجل:

ـــ اتركينى، يا أماه، اتركينى– كانت تتوسل بأنين خافت–.

ـــ لا شك أنه خطيب الفتاة– قال سيرخيو–، ملتفتًا إلى المرأتين.

نظرتا إلى الحديقة فى وقت واحد. وجدت فيليسيتا نفسها متحررة. اقترب مانولو من خوستينا.

ـــ هو بالتأكيد– قالت نينيتا–.

نظر الجميع، باستثناء فيليب أوكانيا، إلى الخطيبين.

كان إلتشاماريس يجمع البِلى. أخرج كُلٌ من الجزارين لفافة تبغ.

همس إلتشاماريس فى أذنيهما:

ــ يبدو أننا أحدثنا الوقيعة- أشار بحاجبيه إلى ظهر مانولو-. يـأتى كالثور الهائج...

ابتسم الجزار الطويل:

ــ صه!، سنتحدث عن هذا فيما بعد.

قال مانولو لخطيبته:

ــ لم يعجبنى قط ما تفعليته، يا خوستينا.

ــ لا يعجبك؟

ــ لا، إضافة إلى أنك تعرفين من قبل عدم رضائى عنه.

ــ نعم؟ حسناً- كانت تهز كتفيها-. وماذا أيضًا؟

ــ اسمعي، لا تتغابى علىّ، ليست لدى الرغبة للنقـاش هنـا والآن، أمام الجميع.

ــ أنا؟ أنا لا أتغابى، بل أنت.

ــ حسناً، (شوفى) يا خوستينا، من الأفضل أن تـصلحى هنـدامك، وفيما بعد...

كان إلتشاماريس قد اقترب منهما:

ــ هل تسمح لحظة؟- قال لمانولو بابتسامة دفينة، متظاهرًا بالخجل-. البِلى، يا خوستينا. أنت تعرفين أين تحتفظون به.

وضع البِلى فى يدها.

ــ معذرة، وإلى اللقاء- أضاف وهو ينسحب-.

ــ عذرك معك- ردّ مانولو بسرعة وتابع بصوت خافت-. أتظنين أننى يمكن أن أتحمل مشهد تورطك فى لعبة الضفدعة مع ثلاثة رجال وأمام الموجودين هنا فى الحديقة؟ أخبرينى إذا كنت تعتقدين أن بإمكانى تقبل هذا منك؟

ــ افعل ما يحلو لك يا فتى.

ــ لا تردى علىّ بهذا الشكل، إيه؟ لا تخرجينى عن شعورى الآن...

ألقى بنظرة خاطفة وراء ظهره، ليرى هل ينظرون إليهما. أشعل الجزّاران وإلتشاماريس السجائر.

ــ من اللائق أن تردى علىّ بشكل مغاير، أتفهمين؟

ــ حقًا؟ أوى، لقد أرعبتنى! ستعتريك نوبة غضب؟ أخفتنى، يا فتى.

جزّ مانولو على أسنانه. همهم بصوت خفيض:

ـ لا داعى، يا خوستينا، لإثارة الفضائح هنا. أنا أحذرك. لا تجعلينى، لا تجعلينى...

أمسكها من ذراعها وضغط عليه، ناشبًا فيه أنامل أصابعه:

ـ أتسمعيننى؟

ـ دعنى، أيها الأبله، إنك تؤذينى. ارفع هذه اليد عنى، أيها المغفّل. لنرى منْ سيعتريه الغضب هنا.

تخلصت من مانولو؛ وتابعت:

ـ تتآمر مع والدتى، من وراء ظهورنا، وتتزلف إليها قائلاً إنه لا يعجبك أن أساعد والدى فى عمله لأن هذا غير مناسب لفتاة، إلى آخر تلك السفاهات. من تعتقد نفسك هنا؟ تريدنى أن أكون رهن إشارتك وقتما تشاء.

تلوّن وجهه.

ـ اخفضى صوتك. يسمعك هؤلاء السادة.

قالت له خوستينا:

ـــ يخجلك هذا، أليس كذلك؟– كانت تنقل البِلْى من يد إلـى أخـرى، فتصدر عنه رنّات متحفظـة–. واضـح أن هـذا يخجلـك الآن. لا أفكر فى أن أحيد قيد أنملة عن عمل ما ظللت أفعلـه طـوال حياتى. لا يدر بخلدك أننى سأغير قناعتى بسلامة ما كنت أفعلـه على الدوام بحيث يبدو لي الآن شيئًا سـيئًا. لا تحلـم بهـذا، يـا مانوليتو.

كان مانولو يتململ. نظر خلفه من جديد:

ــ حسنًا، لا داعى للكلام الآن. سنحل هذا الموضـوع فيمـا بعـد. والآن، من فضلك، أصلحى هندامك وسنتحدث لاحقًا عن كل هذا.

ــ لا إصلاح هندام ولا غيره! ماذا تظن نفسك؟ لن أخـرج اليـوم. لا يمكننى الخروج. سأساعد والدى، لكـى تكـون علـى بيّنـة. لا تنتظر أننى سأعدّ نفسى للخروج.

ــ آه، لن تخرجى؟ بمعنى أنك لن تخرجى معى اليـوم، إيـه؟ هـل فكرت فى هذا جيدًا؟

ــ نعم فكرت.

ــ وتقولين نعم؟ أنا لا أعيد السؤال إلا مرة واحدة. وأقسم لك أنه لن تكون هناك فرصة ثانية. بمعنى أنك لن تُعدّى نفسك للخروج؟

ـ أعتقد أنك سمعت منى الرّد.

ـ سوف تندمين. أقسم بهذه- قَبّل أصابعه- أنك ستدفعين الثمن. وأقسم بوالدتى، رحمها الله، انتبهى، أقسم بوالدتى أنك لن تعودى لرؤيتى مرة أخرى.

ـ لا تكثر من الحلف لأنه معصية. ولا تُهن والدتك بإقحامها فى الموضوع، لأن الذنب ليس ذنبها. افعل ما تريد دون حلف. ما يحلو لك...

ـ حسنًا، أرجو ألا تعضى أنامل الندم بعد ذلك. وتمنياتى بقضاء وقت طيب.

ـ لا تشغل بالك- ابتسمت خوستينا-. لو ندمت سأرسل لك «كارت بوستال».

تأهب مانولو للرد، ولكنه استدار نصف استدارة واتجه نحو الدهليز. شيعته خوستينا بالنظر وهزّت رأسها. حملت بعد ذلك يدها إلى فمها وأخذت تعضّ الإصبع السبّابة، وهى تنظر إلى أرض الحديقة. كان إلتشاماريس والجزّاران يراقبونها فى أثناء تدخينهم. رفعت خوستينا رأسها واقتربت منهم:

ـــ هل رأيتم؟ يا له من مملوك[*] إمّعة!– قالت لهم–. الأبله...

ـــ ماذا؟– سأل كلاوديو–. تسببنا فى وقوع الخلاف بينكما؟

ـــ اسكت، بالله عليك. لا يوجد منْ يحتمله.

ـــ و ل ل ك ن...؟ نهائى؟– قال إلتشاماريس، محركًا يده فى الهواء بما يشبه ضربة فأس– إلى الأبد؟

أمّنت خوستينا على كلامه بإيماءة من رأسها:

ـــ الحياة بأكملها– قالت بنغمة استهزاء–.

تحدث الجزار بصوت خفيض:

ـــ ولا هذا أيضًا، يا صبية. لا يمكن قول هذا أيضًا. العالم لا يكف عن الدوران، ومن غير المناسب فيه القرارات القاطعة.

ـــ أما بالنسبة لهذا الموضوع فأنا أؤكد لك أنه انتهى.

ـــ اسكتى، اسكتى، أنت ما زلت فى حرارة النقاش. اتركى الأمر يبرد وبعد ذلك نتحدث. هذه الأشياء تتغير ولا يمكن القطع فيها برأى يدوم ولا حتى إلى دخول الليل.

(*) المملوك هو المنتمى إلى مماليك مصر – المترجم–.

ـ خلاص. حتى لو كان آخر رجل فى هذا العالم، أقول لك...

ـ القول سهل ولا يكلف سوى القليل- قال الجزار كلاوديو-. تعرفين بما فيه الكفاية أنك إذا لم تكونى تريدينه فلن تبقى عزباء. قد تتخوف من هذا فتاة أخرى غيرك، ليست فى ريعان الشباب ولا تملك هذا القوام. ومن ثمّ (حطّى فى بطنك بطيخة صيفى).

ـ حسنًا- ردت خوستينا، بوثبة خفيفة إلى الوراء-، نحن الآن متعادلان. هيا بنا إلى الكلام المفيد.

جعلت البِلْى يتفافز على راحة يدها واتجهت مسرعة إلى الضفدعة لاستئناف اللعب. ولكن كلاوديو قال لها مبتسمًا:

ـ لا، يا بنتى، الآن لا. لا نريد الاستفادة من الظروف. سوف نكسبك بالتأكيد، ألا تفهميننى؟ لن تستطيعى الآن إدخال بِلْية واحدة ولا حتى فى هذه النافذة. فى يوم آخر، فى يوم آخر...

ـ ولماذا؟- احتجت خوستينا-. بسبب هذا المعتوه؟ (طيب، بأمارة إيه)؟

ـ حسنًا، لا تضطرينا لإثبات هذا على أرض الواقع. أعدك بالقدوم غدًا ولعب كل المباريات التى تشتهيها. وإضافة إلى هذا فقد تأخر الوقت، وسوف نذهب للوقوف على آخر أخبار والدك والسيد لوثيو وبقية الشلّة.

داس على عُقب السيجارة التى ألقاها فوق التراب.

ــ كما تريدون إذن. سنترك المباراة إلى يوم آخر.

مشى الجميع باتجاه باب الدهليز.

ــ ولكننى لست عصبية، إيه؟؛ ليكن هذا فى معلومك.

ــ لا، لستِ عصبية، وإنما قليلاً فحسب– قال كلاوديو، ضاحكًا–. آى، يا خوستينا، لقد بلغنا من العمر أرذله– كان يحرك رأسه إلى أعلى وإلى أسفل–. آه، يا خوستينا...!

علّق سيرخيو من موقعه على المائدة:

ــ واضح أنه لم يعجبه ولا مثقال ذرة رؤيتها وهى تلعب. لم يرق له البتة.

ــ هذا ما يجب أن يكون. المناوشات بين الخطيبين أمر شائع.

ــ ألا تريد اللعب معى؟– قالت بيتريتا لأخيها وهى ممسكة بمعصميه–.

ــ لا أريد. دعينى...– أجابها أماديو–.

وضع مرفقيه على المائدة، وخدّيه بين كفّيه. كان ينظر ضجرًا، من بين فروجات أصابعه إلى شيء ما: أوراق، ظلال، سيقان نباتات، نقاط من الضوء على الأسلاك المعدنية وعلى زهور شجرة العوسج. كان فيليب أوكانيا يربّت بيده على تثاؤب طويل. ألقى خوانيتو بجذعه فوق المائدة ووصل بذراعه الممدود إلى شوكة طعام، ثم وضع أُنملة إصبعه على أسنانها، وكأنها رافعة، وجعل مقبضها يعلو ويهبط.

ـ تصرفوا كما ينبغي- قالت لهم أمهم-. لا أريد رؤيتكم هكذا.

أطاع خوانيتو بتثاقل، كأنه متعب. قالت نينيتا:

ـ يغالبهم النعاس.

عاد سيرخيو لإشعال السيجار. طلبت منه بيتريتا:

ـ اترك لي عود الثقاب، يا عماه. لا تطفئه.

نظر فيليب إلى أخيه:

ـ ما زال السيجار معك؟

ـ أنا أدخنه على مراحل.

ـ وفى كل مرة تعود فيها لإشعاله– قالت نينيتا–، تنبعث منه رائحة أشد كراهة.

أعطى سيرخيو عود الثقاب لابنة أخيه:

ـ لنرى إذا كنت ستعرفين الإمساك به؛ ولكن حذارِ من أن يحرقك، إيه؟

انطفأ بين أصابع كليهما.

ـ أشعِل عودًا آخر وأعطه لي.

ـ لا شيء من عيدان الثقاب– تدخلت بيترا–. يجعلك هذا تتبولين بعد ذلك فى فراش النوم.

مدّت الطفلة خِطْمها إلى الأمام متبرمة، ثم همهمت:

ـ أنا زهقانة...

أخذت تمر خلف كراسى الكبار، محتكة بجنبها فى أوراق التعريشة؛ بينما كانت فيليسيتا تنظر نحو الحديقة، بعينين ساكنتين.

ـ أماه، ماذا أفعل؟– سأل خوانيتو–.

ـ الزم الهدوء. بمجرد أن تهبط الشمس قليلاً سنحمل الأغراض ونعود إلى البيت.

كان سيرخيو ينظر إلى الأرض ويملّس على التراب بقدمه.

ـ (شوقى)- قالت نينيتا-، لا ينبغي أن تشغلى بالك من الآن بالعودة، لأنك لن تنعمى عندئذ بالوقت الذى ستمكثينه بعد التفكير فيها.

ـ ولكن، يا امرأة، يجب أن نغادر فى ساعة ما.

ـ هذا صحيح، ولكن لا تفكرى فيها من الآن، بل انتظرى حتى تحين ساعتها.

ـ من أجل مشروع هذا المساء... تداخلنى الرغبة، تصورى، فى الرجوع مبكرًا قدر الإمكان.

أمسك فيليب على حين غرّة ببيتريتا التى كانت تمر خلف كرسيه، وصاح فيها:

ـ اخرجى من هنا، أيتها الطفلة. هيا كلكم. أماديو، خوانيتو، هيا حالاً، إلى الشارع. ابتعدوا.

الآن. العبوا هنالك. تسلّوا واركضوا، فى الخارج، فى الخارج. إلى الشارع. وأنت يا بيتريتا أعطى أباك قبلة وانصرفى.

قفز خوانيتو وأماديو، وهما في غاية السرور، من على كرسييهما وشرعا في الجري زاعقين "جـــ مـــ مـــ ى ى ل".
صاحت فيهما بيتريتا:

ــ انتظراني، انتظراني!

توقف أماديو عند الباب المُفضي إلى البيت:

ــ تعالي!– قال لها.

وصلت الطفلة إلى جواره فأمسكها من يدها واختفى الاثنان.

ــ كنت ضجرًا من رؤيتهم أمامي هنا. أتلفوا أعصابي. ليجروا وينبسطوا. لا يزورون الريف ولا يخرجون إلى الفضاء سوى يوم واحد في السنة.

نظرت بيترا إلى زوجها بطرف عينها، ثم التفتت إلى نينيتا وقالت لها:

ــ هذه هي التربية التي يتلقونها من أبيهم. الشيء الوحيد الذي خطر بباله، كما ترين، هو إطلاق سراحهم ليفعلوا ما يريدون، مثل المتشردين، دون رقابة من أحد، وعُرضة لآلاف المخاطر. إنه يتخلص بهذا الشكل من مضايقتهم له، هل عرفت المغزى؟

ـ لا أدرى ماذا يدفعك لقول هذا- ردّ زوجها-. تفكرين دائمًا في أسوأ الاحتمالات. لقد فعلت ما فعلته لأنه لا يمكن استعباد الأولاد طوال اليوم، مثلما يروق لك فعله. ألا يكفيهم أن يظلوا محبوسين عامًا بأكمله في الدور الرابع، لكي تأتي في اليوم الذي يمكنهم فيه تذوق طعم الحرية وتصرين على ربطهم في طرف تنورتك، وكأنهم مساجين؟

ـ نعم، يا سيدى، الأطفال الصغار يجب أنْ يكونوا دائمًا تحت وصاية الأبوين، لأن هذه هي مهمتهما. وبهذا الشكل يتعلمون الطاعة، وتستطيع الواحدة أن تدرأ عنهم أيّ مكروه.

ـ ولكن ما ظنك أنْ يحدث لهم؟ إذا كان من المعروف أنهم كلما اعتادوا أكثر على الانطلاق وحدهم، كلما استطاعوا بشكل أفضل تفادى المخاطر التي تعترضهم في الحياة وأحسنوا العناية بأنفسهم. أما الطريقة الأخرى التي تنتهجينها والمتمثلة في انكماشهم وإثارة الرعب فيهم فلا تؤدى إلا إلى جعلهم محتاجين على الدوام لشخص كبير يلازمهم.

ـ وهذه هي بالتحديد مهمة الأمهات والآباء الذين يُقَدّرون مسئولية ما بين أيديهم.

ـــ عظيم، وعندما يبلغون عشرين عامًا سيكون منظرهم رائعًا وهم غير قادرين على التقدم خطوة إلى الأمام بالاعتماد على أنفسهم.

ـــ هل ستدخلان فى مشادة كلامية أخرى؟- تدخل سيرخيو طرفًا ثالثًا فى الحوار-.

ـــ أبدًا، يا سيرخيو، المسألة أنه ليست لديه فكرة عن كيفية التعامل مع أبنائه... أخبرنى أنت...

ـــ يا امرأة- قاطعها سيرخيو-، لن يحدث لأبنائك شيء فى نصف السويعة التى سيلعبان فيها؛ لاسيما أنه لا توجد هنا فى الريف سيارات ولا مخاطر من أىّ نوع. لقد شاهدت مدى انضباطهم وطاعتهم طوال اليوم.

ـــ حسنًا، الرأى رأيكما. أما بالنسبة لي، فقد قلت ما يجب علىّ قوله. إذا كان أبوهم مصرًا على إساءة تربيتهم، فالذنب لن يكون ذنبى فيما بعد. ليفعل ما يريد. ومن حسن الحظ أنهم يرتدون المايوهات، لحسن الحظ، لأنهم لو لم يكونوا كذلك لرأيت مدى بشاعة الهيئة التى ستكون عليها الثياب لدى عودتهم. الآن، بالنسبة لي...- أومأت بيدها إيماءة مثبطة-.

ـ انظرى لهذه– قال فيليب، واضعًا يده على رأس فيليسيتا–. لقد أدّت ما عليها اليوم بنجاح. ها هى، ملاصقة لذيل تنورتك! قضت يوم أحدٍ رائع، بدون خروقات. إذا كان الضجر يستهويها، فلن تجبريها على غيره.

كانت فيليسيتا صامتة، تحت يد الأب، الذى تابع قائلاً:

ــ هذه أيضًا ممنْ ينتعل مقاس أربعة وأربعين فى ثقل الدم.

ــ ما بقى الآن هو السخرية من الفتاة والتنكيل بها. (ده اللى كان ناقص). لا تعيريه اهتمامًا، يا بنتى. تعالى هنا.

ضمّتها إليها، ولكن فيليسيتا كانت تشفط بأنفها المخاط السائل وتُخفى دمعات كبيرة صامتة فى الذراع السمين العارى لأمها. رفعت بعد ذلك وجهها بغتة، بلفتة عنيفة مثل لفتة حيّة، وصرخت فى أبيها باكية، فى دفعة غضب:

ــ أنا لم أفعل لك شيئًا! صح؟ لم أفعل لك شيئًا! لو كنت ثقيلة الدم، فهذا أفضل! لو كنت ثقيلة الدم، فهذا أفضل! خلاص! أفضل...!

ثم عادت للاحتماء بالذراع الأمومىّ، وهى تئن منتفضة.

ــ أرأيت؟– قالت بيترا بحنق–. أرأيت كيف أنك...؟

لم يرد فيليب. نهض بعد ذلك:

ـ أنا ذاهب إلى موريثيو.

توقف لدى مروره بالمطبخ. وضع يديه على قائمى الباب. كانت هناك ابنة موريثيو وزوجته. قال لهما:

ـ أنا ذاهب لقضاء بعض الوقت مع زوجك، للوقوف على ما ورائه من أخبار.

ـ شىء جميل. إنه الآن مشغول مع الزبائن. كان يسعده قضاء المساء كله معكم فى الحديقة، ولكن ما باليد حيلة.

ـ مفهوم، ولذا فأنا ذاهب إليه. إذا لم يأت الجبل إلى محمد سعيًا... إلى لقاء قريب.

مشى مانولو دون التوقف بالمحل، وملقيًا بالكاد بتحية عابرة.

ـ لقد ذهب...- قال لوثيو-.

هزّ موريثيو منكبيه:

ـ يبدو أن زوبعة قد ثارت هناك– ابتسم–.

دخل بعد ذلك إلتشاماريس والجزاران فسألهم موريثيو:

ـ ماذا؟، هل كان هنالك احتفال؟

ـ احتفال؟ ولكن من أى نوع؟

ـ مع خطيب ابنتى، يا رجل.

أمال الجزار الطويل رأسه:

ـ آه، تريد أن تعرف الآن؟. يبدو أن شيئًا ما قد حدث. هل انصرف؟

ـ مثل قط على صفيح ساخن.

ـ أعتقد أن ما جرى بينهما من الأمور التى تحدث عادة بين خطيبين.

ـ هل سمعتم شيئًا؟

ـ لم نسمع. كان نقاشًا متحفظًا وكتومًا، بصوت منخفض. رأينا وجهه، هذا نعم، وقد كان هذا كافيًا.

ـ حسنًا- قال موريثيو-، ولكن باختصار، ماذا؟

ـ تريد معرفة كل شيء؛ أمرك غريب يا رجل- احتج الجزار، ضاحكًا-. جَعَلَتْه يمشى وقفاه (يقَمّر عيش)، حسبما أخبرتنا هى. مبسوط؟

كان موريثيو يجفف الكئوس.

ـ لأنه متصنّع، لا يُطاق. ماذا تشربون؟

وكز كلاوديو بكوعه الجزار الآخر وقال له، مشيرًا إلى موريثيو:

ـ بدلاً من استيائه لتشاجر ابنته مع خطيبها، تراه متهللاً فرحًا!

ـ لم يكن متحمسًا بالقدر الكافى لهذه الخطبة- قال إلتشاماريس-. لم يشذّ عن القاعدة فى مسلكه هذا. لنرى من سيكون مرشحه التالى.

ـ لا يوجد مرشح- نفى موريثيو-. أىّ بنى آدم غير هذا المتصنّع الذى كان يقف كالغصّة فى حلقى كلما رأيته ماثلاً أمام واجهة الخان. ناهيك أيضًا عن المهنة التى يمتهنها...

ـ وماذا تكون؟- سأل السائق-.

ـ ماذا تكون؟ أكاد لا أفصح عنها من شدة الخجل. بائع أزرار متجول! مندوب تجارى لشركة تعمل فى أزرار البلاستيك. حاجة تكسف!

ضحكوا جميعًا.

ـ نعم، اضحكوا وكأن الأمر يستحق الضحك، لا البكاء!

ـ صب لنا نبيذاً، هيا. انظر كيف تعكر وجهه- قال كلاوديو-. وكأنى بفلان هذا قد مرّر عليك الحياة أو شيئًا من هذا القبيل.

ـ (وهوه مين عشان يعكر علىّ حياتى...)!- تابع موريثيو، وهو يملأ الكئوس-. بائع أزرار متجول! مَثُل هنا، مهيب الركن، ذات مساء، متأبطاً حافظة العينات، وهذه أيضًا جديرة بالتنويه؛ إنها عبارة عن قطعة كرتون، قريبة الشّبه من كراتين النتائج المعلّقة هنا، وعليها أزرار من كافة الأشكال والأحجام، ومرتبة بعناية ليسهل على الزبون الاختيار. إنها مهزلة ما بعدها مهزلة! يسقط وجه الواحد من الخجل لو تزوجت ابنته من فرد مماثل. من رجل يتسكع فى الشارع بهذه الكرتونة... يا إلهى، مع كثرة عدد المهن الموجودة، جميلة كانت أم قبيحة، يوقعنى الحظ الأغبر فيمنْ يمتهن هذه المهنة. صحيح، (اللى يعيش يا ما يشوف...)!

كانوا يضحكون ضحكات مجلجلة.

ـ يبدو أن المزاح هنا على أشدّه- قاطعَ فيليب أوكانيا فى أثناء دخوله-.

ــ أهلاً أوكانيا، ماذا جرى؟

انفتحت الحلقة قليلاً، ليفسحوا له مكانًا إلى جوار طاولة البار.

ــ مكانكم. لا تزعجوا أنفسكم.

ــ اقترب لتتناول شيئًا – قال لوثيو –.

ــ شكرًا.

خيّم الصمت لحظة. فتح له لوثيو بعد ذلك مجال الحديث:

ــ هل تدخن حضرتك؟– قدّم له علبة التبغ–.

ــ ماذا؟– سأل موريثيو–. زهقت من العائلة؟

ــ بما فيه الكفاية. لا يخلو الأمر من السأم.

ــ أقدمك لهؤلاء السادة. أو بمعنى أصح، للمصطفين الأخيار من زبائني، تعرف؟، أفضل من تسوقهم أقدامهم إلى هنا.

ابتسم أوكانيا مرتبكًا.

ــ تشرفنا، تسرني معرفتكم.

ــ كيف حال حضرتك؟

ــ بخير؛ شكرًا جزيلاً.

لم يكونوا يدرون هل يمدون أيديهم للسلام، أم لا. قـال سـائق عربة النقل:

ــ أتيتم لقضاء الأحد فى الريف، أليس كذلك؟، هربًا من حرّ مدريد.

ــ فعلاً.

ــ (شوف)– تابع السائق–. بالسيارة يمكن لحضرتك الانتقال إلى أىّ مكان، دون عَنَت أو مشقة.

ــ صحيح.

ــ لاشك أن هذه السيارات تعمل بكفاءة ممتازة رغم قـدمها، أقـصد موديل سيارة حضرتك.

ــ أنا لا أشتكى منها بالطبع. ولا يمكن أن يُطلب منها المزيـد بعـد اثنى عشر عاما، خدمة متواصلة، تحت قيادتى.

ــ ألست معى فى أن هناك فارقًا كبيرًا بين سـيارات اليـوم وبـين شيفورليه ذلك العصر؟ لا أدرى إلى أىّ مدى ستظل تتسع الهـوّة بين القديم والجديد؟

ـ هذا الموديل قد أحيل تقريبًا كله إلى التقاعد؛ وعلى الأقل نصف الموديل الذى يليه. وكما ترى حضرتك فلا يسير على الطريق سوى القليل النادر من ماركة سيارتى. وهذا لأن الموديلات الجديدة تضغط بشدة...

انتحيا جانبًا عن الآخرين. قاطع موريثيو:

ــ ماذا تريد أن تتناول؟

ــ إيه...؟ كونياك. اسمع؛ وهنا أيضًا.

ــ لا، شكرًا. لم أنته بعد من النبيذ الموجود بين يدىّ.

ــ ألا تريد كأسًا؟ بجدّ.

ــ لا، شكرًا. إضافة إلى أن المشروبات الكحولية لا تروقنى كثيرًا. وكما تقول حضرتك فإن ما يحدث الآن هو تصنيع كميات كبيرة جدًا من السيارات الجديدة؛ صحيح أنها جديدة، ولكنها سيئة؛ بل فى غاية السوء. يهتمون فيها بجمال الشكل، وانسيابية الخطوط، والفرش الداخلى، والتابلوه، إلى آخر تلك التفاصيل السطحية. ولكنهم لا يلتفتون فى نهاية المطاف إلى الشىء الأهم: المتانة وطول العمر. لا شىء عن المتانة وطول العمر، ولا مثقال ذرّة. لا يجب أن ينخدع المرء بالشكل، لأن ما يصنعونه الآن مجرد حُثالة.

ـ معلوم. ولكن ماذا نفعل حيال هذا، إذا كان هو النهج الذى تسير عليه الصناعة حاليًا؟ ما يهمهم هو قصر عمر الأشياء التى يصنعونها، وأن يفرغوا من بيع الموديلات التى يقدمونها فى فترة زمنية محددة، ألا تفهمنى؟. وهكذا يواصلون بيع المزيد والمزيد. فَهْم هذا سهل، ولا يَخْفى على لبيب.

انضم إلتشاماريس والجزاران إلى لوثيو؛ تاركين أوكانيا مع السائق الآخر.

ـ والكلب؟- سأل إلتشاماريس-.

ـ خرج منذ قليل، فى صحبة الأطفال. أبناء هذا السيد.

ـ يجن جنونه إذا كان مع أطفال، ويفقد رشده.

ـ لن يفارقه الملل طوال فترة الحظر(*) التى لا يخرج فيها إلى الصيد معك...

(*) يعتبر صيد الطيور والحيوانات البرية- سواء فى الغابات أو الفضاءات المكشوفة- من العادات الإسبانية القديمة. وكثير من الإسبان كَلِفٌ بهذه العادة، والبعض منهم يمارسه كهواية، بينما يتخذه البعض الآخر بمثابة مهنة. وهو محكوم بقوانين تحدد مناطقه ومواسمه وكيفيته، ومن يخرق القانون يعرض نفسه لعقوبات رادعة - المترجم-.

كانت تُسمع رنّات وريقات الدومينو على الرخام. أمّن السائق الآخر على كلام أوكانيا، بقوله مُعلّقا:

ــ إلى أن يأتى اليوم الذى يشترى فيه الواحد سيارة، إيه...؟ جديدة. يدير المحرك وينطلق بها، على سبيل المثال، إلى «بويرتا دى إيبيرّو»(*)، فى نزهة قصيرة. يذهب ويعود، ومع السلامة!، إلى القمامة السيارة. وفى المساء يعود إلى المعرض لشراء أخرى؛ فيطلبون توثيق ورقة ما، وتستلم عربتك وتنطلق بها إلى «كوريّوس»(**)، مثال آخر، وفى العودة يحدث الشىء نفسه: إلى صندوق القمامة. وهكذا، مشوار واحد وترميها. تفهمنى، طبعًا؟ مثل فوطة ورقية. بالضبط. سيأتى اليوم الذى يحدث فيه هذا مع السيارات، طبقًا للإيقاع الذى تسير به صناعتها...

ــ نعم، نعم، لا أستبعد هذا، ولا أجد فيه شيئًا من الغرابة. بالتأكيد. وفى المقابل، ما زالت سيارتى تزنّ على الطريق، لا تكل ولا تمل من العمل، رغم أنها لم تقطع كيلومترًا أو اثنين، بل عددًا لا يُحصى.

(*) «بويرتا دى إيبيرّو» ، تعنى «باب الحديد» ، وهو اسم لمكان مشهور بشمال العاصمة الإسبانية مدريد، وتزينه بوابة ضخمة (مثل قوس النصر فى العاصمة الفرنسية باريس) عليها نُصب تذكارية – المترجم-.

(**) «كوريّوس» هو مبنى البريد الرئيسى فى العاصمة مدريد، ويقع فى وسطها تقريبًا..والمقصود من ذكر المكانين السابقين الإشارة إلى قصر المسافة – المترجم-.

وضع حاجب المحكمة ورقة الدومينو ونظر مبتسمًا إلى الآخرين الذين طلبوا المرور، واحدًا تلو آخر، وأصبح الدور عليه من جديد.

ــ يا لك من ظريف!- احتج دون مارثيال-. لا داعى للهزار. لو كان معك ما تلعب به فهيا، ولا تجعلنا نتشكك ونضيع الوقت.

قال كوكا/ كونيا بتشفّ واستمتاع:

ــ لا تحفل به، يا كارميلو. اتركهما يفرقعان من الغيظ.

ــ عمل غير نبيل- قال شنيدر-. لا تسخر من المنافس، لأنه شىء قبيح. المزاح فى اللعب أمر قبيح للغاية. لا تعد لمثله أبدًا.

ــ لم أكن أريد المضايقة، يا سيد «سنيدر»...

ــ لستُ متضايقًا؛ أطلب منك فحسب اللعب بجدّية.

ــ (سيبك منه)! لا تكترث. ارم (بياضَك)، هيا.

ــ لا تغضب، يا سيد «هرّ/ كوكا»(*). أنت لا ترضى بمثل هذه السخرية ضدك.

(*) «الهرّ» هو اللقب المعروف للزعيم الألمانى هتلر. ولا يخفى ما فى اللفظة من إسقاط- المترجم-.

ــ هل أغضبتك المزحة؟ إنها مزحة بريئة. كارميلو هو الذى سيشعر الآن بالكدر. إنه أكثر تعاسة من جردل.

كان دون مارثيال يهز يده بأوراق الدومينو.

ــ أنا أعرف، أنا أعرف– قال شنيدر، ملطفًا الجو–. أعرف أن كارميلو طيب مثل هذا الجردل. ولكن لا داعى للسخرية فى اللعب من الخصم.

ــ حسنًا. انزل بورقتك– قاطعه دون مارثيال، مبتسمًا–.

وصل رجلان. قال أحدهما من على عتبة الباب:

ــ امتدت أيدى صبية، فى الخارج هنا، إلى الكرسى المتحرك لهذا– أشار إلى كوكا/كونيا–، وهم يجرون به فى الأرض المسوّاة. لو لم تأخذوه منهم سريعًا، فسوف يتحطم بالتأكيد.

نظروا جميعًا إلى المتحدث. كان أعور.

ــ إنهم أولادك، يا أوكانيا– قال موريثيو–. إلحق بهم.

تذكر أوكانيا فجأة:

ــ عندك حق! إنهم أولادى دون شك. أخبرنى حضرتك، أين رأيتهم؟

أشار الأعور من لدن الباب:

ـ هنالك، فى الأرض المحصود قمحها، أمامنا؛ كانوا يدفعون الكرسى بسرعة شديدة وعليه طفلة، لكنهم اختفوا الآن.

ـ يا إلهى!- قال أوكانيا-. سوف يحطمونه...!- ثم شرع فى الجرى للبحث عن أولاده.

ـ من هناك، من هناك، خلف هذا التلّ الصغير- استمر الأعور فى توجيهه من موقعه لدى عتبة الباب-.

كان يقف عند الباب كلّ من الجزارين وموريثيو وإلتشاماريس. سأل السائق:

ـ هؤلاء الصبية الذين مرّوا علينا منذ قليل هم أولاد صاحب التاكسى؟

قال له موريثيو نعم بإيماءة من رأسه، دون أن يكف عن النظر إلى الأرض المحصود قمحها. اختفى أوكانيا خلف منحدر صغير بالأراضى المحروثة.

ـ على الأقل- قال كوكا/كونيا-، على الأقل يوجد منْ يستمتع بقطعة الخردة التعيسة.

كان الكرسى المتحرك قد انغرز منهم فى منخفض بالأرض المسوّاة، بجوار باب ملجأ قديم، يتخذه البعض مسكنًا فى الوقت الحالى.

ـ أماديو!

التفت الأطفال الثلاثة فجأة إلى صوت الأب.

ـ أنتم مجانين! مجانين!– كان يقول لهم، لاهثًا–.

ترجلت بيتريتا. انتظر أخواها، ساكنين بلا حراك. وصل إليهم الأب.

ـ أهذا كل ما خطر ببالكم، أيها القراصنة الأشرار؟

التفت جانبًا، إلى حيث يتحرك شىء ما. من الخيش الذى يغطى مدخل الملجأ، ظهرت امرأة ترتدى السواد. نظرت إليهم فى صمت، وذراعاها معقوفان.

ـ مساء الخير– قال لها أوكانيا–.

لم ترد.

ـ (يادى الكسوف)!– استمر فيليب، متجهًا إلى أولاده–. ألا تعلمون أن هذا الكرسى هو بمثابة ساقين لمسكين تعيس لا يستطيع ولا حتى المشى؟ يجب أن تتعلموا احترام الأشياء. أنت الآن كبير يا أماديو، وفى سن الإدراك والتمييز. كنتما على وشك الاصطدام بأختكما والإطاحة بها. يا له من تصرّف...! هيا، ساعدانى فى إخراج هذا من هنا.

تحركا بسرعة. دفع أوكانيا الكرسى من الخلف، وأزال الولدان الموانع من أمام العجلات لتسهيل حركتها. مروا من أمام الملجأ. كانت المرأة ما تزال واقفة فى مكانها، وتتعم فيهم النظر.

ـ أطفال...- قال لها أوكانيا-. لا يمكن أن يغفل الواحد عنهم لحظة.

حرّكت بالكاد رأسها. تسلقوا المنحدر الصغير واتجهوا من جديد نحو بيت موريثيو.

ـ لقد أوقعتمونى فى حرج كبير مع هذا الرجل. ماذا أقول له الآن؟ أرأيتم ما تسببتم فيه؟ هيا، اذهبوا إلى الحديقة مع والدتكم ولا تتحركوا من هناك حتى تحين ساعة الرحيل. مفهوم؟

ـ نعم، يا أبى- أجاب أماديو-.

فكر أوكانيا بضع لحظات:

ـ (شوفوا)، يمكنكم البقاء هنا لو تريدون. ولكن، حذارِ من ارتكاب حماقات أخرى، اتفقنا؟

ـ نعم، يا أبى. لن نفعل شيئًا.

ـ الأولاد فى منتهى الشقاوة والعفرتة- قال موريثيو-. ترد على خواطرهم أشياء عجيبة.

ـ لأنهم لا يتحلون ولو بمثقال ذرة من عقل- ردّ عليه أوكانيا وهو يسند الكرسى المتحرك على الجدار-.

ـ اكتساب العقل يأتى مع تقدم العمر- قال الجزار الطويل-. لا يوجد فيما فعلوه سوء نيّة.

ـ الكبير فى سنّ تؤهله لاجتناب هذه الأشياء.

جفّف أوكانيا عرقه بمنديل. وفور دخوله وثب الأطفال وشرعوا فى الجرى نحو الفناء الخلفى للبيت. اقترب أوكانيا من مائدة الكسيح.

ـ معذرة لما جرى. أنا جدّ آسف. أنت تعرف تصرفات الأطفال وطيشهم. اعذرهم، من فضلك.

رفع كوكا/ كونيا رأسه.

ـ أنا؟ يبدو أنك لا تعرفنى! لن يفرق معى لو أرادوا اللعب به طوال اليوم، بل إن هذا يسعدنى. كنت أقول هذا تحديدًا الآن: إنه من حسن الحظ أن ينفع هذا الكرسى فى إشاعة البهجة فى نفس أحد ما، وأن يتخلى عن صفته ولو لبعض الوقت من كونه شيئًا شديد القبح وقميئًا مثل الجالس عليه. لا تشغل بالك إذن، ولا تعتذر عما لا يستدعى الاعتذار.

ـ حضرتك إنسان طيب جدًا لتفهمك ما جرى على هذا النحو وأنا أشكر لك...

ـ لا تقل شيئًا! ربما تعجب لو أخبرتك إنه أنا الذى يجب أن أقدم لك الشكر على قيام أولادك بالاستفادة من الكرسى المأفون، ثلاثى العجلات، فى التسرية عن أنفسهم. حسنًا، والآن «الدرجىّ»(*)!

فرقعت ورقة الدومينو على الرخام.

ـ لو تسمح لي حضرتك أن (أعزمك) على كأس. وزملاءك أيضًا.

ـ هذا نعم، يا رجل- صاح كوكا/ كونيا، رافعًا رأسه عن منضدة اللعب-. كل ما تشاء من الكئوس.

ابتسم أوكانيا.

ـ منْ لا يتعزى ويسلى فلأنه لا يريد- قال الأعور-.

التفت كوكا/ كونيا ليصيح فيه:

ـ ماذا تقول يا قروى(**)، يا حرامى الفراخ؟ بهذه العين التى تشبه البيضة المسلوقة.

(*) «الدرجى!» : ورقة الدومينو التى يحوى كل من نصفيها أربع نقاط – المترجم-.

(**) «القروىّ» نسبة إلى منطقة «القرية» بمحافظة وادى الحجارة، وهى منطقة شاسعة تضم العديد من القرى والنجوع والمدن الصغيرة- المترجم-.

ــ ها هو يتطاول مرة أخرى على الناس– قال دون مارثيال–. ركّز فى اللعب، يا رجل، حتى لا تخسرا وتصب جام غضبك على المسكين كارميلو.

دخل فى تلك الأثناء خمسة مدريديون: ثلاث فتيان وفتاتان. تحدثوا مع موريثيو لبعض الوقت ثم اتجهوا إلى الحديقة.

ــ قلت وأكرر إن منْ لا يتعزى ويسلى فلأنه لا يريد، وأقوله انطلاقًا من قناعتى المدعومة بالأسباب– ردّ الأعور–.

ــ لا يدعم قولك سبب، اللهم إلا إذا كنت تقصد أنك لا تتكبد مشقة الغمز بها حينما تذهب للصيد– أجاب كوكا/ كونيا–. لا أدرى أىّ عزاء آخر لك بهذه العين المسلوقة التى لا تفيدك ولا حتى للعب «الجوا»(*).

ضحك القروىّ:

ــ لاشك أن اللسان الطويل والخبيث لا ينقصك. كل المسافات التى لا تقطعها الرجلان، يقطعها اللسان. بل أقول لك ما هو أكثر:

(*) «الجوا» (guá): لعبة من ألعاب الأطفال، وتتمثل فى إحداث حفرة صغيرة فى الأرض حيث يقوم اللاعب بمحاولة إسقاط الكريّات فيها من مسافة معينة – المترجم–.

إنه كلما وُجد نقص فى جانب، يتم التعويض عنه فى آخر. وهذا ما يحدث لأصحاب العاهات، مثلى ومثلك. إذ تشتد فينا وتقوى، من حيث لا نحتسب، أعضاء وحواس. أتريد معرفة ما قوىَ عندى؟

ـ لا داعى للإفصاح به- ردّ كوكا/ كونيا-، لأن قظاظتك واضحة للعيان. لابد أن تكون منحدرًا من «القرية»!

التفت كوكا/ كونيا إلى المباراة ثانية.

ـ نعم، يا سيدى، من «القرية» وإليها ينتسب- قال الآخر، القصير الذى دخل مع الأعور، حاملاً فى يده صُرَّة راعٍ-، من«القرية» تفد إلينا كل المصائب. من هناك تنزل علينا، كالدواهى، الذئاب والثعالب التى تفترس الماشية والقطعان.

ـ أنت أيضًا؟- قال له القروىّ-. من المناسب لك الحلاقة فى أيام الآحاد لكى تكون جديرًا بالتدخل طرفًا ثالثًا فى الحوار.

اتجه إلى إلتشاماريس والجزارين، وتابع حديثه:

ـ فعلاً، من لا يتعزى ويسلى فلأنه لا يريد. أتدرون ماذا قالوا لي عندما فقدت هذه العين وأنا فى الثامنة عشرة من العمر؟

ـ أية ترهة من الترهات– قال كلاوديو–. أخبرنا.

جفّف القروىّ فمه بظاهر يده وقال:

ـ زارنى أحد أفراد قريتى بعد مرور يومين أو ثلاثة على الحادث... كان من علبة «بساتم»، تعرفونها؟ من المصرح بها تلك والمزودة بمسمار ذى رأس غليظ فى مؤخرتها، لا يوجد منها الآن. نرجع لموضوعنا، المهم أن هذا الرجل جاءنى وقال لي بصفاقة وجه: "لا تحزن ولا تغتم لأن هذا سوف يعفيك من الالتحاق بالجيش". لا يمكن أن أصف لكم الكدر والاستياء اللذين شعرت بهما آنذاك. وبمضى الزمن نسيت ما قاله لي إلى أن جاء فى النهاية اليوم الذى استدعونى فيه إلى منطقة التجنيد، ولا تتخيلوا مدى فرحتى وسعادتى عندما التحق الآخرون بالخدمة وحصلت أنا على الإعفاء منها ورجعت إلى البيت. ما رأيكم، زاد الله فضلكم؟

ـ معلوم. كل شىء فى الدنيا له مزاياه وعيوبه.

ـ ولذا أقول، ولقولى ما يبرره، إن منْ لا يتعزى ويسلى فلأنه لا يريد. حتى المصائب والنوائب يمكن الخروج منها بفائدة ما. وفيما يتعلق بالهيئة الجسمانية، فلم يكن لدىّ ما أخسره بالنسبة

لهيئتى السابقة، لأن دميمًا وأعور لا تختلف كثيــرًا عــن دمــيم (حاف). وعلى هذا فالقضية فى حد ذاتها هى قــضية المنظــور الذى يتبناه المرء. ولا تحسب أننى أهذى لو قلت إن الواحد يمكن أن يصل للرؤية بعين واحدة أكثر مما يرى بعينين. ما يحدث هو أنك عندما تعرف أنه ليس لك إلا عينًا واحدة فقط فإنك تعنى بهــا أكثر وتحرص على أن تظل مفتوحة ليلاً ونهارًا، وعندئذٍ تــزداد حدّة ورهافة، هذه العين– وضع الإصبع السبّابة تحت حدقة العين السليمة–. وهكذا ينتهى الأمر بالواحد لرؤية أشياء كثيــرة بعــين واحدة قد لا يتسنى له رؤيتها بالاثنتين.

تحدث أوكانيا من جديد مع السائق:

ــ تعتبر «البيجو» من أفضل السيارات التى أنتجوها مؤخرًا، رغــم عيبها الكبير، والمتمثل فى كونها واطئة جدًا.

كانت الشمس تواصل الهبوط. أصبحت ســتة أمتــار أو ســبعة بالكاد يفصلونها عن الأفق، وفى حجم صينية الشاى. كانت مرتفعات «باراكويّوس» مشربة بالحمرة، فى مواجهة الغروب. أراضٍ عالية،

متعامدة على «الخراما»، فى كثبان وعِرة من الرّدم المركوم، تشكل مهاوٍ، ومدرجات، وصدوع، وتهدمات، وأكداس وأكوام ضاربة للبياض، فى شتات وعِر التباين، دون نظام جيولوجىّ، كأنها مقالب أنقاض وحطام، أو أشغال وحفريات قام بها عمالقة، مستخدمين الفئوس والكواريك. لا تبدو، تحت الشمس الممددة للمساء، والتى تزيدها استفحالاً وتفاقمًا، خاضعة لقوانين القصور الذاتى الأرضية، بل لنزوات سحيقة لطائفة من الجنّ.

ـ باراكويّوس هى التى هناك. أليس كذلك يا فرناندو؟

ـ نعم، البرج الذى يُرى هناك فى قرية «باراكويّوس دل خراما». هيا، لا تتوقفى.

ـ هل زرتها من قبل؟

ـ باراكويّوس؟. أبدًا، يا بنتى. أزورها لماذا، وبأية مناسبة؟

ـ وما يدرينى؟ أما أنا، فيروقنى الآن الجلوس علىّ حافة تلك الهاوية. لابد أن المنظر جميل من هناك.

مشيا من جديد.

ـ آه، نحن نعرفك يا ميلى. أنتِ مغرمة دائمًا بالخيال، ولكِ الكثير من الشطحات.

تناهى إلى مسمعيهما ثانية صوت الموسيقى وجلبة الاستراحات. كان خيالا ميلى وفرناندو يتحركان، طويلين ومتعامدين على الخراما؛ وأصبح الظل يغطى تمامًا الشرفات المزدحمة بالمصطافين، والناس التى تموج بالحركة فى طراوة النباتات والمياه القريبة. كان الهويس يرنّ، صاخبًا. عاد فرناندو وميلى للمرور من أمام الموائد، داعسين بأقدامهم الحافة الأسمنتية للسدّ. نظرت إلى دوّامات المياه، إلى ضغط التيار، هنالك حيث يضطر المسيل كله للتجمع لحظة انطلاقه نحو الهويس، وحيث العنف المتنامى للمياه فى المنطقة الضيقة التى تشبه القُمع.

ــ لو سقطت هناك...؟

ــ مثل هذا الكلام، لا ينطق به لسان.

ــ يا لها من رهبة، يا فتى!

جعلت كتفيها يهتزان بما يشبه القشعريرة.

عبرا مجددًا قنطرة الألواح الخشبية، واخترقا منطقة الأشجار حتى وصلا إلى المكان الذى يعسكرون فيه.

ــ فى ماذا كنتما تفكران؟- قالت لهما أليثيا فور وصولهما-. أتعرفان كم الساعة الآن؟

ــ لن تكون متأخرة.

ــ إنها السابعة تمامًا. احَكم أنت.

ــ نهض ميجيل.

ــ إنها الساعة المناسبة للملمة (الفَرْشَة نصف كُمّ) والصعود إلى أعلى.

ــ ألا تدرون أننا وقعنا فى مشكلة؟

ــ ماذا حدث لكما؟

ــ أوقفنا شرطيان هناك- حكت ميلى-، بحجة أن الواحدة لا يمكن أن تتمشى كما يحلو لها، وأن من الضرورى تغطية كتفىّ العاريين. الحقيران!

ــ صحيح؟ يا لها من نكتة! ألا يسمحون بالشىء نفسِهِ هنا؟

ــ بلى، يسمحون كما هو واضح.

ــ إنها مجرد رغبة فى إلزام الناس بتفاهات لتكدير حياتهم.

ــ لا فَضّ فوك- قالت أليثيا -. حسنًا، والآن هيا لارتداء ملابسنا. انهضى يا بولينا.

ـ ليست لدى رغبة فى التحرك من هنا. لا ضيْر فى البقاء لـبعض الوقت والصعود بعد ذلك.

ـ تخرجين علينا الآن بمثل هذا الكلام؟ هيا، يا امرأة، لـدينا موعـد نلتقى فيه مع الآخرين. سترين كم سنقضى وقتًا طيبًا.

ـ لا أدرى ماذا أقول لِك.

ـ اتخذى القرار الذى تريدين، ولكن بسرعة.

ـ سنبقى هنا- حسم سيبَستيان الموقف-.

قالت أليثيا:

ـ يا للأسف، يا رجل، كل واحد فى ناحية!

ـ كنت سأذهب معكم عن طيب خـاطر لـو كـان للـرقص فـى تورِّيخون.

ـ مرة ثانية؟- قالت ميلى-. يا لك من رجل! إذا عششت فى دماغك فكرة فلا يوجد منْ يخرجها منه ولا حتى «تاتو».

ـ وهؤلاء، ماذا يفعلون؟

اقترب ميجيل من مجموعة تيتو. كانوا يغنون.

ـ إيه، هل ستصعدون معنا؟

ـ ماذا تقول؟ لم نسمعك– أجاب دانييل–.

ضحكت لوثيتا.

ـ هيا، لا داعى للسخرية. الوقت يمر. ينبغى اتخاذ قرار.

ـ وماذا يجب علينا أن نقرر؟

ـ حسنًا، لنرى هل يوجد شىء هنا غير الكلام. اتركوا المرح جانبًا وقولوا إذا كنتم تريدون المجيئ.

ـ الأمر يتوقف، يا رجل، على الوِجْهَة...

ـ من الواضح أنه لا يمكن الاعتماد عليكم. ليست لدى رغبة فى تضييع وقت أكثر. استمروا فيما أنتم فيه.

استدار ميجيل نصف استدارة ورجع إلى الآخرين.

كان سانتوس وكارمن قد نهضا. مدّت كارمن ذراعيها، لتتمطى، ووجهها ناحية السماء. أنزلت عينيها.

ـ إلى ماذا تحدّق فىّ؟

كان سانتوس أمامها، مستندًا على جذع شجرة. اقتربت منه ومررت وجنتها بالقرب من وجهه.

ـ يا حياتى– قالت له–.

ـ أتأتين معى لارتداء ملابسنا يا كارمن؟

ـ نعم، يا حلوة، سأذهب معك حالاً. سوف أحضر ملابسى.

انحنت لالتقاط الملابس. كان ميجيل ما يزال مستندًا على جذع الشجرة.

ـ اسمعى، يا كارمن.

ـ نعم، يا حياتى– نظرت إليه–.

ـ هل أنت مقتنعة بفكرة الصعود إلى الخان؟

ـ إيه؟ لا أدرى حقيقة. ولكن ما الداعى لسؤالك؟

ـ لا شىء، لأنك قد تكونين متعبة. ظننت أنك متعبة.

عادت أليثيا للمرور من جديد.

ـ هيا، لو كنت ستأتين.

كانت ملابسها فى يدها، وصندلاً أخضر اللون.

ـ أنا جاهزة.

ـ وأنتَ، ارتدى ملابسك أيضًا- قالت أليثيا-. ما الـداعى لوقوفك عندك؟ ماذا تنتظر؟

ـ أنا ذاهب، أنا ذاهب...

كان ميجيل يرتدى ملابسه. تحرك سانتوس. ذهبت ميلـى مـع أليثيا وكارمن. مررن بجوار مجموعة دانييل.

ـ الطيور على أشكالها تقع- قالت أليثيا-.

لم تنظر إليهم ميلى. قالت كارمن:

ـ يا له من يوم جميل، يا بنات! أمسية أحـد ولا أروع تفـتح لنـا أحضانها.

ـ نعم؟- قالت ميلى-. أنت أدرى.

ـ كانت رأس سيبستيان مسنودة على ساقى بولينـا، بينمـا تنظـر الأخيرة إلى حجارة القنطرة المصبوغة بالشمس؛ وإلـى ظـلال القباب فوق المياه، ترابية اللون للنهر.

ـ غدًا هو الإثنين من جديد– قال سيبس–. ستتفجر أزمة فى خـــلال هذه الأيام...

ـ فى الجراج؟

ـ وأين سيكون؟

مرّ فرناندو من أمامهما، واتجه إلى الشاطئ لغسيل شىء ما.

ـ كل يوم عمل أكثر، (حاجة تقرف)! صاحب العمـــل فـــى غايـــة السعادة؛ أما نحن فلا نجنى سوى المزيد من الكدّ والتعب.

ـ لا تفكر فى شىء.

ـ كيف؟

ـ لا تتذكر العمل الآن؟

ـ مستحيل ألا يفكر المرء فى شىء، اللهم إلا إذا كان نائمًا. لا يمكن لأحد أن يُخلّى بينه وبين التفكير المستمر فى أمر ما.

ـ نم، إذن.

وضعت يدها فوق عينيه.

ـ ارفعى يدك. لا يخرج الواحد فى رحلة لكى ينام.

ـــ ماذا تريد، عندئذ؟

عاد فرناندو وهو يعصر المايوه لإخراج ما فيه من ماء.

ـــ ألاّ يكون لدىّ الكثير من العمل. ألاّ أسبّ أيام الآحاد عندما أتذكر باقى الأسبوع.

ـــ كيف الحال؟– قال فرناندو–. ما هذا الكسل الذى نحن فيه؟ أنتما سعيدان لأنه ليس عليكما سوى الركوب والدّعس على دوّاسة البنزين، لتجدا أنفسكما فى غمضة عين داخل مدريد.

ـــ نحن من السادة.

كانت كارمن ترتدى ملابسها، تحدها شجيرات عوسج المنحدر من جهة، بينماميلى وأليثيا تستترانها من الجهة الأخرى بالبُرْنس الذى يمسكان به على شكل ستارة.

ـــ لقد انسلقت وأصبحت مثل سرطان الماء– قالت وهى تنظر إلى كتفيها–.

كانت تحاول جاهدة إخفاء جسدها فى الملابس؛ ومن تحت البلوزة خلعت حمّالات المايوه.

ـــ سأنتهى حالاً، يا جميلتان. لا تنظران– كانت تضحك–.

ـــ أيتها البلهاء– قالت ميلى–؛ إنتِ فاكرة نفسك شهرزاد.

أدخلت كارمن ذراعيها فى كُمَّى البلوزة وأحكمت على وسطها حزام التنّورة. تركتِ بعد ذلك المايوه يسقط على الأرض وأخرجت منه قدميها. جاء صوت فرناندو منبهًا إلى توخى السرعة.

ـــ انتهى بسرعة. لقد جهز هؤلاء.

رنّ شىء ما بين شجيرات العوسج فى أثناء ارتداء أليثيا لملابسها. كان هناك من يُلقى بالحصى من أعلى المنحدر.

ـــ قلة أدب!– قالت ميلى وهى تنظر إلى أعلى–.

شاهدت رأسين تختبئان. قالت كارمن:

ـــ إنهما صبيان.

ـــ سخيف ما يفعلان.

عاد ليرنّ من جديد وابل من الحصى، تساقط على أوراق شجيرات العوْسج. نظرت أليثيا أيضًا.

ـــ الحقير، ليس عنده دم. (يا رزل، يا بايخ)!

هل انتهيتِ؟

ـ نعم، أنا جاهزة.

عاد الآخرون للنداء عليهن بصوت عالٍ.

ـ صبرًا؛ فلن نقوم بإطفاء حريق.

اجتمعن بباقى الشلّة.

ـ هل أخذتم كل شىء؟- سأل ميجيل-.

ـ لا تشغل بالك، هيا.

التفت ميجيل نحو بولينا وسيبستيان.

ـ حسنًا، حاولا اللحاق بنا، فوق، قبل الساعة العاشرة. وإذا تأخرتما، فأنتما تعرفان أننا سنترك لكما الأمتعة والصوانى هناك لكى تحملوها معكما فى الموتوسيكل. اتفقنا؟

ـ نعم يا رجل، سوف نصعد قبل رحيلكم؛ اطمئن.

ـ إلى اللقاء، إذن.

ـ أفضل الأمانى بقضاء وقت طيب.

كان دانييل وتيتو ولوثيتا جالسين متلاصقين وكأنهم كومة، وتتعالى ضحكاتهم.

ـ يا له من ثالوث!

ـ سوف تبقون هنا– قال لهم ميجيل–. أنتم أحرار، ولكن يجب أن تكونوا على علم بأننا سنغادر فى تمام العاشرة. وهكذا، فقد أعذر مَنْ أنذر.

رفع تيتو رأسه وقال لهم بإيماءة طاردة من يده:

ـ اذهبوا، اذهبوا، (وشيلونا) من دماغكم. نحن مستقلون.

ـ استقلال كوبا(*)!– سُمع دانييل وهو يقول خلفهم–.

قالت لوثيتا:

ـ إلى اللقاء.

(*) من المعروف أن كوبا كانت آخر المستعمرات الإسبانية التى حصلت على استقلالها، وذلك إبّان الحرب التى انتصرت فيها الولايات المتحدة الأمريكية على إسبانيا عام ١٨٩٨. وقد كان لهذه الحرب وقْع كبير على شتى مناحى الحياة فى إسبانيا، ومنها الإبداع الأدبى– المترجم–.

كان الآخرون قد ابتعدوا.

ـ سيورطانها معهما فى الشرب، بداعى البطولة– قال ميجيل–. أنا مشفق على لوثيتا.

ـ زوج اليمام هذا– قالت ميلى–.

قال فرناندو لميجيل:

ـ الساعة الآن هى السابعة والنصف، يا فتى. لابد أن هؤلاء قد أصابهم الضجر من طول انتظارنا.

كانوا يرتقون الدّرج رويدًا رويدًا، تاركين أناس النهر خلفهم تحت. كانت ما تزال مجموعات كثيرة من البشر متناثرة فى منطقة الأشجار وعلى الضفة الأخرى، بين الشجيرات القصيرة الموجودة على حافة المنحدر الضارب للاصفرار؛ وفوق أسمنت السد مازالت هناك أيضًا بعض الأجساد العارية التى يشبه لونها، تحت أشعة الشمس الواهنة، طلاء الكروم. أما ظلال أشجار الحَوَر، المجاورة للقناة الصغيرة، فكانت فى غاية الطول والرهافة.

ـ الواحد يجهد نفسه فى الصعود.

كان فرناندو يلهث، بعد وصوله إلى أعلى. توقفت ميلى فى منتصف الدّرج.

ــ انتظروا– قالت لهم من أسفل–. هذا يتطلب التريث والهدوء.

كانت موسيقى الراديوهات تتصاعد، فى اندفاع وعدوانية، مصحوبة بجلبة الروّاد والمياه الهادرة للفيضانات المتوارية تحت الأشجار، والتى يتجاوز هديرها قمم تلك الأشجار، كأنه غيمة غبار ساخن لإحدى الحفلات الصاخبة المخمورة.

ــ يا لك من ضعيفة، يا ميلى!

كانت تصعد على مهل، معتمدة بيديها على فخذيها، ورافعة بصرها نحو الآخرين لمعرفة ما بقى لها لكى تلحق بهم.

ــ لقد انقطع نَفَسى...– تنهدت–.

مشوا بعد ذلك، معطين ظهورهم لمنطقة الأشجار، والأراضى البور، والقنطرة. كانت قمة المنحدر تُخفى النهر وراءهم، والمياه المتسخة بلون اللهب، والشريان العكر، غير الواضح تقريبًا، الذى يجرى بعيدًا فى الأرض المنبسطة، تحت شمس الغروب البرتقالية. مرّوا بين بساتين الكرْم من جديد. كانت يدا أليثيا معلقتين بذراع ميجيل، بينما تريح صدغها على كتفه. ترنّم ميجيل:

ـ هل تذكروا إحضار الفونوغراف؟

ـ يستحقون الشّنق لو لم يحضروه.

ـ لديك، إذن، رغبة عارمة فى الرقص؟

ـ يا له من سؤال!- ردت ميلى-. أنا أحاول بشتى الطرق التسرية عن نفسى ولو قليلا فى هذا اليوم العقيم، ولو حتى لمجرد عدم العودة إلى البيت وأنا محملة بهذا الضجر، لأن عمتى سوف تسألنى فور رؤيتها لي وأنا داخلة بهذا الوجه، عما أعانيه من مرض.

ـ رحمتك يا رب! تشعرين الآن بالضجر بعد كل ما فعلناه طوال اليوم!

ـ (ده بس) كلام!- قال فرناندو-. أنا أعرف ما يدور فى رأس هذه.

ـ ما كل هذا الذكاء؟!

كانوا يشيدون مصنعًا هناك، على يسار الطريق، الذى أصبح ضيقًا حال مروره بين سياج الأعمال والأسوار الشائكة لبساتين الكروم. عنابر طويلة بأسقف أسمنتية؛ والسقّالات خالية. طارت حمامتان.

ـ أنا لا أفهم- قال ميجيل- سرّ شكواكن الدائمة، بما فيكن أختى، من الإحساس بالضجر؛ لا أفهمه البتة. أقسم لكِ أننى لا أستطيع التمييز بين الأوقات التى أكون ضجرًا فيها وبين أوقات التسلية. ربما لأنى لا أشعر بالضجر بتاتًا أو العكس...- كان يهز كتفيه-.

ـ أنت محظوظ.

وبعد ذلك، وعندما شرعوا فى عبور الطريـق العـام توقـف سانتوس وكارمن وناديا بأصوات عالية على أحد ما كان قادمًا. التفت سانتوس إلى عابرى الطريق وصاح فيهم: "هـاهم قـادمون". كـان زكريا فى صحبة آخرين. كان زكريا وميجيل هما أول المتصافحين، فى وسط الطريق، كأنهما زعيما القبيلة.

ـ كيف الحال، أيها الأشرار؟

ـ أخيرًا حان الوقت الذى نرى فيه سحنتكم!

ـ لقد كنا هنالك.

ـ أعتقد أنكم أحضرتم الفونوغراف، أم أن ظنى ليس فى محلّه؟

كانت شقراء قادمة معهم تتعم النظر فى بنطال ميلى.

ـ عند الأشجار؟

ـ نعم، هناك تحت، عند السدّ.

ـ و...؟

ـ لا شىء، جيد.

ـ هذا سيكون مكتظا تمامًا.

ـ وأنتم؟

كانوا قد توقفوا فى وسط الطريق.

ـ ألم يأت دانييل؟

ـ جاء.

كان فرناندو يعانق آخر، يُدعى، كما تُفيد الأصوات العالية التى تنادى عليه، صمويليتو ماديرا، ويلكمه فى ذراعيه. من قميص زكريا المفتوح تُرى خطوط أضلاعه.

ـ جاء أيضًا تيتو، وسيبستيان وخطيبته، ولوثيتا، ولا أعتقد أن هناك المزيد...

ـ (خلاص بقينا مودرن)!

ـ من، أنا؟

ـ لقد تخلفوا وبقوا عند النهر. لا أدرى...

ـ حسنًا، الليل يداهمنا ومازلنا هنا بلا حراك.

ـ ألا تعرفين؟

ـ لا أحد يدرى إلى أين يأخذنا القائمون على «الموضة»!

ـ سيارة قادمة، تنحوا جانبًا.

ـ والاسطوانات؟

ـ إنها مع هذا.

ـ يا له من تراب!

ـ هيا بنا الآن...(*)

جلس ثلاثة منهم على الخندق الترابى الموجود على قارعة الطريق.

ـ ألا تعرفون «مارياپو»؟ إنها من مكتسباتنا الجديدة.

كان وجهها مثل وجوه الصينيات، وشعرها أسود فاحم وأملس. وبما أن أليثيا تعرفها من قبل، فقد بادلتها التحية، بينما كان فرناندو ينظر إلى جذعها ورد فيها؛ مدّ لها يده بالسلام بعد ذلك.

(*) نلفت انتباه القارئ العزيز إلى أن الحوارات التى تجرى منذ لقاء المجموعتين (مجموعة زكريا، ومجموعة ميجيل) وحتى الآن، هى حوارت متزامنة بين أفراد عديدين، ومن ثم يصعب التمييز بين أصحابها. والمؤلف يفعل هذا متعمدًا، فى محاولة منه لنقل ما يجرى فى مثل هذه المواقف، غير عابئ بما قد يلاقيه القارئ من عناء فى التعرف على كلام هذا أو ذاك – المترجم–.

ـ أجل، يا سيدى، ونِعْم المكتسبات!- علّق ضاحكًا-.

تلقت «ماريايو» نظرته بابتسامة دعوب.

ـ تشرفنا...

ـ كانت معنا ست أسطوانات، ولكن المعتوه ريكاردو أفسد إحداها هذا الصباح.

ـ نحن لا نفعل شيئًا هنا- قالت ميلى-. تحركوا مرة واحدة.

ـ أين كنتم طوال النهار؟ لم نهتد إلى وسيلة للعثور عليكم.

ـ نحن نذهب إلى الأماكن الغالية- أجابت الشقراء-. ماذا كنت تظنين؟

ـ نحن أناس أغنياء.

الذى كان يحمل الفونوغراف وضعه فوق شفة الخندق الترابى وأخذ يتأمل خدْشًا على مشط قدمه.

ـ أنت، يا بروفيدن!- قال له شاب يعلق على كتفه جرابًا يتدلى حتى جنبه-. هل هذه أماكن يُترك فيها الفونوغراف؟

رفع الآخر رأسه:

ـ أنا اسمى ريكاردو.

كانت أسنانه تامة وناصعة البياض. ضحك صاحب الجراب. قال ميجيل:

ـ لم يتجمع منا اليوم سوى القليل. وأنتم...؟

ـ عشرة والكلب.

ـ أىّ كلب؟

ـ أنت مهذار. حسنًا، مازلنا واقفين هنا، هيابنا.

كان سانتوس وكارمن قد سبقا، فى الطريق إلى الخان. شرع الآخرون فى السير على مهل، أفواجًا وزُرافات، منتظرين بعضهم البعض. كان فرناندو يأخذ موقعه على يمين مارىايو.

ـ من أىّ حىّ أنت؟، إن لم يكن هذا سرًّا.

أجابت مارىايو ضاحكة:

ــ من حىّ «الكوريوسو»(*)، هل تعرفه؟

كان ميجيل وزكريا يمشيان معًا. أمسكت ميلــى بــذراع أليثيــا وقالت لها:

ــ إنها جميلة. وجهها مثل وجوه الصينيات.

ــ اسمها «كوريانا»، وقد تعرفت عليها فى أكاديمية التفصيل.

التفت زكريا وزعق فيمن معهم الفونوغراف، والذين كانوا مــا يزالون جالسين على قارعة الطريق:

ــ ريكاردو، هيا الآن، الحفل موعده اليوم!

كان صمويل قادمًا مع الشقراء، وهو يضع ذراعه الأيمن علــى كتفها. الشمس الآن فى المواجهة، على خلفية الطريق، فــوق رُبــى قرية كوسلادا. توقفت الفتاتان الأخريــان، فــى انتظــار ريكــاردو وصاحب الجراب.

ــ ما موعد قطار عودتكم؟- سأل ميجيل زكريا-.

(*) اسم الحىّ الذى أجابت به هو «الكوريوسو» ، ولكن الكلمة تعنى أيــضًا الفــضولىّ أو محــب الاستطلاع، ومن ثمّ يُفهم أنها لم تذكر اسم حيّها الحقيقى، وقصدت بإجابتها مراوغة الــسائل وعدم النزول على رغبته فى معرفة عنوانها – المترجم-.

ـ العاشرة والنصف.

ـ أنت مغرم بالسكة الحديد.

ـ موعد الإياب هذا محدد فى التذكرة التى معى.

ـ الوقت يكفى ويفيض. يمكننا من الآن وحتى العاشرة وعشرين دقيقة فعل ما يحلو لنا.

ـ لا أدرى، ربما تزعجنا إحدى الفتيات وتغادر قبل هذا الموعد.

كان سانتوس وكارمن واقفين أمام بيت موريثيو.

ـ ميجيل!- نادى عليه سانتوس-. تعال لحظة لأخبرك بشىء.

كانت كارمن قد استندت على الحائط.

ـ (إيه) الحكاية؟

ـ اسمع، كارمن تشعر ببعض الإرهاق. إنها متعبة، تعرف؟، فضلاً عن أشياء أخرى. وهكذا فقد فكرنا فى الرجوع إلى مدريد. لأننا لو ظللنا هنا فلن نفعل شيئًا على الإطلاق، ألا تفهمنى؟، ولذا فالأفضل لها العودة إلى البيت لكى تنام مبكرًا.

ـ حسنًا، حسنًا، افعلا ما تريانه مناسبًا. إذا كانت تشعر بالتعب، فاذهبا. القرار قرارك. وإن كان يؤسفنى، يا رجل، رحيلكما المبكر هذا، ولكن ما دامت متعبة فالأفضل لها المغادرة.

ـــ سوف أُخرج الدراجة حالاً.

نظر بطرف عينه إلى زكريا ثم أضاف:

ـــ ومعذرة لأننا لن ننتظركم، إيه؟

ـــ الأمر لا يستحق الاعتذار.

ـــ إنها ليست معتادة على الاستحمام فى النهر، تعرف؟، وهــذا مــا أتعبها بالتأكيد.

ـــ (خلاص) يا رجل، (خلاص). لا داعى لشرح الأسباب. تأخــذان الدّراجة، ومع السلامة.

كانوا قد وصلوا جميعًا إلى الخان.

ـــ هل ندخل، أم ماذا؟

كان الجزار الطويل ينظر من لدن عتبة الباب. قال سانتوس:

ـــ لو ذهبتم هذه الليلة إلى بار «ماتشينا» سوف نحسب نصيب كــل واحد فى الرحلة؛ وإذا لم تذهبوا، ففى الغد.

ـــ اتفقنا– ردّ عليه ميجيل–.

شرع الجميع فى الدخول. أخذ منْ كانوا فى الداخل ينظرون إلــى الفتيات، واحدة إثر أخرى، تبعًا لدخولهن.

ـ نحن هنا ثانية.

ـ جميل– قال موريثيو–. ستذهبون إلى الحديقة، أليس كذلك؟

ـ نعم، يا سيدى.

ـ إلى الأمام. تعرفون الطريق.

مشوا نحو الحديقة. كانت ميلى فى ذيل الطابور.

ـ عفارم على التقليعات الحديثة– همهم القروىّ بعد نظره إلى بنطال الفتاة–.

قال له الرّاعى:

ـ فى «القرية» هناك لا ترون هذه الأشياء، صح؟

ـ أبدًا. حدث ذات مرة هناك أن ترجل من سيارة بضعة أشــخاص يرطنون بلغة أجنبية ومعهم سيدة ترتدى بنطالاً، واتجهــوا إلــى الخان لتناول الغداء، وعندئذ امتنعت صاحبته عن تقديم الطعام لهم لاعتقادها أنهم من البروتستانت.

ـ لابد أن يحدث هذا فى«القرية»- قال الراعى-، ولكن ما علاقة الدين بالملابس التى يرتديها المرء؟!

ـ لا توجد علاقة، بالطبع. ولكن ما حدث هو أن صاحبة الخان كانت امرأة شديدة الورع والتقوى، وجاء امتناعها خوفًا من قيام القسيس بزجرها بعد ذلك.

ضحك القروىّ، ثم تابع حديثه:

ـ كانوا قادمين، حسب قولهم، لرؤية الدّير. ولكن، أىّ دير؟، سألهم الصبية مستفسرين. إلى أن قام رجل فى النهاية بإطلاعهم على أربعة حجارة(*)، مرصوصة كيفما اتفق، على رابيَة قريبة، وهى كل ما تبقى من ذلك الدير.كان شيئًا تافهًا للغاية بحيث لا يخطر ببال أحد أن يسميه ديرًا. كان لديهم هَوَس، ولكن كبير برؤية الدير المحظوظ. معلوم أن الناس كلما ازدادت رقيًا وحداثة كلما زاد شغفهم برؤية كل ما هو قديم. المهم أن الأرملة، صاحبة الخان قد خاب أملها وركبها ألف عفريت عندما وجدت أن القسيس نفسه هو الذى يقوم شخصيًا بدور المرشد السياحى

(*) الأربعة حجارة المذكورة هنا كناية عن ضآلة الأثر – المترجم-.

ويشرح للغرباء تاريخ ذلك الجزء التافه من الأطلال. ومن يومها انسدت نفسها عن الكنيسة ولم تعد تواظب على الذهاب إليها وتبخر إيمانها.

كان الجزاران يتسليان بما يسمعان. قال الراعى ضاحكًا:

ـ (شوف) ياأخى، لقد صُدمت المرأة صدمة كبيرة.

ـ القرى تلك فيها حاجات عجيبة- قال الآخر-. الوضع هناك يختلف كثيرًا عن الحال هنا فى هذه القرى القريبة من مدريد، والتى يعرف سكانها الكُفْت ويتمتعون بقدر كبير من الخبث والدهاء.

ـ خبث ودهاء زائدان عن الحدّ- وافقه الراعى، محركًا رأسه-.

كان دون مارثيال يمصّ سنّ قلمه (الكوبيا) الصغير ويدوّن الأرقام على الرخام. قال السائق ذو العفريته المشحّمة:

ـ ستلاحظ بمجرد النظر الفرق بين وضْع «البوجيهات» فى هذا الموديل وبين وضْعها الجديد فى البيجو موديل ١٩٤٦. إنه فرق شاسع- التفت إلى موريثيو-: صُب لنا كأسًا آخر، هيا، لي ولهذا السيد. (شوف) حضرتك، وهذا لأن هناك مصانع تهتم فى كل موديل تنتجه بتلافى العيوب الفنية التى كانت موجودة فى الموديلات السابقة.

ـ فعلاً. وعلى خلاف هذا توجد مصانع أخرى لا تهتم إلا بتغيير الهيكل. ما هو خارجى، ولافت للنظر. أىّ الواجهة، كما نقول. أما بيجو هذه، فهى بالفعل دار صناعة جادة.

ـ دون شك. خُذ- وضع فى يده الكأس التى أعدّها موريثيو-. بالنسبة للسيارات، مثل أىّ شىء، المهم فى النهاية هو الجوهر، ما هو داخلى. مثلما يحدث فى الأشياء جميعها. لماذا ستشذ السيارات عن القاعدة؟

مرّ كل من كارمن وسانتوس، والأخير ممسك بمقود الدراجة.

ـ ذاهبان الآن؟- سأل موريثيو-.

ـ نعم. نحن مستعجلان بعض الشىء؛ أما الآخرون فسيبقون إلى وقت متأخر.

ـ على راحتكما. أتمنى رؤيتكما هنا يوم الأحد القادم.

جفف يده اليمنى بقطعة القماش ومدّها بعد ذلك نحوه.

ـ هذا الطويل هو المكلف بسداد حساب اليوم كله لك- قال له سانتوس فى أثناء مصافحته له عبر طاولة البار-، حتى لا تتعب نفسك فى عمل الحساب الآن.

ـ حسناً، إلى اللقاء قريبًا، عندئذ.

ـ سلامى إلى الجميع، وتمنياتى لحضراتكم بقضاء وقت طيب- قال سانتوس وهو يرفع العجلة الأمامية للدراجة لتخطى عتبة الباب.

ـ هل طلبتم شيئًا نشربه؟

كان الفونوغراف فوق أحد الكراسى، وعائلة أوكانيا تنتظر من موقعها فى الركن المقابل من الحديقة.

ـ ليحضروا إلينا الآن قليلاً من النبيذ.

ـ أنا أشرب «أخنخو»(*)- قال زكريا ضاحكًا-.

كان يغمس قفاه فى التعريشة عند إمالة كرسيه إلى الخلف. كانت اسطوانة الفونوغراف تهتز بعنف فى أثناء تحريك صاحبه لذراع التدوير.

ـ وهذا، ماذا يكون؟- سألت ميلى-.

(*) «أخنخو» : اسم مشروب كحولى خفيف، برائحة الشّيح - المترجم-.

ـ مشروب شرقى– أجاب زكريا، ضاحكًا–.

وجه زكريا، بملامحه الحادة، يشبه وجه كلب سلوقىّ.

ـ مثلك!

ـ ألا تعرفين أننى مولود فى بغداد؟

ـ (باين عليك).

ـ كيف؟ لا أريد أن أخرج لك شهادة الميلاد لأنها مكتوبة باللغة العربية ولن تفقهى فيها شيئًا.

ـ تكفينى كلمتك، يا فتى.

كانوا قد جلسوا جميعًا حول مائدة كبيرة، على يسار باب الدهليز المفضى إلى الحديقة، إلى جوار الجدار الرئيسى للبيت. صاحب الأسنان الجميلة كان واقفًا إلى جوار الفتى الذى يدير ذراع الفونوغراف.

ـ أين الموسيقى؟

ـ قليل من الصبر.

سألت أليثيا.

ـ ما هى الاسطوانات التى أحضرتموها؟

ـ كلها قديمة.

ـ ولكنها تنفع للرقص- قال ميجيل-. فيه منها حتى واحدة لرقصة السامبا.

ـ تعجبنى السامبا.

ـ واسطوانة تانجو للملحن جاردل: «ذئب البحار».

ـ هذه الأخيرة، جديدة بالفعل!- علّق فرناندو ضاحكًا-.

أمالت شقراء صمويل كرسيها إلى الخلف، واعتمدت بكوعيها على إفريز نافذة خلفها، وعندئذ أصبح صدرها مشرئبًا إلى الأمام. كانت ترتدى بلوزة مجسّمة.

ـ اجلسى بطريقة أخرى- قال لها مانويل-.

ـ لماذا؟

ـ سوف تكسرين الكرسى هكذا.

ـ منْ معه الإبَر(*)؟

ـ أنت!

تحسس جيوبه من الخارج فسمع خشخشتها.

ـ عندك حق. أية اسطوانة نضع؟

ـ هل الفونوغراف يعمل الآن؟ ضع عندئذ اسطوانة رقصة الرّومبا.

ـ بل الاسطوانة التى تمسك بها يدى أولاً– قال ريكاردو، ثم وضع يده فى الجراب–. هذه.

ـ لنرى، ما هى؟

ـ لن أقول. إنها مفاجأة.

كان المدريديون الخمسة الذين دخلوا فى منتصف المساء يَشْغلون المائدة المواجهة، بجوار عشّة الدواجن. نظرت بيترا إلى ساعتها.

(*) إبَر (مفردها إبرة)، والمقصود بها هنا الإبرة التى توضع فوق اسطوانة الفونوغراف عندما تدور – المترجم–.

ـ ولكن هؤلاء الأطفال، هؤلاء الأطفال... لقد حان الوقت.

كان سيرخيو قد أدار كرسيه نحو وسط الحديقة، لكي يشاهد الرقص.

ـ سوف يرجعون.

ـ والآخر! إنه جالس هناك خالى البال، غارقًا فى مستنقع النبيذ...

ـ يجب إشعال النار وإعداد طعام العشاء- قالت فيليسيتا بنغمة نصوح وهى مسنودة على والدتها-.

ـ (سيبك). لن يتذكروا شيئًا وهم فى غمرة اللعب- ردت بيترا-.

كان الأربعة ينظرون ناحية الفونوغراف، فضلاً عن مجموعة ميجيل ومجموعة زكريا.

ـ اتركى عائلتك تعيش، يا امرأة.

كان شعاع من الشمس يومض على قوالب فِلْقة من السّور لا تغطيها التعريشة، بين مائدة عائلة أوكانيا ومائدة زمرة الخمسة، وأخذ يتضاءل وينحف شَيئًا فشيًا حتى تلاشى، لتغرق الحديقة كلها فى بوادر الظلمة. ظهرت رأس خوانيتو فوق جدار السور. صدحت الموسيقى.

ـ أماه، انظرى إلى، يا أمى!

صدح الفونوغراف بلحن «الباسو دوبل» لجزر الكنارى.

ـ خوانيتو...! انزل من عندك حالاً. ارجعوا عندى، ولكن طيرانًا، أنتم الثلاثة.

اختفى وجه خوانيتو.

ـ يا إلهى، أطفال شياطين!

تقدمت فتاة ترتدى ملابس الحداد السوداء للرقص مع ريكاردو. كان فرناندو وماريايو يتبادلان الضحكات فى الركن؛ بينما تستعرض الأخيرة بالمكنونات المتنوعة لعينيها الصينيتين.

ـ ما أروعك من فتاة!- قال فرناندو-. لديك عينان، يا بنتى، تحلاّن من على حبل المشنقة. كل عين منهما بمثابة برنامج حافل، بل سهرة ممتدة. نرقص معًا؟

أعلنت ماريايو موافقتها بضحكة.

ـ افتح لنا طريقًا، أنت.

أزاح زكريا كرسيه. مرّ الاثنـــان خلفـــه، وظهراهمـــا يحتكـــان بالأوراق الكثيفةِ لشجيرات العوسج. ظهر موريثيو، حاملاً النبيذ.

ــ ضعه هنا، لو تكرمت.

ــ مرحى- قال موريثيو-؛ جئتم هذه المرة وأنتم مستعدون تمامًا.

ــ ماذا تقصد؟

ــ الجهاز- رفع ذقنه وأشار بها إلى الفونوغراف-.

ــ آه، نعم- أجاب صمويل-. هل لدى حضرتك شيء هنا(*) من أجل الاندماج فى الرقص؟

نظر إليه موريثيو، الذى كان قد انسحب واقترب من مدخل البيت، وقال له والصينية معلقة بيده:

ــ لدىّ...؟ (يا ريت)! ماذا تريدون أن أقدم لكم؟ عجاجة التراب التى تثيرونها رفسًا بالأقدام؟ لن يكون مشروعًا تجاريًا خائبًا، (شوف) أنت!

ثم دلف إلى البيت.

ــ لم يكن سؤالاً سخيفًا- قال صمويل، ناظرًا إلى الآخـــرين-. لـــو رأيت...

(*) المخدرات هى المقصودة بلفظة «الشيء» التى استخدمها صمويل - المترجم-.

ـ لم يكن سخيفًا، بالطبع.

كانت تُسمع ضحكات مارياليو فى وسط الحديقة. مـلأ ميجيـل كأسًا وصبّه فى حلقه دفعة واحدة ثم اتجه مع خطيبته للرقص. كـان صاحب الفونوغراف ما يزال واقفًا بجوار الكرسى.

ـ دع هذا، يالوكاس– قالت له إحدى الفتيات–. إنه يشتغل وحده.

رفع رأسه ثم اقترب. كان زكريا يملأ الكئوس بعناية وتؤدة.

ـ ماذا؟ ألا تثق بالجهاز العتيق؟– قالت–.

ـ إنه يتوقف فى بعض الأحيان. ألا تريدين الرقص، يا«خوانى»؟

ـ الاسطوانة شارفت على الانتهاء بالتأكيد. ولكن، لا مانع.

مدّ كل من صمويل والشقراء ذراعه خلف ظهر الآخر، وأخـذا يتطوحان فوق كرسيهما. كانت الفتاة تغمغم، مرددة مع الفونوغراف، لحن «الباسو دوبل».

عادت مارياليو للضحك. وكز زكريا بكوعه ميلى.

ـ ها هى– أشار إلى المرقص بذقنه الحادة–؛ لقـد اسـتولوا علـى الرفيقة التى جلبتها اليوم لنفسى.

ـ أنت الذى تركتها تُخطف منك– قالت ميلى–. يهمك أمرها؟

احتسى زكريا محتوى الكأس دفعة واحدة.

ـ بل أفضّل البديلة.

ـ أية بديلة؟

أمال زكريا كرسيه إلى الخلف من جديد حتى توارى قفاه بين شجيرات العوسج.

ـ سوف يسقط الكرسى بك يا زكريا على الأرض. أخبرنى، أية بديلة تقصد؟

ـ أنتِ، منْ ستكون غيرك؟

ـ أنا؟– التفتت نحوه–. آه، يا بنى! لقد فهمت الآن. وعندما تعود؟

ـ لن تجد لها مكاناً.

شقّ أطفال أوكانيا طريقهم وسط الراقصين والراقصات. اصطدم خوانيتو بماريايو.

ـ ولكن، يا ولد...!

ـ كان بإمكانك أن تلفّ، بدلاً من مضايقتك للناس- نهرته والدتــه-.
تعالَ، تعال هنا. يا لها من وقاحة!

أمسكت ببيتريتا ونظفت أنفها من المخاط، ثــم بللــتِ المنــديل بلعابها وفركت وجهها به. ضجت الطفلة بالشكوى من جــرّاء شــدة الفرك. أرتها أمها فى النهاية الجزء الذى أسودّ من المنديل الأبيض.

ـ (شوفى)! هل رأيت؟

عندما اقترب فرناندو وماريايو من الفونوغراف أمــسكا عــن الرقص للحظة، ومدّ فرناندو يده وأخّر الإبرة، إلى بداية الاســطوانة تقريبًا. نظر لوكاس فى الحال، لدى سماعه ارتياع الموسيقى.

ـ اترك هذا، أنت. لا تلمسه.

ـ وماذا حدث؟ هل يحتاج الأمر إلى فنى؟

مَثُل ريكاردو إلى جوار الفونوغراف.

ـ إنه سريع العطب. يتوقف لو شمّ رائحة الدخان.

راقب لبعض الوقت سير الفونوغراف وعادوا ثانية للرقص. قال فرناندو لماريايو:

ـ هكذا تتغلغل فينا الموسيقى أكثر، صح؟ ونرقص الــضعف علــى المقطوعة نفسها.

ـــ وهل تعتقد أنك سوف تجعل الوقت يطول بما فعلته؟

سألت بيترا:

ـــ وماذا يفعل أبوكم؟

ـــ إنه جالس مع بعض الرجال هناك.

ـــ إذا كان يقول إن مصباحى الإشارة الأمامية لديه ليسا على ما يرام، فلماذا لم يبادر بالعودة إلى مدريد فى وَضَح النهار، حتى لا يوقفنا رجال المرور ويجبروننا على دفع الغرامة، (واحنا مش ناقصين).

شاهدت موريثيو واقفًا إلى جوار الخمسة، يقدم لهم زجاجة النبيذ الثانية التى طلبوها.

ـــ موريثيو! زوجى معكم هناك، أليس كذلك؟

ـــ فيليب؟ إنه بالداخل أمام طاولة البار. لم يتحرك.

ـــ أريد أن تقول له، لو سمحت، إن زوجتك تسأل عما تفعله هناك، ويجعلك تنسى كم أصبحت الساعة الآن.

ـــ تريدون الفُرار؟

التقط فرناندو كأسًا لدى مروره بالمائدة، دون أن يكف عن الرقص.

ـ أيها العجائز!- صاح فى الجالسين-.

ـ انتظر حتى تأتى اسطوانة الرّومبا! وسترى عندها- ردّ صمويل-. هذا لم يشاهدنى وأنا أرقص، صح، يا زكريا؟ ألا تذكر ما فعلناه منذ شتائين مضيا فى ملهى «لاس بالميراس»؟

ـ وهل تذهبان إلى «لاس بالميراس»؟

ـ مع هذا الداهية، ذهبت أربع أو خمس مرات.

ـ بل أكثر- قال صمويل-. مرّات أكثر.

ـ وكنت تسمحين له؟- سألت ميلى الفتاة الشقراء-.

ـ لم يكن يمشى معى حينذاك. وبما أننى عرفت الآن- هددته بقبضة يدها-. كان سينال جزاءه وقتها.

ـ إنها لا تترك لك الحبل على الغارب يا صمويل- قال زكريا ضاحكًا-. لا تستطيع الإنكار.

ـ هذه؟ أعوذ بالله!

ـ جرّب وسترى ما يحدث لك- قالت الشقراء-.

أمسكت بيد صمويل وأضافت، متجهة إلى ميلى:

ـ ولكنه فتى طيب، تعرفين؟

ـ الثقة فى الرجال مثل الاطمئنان للماء فى الغُربال- قالت ميلى-.

مرّ فرناندو من جديد وترك الكأس الفارغ على المائدة. ملأ زكريا كئوسهم ثانية.

ـ كان صاحب ملهى«لاس بالميراس» شديد التأنق والنعومة- حكى زكريا-، ومنذ ذلك اليوم الذى لاحظ فيه صمويل أنه (حاطط) عينه عليه لم تطأ قدماه المكان ثانية.

ـ كنت تعرفه؟- قالت الشقراء-. ماذا كنت تعرف؟- كانت تضرب صمويل بتصنع ودلال.

ـ أبداء يا امرأة، أبدا. ليست لدىّ أدنى فكرة عما يقول.

ـ أنت مشوش الذهن يا زكريا- قالت الشقراء-. هل تريد أن أثبت هذا لك؟

ـ دعيه الآن- قال صمويل-.

ـ نواياك سيئة– قالت له ميلى–. تريد أن توقع بينه وبين خطيبته.

ـ أنا؟ الكلام يدخل من هنا ويخرج من هنا. ما فات مات. لن تداخلنى الغيرة بسبب ما يقوله هذا أو ما لا يقوله.

أخذ زكريا جرعة من كأسه ثم قال:

ـ لقد حرمتينى يا «ماريا لويسا» من أعز أصدقائى، وانتزعتيه منى إلى الأبد. هذا هو لبّ القضية. ولا تظنى أننى سأغفر لك هذا بسهولة.

ـ آه، (شوف)، وهذا أيضًا له حلّ، وفى غاية البساطة. إذا كنت، كما تقول، تفتقد كثيرًا إلى صمويل فعليك أن تبحث لنفسك عن خطيبة لكى نشكل مجموعة نحن الأربعة، تقدر؟

ـ ليس الأمر سهلاً– أجاب زكريا–.

ـ هل هذا ما تعتقده؟– قالت الشقراء–. أنا أرى أنه بمقدورك.

قالت ميلى:

ـ سوف أُخرج سجائرى. هل ترغبون فى التدخين؟

كانت حقيبتها معلّقة على مسند الكرسى.

كان ميجيل وأليثيا يرقصان فى صمت.

ـ (هزّ طولك شويّة)– قالت مرتدية السواد لريكاردو–. ألا ترى أن حماسى ينخفض بسببك؟

ـ لابد أن أكون مزوّدًا بساقى «مولوينى» لكى أستطيع مجاراتك فى الرقص، يا بنتى.

ـ أنت تبالغ قليلاً.

ـ ماذا؟ هل نُرجع الإبرة مرة أخرى؟– قال لهما فرناندو عند تقابلهما–.

ـ أنت مثل الباحث عن حتفه بظلفه. سوف يقتلك لو لمست الفونوغراف ثانية.

ضحك فرناندو.

ـ سنتركه ينتهى وحده...

ثم ابتعد مع ماريايو ليعاودا الرقص، ولكن بسرعة أشد. كانا يدوران أكثر من الآخرين، ويضحكان، وتتلاشى حولهما هيئات الراقصين جميعًا. قالت ماريايو:

ـ (بقى هى دى) المشهورة ميلى؟

أجابها:

ـ هل سمعت عنها؟

ـ ومنْ الذى لم يسمع عنها؟- ردت-. شهرتها ليست بالقليلة!

ـ لم أكن أعرف أنها مشهورة هكذا.

ـ حدثونى عنها مرات كثيرة، وعلى وجه الخصوص أليثيا التى تحبها حبًّا جمًّا على ما يبدو. ومن كثرة ما سمعت من الإشادة بأوصافها تخيلتها أعظم من هذا بكثير. أوه، يا ميلى!

ـ أعظم، فى ماذا؟

ـ أىّ أنها، يا فتى، امرأة فاتنة، وشىء غير عادى.

ـ بمعنى أن أملك قد خاب بعد رؤيتها؟

ـ يا رجل، إنها جميلة بالفعل. ولكن، يعنى. ليست...

ـ ماذا؟

ـ ليست مثل الصورة التى رسمتها لها فى خيالى.

كانا ينظران إليها، فى لفتات سريعة، بينما يتحدثان عنها ويرقصان. لم يتكلما عنها بعد ذلك، وإن كانت ماريايو لم تكف عن النظر إليها: لقد أشعلت الآن سيجارة. توقفت الموسيقى. ظلت الإبرة تخدش الخطوط الحلزونية للاسطوانةِ. انطلق لوكاس وقام برفعها فى التوّ.

ـ ما رأيكم؟

ـ أكثر من رائع.

عادوا إلى المائدة. جلست أليثيا على يسار ميلى؛ قالت لها:

ـ ألم تأتِ وكلك حماس للرقص...؟

هزّت كتفيها وتحاشت الإجابة بإيماءة.

ـ ألا تريدين سيجارة؟– سألتها–.

ـ شكرًا، يا إميليا، فيما بعد– ردت أليثيا وهى تنظر إلى ذراعيها–.

قالت بيترا لأبنائها:

ـــ ارتدوا ملابسكم، يا أولادى، حتى لا تُصابوا بما لـــيس فـــيكم(*). سنرحل فى الحال، فور عودة أبيكم. فـــوق هـــذا، يـــا أمـــاديو؟ يا للاشياء التى تخطر ببالكم!

كان يرتدى البنطال فوق المايوه الذى يلبسه. قال لها:

ـــ إنه جاف الآن، يا أمى. إلمسيه، (شوفى)، إلمسى...

ـــ آى، لقد اتضح أنك أيضًا من الذين يراعون الشرف. هيا، تعـــرّى هنا خلف الكرسى، لو كان لهذا السبب. توخى الحـــذر، واســـتتر جيدًا، حتى لا يرى الناس ما تحرص على إخفائه فينتابهم الفـــزع ويشرعون فى الجرى، (يا شيخ روح)! وهل لديك شىء يجعلـــك تخجل بهذا الشكل...!

وصل خوانيتو إلى جوار بيترا وهو يُحكم وضع حمّالة البنطـــال على كتفيه. ومن مائدة زمرة الخمسة سُمعت فتـــاة تُغنـــى بـــصوت خفيض.

(*) المقصود بما ليس فيكم: نزلة البرد. ولم تصرح بها الأم لأنها من اللواتى تعتقدن فى الخرافات (مثل الخوف من الحسد، وعدم التصريح بالنعمة فى حضرة الأغراب، وتفادى التلفظ بما تخاف أن يحدث لها أو عائلتها...إلخ)، شأنها فى ذلك شأن الطبقة الشعبية، محدودة التعليم والثقافة - المترجم-.

ـ انتهيت؟

لم يجب أماديو. لم يكن يتحرك فى شبه الظلمة، خلف الكراسى. كان يبكى.

على قارعة الطريق العام، وإلى جوار مزلقان السكة الحديد، يجلس الآن شحاذ. طرفا فخذيه المجدوعين مكشوفان، ويستريحان فوق صفحات كبيرة لجريدة، مبسوطة على الأرض. كانت السماء ضاربة للاخضرار من خلف أطلال مصنع «سان فرناندو دى هنارس».

كانت تصل إلى فاوستينا، فى أثناء تنقيتها للعدس على المشمّع وتحت ضوء النافذة، الأصوات من الحديقة.

أعتمت القوالب الحجرية للقنطرة شيئًا فشيئًا، وانصرف شعاع الشمس مبتعدًا من على الضفة الأخرى. تابعت بولينا بعينيها الشعاع فيما وراء الأراضى البور، ناحية هضاب «ألكالا»، حيث تصطبغ ذراها الضاربة للبياض باللون النحاسى، مصليّة فى نار متربة ومعتمة.

ـ إلى ماذا تنظرين؟

ــ لا شيء.

رفع سيبستيان يده حتى لامس وجه بولينا. قالت:

ــ هل أنت بخير؟

كانت تمرر أصابعها بين شعره.

ــ تجولت كثيرًا فوق هــذه «الماركـــة»...! (شــوف) حــضرتك: سنتندير، بلد الوليد، مدينة ألكــامبو، بالنثيــا- كــان يعــدّ علــى أصابعه-، برغش، أستورقة، تورو، لاكورونيــا، كــل منطقــة جليقية، بونفرّادا، ميناء باخارس، أوبييدو، سافرت إلى كــل هــذه الأماكن بالبيجو، وسمّورة، وبينياراندا، وشلمنقة... القطــر كلــه! ولو ظللت أعدّ فلن أنتهى. وأنا فــى ســنّ العــشرين والخمــس وعشرين لم يكن يرهبنى الطريق آنذاك، ليلاً أو نهارًا. فى مثــل هذا العمر، كما تعرف حضرتك، لا توجد حدود لطموحات المرء، يبغى أن يحوط بذراعيه على ما لا تتسع له قدرته، ويرى العــالم صغيرًا أمام ناظريْه. وعلى هذا لو كلفونى برحلة ما وفــى أيــة ساعة لم أكن أسأل عن الوجْهة، بل أقفــز مــن علــى الــسرير وأشطف وجهى بحفنة ماء بارد، وإلــى عربــة النقــل. الأمــر لا يختلف، سواء كانت الرحلة إلى سمّورة لإحضار شــحنة ثــوم

أو إلى بَسْكونية من أجل شحنة حديد. وهل يفرق الأمر معى؟ ألبس العفريته وأسوق. املأ، ياموريثيو، من فضلك. كان لدىّ ابن آوى، مُصفّحة! كان مُصفّحة ابن آوى ذاك! جوهرة نفيسة! لم يكن ينسانى الحيوان لأنى لا أكاد أُفارقه(*). يا لأنيابه القواطع! ولذا أقول لك إننى لا أنتظر أن يحدثنى أحد عن قيمة البيجو لأنه لا يوجد شىء يقارعها.

إلى جوار المزلقان كان الشحاذ يهصر بيده طرفى الفخذين المجدوعين ويرتل عبارات إحسان للصاعدين من النهر باتجاه محطتى السكة الحديد وأتوبيس النقل العام.

كانت العتمة قد نمت بين شجيرات العوْسج والكرْم الأمريكى.

ـ يا إلهى! فى ماذا يفكر؟ ألا يدرى كم الساعة الآن...!

كانت فيليسيتا تنظر ناحية مائدة ميجيل وزكريا؛ تلاحظهم جميعًا، وتتابع كل كلمة وكل حركة صادرة عنهم.

ـ لتأتِ أية اسطوانة كانت. إنها جميعًا سواء بالنسبة لنا، وفيما يخصّ الرقص...

(*) الحديث هنا يدور حول سيارة نقل «ماركة البيجو» والتى تحمل شعار ابن آوى، وهو حيوان من الفصيلة الكلبية يشبه الذئب وأصغر منه حجمًا – المترجم–.

كانت الفتيات تستعرضن بأذرعتهن، يحركونها تارة، وينظرون إليها تارة أخرى، ويملّسن بأيديهن على جلودها. أغلق أحد ما، منذ هنيهة، ضلفتى تلك النافذة، الموجودة خلف رأس الشقراء. لا يمكن، تقريبًا، التعرف الآن على تعبيرات وإيماءات الجالسين فى بوادر العتمة، تحت التعريشة. كان القط يتجول، مترصدًا، فى أركان الحديقة.

"معذرة على الإزعاج المستمر لحضراتكم، وعلى إشاعة العاجز المسكيّن للكرْب فى النفوس الكريمة! وقاكم الله شر فقدان المجدافين(*) فى هذه الحياة! قطعة نقود، يا مؤمنين، من أجل رجل لاحول له ولا قوة! شريحة ألومنيوم من أجل الخبز الذى لا يستطيع العاجز كسبه!".

كانت عارضتا المزلقان تهبطان، وقطع النقود تتساقط فوق صفحات الجريدة، إلى جوار الفخذين المجدوعين.

ـــ على فكرة – قال الراعى– معى هنا قطعة جبن باقية من غدائى.

قلّب فى الصرّة، بين أوراق. خرج من اللّفة الصغيرة مثلث جبن وردىّ.

(*) فى لفظة «المجدافين» استعارة مكنية، لأن المقصود بها «الساقين» – المترجم–.

ـ مرحى، جبن ضأن! هذا جيد. (كويس إنك بتفتكر) ساعة الغـذاء حجز شيء من الأطايب للأصدقاء.

تتواصل مباراة الدومينو، محبوسة فى ضغينتها، بـين فتـرات صمت طويلة تتخللها كلمات موجزة والرّميـات القاسـية الـصاخبة للكسيح. وفى نهاية كل دوْرة لعب تتفجر الأصوات والتعليقات.

ـ تتراجع كثيرًا شهية المرء عندما تشتد وطأة الشمس ظهـرًا فـى الحقول.

وضَع قطعة الجبن على ألواح طاولة البار وقطعها بمطواة:

ـ ها هى- قال، مُغْلقا المطواة-. تفضلوا. إنه قليل... ولكنـه كـل ما لدىّ.

ـ تتمنى كثير من بارات ومحلات مدريد المتشامخة والمزهوّة تقديم مثل هذا النوع من الجبن «مزّة» لزبائنها.

ـ بدون شك- أمّن القروىّ على كلامه-. وحضرتك، ألن تأخذ منه؟

ـ اعفونى، شكرًا جزيلاً.

التفت إليه الراعى:

ـ ألا تريد جبنًا؟ يا رجل، خذ ولو نذرًا يسيرًا، حتى لمجرد أن تقول فيما بعد إنه سبق لك تذوقه. آه، يا سيد لوثيو! كأنى بك أحد المثقفين الذين يتعاطون التفكير! وإلا، فما هو التفسير؟

شمّ أثوفرى رائحة الجبن وهزّ ذيله، منتظرًا القشور.

ـ لاشك أنه هذا الرجل- قال موريثيو-. تصوّروا أنه لم يتناول غداءه اليوم حتى الآن...

ـ هذا شىء غير مستحب.

ـ أيها الماكر!- صاح كوكا/كونيا-. لقد أحسنت التقدير. مقفولة بالضبّة والمفتاح، نعم يا سيدى. لقد أخذنا زمام المبادرة هذه المرة، لنفتتح اللعب فى الدورة التالية. إيه، يا مارثيال! كيف الحال؟ هيا، عدّ ما بيدك من أوراق، عدّ...

ـ عدّها أنت، لأنها لك- ردّ عليه دون مارثيال-.

كان أثوفرى يلتقط من الهواء قشور الجبن التى يلقيها له التشاماريس.

ـ هل ما زال يتذكر أن علينا إعداد العشاء؟ وأن أولاده ينبغى أن يأووا إلى الفراش؟

كانت تطوى الفوطة وتفردها مرة بعد أخرى.

ـ ويقول إنه بدون كشّافات؛ ولم يبق شيء من ضوء النهار...

كانت تنظر إلى السماء.

ـ كنا نتناول سندويتش مع بزوغ الفجر فى «ألبا دى تورمس»، وفى السادسة نكون قد وصلنا إلى «سمّورة». تنطلق كالقذيفة عند صعود المرتفعات. وهل يفرق معها الصعود أو الهبوط؟ كل الطرق عبارة عن سهل بالنسبة لها. اشرب، المزيد من النبيذ قادم.

كان أوكانيا يمتثل بطريقة آلية.

كانت بولينا تنظر ناحية السهل، إلى السكة الحديد فوق المنحدر. يأتى راكضًا على السكة المستقيمة قطار بريد «وادى الحجارة». رفع سيبستيان معصمه ونظر إلى الساعة. غيّر موضعه، بتنهيدة كسولة. فى الخلفية، وعلى هضاب «الشرق»، كان ضياء الشمس قد غادر الذُّرى الأخيرة.

"أطال الله بقاء القلوب الرحيمة! ولينعم الرب من فضله على كل فتى وفتاة، ويمتعهما بالصحة والهناءة اللتين حُرم منهما

العاجز المسكين! معذرة لأصحاب النفوس الكريمة على إلحاحى الدائم، ومضايقتى المستمرة لحضراتكم! لله، يا محسنين! خمسة ملليمات من أجل سليل النكبة...!".

أغلقوا المزلقان. كان يجرى عدد من النساء.

ــ ولو رجعنا عن طريق بيكلبارو؟

لم تسمعه كارمن. كانت ملتفتة إلى ضجيج القطار الذى يصل متناميًا من على القنطرة، وساعداها يعتمدان على العارضة المطلية باللونين الأبيض والأحمر للمزلقان. "سنلحق به، سنلحق به، لا تجرين..."، كانت النسوة تصرخن دون أن يكففن عن الجرى. كانت الأرض ترتعد، وسانتوس يسند الدراجة، ممسكًا كرسيها الصغير بيده.

ــ اسمعى، سأحتفظ لك بمكانك، يا ميلى. أظن أنك ستعودين إليه. أليس كذلك؟

كانت خارجة للرقص مع فرناندو؛ التفتت برأسها:

ــ نعم يا زكريا، احفظه لى– تبادلا النظرات–. أشكرك على هذا.

كان الفونوغراف يصدح برقصة التانجو.

مرّ القطار بنفخة غيظ البخار التى تشبه آلافا مؤلفة من مضاعفات حرف الـF الحانقة، متبوعة بصخب طويل لدوىّ العجلات الحديدية، التى زعقت الآن لدى كبح جماحها فى المحطة. توقف الذيل على مسافة لا تزيد عن عشرين مترًا من المزلقان. تدافعت جماهير غفيرة على أبواب العربات.

ـ ماذا ننتظر؟

كانت عارضتا المزلقان قد ارتفعتا مرة أخرى وشرع الناس فى عبور السكة الحديد.

ـ كنت أقول ماذا لو ذهبنا من ناحية بيكلبارو، ثم نأخذ بعد ذلك طريق بلنسية لكى ندخل مدريد من باييكاس(*).

ـ ألن تكون لفّة طويلة؟

ـ بعض الشىء، ولكننا سنتفادى حركة السيارات العائدة إلى مدريد بعد قضائها يوم الأجازة خارجها: إنه طريق شبه خال، ومحاط كله بالحقول.

(*) باييكاس (Vallecas): أحد الأحياء الشعبية الذى كان يقع آنذاك فى الطرف الشرقى للعاصمة الإسبانية، ولكن التوسعات الجديدة للمدينة قد تجاوزته حاليًا بعدة كيلومترات. أما «بيكلبارو» فهى إحدى القرى القريبة من نهر الخراما – المترجم–.

ـ هيا إذن، إذا كنت تعرفه. ألم يتأخر الوقت؟

سحب الدراجة إلى قارعة الطريق، توقف ثم مدّ ساقه اليمنى على الجانب الآخر من الكرسى، مثبتا قدميه على الأرض:

ـ اصعدى.

ركبت كارمن أمامه على العارضة وأمسكت بمقود الدراجة.

ـ اتركانى وشأنى! لا أريد شيئًا منكما.

كانت منطقة الأشجار غارقة كلها فى العتمة.

ـ ولكن، ماذا فعلنا لك؟ تعالَ هنا، يا دانييل...

ـ لا شىء. لم تفعلا بى شيئًا. تُطبقان على نَفَسى!

كان قد مشى بضع خطوات، مبتعدًا عن تيتو ولوثيتا، ثم خرّ، منكفئًا على وجهه فوق التراب. الآن، لا يمكن تقريبًا تمييز الأرض عن مياه الخراما.

"فى كوخ من الأكواخ/ إلى جوار البحار/ حيث تزمجر المياه العاتية/ كانت تعيش سعيدة هانئة/ مع أفراخها الصغار/ رفيقة الصياد...".

على الحائط الخلفى، كانت أشكال الصور المطبوعة بالألوان قد تعكرت، بعد انتشاحها بالظلام.

ـ أبى، هيا بنا.

ـ حالاً، يا بنى، قل لوالدتك إننى قادم الآن. الكـأس الأخيـرة مـع الندماء، هيا، يا موريثيو، قدّم الشراب للجميع هنا، وعلى حسابى. قل لأمك أنا قادم فى التوّ...

كان قد خرج من على مائدة الخمسة شاب وفتاة للرقص. علّـق فرناندو:

ـ ومن الذى أعطى الإذن لهذين بالرقص على موسيقانا؟

ـ دعهما – قالت ميلى–. وهل يضيرك هذا فى شىء؟

ـ أبدًا، ولكنها وقاحة.

ـ وهل كان من المفروض أن يطلبا منك الإذن؟– ردت عليه–.

كان زكريا ينظر إليها من موقعه، بينما يغـنّ(*) الفونـوغراف بالصوت القديم لجارديل.

(*) يغنّ (مضارع غنّ): أىّ الصوت الذى به غُنّة – المترجم–.

طلبت نينيتا من سيرخيو اصطحابها للرقص.

ـ يا امرأة، لقد فات سنّ الرقص بالنسبة لنا. إضافة إلى أن بيترا مستعجلة.

ـ آه، لو كان للسبب الأخير- قالت بيترا- فأمامكما، كما يُنبئ الحال، متسع من الوقت يكفى حتى لرقصة «الريجودون»(*). ماذا، يا بنى؟ ماذا قال لك؟

ـ إنه قادم الآن.

تركا خلف ظهريهما الطريق وصوت الشحاذ. كان سانتوس يُبدّل، منحنيًا، وصدغه ملاصقًا لصدغ كارمن.

ـ يمكن أن نضل الطريق ونتوه- قالت هى-.

ـ أتخافين من أن نتوه؟

ـ ليس كثيرًا- ابتسمت وهى تحك وجهها فى ذقن سانتوس-. مادمت معك، فالأمر سيّان. سنكون من شهداء النهر.

يمر الطريق الآن بين بضعة بساتين، فى ضواحى كوسلادا. الشجيرات آخذة فى الاسوداد تحت الشفق الأحمر. بقيت كوسلادا خلفهما.

(*) «الريجودون» : اسم رقصة قديمة تتطلب كثيرًا من الوقت لطولها الشديد – المترجم-.

ـــ شيء مؤسف. لقد أصابنا هذا الرجل بالإحباط- قال تيتو-.

ـــ دعه وشأنه. لا تشغل بالك.

ـــ وكيف لا أشغل بالى! أنا حزين لانفصاله عنا.

أحس بذراع لوثيتا فوق ذراعه. قالت:

ـــ لن يحدث له شيء، ويستمتع بوقته سيّان. ألا تعتقد أنه لا ضرورة أيضًا لوجوده معنا؟ أم أن هناك ضرورة؟

ـــ يا امرأة كنا معًا، نحن الثلاثة.

ـــ والآن أصبحنا اثنين. ألا تعتقد أنه كلما قلّت الأجرام كلما زاد الصفاء والوضوح؟

ـــ عن أىّ صفاء تتحدثين، إذا كنت أرى كل شيء معتمًا؟ من كثرة ما شربت من نبيذ، لا تظنى أننى أرى شيئًا واضحًا الآن.

ـــ آه، ولا أنا- قالت، ضاحكة-.

قرّبت منه وجهها وأضافت:

ـــ أنا سعيدة بعض الشيء، تعرف؟- كان البريق يشعّ من عينيها-. اترك دانى فى حاله، إذا كان يريد أن يغفو قليلاً، فليفعل. لقد قال إنكما تُطبقان على نفَسى. اسمع، يا تيتو.

ـ ماذا؟

من لدن الضوء المبهم لقاع المنخفض تراءى برج بيكلبارو، ومدخنة مصنع أسمنت بالديرّيباس. كان كل شىء ملوثًا بالدخان. لا تصدر عن الدراجة جلبة فى التراب، باستثناء تعشيقة الجنزير التى تُكرر، فى فواصل زمنية متساوية، صريرًا واهنًا. كانت كارمن تحس بلفح أنفاس سانتوس لجانب من وجهها. ترجّلا لعبور خط سكة حديد أرجندا. كان أحد ما ينادى على آخر فى الحقل.

ـ ساعدينى، يا كارميلا.

جرجرا الدراجة إلى أعلى المنحدر. توقفا أعلاه، إلى جوار قضيبى القطار.

ـ اعطنى قُبلة.

كان يُرى خيال «المُدَوّر»(*)، هضبة منفردة تنتصب هنالك فى الأمام، قريبة ومظلمة، فى مواجهة ضياء الصفاء الواهن والضارب للاخضرار لسماء الغرب.

(*) «المدوّر» هى إحدى القرى القريبة من نهر الخراما، وهى تحمل اسمًا عربيًا كما نرى. ونلفت النظر إلى أن أسماء الأعلام الجغرافية الواردة بالرواية كلها حقيقية، ومعظمها لقرى متاخمة أو قريبة من الخراما، مثل: بيكلبارو، بالديرّيباس، أرجندا، سان فرناندو...إلخ. – المترجم–

ـ الموسيقى للجميع. من الجائز أن ينتمى الفونوغراف لشخص ما، ولكن الموسيقى لا تخص أحدًا بعينه. الموسيقى ملك لكل من يسمعونها.

الزجاجات لا تلمع الآن على الأرفف. تثاءب موريثيو. قال القروىّ:

ـ منعك الانهماك فى الحديث مع الصديق من تذوق الجبن؛ وجبن النعاج ليس كمثله شىء. إنه من هنا- أشار ناحية الراعى-، هذا يجيد عمله، وإن كان لا يجيد شيئًا سواه.

وافقه الرّاعى:

ـ نعم كان يسرنى أن تتذوقه، لكى ترى حضرتك أن الأشياء الموجودة هنا ليست كلها سيئة. ولكن ما حدث هو أننى لم أجرؤ على إقحام نفسى وصرْفك عن المحادثة.

ـ مهلاً يا سادة! وإذا كان من حقنا على هذا السيد أن يقطع على نفسه عهدًا بالعودة إلى هنا فى يوم آخر. ولكن وحده فحسب، بدون عائلة ولا التزامات جانبية. يُبلغنا قبلها بوقت كاف، لكى نعمل حسابنا ونذبح له جديًا، حقًا يا سيد كلاوديو؟، ونعدّه له

إعدادًا جيدًا. ما دامت هناك سيارة فلا توجد أدنى مشكلة في القدوم. سيرى، سيرى... أن قضاء الأوقات الممتعة ليس حكرًا على مدريد، وأنه يتم في القرى أيضًا تنظيم الحفلات الصاخبة التي لا تقل شيئًا عن غيرها.

وضع يدا حانية ودودة، للحظة فقط، على كتف أوكانيا.

أدركت فاوستينا فجأة أنها لا تكاد تميز حبات العدس على المشمع. رفعت عينيها نحو النافذة: في ضياء الحديقة بليت الألوان، وأخذت في الانطفاء والبرود، لونًا لونًا، لتنصهر في رمادية رفاتها. خلعت فاوستينا عدستيها وتركتهما فوق المشمّع.

"... وفي المياه/ المضطربة/ هلك ذئب البحار".

شنبر العدستين من الباغ (السيلوليد) الأسود. نهضت فاوستينا من على الكرسي لإضاءة النور الكهربي.

ـ (شوف) أنت ومزاجك، في اليوم الذي تختاره حضرتك. ما عليك إلا أن تُرسل لنا قبلها بيومين، وفي الحال سوف يُنصب المولد. وسترى ساعتها كل ما يسرّ الخاطر.

ـ لا أشك فى هذا، ولكن سيكون صعبًا فى الوقت الحالى. موريثيـــو يعرف هذا ويقدّره، أليس كذلك؟ ولا تعتقد حضرتك أن هذا نـــابع من فقدان الرغبة، بل إنه لمن دواعى سرورى تلبية هذه الـــدعوة الكريمة لو سمحت الظروف. وعلى أية حال أشـــكر لحـــضراتكم وبنفس القدر الاهتمام بإسعادى وإشاعة البهجة فى نفسى.

ـ وهل للشكر هنا من مجال؟ لا داعى للشكر. لا شىء مـــن هـــذا. الشىء الوحيد الذى يجب أن تفعله هو المجيئ. أما خلاف هـــذا، فلا...

ـ لا يُرى هنا ولا حتى راحة الكفّ، أنت!- انفجر كوكـــا/كونيـــا-. أنا لا أميز الوجوه الثلاثة التى أمامى من الجصّ! لنرى ما يحدث هنا! مراعاة أكثر قليلاً للزبائن وحرص أقل على الاقتـــصاد فـــى الكهرباء! المسكين سنيدر يرفع ورق الدومينو إلى أعلى، باحثًـــا عن الضوء، ليتمكن من معرفة ما يلعب به. أعتقد أنه يخلط الآن بين«البياضة» والأوخين الذى يشربه كارميلو.

ـ اغلق فمك، يا مسخ الموالد وعبرتها!- نهره دون مارثيال-. بهذا البوق الذى لديك يبدو وكأنك تغرز عود بوص فى أذنى الواحـــد كلما رفعت صوتك.

ـ من هو مسخ الموالد وعبرتها، يا ذا القدمين المسطحين؟ إنك لو شرعت فى السير تمشى منك قدم ناحية فرنسا والأخرى جهة البرتغال.

ـ انظروا إلى خيشة الأرضية التى لم تُفرغ فضالتها لسوء عصرها! (ولك عين) تتجرأ وتهين غيرك! ليت المهتمين بالسلالات يتوصلون إلى معرفة كيف استطاع أسلافك أن يقدموا للعالم منتجًا فى منتهى الغرابة والصعوبة! أتدرى أنهم قد أتحفونا بهدية!...

ضغط موريثيو على زرّ الكهرباء.

كان نور المطبخ قد خرج إلى الحديقة، من خلال مربّع النافذة المضاءة، ولكنه ما زال يضمحل فى الجلاء المبهم للشفق.

ـ تصورى– قالت بيترا– أن الليل سيحل الآن. ها هو.

كان فيليب أوكانيا قد ظهر فى باب الحديقة، وأخذ يشق طريقه نحو مائدة عائلته.

ـ لقد شاركنا من منطلق الاستفادة من (شوية) الموسيقى، والتى لا تكلف أحدًا شيئًا. وبهذا الشكل لا تضيع الموسيقى هباءً، ويحقق الفونوغراف أعلى مردود له.

ـ نعم يا رجل، لم يكن هذا إلا بمثابة إضفاء بعض الإثارة على صخب الحفل. منْ هو الذى كان سيخطر بباله التصدى لكما، ومنعكما من المشاركة؟

ـ (حصل خير)، والآن ندير ذراع الفونوغراف لتشغيل الاسطوانة التالية، لكى يتوزع التعب والإرهاق على الجميع ونتم ما يتوجب علينا فعله، أليس هذا حلاً مناسبًا؟

كان صمويل قد أخرج غليون «الكيف» ويمرره الآن، مشتعلاً، إلى زكريا.

ـ زوْج الحشاشين!- قالت لولى-. وما هى المتعة التى يمدّكم بها هذا الغليون؟

ـ انظر إلى فرناندو الذى كان يقطّع منذ لحظات فى فرْوة هؤلاء الناس.

ـ وهل مرّ موقف من المواقف لم يدسّ فيه أنفه..!

ـ وهل تسمحين له بتدخين هذه السموم؟

هزّت ماريا لويسا منكبيها:

ـ ولم لا؟

ـ ربما تكونين مغترة بما يفعل. تعتقدين أنك فى صحبة رجل ذى باعٍ عريض فى المغامرات لمجرد تدخينه لهذا المسحوق.

ـ لا شيء من هذا. ولكن إذا كان يجد فيه متعة، فلماذا أحرمه منها؟

ـ لن يعود هذا على صحته بأىّ خير.

ـ حسنًا، ماذا؟ ألن تضعوا اسطوانة أخرى؟

ـ انتظرى، استريحى ولو قليلاً. معنا خمس اسطوانات، فهل تريدين أن نضعها واحدة تِلْو أخرى؟

ـ خمس؟ إنها عشر.

ـ بعضها معطوب الظهر؛ يبدو لي أن اثنتين منها لا تدوران دوْرة كاملة.

ـ حتى لو كانت ثمان اسطوانات، فلن نجد الوقت الكافى لتشغيلها جميعًا. ولا حتى الوقت.

ـ حسنًا، يا ماريايو، نحن نعرف هذا جيدًا. لا تكبسى إذن على أنفاسنا بتكراره حتى لا تجعليه لنا أقصر مما هو عليه، لا تزعجينى.

ـ ومن أجل ماذا يلجأ المرء حينئذ للخداع؟

ـ (كفاية زنّ)!، واسمعى الكلام.

ـ وبماذا تحسّ عند تدخينك لهذا؟- سألت ميلى زكريا-.

ـ جرّبيه، ليُعَمِّر لك صمويل غليونا.

ـ لا أجرؤ، ينتابنى شىء من الرهبة. بماذا تحسّ؟

ـ بأننى فى حالة تَجلّى.

ـ وهذا، ماذا يعنى؟

كان الطريق يمضى بحذاء خيال «المدوّر». يرتسم على التراب المعتم، من جرّاء سيْر الدراجة، خط صامت فحسب. وفى الجلاء الأخير، الأزرق الرصاصى، ما زال المقود المطلىّ بالنيكل يلمع لمعانا واهنا إلى جوار يدىّ كارمن، والقشّ المتسخ بلون الكروم لحقول الغلال المحصودة، والصينى الأبيض للفناجين العازلة(*)، بأعلى الأعمدة، والتى تتجسس على «الغرب» من خلف هضبة

(*) توجد فوق أعمدة خطوط الكهرباء عوازل بيضاء، متخذة من الصينى، وهى تشبه الفناجين -المترجم-.

«المدوّر». وخلف ظهريهما، يتمدد، خاليًا من الهواء، في سماء إردوازية، الدخان العالى لمصنع أسمنت بالديرّيباس، ساكنًا فوق مبانى المصنع السوداء، وعلى طرف بيكلبارو المنعزل، والبرج، والبيوت غامضة المعالم، المتناثرة فى الحقول.

ارتجفت كارمن، لدى سماعها، وبوضوح، الأزير السّارى فى الكابلات، لجاجة الطاقة الكهربائية لخط الضغط العالى، الذى يمر فوق رأسيهما.

نظر سانتوس فى الضياء شبه الليليّ إلى جهة اليمين، إلى الجزء الواقع خلف الأراضى المحصودة، جهة سفح «المدوّر» المُقْفر: تتبلج فى العتمة المبهمة الأرض الضاربة إلى البياض، أرض الطّفل الجيرى للمطْلع، المنقطّة بسواد دوائر العشب المتناثرة فوقها. أوقف الدرّاجة.

ــ لنسترح قليلاً.

تمطّت كارمن فى وسط الطريق. نظر سانتوس إلى جميع النواحى، دون أن يترك الدرّاجة، ثم قال:

ــ نصعد إلى هذا الجبل؟

ـ أين؟ هناك فوق؟

ـ الأمر يسير، يا امرأة؛ سوف نجتاز هذا الحقل،ثم نصعد بعد ذلك ثمانين أو تسعين مترًا على أكثر تقدير.

ـ وربما يكون عدد الأمتار أكثر بكثير مما ذكرته.

ـ ألا تريدين رؤية مدريد؟

ـ وهل يمكن رؤيتها من هنا؟

ـ وبوضوح تام.

كان قد سحب الدرّاجة إلى جانب الطريق، أضاف:

ـ ستأتين أم لا؟

ـ وما أدراك أنه يمكن رؤية مدريد من هنا؟ صعدت مع من قبل ذلك؟

اتجهت هى الأخرى نحو الحقل المحصود، وسار الاثنان معًا.

ـ ذات مساء، مع عمى خابيير ومع جاويش آخر، عندما كان عمى يشتغل فى بيكلبارو. كانا يفتشان عن الحجلان بهذه المنطقة.

تشبثى بى، إذا كنت لا تستطيعين السير جيدًا. حاولى المشى أكثر فى الأخدود، بوضع قدم أمام الأخرى؛ وبهذا الشكل لن تتعثرى.

ـ أتوجس خيفة من السير فى الخندق. ألا توجد به حشرات؟

ـ بلى؛ أعتقد أن به تماسيح ونمور.

كانت جذامات القمح تطقطق تحت أقدامها. كانا قد تركا الدرّاجة، ملقاة فوق كوْمات ترابية، أسفل هضبة «المدوّر». أمسك سانتوس بعد ذلك خطيبته من يدها وساعدها فى صعود السفح. خلفهما، بعيدًا، على طريق بلنسية، كانت تجرى السيارات ومصابيحها مُضاءة.

ـ قل، ماذا يجب أن تفعله الواحدة عندما تكون سكرانة بعض الشىء؟

ـ الانتظار حتى يزول السُّكْر.

ـ وفى أثناء الانتظار؟

ـ لا شىء، يحاول المرء ألا يجعل رأسه تستجيب لشطط النبيذ.

رشقت لوثيتا، بالذراعين المتصلبين خلف ظهرها، يـديها فـى الأرض، ثم ألقت بقفاها وشعرها إلى الوراء:

ــ أشعر بأن الوضع هكذا أفضل...!– قالت ببطء، مُغْلَقة جفنيها.

ألقت بجسدها إلى الأمام من جديد؛ وأضافت:

ــ اسمع، أنا لا أرغب فى زوال هذه الحالة. أنا فى غايـة المتعـة، وأنت؟

ــ وأنا أيضًا.

أمالت لوثيتا رأسها جانبًا، مقتربة بعينيها، وكأنها تبحـث عـن وجه تيتو فى الظلام:

ــ أنا لا أراك تقريبًا، يا فتى، من شدّة الدّوار.

ــ لا تتحركى كثيرًا، لو كنت دائخة؛ كلما خففتِ من قلقلة النبيذ كلما كان أفضل.

ــ حسنًا، سأكف عن الحركة– أرجعت عينيها نحو النهـر ومنطقـة الأشجار–. لقد أطبق الليل على كل شيء تقريبًا.

ــ نعم، تقريبًا.

نظرت خلفها:

ـ لقد اختفى دانييل. لم يعد له أثر. لابد أنه مستغرق فى النوم.

ـ إنه، على الأرجح، يبحر على متن سفينة النبيذ.

ـ حقًا؟ بالتأكيد لديه ما يكفى للإبحار مدة طويلة. الأفضل له ألا يستيقظ.

ـ إنه مثل «الكاو»(*). لقد احتسى ما يوازى الكمية التى شربناها نحن الاثنان تقريبًا. بما أنه كان جالسًا فى الوسط، فقد كان الدَّوْر يحين عليه فى الذهاب والإياب للزجاجة. هذا ما حدث.

ـ أمر سيئ بالنسبة له؛ إذا كنت أنا، أو أنت، وبنصف الكمية التى شربها نحلق الآن فى عنان السماء. أحس وكأننى أبحر فى قارب. أليس هذا صحيحًا؟ والأمواج، ألا تشعر بالأمواج؟- كانت تضحك-. تخيل أننا نبحر، نحن الاثنان، فى مركب. اسمع، يا لها من متعة! أنت الذى تقوم بالتجديف، فى ليلة مرعبة، والبحر هائج

(*) «كاو» (CAO): اسم نوع من الغراب بكوبا، وهو مشهور بشدة نهمه للطعام والشراب - المترجم-.

مضطرب، شديد الاضطراب، ولا نرى للشاطئ أىّ أثر، يتملكنى خوف كبير وأنت عندئذ... أنا أتفوّه ببلاهات، صح؟ يضحكك ما أقول. ينطق لسانى بحماقات كثيرة، حقًا، يا تيتو؟

ـــ أبدًا يا امرأة؛ ما كنت تحكينه شيق وجميل، ولا يمت إطلاقًا للحماقة بصلة.

ـــ ألا أبدو لك بلهاء؟ ستقول إننى مثل الأطفال الذين يركنون إلى الخيال ويتصورون أنهم يمتطون جيادًا ويقومون بآلاف المغامرات، ألا تحسبنى هكذا؟، أخبرنى بالحقيقة. ألا ترانى ثقيلة الدم؟

ـــ كفاك الآن! وهل ما قلتيه يعنى شيئًا، يا امرأة؟ ترد على خواطر الناس جميعًا أمثال هذه الخيالات من جرّاء شرب النبيذ. لماذا تقلقين إذن؟

ـــ ولكننى؛ وبعيدًا عما يحدثه النبيذ من تأثير، أقصد نفسى.

ـــ أنت، ماذا؟

ـــ كيف أكون. أو كيف ترانى أنا شخصيًا.

ـــ بالنسبة لي؟ لو لم تكونى لطيفة وحلوة لما كنت معى هنا. الخلل يكمن فى سؤالك عن هذا. وهل يهمك كثيرًا رأى الآخرين؟

ـ لا، ليسوا جميعًا. حسنًا، فضلاً عن أنها حماقة، مـاذا يهمنـي؟؛ القضية قضية وجهات نظر؛ أنا أضحك عندما أريـد الـضحك. لدىّ دولاب بمرآة فى حجرتى، مـاذا تظـن؟، يفـوق مرآتـك الموجودة فى الأعماق؛ أكون، أنا أعرف كيف أكون... أنا نصف سكرانة، يا تيتو.

ـ هيا، استلقى قليلاً، استريحى.

ـ نعم، شكرًا، يا تيتو- تمددت على الأرض-. اسمع، أنت لن تحفل بالأشياء التى أقولها، حقا؟ كلها تقريبًا ترهات. أشرع فى الحديث بشكل مستقيم، وفجأة يلتوى خط ما أريد قوله. يـا لـه مـن أول ظهور لي أمامك- ابتسمت-. حسنًا، لا يهم، هكذا نتسلى. يا لنـى من معتوهة! حقًا؟ ما رأيك؟

ـ لا شىء، يا امرأة، تبدين لي ظريفة ولطيفة هذه الليلة.

ـ من محاسن الصدف أن الحظ ما زال حليفنا، بَيْد أنـه بـدلاً مـن الإبحار فى مركب، يبدو لي أننى أركب أرجوحة.

كانت تريح رأسها فوق كومة ملابس، غيّـرت مـن وضـعها بالاستواء على جنبها:

ــ نعم، لقد حلّ الليل الآن– أضافت–. أطبق بالفعل على كل شيء.

كانت ترى، من موقعها على الأرض، الضفة الأخرى، أجفان الخلْفية والوِهاد المسودَّة، حيث ينمو الظلام ويتقدم غازيًا الأراضي، صاعدًا الرّوابى، حَرَجا بعد حرج(*)، حتى يتكاثف تمامًا: ظلمة داكنة، نَفُور ومتنمرة، تغرقها فى ارتقاب الضواري. هاجس مكتوم لمخالب وبراثن وأسنان متلصصة، لليلة متشممة، نهمة ودموية، تجثم فوق مضطجعات أمومية مسالمة؛ حقول سوداء، حيث تلمع عين «ثيكلوبى»(**) القطار مثل عين الوحش.

ــ حسنًا، إحكِ لي شيئًا.

ما زالت مجموعات كثيرة من الناس منتشرة فى منطقة الأشجار. كانت تُسمع فى الظلام موسيقى صادرة عن هارمونيكا. كان لحنًا عسكريًا ما يعزفوه، لحنًا عسكريًا ألمانيًا، من أيام النازية.

ــ هيا، إحكِ لي شيئًا يا تيتو.

(*) حرَج: غيْضة الشجر الملتفة، لا يقدر أحد على النفاذ منها – المترجم–.

(**) «ثيكلوبى» (Cíclope): عملاق ذو عين واحدة فى جبهته (فى الأساطير اليونانية). والمؤلف يشبه الكشّاف الأمامى لجرّار القطار بعين هذا العملاق الأسطورى – المترجم–.

ـ أحكى لكِ، ماذا؟

ـ أىّ شىء يخطر ببالك، يا رجل، حتى لو كانت أكاذيب. شيئًا مهمًا.

ـ مهم؟ يا لها من مفارقة! أنا لا أستطيع حكاية أىّ شىء. من أىّ نوع؟ لنرى، ما هو المهم بالنسبة لكِ؟

ـ مغامرات ، مثلاً، وقصص الحب.

ـ أوى، الحب!– ابتسم، نافضًا أصابعه–. لم تقولى شيئًا! أىّ نوع من الحب تقصدين؟ هناك أنواع كثيرة ومختلفة للحب.

ـ أىّ نوع يخطر ببالك، شريطة أن يكون مثيرًا.

ـ ولكننى إذا كنت لا أعرف حكايات رومانسية، فمن أين سأستقيها عندئذ، يا امرأة؟ (شوفى)، لهذا الغرض أوصيك بشراء رواية.

ـ أنا متخمة بالروايات، يا بنى. لقد قرأت منها ما فيه الكفاية. ومن جهة أخرى، ما علاقة هذا بما أطلبه منك الآن؟، وهو أن تحكى لي حادثًا هامًا ولافتًا للنظر، هنا، وفى وقتنا هذا.

كان تيتو جالسًا، معتمدًا بظهره على جذع الشجرة. نظر إلى الأرض، ناحية جرْم لوثيتا، المستلقية إلى يساره وذراعاها مضمومان

تحت قفاها، حيث يتراءى منها بالكاد بياض الكتفين فوق الصوف الأسود للمايوه.

ـ وتريدين أن أحكى لك ما لا يرد فى الروايات؟- قال لها-. ماذا تطلبين منى عندئذ؟، أن يكون لدىّ خيال يفوق خيال مؤلفى تلك الروايات؟ لو أنى أتمتع بهذه الموهبة لما كنت عندئذ مجرد بائع فى محل تجارى. يا لها من مزْحة!

ـ ما قصدت بهذا إلا أن أجعلك تتكلم، (إيه)؟، لا تحكِ شيئًا. إنك لو تأملت مليّا ستجد أن الروايات كلها تكرر الشيء نفسه، وأن ما تعرضه لا يحتاج أيضًا لعصرْ المخ؛ تقدمن لنا أحيانًا البطلة شقراء والبطل أسمر، وفى أحيان أخرى تكون هى سمراء وهو أشقر؛ لا توجد تقريبًا تنويعات أكثر من هذا...

كان تيتو يضحك.

ـ ولا شيء عن حمراوات الشعر؟ لا تقدمن مطلقًا أحدًا ذا شعر أحمر؟

ـ يا لك من أبله! ويا لها من رواية، تلك التى يظهر فيها بطل أحمر الشعر. يا له من شيء كريه! ويا للكراهة أيضًا لو كانت «هى» كذلك!

ـ المهم أن يكون لونًا جميلاً– عاد للضحك–. شعر بلون الجزر.

ـ حسنًا، لا تضحك، توقف عن الضحك. دعك من هذا هيا، اسمع، ألا تريد أن تسمعنى؟

ـ وهل يضايقكِ ضحكى، يا امرأة؟

نهضت لوثيتا؛ استوت جالسة إلى جوار تيتو؛ قالت له:

ـ لا، لم يضايقنى أنك ضحكت، ولم أقصد مقاطعتك، بل كانت لدىّ فحسب الرغبة فى التغيير. هيا بنا نتحدث عن شىء آخر.

ـ عن ماذا؟

ـ لا أدرى، عن شىء آخر. عن أىّ شىء آخر يخطر ببالنا، يا تيتو، وتهوى أنت الحديث فيه. اسمع، أفسح لي مكانًا لكى أسند ظهرى أنا الأخرى. ولكن لا تغادر لأن المكانِ يسعنا نحن الاثنين. أريد ثُلمة صغيرة فحسب.

أسندت ظهرها على جذع الشجرة، إلى يسار تيتو، والكتف فى الكتف. قال:

ـ هل أنت مستريحة هكذا؟

ـ نعم، يا تيتو، أنا على ما يُرام. أعتقد أننى كنت دائخة أكثر وأنا مستلقية. هكذا أفضل كثيرًا- وكزته عدة وكزات فى ذراعه-. أهلاً.

التفت اليها تيتو:

ـ (فيه إيه)؟

ـ كنت أحييك...أنا هنا.

ـ وأنا أراكِ.

ـ اسمع، أنت لم تحك لي شيئًا، يا تيتو. من غير المعقول ألا تكون قادرًا على أن تحكى لي حكاية وأن أسمعها منك. أنا مفتونة بالسماع وأن يظلوا أمامى يحكون ويحكون. أنتم، معشر الرجال، تقصون حكايات طويلة جدًا. وأنا أحسدكم على جمال ما تحكونه. حسنًا، وأنت لا، أم نعم، لأنى متأكدة من أنك تستطيع حكاية أشياء رائعة لو كان عندك مزاج. صوتك يشى بهذا.

ـ ولكن، ماذا تقولين؟

ـ أن لديك الصوت المناسب لهذا. تتحدث بصوت منْ يحكى قصصًا طويلة. تتمتع بصوت خلاّب. حتى لو كنت تتحدث بالصينية، ودون فهمى لكلمة مما تقول، يطربنى أيضًا سماعك وأنتَ تحكى. حقًا.

ـ تتفوهين بأشياء جدّ غريبة، يا لوثيتا- نظر إليها مبتسمًا-.

ـ غريبة؟ حسنًا، ما دمت أنت الذى تقوله فهى كذلك. أنا أيضًا أجد نفسى غريبة هذه الليلة، وأرى كل شىء حولى غريبًا، وهكذا فمن المنطقى أن أتفوّه بالغرائب، كل إناء بما فيه ينضح، أليس كذلك؟ لقد بلغ بى الشطط مداه!، بالأرجوحة الكائنة فى رأسى...

ـ أنتِ تتحكمين فيها جيدًا، قولى نعم، بل إنك خفيفة الظل وسريعة البديهة هذه الليلة.

ـ هذه الليلة؟ نعم، واضح، خفّة ظل مستعارة من حالة نصف السُكْر. وعندما تزول، ينتهى الأمر. لا داعى للتمسك بالأوهام، لأنه فور هبوط أثر النبيذ ستعود «ريمة» إلى عادتها القديمة. آى، يا للدُّوَار الذى يداهمنى الآن! إنه، كما هو معروف، نتيجة لشروع الأرجوحة فى التأرجح. ما ذكرناه من قبل... أىّ، يا للفظاعة، الدّوار، يا للدوار الذى داهمنى الآن فجأة!...

ـ دُوار كبير؟- اعتدل نحوها تيتو وأحاط بظهرها، واضعًا ذراعه على كتفيها-. تعالى هيا، اضطجعى علىّ.

ـ لا، لا، دعنى يا تيتو، إنه يزول، سيتلاشى فى الحال، لا تتعب نفسك، إنه مثل الأمواج، تأتى وتروح، تأتى وتروح...

ـ اضطجعى، يا امرأة، (عشان خاطرى)، تعالى.

ـ دعك من هذا، أنا مستريحة هنا، سيذهب عنى وحده، لماذا الإلحاح؟ أنا بخير هكذا...

وضعت يديها على عينيها وجبهتها. قال تيتو:

ـ ما عرضته عليك، يا لوثيتا، كان لصالحك، لا لإثارة جزعك. هل انتهى هذا الدُّوار؟- وضع يده على قفاها وداعب شعرها-. هل هو فى طريقه الآن إلى الزوال؟ ألا تريدين أن أبلل لك منديلاً فى النهر؟ سيكون بمثابة ملطّف لك، أأذهب؟

رفضت لوثيتا بإيماءة من رأسها.

ـ حسناً، كما تريدين. تتحسنين؟

لم تقل شيئًا، حرّكت رأسها ودفعت صدغها، داعكة إيّاه مثل قط، فى اليد التى تداعبها، ثم انزلق وجهها على ذراع تيتو كله، من أعلاه حتى استقر عند رقبته. انكمشت على صدره وطوّقت رقبته بذراعيها وجعلته يقبلها.

ـــ أنا قليلة الحياء، حقًا، يا تيتو؟، ستقول إننى قليلة الحياء.

ـــ لا تسألينى.

ـــ وأنت، إلى ماذا كنت تهدف؟، تقول لي اضطجعى علىّ، وتُلح فى الطلب، أرأيت الآن؟، ألم تكن تدرى ما أنا عليه الليلة؟ وها أنذا مضطجعة، ألا ترى ما يحدث؟... وماذا فعلت بى؟ اسمع، مرة أخرى.

عادا لتبادل القبلات، لكنها قامت بعد ذلك، فجأة، بإبعاده عنها بعنف، متخلصة منه باللكمات، ثم هوت على الأرض، وأجهشت بالبكاء.

ـــ ولكن، يا لوثيتا، ماذا دهاك الآن؟ ماذا اعتراك فجأة؟

كان وجهها مخبوءًا بين يديها. انحنى تيتو فوقها وأمسك بكتفها، محاولاً كشف وجهها.

ـــ دعنى، دعنى، امشِ من هنا.

ـــ أخبرينى بما يحدث لك، يا امرأة، ما بكِ؟ ماذا جرى لك هكذا فجأة؟

ـــ دعنى الآن، الذنب ليس ذنبك، أنت لم تفعل بى شيئًا، بل أنا... أنا الملومة فى كل هذا، الوحيدة التى عليها الذنب، التى أقدمت على هذه المسخرة، نعم مسخرة...

كان صوتها يرنّ رنيناً غاضبًا بين نوْبات البكاء.

ــ أنا لا أفهمك، يا امرأة، عن أية مسخرة تتحدثين؟، ما الداعى لهذا الكلام الآن؟

ــ وهل توجد مسخرة أكثر من هذه؟ أتظن أننى لا أعرف ما يهمك فىّ؟...- كانت الكلمات تتقاطع مع البكــاء-، ومــا نفعــى الآن بمعرفته! يا للخجل، يا لشدة خجلى!... انــسَ هــذا، يــا تيتــو، استحلفك بمنْ تحب... لا تفضحنى، لا تفضحنى، أرجوك...

صمتت واستمرت فى البكاء، ووجهها مختبئ فى الأرض. لــم يعقّب تيتو بكلمة؛ كانت يده ما زالت جاثمة فوق كتفها.

ــ التجلّى؟ إنها كلمة مستعارة من هناك، من المغاربة. مثل أن نقول يبقى المرء... لا، ليس سكرانًا، بل شيئًا مختلفًا، كيف أوضــحها لكِ؟، (شوفى)...

ــ قد تكون «مُنَوَّمًا»؟

ــ هذا أيضًا من مدلولات الكلمة، ولكنهــا ليــست هــى بالــضبط. انتظرى، إنها أقرب ما تكون إلى مستغرق فى التفكير، تعرفين؟،

أو بالأحرى منكفئًا على الذات، مكتفيًا بما فيه، ها هى: مُغَيّبًا. كنا نعرف سلسلة طويلة من الكلام الطنّان الغريب، ليخبرك به صمويل، عندما كنا نؤدى هناك الخدمة العسكرية، أنا وصمويل وزملاء آخرون فى الشقاء. (شوفى)، كنا نجتمع فى مقهى صغير...

ــ فى المغرب...

ــ نعم، فى لاراتشى. أقول لك لا تتصورين مدى اللّغو والكلام الفارغ الذى كنا ننخرط فيه. تبدأين بكلمة، تعرفين؟، وسرعان ما يتملكك الحماس كى تخوضى فيما لا يخطر لك على بال؛ وعندما تريدين الاستفاقة، بعد نصف ساعة أو ساعة أو ساعتين أو ما شاء الله، يتضح لك أنك ظللت تتحدثين مع نفسك طوال هذا الوقت. وهذه الحالة هى التى يُطلق عليها تجلّى المرء، أى جلاؤه مع الكيف. شىء هادئ متزن، مثل سهرة حمراء مخمورة ولكنها سليمة، أنيقة وراقية، على خلاف حفلات السُّكر الصاخبة القائمة على النبيذ. وذلك لأن المسلمين هناك يأمرهم دينهم بعدم تداول جميع أنواع المشروبات الكحولية، هل تفهميننى؟

ــ نعم، لدىّ خبر عن هذا، سمعت عنه.

ـ حسنًا، وعلى هذا فإن حفلتهم المخمورة هى التجلّى، إنها الحفلة التى لديهم. يجتمع عدة أفراد، ويجلسون فى حَلَقة، على الحصائر، ثم يشتبكون؛ غليون «كيف» وراء الآخر، مع احتساء الشاى، لاشىء أكثر من شرب الشاى والتدخين، وهات يا كلام، بلغتهم التى لا تستطيعين التقاط ولا نصف كلمة منها، والمرأة محبوسة فى البيت، «لاموخيرا»(*) كما يطلقون عليها، أى أنهم بالتدخين ينسون كل شىء فى هذا العالم ولا يتذكرون أنك موجودة أصلاً. هذا هو نوع الحفل المخمور السائد بين المسلمين المغاربة، وعادتهم هناك. وهكذا فإن معظمهم لا يعمل ولا ينتج، تعرفين؟، لأنه من الطبيعى، ومثل أى شىء آخر، أن التجاوز فى تدخين «الكيف»، بدخانه القوى الذى يهاجم الرأس، يجعل البعض منهم فاقدًا للأهلية ومصابًا بالوَهن العصبى وبالهَوَس وأشياء أخرى أشد غرابة من الشيطان ذاته. تصوَرى أن الجميع هناك يعامل المجنون وكأنه قدّيس، (شوفى) تصرفات المغاربة. الملتاث يلقى احترامًا لا تتخيليه، يا بنتى، يمكنه عمل كل ما يخطر بباله،

(*) كلمة «موخير» (Mujer) تعنى امرأة فى الإسبانية، ولكن المغاربة ينطقونها- كما يشير النص- «موخيرا» (المترجم).

وارتكاب أفظع الحماقات، ولا يجرؤ أحد مهما كان أن يعارضه أو يلفت نظره ولو بإيماءة، لأنه مثل القديس، بل هو والقديس سواءً بسواء. وهذا يتفق ويتناغم بالطبع مع عادات وتقاليد المكان، والأفكار السائدة فيه عن الحياة. بمعنى أنك لو ذهبت إلى أمة من الأمم فسوف تجدينها تتصرف بالطريقة الخاصة بها.

ـ صحيح، ولكنك يجب أن تحترس أيضًا، ولا تتجاوز الحدّ في تدخين هذا الشيء، أيًّا كان الاسم الذى تطلقه عليه، لأنهم لا يعتبرون المجانين هنا قديسين، على غرار هذا المكان الآخر. هنا، ومع أية بادرة من جنون، يلبسونك القميص ويودعونك، رغمًا عنك وبكل تبجيل، مستشفى المجانين، ومهما حاولت بعد ذلك أن تثبت، عن طريق الالتماسات والشكاوى، سلامة عقلك، فإنهم لا يعيرونك أدنى اهتمام.

ـ لو حدث هذا فلا مجال للانزعاج والضيق، لأنه سيكون بمثابة وسيلة رائعة لحصول المرء على قوته ومتطلباته الحياتية دون تعب أو عناء. هذا بالإضافة إلى كونه أمرًا مسليًا وطريفًا.

ـ استمر أنت فى المزاح وسترى سوء العاقبة.

ـ أخبرينى إذن، يا ميلى، هل ستحزنين علىّ لو حبسونى؟

ـ أنا؟، مثل حزنى على أى شخص آخر.

ـ أوى، يا له من شىء قليل!، أنا لا أمزح، (ما ينفعش كده)؛ مثـل أى شخص آخر فقط؟

ـ وماذا تريدنى أن أقول لك؟

ـ ما هو مطابق للحقيقة.

ـ وما هى الحقيقة، حسب رأيك؟

ـ وهل يهمك معرفتها؟

ـ أجب أنت.

ـ يا امرأة، المرء يعجبه دائمًا الفوز ولو بقليل من الأفضلية.

ـ ومن أجل ماذا؟ ماذا ستجنى من ورائها؟

ـ إنها، فى حد ذاتها، مُفْرحة وممتعة.

ـ عُلِم.

ـ لا تتحدثى هكذا، يا ميلى، من فضلك.

ـــ هكذا، كيف؟

ـــ بهذه الطريقة البلهاء التى تلجئين إليها أحيانًا.

ـــ آه، أنا إذن بلهاء، رائع، أشكرك على هذه اللمحة اللطيفة.

ـــ أرأيتِ؟ هذا هو، الشىء نفسه. ماذا ستجنين، فى اعتقادك، من استخدام هذه النغمة المتصنعة والمثيرة للنفور؟، أخبرينى.

ـــ مازلت شديد اللطف يا زكريا.

ـــ من الذى بدأ أولاً؟ تخرجين علىّ، بادئ ذى بدء، بهذه النغمة المثيرة للإزعاج، وتريدين منى أن أسكت؟

ـــ أنت مرهف الإحساس، يا فتى. هل تظن أننى مذياع (راديو) بحيث يمكننى ضبط نغمة صوتى على ذوق المستمع؟

ـــ لا، وإن كنت أرى أن لديك موهبة التفوق عليه. استمرى هكذا، (شوقى) أنت دويبة سيئة، واليوم الذى أضمك فيه إلى عصابتى، ستدفعين لي الفاتورة كاملة.

ـــ بجد؟ أضحكتنى!

ـ نعم، اضحكى ما شئتِ؛ ولكن يا ويلــك لــو وقعــتِ فــى يــدى ذات يوم.

ـ وأنا هنا، أمامك. ماذا ستفعل بى؟، يسرنى معرفته.

ـ لا شىء.

ـ قل، هيا، ماذا ستفعل بى؟ هل وصل غيظك منى إلى درجة السُّعار؟

ـ سوف أعضك عضّة تترك أثرها على لحمك، إذا كان هــذا مــا تبحثين عنه، لكى أنقل إليك سُعارى. تدثّرى جيدًا فى اليوم الــذى تقعين فيه تحت أسنانى، لأنك لن تفلتى منى بأى حال.

ـ قلنسوة القسيس والذئب الضارى! شىء مثير! اســتمر، اســتمر، وماذا بعد؟، أكمل الحدوتة:..

ـ خلص الكلام. فضلاً عن أنها ليست حدوتة.

ـ وماذا تكون؟

ـ الحقيقة الخالصة.

ـ أنت وقح، أتظن أننى قلنسوة قسيس؟

ـــ لا، ولكن الأمر سيّان بالنسبة للحالـــة، المهـــم أن أجـــد المكـــان المناسب فى الفريسة لأطبع عليه آثار أسنانى.

ـــ وعلى سبيل المثال؟

ـــ لا أدرى، ربما على الفم.

ـــ ما كان ينبغى أن تتفوه بهذا يا زكريا.

ـــ لماذا؟، أنت تسألين والذئب يقول لك الحقيقة. نعم، هذا مـــا أتـــوق إليه، هل يضايقك؟

ـــ لا.

ـــ لماذا لا تريدين عندئذ أن أنطق به؟

ـــ نعم أريد. يعجبنى سماعه منك.

ـــ تعرفين أنك الشيطان نفسه؟

ـــ الشيطان؟

ـــ لا أعنى الشيطان السيئ، بل الآخر. شيطان آخر لا أدرى كيـــف يكون. إنه يعجبنى، بشكل مؤقت، ويخلب لُبّى، وهذا هو الـــشىء الوحيد الذى يمكننى تأكيده لكِ.

ـ تكلم بصوت منخفض، سوف يسمعونك...

ـ لتكن الشياطين جميعًا مثلك، وليذهب سان بدرو إلى الجحيم.

ـ لماذا تسمينى شيطانًا عندئذ؟، لا أرى مبررًا لذلك.

ـ آه، لشيء ما، يا بنتى. أنا متأكد أن للتسمية سببًا ما.

ـ اسمع، يتملكنى قليل من العصبية يا زكريا، ورغم هذا أحب أن أكون معك، تعرف؟، ربما يكون لهذا السبب نفسه.

ـ اشربى قليلاً من النبيذ، أين الكأس؟

ـ لا، لا تتحرك من مكانك، لا تتحرك، لا أريد أن يرى هؤلاء وجهى، ابق حيث أنت.

ـ لو أمرتينى بإحداث ثقب فى المائدة بكوعى سأنفذ فى الحال. أنا مُمَسْمَر هنا، كالجندى.

ـ احكِ لي المزيد يا زكريا، ولا تكف عن الحديث.

نظرت كارمن خلفها واعتراها الفزع فجأة. أمالت، فى دفْعة فورية، أعلى بدنها إلى الوراء، على سانتوس. كان القمر الأحمر،

المنحدر، بالظهور خلفها.

ـ ما بالك، يا بنتى...!

شرعت كارمن فى الضحك:

ـ اسكت، بالله عليك! القمر. أخذنى على غرّة فأصابنى بالهلع. لم أعرف ماذا يكون من هوْل المفاجأة. وما أدرانى، للوهْلة الأولى، أنّه هو!

ـ ولكنك أفزعتينى أيضًا. من حسن الطّالع، بل من قبيل المعجزة، أننا لم نتدحرج معًا إلى أسفل المنحدر.

كانت تضحك ووجهها على صدر سانتوس.

ـ يا حبيبى. (شفت إزاى بخاف) حتى من القمر... يا لنى من بلهاء! لقد ظهر أمام عينىّ فجأة شىء هائل ومجسّم...

أخذ الاثنان يتطلعان إليه، من موقعهما فى منتصف السفح. شاهداه يبتعد عن الأفق، على الجانب الآخر من الحقول السوداء، رافعًا بتثاقل وجهه الكبير الأحمر. كانت كارمن تنظر بطرف عينها، وهى مختبئة تقريبًا فى صدر سانتوس.

ـ يا لحجمه الكبير!

ـ أتعرفين ماذا يشبه؟- سألها سانتوس-.

ـ يشبه ماذا؟

ـ جرسًا قرصيًا كبيرًا.

أبعدت صدغها عن قميص سانتوس ونظرت إلى القمر، وجهًا لوجه.

ـ نعم، إنه يشبهه؛ فعلاً.

ـ جرسًا قرصيًا كبيرًا من الأجراس المصنوعة من النحاس.

وصلا إلى أعلى هضبة المدوّر. كان سطحها مستويًا مثل لوح الخشب، ومقطوعًا بشكل حاد ومباغت جهة المنحدر. يبلغ طول الهضبة حوالى ثلاثمائة متر، بينما لا يزيد عرضها عن مائة. اجتازاها عرضيًا، والقمر خلف ظهريهما، وأطلاّ على المنحدر الآخر. تراءت مدريد. وادٍ كبير من الأضواء، فى الخلفية، مثل مَجَرّة مبسوطة على الأرض؛ بحيرة زيت أسود، برجفة مصابيح لا تُحصى مضاءة، تطفو مدخّنة نحو الليل وتشكل هالة عالية ومبهمة، معلّقة بلا حراك فوق سماء مدريد، مثل لوحة حجرية بنفسجية أو سقف دخان

منير. تراءت أيضًا، مبعثرة فى سواد الحقول، المجـرّات الأخـرى الصغيرة للقرى المجاورة. كان سانتوس يشير إليها بإصبعه:

ـــ على يمينك بيكلبارو – كان يقول–، وهنا باييكاس(*)...

كانت باييكاس، التى يطلان عليها من ارتفاع ثمـانين أو مائـة متر، تقع على اليسار قليلاً، هناك تحت، أسفل المنحدر تقريبًا. كانـا يتحدثان بصوت خفيض، دون معرفة السبب.

وكزت بولينا كتف سيبستيان.

ـــ انظر، يا سيبس. يا له من قمر!

اعتدل.

ـــ آه، نعم؛ لاشك أنه البدر.

ـــ إنه هو؛ يُستدل عليه بمجرد النظر. يبدو، ألا تعرف تلك الكواكب التى تقدمها للمشاهد أفلام المستقبل؟، يبدو مثلها، أليس كذلك؟

(*) بيكلبارو، وباييكاس: قريتان من القرى الواقعة بين مدريد ونهـر الخرامـا، ولكـن باييكـاس أصبحت الآن، وبعد التوسع العمرانى، أحد أحياء مدريد – المترجم–.

ـ ما دام هذا رأيك فلا مانع.

ـ نعم يا رجل، ألا تتذكر ذلك الفيلم الذى شاهدناه؟

ـ «عندما تتصادم العوالم».

ـ هذا. وفيه تظهر نيويورك غارقة فى المياه، ألا تتذكر؟

ـ نعم، إنها محض خيالات وخِدع؛ السينمائيون يهرفون بما لا يعرفون.

ـ يعجبنى ويروقنى هذا النوع من الأفلام.

ـ صحيح، أنا على دراية بأنك لا تختزنين فى هذه الرأس الصغيرة سوى الخَبَل.

ـ قل ما شئت، ولكنك ستدرك صواب ما تعالجه هذه الأفلام من موضوعات لو قُدّر لنا العيش حتى آنذاك.

ـ إلى متى؟

ـ وقتذاك، فى اليوم الذى تتحقق فيه هذه التكهنات والتصورات. سترى.

ـ يوم الخميس بعد الظهر - كان يـضحك-. لا تُـسخنى رأسـك، يا فتاة، بمثل هذه التخرصات حتى لا تصابى بالحمى. يبدو أنـك تستفيدين أيّما استفادة من الثمان أو عشر بيزيتات التى تشترين بها تذكرة الدخول.

نظر سيبس خلفه ثم أضاف:

ـ (شوفى)، الأفضل من هذا هو الذهاب الآن إلى حيث يوجد هؤلاء الثلاثة، أو بمعنى أصح البلايا الثلاث، لنرى ماذا يفعلون.

الآن، وفى الظلمة، كشف من جديد انعكاس للقمر، فـى ومْـضة حرْشفات فوسفورية، مياه الخراما، التى بدت وكأنها متن نحاسـى اللون لإحدى الأسماك.

ـ هل نقوم بزيارتهم؟

ـ حسنًا، هيا بنا.

نهضا. مرَّرت بولينا يديها على الساقين والمايوه لإزالة التـراب والأوساخ العالقة بهم.

ـ ماذا تفعلون؟

ـــ مازلنا ها هنا قابعون.

كانت تُسمع من البيوت المتناثرة بالحقول نداءات نسوة؛ صرخات طويلة بأسماء من على أعتاب بيوت صغيرة منعزلة، نحو الخلاء؛ ومن لدن الطرق المختبئة فى الظلام تجيب أصوات بعيدة وصفّارات. جلس سيبستيان وبولينا مع تيتو ولوثيتا.

ـــ أتينا إلى هنا لنكون فى صحبتكم. اسمعى، وأين دانييل؟

ـــ لقد أضناه النبيذ وقضى عليه؛ إنه مستلق هنالك كالقتيل، من شدّة السُكْر.

ـــ لا يتورع المرء أيضًا عن تعقيد حياته بنفسه. أخبرنى كيف سنتصرف معه وهو فى هذه الحالة عندما تحين ساعة الرحيل.

ـــ لا يمكن إيقاظ هذا ولا بالطبل البلدى. سوف تتكفل العصافير فى صباح الغد بإعادة الحياة إليه.

ـــ لا، يا تيتو؛ أما هذا فلا– قالت بولينا–. لا يمكن أن نتركه إلى جوار النهر طوال الليل. لسنا معدومى الضمير أو المسئولية.

ـــ الآن، وفى الصيف، يمكن النوم جيدًا فى أى مكان.

ـــ (بلاش تخاريف)!، ونتركه عُرضة لرطوبة الليل أو إلى ما هو أسوأ.

ـــ فى هذه الحالة يتعين علينا أن نطلب ونشًا...

ـــ ولك (نِفْس) للمزاح وإطلاق النكات الآن.

ـــ لا تقلقى، يا امرأة– قال تيتو–؛ سنبذل ما فى وسعنا لأخذه معنا، حتى لو اضطررنا لحمله على الأعناق، مثل قتيل حى.

ـــ وياله من قتيل!

كانت لوثيتا صامتة. ما زال هنالك أناس فى منطقة الأشجار؛ ومازالت تُسمع فى الظلام الدمدمات الهادئة للمحادثات بين المجموعات؛ ويُرى تكاثر الأضواء الصغيرة للسجائر مثل يراع* أحمر من الجمر.

اصطدمت قدما أحد ما بجرْم دانييل المتكوّم؛ قال صوت: «معذرة»، وأجابه الجرْم، من على الأرض، بهمهمة غير مفهومة. فوق ما هو أسود،عاليًا جدًا، خطوط متوازية وشديدة الرهافة، فى الفتحة الضيقة؛ خفافيش آبقة تجاه الليلة الصافية.

(*) اليراع: ذباب يطير بالليل يضئ ذنبه – المترجم–.

انقلبت زجاجة. أمسكوا بها قبل أن تتدحرج وتسقط على الأرض.

ـ الأغنية بشلن!- قال أحد ما-.

بقى النبيذ يلمع على الخشب؛ مدّت ماريا لويسا إصبعها وعملت له قنوات تصريف حتى حافة المائدة. أحسّ فرناندو بالتنقيط فوق شبشبه.

ـ أيتها الطفلة، أنت تبللينني.

ـ شيء مبهج!- قالت له، ثم لمست كتفيه وجبهته بأناملها المخضّلة بالنبيذ-.

ـ بهجتك أنتِ! أنتِ منجم بهجة...

أطبق الظلام. شرعت عائلة أوكانيا في التحرك ولَملَمة الأغراض.

صرخت لوليتا:

ـ حسنًا، يا فتيان، نرقص أم لا؟

ـ لماذا لا تقوم بتحريك ذراع التدوير؟

كان فيليب أوكانيا واقفًا إلى جوار مائدة أفراد عائلته؛ ينظر إليهم ويصفّر، جاعلاً سلسلة المفاتيح تلف وتخشخش حول إصبعه السبّابة.

قالت بيترا:

ـ تأكدوا من لملمة الحاجيات كلها حتى لا أكتشف لدى وصولنا البيت أننا فقدنا شيئًا، مفهوم؟

ـ ستفتقدين الريف- قال لها فيليب-، هذا ما ستفتقدينه.

ـ صحيح، كلٌ يغنى على ليلاه؛ (أصلّ) أنا قضيت يومًا جميلاً، ولذا سأفتقده وأحنّ إليه، (مش كده)؟

قال فيليب:

ـ قضاه أولادك، ألا يكفيك هذا؟

ـ نعم، وزوجى، ولكن فى مقابل تعبى أنا وحدى، وقلقى وانشغالى على هؤلاء وأولئك.

كانت تضغط بشدة على كلماتها وهى تراجع وتتمم على الأغراض التى تضعها فى القفّة: أطباق بلاستيك، سكاكين، فوط...؛ تابعت قائلة:

ـ أقول لك...! إننى الوحيدة التى تقف دائمًا فى مواجهة المدفع. لو اصطدمت الجرّة بالحجر، فالجرّة هى المتضررة؛ وإذا اصطدم الحجر بالجرّة، فهى أيضًا المتضررة. هذا ما يحدث، ولا شىء غيره.

كانت نينيتا تساعدها فى جمع الحاجيات.

ـ يا له من يوم!- استمرت بيترا-. يوم لا يجعلنى وأنا فى مدريد أشتاق إلى ريف ولا إلى أى قرف آخر... ناولينى يانينيتا، هذا مكانه هنا. وأنت، لا تقف ساكنًا، ماذا تفعل عندك؟، لماذا لم تذهب لتشغيل «الكرّاكة»(*)، خاصة وأنك ترى كم تأخر بنا الوقت؟!

ـ «كرّاكة»، ولكنها تطعمكم وتكسوكم.

ـ نعم، أنا أحفظ هذا الدرس عن ظهر قلب، فلا داعى لتكراره. ألم تقل إن فوانيس الإشارة عندك فى حالة يُرثى لها؟، انظر إذن للنور الموجود... أنت تعرف جيدًا أن رجال المرور لا يتهاونون، ولو أعطونا مخالفة...- أمالت وجهها-.

ـ ندفع بالتى هى أحسن، ملعون أبو الفلوس!

ـ (عايز تفرسنى...)

احتج لوكاس:

(*) «كرّاكة» (Carraca): سفينة من نوع قديم لنقل البضائع، كما تطلق مجازًا على كل آلة بطيئة بمحرك أو كل متاع قليل الفائدة – المترجم-.

ـ (بأمارة إيه) يجب أن أكون أنا المسئول عن الفونـوغراف؟ هـل أنعمتم علىّ بالتعيين، دون أن أدرى، فى هذه الوظيفة؟

ـ وإذا كنت أنت الذى لا تترك أحدًا يقترب منه.

رفض زكريا، بإيماءة من يده، غليونًا آخر مشتعلاً، كان يقدمـه له صمويل. وكز الأخير خطيبته بالكوع.

ـ الهمس واللمس- قال لها بصوت هامس-، (خدى بالك) من هذين الاثنين، وما يجرى بينهما فى الركن الذى يجلسان فيـه- أشـار بصدغه ناحية ميلي وزكريا.

وافقته ماريا لويسا:

ـ لقد أخبرتك بهذا، ألا تتذكر ما قلته لك؟

ـ آه. سيأكل كل منهما الآخر.

ـ أنا لا أريد النظر إليهما؛ الأفضل تركهما.

استرق ريكاردو السّمع:

ـ ماذا تقولان؟- همس-. أشركانى معكما.

ـ فضوليّ- ردت عليه ماريا لويسا-. أشياء تخصنا.

ـ سرّ من أسرار الدولة- أضاف صمويل ضاحكًا.

ـ لا تظن أننى لا أدرك ما تخوضان فيه، بل أعرفه كله.

ـ إذا كنت ذكيًا هكذا، يا بروفيدن، فلا تسأل إذن.

قام كل من فرناندو ولولى وماريايو والفتاة الأخرى بإحداث صخب كبير، مثيرين حفيظة لوكاس، لأنهم يضربون بقبضاتهم على خشب المائدة بينما يكررون قائلين:

ـ موسيقى!، موسيقى!، موسيقى...!!

وضع الآخر كفيه على أذنيه.

ـ أغبياء- قال لهم-، لو كنتم تتصورون أنكم ستحصلون عليها بهذا الموشّح الثقيل التافه. بل على العكس، لقد جعلتمونى أركب رأسى وأتمادى فى العناد.

ـ موسيقى!، موسيقى!، موسيقى...!!

انضمت إليهم أصوات الخمسة الجالسين على المائدة الأخرى. نهض فرناندو بزجاجة واقترب ليصب لكل منهم كأسًا من النبيذ.

ــ نَفْحة رمزية من الشلّة– أشار بالزجاجة ناحية المائدة التى يجلس عليها هو وأصحابه–.

صفّق الخمسة. قال فرناندو:

ــ لم يتبق سوى القليل من النبيذ؛ ينبغى طلب المزيد.

التفت صمويل ناحية الجدار وأخذ ينفخ فى البزبوز ليفرغ تجويف الغليون من رماد«الكيف». كان أفراد عائلة أوكانيا يغادرون المائدة متجهين إلى منتصف الحديقة؛ أقبلت عليهم بيترا بوجهها وكأنها تواجه قطيعًا.

ــ هيا، يا أولاد– قالت لهم–، اخرجوا، هل نسينا شيئًا؟ تأكدى من هذا، يا نينيتا، لو سمحت.

ــ لا تشغلى بالك.

نظرت تحت المقاعد وفى الأركان وأسفل التعريشة. اتجهت عائلة أوكانيا نحو الدهليز؛ بقيت المائدة خالية فى عتمة الحديقة. كانت نينيتا تتذيل الطابور.

ــ تغادرون الآن؟– سألتهم زوجة موريثيو من على عتبة باب المطبخ–.

ــ نعم، يا فاوستينا؛ نحن ذاهبون– ردت بيترا–.

دخلت فاوستينا المحل خلفهم. أفسح لهم الطريق الجالسون على طاولة البار.

ـ حسنًا، يا رجل، حسنًا- قال موريثيو-.

خرج من وراء طاولة البار.

ـ حانت ساعة الرحيل- قال لهم أوكانيا، محركًا رأسه-.

ـ أتمنى أن تكونوا قد قضيتم يومًا ممتعًا- استمر صاحب الخان، ثم أنزل بصره تجاه خوانيتو-. يوم فى الريف وانطوت صفحته.

ـ كل شىء وله نهاية- رد أوكانيا-.

اقتربت بيتريتا من اللاعبين وأخذت تتأمل جسد الكسيح.

ـ نتقدم لحضراتكم بجزيل الشكر- قالت بيترا- على كل ما أولوتموه لنا من عناية واهتمام- التفتت أيضًا إلى فاوستينا لتكون مشمولة بالشكر-. وهكذا أنتم تعرفون، ولا داعى لقوله، اليوم الذى تذهبون فيه إلى مدريد...

كان القروىّ والسائق والراعى وإلتشاماريس والجزاران صامتين صمتًا فطنًا حصيفًا، معتبرين أنفسهم على هامش مراسم الوداع. لوثيو فحسب، ومن موقعه على الكرسى، هو الذى كان يعلن

عن حضوره من خلال مشاركته بالنظرات، وكأنه قاسم مشترك فـي كل المراسم والطقوس.

ـ عناية واهتمام!- قال موريثيو-، أنت تبالغين. بالعكس، إذ يبدو لـي أن انشغالى بالعمل هنا قد جعلنى أترككم وحدكم طوال المساء تقريبًا. وهذا بالتأكيد غصبًا عنى لأنى كنت أتمنى التفرغ لكم وقتًا أطول.

ـ لا تشغل بالك بهذه التفاهات يا موريثيو؛ لقد قمت بالواجب وزيـادة؛ هل يتخيل إنسان عاقل أن تقوم بترك أكل عيشك من أجل التفرغ لنا؟ يكفى أن...

ـ لم نفعل شيئًا- قاطعها موريثيو-؛ المهم أن تعودوا- التفـت إلـى فيليب-. أن تعودوا، يا أوكانيا، وأنا أتوجه إليك شخـصيًا بهـذا الرجاء، أن تعودوا، وألا تدعوا هذا الـصيف يمـرّ دون القيـام بزيارة أخرى لنا. والشىء نفسه أقوله لحضرتيكما(*)، لقد سررت وتشرفت بمعرفتكما.

ابتسمت نينيتا ابتسامة مجاملة.

ـ السرور متبادل- قال سيرخيو-؛ أنتم عائلة رائعة ونـدين لكـم بالشكر العميم.

(*) يقصد بحضرتيكما سيرخيو وزوجته نينيتا – المترجم-.

ــ لم نفعل شيئًا يستحق، شكرًا جزيلاً، وها أنتما تعرفان أننا هنا فى خدمتكما ورهن إشارتكما فى كل ما تأمران به. يكفى أن أقول لكما إنكما من الآن جزء لا يتجزأ من عائلتى هنا. فيليب!– وكزه فى ذراعه–، أنا فى غاية الأسف، يا رجل، لأنكم لم تأتون فى يوم لستُ مطالبًا فيه بالتزامات كثيرة؛ كانت ستتاح لنا الفرصة عندئذ للاستغراق فى مناجاة طويلة.

من ناحية مباراة الدومينو كانوا ينظرون، بين الفينة والفينة، بلا اكتراث إلى منْ يودّعون بعضهم البعض؛ بيْد أن كارميلو كان الوحيد الذى أبدى اهتمامًا فى أثناء تقليبه لوريقات الدومينو على الرخام. "(خلّيك) هنا، انتبه لما بين يديك– قال له كوكا/ كونيا–، ولا تكن (حِشريًّا)، ليس لك فى هذا ناقة ولا جملاً، ومن ثمّ ركّز فى اللعب".

ــ مثلما كان يحدث هناك– قال أوكانيا–، ألا تتذكر؟ متى يجمعنا اللقاء فى أخرى؟ على ألا تكون نتيجة لحادثة من الحوادث.

كان موريثيو يضحك.

ــ حتى لو كان بسببها. منْ ليسوا أغنياء مثلنا عليهم انتظار حادث ما، كأن تطقطق لهم عظمة؛ ليتمكنوا من الاستمتاع الكامل بالحياة.

ـ نعم، لم ينسيا!، مازلتما تشعران بحنين إلى المستشفى- تدخلت بيترا طرفًا ثالثًا-. الرجال كلهم سواء. ها أنت ترين مدى تلاقى الأفكار والأمزجة. يا لهما من اثنين!

وافقتها فاوستينا:

ـ الطيور على أشكالها تقع- قالت، مجعّدة حاجبيها، ومحركة رأسها، مثل من لديه أسباب للصبر يطول شرحها-.

نظر الزوجان إلى بعضهما البعض وهما يضحكان.

ـ حسنًا، لقد قطعنا على هؤلاء السادة مسامرتهم- قالت بيترا-؛ ولا داعى للمضايقة أكثر نظرًا لتأخر الوقت.

ـ لا توجد أية مضايقة على الإطلاق، ياسيدتى- قال كلاوديو-.

لم تسمعه بيترا؛ اتجهت إلى فاوستينا.

ـ ما اتفقنا عليه إذن، تمنياتى بالاستمرار على ما أنتم عليه حتى اليوم من خير- مدت لها يدها-. ونحن فى انتظار رؤيتكم عندما تقررون القيام بزيارة خاطفة إلى مدريد.

ـ أوى... هذا...!- قالت فاوستينا، رافعة عينيها-. لقد سررنا كثيرًا باستقبالكم يا بيترا.

ـ ابنتك ليست موجودة. كان بودّى أن أودعها. إنها فتاة رائعة وطيبة.

ـ إنها هنا. لابد أنها فى الفراش، ولم تسمعكم وأنتم تمرون. سأنادى عليها حالاً.

ـ لا، لا تزعجيها يا فاوستينا؛ اتركيها.

ـ لا يصح إلا الصحيح– قالت الأخرى وزعقت باتجاه الدهليز–. خوستينا، خوستينا!

كانت متمددة على السرير، فى الظلام؛ تسمع أصوات الحديقة؛ وترى أحيانًا، من خلف النافذة الصغيرة المغلقة، يد ماريا لويسا أو يد صمويل، التى تمر محتكة بالزجاج. كانوا جميعًا هنالك، إلى جوار النافذة، يثيرون الضوضاء والصخب؛ ورغم هذا كان بإمكانها التمييز بين الأصوات. كانت ترى فى السقف، فوق عذراء الجبيرة، دائرة الضوء المصفَرّة، المنبعثة من المصباح الصغير الذى أودعته أمها، فى أثناء آدائها لتاسوعية(*) عذراء أغسطس، وسط

(*) توجد– لدى عوام المسيحيين الإسبان– عذراء لكل نوع من أنواع الأمراض والعلل، ولكل الشهور والمناسبات، ولعلّ عذراء الجبيرة الواردة بالجملة السابقة مازالت موجودة بالحجرة منذ الحادثة التى تعرض لها موريثيو ودخل بسببها المستشفى. أما «التّاسوعية» فهى نوع من العبادة يستمر لمدة تسعة أيام– المترجم–.

فنجان كبير من الزيت. كما كانت تـسقط نقطـة ضـوء، يـرتعش انعكاسها، على صورة ملاءة السرير المطبوعـة بـالألوان. كـانوا ينادون ويكررون فى الخارج: موسـيقى، موسـيقى؛ لأن لوكـاس لا يريد التحرك وتشغيل الفونوغراف لهم. سمعتهم بعد ذلك يقولـون إنهم أجهزوا على النبيذ، وربما يقتضى هذا نهوضها لكى تحضر لهم المزيد. استرخت. وضعت ساعدها على جفنيهـا المغلقـين، حتـى لا ترى اللمعان فى فسقية الزيت الصغيرة أو الضوء المنعكس علـى الصورة المطبوعة بالألوان. سمعت بعد ذلـك عائلـة أوكانيـا فـى الدهليز؛ لم تواتها الرغبة فى النهوض؛ غيّرت من وضعها فأحـدث معدن السرير رنينا. كان يتدلى من السقف فرع جـاف مـن نبـات الغار، فوق رأس العذراء تقريبًا. رشقت أظفارها بقـوة فـى كلـس الحائط، على يسار سريرها؛ شعرت بالنفور والاشمئزاز، انقلبت على جانبها الأيمن عندما سمعت نداء أمها عليها. ترددت لبرهة، ثم امتدت يدها، باحثة عن زرّ الكهرباء.

ـــ أنا قادمة، يا أماه.

أصلحت على عجل هندامها أمام المرآة. كانت عيناها، عنـدما دخلت المحل، مازالتا تغمزان فى الضوء.

ـــ لم يريدوا الذهاب، يا بنتى، دون وداعك.

ـ كيف قضيتم اليوم؟- سألتهم بخَور وضعف-.

ـ على أعلى مستوى- قال أوكانيا-؛ شكرًا جزيلاً.

أبعدت الطفلة بصرها عن الكسيح وجرت نحو ذراعى خوستينا.

ـ هُبْ!- قالت وهى ترفعها من على الأرض-. لنرى، ما هو الشىء الذى أعجبك أكثر هنا؟، أخبرينى.

ـ الأرنبة الموجودة بالداخل هناك- قالت بيتريتا وهى تشير نحو الدهليز-. إنها أرنبتك، حقًا؟

ـ ومن اليوم أرنبتك أيضًا؛ بل إن لكِ فيها أكثر منى. تعالى وقتما تشائين لكى نقدم لها الطعام، مبسوطة؟

ـ نعم- كانت تهز رأسها-.

ـ والآن انزلى، يا حياتى، لأن أبويك مستعجلان، ولا يليق أن نجعلهما ينتظران- وضعتها على الأرض-. ستعودين يومًا آخر؛ هاتِ قُبلة.

وضعت صدغها على مستوى ارتفاعها كى تقبلها؛ ولكن بيتريتا عانقتها بقوة، ضاغطة على رقبتها بذراعيها.

ـ أنا أحبك، تعرفين؟- قالت لها-.

كان فيليب أوكانيا يتلقى وداع الآخرين:

ـ ها أنت تعرف- قال له السائق، مناجيًا، وهو يسلّم عليه-؛ لوحدك، دون عائلة أو ما شابه- غمز له بعينه-. لنرى إذا كان سينتابك الحماس بالفعل ذات يوم.

وافقه أوكانيا بابتسامة.

ـ سأضع هذا فى الحسبان- اتجه إلى لاعبى المباراة-. فى أمان الله، أيها السادة.

ـ رحلة سعيدة؛ إلى اللقاء.

ـ صحبتكم السلامة. آه، اسمع، لو واتت الرغبة أولادك الصغار فى أى يوم من الأيام لركوب الليموزين(*)، فما عليك إلا أن تحضرهم، اتفقنا؟، هذا ما تحتاجه المركبة اللعينة: هواءً آخر، صحيًا ونظيفًا.

ـ حسنًا، اتفقنا- وافق فيليب، مبتسما لكوكا/ كونيا بفم مُعْوج، ونظر إلى بيترا بطرف عينه-.

(*) يطلق الكسيح على كرسيه المتحرك لفظة «الليموزين» بقصد السخرية والمزاح – المترجم-.

ـ لا شيء إذن، أتمنى لكم الاستمرار على ما أنتم عليه من خير.

ـ شكرًا؛ هذا هو المطلوب؛ وأنت من أهله. نتمنى رؤيتكم مجددًا.

انخلع شنيدر بالكاد من مقعده، وأحنى رأسه بطريقة آلية. خرجوا؛ صاحت نينيتا، متعجبة:

ـ يا له من قمر، يا سيرخيو! يا لجماله! ويا لحجمه الكبير...!

كان ضياؤه النحاسيّ منعكسًا على«الرفرف» وعلى«الدّوكو» المُتْرَب للباب.

ـ ناولوني الأغراض– قال أوكانيا وهو يفصل الكنبة الخلفية–.

كان موريثيو وابنته خوستينا قد خرجا معهم؛ بينما ظل سائق عَربة النقل يرقبهم من لدن عتبة الخان المضيئة. دَسَّ فيليب الأغراض في فجوة مسند الكنبة، وبعد ذلك ركبت العائلة. كانت بيترا تقول:

ـ لا تتزاحموا يا أولاد، لا تتزاحموا، توجد أماكن للجميع.

كانت خوستينا تقف أمام السيارة، معقوفة الذراعين.

ـ حسنًا، يجب أن أدفع لك حساب الكئوس والقهوة– قال فيليب لموريثيو–.

كان قد أخرج حافظة نقوده.

ـ هيا، امشِ من هنا!

ـ هل هذا معقول؟- أمسكه من كمّ القميص-. ستقول لي الآن كم هو الحساب.

ـ يا رجل امشِ؛ لا داعى للمزاح.

ـ اسمع... لن نعود ثانية لو ركبت رأسك. خذ فلوسك.

ـ (روح اِلعب بعيد يا شاطر).

كانت بيترا تنظر إلى خياليهما من النافذة الصغيرة.

ـ (مش محتاجة نعمل خناقة عشان الفلوس).

ـ اركب، هيا، لقد تأخرتم؛ أنت تضيع الوقت.

ـ لا تأخير ولا (دياوله). أمرك غريب، يا موريثيو.

كان موريثيو يضحك؛ تدخلت بيترا:

ـ (شوف) يا موريثيو، هذا لا يصح. زوجى يريد أن يدفع لك ثمن المشروبات ويجب عليك، من باب اللياقة والمراعاة، أخذه منه. لأنك بهذا الشكل سوف تجعلنا نعود مرة أخرى ونحن منشرحو الصدر.

ـ لا شيء، لا شيء من هذا؛ سيكون لـديكم فـي مدريـد الوقـت والفرصة (لعزومتى). أنتم ستكونون هناك المعنيين بالـدفع. أمّـا هنا، فأنا الذى أستضيف، وخلص الكلام. هيا، اركب يا أوكانيا.

ـ حسنًا، أقسم أننى لن أفوّتها لك، وسأجعلك تندم على هذا.

ركب. كانت بيترا إلى جواره، على الكرسى الأمـامى. كانـت خوستينا تضع الآن ذراعيها على حافة النافذة الصغيرة.

ـ تصلون إلى مدريد بالسلامة- قالت باتجاه الداخل، ناحية الأطياف المحشورة فى جوف السيارة؛ لم تكن ترى وجوهًا-.

لم يستجب «المـارش»؛ وفـى المحاولـة الرابعـة، اشـتعلت السلندرات. أخرج فيليب أوكانيا رأسه من النافذة.

ـ إلى اللقاء، أيها الشخص السيئ- ابتسم-، وليكن فى معلومك أننى أمشى وأنا زعلان منك.

ـ اسحب، هيا، اسحب- قال موريثيو-، لقد تأخرتم.

كان يحرك يده إلى جوار النوافذ الـصغيرة، محييًـا الأجـرام المكدسة بالداخل. انبثق النور البرتقالى للكشّافات؛ شرعت السيارة فى التحرك ببطء؛ "مع السلامة، مع السلامة...". رفعت خوستينا ذراعيها

من على حافة النافذة واستدار التاكسى نحو الطريق. بقى الأب وابنته فى الخلف، واقفين بلا حراك، إلى جوار عصفة الضوء القادمة من البيت، إلى أن استلم التاكسى، بذيل التراب الذى يعمى القمر الكبير الوليد، ناصية الطريق العام المسفلت.

ـ ليصمت الجميع! اسمعونى لحظة! ألا تريدون سماعى؟

كان فرناندو فى وسط الحديقة، يلوّح بالزجاجة فى الهواء، وعصفة الضوء القادمة من المطبخ تضيئ وجهه وصدره وتتلألأ على الزجاج. كان يصيح تجاه عتمة الموائد، فى الآخرين الذين عادوا لطلب الموسيقى.

ـ لنرى ماذا يريد هذا الآن. سكوت! دعوه يتحدث.

ـ الفونوغراف فطسان من الضحك- قال ريكاردو-؛ من كثرة عمله اليوم!

ـ والساعة أوشكت على العاشرة.

ـ هيا، لينطق!

ـ حكاوى. ما رأيكم فى ألا نمكنه من الكلام؟- اقترح ريكاردو بصوت هامس-؛ عندما يهم بفتح فمه نطلق فى وقت واحد أصوات الاستهجان مثل نفق.

كانت أنظار الجميع، ومن لدن كثافة نباتات العوسج فى الحديقة المظلمة، معلقة بفرناندو الواقف فى مستطيل الضوء.

قالت ميلى لزكريا:

ـ تتبخر أيام الآحاد دون أن تشعر.

ـ ولكن يبقى أثر طعمها فى الفم- قال هو-. انظرى إلى القط، انظرى إلى القط...

أحسّا بحركته داخل التعريشة، من خلال حفيف الأوراق الجافة. شاهدا بعد ذلك خياله الصيّاد الآبق بين أرجل الكراسى.

ـ بالنسبة له، الأيام كلها آحاد.

ـ أو أيام عمل كلها- رد عليها زكريا-. لا ندرى.

التفتا الآن إلى فرناندو الذى بدأ يفقد صبره.

ـ حسناً، تريدون سماعى أم لا؟

صاح فيه زكريا:

ـ تكلم الآن، يا موسولينى!

ـ ماذا! أعطوه ريالين(*) كى يسدّ فمه.

أومأ بالانسحاب، وخطى خطوة فى النور الذى لمع للحظات على نيكل الفونوغراف الموجود فى خلفية الحديقة.

ـ اتركوا الفتى يقول ما عنده، هيا الآن.

ـ لنرى إذا كانوا يريدون.

ـ اسمع، هل ستدشن سفينة عابرة للقارات بالزجاجة التى فى يدك؟ أخبرنى، كيف ستسيّرها؟

ـ إيه؟ (شوف)، من المحتمل أن أجعل بروفيدن مساعدًا له أو الشابة ريكاردا، أيّهما يعجبك أكثر؟

(*) ريال: اسم لبعض المسكوكات الإسبانية القديمة (ذات الأصل العربى)، منها ما يساوى ربع بيزيتة ومنها غير ذلك – المترجم–.

ـ آه، كلاهما منحوس، وسوف تهوى السفينة إلى الأعماق لو استعان بأىّ واحد من الاثنين. حسناً، هيا، تحدث الآن، لكى تشنف آذاننا بتجلياتك العبقرية.

ـ بعد إذنك. أيها الفتيان- قال متجها إلى الجميع، دون استثناء للخمسة الذين يشغلون المائدة الأخرى- كنت أقول إننا بحاجة إلى تنظيم هذه الفوضى ولو قليلاً. ما فعلناه منذ المساء وحتى الآن لم يخلق سوى البلبلة، لأن كل واحد يفعل شيئًا مختلفًا، والنتيجة أننا لم نستفد بشىء ذى قيمة...

ـ لا تحك لنا قصة حياتك. (اِخلص)! يا لك من رجل، ويالكلامك السالخ الثقيل!

ـ اسكت، يا جعجاع، أنت مزعج...! حسنًا، كنت أقترح ضمّ مائدتنا إلى مائدة هؤلاء الناس، الموجودين هنا مثل التائهين، لاسيما وأنا أعرف أنهم من الأخيار؛ وبهذا الشكل نجتمع كلنا حول مائدة واحدة، ويكون من السهل عندئذ تنظيم السهرة وترتيبها. هذا بالإضافة إلى أن اللّمة ستكبر فى هذه الحالة بانضمام التعزيزات الجديدة إليها ويخرج الكل كسبانًا فى الانبساط والفرفشة. ما رأيكم؟

ـ (ماشى)، أتفق معك فى هذا الاقتراح- قال ميجيل-؛ وإذا كانوا موافقين فليبادروا بإحضار كراسيهم لينضموا إلينا، المكان هنا واسع.

ـ موافقون، موافقون- قال صوت من الجانب الآخر-.

ـ كانوا منتظرين ولو مجرد كلمة.

نهض الخمسة وحملوا كراسيهم إلى المائدة التى تجلس عليها مجموعة زكريا ومجموعة ميجيل. كان فرناندو قد انسحب من الضوء ورجع إلى مكانه، إلى جوار ماريايو، وعندئذ بقى المستطيل صافيًا على الأرض. اجتازه الخمسة، ناقلين أجربتهم وأغراضهم. دمدم ريكاردو.

ـ كنا فى حالنا، والفكرة التى وردت بخاطره ستجلب لنا الصداع.

التفت إليه صمويل وقال له:

ـ ماذا تنتقد الآن، يا بروفيدن؟

ـ أنا لا أنتقد؛ أقول فحسب إننا لم نكن بحاجة إلى الاختلاط بأحد لكى نستمتع بوقتنا. سوف يحدث هرج ومرج، وتتجم بعد ذلك المشكلات.

ـ لا تكن أنت أيضًا متعصبًا ومنكفئًا على ذاتك.

ـ لا شيء من التعصب. نحن لا نعرفهم، ومن الطبيعى أن تتركهم وشأنهم. منْ الذى له الولاية عليك ليأمرك بعمل صداقات مع هذا أو ذاك؟ هذا بالإضافة إلى استحالة اتخاذ صديق، كما تعرف، وسط هذا الهيجان.

كانت مجموعة الخمسة، المؤلفة من فتاتين وثلاثة شبان، قد أخذت أماكنها وانتهت من الجلوس.

ـ اسمع- ردّ عليه صمويل بصوت خفيض-؛ لقد انتهى الأمر وأصبح واقعًا؛ ومن ثمّ لا تفتح فمك ولا تُخطئ؛ لا تكن أنت السبب فى إثارة المشكلات.

ـ مفهوم؛ وفوق هذا يجب أن أريهم بشاشة وجهى.

سألهم ميجيل:

ـ من أى حى أنتم؟

ـ .من المدبح. من ليجاثبى. باستثناء هذا، هذا يعيش فى أتوتشا. الباقون كلهم من ليجاثبى(*).

(*) ليجابثى وأتوتشا: حيّان من الأحياء المعروفة فى مدريد – المترجم-.

- حى ظريف وريحه خفيف بالنسبة لي. أعرف فيه شابًا يُدعى إدواردو، ولقبه مارتين خيل، هل سمعتم بهذا الاسم؟

- إدواردو... نعم، لدىّ صديق يُدعى إدواردو، ولكنه ليس هو، لأن لقبه مختلف. ما هو اللقب الذى قلته؟ مارتين، إيه؟

- إدواردو مارتين خيل.

- لا، ليس هو؛ ليس هو المقصود بالتأكيد. إنه ليس مسجلاً فى أرشيف ذاكرتى. لنرى هذا- اتجه إلى زميله-. أنت، ألا يرد ببالك شخص آخر؟، حاول التذكّر.

- إدواردو، (شوف)... نعم يا رجل، هناك آخر ينادون عليه بـ «دُوَا»، ألا يُسمى هذا أيضًا إدواردو؟

- آه، نعم، حقًا، ها قد ظفرنا بآخر. اسمه الأول إدواردو، ولكنهم ينادون عليه بـ«دُوَا»، على سبيل التدليل، أنت تعرف أن الناس، دون استثناء للأقارب والأهل، يستبدلون إدواردو بـ «دُوَا» لسهولته.

- لو لم يكن هذا، فأنا لا أعرف غيره. وأنت، ألا تتذكر لقبه؟

- لقب دُوَا؟ انتظر؛ نعم يا رجل، ماذا يكون؟، سأقوله لك... حسنًا، لا أتذكره فى هذه اللحظة، ولكنه على أية حال ليس اللقب الذى ذكرته، أنا متأكد، لقبه مختلف تمامًا؛ سوف أتذكره...

ـ حسنًا، لا تشغلا بالكما– قال ميجيل–، الأمر سواء. لا داعي لتصديع الرأس أكثر من هذا.

ـ كنا على وشك الظفر به، لأن إدواردو الآخر الذى تذكرناه الآن، دون الاهتداء إلى لقبه، من المحتمل جدًا أن يكون هو الذى تسأل عنه، شبه مؤكد أنه هو. ولكننا لا نعرف ممنْ يُسمون إدواردو سوى هذين الاثنين؛ أمّا بالنسبة لمنْ أسماؤهم «بيبى» فيوجد منهم الكثيرون فى ليجاثبى، إنهم يَمْلئُون الحى، فيما يشبه الغزو. ولكن من الغريب أننا لا نعرف صديقك ولو حتى عن طريق السماع، لأنه شاب مثلنا، ونحن على صلة بكل شباب الحى تقريبًا. هل أنت متأكد أنه يقيم فعلاً فى ليجاثبى؟

ـ نعم، نعم متأكد. ربما يكون قد انتقل مؤخرًا من الحى، لأننى لم أره منذ أكثر من سنة.

ـ حسنًا، يا بنى، دعوكم الآن من هؤلاء الإدواردوس(*)، والتفتوا إلى ما نفعله هنا. هل سنرقص أم لا؟

(*) إدواردوس هى جمع كلمة إدواردو – المترجم–.

ـــ سنرقص، يا امرأة، لقد انتهينا. هل سنستمر هكذا، بدون نبيذ؟

ـــ لابد أن الزجاجة التى أحضرها هؤلاء مازالت بها بقية، (شوف كده).

رفع ميجيل زجاجة مجموعة ليجاثبى ونظر إليها من الجهة المعاكسة للشعاع القادم من مربع النافذة المضاءة، ثم قال:

ـــ لا شىء على الإطلاق، مجرد فُضالة تافهة.

ـــ نطلب المزيد– قال فرناندو–. صفّق لنرى هل سيأتى أحد.

ـــ صفّق أنت، أليست لك يدان؟

ـــ هيا، يا لوكاس، كن فتى طيبًا وشغّل لنا الفونوغراف، هيا.

نهض لوكاس بتثاقل من على الكرسى، متصنعًا تنهيدة وإيماءة صبر، واتجه نحو الفونوغراف.

علّق خوانيتو:

ـــ يا له من عمل شاقّ! لو شاهد أحد هذه الانفعالات المبالغ فيها لظن أنه ذاهب لتشغيل الترام– التفت إلى لولى–. لا أدرى، يا فتاة، كيف يعيش هذا الرجل فى ظل التعب والخوَر المسيطرين عليه!

رنّت تصفيقات فرناندو. قالت ماريايو:

ــ لك يدان لا مثيل لهما يا بنى. أنا على وشك التفكير فى استئجارك لتنادى على حارسى الذى يعانى من صمم مُطبق.

ــ من فضلك يا لوكاس، ضع اسطوانة الرّومبا، (عشان خــاطرى)– صاحت فيه ماريا لويسا–.

ــ لوحدك أنت؟ ستكون للجميع.

ــ لا رومبا ولا رومبو!– قال الآخر من موقعه هنــاك–. إذا كنــت لا أرى هنا ما تمسك به يدى!

ــ تعال إلى النور، يا رجل، حتى نراها؛ إذا كانت هذه هى المشكلة.

لم يرد لوكاس. كان يُرى خياله المُقعى إلى جوار الفونــوغراف، وذبذبة البريق المعدنى، عند تدوير الذراع.

ــ لا تضايقيه، لن يتورع عن تركه فى الحال، تعرفين طباعه.

ــ أريد أن أرقص! وإلا، فماذا؟ أريد أن أرقص.

ــ تحملى قليلاً، (يا أم رجلين ولْعة)، تحملى، لا تتعجلــى، مــا زال هناك وقت.

ـــ ولكنه لايكفى يا صمويل.

ـــ بدأنا؟– احتج زكريا–.

ـــ فى ماذا؟

ـــ فى الحديث عن أشياء قبيحة.

ـــ أشياء قبيحة؟

ـــ الوقت، يا امرأة.

التفت من جديد إلى ميلى مبتسمًا:

ـــ استمرى.

ـــ حسنًا، فات الوقت بسرعة وفى طرفة عين كانت الساعة تدق العاشرة والنصف ليلاً، وحضر والدى، رنّ، رنّ، جرس الباب؛ وعندئذ تملكنى، يا بنى، خوف لا يمكن وصفه لك، كنت مرعوبة. فتحت له الباب، ولا كلمة ولا همسة؛ وجهه أشد صرامة من مِقْرعة، وعلى هذا يمكن أن تتخيل منظرى. جلسنا كلنا حول المائدة، هنا والدى، الجدة فى المواجهة هنالك، وعمتى على الطرف الآخر، هكذا تمامًا كما أصف لك، وأخى على هذا

الجانب، إلى يسارى؛ لا تتخيل عدد الضربات التى كنت أسـددها له بركبتى من تحت المفرش المشمع؛ الأعصاب، يا فتى، لم أكن أستطيع التحكم فى أعصابى. المهم أننا شرعنا فى تناول العـشاء، وظل والدى على نفس الحال، أخذ طبق الحـساء دون أن ينـبس ببنت شفة، ولا حتى مجرد النظر إلينا بمواربة، ثم جـاء الـدور على الطبق الثانى بعد ذلك، والشىء نفـسه، لا ينظـر إلا إلـى الطعام. ليكن فى معلومك أن أبى ليس أيضًا من النوع الثرثـار، ولكن يطيب له التحدث على المائدة، يتحدث عن بعض شـئونه، يسأل ويحكى نوادر وطرائف، فهو شخص يتمتع بروح الدعابـة وخفة الظل وهما، كما لا يخفى عليك، يتطلبان الحـافز والبـال الرائق. تخيل إذن كيف كانت تلك الليلة، حتى الجدة نفـسها لـم تجرؤ على التفوّه بكلمة وقتها. ولا يرجع الـسبب إلـى جهلهـا بالموضوع، إنها ليست خَرِفة كما نعتقد، إطلاقًا، هى عجوز وكل شىء، ولكن من المؤكد أنها تشممت فى الحال رائحة شـىء مـا غير طبيعى. حسنًا، وباختصار، أقول لك إنه كان عشاءً مرعبًـا حقًا، لأنك فى مواقف مثل هذه تحس بأنك على وشك الانفجار بين لحظة أخرى، يا له من وقت لا تحب أن تمر بمثله ثانية! إنه أسوأ كثيرًا، أسوأ ألف مرة من أى انتهار أو تأنيـب يمكنـك تخيلـه.

تصور أن عمتى، بكل عنفوانها علينا وجبروتها، قد اسوّد لونها من شدة الهول، لقد كان هذا واضحًا عليها، ولم تسعفها قواها أيضًا على تحمل ذلك فى النهاية؛ وعلى هذا فإنها، ومع طبق التحلية، قد انبرت، بعد انهيار مقاومتها، وسألت والدى: "ألا تريد قول شىء لابنك وابنتك؟"، وكأنها تتمنى أن يبادر بتعنيفنا (ونخلص)، ألا تفهمنى؟. لم يفعل أبى شيئًا سوى النظر إليها، بصرامة شديدة، ثم نهض وانسحب إلى غرفته لينام. أمّا نحن، فقد آوينا تلك الليلة إلى الفراش والعاصفة تسكن أجسادنا، لأننا مازلنا نجهل العاقبة. من الواضح أن هذا ما كان يريده، لأنه ليس مغفلاً أو ما شابه. وقد عاد عليه هذا بأفضل نتيجة يمكن تحقيقها. وفى اليوم التالى، قال لنا، بجدية وصرامة، أربعة أشياء، دون تعنيف أو شىء من هذا القبيل، أربعة أشياء بجدية وصرامة، دون زعيق أو شتائم، بهدوء وسكينة؛ وضغط فيها على أخى أكثر قليلاً، أمّا أنا... كان يدرك بما فيه الكفاية أننا قضينا وقتًا عصّيبًا. وهذا كل ما حدث...

ابتسم زكريا.

حسنًا، وأنتِ، هل يكلفك الحارس كثير؟- سأل فرناندو ماريايو-.

ـ ما باليد حيلة.

ـ لماذا؟ ماذا تفعلين ليلاً بتلك الشوارع؟

ـ أعمل فى كافيتريا، لكى تعرف.

ـ آه، عرفت. وردية الليل. ولا تأكلك الخفافيش مصاصة الدماء؟

ـ لا، يا خفيف؛ لا تقلق، لا تأكلنى.

سُمعت ضحكة فرناندو. اقترب لوكاس من النافذة ومعه جراب الاسطوانات. كان يُرى المطبخ من الداخل وزوجة موريثيو وهى تهوّى على النار، لتأجيجها، بغطاء علبة أحذية؛ كان الفحم يقرقر فى فرقعات صغيرة يتطاير شررها عاليًا. ذهبت ماريا لويسا إلى حيث يوجد لوكاس والتفتت فاوستينا لدى سماعهما، وهما يتحدثان عن اسطوانة الرّومبا، وقالت لهما:

ـ ستأتى ابنتى حالاً، لتلبية طلباتكم.

ـ فكرة طيبة أن يتولى خدمتنا شخص آخر- قالت فتاة من ليجاثبى-.

ـ ولكن آخر ذا طبيعة أفضل.

ـ حتى لو انعدم فيه ما عداها من صفات...

قالت خوانيتا عندئذ:

ـ أسوأ ما فى المكان صاحبه؛ يعتقد على ما يبدو أنه من طراز خاص.

ـ لن يأتى أحد إلى هنا.

عاد فرناندو للتصفيق، ثم أضاف:

ـ (شوفى) يا امرأة، فكرة الحارس هذه لا بأس بها، حتى لو كانت فحسب من أجل ألا تسيرى وحدك ليلاً. أنا على أتم الاستعداد للاستغناء كل ليلة عن ثلاث ساعات نوم. إنها فكرة طيبة، ومرافقتك تستحق التضحية. أنا قبلت الوظيفة.

صدحت الموسيقى. خرج للرقص صمويل مع الشقراء، وشابان وفتاتان من مجموعة ليجاثبى. وبعد ذلك نهض ميجيل، وعند مروره برفقة أليثيا نحو المرقص، وضع يده على كتف زكريا.

ـ ماذا جرى؟ من الواضح انكما مكتفيان ذاتيًا ولا تريدان غزولاً. تثرثران معًا، اليد فى اليد، ومنزويان فى الركن. (باين عليه عايز يأكلك اليالوظة). لا تصدقيه يا بنتى، كلها أكاذيب، وهو فشّار بارع. لا تحفلى بما يقول.

ابتسمت له ميلى.

ـ إنه يحكى لي أشياء من أيام الجيش.

ـ حسنًا، حسنًا، استمرا.

نهرته بعد ذلك أليثيا وهما يرقصان.

ـ ما الذى يجعلك تحتك بهما؟، ألا ترى أنهما فى مشروع غرامى؟، ألا تلاحظ ما يجرى أمامك؟

ـ اقحمت نفسى لهذا السبب ذاته؛ بقصد إغاظتهما وتعكير صفوهما ولو قليلاً.

ظلّ الشاب الباقى من مجموعة الخمسة جالسًا على المائدة، مسترقًا النظر إلى لولى فى العتمة. كانت تصل ضحكات الشقراء وصمويل، اللذين يرقصان بانفعال مبالغ فيه. كان ريكاردو صامتًا.

ـ يا لها من تسلية، حقًا، يا خوانى؟- قالت لوليتا بنغمة متحفظة-.

وقبل أن ترد كان لوكاس، العائد للتوّ من عند الفونوغراف، قد أمسك بيدها لينضما إلى حلبة الرقص.

كان الراقصون والراقصات يدخلون ويخرجون من الظلمة إلى المستطيل المقتضب للضوء، فيتقاطع النور مع السيقان والخصور.

قال فتى ليجاثبى للوليتا:

ـ مادمت لا ترقصين مع أحد...

ـ ماذا؟

ـ ترقصين معى، لو أردت.

ظهرت خوستينا فى الحديقة.

ـ نعم، نعم، بكل سرور.

ـ ما هى طلباتكم ؟ ماذا كنتم تريدون؟

كان ريكاردو ينظر إلى فتى ليجاثبى الذى أمسك بلوليتا وشرع معها فى الرقص؛ قال:

ـ أنت، يا فرناندو، (شوف أنتم عايزين إيه).

ـ آه، نبيذ، زجاجتان من أى نوع كان.

أضاف بعد ذلك:

ـ اسمعى، هل توجد إستكوزة؟

نظرت إليه خوستينا:

ــ نعم، ومعدّة على طريقة البحّارة!- ردت عليه فى أثناء انسحابها-.

ــ اشرب!، لقد أجابتك على نفس الوتيرة(*)- ضحكت ماريايو-. حتى تتعلم.

سُمعت صيحة احتفالية فى أثناء الرقص، وبعدها أنارت الحديقة كلها فجأة. باغت النور وجه ريكاردو الحامض، فم ماريايو الضاحك، زكريا وميلى المتلاصقين والغائصين بكرسييهما فى التعريشة. انبثق النور من لمبة ببرنيطة بيضاء تتدلى فى وسط الحديقة من أسلاك مقطرنة. تباعدت فجأة شفتا ماريا لويسا عن شفتى صمويل. كان يُرى الغبار المتصاعد من بين أرجل الراقصين والراقصات، والبلوزة الصفراء لإحدى فتيات ليجاثبى، والموائد الخالية، والأوراق على الأرض، والدراجات الملقاة إلى جوار الحائط فى خلفية الحديقة، والشفتان المسحوقتان للضفدعة البرونزية. قال فرناندو ضاحكًا:

ــ إضاءة النور تعكر الصفو الآن.

(*) السؤال عن الاستكوزة فى خان متواضع بإحدى القرى ينطوى على تهكم، وقد ردت خوستينا بتهكم مماثل حين قالت له: نعم، ومعدّة على طريقة البحّارة - المترجم-.

التفت زكريا ليقول له:

ـ ماذا تقصد؟

كانت ميلى تنظر فى مرآتها الصغيرة إلى جواره.

ـ هذا، أنتما- أجاب فرناندو-.

ـ احضر لنا نبيذًا، من فضلك.

ـ اصبر، سيأتون به حالاً.

كانت تصدح فى الفونوغراف الأبواق الغنّاءة لرقصة الرّومبا.

ـ جهّز زجاجتين، يا أبى.

ـ اثنتان؟. حالاً. هل أضأت النور للشباب؟

ـ أضأته للتوّ.

ـ جيد، لأن رقص الشباب غير مستحب فى الظلام. إنه لا يعجب أمك، وعندها حق. النور يفرض مزيدًا من الاحتشام.

ـ لم تقدم لهم معروفًا بما فعلت- قال لوثيو-.

ـ ليموتوا إذن بغيظهم. لم يبقَ إلا أن أحوّل بيتى إلى مكان قذر.

أصرّ لوثيو:

ـ للشباب مشتهياته وأهواؤه، كما هو معروف. ولا يمكن أن تُوصف أيضًا بالقذارة. الوساخة وساخة شىء آخر، مختلف تمامًا.

كان موريثيو يملأ الزجاجتين.

ـ أمّا هنا، فلا. الحقول واسعة، هناك فى الخارج. خذى، يا بنتى.

دخل الرجل ذو الحذاء الأبيض.

ـ مساء الخير.

ـ نحن الآن فى الليل(*). أهلا، كيف الحال؟

خرجت خوستينا باتجاه الدهليز. رفع السيد شنيدر رأسه عن اللعب.

(*) يستخدم الإسبان عبارة «صباح الخير» من طلوع النهار حتى وقت الظهيرة، ومن بعد الظهر إلى المغرب يقولون «مساء الخير»، أمّا من بعد دخول الليل إلى قُبيل الفجر فيقولون «طابت ليلتكم» أو «ليلة سعيدة». ومن ثمّ كان يجب على الرجل ذو الحذاء الأبيض أن يسلّم على الموجودين بالسلام المناسب لدخول الليل – المترجم–.

ـــ هل أنت بخير يا صديقى؟

ابتسم الرجل ذو الحذاء الأبيض.

ـــ بخير، شكرًا جزيلاً، يا سنيدر؛ كيف يسير هذا؟

ـــ أوه، كالمعتاد، مرة تكسب ومرة تخسر. مثل الحياة.

ـــ نعم، مثل الحياة، إلا أنه أقل مخاطرة، ألا تعتقد؟

ـــ بلى. وهذا عين الحقيقة- التفت للعب من جديد-.

لمس الرجل ذو الحذاء الأبيض ظهر الراعى.

ـــ ماذا، يا أماليو؟ وتلك النعاج؟

ـــ عادية. ليست فى أحسن حال- توقف ثم استأنف بصوت أشد قوة-. لا يمكن أن تكونه. كيف ستكون على ما يرام؟

ـــ والسبب؟

ـــ سيدى، صاحب المال. ما زال لا يدرك حتى الآن معنى تربية القطعان. لا يعقله. أشتبك معه يَوْميًّا فى خناقات صغيرة لإقناعه بالطريقة التى يجب أن تتبع فى تربيتها. دون نتيجة. إنه مثل

هذا- ضرب بعُقد أصابعه على طاولة البار-. رأسه أشد صلابة...

تجرع كأسه. لم يُعقب أحد. استمر قائلاً:

ـ (شوف) حضرتك، هذان السيدان اللذان يتعاملان مع الماشية- أشار إلى الجزارين-، يفهمان المسألة جيدًا. يمكن أن يخبركم هذان السيدان بما يحدث، ألستُ على صواب؟

عاد للصمت ثانية. كانوا ينظرون إليه. ألقى بقوله الفصل:

ـ إنك إذا أهملت تجديد القطيع فإن مآله الفناء، عاجلاً أم آجلاً. هذا شيء مفروغ منه. ولكن هذا الأمر البسيط الذى يعيه الجميع لا يدخل رأسه ولا يمكن أن يستوعبه. "أماليو، النعاج ليست على ما يرام"، ولا يوجد منْ يزحزحه عن هذه الشكوى المتكررة- ابتلع ريقه-. ولكن يا سيدى، هل ستعيش النعاج مائة عام؟ يمكن أن تحقنها بالفيتامينات أو ما شابه؛ تدخلها ولو حتى مصحّة، لو كانت هناك مصحات للبهائم، لإبقائها حيّة لكى تعطيك الصوف؛ ورغم هذا فإن النعجة المنتهية التى لا تجد أسنانًا تأكل بها، هذه النعجة تموت دون اعتلال. وفى تلك الحالة لا تفيد عناية ولا دعوات، لأنها أصبحت مجرد حطام، ما قولك؟

وافقه الرجل ذو الحذاء الأبيض وهو شارد:

- أتفهم ما تقول.

- شيء طبيعي!- ختم الراعي كلامه-.

- هذا مثل والدي، رحمه الله- قال القرويّ-، الحالة واحدة. لم يكن يفعل في أيامه الأخيرة سوى ترديد: أنا لست بخير، أنا لست بخير. ومن أين سيأتي الخير إذا كان الأمر لا يتعلق بصحة ولا بشيء من هذا القبيل. المسألة ببساطة هي أن دوْره كان قد أزف، لبلوغه أرزل العمر. الغريب أن يحدث العكس، وهو الشيء الذي يفكر فيه ويأمله. اسمع، لقد كانت الرغبة تواتني أحيانًا لأقول له، لولا مانع الاحترام والمراعاة بالطبع: "أنت مسنّ يا أبي، طاعن في السنّ، لا تتفادى لبّ القضية، إلى متى ستتجاهل أنك بلغت من الكبر عتيا، أنت لست مريضًا ولا غيره، بل تنتهي ذاتيًا، لأنه لم يعد في العمر بقية!". الرجيل المسكين. لم يكن يريد أن يستوعب أن الأشياء تحمل في طبيعتها الفناء، ولن يفيد بشيء البحث عن سبب آخر أو بالأحرى الرجل الخامسة للقط. الكائن الحي يعاني من التآكل المستمر، مثل الأشياء جميعها، إلى أن تصل اللحظة التي يستحيل فيها فعل أي شيء، يستحيل، يستحيل.

أليس هذا واضحًا وضوح الشمس، ولا يحمل أدنى ذرة من غموض؟. عندما ينتهى شحْن الساعة، صحيح أن الحالة مختلفة ولكنها تنفع مثالاً؛ أقول إنه عندما ينتهى شحن الساعة وتتوقف، فإنه لا يخطر ببال أحد القول بأن هذه الساعة قد أصابها العطب، أليس كذلك؟. أبى الشىء نفسه، والشىء نفسه هذا السيد، بحكاية النعاج التى أشار إليها أماليو الآن. الشىء نفسه! إنهم يخلطون بين كبر السنّ والمرض.

- هذا هو- وافقه الرّاعى-، التآكل، التآكل الكامن فى الأشياء كلها بعامة وفى النعاج على وجه الخصوص. لو تآكلت أسنان نعجة، بماذا ستأكل؟ هل ستقدمه لها حساءً؟

- نحن جميعًا نعرف- قال كلاوديو- ما هو صاحب عملك هذا: يوجعه هذا الجزء- لمس صدره-. بُخل صافٍ، ولا شىء غيره. وهنا يكمن سبب تقاعسه عن فعل الأشياء كما ينبغى.

- إيه، قف عندك- نهره القروىّ ضاحكًا-؛ منْ الذى أعطاك الإذن كى تقول هذه الأشياء فى حضرة أماليو؟ لا يجب إهانة أصحاب العمل أمام التابعين لهم.

ـ لا تبعية ولا باذنجان!– قال الراعى–. الحقيقة يجب أن يقبلها الجميع. السيد كلاوديو لديه الحق بأكثر من قديس فيما يقول، أكثر من قديس. وأنا أول من يبصم بالعشرة على هذا الكلام.

ـ آه، حسنًا، حسنًا، سأنقل ما يجرى هنا لدون إميليو؛ وأقول له إنك بدلاً من أن تدافع عنه تدمغه بالبخل فى غيابه. أنا أفكر فى إخباره بهذا.

ـ لن تنتفى عنه هذه الصفة، بنقلك إيّاها له.

ـ لا يوجد سبب واحد لبخل هذا السيد، مع كثرة المال الذى تحت يديه– تدخّل إلتشاماريس–.

قال الراعى:

ـ إنها جبلّة، لا يكمن السبب فى وجود المال أو عدمه، بل فى طبيعة الشخص ذاته.

كان الرجل ذو الحذاء الأبيض يبدى موافقته فى صمت.

ـ لو جمّع الموجودون هنا ثرواتهم كلها – علّق القروىّ– فلن توازى ما يملكه هو وحده. ولكنه لا يتمتع بها.

قال إلتشاماريس:

ـ المال لا يجلب السعادة.

ـ ممكن. وللبخيل على وجه الخصوص.

ـ إنه يجلبها، نعم، يجلب السعادة– قال لوثيو–. أعتقد أن المال يمكن أن يجلبها، ولكن الوعى أو الضمير يمحوها.

ـ أىّ وعى؟– سأل السائق–. وهل ينشغل المرء بكونه يملكها، ولديه فى البنك كمّ كبير من رزم الأوراق النقدية؟

ـ من الطبيعى أن تكون لديه– قال لوثيو–. مستترة تمامًا، ولكنه يمتلكها رغمًا عنه. مثل الدودة المختبئة فى جوف التفاحة.

أعلن الرجل ذو الحذاء الأبيض موافقته بإيماءة من رأسه، ثم قال:

ـ لقد نطقت به حضرتك. حقًا. الضمير أو الوعى مثل دويبة صغيرة تتسلل إلى كل جزء من أجزاء أجسادنا. إنها دويبة سيئة.

أفرغ الكأس فى جوفه دفعة واحدة. كان موريثيو يستمع إلى الحوار وذراعاه معقوفان على صدره، بينما يتكئ بظهره على الأرفف. اقترب الجزار القصير، ساهمًا، من مائدة الدومينو وأخذ

ينظر إلى الظهر المنحنى لكارميلو، الذى كان مستغرقًا فى المبــاراة. وبضربة من يده جعل قبعة كارميلو ذات الحواف، والمعلقة على نتوء مسند كرسيه، تتدحرج على الأرض، ثم عاد بسرعة إلى حيث يوجد الآخرون. ولكن كارميلو لاحظ ما جرى وقال له:

ــ لا تُخْفِ يدك، ألا تدرى أننى أراك؟. دعك إذن من المزاح– التقط قبعته ذات الحواف–. ولا أقول لك هذا من أجلى ولا من أجل ما تساويه القبعة– كان ينظف بعناية وتؤدة قماشها المتسخ، فاركًا إيّاه بكم القميص لإزالة ما علق به من تراب–. لا يضايقنى كثيرًا لــو كان ما فعلته موجها إلى شخصى أو إلى القبعة فــى حــد ذاتهــا بقيمتها الزهيدة؛ ولكن الضيق جُلّه ينصرف إلى ما تمثله وترمــز إليه. ومن ثمّ لا يجب مطلقًا السخرية من البلدية.

أعاد القبعة إلى مكانها السابق وانخرط فى المباراة.

هنالك عدة أعمدة عالية من الحديد، فى أعلى ســماء بيكلبــارو؛ أضواؤها البيضاء والحمراء فى الأطراف تطفو في الليلة الخاوية مثل صواريخ نارية. السماء، فى الخلف، كانت سوداء ومعتمــة. النجــوم

الأكثر قوة فحسب هى التى ظلت باقية فى ضياء القمر. سواد الأخاديد الساخنة كان مترعًا بالرائحة المكثفة للصيف، والأزيز المتناغم للجداجد. وهنالك، على مقربة، يبرز حجر مستطيل، بمثابة علامة جيولوجية على قمة رأس المدوّر.

أشعل تيتو سيجارة سيبس ثم سيجارته بعد ذلك. نظر إلى لوثيتا للحظة فى ضوء اللهب. نفخ عود الثقاب وعاد للجلوس إلى جوار لوثى. قالت بولينا:

ــ ماذا جرى لك، يا لوثى؟

ــ لا شىء، لماذا؟

ــ لا تتكلمين.

ــ أشعر بدُوار خفيف.

ــ تشربون بلا حساب. لماذا لا تستلقين؟ استلقى، هيا.

ــ دعى الفتاة وشأنها– قال سيبس–.

بالوديان أسفل الخراما، وفى الضوء الشاحب للقمر، تتراءى أراضٍ مبهمة، مثل ضباب جاثم بلا حراك؛ وعلى مبعدة، الصور الجانبية للروابى المتتابعة، أسنمة أو أصلاب مكسوّة ببياض باهت، فى مواجهة خلفية الليل، مثل تباعد أكفال شاردة لكباش عملاقة فى قطيع خرافىّ. وضع تيتو يده على قفا لوثيتا.

ــ هل تتحسنين؟- سألها بصوت هامس-.

أخرجت صوتًا مُتعبا:

ــ أحاول التماسك ما وسعنى.

غيّرت من وضعها. اتجهت بنظرها، فيما بين جذوع الأشجار، إلى المياه المخزونة أمام السدّ، وانعكاس الضوء القادم إليها من مصابيح الاستراحات، والخيال الضخم لشخص ما يطلّ على الرصيف النهرى. الرصيف نفسه لم يكن مرئيًا، بل مختبئًا على اليمين خلف بزبوز المنحدر؛ ولم تكن مرئية أيضًا الشرفات المكتظة بالناس، ولا المصابيح المتأرجحة من الأسلاك تحت الشجرة الكبيرة؛ كانت تُرى فحسب الخيالات والأضواء التى تقذف بها تلك المصابيح نحو الماء. كانت تصل الضوضاء، وأصوات الحفلة الساهرة،

وموسيقى الراديوهات التى لا تتوقف، ودوىّ الهويس، هنالك تحت، فى نهاية منطقة الأشجار، المواجهة للسّان النهرى.

وبعد ذلك أطلت فجأة، فى خلفية السهول، العين شديدة البياض للقطار. كان يقترب، متدحرجًا ومدويًا، مطلقًا الصرخات على السكة المستقيمة المرتفعة التى تجتاز الأراضى البور. دخل قنطرة الخراما، متجهًا إلى المزلقان ومحطة كوسلادا وسان فرناندو دى هنارس، وباغت بضوئه المبهر، الذى استتر فى اللحظة التالية خلف بيوت الضفة اليمنى للنهر، أطيافًا لحظية لعشاق، مفرطحة من الخوف على حواجز الجسر. كانت لوثيتا ترتجف وتمرر يديها على ذراعيها وكتفيها؛ قالت بعد ذلك:

ـ أنا فى غاية الضيق، يا فتى... أشعر بالنفور والاشمئزاز من كثرة التراب فوق الجلد. يوجد كمّ كبير من التراب عالق بكل جسدى. التراب يجعلك متوترًا، لا يمكن تحمله.

ـ عندها حق- قال سيبس-، جسد الواحد كله، حتى الشعر، مغطى بالتراب، وهذه هى النتيجة الحتمية للتمرغ فيه طوال اليوم. هذا يتطلب الاستحمام مرة أخرى. سوف أستحم. إيه، ما قولكم؟، ما رأيكم فى القيام بغطس الآن؟

ـ فى هذه الساعة؟- قالت بولينا-. أنت تخرّف. أعتقد أن...

ـ سيكون أكثر إثارة، سترين.

ـ أنا طبعًا موافقة- قالت لوثيتا-، وأبادر بتسجيل اسمى. فكرتك مدهشة.

ـ حسنًا، يا لوثيتا، هذا يعجبنى. هيا يا تيتو، وأنتِ أيضًا، هيا بنا جميعًا.

ـ أنا لا، يا فتى، ليست لدى رغبة، حقيقة. اذهبوا أنتم؛ سأبقى هنا لحراسة الملابس.

ـ أنت الخاسر.

ـ مازلت عند رأيي فى أن هذا ضرب من الجنون- قالت بولينا-. منْ الذى يخطر بباله الاستحمام فى هذه الساعة؟

ـ ببالنا نحن، ألا يكفى؟ هيا، يا حمامة، لنبتل من جديد، لا تجعلينى أتوسل إليك.

ـ تشجعى يا امرأة- قالت لوثيتا-. لن تندمى، إذا لم تأتِ، فلن أذهب أنا أيضًا؛ فالأمر متوقف عليك.

ـ ولكن لفترة وجيزة، إيه؟ نغتسل ونخرج.

ـ بالطبع، يا امرأة.

ـ ماذا ننتظر عندئذ؟، هيا الآن، الوقت لا يحتمل التأخير.

نهض سيبستيان ولوثيتا.

ـ ارفعنى، يا سيبس.

ـ (جاى).

أمسك بيدى خطيبته وشدّ إلى أعلى حتى أوقفها علـــى قــدميها. قال تيتو:

ـ انتهوا بسرعة، لأن موعد صعودنا للحاق بالآخرين قد اقترب.

ـ لا تشغل بالك. احتفظ لي بهذه، من فضلك.

وثبت لوثيتا وثْبة.

ـ إلى النهر، إلى النهر!– صاحت فجأة–. إلى النهر يا فتيان! ليسقط الوَسَن!

نظر إليها الآخرون مندهشين.

ـ يا فتاة، هل لدغتك الآن بعوضة؟- قالت لها بولينا وهى تضحك-. كأنى لا أعرفك من قبل...!

ـ كما ترين يا بنتى. أنا هكذا. العنزة المجنونة. التحوّل السريع... على حسب الأحوال، ألا تعرفين؟، التحوّل السريع إلى كُرنب وفجأة إلى خسّ. ألا تعتقدين أن هذا أحسن. هيا، هيا بنا إلى الماء!

شرعوا فى التحرك.

ـ أوى، ماذا دهاك هذه الليلة...؟

كانت الاثنتان تضحكان. وضع تيتو فى معصمه الساعة التى تركها له سيبستيان وشاهد من بين جذوع الأشجار الخيالات الثلاثة وهى تبتعد باتجاه النهر.

لم يعد القمر أحمر الآن، هنالك فى المواجهة، بل تحوّل إلى الاصفرار فوق رابية «البيسو»، فوق الأراضى المنعزِلة المقفرة لقلعة هنارس.

وصلوا إلى النهر.

ـ يُخيف قليلا، أليس كذلك؟- قالت بولينا لسيبس عندما توقفت إلى جوار الماء.

ـ تشجعى- قال سيبس-. تشجعى قليلاً. لا تتوجسى من الماء خيفة. هيا، يا امرأة، لا تتوقفى الآن، امسكى بى.

نزل سيبس فى النهر. كانا يتقدمان ببطء، دافعين سيقانهما فى الماء. كان يحس على كتفيه بيدى بولينا المتشبثة به من الخلف.

ـ اسمع، يبدو حبرًا بدلاً من الماء- قالت-. لا تتوغل كثيرًا.

نزلت لوثيتا بعد ذلك. توقفت للحظة والتفتت برأسها نحو الكتلة المعتمة للأشجار.

كانت تتلألأ مصابيح مبعثرة فى الليل، أبواب مضاءة جهة النهر والحقول.

ـ والآن، رُفعت الجلسة- قال دون مارثيال.

استشار العجوز شنيدر ساعة جيبه. أعلن كوكا/كونيا عن رغبته فى رؤيتها:

ـ هل تسمح لي؟

الغطاء الصلب للساعة منقوش عليه العُقاب الإمبريالى لألمانيا.

ـ إنه عُقاب برأسين- شرح له شنيدر-. طائر قديم. لم يعد موجودًا الآن. بومْ، بومْ...! استأصل الصيادون شأفة العُقاب المسكين، نهائيًا.

أشار بيده إشارة تُفيد الانتهاء؛ ثم قال:

ــ حسنًا، أنا ذاهب الآن؛ الزوجة العجوز فى انتظارى.

كان قد نهض أيضًا كلٌ من دون مارثيال وكارميلو وانضما إلــى الموجودين عند طاولة البار. بقى كوكا/كونيا على مائدة اللعــب؛ تتسلى يداه بعمل قلاع من أوراق الدومينو.

ــ ماذا كانت النتيجة؟

ــ كعهدها دائمًا.

قال شنيدر لموريثيو:

ــ سأمر سريعًا على السيدة لتحيتها.

أومأ له موريثيو موافقًا.

ــ نادرًا ما يأتى اللعب بجديد- قال السائق-.

دخل شنيدر الدهليز ووصل إلى المطبخ:

ــ هل تأذنين لي، يا سيدة فاوستينا ؟ سأعود الآن إلى البيت.

ــ حسنًا، يا سيد سنيدر، وكما قلت لك، أخبرها أننى سأمر عليها هذا الأسبوع لرؤيتها والجلوس معها لبعض الوقت.

ـ سوف أخبرها بالتأكيد. ستسعد كثيرًا بالزيارة.

ـ شكرًا جزيلاً على الفاكهة. خذ السلّة، وإيّاك والتفكير ثانية في إحضار المزيد من التين أو أىّ شىء آخر، مفهوم؟ أظن أن كلامى واضح.

ابتسم شنيدر وهو يأخذ السلّة من يد فاوستينا. كان التين قد انتقل إلى صحن كبير من الخزف، فوق رفّ مزخرف بأوراق ملوّنة. كانت تصل إليهما جلبة الحديقة.

ـ أناس كثيرون– قال شنيدر وهو يشير إلى النافذة–.

ـ نعم، مضايقات. الإزعاج الذى يتسببون فيه يفوق بكثير ما يمكن أن يجنيه المرء من ورائهم.

ظهرت خوستينا.

ـ أماه، هل تتكرمين بإعطائى قطعة قماش؟. أهلاً بالسيد سنيدر، طابت ليلتك. اندلق قليل من النبيذ على المائدة، هناك فى الخارج. أين تحتفظين بقطعة القماش؟

ـ أوه، إلهة سان فرناندو قادمة بنفسها لأخذ قطعة قماش! من حُسْن الحظ أن أميرتى، والأجمل فى إسبانيا، هى آخر ما يقع عليه

نظرى اليوم. أنا على يقين بأن الشياطين لن تقترب منى هذه الليلة، وسوف أحلم أحلامًا سعيدة.

ـ كلمات غزل رقيقة! لا تصمد أمامها أية امرأة. هل هذا هو الأسلوب المعتاد للتعامل فى برلين؟ لو كان هكذا، فما أجمل المشى فى الشارع!

ـ لا؛ برلين حزينة، قبيحة، ثلج كثير فى الشارع. لا يمكن رؤية فتيات جميلات فى ظل غياب الشمس؛ الثلج فحسب هو الذى تطؤه الأقدام وتحوّله إلى طين قذر.

ـ مرحى، لا تعجبك برلين! لاشك أن فيها أشياء جميلة يا رجل، أنا متأكدة؛ آثار فنية، نصب تذكارية، قصور... الحكاية وما فيها أن اعتيادك عليها جعلها لا تثير انتباهك. أراهن بأغلى ما أملك على أنها سوف تروقنى كثيرًا، مهما قلت فيها. حسنًا، أنا ذاهبة لتنظيف المائدة، تصبح على خير.

أخذت قطعة القماش من جوار حوض الغسيل وانصرفت باتجاه الحديقة.

ـ لا تزعجى نفسك– قالوا لها–؛ الأمر لا يستحق العناء. سوف يعودون لإهراقه من جديد.

ـ كم الساعة؟– سأل ريكاردو–.

ـ ساعة عدم السؤال عن الساعة- أجاب زكريا-.

ملأ فرناندو الكئوس. مشت خوستينا.

ـ حقًا يا رجل. لا تنغص على الناس حياتهم بتذكيرهم بالوقت.

ـ يا للقوام الرائع لفتاة المحل!- علّقت ماريايو-؛ إنها قريبة الشّبه من الممثلة جينا لويو بريجيدا، أليس كذلك؟

انتهت رقصة الرّومبا.

ـ تراهنونني على أن أجعلها ترقص معي فيما بعد؟- قال فرناندو-.

ـ وهل تقدر على ذلك؟

ـ دعها تعود، وسترى.

عاد الآخرون إلى المائدة. جلس الأكثر نحافة في مجموعة ليجاثبي إلى جوار لوليتا التي كانت ترقص معه. كان يرتدي قميصًا من قمصان الجيش.

ـ حياتي فيلم سينمائي- قال لها-، فيلم كوميدي ومرعب في الوقت نفسه.

ـ (مش) معقول.

ـ هذه هى الحقيقة.

ضحكت لوليتا. قام فتى آخر من ليجاثبى بالتصفيق بشدة.

ـ ليحضروا الآن زجاجتين أخريين على حسابنا.

ـ ما زال النبيذ متوافرًا هنا.

ـ لا يهم؛ إنه لا يفيض مطلقًا عن الحاجة.

ـ لماذا لا تغنى، يا ميجيل؟

ـ حسنًا، وما هو اسمك، فى المقابل؟

ـ لولى.

ـ أى دولورس(*).

كان ريكاردو ينظر إليهما.

ـ لولى، يا رجل، لولى، بالله عليك. انسَ دولورس؛ أنا أكره هذا الاسم؛ وقْعه سيئ. الآلام تأتى وحدها دون حاجة لأن ينادى عليها أحد.

(*) «دولورس»: تعنى آلام أو أوجاع، وهى هنا اسم علم. ونظرًا للدلالة السلبية للاسم فقد جــرت العادة باستبداله بكلمة «لولى» . ومن هنا تتضح رغبة الفتاة فى أن ينادوا عليها بلولى بدلاً من دولورس – المترجم-.

نهض فتى أتوتشا واتجه نحو حظيرة الدواجن.

ــ يطلقون عليكن أسماءً ما أنزل الله بها من سلطان: دولورس، أنجوستياس، مارتيريو(*).

كانوا يغنون. كان يسقط ضوء واهن على الحائط القشدىّ للبيت، وعلى زجاج نافذة خوستينا، وعلى القوالب المتآكلة للسور الذى يحيط بالاستراحة. أمّا الجزء الآخر من الحديقة فكان يبدو مهملاً، شبه متوحش، غارقًا فى زوايا معتمة، من جرّاء كثافة نباتات العوسج التى تعوق وصول ضوء المصباح. نظر الجميع فجأة.

ــ ماذا يفعل هذا المجنون؟

كان فتى أتوتشا يجرى، زاعقا فى كل أرجاء الحديقة.

ــ هلموا!- كان يصيح-. ليأت إلى العدّاءون!

ــ أرنب، أرنب...!

لحق به فتيا ليجاثبى. كانت الأرنبة تومض ببياضها فى تعرجات شديدة السرعة بين أرجل الكراسى والموائد، هاربة على غير هدى من جانب إلى آخر، مذعورة من صراخ وملاحقة مطارديها.

(*) «أنجوستياس» تعنى: كروب أو غموم؛ ومعنى «مارتيريو» استشهاد أو عذاب عظيم -المترجم-.

ـ إنها قادمة نحوك، يا فيديريكو، قادمة نحوك...!

كانوا يجرون وهم يصرخون ويضحكون كالمجانين. صدموا الكرسى الموجود عليه الفونوغراف. صاح فيهم لوكاس:

ـ انتبهوا، أيها الأحباش(*)!

لم يسمعوه.

ـ سترون أنهم سوف يتسببون لنا فى الغمّ والكدر- قال ريكاردو-.

كانت الأرنبة تجرى على غير هدى، مرعوبة، ومتفادية بحركات سريعة سيقان المطاردين الثلاثة. اصطدمت رأسها أكثر من مرة بالسياج المعدنى للحظيرة المغلقة، وهى تحاول جاهدة العودة إلى وكْرها.

ـ اثبت مكانك، سوف تتسلل، سوف تتسلل...

توقفت فجأة. كانت قد دخلت تحت الدراجات الملْقاة فى خلفية الحديقة للاحتماء بها.

ـ هدوء! لا مهرب الآن!- قال فيديريكو-.

(*) الأحباش نسبة إلى بلاد الحبشة، والمقصود بها هنا العبيد المجلوبين من تلك المنطقة - المترجم-.

ـ أنت من هناك، وأنا من هنا، حذار يابدرو. انظر، ها هى.

تراءى لهم بياضها، وهى ترتجف منكمشة، فى كوْمة شعرها المتدلل المفزوع، تحت برامق إحدى عجلتى دراجة لوثيتا وشبكتها الملوّنة.

ـ أنا أراها. لا تتحركا، من فضلكما، لا تتحركا، إنها فى متناول يدى...- همس فتى أتوتشا-.

أقعى بحذر، لكى يضع يده تحت العجلة ويمسك الأرنبة من ظهرها. كان الآخران ساكنين بلا حراك.امتدت يده وانغرزت أصابعه فى الكرة النابضة بالحياة، ذات الشعر ناصع البياض.

ـ أيها الديّوث!- قفز-؛ الديّوث أراد أن يعضنى- كان قد أخرجها، جرجرة، من قدميها الخلفيتين-. سأفلق رأسك بضربة...

رفعها فى الهواء أمام الآخرين، بينما كان الحيوان يصارع، ورأسه تحت، فى تقلصات عنيفة. كان ثقيلاً على يده.

ـ هيا، سنمارس بعض الشعوذة- كان يضحك-. أحتاج إلى قبعة بحواف! منْ معه قبعة بحواف؟

ـ أيها الوقح!

كانت فاوستينا قد ظهرت بالحديقة.

ـ الوقاحة بعينها!- وصلت إليه-. هاتِ هذه الدويبة.

لقفت الأرنبة من بين يديه.

ـ الأمر لا يستدعى أيضًا غضبك هكذا.

ـ أظن أنكم لستم صغارًا. هل كان الحيوان يعوقكم فى شىء؟ حذارِ من قلة الحياء!

كان شنيدر قد أطلّ خلف فاوستينا وبقى واقفًا على عتبة الدهليز. ضمّت الحيوان الصغير إلى صدرها، وأحست بكل الفزع الساخن لعضلاته الصغيرة، وفوران الدم المتسارع من شدة الرعب. دخلت الحظيرة وأطلقت سراح الأرنبة: فرّ الخيال الأبيض من بين يديها واختفى فى وكْره. التفتت إلى شنيدر، قائلة له:

ـ أرأيت كمّ المضايقات التى يجب على الواحدة تحملها؟ ما قولك فى هؤلاء الأطفال سيئى التربية؟ يا لها من صفاقة! يا لها من قلة حياء!

هزّ شنيدر رأسه واتجه إلى فتى أتوتشا، الذى كان يقف إلى جوار مائدة الآخرين.

ـ هذا عمل غير صالح. الأرنبة من مخلوقات الله أيضًا، بأى حق إذن نجعلها تعانى؟ لا يُقدم على هذا إلا قلب شديد القسوة- أشار بإصبعه السبّابة إلى صدره، بدلاً من الإشارة به إلى القلب-.

ـ اتركهم، اتركهم؛ لن تجدى معهم النصيحة. لن تستطيع تغيير هؤلاء. الكلام مضيعة للوقت.

هزّ الألمانى منكبيه ودخل البيت خلف فاوستينا. وبعد أن تواريا، ضحك الجالسون على المائدة.

ـ الأجنبى المتحذلق، عليه اللعنة! يا له من رجل!

ـ اسكتْ، أنا كنت على وشك أن أمسح بكرامته الأرض.

قال ميجيل:

ـ وما فعلتموه أيضًا لم يكن شيئًا حسنًا.

ـ ما حدث هو خطأ شنيع، من وجهة نظرى- عزّز ريكاردو القول السابق-.

ـ وهل تهمنا وجهة نظرك؟– واجهه فيديريكو–. احتفظ بها لنفسك، ويا دار ما دخلك شر.

ـ لا أحتفظ بها لنفسى، لا يا سيدى؛ بل أقول ما قلت وأكرره: خطأ شنيع وقلة حياء. ما فعلتموه مع الأرنبة قلة حياء وتبجّح.

تدخل فتى أتوتشا:

ـ اسمع يا فتى، أنت، أيًّا كان اسمك؛ ما فعلوه لم يكن موجهًا ضدك، ومن ثمّ لا يحق لك التدخل بانتقاد الآخرين وتسفيه أحلامهم، ها قد عرفت.

ـ قلة حياء وتبجّح.

كان الباقون يراقبون فى صمت. ضحك فرناندو.

ـ يبدو أن الأعصاب متوترة...– قال معلقًا–.

نهض فتى أتوتشا من على كرسيه واقترب من ريكاردو.

ـ اسمع، أنت، ماذا تريد؟، هل ستستمر؟. إذا كنت تريد إثارة كدرنا فقله الآن كى نختصر الطريق.

ـ أنا لا أقصد إثارة كدر شخص بعينه؛ بل قول ما أعتقده سواء كان وقعه حسنًا أم سيئًا: ما حدث مع الأرنبة قلة حياء وتبجح.

ـ أنت تتمادى فى العناد.

ـ (وإيه يعنى)؟

ـ تصيبنى بالضجر. انتهى...!

ـ (إيه هوه اللى انتهى)؟

ـ الصبر على تحملك.

ـ أنت مخطئ.

جاء الصوت البشوش لزكريا من مؤخرة المائدة:

ـ إيه، على رِسْلكم. لحظة. أتسمحون لي بالكلام لحظة؟

نظر الجميع نحوه، قال:

ـ من الواضح أنكم بعد الركض مثل كلاب الصيد على أرض الميدان تريدون أن تقدموا لنا الآن سهرة فى الملاكمة، أليس كذلك؟. من جهتى، أشكر لكم هذه النية، ولكنْ أود أن أقول لكم، وقبل أن يزداد الموقف سخونة، إن الجمهور المحترم راضٍ بما شاهده حتى الآن فى مقابل ثمن تذاكر الدخول التى دفعها، ومن ثمّ لا داعى للاستمرار فى مضايقته. ولذا أطلب منكم العودة إلى الجلوس، ولتكملوا فى يوم آخر، لأننا شبعنا رياضة اليوم. موافقون أم لا؟

ضحكوا جميعًا، محدثين ضجيجًا.

ـ أنت لها يا زكريا!

ـ أحسنت قولاً!

عاد فتى أتوتشا للجلوس إلى جوار لوليتا؛ قال لها بصوت خفيض، مشيرًا بصدغه إلى ريكاردو:

ـ صديقكم هذا كالح وصفيق بعض الشيء...

التفتت إليه الفتاة:

ـ وأنت إنسان حقير.

أسرّت ميلى فى أذن زكريا:

ـ أنت مدهش...

كان الآخرون يطلبون من ميجيل الغناء.

أخرج دون مارثيال علبة دخان بلون القشدة وقدم تبغًا لكل الموجودين. قال له إلتشاماريس:

ـ سنستهلك ما فيها كله. (عزومة) ثانية، ومع السلامة.

ـ إنه من أجل هذا؛ للاستهلاك- أجاب دون مارثيال-.

ارتدى سترته من جديد.

ـ وبعد ذلك لن تجد تبغًا بالليل. بعد تناولك للعشاء، ماذا ستفعل؟

ـ أحسن. لن تكون هنالك مغريات. كلما قللت من التدخين كلما عظمت استفادة الحنجرة.

ـ أنا على العكس تمامًا- تدخل الجزار الطويل طرفًا ثالثًا في الحوار-، إذا كانت العلبة ممتلئة أستطيع التحكم فى نفسي بأفضل مما لو كانت فارغة.

ـ وهذا أيضًا صحيح- وافقه زميله-، لو وجد المرء نفسه بدون تبغ تسيطر عليه رغبة جامحة فى التدخين- كان يلف سيجارة-.

ـ نعم، يا سيدى- قال كلاوديو-؛ بالنسبة لي على الأقل الأمر هكذا. لو معى تبغ، أضع العلبة على الكوميدينو؛ وبما أنك تعرف أن بمقدورك أن تمتد إليها يدك فى أية لحظة تريدها، تنام بلا تدخين، قرير العين. ولكن، يا صديقى، ويا لغرابة الأشياء، فإنه عندما تجد نفسك فى المقابل بدون تبغ لا يغمض لك جفن وتظل تتقلب

فى الفراش ولا يهدأ لك بال حتى تضع قدميك على الأرض وتدبّر لنفسك سيجارة بأى شكل من الأشكال، حتى ولو عن طريق جمع فُضالات التبغ من قيعان جيوبك. إنه شىء غير معقول كما ترون.

– إنها روح التناقض التى تسكن جوانحنا جميعًا، نحن بنى البشر- علّق إلتشاماريس.

– صنيعك هذا، فيما يخص التبغ، يشبه ما فعلته حماتى- قال دون مارثيال-؛ إذ احتفظت بكيلو أرز طوال سنوات الحرب الأهلية، ولم تستهلك منه ولا حبّة واحدة؛ وهذا فحسب من أجل ألا يخالطها الشعور بعدم وجوده عندها ولكى تستطيع أن تقول لأقاربها وصديقاتها إن لديها أرزًا وبعد ذلك، وعندما وضعت الحرب أوزارها، اضطرت لرميه لأنه فسد. ما رأيك؟

– آه، بهذا الشكل لم يوحشها، لأنها كانت تعرف أنها إذا لم تُقدم على إعداد «بقيّة»(*) لذيذة يوم الأحد، فهذا يرجع فحسب إلى عدم

(*) «بقيّة» (Paella): اسم لون من الطبيخ قوامه الأرز، ويشتمل أيضًا على خضراوات (مثل البازلاء والفاصوليا...) وقطع من اللحم أو الدجاج أو القشريات (أو على هذا كله مجتمعًا). وهو من أشهر الأطباق فى إسبانيا، ويعتقد البعض أن الكلمة من أصل عربى- المترجم-.

رغبتها فى إعدادها؛ بمعنى أنها لم تأكل أرزًا، ولكن نِفْسها أيضًا لم تهفُ إليه– ردّ عليه الجزار الطويل.

كانِ كارميلو يتابع بعينيه الدخان الأسود لعود تقابه الذى يتصاعد حتى السقف. والآن تدخل لوثيو:

ـ هذا هو الفارق الكبير بين الحرمان الاضطرارى للمرء من شىء معين وبين تخليّه عنه طواعية، وهو يعلم تمام العلم أن بمقدوره الحصول عليه وقتما يشاء. إنه منهاج مشابه لما اتبعته حماتك مع كيلو الأرز، إذ وقّر فى ذهنها أنها لم تُحرم منه وظلت تأكله طوال فترة الحرب. صحيح أن معدتها لم تمتلئ به، ولكن أثر السرور والرضى الذى تركه فيها هو تقريبًا نفس الأثر فى حال امتلائها به.

ـ لا أكثر ولا أقل– أمّن على كلامه الرجل ذو الحذاء الأبيض–؛ وهنا يكمن الفارق الشاسع بين عدم الرغبة وعدم الاستطاعة.

ـ عجبًا!– قال القروىّ ضاحكًا–. لاشك أن اختراع الأرز هذا اختراع عظيم، لأنه يجعل المرء يعيش على الهواء أو،على الأقل، يموت من الجوع وهو فى غاية الرضى والسرور.

ـ بالنسبة لمسألة عدم الرغبة وعدم الاستطاعة- تدخل الراعـــى-، أعتقد أنها تختلف من شخص إلى آخر، كلُ على حسب طبيعتـــه وتكوينه. هناك أشخاص بمجرد أن تتجمع فى أيديهم مائة بيزيتـــة يبادرون بإنفاقها؛ كما يوجد آخرون يفضلون الاحتفاظ بها مكتفين بالتفكير فيما يمكن أن يشتروه بها لو أرادوا.

قال السائق:

ـ هذا صحيح، يوجد منْ يعجبه المال محفوظًا ومنْ يروقه الاستمتاع بإنفاقه.

ـ هذا هو- استمر الراعى-؛ يستمتع البعض لأنهم أنفقوا المال فيما تهفو إليه أنفسهم، كما يستمتع الآخرون أيضًا لاعتقادهم أن فرصة إنفاقه فى الوقت المناسب مازالت قائمة. وما كان من أمـــر تلـــك السيدة أو الآنسة أو أيًا من كانت...

ـ كيف ستكون آنسة، يا مغفل؟- قاطعه القروىّ-. ألم تسمع بأذنيك أنها حماة ذلك الرجل؟

ـ سيدة إذن، وإن كانت صفتها تلك لن تقدم ولـــن تـــأخر بالنـــسبة لفحوى الموضوع؛ المهم أن الشىء الوحيد الذى فعلته هذه السيدة

هو أنها فضلت قضاء سنوات الحرب الثلاثَ فـى التفكيـر أن بإمكانها أكل«البقية» على أن تمتد يدها ذات أحد إلى كيلـو الأرز لعمل الوليمة والإجهاز عليه. وأنا من جهتى أقول، عرضًا ودون الإساءة إلى أحد، إننى لو كنت مكانها لأقدمت على الخيار الثانى.

كان كوكا/كونيا يتصفح جريدة **ABC**(*) التى أخرجهـا، مطويّـة، من جيبه.

كان يبلل بلسانه طرف إصبعه الإبهام عند تقليبه لكل صفحة من صفحاتها. رفع رأسه وصاح:

ـ ولماذا لا تصل إلى هنا دورة علبة الدخان، يا مارثيال؟ هل يقـع مكانى خارج دائرة الاختصاص؟

ـ لا شىء! أنت تجلس فى مكان المعاقَب، إضافة إلى أنك صـغير على التدخين.

ألقى إليه بالعلبة.

ـ خذ، هيا.

(*) ABC : من أشهر وأقدم الصحف اليومية فى إسبانيا – المترجم.

نطّت العلبة مثل الكرة، محدثة صخبًا، فوق الرخام ثـم سـقطت على الأرض قبل أن تتمكن يدا كوكا/كونيا من تلقفها.

ـ هاتها!- صاح.

اقترب دون مارثيال لالتقاطها له.

ـ يحدث ضجيجًا أكثر من الابن المعتوه.

ـ الأرز لا يكون لذيذًا إلا مع أرنبة بريّة- قال كـارميلو، غاصـًا بالمتعة-. مع أرنبة بريّة موفورة الصحة.

لم يحفل به أحد. التفت نحو صورة الأرنبة البريّة الموجودة ضمن الصور المطبوعة بالألوان على خلفية المحل، الباهتة والمعتمـة، تحت النور الضارب إلى الاصفرار.

ـ مع أرنبة برية موفورة الصحة...

ـ يتمتع بعض الأشخاص بطبائع خاصـة- قـال إلتـشاماريس-. النساء، مثلاً، من طبعهن الميل إلى الاحتفاظ بالشيء بـدلاً مـن استهلاكه. وهن في الغالب لا يعرفن لماذا وإلى متى يجب عليهن الاحتفاظ بهذا الشيء، مثل واقعة الأرز هذه. إنهـن يفعلـن هـذا مدفوعات بالهَوَس الذي لديهن أو لأنه يبدو لهن، وما أدراني، أن

استفادتهن بتلك الأشياء ستكون أكثر فى المستقبل؛ أكثر نفعًا مما لو استُهلكت سريعًا.

ـ صحيح، ولذلك يصفونهن بالمتحوطات- قال موريثيو-؛ وأنا من جهتى لا أنكر أن لهذه التصرفات حسناتها فى ظروف معينة، ولكنها فى أغلب الأحيان لا تتم إلا عن حرص ممقوت وعمى بصيرة خالص.

ـ (يا لهوى) على المشاكل التى تحدث بين جارى وزوجته بسبب هذا الموضوع!- قال القروىّ ضاحكًا-. هو كريم بعض الشىء إضافة إلى ولعه بإرضاء هذا- أشار بإصبعه السبّابة إلى فمه-، وهى على ما أعتقد تعدّ حتى حبّات الملح؛ ولن تتصوروا مدى عنف المشّادات التى تحدث بينهما. الخناقة التى تجرى بينهما فى أثناء الليل لا تدانيها الحرب الكورية. وأين كوريا من هذا؟ الحرب الكورية بالنسبة لهما مجرد مباراة شطرنج! وودية!

ـ انظر لهذا! وأنت أيضًا أصبحت محطة إرسال واستقبال؟

ـ هذا؟- قال الراعى-. أنت لا تعرف مواهبه فى هذا الخصوص. أذنه ملزوقة دائمًا فى الجدار.

ـ أنت تهيننى، وتصمنى بما ليس فىّ! وكأن الأمــر يحتــاج إلــى التصنت! إذا كانت خناقاتهما يسمعها الجالسون فى كــازينو وادى الحجارة.

ـ هذه مجرد فرقعة من فرقعاته- قال كلاوديو.

ضحك الآخرون.

ـ صه!، إنها عين الحقيقة، ولن أكذب عليكم وأقول شيئًا مخالفًا.

ـ أنت دسّاس ومدبّر للمكائد- قال الجزار-. يعجبك القيل والقال.

ـ إنه لا يُبارى فى هذا المجال- قال الراعــى، معــززًا-، يطلــق السهام المُراشة بالخبث.

نظر إليه القروىّ بعينه الواحدة.

ـ لماذا؟ لماذا تقول إننى أطلق السهام بخبث؟ لنرى.

ـ إنه أكثر وضوحًا من الماء. ليس سرًا على الإطلاق. لقــد كنــت تعمل معه حتى وقت قريب...

ـ ما تقوله الآن لا معنى له. إذا كان هذا الموضوع قد انمحى مــن ذاكرتى ونسيته تمامًا. أنا لست ممنْ يحملون ضغينة لأحــد. مــا

ذكرته من قبل كان بهدف إيضاح القضية التى نخوض فيها، وهو فى هذا لا يختلف عن أىّ مثال آخر يمكن أن تسوقه. أنا لا أضيع الوقت فى الضغائن والأحقاد. ومن ثمّ فإن استنتاجك خاطئ، يـا أماليو. أنت لا تعرفنى.

ـ آه، ولكن، ألست تعمل الآن فـى بـستان إليـسيو؟– سـأل دون مارثيال.

نفى القروىّ بإيماءة من رأسه.

ـ لقد تركته منذ شهرين تقريبًا.

ـ وهذا؟

ـ أحوال.

ـ هل كان المال هو السبب؟

ـ إطلاقًا. لم يكن لهذا السبب. من وجهة النظر النقدية لا يسعنى إلا الاعتراف بأن الرجل كان يؤدى ما عليه ولم يقصر.

ـ وعندئذ؟

ـ وضعى ومكانتى هناك. لقد نفد صبرى تجاهه ولم أعـد أتحمـل الرفاهية التى كنت أنعم بها. بمعنى أنك لو شاركت أحـدًا، فـلا

ينبغى أن تعامله كما لو كان خادمًا. كنت أستيقظ مع طلعة النهار وأضطر للنوم معظم الليالى فى البستان لأن المكان بعيد ولن يسعفنى الوقت للرجوع إلى البيت والعودة مبكرًا؛ أمّا هو فقد كان يتغيب ولا يرينى وجهه هناك بالأيام والأسابيع. صحيح أنه لم يكن يتوجب عليه ذلك لأن العمل كله يقع على عاتقى، طبقًا لاتفاق الشراكة بيننا والتى لا يساهم فيها إلا بالأرض والسماد؛ ولكن هذا لا يعطيه الحق لكى يأتى بعد ذلك وينتقد ما أفعله ويعترض على كل صغيرة وكبيرة. ألست على حق فيما أقول؟

- بلى، ولكن مثل هذه الأمور تتطلب المشورة اليومية، واتفاق الطرفين على ما ينبغى عمله.

- ولكن ما كان يحدث هو بالضبط ما قلته لك. أمّا إذا كان أحد الطرفين يريد التغيب، كما كان يفعل، فعليه عندئذ أن يعطى للآخر تفويضًا شاملاً، بحيث لا يأتى بعد ذلك لينتقد طريقة عمل هذا الشيء أو ذاك. ليصمت ولا شيء أكثر، مادام ينشد الراحة وخلوّ البال، أليس كذلك؟

وافقه دون مارثيال:

- طبيعى.

ـ وهناك سبب آخر يتعلق بالطعام، فى فترة الشهر ونصف الـشهر التى تركتنى فيها زوجتى وذهبت عند أهلها بالقرية. الوجبات كلها من نفس العيّنة ولا تتغير. الطعام الذى كانت ترسله لي زوجتـه يثير الأسى ولا يُرضى أدنى أجير من هناك. أنا لا أتحدث عـن طعام فاخر أو لذيذ، بل عن الشىء العادى الذى يتناولـه الـسواد الأعظم من الناس.

رفع كوكا/ كونيا رأسه من على الجريدة.

ـ لا تحفل به، يا مارثيال، إنه ليس إلا انتقائيًا ودعائيًا فـى الوقـت نفسه. إنه يصدع رأسك طوال هذا الوقت ويشكو لك أحزان بستان إليسيو لغرض فى نفس يعقوب. يريد أن يخرج منك بشىء، تيقن من هذا.

ـ عليك بالتزام الصمت عندما يتحدث الكبار– قال له دون مارثيال.

ـ الربع كيلو هذا!– علّق القروى ثم استمر فى حديثه–: وهكذا كمـا أقول لك: لقد فاض بى الكيل فى النهاية ولم أستطع الاستمرار فى تحمل الضنى والتعب، مقابل قضائه اليوم متسكعًا هنا وهناك ثـم يأتى بعد ذلك لينتقدنى ويلقى علىّ باللائمة. إلى أن جاء يوم حدثت فيه مشادة كبيرة بيننا، وعندها أفرغت شحنة غيظى وعددت لـه

القديم والجديد دفعة واحدة، قلت له إيّاك والظن بأننى مجرد خادم. وهكذا انفضّ السّامر وأصبحت الشراكة فى خبر كان.

- شيء مؤسف حقًا، لأن الشراكة كانت مفيدة لك على المستوى المادى، أليس كذلك؟

- صحيح، ولذا كظمت غيظى لأطول فترة ممكنة. لولا هذا لما طال بى الأمد معه. وما لا يمكن أن يكون لا يمكن أن يكون إلى أن يأتى اليوم الذى تطفو فيه المشاكل على السطح، رضيت أم كرهت. ماذا ستفعل لها عندئذ؟

- أنا متفهم. والآن، ما هى أحوالك، وكيف تسير؟

- أحاول تدبير أمورى، ولكن بكثير من العَنت.

- وظّفه أنت، يا مارثيال!- تدخل كوكا/كونيا-. ابحث له عن عمل من خلال سيدك. ألا ترى ما يهدف إليه بقصّه عليك مشوار حياته؟

ردّ عليه القروىّ:

- ألن تلتفت إلى الجورنال أو إلى ما أنت فيه، أيتها النبتة الضارة؟. من حسن الحظ أنهم يعرفونك ولا يقيمون لك وزنًا، لأن كل همّك

أن تكون أشد أذى من الوحوش الضوارى. أتظــن أن الآخــرين يلفون ويدورون مثلك عندما يسعون خلف شيء ما؟ دون مارثيال يعرف بما فيه الكفاية أننى لو كنت بحاجة إلى اللجوء...

ــ لقد أفصحت عن نواياك، وظهر المستور- صاح كوكا/كونيــا-. لم تفعل بتبريراتك ومعاذيرك الكثيرة سوى فضح نوايــاك. إيــه، كيف الحال؟

ــ لقد أمسكته من اليد التى توجعه!- ضحك الراعى ووكز القــروىّ بكوعه.

ــ وأنت أيضًا تقف فى صف تلك الدويبة المؤذية؟- قال له.

كان إلتشاماريس والجزاران يتحدثون مع موريثيو والآخرين.

ــ لا يحق لكم الشكوى، أيها المتزوجون- قال لوثيو-. يكفى النظــر فحسب إلى الفارق بين ملابس المتزوج وملابس العازب، وأسوق على سبيل المثال البدلة: بينما تظل بدلة المتزوج محتفظة برونقها بعد مضى خمسة أو ستة أشهر من ارتدائها، تجد فى المقابل بدلة العازب، وبعد مضى نفس المدة، قد تحولت إلــى خرقــة باليــة لا تنفع ولا حتى خيشة لمسح الأرضية. والفضل فى هذا لمن؟

ـ والحذاء- قال الرجل ذو الحذاء الأبيض وهو ينظر إلى ظاهر قدميه-؛ والحذاء الذى يكلفك اليوم ما لا تطيق.

ضحك السائق.

ـ تزوجوا إذن- قال-. تزوجوا مادمتم تكنون كل هذا الودّ للملابس والأحذية...

كان كارميلو يرهف السمع؛ أذناه البارزتان، مثل يدى حلّة، على جانبى وجهه، كانتا تتجهان نحو المجموعة، متسمعتين. استمر السائق، متوجهًا إليه:

ـ وأنت أيضًا يا كارميلو؛ لتقديرك المبالغ فيه لقبعتك المستديرة مثل طبق، ابحث لنفسك عن زوجة لكى تعتنى بها وتمرر عليها الفرشاة كل ليلة.

ضحك السائق وضحك كارميلو أيضًا، بعينيه الحلوتين الحامضتين، تحت خيال القبعة، ثم قال:

ـ هذه قديمة جدًا ولا تتطلب سوى القليل من العناية، وهذا لا يعنى أنه لا حاجة إلى الأنثى، لأن وجودها لاغنى عنه فى أىّ بيت.

ذهب بصره باتجاه نتائج التقويم الكرتونية.

ــ نعم، يا سيدى، لا فُضّ فوك– قال السائق–؛ أمّا السيد لوثيو فيرى أن الحاجة إليها تقتصر على العناية بالملابس.

قال لوثيو عندئذ:

ــ فى وقتنا هذا...– ابتسم على كرسيه–. فى وقتنا هـذا لا حاجـة إليها ولا حتى لهذا. لن يعود وجود المرأة ولا حتى بـالنفع علـى الملابس.

ــ لأنك بلغت من الكبر عتيًا– قال إلتشاماريس–. لا تصبو إليهن الآن.

ــ كبير فى السن، كبير فى السن، أنا لست مسنًا؛ بل فـى مرحلـة الوَهَن والتضعضع. إحدى وستون سنة، أعوام قليلة.

ــ ما زال البنطال حول وسطك ولم يسقط منك إلى الآن(*).

ــ لا يعطيه الفرصة للسقوط– قال موريثيو–. لا يدع له مكانًا يسقط فيه، لا تخف عليه. يمضى اليوم جالسًا، من الصباح إلى غـسق الليل، كيف سيسقط منه إذن؟ ومتى؟

(*) لم يسقط منه البنطال، لها معنيان: أحدهما قريب ويتمثل فى عدم السقوط المرئى والحسى؛ أمّا المعنى البعيد فيراد به إنه ما زال متماسكًا وفى كامل قواه الجسمانية والعقلية– المترجم.

ضحك الآخرون. قال كلاوديو:

ــ هذا صحيح. لا توجد خطورة. أنت لا تُظهر مؤخرتك أبدًا.

ــ لا يوجد هنالك ما يستدعى أو يستحق إظهارها... الجلوس أفضل لي من الجرى بدون طائل.

ــ أنت أدرى بهذا– قال له السائق–.

أومأ لوثيو بيده فى الهواء. قال له إلتشاماريس، ببشاشة:

ــ يتمنى المرء فى مثل هذه المرحلة من العمر أن يزيحوا عن كاهله أعباء الماضى، أليس كذلك يا سيد لوثيو ؟– غمز لــه بعينيــه–. لا أكثر ولا أقل، هذا هو المطلوب. هنا يكمن السرّ. أن يزيحوها عن كاهلك، أليس هذا بصحيح؟

نظر لوثيو إلى إلتشاماريس، بجدية تقريبًا، مطوّحًا رأسه، ثم قال بتؤدة:

ــ نعم! يزيحوا عن كاهلى أعباء الماضى... هذا ما يقوله الكثيرون فى مثل عمرى: ليزيحوا عن كواهلنا أعباء الماضى. ترهــات! لــست مقتنعًا بمثل هذا الخَرف. كيف سأقتنع بحق الــشياطين! بــل أقــول العكس تمامًا. ما ذهب مضى ولن يعود، وهل إليه من سبيل؟ بل أنـــا

فى أشد الاحتياج لأن يرجعوها لي. هذه هى المنّة. أن يعيدوها إلى- كان يحرك يديه بعنف-. هذا هو لبّ القضية. ما أتمناه هو أن يعيدوها لي، أن يرجعوا إلى الماضى بكل ما فيه من أعباء.

كانوا ينظرون حواليهم مترددين، متوجسين خيفة من المياه الضاربة إلى السواد. كان يصل إليهم ضجيج الناس الموجودين على مقربة والموسيقى.

ــ ليست باردة، حقًا؟

ــ إنها فى أفضل حال، رائعة ولذيذة.

كان قطاع ضئيل من القمر مسلطًا على قمم الأشجار، ومن تحتها يصل اللغو الهادئ للأصوات المتوارية فى سواد ليل الغيْضة؛ وإلى أسفل قليلاً، فى مستوى سطح المياه الساكنة للخزان، كانت تصدح موسيقى صافية، من الكريستال. كما كانت تتلألأ، على المرآة السوداء، ومضات منحدرة من القمر والمصابيح. وهنا، فى الظلام، يحسون بجريان النهر على جلود أجسادهم، مثل مداعبة صامتة لحيوان هائل. كانت المياه تغمرهم حتى الصدور، فى مسارهم الأملس، بينما تمسك بولينا بوسط خطيبها.

ـ يا له من إحساس ممتع بالماء، وهو ينساب حول جسدك!

ـ أرأيت؟ لم تكونى تريدين الاستحمام.

ـ إنها أكثر لذة ومتعة مما كانت عليه هذا الصباح.

ارتجف سيبستيان.

ـ نعم، ولكنها ليست كما كانت من قبل، لأنك لا تستطيعين المكوث فيها حاليًا الوقت الذى تريدينه. الآن، سرعان ما يشعر المرء بالبرد المتبوع بوخزات القشعريرة.

نظرت بولينا خلف سيبستيان: إلى أعالى النهر، وخيال القنطرة، والأقواس الضخمة الملفوفة بالعتمة. شعاع من ضوء القمر يكشف الآن حاجز الجسر والقوالب الحجرية. كان وجه سيبس فى الناحية العكسية، بينما ترنّ فتحة الهويس، هناك تحت، إلى جوار أنوار الاستراحات. التفتت بولينا.

ـ لوثيتا. ماذا تفعلين وحدك هناك؟ تعالى هنا، معنا. لوثى!

ـ إنها هناك، ألا ترينها أمامنا هناك. لوثيتا!

اعتراه صمت فزع مفاجئ.

ـ لوثيتا...!

كان يُسمع، على بعد عشرة مترًا منهما، صراع واهن وشهقة مكروبة، تشبه صرخة مخنوقة، وسط لهاث مخمود فى فوران الماء.

ـ إنها تغرق...! لوثيتا تغرق!! سيبستيان !! اصرخ، اصرخ...!!

أراد سيبستيان التقدم، ولكن أظفار بولينا المنغرزة فى لحمه، أمسكته.

ـ أنت، لا! أنت، لا، يا سيبستيان- كانت تقول له بصوت خافت-؛ أنت، لا؛ أنت، لا...!

دوّى، مرة بعد أخرى، ثاقبًا ومتناميًا بفعل صدى الماء، صراخ كليهما، طالبين الغوث. تجمعت، بهرج ومرج ذعر وصيحات، خيالات على الشاطئ. وهنالك، على مقربة، كانت تبتعد ببطء نحو الخزان، الدوّامة الصغيرة لرجفات معتمة، ولأصوات حنجرية مهشمة، رنّت بعد ذلك غائصة. سألت بعض الأصوات: «أين، أين؟». كانت تُسمع ضربات أذرع ثلاثة أو أربعة سبّاحين، وكلمات فى الماء: "تذهب معًا، أنت، يا رفائيل، من الخطر اقتراب المرء بمفرده". كانت الأصوات تدوى بوضوح شديد فى النهر. "من هنا!

أكثر قليلاً إلى الأمام!"، كان سيبستيان يوجههم. وصل صوت تيتو من على صفة النهر:

ـ سيبستيان! سيبستيان!

دلف إلى الماء واتجه نحوهما قفزًا. كان سيبس قد تخلص من بولينا وشرع فى العوم لمقابلة الآخرين، وعندئذ صاحت فيه وهى ممسكة فكّها بيديها:«احترس! احترس، بالله عليك!». كانت الحيرة تسيطر على الموجودين فى الماء: يعومون من هنا إلى هنالك، وينظرون، من فوق المسطّح الأسود، إلى جميع الاتجاهات،«أين هو؟، ألا ترونه، ألا ترونه أنتم؟».

وصل تيتو إلى بولينا التى عانقته بشدّة.

ـ لوثى تغرق!– قالت له–.

أحس برجفة بولينا على جسده كله؛ نظر ناحيّة السبّاحين المرتبكين الذين يجوبون النهر فى شتّى الاتجاهات؛ «لم يجدوها...»؛ كانت تُرى أجرامهم على سطح الماء. يغمر القمر بضيائه الحشود المصطفة على طول الشاطئ.«ألم تعثروا عليها؟»؛ «كانت هنا فى آخر مرة شاهدناها فيها»، كان هذا صوت سيبستيان. «هل هى

فتاة؟»؛ «نعم». كانوا بعيدين جدًا، فى منطقة السدّ، حيث تتراءى، فى ضوء القمر وانعكاس المصابيح القادم من جهة الموسيقى، خمسة رؤوس أو ستة فوق سطح الماء. "احملنى إلى اليابسة، يا تيتو؛ يتملكنى خوف مريع؛ احملنى"، انتصبت متسلقة جسد تيتو، كأنها تود الطيران من الماء؛ كانت ترتجف بشدة. لمع ذراع وكتف أحد السباحين، هناك تحت، فى بقعة الضوء. أخذ تيتو وبولينا ينقلان الأقدام فى اتجاه الشاطئ، منتصرين بصعوبة على مقاومة التيار. «هنا! هنا!»، صاح صوت إلى جوار السد، «ها هى!». كان قد أحس بالجسد، بعد اصطدام ذراعه به، على سطح الماء تقريبًا.

الصوت المعتم والمنفرد لميجيل كان يصدح بالغناء إلى جوار حائط البيت باتجاه الحديقة الخاوية. لمعت عينا القط فى التعريشة. كان ميجيل يبسط يديه المفتوحتين ناحية كل الوجوه ويهز رأسه هزات خفيفة، "... وبما أنك لم تعودى/ فقد انمحى الطريق/ وبما أنك لم تشربى/ فقد فسد نبع الماء". رفع وجهه المبتسم نحو الآخرين؛ صفقوا.

ــ أحاسيس...!

ــ والآن جرعة نبيذ؛ لشطف أحبالك الصوتية.

سُمع ضحك مارياو. لقد قال لها فرناندو إن صـــوتها صـــوت أجنبية، «صوت إيطالية مثلاً، أو ما شابه».

ــ وهل تعرف صوت الإيطاليات؟

ــ أتخيله. بسماعك أتخيله.

ضحك الاثنان.

ــ لقد توطدت عرى الصداقة بينهما، انظر إليهما.

كانت عينا ريكاردو مثبتتين على النور المتدلى بوسط الحديقـــة. هوام، فراشات، فراشات صيف ضـــخمة ومعتمـــة، تتكـــاثر حـــول المصباح. كان يدور نقاش حاد بين فتاتى ليجاثبى حـــول مـــنْ هـــى الأكثر قمحاوية فيهما.

ــ وهل يعود هذا عليكما بفائدة؟

كان زكريا يضطجع على التعريشة، موازنًا جلسته على الكرسى المائل إلى الوراء والمعتمد فحسب على رجليـــه الخلفيتـــين، وقفـــاه غائص بين الأوراق.

ــ إن لم يكن من أجل اللون، فمن أجل بيان صـــلابة رأســـها التـــى لا تريد الاعتراف بما هو واضح كالشمس.

ـــ حسنًا، انظر يا فيديريكو لذراعى وذراعها، وقارن بينهما.

ـــ لا تُدخلانى فى متاهات. أنتما الاثنتان قمحاويتان جدًا وفى غاية الجمال.

ـــ واضح، لا تقول الحقيقة لكى لا تخسر صداقة أحد الطرفين.

ـــ دعكما من هذا، اتفقنا؟

ـــ إنه العناد ولا شىء أكثر. لشدّ ما يتملكنى الغضب لوجود شخص ضيق الأفق بهذا الشكل.

ـــ لا تطلبوه بصوت عالٍ– صاح زكريا–. لا أريد سماعه. إن وقْعه بالنسبة لي مثل وقْع خبر المريض بالسرطان.

كانوا قد سألوا عن الوقت. أمسك زكريا بمعصم ميجيل، مغطيًا الساعة؛ ثم قال له:

ـــ يا مجنون، لا يدفعك الجنون للعب بهذه الأدوات. إنها الموت المطلىّ بالنيكل.

ـــ حسنًا، يا زكريا، لقد وصلت الطُّرفة. والآن، اترك يدى.

ـــ أنت تعاملنى بقسوة.

ـ يا للأسف!

التفت زكريا إلى ميلى وهو يبتسم، قال لها:

ـ هذا الرجل خانق. أتعتقدين أنت إنه يمكن العيش بهذه الطريقة؟ مستحيل! إنها مضرة بالصحة وبكل شىء، وكيف لا تكون مضرّة؟

قالت:

ـ اسمع، سوف تعود فى القطار، أليس كذلك؟

ـ إلى مدريد؟ بالطبع فى القطار، وهل هناك وسيلة أخرى؟

ـ لا أدرى، إنه سؤال ساذج، لا تكترث بما أقول. حسنًا، ومتى تصلون؟

ـ (شوفى)، إذا كان يخرج من هنا العاشرة والنصف، والرحلة تستغرق عشرين دقيقة: يصل إذن فى تمام الحادية عشرة إلا عشر(*)... على ماذا تضحكين؟

ـ أبدًا، أنت ظريف للغاية، تقول أشياء- توقفت هنيهة وهى تنظر إليه مبتسمة- «فى العاشرة والنصف»، والرحلة...

(*) فى النص الأصلى ورد على سبيل الخطأ «الثانية عشرة إلا عشر...» - المترجم-.

ـ حسنًا، أنت تمزحين. لا يستطيع المرء أن يقول شيئًا، لأنه لو تكلم، يا بنتى، تقمن بالانقضاض عليه كالذئاب- هز رأسه-، انظر إليها، كيف تتسلى! أنت الآن سعيدة بهذا.

ـ أوى، ولكننى لا أمزح يا زكريا، صدقنى، أنت مخطئ تمامًا؛ المهم أن هذه الطريقة وقعت منى موقعًا حسنًا، لنرى إذا كنت تفهمنى، وأنها أعجبتنى كثيرًا...

ـ وما هى الطريقة التى قلت بها هذا؟

ـ أىّ، يا بنى، هكذا إذن، يا له من سؤال! لا شىء، بالطريقة التى قلته بها، وما أدرانى. ليس أكثر من هذا، لا يوجد فيها ما يمكن إيضاحه، بطريقة ظريفة جعلتنى أُسَرُّ بالاستماع لما تقول، ماذا تريد أن أقول لك...؟ حسنًا، وباختصار: بطريقة يستعصى علىّ إيضاحها، يعنى أنك إذا لم تدرك ما أودّ قوله فأنت أبله؛ ولا تجبرنى على قول المزيد لأن اللجلجة التى تداهمنى عندما أريد شرح شىء ما تغيظنى.

ـ نعم، بدون شك، لأننى لم أخرج ولو بمعلومة واحدة من هذا الشرح الأجوف الذى قدمتيه لى.

ـ حسنًا، لهذا السبب نفسه، فضلاً عن أن الأمر كله مجرد ترهة من الترهات، لا أدرى كيف جالت بخاطرى ولا ماذا ما كنت أريد قوله ولا أىّ شىء...

ـ لا داعى أيضًا للجزع وفقدان الصبر، فلا يوجد ما يستحق.

ـ إنه يغيظنى.

ـ ماذا؟

ـ إيه، لا شىء، لا أدرى، وأنّى لي بمعرفته؟، فضلاً عن أن الأمر سواء.

ـ وما الذى يجعلك تتكلمين معى بهذا الشكل؟

نظرت إليه ميلى وقالت له بعد ذلك وهى تخفض بصرها:

ـ لا أدرى، يا زكريا؛ أنا بلهاء، ومن المعروف إنه يعجبنى أن يتحملنى الآخرون، تعرف؟، هذا هو السبب، أنا طفلة شديدة العناد وأعتقد...

ـ حسنًا، حسنًا، توقفى...! توقفى هنا، يا بنتى، ارحمينى من هذا السّيل المتسارع من فضلك! أنت أيضًا تنقضين بلا هوادة، يا لك من متوحشة!؛ تنتقلين، غوصًا، من الجنة إلى النار دون المرور

بالمَطْهر. يا لها من لفتات وانحرافات عجيبة! تتركين نصف إطار من الكاوتش على الأسفلت مع كل لفْتة تقومين بهـــا!، ولا تظنـــى أننى أبالغ فيما أقول.

ـ هذا صحيح، أنت مُحق؛ أنا بالضبط مثلما قلت... ينتابنى غيظ من شىء ما يخصنى، وأجعل الآخرين يدفعون الثمن. أنا أعــرف أن هذا حقيقى. حسناً، لو رأيت... اسمع، أنا لا أكذب لو صـــارحتك بأن الرغبة فى البكاء تتملكنـــى الآن... وأنـــت، لمـــاذا لا تقـــوم بصفعى يا زكريا؟

غرزت مارياپو كوعيها فى المائدة المستحمة بالنبيذ، ثم قالت:

ـ عنده حق!– كانت تضع رأسها بين يديها–. انظر لما بقـــى لـــي الآن، الوقت يمضى بلا هوادة. كالحلم تمامًا، وبالتحديد عندما تبدأ فى استطعام الحياة، هل هذا من العدل فى شىء؟ وغدًا، الرجـــوع ثانية إلى العمل.

قال فرناندو من وراء ظهرها:

ـ هذه هى الحياة، يا مهجة قلبى ولن يفيد تقليب الفكر فيها. اللحظات السعيدة تمر علينا أسرع من السيئة، ومع هذا لا تنتفى عنها صفة السعادة أو ماهيتها رغم قصرها.

نظرت إليه ما ريايو:

ـ سعيدة لأنها تُبقى على الأمل، ومن ثمّ فهى سعيدة لهذا السبب.

ـ سترين الأحد القادم- تدخلت ماريا لويسا طرفًا ثالثًا فى الحوار-؛ (شوفى)، سنأتى الأحد القادم مرة أخرى ونعمل هنا مهرجانًا من المهرجانات ذائعة الصيت.

ـ الأمر سواء، يا بنتى، وهل سيجّد جديد؟، ما سوف يحدث الأحد القادم لن يختلف عما حدث اليوم. لماذا سيكون أطول؟

لاح القمر؛ كان يطلّ من فوق أسوار الحديقة، مثل وجه كبير ميت؛ شاهدوه يستكمل ببطء أساريره الخالدة.

ـ لا، نحن عل الأقل لا يمكننا التهاون- قالت فتاة من ليجانثبى-؛ لابد أن نكون على علم بالوقت لأنكم تعرفون، فى العاشرة وخمس دقائق سوف نستلم ناصية الطريق، وفى خط مستقيم إلى المحطة.

ـ نعم! ولماذا العجلة؟- احتج فيديريكو-. لا داعى للتسرع. وما ضرورة وجودنا هناك طوال عشرين دقيقة، نقضيها وقوفًا على الأقدام، يُطالع فيها بعضنا وجوه البعض الآخر، حتى يحين موعد

القطار؟ لا داعى للتبكير بالذهاب لأن الوقت الذى سنتقدمه سوف نقضيه فى الانتظار، ومن ثمّ فإن التسرع لا يُفيد.

ـ حسنًا، أنت تفعل ما تريد، ولكننى سوف أخرج من هنا فى تمام العاشرة وخمس دقائق دون تأخير. ليست لدىّ الرغبة فى فقدان القطار الأخير الذى سيكون، فضلاً عن هذا، مكتظًا بالمسافرين.

ـ لن يحدث شىء لو فقدتيه، لأن هناك قطارًا آخر فى الحادية عشرة والربع.

ـ يا لك من ظريف! هل هذه نكتة؟

ـ وهل يتعين عليك الوصول فى ساعة معينة؟

ـ يا رجل!، عليك بتوجيه هذا السؤال لوالدى، ولنرى بماذا سيرد عليك.

ـ هذا يعنى أن العجوز شديد الصرامة، إيه؟، تمتد يده بالضرب؟

ـ آه، أنا لا أعرف هذا؛ لم ألجأ إلى إثارة غضبه من قبل حتى أعرف ردّ فعله.

ـ لابد أنه رجل موضة قديمة، ألا يرتدى الآن قمصان فصل الشتاء؟

ـ اسمع، لا تسخر من والدى، فهمت؟

ـ وهل قلت شيئًا سيئًا؟

ـ استمر فى الضحك أيها الأحمق، وسأفلق رأسك بالزجاجة.

كان القمر يتسلل حتى الوجوه، فى خلفية المائدة، إلى حيث لا يصل ضوء المصباح بسبب التعريشة. مالت ميلى بكرسيها إلى الخلف، لتجعل عينيها فى الظلام من جديد، وعندئذ بقى ضوء القمر مسلطًا فحسب على رقبتها. قامت بعد ذلك بوضع إبطها على حافة المسند وسقط ذراعها متدليًا خلف الكراسى. كانت يد زكريا تتحسس فى الظلام، باحثة عن يدها بين الأوراق.

ـ يجب أن يجعلوا أيام الآحاد ضعف بقية أيام الأسبوع فى الطول– قال صمويل–، أليس كذلك يا ماريايو؟، ألا توافقينى الرأى؟. وطالما لم يفعلوا هذا فعلى الدنيا العفاء.

ـ أو ثلاثة أضعاف. أيام العمل كلها هى الطويلة فحسب. وبهذا الشكل سينتهى بنا المطاف إلى ترك العمل والتشرد فى الشوارع.

ـ أمركن عجيب، تريدن كل شىء.

ـ ليس الكل، بل بعضًا منه.

ـ يا لها من همجية!- قال فرناندو-. أخبرينى، هـل يكـدرون عليـك الحياة حيث تعملين؟ كنت أعتقد أن المرء يقضى وقتًـا ممتعًـا فـى البارات.

ـ يا ليت! إنه ممتع بالنسبة لمنْ ينظر إليه من الخـارج. أمّـا مـن الداخل، فهو الجحيم رقم واحد. لن تصدق أنه كارثة حقيقيـة يـا فتى، لا يدانيه أىّ شىء آخر فى السوء.

ـ أراك يائسة!

ـ أشد ضجرًا من الضجر ذاته، يا بنى. أنت لا ترى ما أنا عليه من ضجر. من حسن الحظ أننى لا أنتبه لحالى إلا فى أيام مثل هـذا. فى أثناء الأسبوع أنسى نفسى؛ وبفضل هذا نواصل مرغمين.

ـ تواصلين لأنك تريدين- ابتسم فرناندو-. سترين كم هـو سـهل: تلقين شباكك هناك على رجل ذى ثروة، وبعد ذلك، وبقليـل مـن الحظ مع قليل من الخفّة والخلاعة، ينتشلك من وهْدة الفقـر إلـى الأبد. وتعيشين مرتاحة، سلطانة زمانك.

ـ لا تحكِ لي أفلامًا الآن. شتان ما بين اليزيدين. ليست لدىّ النيـة ولست أيضًا مضطرة للسير فى ركاب أىّ رجل ثرىّ.

ـ كانت مجرد نصيحة.

ـ شكرًا، أنا مبسوطة كما أنا، ومن ثمّ لا داعى للخوض فيما لا يليق حتى لا نخسر صداقتنا.

ـ كان لمجرد العبث وإضفاء سخونة على الحوار. أنا أعرف هذا بما فيه الكفاية، تنطق به مرآة وجهك.

ـ لا بما فيه الكفاية ولا هباب؛ يبدو لي أنك تتجاوز حدودك.

ـ ماذا دهاكما الآن؟- قالت ماريا لويسا-. ألستما صديقين؟ هكذا سريعًا!

ـ نعم، يا امرأة- ردت مارياپو-؛ وهل ستقيم الواحدة وزنًا لما يقوله هذا الشخص- نظرت إلى فرناندو بنصف ابتسامة-. إنها فقّاعات صابون!

ـ أنتِ ملاك- قال هو-.

كان الآخرون يضغطون على لوليتا لكى تخرج للرقص.

ـ الوقت متأخر جدًا.

ـ يوجد وقت، ما زال هناك وقت.

ـ وهل هذه الفتاة تعرف الرقص؟

ـ الرقص؟ إنها إعصار، ستخبرنى بعد أن تحكم بنفسك.

ـ حسنًا، هيا، يا لوليتا، (نمرتك). حسن الختام! أتحفينا بظهورك.

ـ أنت معروفة فى ليجاثبى، يا بنتى. إلى خشبة المسرح دون تسويف!

ـ ترقص، أين؟

ـ فى أىّ مكان تختاره، ولا داعى للمماحكات.

شرعوا فى التصفيق. تجرعت لوليتا نبيذها دفعة واحدة. "هيا، إذن، لنرى ما ستجود به علينا". صعدت فوق المائدة بوجه متهور. ومن علُ أمرت بإخلاء المائدة من الكئوس والزجاجات. "احملوا كل هذا من حول قدمىّ".

ـ تحركى! ونعم الفتاة!

أخلوا المائدة. كانوا ينظرون جميعًا إلى لولى التى بادرت بتصحيح إيقاع تصفيقهم بالأكف، ثم تفحصت المائدة بقدميها.

ـ هذه هى الفتاة بجد، والأخريات سقْط متاع!

انتظم إيقاع التصفيق. أجالت لوليتا البصر بوجوه الآخرين، ثم مدّت يدها إلى ريكاردو. «اصعد معى»، لكنه لم يرد الصعود:

ـ أنا لا أعرف تقريبًا...

ـ ليس مهما أن تعرف– ألحت الفتاة–. اصعد، ولا تكن ساذجًا.

ـ اعفينى، يا حياتى، أنا متعب اليوم تعبًا جمًّا.

ـ أنتم، أيها الرجال، تخافون من تعريض أنفسكم للسخرية!

وقف فيديريكو وتطوع للإحلال محلّه:«وهل أنفع أنا؟»؛ دفعه زملاؤه إلى أعلى المائدة:

ـ إلى أعلى بهذا!

ـ فيديريكو بمائة فيديريكو، أقول لك نعم، تنفع، تنفع وزيادة.

وقفت لوليتا فى مواجهة فيديريكو وعادت لتوجيه إيقاع ضرب الأكف، وعندما انتظم الإيقاع شرعت فى الرقص. كانت لوليتا تثير كثيرًا من التراب نحو وجوه الآخرين عند ضربها خشب المائدة بالحذاء؛ وفيديريكو، الذى تلامس رأسه أطراف نباتات العوسج المتدلية من الأسلاك المعدنية وتضطرب خصلات شعره كلها، يساير

حركاتها وتصرفاتها. وبعد أن شعرت لوليتا بإعاقة الحذاء لها طوّحته بقدميها، فردة فردة، نحـــو ظلمـــة الحديقـــة، دون أن تكـــف عـــن الرقص.«هذه الفتاة عبقرية». والآن أصبحت ترقص حافيـــة. كـــان رجع صدى التصفيق يرتد من السور نحو الداخل، نحـــو الـــضفدعة البرونزية والفونوغراف والموائد الخالية. كان يتراقص فى الوســـط المصباح المنير وبرنيطته المغطـــاة بـــالتراب، لاهتـــزاز الأســـلاك الكهربائية تبعًا لتحرك التعريشة، وكانت تهتز معها أيضًا كل خيالات الحديقة. كانت قدما لوليتا الحافيتان تدوسان على النبيـــذ، وتنورتهـــا السوداء تتطاير نحو وجوه الجالسين، ثم تنغلق فجـــأة لتلتـــف حـــول الساقين الأبيضين والمايوه المجسّم. انزلقت قدما لوليتا بعد ذلك علـــى الخشب، فوق العجينة القذرة التى تشكلت من التراب والنبيذ، ووجدت الفتاة نفسها مقذوفة خارج المائدة لتسقط، لاهثة وضاحكة، على أذرع ميجيل وزكريا. كنت تصرخ من الضحك ولا تقوى على النهوض، وتقول إنها لا تستطيع لمس الأرض وهى حافية لأن الحصى يدغدغ باطن قدميها، إلى أن ساءت حالتها من الضحك وأخـــذت تـــردد دون توقف: «لقد حلّت النقمة». حاول الآخرون تهدئتها. وفى تلك الأثنـــاء حضرت فاوستينا التى استرعى انتباهها وجود علامات على المائدة:

ـ (شوفوا)، من حقكم إحداث الضجيج واللهو طبقًا للمعتاد والمتعارف عليه؛ أمّا الصعود بالأقدام إلى حيث يأكل الناس فهذا أمر غير مقبول، ألا تفهمون؟ لنرى إذا كنتم ستتصرفون ولو بقليل من المراعاة، لأننى حذرتكم مرتين فى تجاوزين مختلفين، وإذا لم تقلعوا عن هذه التجاوزات سأجد نفسى مضطرة لإبلاغ زوجى. لنرى إذا كنتم ستتحلون، من الآن فصاعدًا، ولو بقليل مما يجب التحلى به. لقد فاض بى الكيل من قيامى هذا المساء بدور مربية الأطفال لكم...

عادت للدخول. علّق الجالسون على المائدة:

ـ رأيتها قادمة. لا يمكن بأى حال إحداث هذه الفوضى العارمة. الناس...

ـ هذه السيدة هى الغول بشحمه ولحمه؛ لم أرَ فى حيّاتى عجوزًا أبغض ولا أرهب منها، ملعون أبوها!

ـ إنها فى بيتها. يجب أن تضع هذا فى اعتبارك أيضًا.

ـ هذا محل، مكان مفتوح للجمهور!

صرخت لوليتا:

ـ أريد حذائى، أعطونى حذائى...

كانوا يبحثون لها عن الحذاء فى وسط الحديقة.

ـ وهذا على حسب ما تقصده بكلمة جمهور. بمعنى أن هذه التسمية لا تنطبق على الناس جميعًا، لنرى ما إذا كنت تفهمنى، لأن هناك منْ يجب استبعادهم... إيه،؟، ماذا حدث للوليتا؟

كانت قد أجهشت بالبكاء فجأة، لأنهم لم يتمكنوا من العثور على الفردة الثانية من الحذاء.

ـ سأظل إذن بدون حذاء!، لقد ضاعت، لا تبحثوا عنها، لقد ضاعت، سأبقى حافية، لا يوجد حلّ على الإطلاق... وعندما أصل إلى بيتى، ويفتحون لي الباب ويرونى...، تسألنى والدتى، ماذا سأخترع لوالدتى؟، حكاية وهمية...نعم، ولكن أية حكاية؟، لا توجد حكاية مقنعة، ليس ثمة مهرب...، الفتاة المؤدبة لا تبقى حافية بأى موضع هنالك. لا يمكن ولا ينبغى أن يضيع منها الحذاء...

احتضنتها ماريا لويسا وشرعت فى مداعبتها:

ـ اهدئى، سوف يعثرون عليها فى الحال، ألا تدركين أنكِ تقدمين مشهدًا من النوع الأحمق؟ وما زاد الطين بلّة ختامك لهذا المشهد بفاصل من البكاء والتعلات الساذجة الممجوجة. ألا ترين أنكِ تتجاوزين الحدّ، يا امرأة؟ سوف تظهر فردة الحذاء الآن، سترين كيف تظهر...

ارتمت لوليتا فى حجر الأخرى، وأخذت تدمدم:

ـ الأمر سواء بالنسبة لي ولن أتضايق ولن يهمنى مثقال ذرة كونى حافية... أقول لوالدتى اضربينى حتى تتعبى... أقول لها اضربينى يا أماه لأننى أضعت الحذاء بينما كنت أرقص فى سهرة ماجنة، أنت تضربيننى وأنا أعود للرقص والكشف عن ساقىّ وأنا أرقص... اضربينى وسوف ترين غدًا وبعد غد واليوم الذى يليه، اشبعينى ضربًا يا أمى وسأرقص السامبا غدًا وبعد غد واليوم الذى يليه واليوم الذى يليه وأخرج ليقبلنى الشباب فى السينما وأتسلى وألهو دون توقف...

ظهرت فردة الحذاء الناقصة. انحنى لوكاس على قدمى لوليتا.

- سوف ألبسك الحذاء، يا أميرتى- قال لها-.

نظرت إليه الفتاة:

- شكرًا جزيلاً يا لوكاس، يا بهىّ الطّلْعة... أنا مثل خرقة بالية، يا فتى- ضحكت-، أقسم لك...

تركت له قدميها لكى يلبسها الحذاء. شعرت بالغثيان بعد ذلك واصطحبتها كل من ماريا لويسا وخوانيتا إلى حظيرة الدواجن لكى تتقيأ.

- شىء طبيعى، لقد شربت وقامت بعد ذلك بأداء حركات عنيفة؛ لن تتخيلى مدى هيجان الأحشاء واضطرابها عندئذ، مريع دون شك!

وفى أثناء عودتهن إلى المائدة أرادت الاعتماد على نفسها ورفضت أذرع الفتاتين المصاحبتين لها:

- مازلت قادرة على المشى! ماذا تعتقدان؟- قالت لهما-. يضايقنى استعدادكما الدائم لحمايتى... وانتهاز أول فرصة لإظهار هذه الحماية... أنتما مثل اللزقة الأمريكانى...- اتجهت إلى الجالسين حول المائدة-. أنتم جميعًا مثل فريق من سمك المرجان، عندما

تنتهى الواحدة من إفراغ ما فى أحشائها بسبب اجتهادها فى تسليتكم، لا يخطر ببالكم سوى اتخاذها هدفًا للفُرجة والتنكيل بها ما استطعتم- وصلت إلى المائدة؛ جلست، ثم نظرت إليهم ضاحكة-. يا له من اجتماع لدواهى الطير! ألا يخطر ببال أحدكم شىء لوداع يوم العطلة؟

الناس جميعًا بلا حراك على الشاطئ، تحت القمر، وأبصارهم معلّقة بنقطة فى النهر. كانوا قد تزحزحوا فى اتجاه التيار، فى مواكبة منهم لاثنين من السابحين فى الماء، وتكدسوا الآن أمام الخزان، فى نهاية طرف منطقة الأشجار تقريبًا. لم يكن هنالك أحد بالمنطقة التى لامست فيها أقدام تيتو وبولينا الشاطئ. التقطت بنطالها الذى وجدته بالمكان نفسه، وشرعا فى الجرى والبنطال فى يدها. كانا يجريان بجوار جذوع الأشجار الضاربة للبياض، وإلى جوار أطياف صور بشرية ظلت ملازمة لمعسكراتها، ومشدودة الانتباه لما يحدث عند طرف منطقة الأشجار.

خرج كلب من العتمة لينبح على ركض بولينا التى كانت متأخرة عن تيتو بعشر خطوات تقريبًا.

ـ انتظرني، انتظرني، يا تيتو...- سمعها تصرخ مقطوعة النَّفَس خلف ظهره.

كانا يحسان بالحصى والعصيّات التي تجرح باطن أقدامهما. حال بينهما وبين رؤية الماء أكثر من مائة شخص، كانوا يشكلون أمامهما حاجزًا من الظهور المتلاصقة والسوداء. شقا لنفسيهما طريقًا بالكيعان وأدخلا جسديهما المبتلين في كثافة البشر. لم يكن يتكلم أحد تقريبًا. كان تيتو يفسح الطريق أمام بولينا.

ـ دون دعْس ودفْع- قال له أحد ما-؛ الكل يريد المشاهدة.

لم يرد تيتو. أمسك بيد بولينا وبلغا، معًا، الصف الأمامي. كانت تُسمع هناك، عالية جدًا، الموسيقى، مغسولة بصدى الخزان، كما كان يصل من الماء لمعان مرتد من البقع المضيئة المسلطة على السطح من لمبات الاستراحات. وفي المواجهة، على الجانب الآخر من خمسين خطوة في الماء، كانت تُرى منبلجة حافة الحوض الأسمنتي الذي يتألف منه الخزان، مثل شريط بعرض السد، يظهر منه أكثر من الربع قليلاً فوق مستوى سطح الماء. وبالقرب من هناك تراءت رؤوس ثلاثة أو أربعة سباحين. صاحت بولينا، منادية على

سيبستيان. كان صخب فتحة الهويس يدوّى. لم يترك الناس أمـــامهم، وعلى طول الشاطئ، باتجاه الرابية، مسافة للمشى؛ وللاستمرار، كان عليهما الخوض بأرجلهما فى الماء. اصطفا أمام كل الوجوه الـــساكنة التى تنظر إلى النهر، والمضاءة بالقمر وبالانعكاس القادم من الميـــاه المبقعة بالنور. كانت هنالك حلقة صغيرة من الناس، إلى أسفل قليلاً، تلتف حول شخص عارٍ، متكور علـــى قدميـــه فـــى الرمـــال؛ إنـــه سيبستيان. ركعت بولينا إلى جواره.

ــ سيبستيان!

لم يرد. كان جسده كله منكمشًا ويلهث منهكًا؛ يعانق ساقيه من أمام الركبتين اللتين يتكئ عليهما بعينيه وجبهته، ومخفيًا وجهه. جذبته بولينـــا من الشعر الذى يقطر ماءً ورفعت رأسه لكى ترى وجهه:

ــ سيبس– قالت له–.

كانت أساريره مرئية بالكاد. أحست بكل ثقل الرأس فـــى يـــدها التى ظلت مثبتة بلا حراك فى الشعر. كان يُلاحظ عليه الإنهاك مـــن العوم. عانقت بعد ذلك وبكلتا يديها رأسه وضمتها بشدة إلى صدرها.

ضغطت ركبتا أحد ما على ظهر بولينا. غابة داكنة من السيقان كانت تحيط بجسديهما مثل سياج ضيق للغاية من الخوازيق. شعرت بولينا بغرق بطني ساقيها بين سيقان الناس، في احتكاك رطب لأقدام تختلط على الرمال. رفعت عينيها ونظرت في ضيق إلى أعلى، إلى وجوه الواقفين فوقهما، والمحيطين بهما في نصف دائرة ضيقة، مفتوحة فحسب إلى جهة النهر. كان تيتو معطيًا ظهره، هناك في الأمام، يُبرزه لمعان المياه المضاءة. غمست بولينا وجهها في قفا سيبس، منضغطة فيه. الآن، توقفت الموسيقى وتوافد من الاستراحات أشخاص كثيرون إلى السدّ؛ إذ تُشاهد، في المواجهة، خيالاتهم التي تتقاطع على طول الحوض. وعلى اليمين، على رصيف السد، تغطي ظلال طويلة على لمعان الماء. أحست بولينا بأصابع تلامس ظهرها: رفعت رأسها: سألتها امرأة وهي تشير باتجاه النهر:

ـــ الغريقة قريبة أحد منكما؟

لم تكن ترى وجهها.

ـــ جاءت معنا.

رفعت المرأة ذقنها: «آه»، ثم نظرت من جديد إلى النهر. يبدو أنهم قد أغلقوا الآن فتحة الهويس، لأن جُؤار الماء أخذ يخفت رويدًا رويدا حتى تلاشى بالكامل. أطبق الصمت، ولم يعد يُسمع سوى تهامس الناس. علّق أحد ما قائلاً إن الخطورة فى منطقة السدّ كانت ستظل قائمة لو لم تُغلق فتحة الهويس، لأن المياه المندفعة إليها قادرة على سحب السباحين وعدم تمكينهم من جرّ الجثة إلى الشاطئ. أحست بولينا فجأة بتدافع جماعى حولها، وبتحرك غابة السيقان كلها: "هنالك، هنالك، إنهم يخرجونها". لم يمكنوهما من النهوض؛ اكتسحوهما فى ذلك التعجل المفاجئ نحو نهاية طرف منطقة الأشجار وداستهما سيقان وأيادٍ أو قفزت فوقهما، تاركة عليهما زخّات من الرمال. نادى عليهما تيتو وسط الجموع. تمكنا من النهوض فى النهاية واللحاق بالآخرين. كان خمسة أو ستة رجال قادمين بالجسد من المنطقة الضيقة بالنهر، يحيطون به ويدفعونه فوق سطح الماء، وكأنهم يدفعون قاربًا نحو الشاطئ. علت أصوات الناس، ومن جديد كافح ثلاثتهم لشق طريق فى الزحام. تكدس الناس جميعًا فى نهاية طرف منطقة الأشجار. تراءت الآن، على يمين الخزان، الاستراحات المضاءة على الجانب الآخر من الذراع الميت للنهر وقنطرة الألواح الصغيرة التى تقفز من فوقه. اصطفت هناك أيضًا، وعلى طول الرصيف كله، خيالات كثيرة وجاء البعض راكضًا، على ما يبدو،

إلى منطقة الأشجار، لأنه سُمعت فى الخلف طقطقة الخشب المتهالك للقنطرة تحت خطواتهم المسرعة. وفجأة سكتت معظم الأصوات وخيم صمت عريض، يزداد اتساعًا كلما اقترب الجسد من الشاطئ. سمعوا جميعًا وبنقاء صوتًا مجهدًا يقول:

ــ ارفع قليلاً من هذا الذراع يا رفائيل.

تراءى من جديد، تحت الضوء المباشر للاستراحات، اللون الطينى للمياه، وهو نفس اللون البرتقالى الذى كانت عليه أثناء النهار. "يا إلهى، يا للحسرة!"، تنهدت امرأة. كانت بولينا ملتصقة بجنب سيبس. نظرت خلفها للحظات، كأن بها مسٌ من جنون. فى الخلف، الأشجار غارقة فى الظلمة، والمعسكرات فى الصمت، وفى الخلف أكثر القنطرة، بالقمر الوديع مسلطًا على قوالبها الحجرية. وعلى مبعدة، على حافة سكّة القطار، بأعلى المنحدر الذى يخترق الأراضى البور، كان يمضى رجل على صهوة جواد. سُمع طلب كتوم متعقل بإفساح طريق ولمعت على الرأسين القبعتان المثلثتان(*) للشرطيين اللذين يشقان طريقًا وسط الجموع. كانت هناك جثة لوثيتا مسجّاة فوق الرمال.

(*) غطاء رأس الشرطة المدنية فى إسبانيا عبارة عن قبعة من المعدن الرقيق المصقول ذات حواف ثلاث. وتعتبر تلك القبعة من أهم مميزات الزىّ الشرطىّ، لأنها أول من يعلن عن حضور مرتديها – المترجم–.

تفحصاها. أطفال صغار من أعمار مختلفة، ما بين بنين وبنات، كانوا يحتلون مواقع متقدمة فى نصف الدائرة المصطفاة من عدة أشخاص، وعيونهم تجثم ساكنة فوق اللحم العارى للقتيلة. كان يلمع على الجلد المبتل للجثة، الملقاة على جانبها، بعضٌ من ضياء القمر، أما الوجه فكان متواريًا فى الظلام وتحت الشعر، الخد على الرمال.

ــ لا تدفعنى!- قال أحد الأطفال-.

ــ إنهم يدفعوننى أيضًا...

أخذوا يُميلون من جديد، قدر الاستطاعة، أبدانهم إلى الوراء، متصدين بظهورهم للجموع، وكأنهم يخشون أن تتجاوز أقدامهم على الأرض خطًا غير مرئى، يحدد مكان الموت على الرمال.

توغل الشرطيان فى الحصار، بينما يلقيان نظرة خاطفة على الجثة.

ــ ألن تفعلوا لها شيئًا؟- سأل فى التوّ الأكبر سنًا منهما السباح الذين نادوا عليه من قبل باسم رفائيل-.

نهض فى الحال آخر، كان متكورًا؛ أزاح الشعر المبتل من على جبهته:

ـ أنا طالب فى كلية الطب– قال لاهثًا–. لا يوجد ما يمكن عمله.

ـ مفهوم– قال الشرطى–.

نظر إلى الجثة مجددًا، بعد خلعه القبعة المثلثة، ثم هزّ رأسه:

ـ حدث جلل– تدبر مليًا–. فتاة فى عنفوان الشباب. كان الله فى عونْ والديها.

كان تيتو فى الأمام؛ ذراعاه متهدلان على جنبيه. وإلى جواره تقف بولينا وإحدى يديها معلقة فى ذراع سيبس؛ كانتا تنظر بمواربة إلى لوثيتا، غير قادرة على مواجهة الجثة.

ـ هل يعرفها أحد منكم؟– سأل الشرطىّ بصوت عالٍ فى اتجاه المحتشدين، واضعًا القبعة المثلثة على رأسه من جديد–.

وبعد لحظات صمت، سُمع إلى جواره.

ـ نحن.

ـ أنتما الاثنان؟

ـ بل الثلاثة؛ وهذا أيضًا.

نظر الشرطى إلى تيتو الذى أشار إلى صدره بحركة آلية من يده.

ـ كانت قادمة معكم، أليس كذلك؟

ـ بلى، يا سيدى.

ـ خطيبة؟ أخت؟

نفوا بهزّ رؤوسهم.

ـ صداقة فحسب- ختم الشرطى بحركة قاطعة من يده-.

ـ نعم يا سيدى- قال سيبس-.

ارتجفت بولينا وأخذت تبكى بصوت عالٍ على صدر سيبس، فى انتفاضات عنيفة. توقفت همهمات الناس جميعًا لإفساح مجال الصمت للبكاء ولكى يسمعوه بشكل أفضل، وشبّت الرؤوس فوق بعضها البعض لرؤية المنفطر بالبكاء. كان السباحون ينظرون إلى الرمال. تنهد الشرطى المسنّ:

ـ أحوال...

كان الشرطى الآخر يشاهد، وطرف حذائه يلامس أصابع، اليد اليسرى للوثى، نصف المفتوحة إلى أعلى. غيّر المسنّ من نغمة صوته:

- هذا... لنرى. حسنًا، لن يتحرك من هنا بالطبع أحد من حضراتكم، أنتم الثلاثة.

التفت ناحية السباحين:

- حضرتك والآخر، الذى سيصبح طبيًا، لا تغادرا أيضًا، لو سمحتما. إضافة إلى... أى أحد آخر تدخل، لنرى- طافت عيناه بالمتحلقين-. وأنتما الاثنان. يعنى أنتم الأربعة، كفاية. أنتم مطلوبون للإدلاء بأقوالكم أمام السلطة القضائية.

وبعدها مباشرة اتجه نحو الناس جميعًا، رافعًا صوته:

- ليتفضل الباقون بالانسحاب! هيا، لينسحب بنظام منْ ليس مطلوبًا للشهادة. أخلوا المكان لو سمحتم! كل واحد يرجع لمكانه...!

صفق بيده مرتين. تحرك الشرطى الشاب لمعاونته:

- تحركوا، تحركوا، امشوا...

كان يحثهم على المشى، لامسًا كتف البعض.

- حسنًا، أنا ذاهب. لا داعى لأن تلمسنى.

هيا إذن، أسرع.

لم يكن هنالك وقتئذ سوى القليل من الناس؛ إذ لا يزيد عدد المنسحبين أخيرًا عن أربعين شخصًا. تسعة أشخاص فحسب:- الشرطيان، ومجموعة السباحين الأربعة، وتيتو، وبولينا، وسيبستيان- هم الذين بقوا على الشاطئ، إلى جوار جسد لوثى، تحت الضوء المباشر للاستراحات الذى يصل إلى هيئاتهم، عابرًا المسافة القصيرة للمياه المنيرة. الأجساد نصف العارية، المبتلة حتى الآن، كان يلوح أحد جوانبها، الذى يصل إليه النور، بالبياض؛ أما الجانب الآخر فكان أسود. الآن، تتراءى فحسب ستة أو سبعة خيالات واقفة على رصيف السدّ. نظر الشرطى المسنّ إلى جسدى تيتو وسيبستيان ثم قال:

ــ حسنًا، اسمعونى: ليبرز واحد من كل مجموعة لكى يحضر ثيابه وثياب زملائه، حتى تتمكنوا جميعًا من ارتداء ملابسكم.

نظر واحد من الذين أخرجوا لوثيتا من النهر إلى بنطاله المبتل بالماء والملتصق بساقيه.

ــ آه، ومنْ يذهب من حضراتكم- أضاف الشرطى المسنّ، متجهًا إلى سيبس- عليه ألا ينسى أيضًا كل متعلقات الضحية، مفهوم؟

تهاوت بولينا وجلست، كالمنهارة، على الرمال. مازالت تبكى، ولكن بصوت أكثر انخفاضًا، معتمدة بيديها وجبهتها على ركبة

سيبستيان. فتحوا الهويس من جديد وعادت المياه للجُؤار. وصل صوت حاد من ظلمة الأشجار، ينادى على تيتو ولوثيتا. كان دانييل. شُوهد خياله، وهو يجرى قادمًا من بين الجذوع. توقف فجأة أمام الجثة.

ـ إنها لوثى– غمغم–.

رفع بعد ذلك رأسه وشاهد تيتو.

ـ تيتو !

تقدم تيتو نحوه وعانق رقبته.

ـ دانييل، اللعنة، دانييل...

كان يفرك عينيه فى كتف دانييل ويعوى بغيظ.

ـ هل كان من الواجب أن يحدث هذا...؟ لقد كنا هنالك نحن الثلاثة منذ وقت قصير، وانظر إلى ما حدث، اللعنة، والآن والدتها!، ماذا سنقول لوالدتها، يا دانييل؟، ماذا سنقول لها؟، ماذا سنقول...؟

كان دانييل ينظر إلى جسد لوثيتا من فوق كتف صديقه؛ لم يرد. سُمعت بولينا وهى تبكى مرة أخرى. اقترب الشرطى المسنّ ورفع تيتو من على كتف دانييل.

ــ هيا، تماسك يا فتى. إنها مصائب ولا نملك حيالها سوى التجلد والصبر. كونا رجالاً. تماسك، واذهبا أنتما الاثنان لإحضار الملابس، هيا. سوف تبردان ولا داعى أيضًا لأن تصابا بالتهاب رئوى. تحركا. عودا على وجه السرعة ولا تتأخرا.

أشاح تيتو بوجهه نحو الظلمة وجفف دموعه بيديه، ثم مشى كلاهما.

انضم إليهما فى الطريق رفائيل الذى مشى، صامتًا، إلى جوار دانييل. لم يكن هنالك فى منطقة الأشجار أحد، على ما يبدو، لأنه لا يُسمع صوت. كانت الظلمة كثيفة بين الجذوع، ولا يوجد سوى بعض الوضوح الناجم عن بياض خفيف ومبهم يلوّث، من حين إلى آخر، الأرض الضاربة للسواد، هنالك حيث يتسلل ضوء من القمر بين الأشجار. تحرك بعد ذلك خيال بشرى بين الجذوع: «إيه؟ أنتم؟»، نادى عليهم صوت.

ــ أنا هنا، يا خو سيمارى!- ردّ رفائيل-. إنه زميلى، لو احتجتم لأية مساعدة فلا تترددوا فى طلبها.

ــ شكرًا- قال دانييل-، سوف ندبر أمورنا.

ـ (اللى تشوفوه).

توقف رفائيل مع الآخر، بينما واصل كل مـــن تيتـــو ودانييـــل الطريـــق.

ـ ماذا حدث؟- سأله خوسيمارى-.

ـ أخرجناها ميتة.

ـ عرفت. وهذان، منْ يكونان؟

ـ يجب أخْذ هذا كله وحمله إلى هناك.

ـ أجب، منْ يكون هذان؟

ـ هذان؟، إنهما زميلا الغريقة فى الرحلة. إنهما محطمان.

ـ واضح. وكيف وقع الحادث؟

ـ اسمع، لنرجئ الأسئلة إلى ما بعد. يجب علينا الآن إزالة المعسكر ونقل الأغراض كلها إلى هناك.

ـ كل شيء؟، ولكن، لماذا؟، ألا يمكنهم المجيئ؟

ـ لا يمكنهم، بالتأكيد لا يمكنهم، ألا تدرى أننـــا مطلوبـــون، نحـــن الأربعة، من قِبل الشرطة، للإدلاء بأقوالنا؟

ـــ أفصح إذن. إذا لم توضح، فكيف أعرف؟ يا لها من ورْطة، سوف تستغرق سلسلة الإجراءات هذه وقتًا طويلاً.

ـــ وهذا ما أظنه.

وصلا إلى مكان معسكرهم.

ـــ اسمع، فى هذه الحالة يمكننى على الأقل الاتصال هاتفيًا ببيوتتا، أليس كذلك؟

ـــ نعم يا رجل؛ أعتقد أننا فى حاجة إلى هذا. هيا بنا الآن للملمة الأغراض يا خوسيمارى.

لم يعثر تيتو ودانييل على مكان معسكرهم سريعًا؛ كانا يتخبطان فى الظلمة، إلى أن تعثرت قدما تيتو بعد ذلك فى شىء على الأرض، وعندئذ وقعت أعينهما على اللمعان المبهم لإحدى الصوانى.

استند تيتو على الجذع الذى كان ثلاثتهم عنده فى المساء، وانزلق جسده حتى وصل إلى الأرض. اقترب منه دانييل.

ـــ ماذا تفعل يا رجل؟

كان تيتو منكفئًا على الأرض، مخفيًا وجهه فى كومْة ملابس.

- ولكن يا رجل، مرة أخرى؟ هيا، انهض الآن.

- أقسم لك أننى لا أقوى على التحمل أكثر من هذا يا دانييل، أقسم لك؛ أنا محطم تمامًا...

انحنى دانييل وشدّه من كتفه.

- هيا، لابد أن تتحمل، لا يوجد حلّ آخر، وهل تعتقد أن الآخرين أفضل منك حالاً؟

- الآخرون! أنت لا تعرف، أنت لا تعرف شيئًا. أنت لا تعرف شيئًا. لا تعرف شيئًا...! لن تطأ قدماى هذا المكان ثانية ما بقى لي من حياة، أقسم لك. لقد بغضته إلى الأبد. أنت شاهد على ما أقول يا دانييل: حتى لوعشت مائة عام...!

كان يكتم صوته بالملابس الموجودة تحت وجهه.

كان الشرطى المسنّ قد قال لزميله عندما ابتعد تيتو ودانييل:

- سوف أذهب حالاً إلى مكان قريب من هنا للاتصال هاتفيًا بالسلطات لكى تأتى، (ماشى؟). مسئولية هذا تقع على عاتقك الآن حتى ارجع، وعندما يأتون بالملابس تستلم منهم أغراض الضحية وتغطيها بشيء حتى لا تظل هكذا، مكشوفة.

ـ عُلِم.

جلس سيبستيان إلى جوار بولينا على الرمال؛ كما جلس اثنان من الآخرين فى مواجهة الماء، وهما يضمان الساقين باليدين المتشابكتين بأعلى عظم الساق. أما الشاب الذى ينتمى لقرية سان كارلوس فقد كان واقفًا إلى جوار الجثة، على بُعْد ست أو سبع خطوات من الآخرين. أقعى للحظة ليتفحص شيئًا ما، ولكن الشرطى انتهره:

ـ اترك هذا، وابتعد.

أشار إليه بإشارة طاردة. كان يتمشى على ضفة النهر وإصبعه الإبهام معلقًا فى حزام البندقية. كانت بولينا ترتجف.

ـ أشعر بالبرد يا سيبستيان؛ البرد ينساب فى جسدى كله

التصقت بخطيبها، باحثة عن الدفء. غطى سيبس ساقيها ببنطال تيتو الذى كان مرميًا هناك.

عبر الشرطى المسنّ قنطرة الألواح الخشبية التى لا تبعد عن نهاية طرف منطقة الأشجار، باتجاه أعالى النهر، بأكثر من خمس عشرة خطوة، ثم عاد أدراجه من على الضفة الأخرى للذراع الميت، مجتازًا مسافة قصيرة من الأحراج وأشجار التوت المعتمة، حتى

وصل إلى ساحة الاستراحات المطلة على رصيف السدّ. كانت هنالك فحسب عائلتان جالستان فى الشرفة أمام مائدتين، خاليتين الآن من المفارش. دخل الشرطى فى أول استراحة من الاستراحات الثلاث.

كان يوجد دخان كثيف بالداخل مثل ستارة متسقة تدمج كل شيء وتصهره، تحت الضوء المُصفّرّ واللزج؛ تُسَوّد الوجوه؛ تُخفف من لمعان الزجاج والصوانى المطلية بالنيكل وغلاية القهوة الصغيرة (إكسبريس)؛ وتجعل الصور المتسخة لأوراق اللعب تضمحل، ورسومات الإعلانات ونتائج التقويم الملوّنة. كانت الاستراحة مكتظة بالناس، ليس من بينهم تقريبًا أحد من مدريد، بل سكارى من أبناء المنطقة يشبعون نهمهم من الخمر فى سهرة ليلة الأحد. كانوا يَقْلُون شيئًا فى المطبخ، لأن المكان كان مشبعًا بالرائحة اللاذعة للزيت.

ـــ أوريليا، سوف أتصل بالهاتف، إن لم يكن لديك مانع.

ـــ اتصل، اتصل؛ اتصل بأى مكان تريده.

ـــ شكرًا.

ترك القبعة المثلثة على طاولة البار واقترب من الجهاز. سُمع بعد ذلك صوت ذراع التدوير «رُنْ رُنْ»(*)، وسكت معظم الحاضرين لكى يسمعوا.

(*) كانت الهواتف فى تلك الآونة (خمسينيات القرن الماضى) بدائية، وتُدار بذراع (مانيفيلا)، وعندما يُدار الذرع يُحدث هذا الصوت «رُنْ رُنْ ».- المترجم-.

ـ هنا جومير سيندو، الشرطى على الجهاز- غطّى بإصبع على الأذن الطليقة-. سوف تعطينى يا لويسا، ولكن على وجه السرعة، ألكالا دى هنارس، مكالمة رسمية، مع«السيد سكرتير المحكمة»؛ إسمعى، إذا لم يردوا فى بيته، اطلبى من عاملة السويتش بأن تعثر عليه بأى شكل من الأشكال، مفهوم؟- أمسك عن الكلام-. ماذا؟ آه، هذا شىء لا يخصك؛ سوف تعرفينه فيما بعد- نظر ناحية الجالسين على الموائد-. بالطبع حدث شىء ما! لن أتصل به لتهنئته بعيد الفصح!- ضحكوا من على الموائد، عاد للاستماع- ماذا؟-.

ارتسمت على شفتيه، رويدا رويدا، ابتسامة-. (شوفى) يا صبية، كان من الممكن أن أكون فى عمر والدك مضروبًا فى اثنين، ومن ثم (لا تتشاقى) مع أبناء الخمسين سنة مثلى وأسرعى بإبلاغ المكالمة، هيا. سأنتظر الرد هنا، عند أوريليا، تعرفين المكان. سأضع السماعة.

وضع السماعة ورجع إلى طاولة البار، حيث ترك القبعة المثلثة.

ـ ماذا أقدم لك؟- سألته المرأة-.

ـ ماء.

ـ القُلّة خلفك.

أشارت له بذقنها إلى عتبة إحدى النوافذ. أضافت بعد ذلك قائلة:

ـ إنه لأمر قاسى ومؤلم ترك شخص هكذا وقتًا طويلاً، وفى هذه الظروف، إلى أن يتفضلوا بالقدوم. ماذا سيحدث لو تم نقلها إلى هنا، أو إلى أىّ مكان يصون للميت كرامته؟

ـ هكذا هى اللوائح، نحن لا نستطيع أن نلمس شيئًا أو السماح لأحد بالاقتراب.

ـ وماذا سيفرق معهم، مادامو لا يحسون ولا يعانون بعد موتهم؟- تدخل، طرفًا ثالثًا، رجل استمع للحوار السابق وهو متكئ على طاولة البار.

ـ هذا ما لا تعرفه أنت- ردت المرأة -، إذا كان سيفرق معهم أم لا. وحتى لو كان لن يفرق معهم، فهذا أمر مستقبح على أية حال؛ الميت هو إنسان دائمًا، مثل الحي.

ـ وأكثر. أكثر من الحى- قال الشرطى-. أكثر إنسانية من الحي، لو أردنا الإنصاف، لأن الاحترام المقدم له أكبر بكثير.

ـ معلوم!- قالت أوريليا، ملتفتة إلى الثالث-. انظـــر: لنفتــرض أن أحدًا ما سبّ والدك، ألن يكون وقْع السُّباب عليك أسوأ لــو كــان ميتًا مما لو كان حيًا...؟. إلحق، يا جوميرسيندو، الهاتف.

كان جرس الهاتف يرنّ. أسرع الشرطى ورفع السماعة:

ـ آلو...

خيّم الآن على الزبائن صمت أكبر وأوسع من السابق. التفتــوا كلّهم تقريبًا من على كراسيهم لسماع جوميرسيندو.

ـ آلو! حضرتك«السيد السكرتير...» ؟

ومن موقعه فى الركن البعيد قال أحد:«هُــسْ» باتجــاه طنــين السكارى، الذى لا يُمكّنه من سماع الهاتف.

ـ سيدى السكرتير، يكلمك من هنا، من سان فرناندو دى هنــارس، الشرطى درجة أولى جوميرسيندو كالديرون؛ تحت أمرك...! ماذا تقول؟- سمع-. نعم، يا سيدى- هزّ رأسه موافقًا-. نعم، نعم يــا سيدى، الشرطيان الخِدْمة فى الخـــ...! ماذا؟

الآن، الزبائن كلهم يسمعون؛ توقفت مباراة «التــوتى» وبقيــت أوراق الكوتشينة منتظرة، وهى منكفئة على رخام المائدة.

ـ (شوف) حضرتك- استمر جوميرسيندو-، فى مساء اليوم وقع حادث غرق ماتت فيه شابة، تشير الدلائل إلى أنها من مدريد، ويُشتبه أنها كانت تستحم بصحبة... قُل، يا حضرة السكرتير!- كان يسمع-. عند السدّ، بالقرب من...!- صمت من جديد-. حسنًا، يا حضرة السكرتير- وقفة أخرى-. تمام، نعم يا سيدى، تمام! أوامرك...؟- كان يسمع ويُبدى موافقته-. نعم يا سيدى، نعم، نعم يا سيدى... إلى اللقاء قريبًا، تحت أمرك يا حضرة السكرتير.

انتظر عدة لحظات ثم وضع السماعة. استُؤنفت المحادثات على كل الموائد. عاد الشرطى إلى طاولة البار وأخذ قبعته المثلثة ثم وضعها على رأسه.

ـ شكرًا، يا أوريليا.

خرج إلى الساحة.

فى أثناء عودتهما بالملابس انضم إليهما، فى الظلمة، رفائيل وزميله اللذان ارتديا ثيابهما. وعند خروجهم من بين الأشجار لمحوا خيالات الآخرين، الجالسين جميعًا؛ خيال الشرطى فحسب هو الذى كان يذرع الضفة جيئة وذهابا.

اقترب خوسيمارى لرؤية الجثة. قال الشرطى:

ـ هاتِ أغراض...- أشار بصدغه ناحية جسد لوثيتا-. من المناسب تغطيته.

أفرغوا الحاجيات على الرمال؛ ودانييل، مقعيًا، أخذ يفتش فى صُرّة لوثى.

ـ ابتعد، يا تيتو، حتى أرى...

رفع الملابس لكى يتعرف عليها فى الضوء القادم من الاستراحات. ظهر فستان لوثيتا. كان ملفوفًا.

ـ هاته - قال الشرطى-.

وعند انتقال الصرّة من يد إلى أخرى انفكّت وسقط منها على الأرض صندل وملابس داخلية.

ـ يجب أن تكون أكثر حرصًا- قال الشرطى لدانييل-. التقِط ما سقط على الأرض. لا يوجد شىء آخر؟

وصل عندئذ الشرطى الثانى. كان وقْع خطواته قد سُمع على ألواح القنطرة.

ـ بلى؛ أعتقد أنه ما زال هناك كيس وصينية، على الأقل.

قلّب فى الحاجيات مرة أخرى. بحث سيبستيان وبولينا عما يخصهما.

ـ ها هو. يبدو لي أن هذا هو كل شىء.

أخذهما الشرطى الشاب من يده. كان الآخر إلى جوار الجثة؛ أخذ فستان لوثيتا ونشره على طول الجسد، مغطيًا الرأس. كان فستانًا من الكريتون المطبوع بالألوان: زهور حمراء على خلفية صفراء. ما زال ساقاها مكشوفين.

ـ انظر فى الصرّة لعلك تجد شيئًا آخر.

عثر الشرطى الشاب على فوطة صغيرة مخططة بخطوط بيضاء وسماوية، وأعطاها لجوميرسيندو الذى غطى بها ساقى لوثيتا. وضعا بعد ذلك الصندل والملابس الداخلية فى الكيس ثم تركاه، هو والصينية، إلى جوار الجثة.

قال دانييل:

ـ يجب أن أصعد لإبلاغ الآخرين، إيه؟، ما قولكما؟

ـــ عليك بالاستئذان من هذين، ولنرى إذا كانا سيسمحان لك.

ـــ سأفعل، بالطبع.

اقترب جوميرسيندو من المجموعتين، وتحدث للجميع بصوت عالٍ:

ـــ اسمعونى كلكم، لقد انتهيت للتوّ من الاتصال بالسلطات، وأبلغت السيد «سكرتير المحكمة» بما حدث، وقد أخبرنى بأنه والسيد القاضى سيحضران إلى هذا المكان فى خلال ثلاثة أرباع الساعة على الأكثر. وأنا أعلمكم بهذا حتى يهدأ روعكم ولا تتململوا وتكونون على علم بما يجرى. هذا هو كل شىء. يمكنكم الذهاب الآن لارتداء ملابسكم.

وبينما كان الخمسة الآخرون يوزعون أيضًا ملابسهم رنّت ضربة على الرمال المبتلة وشوهد اللمعان لهارمونيكا انزلقت من جيب أحد البنطلونات.

ـــ انظر إلى ما يخرج الآن– قال أحدهم–.

انحنى ليلتقطها ثم نفضها على راحة يده ليزيل حبيبات الرمال التى علقت بها. أخرج صاحب البنطال المبتل علبة سجائر من جيبه، ماركة شيستر، كاملة تقريبًا.

ـ واحسرتاه على التبغ!- قال، وهو يُظهر فى يده السجائر المبتلـة والمفتتة.

ـ كان الأمر أسوأ بالنسبة لآخرين.

ـ صدقت.

رمى التبغ ناحية الخزان؛ وفى أثناء وقوفه بعد ذلك لعصر بنطاله على الشاطئ شاهد العلبة تختفى، عائمة فوق المياه المضاءة التى تحملها نحو فتحة الهويس.

قالت بولينا:

ـ أنا خائفة من الذهاب بمفردى يا سيبستيان. رافقنى وابقَ قريبًا منى فى أثناء ارتدائى لملابسى خلف إحدى الشجرات. أخاف من الذهاب لوحدى.

ابتعد الاثنان بعد ذلك نحو الأشجار وتحدث دانييل مع الشرطى جوميرسيندو.

ـ (شوف) حضرتك، كان قادمًا معنا فتيان أخرون، وهم الآن ينتظروننا هناك فوق. أريد الصعود لإخبارهم، لأنهم لا يعرفون شيئًا عما حدث، هل تسمح لي بالذهاب؟

ــ أين هم؟

ــ فوق، فى تلك الاستراحة الموجودة فى ذلك القطاع القريب من الطريق العمومى، تعرفها حضرتك؟

ــ معلوم، استراحة موريثيو- فكّر لعدة لحظات ثم أخرج ساعته-. حسنًا، اذهب، ولكن بشرط أن تعود سريعًا، مفهوم؟- أشار إلى الساعة فى يده-. أعطيك خمس عشرة دقيقة للذهاب والإياب، وإيّاك والتأخير عن هذا بأى حال من الأحوال، حتى لا يأتى السيد القاضى ولا يجدك هنا. اتفقنا؟

ــ لا تشغل بالك.

أعطى دانييل ظهره وابتعد نحو القنطرة الصغيرة. انتهى تيتو من ارتداء ملابسه وتمدد على جنبه، معتمدًا بكوعه على الرمال. كان الخمسة الآخرون يدخنون وقوفًا على الأقدام، فى مواجهة الشاطئ، وينظرون إلى ضوء الماء.

ــ وما هى البدائل المطروحة أمامنا للعودة إلى مدريد؟- سأل صاحب الهارمونيكا-.

ـ أخشى ألا تكون هناك بدائل، لأننا مضطرون للبقــاء هنــا حتــى ينتهى الحفل.

قرّب رفائيل الساعة من وجهه، لافتًا معصمه نحو الجهة التــى بها ضوء.

ـ الساعة الآن العاشرة والربع- قال-؛ باقى خمسون دقيقــة علــى القطار الأخير. عليهم الانتهاء من هذا بأقصى سرعة حتى يمكــن اللحاق به.

ـ مستحيل- قال فتى سان كارلوس-.

ـ لن يكون أمامنا حينئذ سوى النوم فى القرية أو الرجوع مشيًا على الأقدام.

ـ نرجع مشيًا! أنت تمزح.

ـ كم تبلغ المسافة على الطريق العمومى؟

ـ سبعة عشر كيلومترًا.

ـ ليست بالكثيرة. ثلاث ساعات مشى؛ لا أكثر.

ـ مع هذا القمر المنير- قال طالب الطب، ملتفتًا إليه-، وفى طراوة الليل، يمكن للمرء مشيها مرتاحًا.

ــ لو فرضنا أننا سننتهى من هذا فى منتصف الليل، سـنكون فـى بيوتنا الثالثة صباحًا.

ــ لا أدرى لماذا لا تذهب أنت، يا خوسيمارى– قال لـه رفائيـل–. لم يطلبوك للشهادة. مادام بإمكانك اللحاق بالقطار الأخيـر فمـن الحماقة ألا تتصرف.

ــ سأبقى معكم. جئنا معًا ويجب أن نعود معًا.

ــ افعل ما تريد، أنت حرّ؛ وإن كان انصرافك لا يحمل فى طياتـه إهانة لأحد منّا.

عاد سيبستيان وبولينا بعد ارتدائهما لثيابهما وجلسا إلى جوار تيتـو. أخفى سيبستيان وجهه فى ركبتيه؛ وأسندت بولينا صدغها على كتفه.

قال خوسيمارى:

ــ ما ينبغى عمله الآن هو الاتصال. الاتصال ببيت واحد منكم ليقوم بدوره بإبلاغ بيوت الآخرين، ألا ترون ما أرى؟

ــ أنت المكلف إذن بهذه المهمة، لأنك حرّ طليق. لقد اتصل الـشرطى منذ قليل ويمكنك سؤاله عن المكان الذى أجرى منه المكالمة.

ـ سوف أسأله. لابد أنه اتصل من إحدى هذه الدور القريبة من هنا.

ـ انطلق إذن. هل تتذكر الأرقام كلها؟

ـ لا تتعب نفسك وتتصل بالبنسيون الذى أنزل فيه– قـال صـاحب البنطال المبتل–؛ لا أعتقد أن أحدًا هناك سيقلقه غيابى.

ـ حسنًا. وأنت يالويس، ما هو رقم هاتفك؟

ـ إيه؟ ثلاث وعشرون، اثنان وأربعون، خمس وستون.

ابتعد خوسيمارى، مكررًا الرقم من بين أسنانه، وشوهد بعد ذلك وهو يتحدث مع الشرطيين. كان الأكبر سنًّا يشير له بالذراع الممدود.

كان القمر يشكل نصف زاوية مستقيمة مـع الـسهول؛ وعلـى الجانب الآخر من السدّ، فى اتجاه جريان الماء، يُرى، لامعًـا، كـل الشريط المتعرج للخراما، الذى يختفى على فترات ثم يعاود الظهـور على مبعدة، أكثر تحولاً جهة الجنوب، إلى أن يتلاشى فى الخلفيـة، وراء التلال الأخيرة التى تسد الوادى أمام الأفق.

طقطقت ألواح القنطرة الخشبية تحـت خطـوات خوسـيمارى. تنهدت بولينا.

ـ بماذا تشعرين؟- سألها سيبستيان، رافعًا رأسه-.

ـ وبماذا تريدنى أن أشعر...؟- قالت شبه باكية-. محطمة تمامًا.

ـ معلوم. أقدّر ما أنت فيه.

أحنى سيبستيان رأسه من جديد، وأحس على ذراعه بقلقلة الفُوَاق الصامت لبولينا، التى عادت للبكاء ثانية.

كان الشرطيان يتمشيان على الرمال، جيئة وذهابا، فى مسافة جدّ قصيرة. كان تيتو يرى، على ضوء رصيف السدّ، خيالاً واحدًا تقريبًا، يأتى ويروح. كان الخيال يمر ويعاود المرور على النتوء المغطى للوثيتا. انطفأت بعد ذلك فجأة عدة لمبات على الجهة الأخرى، فى ساحة الاستراحات.

ـ مع السلامة!- هتف صاحب الهارمونيكا-.

توقف الشرطيان للحظة، ناظرين نحو النور القليل المتبقى، ثم استأنفا التمشية الصامتة.

تُرى الآن فحسب لمبتان مضيئتان، معلقتان فى الهواء الطلق، والإطار البرتقالى لباب، على الشريط الأسود للرصيف. لابد أن الذى

يدخل الآن ذلك الباب، مُبرزًا الإطار صورته، هو خوسيماري بعد وصوله إلى الاستراحة. قليل من الضوء يصل الآن من هناك إلى نهاية طرف منطقة الأشجار. جلاء القمر فحسب، الذى يشبه بياض الألومنيوم، هو الذى يمشط الرمال ويكشف أطراف النتوء والصور البشرية، بأشرطة وبقع وخربشات لبنية، مثل ضربات فرشاة جير أو طرطشات.

عطست بولينا مرتين. أخرج سيبس فوطة من الكيس وألقاها على كتفى خطيبته.

أمسكت بأطرافها ولملمتها إلى الأمام، مغطية صدرها. كانت الفوطة رطبة جدًا.

ـ كل شىء رطب...!- تأسفت-.

رنّ صوتها بوَهَن، لانسداد فتحتى الأنف من جرّاء البكاء. تلمست الفوطة كلها، مقشعرة، وواصلت القول:

ـ لا يوجد أى شىء جاف ولو قليلاً... رباه، الرطوبة خانقة...! يا للكدر...!- عادت للبكاء من جديد-. لا أستطيع التحمل أكثر من

هذا، يا سيبستيان، لا أستطيع التحمل، لا أستطيع التحمل...- كانت تكرر بينما تبكى فى الفوطة-.

ــ نحن الآن- قال لوثيو- لا نساوى نصف ملليم، ولا حتى نصف ملليم، بالنسبة لقدرة المرء على النهوض بأى عبء من الأعباء. الآن، لدينا الخبرة، هذا نعم- ابتسم-، الخبرة هى التى يمكننا تزويدكم بالقليل منها، يا معشر المستجدين، الأحدث سنًّا.

ــ أنت، نعم!- ردّ موريثيو-. أنت بالطبع كفيل بفتح مدرسة فى هذا المجال لأتباعك ومريديك.

ــ آه، لا تشك فى هذا.

ــ معلوم! المعارف التى تبددها حتى نهاية اليوم، بالقنطار!. أنت وحيد زمانك؛ ومن جهتى أقول إن ضياعها شىء مؤسف.

ــ لا تأخذ ما أقول على محمل المزاح- ضحك لوثيو-. لا يطمح المرء فى إعطاء نفسه قيمة أكثر من الآخرين، بل إثبات ما يُكسبه العمر من خبرة.

ـــ العمر! منْ تسوّل له نفسه بإتباع نصائحك الرشيدة بالحرف الواحـد، سينتهى به الأمر لإلقاء نفسه أمام القطار قبل الاستفادة من نتائجها.

ـــ يبدو لي أنك لا تقدر السنين حق قـدرها. مـاذا تتـرك عندئـذ للمسنين؟

ـــ الصمت وإفساح الطريق للآخرين. لا شيء أكثر. ليتقدم الـشباب. أتظن أن مظاهر الحياة لم تتغير. ما يخصنا لم يعد يسود الآن؛ فى سبيله إلى التلاشى منذ سنوات جد بعيدة.

ـــ ليس إلى هذا الحد. أخطاء الإنسان هى نفسها تقريبًا، فـى نهايـة المطاف، أو مشابهة لها.

ـــ نعم؛ اجعلها مشابهة لما مرّ بك من قبل وسترى ما يحيق بك مـن غمّ وكدر.

ـــ (شوف)، بالنسبة للأرزاء، لن يفعل أحد شيئًا أكثر ممـا فعلتـه، ولا تعتقد أنه كان سيتفادى ولا حتى القليل من الـضربات التـى تلقيتها.

وافقه موريثيو، مبتسمًا.

ـ هذا نعم. اتخذ من نفسك نموذجًا، ولكن فى الاتجـاه المعـاكس، ظهر الميدالية. أنت فى هذا الجانب المعاكس أكثر معقولية.

ـ إيه؟- قال لوثيو للآخرين-. ماذا يبدو لكم قوله؟. إذا وضع المرء طينًا على رأسه، فهل نبادر قائلين إنه راضٍ بما يفعل؟. (شـوف) يا موريثيو، أنت فحسب تُنحى علىّ باللائمة وتحملنـى وزر مـا حدث لي، وهذا خلط من جانبك. شتان بـين أن تقـول إن ذلـك الطريق سيئ لأن الكلاب قد هاجمتك فيه، وبين إظهـارك النـدم على السير فيه. الأمر هنا مختلف؛ هذا شيء وذاك آخر...

ـ لا تُدخلانا فى متاهات يا سيد لوثيو- قاطعهمـا إلتـشاماريس-. يحلو لك أن تسوقنا بالمهماز كما هو ديدنك، لتستبقينا، فى الوقـت الذى نريد فيه المغادرة - نظر إلى الجزارِيْن-. صح؟

ـ نعم، نعم- قال كلاوديو-؛ سنغادر جميعًا.

ـ الآن؟

كان موريثيو يملأ الكئوس.

ـ طبعًا. إنهم ينتظروننا على العشاء- أجاب إلتـشاماريس-. مـاذا تعتقد؟ لأنك بلا عائلة، إضافة إلى كونك جسدًا مقدسًـا، وقـادرًا

على قضاء اليوم بطوله دون إدخال شيء صلب فى هذا الفم، تتصور عندئذ أن بإمكاننا مزاولة الشيء نفسه. ولكن لا.

ـ العائلات هى التى تتعشى وحدها وتنام– قال لوثيو–؛ أما الآحاد فقد جُعلت لتسلية ربّ الأسرة. لا يعود إلى البيت إلا بعد الانتهاء مما يجب عليه تجرعه من كئوس؛ أما قبلها فلا.

ـ باستثناء هذا– تدخل الجزار القصير، مشيرًا إلى إلتشاماريس–. لا يمكن لهذا فعله. دعه يتأخر عشر دقائق أو ربع ساعة على الأكثر وسترى الوفود القادمة فى طلبه؛ سوف تمثل هنا ابنته الصغيرة لاستعجاله، كما حدث ظهرًا– التفت إلى المقصود بالكلام–. صحيح أم لا، أيتها الدمية؟

ـ وما وجه الغرابة فى هذا؟. يفعلون ما يفعلون لأن الواحد يوحشهم، ولأنهم لا يقدرون على الاستغناء عن وجودى. كما يجب أن يكون. وليس مثل آخرين، كلما غابوا عن البيت تنفست الزوجة الصعداء وكانت أكثر هدوءًا، لأنها لا تتحمل وجودهم طوال اليوم.

ـ هذه هى الحرية الزوجية، وإلا، فماذا غيرها؟– قال له الآخر–. لا أكثر ولا أقل. (شوف)، أنت حديث العهد بالزواج، مازلتما

إذن، وكما يقول المثل، زوجًا من اليمام، ولكن اصبر حتى يتقادم بك العهد، لا تستعجل؛ سوف تبلغان هذه المرحلة أيضًا.

ـ لن ينفك عنه التدليل حتى بعد بلوغه هذه المرحلة– تدخل كلاوديو، ضاحكًا–؛ لدى هذا القدرة، وبشكل لا ينقطع، على أن يجعلهم يدللونه باستمرار ولا يكفون عن إرسال منْ ينادى عليه للرجوع، وأشياء أخرى من هذا القبيل.

ـ أعتقد أنه يتنفس سعادة بهذا التدليل– هتف الجزار الآخر–. يكفى مجرد النظر إلى وجهه. ولكن دع السنوات تمر، ولا يحتاج الأمر لسنوات كثيرة، وسوف ترى، سوف ترى كيف تتطور العلاقة. سيحدث عندئذ كل ما يخطر لك على بال، وسوف تسمع أعذارًا من نوع: اتركوا الواحد هادئًا. يعنى أداء الواجب نحو البيت، وكفى الله المؤمنين شر القتال. وإن لم يتيسر الواجب، فبالصدفة.

ـ رحماك يا إلهى!– قال لوثيو–، تريدون حضراتكم تبديد السعادة الزوجية للصديق.

ـ نحن؟ هيهات! لا أحد يستطيع تبديدها عن هذا. فى وجود امرأة شابة، بووه!، لا تستطيع قوة بشرية أن تنتزع منه الخيال. ولا حتى الخيال.

ـ لقد وضعت يدك على السبب– قال كلاوديو، معززًا–. إنه شديد الولع بروساليا، زوجته. ستكون أنت الأول لو اعتقدت بوجود شيء يمكن أن يزحزحه من هناك.

ـ يكفى الآن! لقد اتخذتمونى مادة لحديثكم وقتًا طويلاً. لقد قطّعتم فى فرْوتى بما يكفى اليوم؛ وعليكم تغيير الموضوع. هذا بالإضافة إلى انني يجب أن أغادر. خذ حسابك يا موريثيو، لو سمحت.

ـ نعم، يا رجل، عنده حق؛ لندعه يستريح إلى الغد.

ـ سبع بيزيتات ونصف.

بحث إلتشاماريس عن النقود بين وريقات«بلوك» لولبى، على غلافه الأصفر سجحات وكشوطات كثيرة. ما زال كوكا/كونيا يتصفح عدد يوم الأحد لجريدة **ABC**.

ـ إنهم يغنون هناك بالداخل– قال كارميلو لموريثيو، وعيناه تقدحان شررًا، وأذناه مرهفتان نحو الحديقة والدهليز–.

ـ أنا سامع.

أعاد إلى إلتشاماريس الريالين الزائدين عن الحساب. كان الرجل ذو الحذاء الأبيض ينظر إلى الأرض ويده اليسرى على حافة الكرسى الذى يجلس عليه لوثيو.

- إلى اللقاء غدًا– حيّاهم إلتشاماريس–.

خرج معه الجزاران.

- مع السلامة.

- طابت ليلتكم أيها السادة.

- إلى اللقاء.

- مع السلامة.

خرجوا إلى الطريق الذى يُطبق عليه الليل.

واصل القروىّ حديثه:

- وهكذا أقول لك يا دون مارثيال، ودون مــزاح الآن، إن الأفكــار تتناوشنى كثيرًا كى أشد الرّحال إلى أمريكا مع العائلة.

قال له الراعى:

- إلى أين لن تذهب أنت؟

- اسكت أيها السقيم. أليست لديكم القدرة على الحديث، ولو مرة، فى أى موضوع بجدية؟

ـ خاخا، بجدية! مع ما تقوله الآن- ضحك الكسيح-. يطلب منا الآن أن نأخذ مشاريعه للذهاب إلى أمريكا على محمل الجد، ماذا يبدو لك؟ إنها لجدية عظيمة، تبعث على الموت من الضحك!

ـ وما يدريك، أنت؟

ـ آه، لا أدرى. لا تحكيه لي. لا شيء تقريبًا. وكيف ستقوله لي، وأنا أسمعه منك منذ سنوات لا أدرى كم؟. منذ أن عرفتك وهذه القصة على لسانك. منْ تريد أن يحفل بك الآن، يا مهجة قلبى؟. لقد أبحرت إلى أمريكا مرات أكثر من كريستوفر كولمبس ذاته.

ـ وهذا أيضًا لا يعنى شيئًا- تدخل دون مارثيال طرفًا ثالثًا فى الحوار-؛ نحن نظل نجتر الأشياء خلال فترة طويلة، حتى تتضج. وفى يوم لا يتوقعه أحد، (كاتابوم)(*)، نضعها موضع التنفيذ.

ـ مفهوم، مفهوم، فى اليوم الميمون. سوف تتحرك قدماى وتمشيان، رغم أنهما أثقل من الجبس، قبل أن يهز هذا الرجل طوله من هنا، ولو لمجرد التمشية. ما يعشش فى رأسه هو محض خيال وأوهام.

(*) «كاتابوم» (Catapúm): الصوت المماثل للفرقعة أو الانفجار – المترجم-.

- (عفارم) عليك- وافقه الراعى-؛ لأن من المعروف عنـه أن عقلـه لا يكف عن الهياج والطنين مثل عش الزنابير. وهو الوحيـد الـذى يطلق الكذبة ويظل يرددها حتى يصدقها؛ أما نحن فلا نميل لتـصديق حكاية الإبحار هذه لأننا جميعًا حفظناها. (يروح) يلعب غيرها.

- لا يمكن الإنكار، يا رجل، أنها فى أحيان كثيرة ليست إلا وسـيلة من الوسائل لتخفيف الهموم وتفريج الكروب- أجاب القـروىّ-؛ ولكنها أيضًا ليست مجرد تهويمات. وما يدريك أن الأحلام يمكن أن تتحول ذات يوم إلى حقيقة؟ وإذا كان أملكم قد خاب إلى الآن، أقول لكم لا داعى للإسراف فى الحلف، لأنه لا يوجد مستحيل.

- مثلما أستطيع التأكيد بأن اسمى هو أماليو، أؤكد أيضًا بأنك سوف تُدفن هنا! ألا تشاركنى الرأى؟

- بلى، ولا أردّ عليك نصف كلمة منه- وافقه كوكا/كونيـا-. مـنْ يخالجه الشك فى هذا؟. أنا مستعد الآن للتوقيع على وثيقـة بهـذا المعنى، وحالاً.

ضحكوا.

- تعتقدون أنكم تعرفون الكثير. تعرفون أكثر من «ليبى»، حسبما أرى. ولكنكم لا تعرفوننى حتى الآن. لا تعرفوننى؛ وهذا ما أقوله لكم.

ـ لا يعرفون شيئاً- تدخل دون مارثيال-؛ إنما لديهم الرغبة في الضغط عليك هذه الليلة بقصد إثارة غضبك. لا تلق لهم بالاً، ولا تحفل بهم.

ـ منْ؟ أنا؟. كأننى لا أدرى ما يهدفون إليه! إنهم واهمون لو كانوا يتصورون أن بإمكانهم النَّيْل منى. إنهم يضربون رؤوسهم فى حائط صلد.

ـ يعجبنا قضّ المضاجع، ولا شىء أكثر من هذا. من منّا لم يفكر ذات مرة، عن قليل أو كثير من القناعة، فى الرحيل إلى أمريكا؟

ـ أرأيت؟. بل وكثيرًا، لأن الفكرة فى حدّ ذاتها بعيدة كل البعد عن الحماقة؛ المسألة كلها مسألة عزيمة.

ـ هذا هو مربط الفرس. بمعنى أن تكون لدى المرء الجرأة اللازمة لاتخاذ قرار بهذا الحجم؛ وأن يتحلى بالتصميم على تنفيذ الفكرة دون تراجع.

ـ هذا صحيح. هل يشك أحد فى أن انتزاع المرء من جذوره ومن المكان الذى تربى فيه وعرفه على الدوام أمر بالغ الصعوبة؟

سيقول المرء لنفسه وفى التوّ كيف أترك ما حوالىّ وهؤلاء الناس، طيبين كانوا أم سيئين، لكننى فى النهاية تعاملت معهم طوال حياتى من أجل التحول، بين عشية وضحاها، إلى بقاع لم أشاهدها ولا حتى فى الصور، وليست لدى فكرة مسبقة عن الزراعات والمنتجات والعادات السائدة بها. ومن المعروف أن هذا سوف يكون بمثابة عقبة كئود أمام كل مِنْ له جذور.

ـ القضية تكمن فى استيعاب المرء للفكرة– ردّ عليه دون مارثيال–؛ وبعد ذلك، وعند الوصول إلى هناك، يمكن أن تجد نفسك مشوشاً بعض الشىء، إذ لا يقدر أحد مهما كان على التمركز فجأة ودون مقدمات فى موضع يجهله؛ ولكنه، حسبما أعتقد سوف يتكيف مع المكان، وستتكفل الظروف المحيطة بإجباره على التأقلم، رضى أم كره، ليصبح فى القريب العاجل سيدًا للموقف. ومثلما يُقال إن الحاجة تفتق الحيلة، فإن الظروف المعيشية الصّعبة هى نفسها التى ستجعلك تتماشى مع الموجود وتُرسى قواعدك، كما لو كنت مولودًا بذات المكان وتعيش فيه طوال حياتك.

ـ لا فُضّ فوك. إن التأقلم يصل مداه لدرجة التحدث باللغة الشائهة والمستهجنة لتلك الأصقاع. لقد سمعت مهاجرين يتحدثون بها،

وما من سبيل لإزالتها من على ألسنتهم وجعلهم يعودون ثانية للتحدث كما ينبغي. ولن أقول لك إن أهالى القرية يفطسون على أنفسهم من الضحك عندما يسمعونهم يتكلمون.

ـ نعم، إنه شيء مشابه لما يجرى فى أفلام كانتينفلاس أو خورخى نيجريتى، أليس كذلك؟

ـ بالضبط، مثل تلك الأفلام. لا تتمالك نفسك من الضحك بمجرد سماع كلام المتحدثين بها. مثل السينما تمامًا. وهذا على الرغم من أن أولئك قادمون من فنزويلا، بينما هؤلاء، فى أفلام كانتينفلاس ونيجريتى، مولودون فى المكسيك، وهى بعيدة جدًا، كما تعرف حضرتك، عن فنزويلا؛ وبُعد المسافة هنا لا يُقارن بأى حال بكلمة البُعد التى نستخدمها للإشارة إلى بعض المواطن فى إسبانيا، لأن المسافات هناك شاسعة بشكل لا يصدقه عقل. حسنًا، ومع هذا لا يمكن تمييز لغة من أخرى. المهم أننى خرجت باستنتاج مفاده: إن كل ما يتحدثون به هناك مجرد رطانة.

ـ ولكن حذار، فإنها تلزق بسرعة البرق! ولا يوجد منْ لا ينتهى به المطاف إلى التحدث مثلهم.

- آه، انظر إذن، لتنتهِ من أمامى كل العوائق والعراقيل وسوف أصعد غدًا إلى السفينة. ولن يضيرنى لو بقيت إلى الأبد بتلك اللغة الشائهة والمنبعجة، وأصبحت هدفًا بعد ذلك لسخرية القرية. عندما أعود...

- فهمت!– قال أماليو–. لقد كشف لنا المستور. وهنا تكمن العلّة بالتحديد: أن الموضوع صعب للغاية. إنه يهدف إلى إفهامنا هذا. وبالطبع فإن التعقيدات لا يريدها أحد. ولهذا السبب أعرف تمامًا أنك لن تغادر قط.

عاد كوكا/كوئيا للنظر فى جريدته.

- انتظر حتى ينال منى التعب ذات يوم وتعال ساعتها لتخبرنى إذا كنت سأذهب أم لا– أجاب القروىّ–. حين ينقطع عنى بصيص الأمل ولا أجد مخرجًا من الضغوطات التى تمارسها معى الحياة حتى تاريخه، سوف ترى بعينى رأسك كيف أبادّر بعبور البِرْكة لكى أتخفف من الأزمات إلى الأبد ومن التلظى بسوء العيش أينما حللت.

- وماذا تعتقد أنك ملاقٍ هناك، على الجانب الآخر من البِرْكة، كما تسميها؟، قُلْ. ربما تتصور أنك بمجرد ترجلك من السفينة سوف تتعثر قدماك فى الذهب والمرجان والياقوت.

- ستكون أحوالى أفضل من هنا، على أقل تقدير. هذا مؤكد.

- ولكن حذار من الأوهام التى تعشش فى رؤوس الناس- ردّ الراعى-. يعتقدون أن مجرد ذهابهم إلى مكان قصىّ كافٍ لتحسين أوضاعهم، بشكل إلى وقاطع. يظنون أنه كلما بَعُد المكان الذى يقصدونه أكثر، كلما تحسنت الأمور أفضل وأفضل. عبور البِركة، حسب قوله؛ رغم أنها ليست بِركة، بل قطْعة بحر لها عظيم الاحترام، بحيث لا يقفزها غجرىّ، وهى فى حد ذاتها كافية لابتلاع الإمكانيات الضئيلة للعودة، فى حالة صدور الأمر بالانسحاب. لا أدرى ما هى الفكرة التى لديكم عن المحيطات؛ فى كل مرة ترد على ألسنتكم تتحدثون عنها باستهتار وكأنها شىء يمكنكم احتساؤه فى جرعة واحدة.

- لا أحد يتكلم بهذا الشكل. لم أقل سوى إن الأمور مختلفة فى أمريكا...

- عَندَك!، لا تنطلق مثل القذيفة- قاطعه الراعى-. تحكى لي عن هذا بعد عودتك. بعد عودتك من هناك تحكى لي عما يجرى فى أمريكا، اتفقنا؟، هذا لو كنت ستسافر أساسًا ذات يوم ويحالفك

الحظ بعد ذلك للرجوع وإذا وجدتنى على قيْد الحياة حينذاك. أما الآن، فقليل من الفانتازيا أرجوك، لأن هذا هو الأفضل لكلينا. لغليان مخى لدىّ ما يكفى من الشمس، التى لا تكف عن سلْقه طوال النهار وأنا أُهلك نفسى خلف النعاج، وأصارع فى السبعمائة حجيم لتلك السهول.

ـ لتتحمص إذن طوال حياتك هناك، يا مُدَّعى العلم! ليتك تفرقع مثل قشرة حبة القسطل، لأنك تريد أن تكون الوحيد الذى يمتلك ناصية الحقيقة!

ـ أنا لا أدعى معرفة أكثر مما أعرفه. ما لا ينزل لي من زور هو هذه الفانتازيا الحمقاء، التى تعشش فى رؤوس المغفلين وتجعلهم يتصورون أنهم كلما ابتعدوا أكثر عن موطنهم، كلما تحسنت أحوالهم بشكل أكبر. يجب العمل فى كل الأماكن سواءً بسواء؛ ولكى يتحصل المرء على النقود، وأقصد أى فرد مثلنا، لا توجد وسيلة أو طريقة سوى مضاعفة العمل، وهو نفس ما يحدث فى أمريكا أو فى القمر، إذا كان للصعود إليه من سبيل. أما الحقراء، أمثالى وأمثالك، فلن يخرجوا من التنبْلة بفائدة ولن يستطيعوا التعيش عليها فى أى مكان. وهذا هو الشىء الوحيد الذى أبصم

عليه بالعشرة. وإذا كان بضعة أفراد قد عادوا من أمريكا بمال أكثر، فهذا فى مقابل إهلاكهم لأنفسهم، مثلما نفعل تمامًا فى إسبانيا وفى بكين؛ لكنهم يتظاهرون بغير هذا ويطبعون فى أذهان الناس أفكارًا مزيفة. لا تظن، ولا حتى فى الأحلام، أن الذين يعيشون من كدّهم سوف تسقط فى حجورهم ثمار ذات أهمية. هذه هى الحقيقة التى لامِراء فيها. وهكذا، فإن كان قفاى يتحمص ويتحمص، كما تقول، فى هذه الأرض المميتة، فإننى راضٍ بأن يستمر التحميص ويستمر لأنه أفضل لي من الضياع فى أمريكا التى سيكون التحميص فيها أشدّ بالتأكيد.

ـــ يا له من هجوم كاسح!- صاح كوكا/كونيا، رافعًا وجهًا باسمًا من على الجريدة-. يا لها من خطبة عصماء، يا أماليو!

ـــ هذا مزعج للغاية- ردّ القروىّ-. ما تريده أنت، بل أنتما الاثنان هو إخراجى عن شعورى واستفزازى بوخزاتكما وافتراءاتكما. ولكن حذار، يا صديقى، لأن للصبر حدودًا.

ـــ حسنًا، لو لم يكن عندك صبر لساعت العواقب سريعًا- قال له دون مارثيال-، لأن هذا الذى تراه جالسًا- أشار بالذراع والإبهام الممدودين إلى كوكا/كونيا-؛ هذا، هذا بمثابة الدويبة الأشد سوءًا

فى المائة ألف هكتار المحيطة به. لا ينفع معه الأسف، بل يجب سحب العصا وطحنه بها، بقسوة ودون هوادة! وهذا ما أؤكده لك، بصفتى أفضل صديق لهذا النوع من الخنفساء المدعوسة والمرتدية ملابس الرجال، والتى يسمونها مارثيلوكوكا، ويطلقون عليها أسوأ الألقاب، من كوكا/كونيا وبيتشيتيلكو ونينيو روتو والمارثيانو، إلى آخر تلك الألقاب الرديئة التى نعتوه بها طوال حياته...

ــ كفاك! تقوم الآن بنشر الغسيل الوسخ والقديم...!- صاح فيه كوكا/كونيا-. إذا كانوا قد نسوا هذه الألقاب وهو ما زال يذكرها. يا لك من صديق عزيز، بالفعل، يا مارثيال! والدليل على أنك أفضل صديق هو اختزانك فى الذاكرة لكل الألقاب الودودة التى أطلقوها على صفيّك وصغيرك وقرة عينك كوكيتا! تعال، تعال لكى أعطيك قبلة، تعال...!

ــ إنه يضحك فى المقابل! انظروا كيف يستمتع! وكيف يستمتع، وحده، وهو مكفّت فى الكرسى الجالس عليه! هاهو أمام حضراتكم...!

ضحك الأربعة. سُمع القروىّ بعد ذلك وهو يترنم بصوت خافت حزين، مفعم بنغمة ريفية مقتضبة، على شاكلة طريقة الغناء فى موطنه:

أرجـــــــل ملوّنــــــــة   الحجلة الجميلة بها مزوَّدة

أرجـــــــل ملوّنــــــــة   أعــود لأقــول لك ...

علّق الراعى:

ـ مثل غناء القُبّرة فى الحقل.

ـ أراه مشعشعًا هذه الليلة– قال دون مارثيال، ضـــاحكًا–؛ بـصوت خفيض ولكنه خارج من الأعماق.

ـ إنها أشياء من هناك– أجاب القروىّ، بانكماش تواضع–.

دخل الآن شخص يرتدى ملابس مليئة ببقع الجبس. ألقى بالتحية.

ـ أهلاً، ماكاريو– أجاب صاحب الخان–.

صاح كوكا/كونيا:

ـ سان روكيه، سان روكيه! من أين أنت قادم فى مثل هذه الساعة؟ ألا تدرى أن العمل ممنوع فى أيام الآحاد؟

ـ لا يوجد خيار آخر. على المرء اقتنـــاص الفرصـــة، وأن يكـــون جاهزًا لتلبية نداء العمل فيما يُعرض عليه، حتى لو كـــان تافهًـــا. الحاجة هى التى تأمر وتنهى.

لم يكن ينطق حرف الرّاء (R) راءً، بل مثل الحــروف الحلقيــة، بحيث يخرج من فيه قريب الشبه جدًا من حــرف (G)(*). كــان كوكا/كونيا يقلده(**):

ـ إنه لبئس الصنيع فى كل الأحوال. الراحة واجبة يا رجل، الراحة واجبة، أيام الآحاد على الأقل. لا يمكن إجبار الجسد وتحميله مــا لا يطيق، حتى لا يثور ذات يوم ويأبى العمل. سوف تهلك وتعدم العافية!

ـ تكدير اليوم حدث وانتهى- أجاب ماكاريو-. أنا أحاول إنقاذ مــا يمكن إنقاذه؛ أريد أن أقول إن الخناق قد ضاق عليهم كما ضــاق على أمهم، وعلى المرء تدبر أموره والمضى قدمًا إلــى الأمــام. لا وقت إذن للاسترخاء وفك العضلات.

ـ كم عددهم؟- سأل دون مارثيال-.

(*) حرف (G) فى الإسبانية يُنطق خاءً إذا جاء بَعْدَه حرف (e) أو (i)، وفيما عدا ذلك يُنطق مثل الجيم القاهرية – المترجم-.

(**) لا يمكن بأى حال فى الترجمة استبدال حرف (R) بحرف (G) مثلما يفعل كوكا/كونيا عنــد تقليده لماكاريو، وهذا بالطبع للاختلاف القائم بين اللغتين واستحالة نقل معنى الكلمــة بــنفس الحروف التى تشتمل عليها فى النص الأصلى. – المترجم-.

ـ خمسة، ونصف دستة عما قريب.

سُمعت صافرة ذُعر.

ـ هل هناك آخر فى الطريق؟- سأل السائق-.

ـ نعم؛ إذا لم يفشل الحمل، نعم، يا سيدى.

ـ لن يفشل، لا تشغل بالك- قال لوثيو بابتسامة-.

ـ أنا أعرف هذا جيدًا. لا توجد خطورة. سوف يولد هذا أيـضًا، إن شاء الله، مثل باقى إخوته. لن يفشل، بإذن الله تعالى.

كان يقول هذا بصوت باسم، ومحركًا عينيه، كأنهما تدوران.

ضحكوا جميعًا. الرجل ذو الحذاء الأبيض فحسب هو الذى سأل بجدية:

ـ وهكذا فقد جاءوا كلهم وحتى تاريخه، بدون أية حوادث؟

ـ الأمر يتوقف، على ما تقصده بكلمة حـوادث. أمـا مـن ناحيـة المجيئ فقد جاءوا جميعًا، ولم يتخلف أحد.

ضحكوا من جديد على وجه ماكاريو.

ـ ونعم البذرة، نعم يا سيدى!

ـ لست بمفردى، هل هذا كلام!. هى أيضًا تبذل ما فى وسعها؛ إنها مثل دجاجة قُلُمريّة(*) التى تفقس كل ما تحتضنه، لا يقل واحد.

علّق دون مارثيال:

ـ وقد يزيدون، ثلاث أو أربع: أليس هذا احتمالاً واردًا؟

ـ يا رجل، على حَسَب... منْ يدرى!

ـ قُل نعم– قال له الرّاعى بإصرار–. يجب تثبيت الجذور. اصبر لسنوات معدودات وسترى أجمل ما تراه العين، والنقود التى ستدلف من الأبواب إلى الداخل، حينما يشبون عن الطوق ويشرعون فى البحث عنها والإنتاج من أجل البيت. هذا هو رأس مال الفقير. أنت تعى هذا، نعم يا سيدى.

ـ هذا إذا لم يحدث لي قبلها ما انتهى كوكا/كونيا من التنبؤ به: أن أهلك وأعدم عافيتى من كثرة الكدّ والشقاء. من المحتمل جدًا، كما يُنبئ الحال، بل من المؤكد، أننى لن أصل لرؤية الصورة الجميلة التى رسمتها أنت، بعينىّ هاتين.

(*)«قُلُمريّة» (Coimbra): إحدى المدن الرئيسية فى البرتغال – المترجم–.

ردّ عليه كوكا/كونيا، من موقعه على الكرسيّ:

ــ سوف أسحب النبوءة، لا تبتئس ولا تغتم. لتبلغ المائة عام وأنت بصحة وعافية.

ــ أنا لا أطمع أيضًا فى الكثير. ثمانون سنة، كفاية. طلب المزيد شراهة.

التفت دون مارثيال إلى كوكا/كونيا وأظهر له ساعته:

ــ أنت، أيها الطفل، انظر كم الساعة. أنا، على الأقل، يجب أن أمشى؛ ومن ثمّ إذا كنت تريد أن أحملك...

ــ اصبر يا رجل. تراودك فكرة المشى فى الوقت الذى يحلو فيه الجلوس. لا تكن مزعجًا.

ــ لا أستطيع التأخر أكثر من هذا ولو لدقيقة، دون كارلوس ينتظرنى. ابقَ هنا لو أردت البقاء، ولكنك سترجع بعد ذلك وحدك.

ــ سأذهب معك، مادمت تضع العُقدة فى المنشار. أمهلنى حتى أتجرع هذا الكأس على الأقل، ولا تقلقنى قبل الانتهاء منه بشىء.

متى تأتى الساعة التى أرى فيها نفسى مزودًا بموتــور حتــى لا أتحرك بدفْع الأذرع أو بالاعتماد على الآخرين؟

ــ ماذا يعنى تزويد نفسك بموتور؟- سأله الرجل ذو الحذاء الأبيض-.

ــ نعم، يا رجل، بعد شيوع«الفسبات» والآلات الأخرى المــشابهة، جالت بخاطرى فكرة تزويد نفسى بموتور؛ أى تزويد هذا الكرسى بموتور صغير لكى أتحول إلى نيزك فى هذا العصر الذّرى. قــد لا يخطر ببالك أننى أدخر جزءًا من راتبــى كــل شــهر لهــذا الغرض. ما ينقص الآن هو دراسة الجانب الفنى، للتعرف علــى نوعية الموتورات المناسبة لي، وأشياء أخرى من هــذا القبيــل. سوف تروننى عما قريب أجرى بسرعة تفوق أى فرد آخر.

ــ فكرة طيبة. لو كانت ممكنة، فيا لها من حماقة!

ــ مرحى، لن يكون مشهدًا هيّنًا- قال القروىّ-، رؤيتك هنا وهناك، فى كل شوارع سان فرناندو ومــا حولهــا، بكرســيك الهــزّاز، تورّو... تورّو... تورّو... تورّو(*).

(*) تورّو: محاكاة لفظية لصوت المحرك (الموتور) الصغير - المترجم-.

ـ أتظن أننى لم أشاهد بهذه النواحى آخرين مــزودين بموتــورات؟ انتظر حتى الشتاء وسوف تأتى لتطلب منى أن أعطيــك (لفّــة). سوف تنادون علىّ بأعلى صوت لكى أنتظــركم عنــدما نخــرج للنزهة على الطريق العمومى.

ـ هيا بنا الآن يا كوكا، من فضلك؛ لا تُعقّد لي الأمور.

ـ يا لك من سخيف! تعال إذن، احملنى من هنا.

أمسك القروىّ بظهر كرسى الكسيح وأبعده عن المائــدة. رفــع كوكا/كونيا ذراعيه؛ ثم انحنى عليه دون مارثيال وأخذه من إبطيه:

ـ تعال، يا بنى...– قال له وهو يرفعه، مقلدًا صــوتًا نــسائيًا، لأم مُدَلِّلة.

رفعه دون جهد يُذكر، وأصبح بين ذراعيه.

ـ خذى، يا أمّاه!

تلقى دون مارثيال لطمة مجلجلة من يد الكسيح.

ـ عجبًا!– هتف القروىّ–.

ضحك الحاضرون. قال له دون مارثيال، بوجنته المحمرة:

ـ ويجب عليك أن تحمله. منْ لديه القدرة على التعرض لهذا...؟

كان يعرض على ذراعيه الجسد الصغير المشوّه: الرأس الكبيرة بدون رقبة، والمكفّتة بأعلى الصدر؛ الذراعين شبه العاديين فى الحجم وغير المناسبين لباقى الجسد؛ والساقين الضامرتين المتدليتين بلا حياة، واللتين تتأرجحان كالبندول من فَرْط ثقل الفردتين الشائهتين للحذاء الأسود.

ـ طابت ليلتكم، أيها السادة- قال لهم من على صدر دون مارثيال-.

مدّ يده بعد ذلك وأمسك ماكاريو من طيّة صدر السُّتْرة:

ـ تعال هنا، يا كثير النسل!- كان يصيح فيه ضاحكًا وجاذبًا إيّاه-.

ـ ماذا تريد؟ أبعد يدك عنى!

لم يكن تحت سترة ماكاريو شيء سوى صدره العارى والأمرد. كان كوكا/كونيا يهصر بشدة طيّة السترة الملطّخة بالجبس:

ـ هيا، يا سان روكيه!- كان يقول له-. كرر معى: "كلب سان روكيه ليس له ذيل"(*). لنرى كيف ستنطقها.

(*) حرف الرّاء حاضر بشدة فى هذه الجملة (perro.. Roque .. rabo) التى يطلب منه تكرارها - المترجم-.

ـ دعك من المزاح الآن– احتج دون مارثيال–.اتركه، هيا.

ـ ألم تسمع طلبه منك بإبعاد يدك عنى؟، اتركنى، هيا.

لوّح كوكا/كونيا بيده اليسرى فى الهواء:

ـ سأضربك، إيه؟ لنرى إذا كنت ستفيق وتنطق نطقًا صحيحًا.

كان الآخرون يضحكون. حاول ماكاريو تخليص طية سترته من مخلب الكسيح، لكن الأخير كان يضغط عليها بكل قوتـــه ويهـــزه بعنف:

. هيا: «كلب سان روكيه ليس له ذيل»! كرره الآن!

كان دون مارثيال يتمايل أيضًا، علـــى نفـــس إيقـــاع أرجحـــات ماكاريو، من جرّاء هزّات الكسيح العنيفة.

. اتركه الآن، أيها الملعون– كان دون مارثيال يتململ–. تعبـــت ذراعاى من حملك. سوف تجعلنى أصل متأخرًا. اتركـــه. إن لـــم تتركه حالاً سأدعك تسقط على الأرض.

. ليقله إذن. قُلْ ، هيا. كرر ما سمعت.

لا تكن سخيفًا يا كوكا! لا تتعب نفسك، فلن أقـــول شـــيئًا. هـــل ستتركنى أم لا؟

ترك كوكا/كونيا طيّة الستر ة:

ــ حسنًا، يا سان روكيه؛ استخف بدروسى... لن تتعلم فى حياتك نطق الرّاء صحيحة. لن تزدهر أحوالك ولن تشق لنفسك طريقًا ولن تكون شيئًا على الإطلاق. ستظل قرويًا مغفلاً، كما كنت حتى اليوم. لن تفارقك صفة القروىّ المغفل طوال حياتك...!

ابتعد ماكاريو عن متناول يده ولحق بالآخرين، الذين كانوا يضحكون. وعندما بلغ دون مارثيال عتبة الباب، والكسيح بين ذراعيه، التفت قائلاً:

ــ تأكدتم من أنه الدويبة الأكثر فسادًا وشرًا؟ والمصيبة أنه يجب علىّ حمله بين ذراعى كما لو كان ملاكًا!- كان يهز رأسه-. طابت ليلتكم جميعًا.

وعندما شرع فى الخروج تشبثت يدا كوكا/كونيا بحلق الباب والستارة، معرقلاً المشى؛ ثم ارتفع إلى أعلى من جراء تعلقه فى النسيج وأخذ يصيح فى ماكاريو، وهو يطل بوجهه من فوق كتف دون مارثيال:

ـــ كلب سان روكيه ليس له ذيل!! كلب سان روكيه ليس له ذيل...!![*]

كان دون مارثيال (يعافر) معه ويشدّه لكى ينتزعه من الباب، وكوكا/كونيا يصرخ ويصارع مقاومًا من فوق ذراعيه. خرجت الستارة خلفهما جهة الليل، لكنها لم تمر بالكامل لانزلاقها من بين أظفار الكسيح، الذى سقط خاملاً، فى النهاية، وسكن فى موضعه بعد تمايل قصير. جاء صوت دون مارثيال من خارج الباب:

ـــ ربّاه، يا له من شىء مؤذ وخبيث! ولكن ماذا صنعت، يا إلهى، لكى يحيق بى مثل هذا العقاب...!

أراح كوكا/كونيا على الكرسى المتحرك؛ ورغم هذا ما زال يُسمع:

ـــ ليس له ذيل...!!

دفع دون مارثيال الكرسى إلى الأمام، مستلمًا ناصية الطريق.

ـــ يا لشيطان كوكا!– علّق السائق–. شرب هذه الليلة أكثر من المعتاد.

(*) الكسيح يستبدل هنا حروف الرّاء، وعلى غرار ما يفعل ماكاريو، بحرف (G) – المترجم–.

ـ سُكْر!– قال موريثيو–. إنه دائمًا هكذا: مشاغب ومثير للقلاقل، حتى ولو لم يقرب النبيذ.

وافقه الرجل ذو الحذاء الأبيض:

ـ مسكين، الرجيل. ليست لديه فى هذه الحياة متعة أخرى بديلة. ماذا يبقى له؟ متعته الوحيدة هى الاجتماع مع الناس والاشتباك مع هؤلاء وأولئك، والمزاح وإثارة القليل من الفضائح.

كان قد اقترب ماكاريو والراعى. قال لوثيو، مشيرًا إلى ماكاريو:

ـ لقد صدّع رأسى بموضوع حرف الراء هذا، وتكرار جملة «كلب سان روكيه» الميمونة.

ـ أرأيت نزواته وتحكمه الثقيل؟. لن تُنكر أن ما سقط على رأسى الليلة هو بمثابة كابوس.

ـ صدقت. يعتقد المسكين أنك ستمضى الحياة فى ترديد هذه البلاهة، لا لشىء إلا لكى تجعله يضحك، كما لو كان طفلاً صغيرًا.

ـ ولا يبعد كثيرًا عن كونه طفلاً صغيرًا– أكد الرجل ذو الحذاء الأبيض–. بالعائق الذى لديه، وبالحالة التى هو عليها، مستحيل ألا يشبه طفلاً صغيرًا، فى الأفعال والرغبات.

ـ ولكونه هكذا يتحمله الجميع- قال ماكاريو-. ولأنه أيضًا وبالتأكيد، حتى لا نغمطه حقه، يتمتع بالظرف وخفة الدم. وأقول هذا بالرغم مما فعله معى هذه الليلة وانتزاعه زرًا- كان يجيل النظر فى الأرض - من جرّاء جذبه المستمر لطيّة سترتى، فضلاً عن نعته لي بالقروىّ. وماذا سأكون غير هذا؟

لم يكونوا ملتفتين إليه. قال لوثيو:

ـ بالنسبة لي، فإن ما فيه كوكا مصيبة من المصائب الكبرى التى يمكن أن تحيق بأى إنسان. لا أعرف شيئًا يمكن مقارنته بها. أنا على استعداد لتقبل عشرة أضعاف أرزائى الماضية من جديد، وبنفس راضية، على أن أصبح فجأة مثله. ليفعلوا بى ما بدا لهم، شريطة ألا يلمسوا جسدى. يمكنهم أن يُلقوا علىّ ما شاءوا من العذابات المهلكة، مادمت سأظل شخصًا عاديًا. أما وجع الضرس، وهو أمر شائع ومعروف، فإنه يرعبنى أكثر من كل الكروب والهموم التى ترتع طليقة فى أنحاء العالم، بحثًا عمنْ تباغته.

ـ آه، بالتأكيد- تدخل كارميلو-. لا يوجد ما هو أسوأ، لا يوجد. الليالى الأكثر رهبة وتخويفًا فى هذه الحياة هى ليالى وجع

الضرس. لا تنفع فيهِ الأقراص، ولا الكمّادات، ولا الكونياك؛ ولا تفيد فى التسريةِ عنك سيجارة أو جريدة أو راديو أو أى شيء آخر. لا تجد أمامك حلاً سوى الضغط على الفك بالمخدة والصبر على المكروه حتى يظهر نور الصباح لكى تنطلق من فورك، مسرعًا كالقط، للبحث عن خالع الضروس. أو بالأحرى «طبيب الأسنان»، كما تقول اليافطة المعلقة على باب عيادته. يُدخل الملقاط (وبرّة)، انتهت الأوجاع. هذا هو العلاج الوحيد الناجع بالنسبة لما يخص الفم؛ الوحيد المضمونة نتيجته، لا المسكّنات ولا المضمضة بالأعشاب.

نظر إلى وجوه الجميع ثم سكت. نظر بعد ذلك إلى أصابعه التى تعبث فى كُمّ السترة. كان يلاحظها بفضول، كأنها حيوانات صغيرة طليقة وغير خاضعة لتحكمه، وهى (تتشاقى) وتمرح مع الأزرار المذهبة للبلدية. كان يصل من الحديقة صخب عارم. قال أماليو:

ـ الهياج على أشدّه، هناك فى الخلفية.

ـ عنفوان الشباب– ردّ عليه القروىّ–. المرحلة التى مررنا بها تقريبًا.

- إنها هى. مرحلة الغياب عــن الــوعى؛ التــصرف كالمجــانين ولا شىء أكثر.

ساد الصمت. قال السائق بعد ذلك:

- صُب كأس الوداع، يا سيد موريثيو. لقد حانت ساعة الرحيل.

أخذ موريثيو الزجاجة وملأ الكئوس:

- تجرّع...- نظر ناحية الباب-.

كان دانييل داخلاً؛ سأل:

- هل هم هناك بالداخل؟

نظروا جميعًا إليه.

- أخبرنى، هل مازالوا هناك؟

- نعم، نعم موجودون هناك- أجاب موريثيو-. هل حدث شىء؟

- مصيبة.

دلف من بين الآخرين مسرعًا، ويمم شطر الدهليز.

- انظر لمنْ جاء!- قال له لوكاس لدى ظهوره بالحديقة-.

ـ جئت فى الوقت المناسب!- صاح فرناندو-. هل أتيتم جميعًا؟

ـ كنا على وشك الذهاب.

ـ ميجيل!- نادى عليه دانى-. تعال يا ميجيل.

اعتراهم القلق.

ـ ماذا حدث؟

ـ أريد التحدث مع ميجيل.

كان ميجيل قد غادر المائدة. أخذه دانييل من ذراعه وابتعد به نحو منتصف الحديقة.

ـ ماذا حدث؟- قالت أليثيا-. كثير من الألغاز والأحاجى.

ـ إنها الرغبة فى إثارة فضولنا.

ـ لا. قلبى يحدثنى بأن شيئًا ما قد وقع. لقد حدث شىء! واضح على ميجيل...!

سكتوا جميعًا. كانوا معلقى الأبصار بالاثنين الآخرين، اللذين يتحدثان تحت ضوء اللمبة، فى وسط الحديقة. كان دانييل معطيًا

ظهره. شاهدوا فى الحال تعكر وجه ميجيل وكان قد أمسك بكتفى الآخر وأخذ يهزهما وهو يكلمه. «أليثيا، تعالى، تعالوا جميعًا»، صاح فيهم، «حدث شىء مرعب». حضروا مفزوعين، والتفوا حولهما. كان ميجيل ينظر إلى الأرض. ساد الصمت، انتظارًا لكلماته:

ــ أخبرهم أنت...

أخذت ميلى تصرخ وتهز ذراعى كليهما، طالبة منهما أن يتكلما ويُفصحا فى الحال عما يعرفانه مهما كان. أحنى دانييل رأسه: «غرقت لوثيتا فى النهر». انتفضوا جميعًا. واجهوا دانييل: «ولكن كيف؛ ولكن كيف، بربك؛ كيف حدث هذا...»؛ كانوا ينشبون أظفارهم فى قميصه: «يا دانييل...!». أخذت ميلى رأسها بين يديها:«كنت أعرف، كنت أعرف أنها لوثيتا! كنت أعرف أنها هى لوثيتا...!».

ــ منذ وقت قصير. عند السدّ. كانوا يستحمون.

ــ يجب أن نهبط فورًا– قال ميجيل–.

ــ هل هى إحدى الفتيات التى كانت قادمة معكم؟– كان يسأل فتى أتونشا، من موقعه خلف المتحلقين–.

- اتركنى الآن...!- قال فرناندو-. هيا بنا يا دانييل، هيا بنا حالاً ولو إلى آخر العالم...

اتجهوا نحو باب الدهليز. همّت ميلى بالسير خلفهم.

- لا تذهبى أنت- استوقفها زكريا-. الأفضل ألا تذهبى. أنت سريعة التأثر، ولن تتحمل أعصابك.

- ولكن ماذا...!- قالت له، منعمة النظر فى وجهه-. كيف لا أهبط معهم! ما هذا الذى تقوله! كيف تطلب منى ألا أراها، يا زكريا...! لقد كانت معنا منذ...- أجهشت بالبكاء- هنيهة، يا إلهى، منذ هنيهة كانت معنا...! كيف لا أذهب إذن، يا زكريا...كيف لا أذهب... كيف لا أذهب...!

ابتعدت مجموعة ليجاثبى وشرعت فى لملمة أغراضها.

- لن نهبط معهم- قال لوكاس-؛ من أجل ماذا...؟

- الأفضل لنا المشى الآن. ما زال هناك متسع من الوقت للحاق بالقطار. هاتِ الفونوغراف، هيا.

اقتربت ماريايو من زكريا:

ـ اذهب معها يا زكريا – قالت له–. لا تشغل بالك بى، سأرجع إلى مدريد مع صمويل ومع هؤلاء. لا تتركها، هيا امشيا. حقًا...

نظر إليها:

ـ أشكرك على هذا، يا ماريايو.

ـ هذا هو التصرف الطبيعى، وأقل واجب...– قالت له ثم اتجهت نحو الآخرين–.

مشى زكريا وميلى فى إثر ميجيل وفرناندو وإليثيا الذين خرجوا مع دانييل، فى الطريق إلى النهر. بقى الآخرون مع مجموعة ليجاثبى من أجل اللحاق بالقطار. انتهوا من لملمة أغراضهم كلها ومشوا الهوينى ناحية الدهليز. لم يكن الذين خرجوا أولاً قد توقفوا بالمحل، بل اجتازوه مسرعين؛ والآن يستعلم موريثيو من الذاهبين إلى المحطة:

ـ ماذا حدث يا فتيان؟

ـ غرقت إحدى الفتيات فى النهر– أجاب فتى أتوتشا–.

ـ اللعنة! هذا أسوأ شىء يمكن أن يحدث– هتف القروىّ، مميلاً رأسه–.

- وأية فتاة هى؟

- لا يمكننى إخبارك، لأننى لا أعرفها. كانت قادمة مع هؤلاء الآخرين. ربما يعرفها أحد هذين- أشار إلى صمويل وماريايو-.

- أليست هى التى كانت قادمة على الموتوسيكل؟

- إيه؟، موتوسيكل؟- قال صمويل-. لا، هذه تُسمى بولينا؛ الأخرى أكثر نحافة، وشعرها كستنائى...

- التى كانت ترتدى ثوبًا أزرق؟

- لا أدرى ماذا كانت ترتدى، لأننى لم أرها اليوم. اسمها لوثى...

- صاحبة الثوب الأزرق اسمها كارمن- تدخلت ماريا لويسا-. ليست هذه أيضًا.

- الأخرى، كما قلت لك، نحيفة، ووجهها هكذا قليلاً... لا أدرى أية أوصاف يمكن أن أذكرها لك...

- اسمع، ما هو الحساب الذى علينا؟- سأل فيديريكو-.

التفت نحوه موريثيو:

- وهل توجد (نِفْس) لأخذ الحساب؟

هزّ الراعى رأسه:

ـ الصبر جميل!- قال-. لا يمكن أن يفوت حفل بسلام أبدًا. لابد أن يحدث فيه دائمًا ما يعكر صفوه ويفسد بهجته. انظر من أين يجب أن...

لحق زكريا وميلى بدانييل والآخرين، بعد تجاوزهم بساتين الكروم. كانوا يمشون بسرعة وفى صمت؛ يجرون تقريبًا. همّ ميجيل بالتوجه إلى السلّم الطينى الصغير الذى صعدوا عليه عصرًا، ولكن دانييل استوقفه:

ـ من هنا لا، يا ميجيل؛ بل من هذا الجانب الآخر.

هبطوا ناحية الاستراحات والقنطرة الخشبية الصغيرة. صخبت خطواتهم على الألواح. وصلوا إلى نهاية منطقة الأشجار. برزت عندئذ خيالات الآخرين، وفى مقدمتها خيالا الشرطيين، اللذين تعرفت ميلى، وبنظرة خاطفة، على وجهيهما تحت ضوء القمر. خفّت بولينا للقائهم.

ـ أليثيا، أليثيا...- كانت ميلى تصرخ وتبكى من جديد لدى عناقها لبولينا-.

وصل الآخرون إلى الجسد المسجى للوثيتا.

ـ لا تقتربوا منها!– قال الشرطى الأكبر سنًّا–.

ولكن ميلى أقعت إلى جوار الجسد وكشفت الغطاء عن الوجه. جاء سيبس ووقف إلى جوار ميجيل ثم أمسكه بقوة من ذراعه دون أن يقول شيئًا؛ اكتفى بسند جبهته على كتف الآخر الذى كان ينظر إلى الجثة. قدم الشرطيان إلى ميلى ورفعاها من ذراع:

ـ ابتعدى يا آنسة، ألم تسمعينى؟، ممنوع اللمس.

التفتت بغضب، محاولة التملص منهما:

ـ اتركنى! لا تلمسنى! دعنى وشأنى...!

وعندئذ تحلقوا جميعًا حول الجثة، وأخذوا ينظرون إلى الوجه المكشوف، الذى لا يستره سوى الشعر. تيتو وحده هو الذى لم يتحرك، بمرفقيه المغروزين فى الرمال. عادت ميلى للانحناء فوق وجه لوثى.

ـ من فضلك يا آنسة! أطيعينى وابتعدى من هنا– أمسكها ثانية من ذراعها–. إذا لم تستجيبى...

ـ دعنى، أيها الحيوان الهمجى...!- صرخت فيه باكية، وهى تتململ وتضرب اليد المتشبثة بذراعها.

ـ لا تشتمى يا آنسة! تمالكى نفسك حالاً. لا تجبرينا على اتخاذ إجراء ضدك.

اقترب زكريا والآخرون.

ـ حثالة، مجرد حثالة...!- كانت تصيح ميلى بعد أن أصبحت طليقة-. حثالة...! ألا ترى كيف يتصرفان، يا زكريا، ألا ترى كيف يتصرفان...؟

انسحبت باكية نحو كتف زكريا. كان يمر القطار: الكشاف الأبيض، وسرْب النوافذ الصغيرة، بأعلى القنطرة.

ـ سوف تعطينى اسمك حالاً يا آنسة- قال لها الشرطى جوميرسيندو، وهو يُخرج نوتة من جيبه العلوى-. ستعرفين معنى إهانة «السلطات».

انحنى الشرطى الآخر فوق الجثة، ليغطيها من جديد. اقترب الطلاب:

ـ استسمحك فى لحظة– تدخل طالب الطب–؛ من حق حضرتك أن تقول لي منْ أمرك بالتدخل... ولكن الفتاة مفزوعــة، كمــا هــو واضح، من جرّاء الصدمة التى ألَمّت بها...

ـ نعم، نعم، أتفق معك؛ مفهوم أن أعصابها منهارة وكــل شــىء؛ ولكن هذا لا يعطيها الحق فى توجيه السُّباب للآخرين، وعلى وجه الخصوص نحن، لكوننا نمثل ما نمثله.

ـ أعرف، ولك الحق كله– ردّ الطالب بصوت استرضائى–؛ الشىء الوحيد الذى أودّ قوله هو إن فقدان الكنترول فى مثل هذه الحالات شىء طبيعى ومغتفــر، لاســيما إذا كــان مــن فتــاة متــوترة الأعصاب...

ـ ولكننا، كما تفهم حضرتك أيضًا، لسنا هنا إلا مــن أجــل تنفيــذ الأوامر، والتعليمات المناسبة التى تنــدرج تحتهــا هــذه الحالــة الطارئة. إن المسئولية الملقاة على عاتقنــا أكثــر مــن كافيــة، ولا تحتمل أن يُضاف إليها تطاول الآخرين علينا، وبالطريقة التى فعلتها هذه الآنسة.

ـ أنا متفق مع حضرتك تمامًا، ومُقَدِّر لما تقول؛ أنا لم أقصد ســوى طلب الرِّفق من حضرتيكما وتفهم الصدمة التى تلقتهــا وجعلتهــا

تخرجَ عن شعورها ولا تزن ما تقول. هذا ما أقصده فحسب، أن تعذراها وتصفحا عما بدر منها.

- نعم، نعم، نحن نتفهم بالطبع، ولكن هذا كله، (شوف) حضرتك، هذا كله أمر فى غاية الجدية، كما تعرف جيدًا، وإن كان الناس لا يدركون فى معظم الأحيان مدى جديته، ولا يعرفون أن الشرطى موجود هنا لتنفيذ مهام وظيفته، التى لم يعينوه فيها عبثًا وإنما لشىء ما، أليس كذلك؟. ورغم هذا يأتى كل منْ هبّ ودبّ معتقدًا أن هذا محض لعب، أليست هذه هى الحقيقة؟ وبالطبع لا يعرفون أن ما يقترفونه هو جريمة خالصة؛ جريمة يُعاقب عليها «القانون»، لا أكثر ولا أقل. أخبرنى إذن إن كان بوسعنا التهاون أو العبث...

عاد لحفظ النوتة فى جيبه:

- عفونا هذه المرة؛ أما فى المرة الثانية فقد عُرفت الآن العاقبة. يجب أن نزن أكثر قليلاً الكلمات التى تخرج من أفواهنا؛ لأن مجرد الانفعال ليس عذرًا أيضًا لكى يتفوه المرء بما يشاء. وهكذا فالكل لديه عِلْم الآن.

ـ هيا- تدخل الشرطى الآخر-؛ انسحبوا جميعًا من هنـا، ولنـدع الحفل فى سلام. هيا.

ـ من فضلكم- قال الشرطى الأكبر سنًا-، ليرجع كل واحد منكم إلى مكانه. أطلب منكم التحلى، من الآن فصاعدًا، بالاتزان الواجـب، وبمراعاة الاحترام المعهود للجثمان، وللأشخاص الـذين يمثلـون «السلطات» أيضًا. لن يتأخر السيد القاضى كثيرًا فى المثول هنا.

انسحبوا وتجمعوا بالقرب من تيتو. كانت ميلى قد هدأت وسكن روعها.

ـ إنهم الذين ألقوا بأنفسهم فى الماء لإنقاذها- كان يـشرح سـيبس بصوت خفيض-. فعلوا ما فى وسعهم، ولكن سبق السيف العزل.

جلس دانييل إلى جوار تيتو، على الرمال. رنّـت مـن جديـد خطوات على الألواح الخشبية. كان خوسيمارى عائدًا.

ـ نزلنا النهر للاستحمام- استمر سيبستيان-، وإزالة الطين العـالق بأجسادنا؛ لا شىء: النزول والخروج. كانت هى التـى اشـتكت وقالت إنها متضايقة من كثرة الطين العالق بها- أخذ جبهته بيديه

المتشنجتين–؛ وكنت أنا قرين السوء لموافقتى على الفكرة! كل مرة، يا ميجيل، يرد فيها على خاطرى أنه كان بوسعى الرفض... أقسم لك أن الرغبة تواتنى فى ضرب رأسى بحجر...– توقف ثم ختم بعد ذلك بنغمة منطفئة–: لنرى إذا كان سيأتى الآن هذا القاضى.

كانوا جميعًا صامتين، ينظرون ناحية الماء، جهة الأضواء البعيدة المتناثرة. وصل خوسيمارى إلى رفاقه، بعد اتصاله الهاتفى:

ـ كل شىء على ما يرام– قال لهم–: أخبرتهم، وببساطة، أننا سنعود متأخرين لأننا لم نلحق بالقطار الأخير. لم أتورط بقص شىء من هذا عليهم، حتى لا أثير هلعهم وأجعلهم يضربون أخماسًا فى أسداس.

ـ حسنًا ما فعلت. أنت تعرف كيف تكون العائلات؛ يكفى أن ترد على لسانك كلمة«غريق» لكى تتناوشهم الأفكار والتكهنات الحمقاء، ولا يبارحهم الخوف حتى يرون سحنتك. سوف نحكى لهم غدًا ما جرى.

- وهؤلاء كلهم، منْ يكونون؟

- لقد جاءوا للتوّ. إنهم على ما يبدو، أصدقاء آخرون للفتاة.

- مفهوم.

أخذ الشرطيان يتمشيان من جديد.

- حدثت مشكلة معهما فى أثناء اتصالك بالهاتف.

- والسبب؟

- أبدًا، إحدى الفتيات وجهت السُّباب إلى حارسى الدَّرك، لأنهما منعاها من كشف الضحية لرؤية وجهها: بمجرد أن سحباها من ذراعها وعينك (ما تشوف) إلا النور!، التفتت إليهما كالفهد (وهات يا شتيمة)، فما كان منهما إلا أن أخرجا النوتة وأصرّا على تدوين اسمها، لولا تدخل هذا وإقناعهما، وبطريقة دبلوماسية خالصة، بالعفو عنها.

- إنهما يريدان حمل هذا الأمر بدقة زائدة عن الحد. يجب الوضع فى الاعتبار أيضًا أن الناس ليسوا من حجارة، كما يبغيان.

- يا رجل، إنه ليس طبقًا شهيًا على الإطلاق هذا الذى هبط فجأة على رأسيهما- قال صاحب الهارمونيكا-. إن رجل الشرطة

هو أول المتكدرين في مثل هذه المواقف. سوف تتفهم مدى معاناته عندما تُدرك حجم المشكلة الملقاة على عاتقه، وكمية الأوراق والمستندات التي يجب عليه استيفاؤها بخصوص الجثمان، صابرًا على المكاره حتى النهاية، وهذا رغم ضآلة ما يتقاضاه من راتب. احكموا أنتم.

ـ نعم، هذا أيضًا صحيح، وواضح. اسمع، هل بقيت معكم سجائر؟

كان الآخرون قد جلسوا كلهم تقريبًا. ميجيل وفرناندو فحسب كانا واقفين. كان زكريا إلى جوار ميلي، ينظر إلى الخيالات في ضوء القمر، ويداه تعبثان بالرمال.

ـ لا أصدق!- قال فرناندو-؛ إنها أشياء لا يهتدي المرء لإقناع نفسه بحدوثها. لقد وقعت، ها هي أمامي، أراها، ورغم هذا لا أعيها ولا يستوعبها عقلي، حقيقة.

لم يقل ميجيل شيئًا. رفع زكريا يده وجعل الرمال تنثال من بين أصابعه. شاهد ضوء عود الثقاب في مجموعة الطلاب الخمسة؛ كانوا يتناقلونه فيما بينهم، مشعلين السجائر.

ـــ لو شاهدت الجماس الذى كانوا قادمين به هذا الصباح...

ـــ إنها الحياة- قاطعه ماكاريو-؛ ليس لها أمان، تباغتك فى اللحظة التى لا تخطر لك على بال. عندما تغفل عنها قليلاً، زاسْ![*]، تكون قد لسعتك بسوْطها.

ـــ هل كان بوسْع أحد أن يقول لتلك الفتاة، عندما دخلت من هذا الباب صباحًا، إنها لن تعود، وإنها جاءت لتبقى إلى الأبد؟!

ـــ إلى أبد الآبدين، وجنة الخلد، آمين- قال الراعى-. ومنْ كان سيقول لوالدها، عندما ودّعها وهى خارجة للرحلة، إنها المرة الأخيرة التى يراها فيها، وإنها القبلة الأخيرة التى يطبعها على جبينها؟

ـــ لقد قلته حضرتك! هذا! هذا ما يشغل تفكيرى- انبرى قائلاً فجأة الرجل صاحب الحذاء الأبيض، بصوت معتم-. رؤية الوالدين لابنتهما تتلاشى، هكذا،مثل ومْضة البرق... رؤيتها وعدم رؤيتها فى آن واحد، مثل ومْضة البرق تمامًا. أما إذا سبق الاختفاء

(*) «زاسْ» : محاكاة لفظية لصوت ضربة السَّوْط – المترجم-.

مرض، طويل أم قصير، وبالطبع فالوجع هو نفسه، منْ يقدِر على إعفائنا من وجعه، فهذا شيء مختلف تمامًا. يختلف عن رؤيتك لها، يا سيدى، هذا الصباح، حيّة ومفعمة بالنشاط، وربما تكون قد وضعت لها على المائدة الشوكة والسكين والملعقة لكى تتناول العشاء فور عودتها، كما فعل بالتأكيد والدا هذه الفتاة التى ماتت منذ قليل؛ لأنك مازلت تعدّها في مملكة الأحياء؛ وفى ثانية، بل فى أقل من الوقت الذى يستغرقه قوله، كاتا بلوم!، مثل رنّة الهاتف أو التلغراف... الآن، لم تعد موجودة– حرّك يده بإشارة تفيد الاختفاء–. هذا يرعبنى.

- بلا أدنى شك– قال السائق–. وقْعه مخيف.

تابع صاحب الحذاء الأبيض:

- ولذا فعندما يموت أحد ويشرعون فى النَّدْب عليه «يا لهفى على المسكين»، «يا لهفى على المسكين»، أقول لنفسى: وماذا عن الآخرين ؟ عن الذين بقوا على قيد الحياة بعده؟. فهؤلاء هم الذين تلقوا، فى الحقيقة، طعنة الخنجر، ولكنها نافذة إلى الكبد!. إنهم الذين يستحقون الرثاء. معلوم أن الفتاة عانت من لحظات كرْب

رهيبة؛ ولكنها الآن لا تعانى، لأن زمن المعاناة مضى وانتهى.
أما الوالدان فإنهما اللذان يستحقان الشفقة، لأن ما حدث سوف يؤلمهما، ألمًا حقيقيًا.

- كيف يمكنك قول هذا!- احتج القروىّ-. هل هذه طريقة للتفكير! كيف تجعل أبوين طاعنين فى السنّ، بقى لهما القليل جدًا أو لم يبق لهما على الإطلاق رحيق يستخلصانه من الحياة، أولى بالشفقة من فتاة تحطمت حياتها فى أوْجها، لدى شروعها فى الاستمتاع بمباهج الحياة ؟ ما علاقة هذا بكونها ودّعت المعاناة! لقد ودّعت هذا العالم أيضًا فى اللحظة الأكثر جيشانًا والأكثر ملاءمة للتلذذ بالحياة. محل الشفقة يجب أن يكون هنا، لأن مصيبتها أعظم مائة مرّة من معاناة الوالدين. لا وجه للمقارنة!

- لا، يا صديقى، وجهات نظرنا متباينة، كما ترى. أنا، ومع احترامى لما تقول، يهمنى الجانب العملى فيما حدث. ما تدافع عنه، رغم شدّة ما يستحقه من أسى، مات وانتهى. أما الجانب الآخر فهو المستمر: معاناة الوالدين فيما بقى لهما من حياة.

- لا، يا سيدى، لا، لا تتشبث برأيك! أنت لا تنظر إلا إلــى جانــب واحد: الوالدين. ولكنهما، برغم ما تلقيه على كاهليهما مــن ألــم عميم، سوف يتعافيان ذات يوم، سواء بعد عشرة أو اثنى عـشر شهرًا، أو سنوات لو أردت، أم أنهما لن يتعافيا؟. وعلى عكس هذا الفتاة، فهى التي لن تقدر قط على استرداد ما ضاع منها، كل مــا سلبه الموت منها، فى أى يوم من الأيام. لا يوجد منْ يُعيد إليهــا كل هذا، أليست هذه هى الحقيقة؟. كل مصيبة ما عدا الموت يمكن البرْء منها، عاجلاً كان أم آجلاً.

- من الواضح- قال كارميلو- أنه لا يمكن ترجيح وجهة نظر على أخرى فى هذه القضية. لا تستطيع الإمساك منها بجانب. إنها فى غاية السوء من الجهات الأربع مثل ضيعة «الجمعية التعاونيــة». مكتفية بسوئها، ولا تحتاج منك إلى دليل أو برهان. والشيء نفسه موجود فى ذلك الموت المقزز والمدهونَ بالطين، بحيث لا يمكــن إصابته بخدش.

استمر القروىّ، متوجها إلى صاحب الحذاء الأبيض:

- لو كان الأمر يتعلق بإحدى العجائز لأعطيتك الحق كله، أقسم لك. أما إذا كان يتعلق بفتاة فى ميعة الشباب، مثل التى نتحدث عنهــا الآن، فالمسألة مختلفة تمامًا. لا يوجد ولا حتى وجه شبه.

ـ ما أنا لست متأكدًا منه- قال لوثيو- هو إذا كانت حياة الشبان تستحق الأسى والحسرة بأكثر من حياة المسنين. إذ يبدو لي أن التشبث بالحياة يزداد كلما تقدم العمر. أنا لا أنكر أن الباقى لكبار السنّ شيء قليل، ولكن منْ يقول إن المرء لا يتشبث بهذا القليل بشراهة ونهم يفوقان تشبثه بالكثير فى مرحلة الشباب؟

نظر إليه صاحب الحذاء الأبيض نظرة موافقة؛ ولكنه عندما همّ بالإجابة سبقه السائق، قاطعًا عليه الطريق:

ـ حسنًا، لقد تسلى المرء بما فيه الكفاية. منذ فترة وأنا أود الانصراف، ومازلت إلى الآن قابعًا هنا. وهكذا فإن خادمكم المطيع يلقى عليكم بالتحية لينطلق من فوْره. حسابى مدفوع، حقًا يا موريثيو؟

ـ فى أمان الله.

ـ إلى اللقاء غدًا.

ـ لن أكون هنا غدًا- قال، ملتفتًا من على عتبة الباب-. ولا بعد غد، بالتأكيد. أنا مسافر إلى ترويل، ومن المحتمل جدًا ألا أعود قبل يوم الأربعاء أو الخميس.

ـ رحلة طيبة، حينئذ.

ـ شكرًا، إلى اللقاء.

وخرج.

ـ وهذا أيضًا- قال لوثيو- حياته كلها صاخبة...! اليوم فى ترويل، وغدًا فى سرقسطة، وبعد غد فى بلاد تركب الأفيال. لا يتوقف ولا يرتاح، الرجل.

ـ (ما تقولليش)!- ردّ ماكاريو-. سلطان زمانه، يعيش الرجل. تعجبنى هذه الحياة. أتمنى أن أرى، ولو حتى من ثُقب الباب، هذا العيش الرغد الذى يتقلب فيه بتلك العواصم- حياة (هِشّك بِشّك)، كما يُقال-. عبث جمّ؛ لدىّ أخبار عنه. السائقون، مثل البحارة، وتعرف حضرتك الباقى.

ـ لا أعتقد هذا. ترهات، لن يزيد الأمر عن تناول كأسين من البيرة. لماذا تُسيء الظن؟

ـ بيرة! إنى أقول فحسب: أتمنى رؤية هذه الحياة، لأعرف إذا كانت بيرة أم ماذا غيرها. وحتى لو كانت بيرة، فإنها تتطلب مالاً

لشرائها ومعدة سليمة لاستقبالها. آخرون يدهم قصيرة أو تعساء بما فيه الكفاية، لأنهم لا يجرؤون على (البحْبحة) واختلاس خمسة «دوروس» ملعونة من نفقات الأسرة. إنه يتقدمنا بمسافات، ويفعل كل ما يشتهيه.

- (شوف)- قطع عليه موريثيو الطريق-؛ إنه أحد زبائنى، ولا يعجبنى أن تُطلق عليه الإشاعات فى محلّى، يا ماكاريو. ومن ثمّ اعمل فىّ معروف ودعك من القيل والقال، أرجوك.

- إنهم يتناقلون هذا الكلام فى كل الأماكن والبارات.

- الناس مولعة بنسج الحكايات- قال موريثيو-. هم وشأنهم؛ أما خلف هذه الأبواب فغير مسموح بتاتًا اغتياب أحد. أىّ شخص أسمح له بدخول محلّى، هذا الشخص، يجب أن يكون متأكدًا تمامًا، ومنذ لحظة قبوله زبونًا، من أن اسمه سيكون محترمًا، حاضرًا كان أم غائبًا. ومن جانبك، ينبغى أن تكون شاكرًا لهذه الضمانات وسعيدًا بها، لأنها تشملك أيضًا. ولذا أناشدك باحترام الآخرين.

- أنا لا أتأثر، ولا يفتّ فى عضدى ما يتقولونه عنى- قال الآخر، ضاحكًا-. تفقد المحلات نصف بهجتها إذا لم يُسمح فيها بالقيل والقال.

ـ اسألنى أنا– تدخل صاحب الحذاء الأبيض، بصوت اعتبار وموعظة– عن البهجة التى أحدثتها هذه الأشياء فى صالونى للحلاقة. إنها لم تبهجنى على الإطلاق، أقسم لك. ولو أن كل المحلات المفتوحة للجمهور، سواء كانت للحلاقة أو التسلية أو...، اتبعت السنّة التى سنّها موريثيو لمحلّه، سوف تختلف السلوكيات والتربية كثيرًا، بما يضمن احترام المواطن. ولا تظن أن العلاقة الاجتماعية بين الرّواد ستفقد شيئًا نتيجة لهذا الالتزام الأخلاقى، بل سيكون التعامل بيننا، نحن البشر، أكثر تحضرًا ورقيًّا.

ظهرت فاوستينا على باب الدهليز:

ـ أنت، ولكن أين ذهب هؤلاء الناس؟. خرجتُ إلى الحديقة للملمة بعض ما هنالك، معتقدة أنهم مشوا، ولكن دراجاتهم مازالت موجودة.

ـ اسكتى، لقد حلّت بهم مصيبة، ألا تعرفى؟. لقد غرقت إحدى الفتيات.

ـ ولكن، ماذا تقول؟ من التى غرقت؟ إذا كانوا هنا فى الحديقة...

ـ فتاة أخرى، يا امرأة، أخرى. لم يصعدوا جميعًا، بل بقى البعض منهم فى النهر.

- آى، رحمتك يا رب...!- كانت تهز رأسها-. يا له من حادث مروّع...! كان لابد أن يحدث لهم شىء...!. إنهم بلا عقول، وغير مسئولين بالمرّة، كيف لا تحدث لهم مصيبة؟. لا أستغرب ما حدث، لا أستغربه... يعلم الله كم أنا آسفة، ولكنى لا أستغرب حدوث هذا، ولا ما هو أكثر منه.

اتجهت مرة أخرى نحو الدهليز وهى تهمهم. قال لوثيو:

- سترى ما عليه وجوههم الآن حين يصعدون.

- مكفهرة بالطبع.

مرّت لحظات صمت.

تحدث بعد ذلك موريثيو:

- هذا النهر غادر. يبتلع أحدًا فى جوفه كل عام.

- كل عام- قال الراعى-.

ومن بعده القروىّ:

- ودائمًا من مدريد. (شوف إزاى): لابد أن يكون من مدريد، لا يعجبه الآخرون. يبدو وكأنه يصفّى حساباته مع المدريديين.

- صحيح- علّق ماكاريو-. إنـه يعـرف القـاطنين حولـه هنـا، ولا يتعرض لهم بأذى.

- بل قُلْ إنهم هم الذين يعرفونه، ويعرفون مزاجه وما جُبل عليه.

- صدقت- قال الراعى، أماليو-. إنه أرفع مقامًـا، لكونـه نهـرًا، بحيث لا ينزل من عليائه لكى يتعرف على أحَدٍ أو ليقيم وزنًا لأى مخلوق. فى (عزّ) الصيف، كما هو الحـال الآن، وشـبه فـارغ تقريبًا، ورغم هذا يفعل أيضًا ما يعنّ له: عندما تسنح له الفرصة، يعلّق الواحد من قدمه، وإلى الداخل!، مبتلعًا إيّاه؛ ولكن فى طرفة عين، كما لو كان جائعًا. ومن يمسك به يُطبق عليه جيدًا، بحيـث لا يُفلته ولا يستطيع أن ينقذه من بلعومه ولا حتى طرزان ذاتـه، بلبدته المتطايرة، وسكّينه المعلَّق فى خاصرته، وقماطه المتخذ من وبَر النمر.

- نعم، نعم، إنه كـائن خطيـر- أضـاف القـروىّ-، واسـتهانة المدريديين به تكلفهم الغالى والنفيس. ما يحدث هو أنهم يتعلمـون العوْم فى حمامات السباحة ثم يأتون إلـى الخرامـا للممارسـة، وعندما يرون أنه ليس عميقًا ولا يغطى من أجسادهم نصف مـا

تغطيه الحمامات يطمئنون ويركنون إلى الثقة، معتقدين أن الجبل كله رياحين. صحيح أنه لا يكون عميقًا فى الصيف، يا صديقى؛ لكنهم لا يدرون أن مياه هذا النهر لها أيادٍ وأظفار، مثل الدويبات الضارة، تخطف بها الأشخاص وتلتهمهم فى غمضة عين؛ هذا ما لا يعرفونه.

ــ لا تحدثنى عن الفارق بينه وبين حمام السباحة- قال أماليو-. حذار، توجد هنا منعطفات. هذه المياه تتألف من سبع طبقات، وبكل طبقة منحنياتها وبطاناتها البينية وطيّاتها. إنه مثل شىء حي؛ أكثر خداعًا من وكْر ثعلبة وأشد سوءًا، كما لو كانت كوْمة أفاعى وليست مياهًا هذه التى تجرى فى قاعه. هذا النهر شخص لا يمكن الوثوق به على الإطلاق، لأنه مزوّد بكمّ هائل من المراءاة، للمداراة على سرّه الدفين- كان يضحك-.

وقال القروىّ:

ــ فى الشتاء، يجب أن يأتوا فى الشتاء لرؤيته، عندما يمتلئ ويصبح مثل النِّحام[*]، ليعرفوا أى نوع من الأشخاص هذا الذى ينفقون عليه فلوسهم.

(*) النُّحام: طيور على خِلْقة الأوز، لها رقاب طوال ومناقير معقوفة، ولكلٍّ رجلان طويلتان، وتعرف فى مصر بالبَشَروش. واحدته: نُحامة – المترجم-.

ـ أحسنت قولاً- وافقه الراعى-؛ فى اليوم الذى تداهمنى فيه إحدى فيضاناته المعروفة فى شهر مارس، أراه منتفخ الأوداج مثل ديك على أهبة الاستعداد للمعركة. يطنّ ذنبه ويئز من جرّاء الفيضان، ويجرف أمامه بستانًا، بأشجار فاكهته وسوره، ثم يهرسه كله ويدعه لك بعد ذلك ركامًا وأنقاضًا، تصلح لأن تكون شاطئًا كاملاً، لا تنقصه سوى المظلات وتلك الأكشاك الملوّنة التى يضعونها فى نقاط التصييف، أليس هذا صحيحًا؟

ضحك الحاضرون. علّق القروىّ:

ـ وبعد ذلك لا يصدقون أنه مزوّد بأظفار وأيادٍ، وهو يقتلع لك حتى الأشجار من جذورها. لنرى إذا كان الماء، فى حدّ ذاته، قادرًا على فعل هذا ولو مرّة.

ـ لا يمكنه- قال أماليو، الراعى-.

نظر إليهم، مبتسمًا فى صمت؛ ويداه معتمدتان على الهراوة، أمام بطنه المقعّرة، والمنكمشة خلف اتساع بنطاله المتخذ من القطيفة الضاربة للاصفرار. ومتكئًا هكذا، كان كتفاه مرتفعين، بسبب قامته

القصيرة، مُبرزين ومحددين العظم فى أعلى طرفى القميص. كانت رأسه المفلطحة مدفوسة بين الكتفين، وعندما ابتسم أوسعت الابتسامة أساريره، المضغوطة بين الجبهة الجرداء والضخمة وبين الفكّ ذى الزوايا والأركان الذى يشبه فك الضفدعة.

ـ إنه يتوحش وقتما يريد– قال، متأرجحًا على الهراوة–، ويخوض حربه، بصفته التى هو عليها، وهى لا تناسب جدولاً؛ لا، إنه ليس جدولاً، ولكنه أيضًا ليس من الأنهار الكبيرة. وكما قلت لك، قد يتصادف وأراه هناك فى مارس عندما يبدأ دمه فى التعكر، ويشرع فى التشنج والفوران مثل قِدْر الطبيخ، يركب رأسه فى إخضار أغصان وأحراج، يحملها متقافزة وكأنها تطير فوق التيار، وكتل خشب وأشجار متوسطة الحجم وحيوانات ميتة، من كلاب وقطط وحجلان، ببطون منتفخة مثل المنطاد، ونعاج وحتى أبقار، وبعد ذلك يتركها مطحونة فى المكان الذى يهواه، بعد أن يعتريه السأم من حملها على متنه– كان يتحدث بحيوية–. ومثلما يسلب منك نعجة فى سان فرناندو ليقيم عليها وليمة للأصدقاء فى«باثيامدريد»؛ يقوم بجرجرة طاحونة سُلِت من الجبل ليقيم مصنعًا، حديث الآلات، للدقيق والنّشا فى «آرانخويث» ذاتها. وعليك أن تذهب إلى «باثيامدريد» لتشم فم المياه الأكولة

وتجشؤاتها بعد التهامها لك، لتعرف إذا كانت نعجتك أم نعجة غيرك. بالهناء والشفاء، إذن، ملعون أبوه- كان يضحك-. ما يسلبه النهر منك يتركه فى المكان الذى يحلو له، لكى يلتقطه بعد ذلك سعيد الحظ. إنه يسلب ويحطّ، ويُحدث الضرر، وينظم حفله الخاص للتسلية.

- عجبًا!- قال له لوثيو-، يبدو لي أنك تريد إضفاء الزيادة على مياهه وجعلها تفيض بأكثر مما لم تقدر عليه الأعاصير والأنواء.

- ما يقوله جعلنى أتصور أيضًا أن الفيضان على أشدّه فى هذه الليلة- علّق مورثيو، مبتسمًا-. إذا كان هذا يجرى ونحن فى أغسطس، فلا يُستبعد أن يحمل النهر على متنه المحافظة كلها فى فبراير. أعتقد أنك قد تجاوزت قليلاً.

ضحك الراعى.

- إنه مجرد تصور واختلاق؛ وفى التصور والاختلاق لا ضير من إضافة بعض الأصفار. الأمر كله بمثابة حدوتة، للحكى.

- أرى أنك مولع بتضخيمه- قال لوثيو- نظرًا للغضب البادى عليك، ومن الحماس الزائد الذى تتحدث به عن النهر. وعلى أىّ

حال، يبدو أنك تخشاه ولا تحب أن تدوس له على طرف، أليست هذه هى الحقيقة؟

- أنا أتعامل معه من منطلق الاحترام الواجب- ردّ الراعى-، ومن مبدأ حفظ المقامات. ترطيب القدمين وأنا جالس على الضفة، هذه هى أقصى درجات الثقة التي أوليها له. أما بالنسبة لتلك الحالات التى يتحول فيها إلى ثور هائج ويخرج سائقًا كل ما يجده أمامه، فلم أشاهد منها سوى القليل. يعجبنى المشهد، حقيقة؛ وعلى وجه الخصوص لو صادفنى الحظ ولحقت ببداية الهجوم. إنه مروّع!

- بدون النعاج، على ما أظن.

- يكون القطيع ساعتها محبوسًا فى الحظيرة، بالطبع. آه، لا، لن يأكل الفيضان المزيد من النعاج فى«باثيا مدريد» مادمت أنا الراعى، أقسم لك.

- ولكن كيف أمكنه، مهما بلغت قوة الفيضان، حمل نعجة لمسافة جدّ بعيدة؟

- هذا سهل للغاية- قال الراعى، ضاحكًا-؛ من جهة، للنحافة الشديدة التى عليها النعاج كلها، إذ أن جرادة سمينة بعض الشىء

تفوق الواحدة منها وزنًا؛ ومن جهة أخرى، لأن الأمر مجرد اختلاق. (شوف) حضرتك، هذا كله ليس إلا مجرد حدوتة من جانبى، لجأت إلى اختراعها ذات مرة حين سيّرنى صاحب العمل، والعاصفة مازالت محتدمة فوق الرؤوس، للبحث عن فرْوة شاة سلبنى إيّاها الخراما. قلت له سمعًا وطاعة، سأذهب حالاً، وكما فى لعبة الثلاث ورقات، انصرفت من أمامه وبحثت عن مكان للاختباء فيه وقضاء المساء كله فى التسلية ولعب الكوتشينة، وفى الصباح مثلت أمامه، وأنا فى منتهى الجدية، لأخبره أن الشاة وقعت فى يد بعض تنابلة «باثيا مدريد»، وأنهم باعوا فروتها بأربعة ملليمات لأول مشترٍ؛ ودخلت الفرْية على صاحب العمل وصدّقها بلا تردد؛ ماذا كنت سأفعل له؟، لقد قلت له ما قلته لكى أقطع عنه الرجاء وأُبعد عنه التفكير فى البحث عنها ثانية. المهم أن الرجل بقى مقتنعًا فى النهاية، لأن الجدية التى حدثته بها جعلت الأكذوبة تدخل رأسه. وهذه هى الحدوتة.

رفع الرجل صاحب الحذاء الأبيض رأسه.

- أمتعتنا يا أماليو، وجعلتنا نقضى وقتًا طيبًا- قال له- بهذه الأشياء التى تصورها لنا عن النهر؛ ولكنه أسال اليوم الدمع مدرارًا من مآقى بعض الأشخاص.

ـ هذه هى الحياة– قال الراعى–، لحسن الحظ أو لسوء الطالع. لا يمكن أن تكون إلا على هذا المنوال: البعض يضحك على ما يُبكى آخرين. وما يفعله الخراما ليس وليد اليوم؛ بل إن هذا هو ديدنه منذ لا أدرى كم من الوقت، وعادته السنوية مع القادمين للاستحمام فيه من قبل الحرب الأهلية بسنوات طويلة؛ وفى كل صيف يجب أن يغرق فيه ثلاثة أو أربعة مدريديين. منذ متى كانت آخر مرة فى كوسلادا؟

ـ من أربع سنوات.

ـ وهكذا فقد مضت ثلاثة أصياف على الأقل، ولنرى إذا كان قد فات منها صيف دون أن يقضى مدريديّ نحبه على يد الخراما. إنها بلوى قديمة ومشهورة، تقريبًا عادة. وقد تحققت اليوم. من المعروف أنه كان متربصًا فى هذا اليوم.

ـ وها هى قد أصابت صاحب القسمة والنصيب– قال لوثيو–. مثل القرعة تمامًا.

ـ صدقت؛ ولكن النهر لا يُقلع عن تنفيذ ما فى رأسه– ردّ الراعى–. ولو امتنع الناس ذات يوم عن النزول فيه، فإنه سيخرج للبحث عنهم.

ـ يعملها، نعم يا سيدى- وافقه القروىّ-.

ضحك الراعى:

ـ يا للهول! يخرج النهر من مجراه ويشغل نفسه بالجرى وراء الناس، مثل الأفعوان. ألا يخيفك هذا، يا سيد لوثيو؟

ـ لحمى جاف وصلب. سوف يتفلنى فى الحال.

ـ منْ يدرى، ربما يكون معجبًا بلحم الديك المسنّ- قال القروىّ ثم تثاءب-.

مرّت فترة صمت تناول فيها كارميلو كأسه وأخذ جرْعة نبيذ. أشار لوثيو إلى مورثيو لكى يملأ الكئوس من جديد.

ـ أنت دائمًا متأخر- قال مورثيو لصاحب الحذاء الأبيض-. اشرب الباقى، لكى أملأ لك كأسك-.

ـ لا داعى، لا تصب لي المزيد من النبيذ- أجاب-. بهذه الأشياء يفقد المرء الرغبة فى الشراب.

ـ كما تريد- قال مورثيو، مّبعدًا القنينة-.

ـــ وبأية أشياء تقصد؟- سأل ماكاريو-.

نظر الرجل صاحب الحذاء الأبيض إلى وجه السائل:

ـــ بهذا- أشار ناحية الباب-، هذه الأشياء التى تحدث.

ـــ آه، فهمت.

ـــ قد لا يكون معقولاً، ولكنها تؤثر فى الواحد- شرح، بما يشبه الاعتذار، الرجل صاحب الحذاء الأبيض-. عندما تحدث هكذا، قريبة من المرء، حتى ولو لم يكن له أدنى صلة بها. ضع فى اعتبارك أننى لم أرَ الفتاة حتى؛ ولكن يكفى أن زملاءها قد مرّوا من أمامى هنا، لكى لا يفارقنى الضيق والأسى حتى الصباح. إنه مثل المرارة العالقة بالفم، أو ما أدرانى؛ لا أدرى كيف أشرحه لك.

ـــ فهمت الآن- قال ماكاريو-. هذا يرجع إلى الحساسية ورقة المشاعر التى تختلف، زيادة ونقصانا، من فرد إلى آخر. مثلما يوجد من ينظرون ببرود إلى أشلاء الناس المتناثرة فى حادث أتوبيس، تعترى آخرين، وعلى النقيض من هذا، الحالة التى تنتابك، أو ما يشبهها.

علّق الرجل صاحب الحذاء الأبيض:

ـ المرء يقرأ يوميًا فى الصحف كمًّا هائلاً من الحوادث التفصيلية دون أن تتغير ملامح وجهه؛ وعلى العكس، يشاهد القليل جدًا كالذى شاهدته هنا هذه الليلة، وعَرَضًا تقريبًا، كما يقولون، ويبقى متأثرًا، إذ يسكن جسده ذلك الهاجس المقلق، ولا يوجد منْ يقتلعه منه. إنه مثل فأل سيىء؛ هذا هو، هذا هو التعبير المناسب: فأل سيىء.

ـ حقًا، أتخيل هذا- قال ماكاريو، دون اهتمام بما يقوله الآخر-.

ـ وعلى سبيل المثال، فأنا لن أستطيع تناول عشائى هذه الليلة، انظر إلى أىّ حد بلغ بى التأثر- ختم الرجل صاحب الحذاء الأبيض-. لقد أنسدّت نِفْسَ الواحد عن العشاء.

لمح القاضى بين الراقصين. كانت رأسه الشقراء تعلو على بقية الرؤوس. كانوا يعزفون موسيقى رقصة السامبا. رآه القاضى وأشار إلى صدره، كأنه يسأله: «هل تبحث عنى؟». أومأ بالإيجاب؛ وعندئذ أمسك القاضى عن الرقص واعتذر لرفيقته:

ـ معذرة، يا أورورا، السكرتير واقف هناك؛ سأذهب لأرى فيماذا يريدنى.

ـ عذرك معك، يا أنخل، لا تشغل بالك. الواجب أولاً- ابتسمت بتحفظ.

ـ شكرًا، يا أورورا.

غادر الحلبة، متفاديًا الثنائيات الأخرى، ثم توقف إلى جوار إصّيص كبير الأوراق، حيث ينتظر السكرتير. بادره الأخير قائلاً:

ـ لا يتطلب الأمر كثيرًا من العجلة. كان بإمكانك الانتهاء من الرقصة.

ـ الأمر سواء. ما الخبر؟

ـ اتصلوا هاتفيًا من سان فرناندو، وأبلغوا عن غريقة بالنهر.

ـ اللعنة، يا رجل- قال بإيماءة عبوس-. ومنْ الذى اتصل؟

ـ شرطيا الدَّرك.

نظر القاضى إلى الساعة.

ـ حسنًا. هل طلبت سيارة؟

ـ نعم، يا سيدى؛ إنها على الباب. سيارة بيثنتى.

ـ مرحى، إنها سلحفاة.

ـ لم أجد غيرها. تعرف حضرتك مدى صعوبة العثور على تاكسى فى أيام الآحاد، وبصفة خاصة اليوم لأنه يصادف افتتاح موسم صيد السُّمان.

ـ حسنًا، سأخبر هؤلاء بأننى ذاهب. سأكون معك حالاً.

اجتاز الصالة واقترب من إحدى الموائد.

ـ أنا آسف، يا أصدقائى؛ يجب أن أغادر.

التقط من على زجاج المائدة ولاّعة وعلبة سجائر «فيليبس».

ـ ماذا حدث؟– سألته الفتاة التى كانت ترقص معه–.

ـ غريق.

ـ فى النهر؟

ـ نعم، ولكن ليس هنا فى هنارس، بل فى الخراما، عند سان فرناندو.

ـ وبالطبع، يجب أن ترحل على الفور.

أومأ القاضى بالإيجاب. كان يرتدى بدلة غامقة اللون، بقرنفلة معلقة فى طيتها العلوية.

ـ شىء مزعج حدوث الغرق فى مثل هذه الساعة من يوم الأحد– قال أحد الجالسين على المائدة–. قلبى معك.

ــ هو الذى اختار المهنة.

ــ إذن، إلى اللقاء غدًا– قال القاضى–.

ــ ما زال لديك هنا، انظر. اشربه– نبّهه آخر يضع نظارة على عينيه، وهو يقدم له كأسًا طويلاً تطفو على سطحه شريحة ليمون.

أخذه القاضى من يده وتجرع ما فيه. توقفت الأوركسترا عن العزف.اقتربت من المائدة فتاة تلبس ثوبًا أزرق بصحبة شاب يرتدى سُتْرة فاتحة اللون.

ــ أنخل يجب أن يغادر– قالوا لهما–.

ــ نعم؟ والسبب؟

ــ الواجب يناديه.

ــ شىء يبعث على الضيق؛ كم أنا آسفة!

ــ وأنا أيضًا– قال القاضى–. أتمنى لكم سهرة ممتعة.

ــ إلى اللقاء، يا أنخيليتو.

ــ طابت ليلتكم جميعًا.

حيّاهم بإيماءة من يده واستدار نصف استدارة. اجتاز حلبة الرقص، فى اتجاه السكرتير.

ـــ عندما تريد– قال له دون أن يتوقف–.

خرج معه السكرتير، ومشيا فى دهليز عريض بسقف معلّق، حتى وصلا إلى بَهْو الاستقبال.

حين رآهما الفراش المسنّ، الذى يرتدى بدلة تشريفة بأزرار مذهبة، قادمين ترك سيجارته على جانب ونهض، متعبًا، من على كرسى الخيزران.

ـــ فى أمان الله يا سعادة القاضى، وتمنياتى بقضاء وقت طيب– قال فى أثناء فتحه للبوابة الزجاجية الكبيرة، ذات الحروف المصنفرة–.

سُمعت الموسيقى خلفهم. نظر القاضى للحظة نحو الصالة.

ـــ إلى اللقاء، يا أورتيجا– قال للفراش، لدى اجتيازه عتبة الباب، متوجهًا إلى الشارع–.

كانت تقف سيارة بنية اللون، ماركة «باليّا». كان السائق يرتدى قميصًا وجالسًا تقريبًا على الرفرف. حيّاهما وفتح لهما الباب الصغير. توقف القاضى للحظة أمام السيارة ورفع بصره باتجاه السماء المقمرة. أحنى بعد ذلك جسده الطويل ودخل السيارة. دلف

بعده السكرتير وأغلق السائق الباب. كانوا يرون على اليمين وجه الفراش الذى ينظر إليهم من خلف الحروف المزركشة للواجهة الزجاجية الضخمة: «كازينو القلعة».

كان السائق قد أخذ مكانه أمام عجلة القيادة بعد قيامه بالمرور خلف السيارة. أدار المفتاح عدة مرات ولم يشتغل المحرك. شدّ خانق الهواء (الشفّاط) وعندئذ سُمع هدير المحرك.

- بيثنتى- قال القاضى- عند المرور من أمام بيتى توقف لعدة لحظات، لو سمحت- اتجه إلى السكرتير-. سأخبر والدتى أننا ذاهبون، لكى يتناولا العشاء ولا ينتظرانى.

مروا بـ «بلاثا مايور»(*). لم يكن هنالك أحد، بل طيف ميجيل دى ثربانتس(*) فحسب، على قاعدته الحجرية، نحيفًا، بالقلم والسيف

(*) ميجيل دى ثربانتس سابدرا (١٥٤٧-١٦١٦)، هو الكاتب الإسبانى الأشهر، مؤلف «دون كيخوته» و «قصص مثالية»، فضلاً عن العديد من الأعمال الأدبية الأخرى. أما «بلاثا مايور» فتعنى «الميدان الكبير»، وهو أشهر ميادين العاصمة الإسبانية مدريد، ويقع فى منتصفها تقريبًا. ويبدو أن تمثال الكاتب العظيم كان موجودًا آنذاك (فى منتصف خمسينيات القرن الماضى) بالميدان المذكور، لأنه موجود حاليًا فى «ميدان إسبانيا» الأكثر رحابة واتساعًا - المترجم-.

الصغير، وسط الحدائق الصغيرة، وتحت ضوء القمر الوديـــع. كـــان النور والدخان يخرجان من أبواب البارات، التـــى تُـشاهد بـداخلها المعالم المطموسة للرجال المتجمعين حول طاولاتها. توقفت الــسيارة بعد ذلك.

ـ من فضلك، يا بيثنتى – قال له القاضى- اذهب أنت، وقل للخادمة إننا ذاهبون إلى سان فرناندو، وإننى سأعود بعد حوالى ساعتين.

ـ حسنًا، يا سيدى القاضى.

ترجّل من السيارة وضغط على زر جرس أحد الأبواب. انفـــتح الباب بعد ذلك وتحدث الميكانيكى مع الخادمة التى برزت صـــورتها على العتبة بفعل الضوء الخارج من البيت. انتهى من إبلاغها الخبر، ولكن الباب لم يُغلق لأن صورة امرأة أخرى ظهرت خلف الخادمـــة ثم أزاحتها وعبرت الرصيف فى اتجاه السيارة.

ـ دون عشاء، يا بنى؟- قالت وهى منحنية على النافذة الــصغيرة-. تناول ولو حتى بضع لقيمات. وأنت أيضًا، يا إميليو. تعاليا، أنتما الاثنان.

ـ لقد تناولت عشائى، يا سيدتى، شكرًا جزيلاً- أجاب السكرتير-.

ـ تعال أنت، يا بنى. سوف تتأخر.

ـ لا، يا أمى، أشكرك. لقد تناولت بعض المقبلات فى الكازينو ولست جائعًا. بعد العودة. اتركا لي الطعام مُغطى فى المطبخ.

أخذ السائق موضعه. أومأت السيدة إيماءة استياء.

ـ لا أدرى كيف أتركك تذهب هكذا. ستأتى بعد ذلك وتجده باردًا بحيث لا يطيب لك مذاقه. ستسوء صحتك بهذا الشكل. هيا، اذهبا إذن، اذهبا، ماذا أفعل لكما مادمتما غير راغبين فى الطعام.

انسحبت من أمام النافذة الصغيرة.

ـ إلى اللقاء، يا أمى.

دار المحرك.

ـ مع السلامة، يا بنى– انحنت للحظة لترى السكوتير بداخل السيارة التى شرعت فى الحركة–. مع السلامة، يا إميليو–.

ـ طابت ليلتك، يا سيدتى– أجاب–.

وبعد أن أصبح السائق فى وسط إحدى حارات الشارع أدخل السرعة الثانية، وعندئذ أُغلق خلفهما باب بيت القاضى. ثم أدخل الثالثة

حين بلغ الشارع التالى، لكى يجتاز البوابة الحجرية، متجهًا إلى طريق «مدريد». ظهر، على اليسار، قريبًا وأسود، الحوض المقلوب لقمة «إلبيسو»، التى يتوِّجها القمر بشريط من اللبن البنفسجى.

ــ هل أبلغت الطبيب الشرعى؟

ــ نعم، يا سيدى. قال إنه سيذهب فيما بعد بسيارته أو فى اللحظة التى نستدعيه فيها بعد وصولنا.

ــ حسنًا. الأمر يتعلق بفتاة شابة، أليس كذلك؟

ــ هذا ما فهمته من المكالمة الهاتفية.

ــ ألم يعطك تفاصيل أكثر؟ هل أخبرك أنها من مدريد؟

ــ نعم، يا سيدى القاضى، بالفعل، قال إنها من مدريد.

ــ واضح. فى أيام الآحاد تغص تلك المنطقة بالمدريديين. فى أية ساعة حدث الغرق؟

ــ لا يمكننى تحديد الوقت. لقد كلمنى بعد العاشرة بقليل.

كانت السيارة تجرى فى الطريق المستقيم، باتجاه أضواء توريخون. أخرج القاضى علبة سجائر «فيليبس موريس».

ـ بيثنتى، هل تريد التدخين؟

رفع السائق إحدى يديه من على عجلة القيادة ومدّها إلى الخلف، من فوق كتفه، دون أن يلتفت برأسه.

ـ شكرًا، يا دون أنخل؛ هاتها.

وضع له القاضى السيجارة بين أصابعه.

ـ وأنت، يا إميليو، أمازلت محافظًا على عدم اقتراف الرزائل الصغيرة؟

ـ ولا الكبيرة، شكرًا جزيلاً.

كانوا يرون على اليسار، متعامدة على الخراما، وديان هنارس المخفوقة بالقمر. نظر السكرتير بطرف عينه إلى القرنفلة المعلقة بعروة سترة القاضى. أظهر لهب الولاعة الفرش الداخلى للسيارة. أمال السائق رأسه إلى جانب، دون أن يُبعد عينيه عن نور الكشّافات التى تتقدم على الأسفلت، لكى يُشعل السيجارة من اللهب الذى تمتد به يد القاضى. على اليسار، وبعيدًا جدًا فى الخلف، كان يومض، تحت القمر المبهم، وعلى خلفية سماء بزرقة معتمة بالتراب، أفق من الهضاب الضّالة ببياض غامض. هضاب متتالية، من الكلس والطّفل

الجيريين، وببياض عظم، كانت تبرز فوق الوديان وكأنها ألواح كتف أُحفورية للأرض. وفجأة وجدت«البليّا» نفسها مخترقة بنـور قـوىّ مبهر يدهسها من الخلف. كانت «السّرينة» الصدّاحة لسيارة خاصـة تطلب السماح بالمرور، وفى التوّ تجاوزهم النور من على اليـسار، مصحوبًا بأنين إطارات جديدة، تزغرد على الأسفلت. وفى اللحظـة التالية أظهرت«الكريزلـر» كَفَلهـا الأسـود المنزلـق، بالكـشّافين الأحمرين، اللذين ابتعدا فى غمضة عين.

ـ أمريكيون– قال السائق–.

ـ ومنْ سيكون غيرهم؟– ردّ السكرتير–.

ـ معلوم. لقد شاهدت لوحتها المعدنية. بهذا الشكل يمكن أن يـذهب المرء إلى أىّ مكان يريده.

ـ نعم؛ يمكنه.

ـ دون معاناة السأم مثلنا من أجل مغادرة مدريد والوصول إلى سان فرناندو. هذا إذا لم يصطدموا قبل ذلك بعمـود علـى الطريـق ويصبحون كُفْتة.

ـ منْ يجرى كثيرًا يقف سريعًا– أكد السكرتير–.

ـــ وهذه هى ميزتنا؛ إذ لا توجد مخاطر بهذا الـــصندوق المـــالقى[*] للزبيب– قال السائق–. لابد أن نتميز بشىء ما.

ـــ صدقت.

كان القاضى صامتًا. تركوا طريق«لويتش» على اليسار ودخلوا طريق «تورّيخون دى أردوس». كانت ماتزال توجد أنـــوار كثيـــرة على جزء الطريق الذى يختـــرق القريـــة. انتحـــت جانبًـــا بعـــض مجموعات من الرجال لكى تمر«الباليّا»؛ بينما كان آخرون جالـــسين فى صفوف أو حلقات أمام أبواب المحلات. وعند المـــرور تـــراءت دواخل الحانات المضاءة والصخب العابر لألـــوان نتـــائج التقـــويم، على الحوائط المطلية باللون النيلىّ. بقيت فى الخلف صورة البـــرج، ببريق القمر على زرقة قرميدها. كـــان الخيـــال العـــالى لواجهتـــه المضلّعة يبرز، سامقًا، فوق أسطح القرية. هبط الطريق بعد ذلك إلى الأراضى البور للخراما، وفى خلفيتها ظهـــرت الأنـــوار المتنـــاثرة لكوسلادا وسان فرناندو، على الجانب الاخر من الخط اللامع للنهـــر.

(*) المالقىّ: نسبة إلى «مالقة» (Málaga)، وهى إحدى مدن الجنوب الإسبانى، التى تطـــل علـــى البحر الأبيض المتوسط – المترجم–.

كان الطريق يمضى مستقيمًا، ومحفوفًا بالأشجار، حتى «قنطرة المشاتل». وبعد اجتياز القنطرة، تركوا الطريق العمومى وانحرفوا جهة اليسار ليأخذوا طريق سان فرناندو دى هنارس. كانت السيارة تقفز فى المطبّات. سأل القاضى:

ــ أين مكان الحادث الذى أخبرك به الشرطى، بالتحديد؟

ــ عند السدّ.

ــ تعرف حضرتك كيف يمكن النزول إلى السدّ، أليس كذلك يا بيثنتى؟

ــ نعم يا سيدى.

وجدوا المزلقان مفتوحًا. ترجرجت السيارة بشدة لدى عبورها القضبان. فى المواجهة، وعلى اليسار، كانت الأشجار الضخمة المعتمة لضيعة «كوتشيريتو البلباوى» تُخفى الڤيلا التى يلمع سقفها القرميدى بين الأوراق.

ــ بهذه الحالة– قال القاضى– يصل عدد جثامين الغرقى الذين عاينتهم فى الخراما إلى تسعة.

هزّ السائق رأسه، بإيماءة عدم موافقة.

ـ آه، الآن تذكرت، الغرقى ثمانية- صحّح القاضي-؛ لأن الحالة التاسعة كانت تخص تلك الفتاة التى دفعها خطيبها من أعلى قنطرة السكة الحديد، ألا تتذكرها، يا إميليو؟

ـ نعم، أتذكر. كان هذا منذ سنتين.

انعطفوا من جديد جهة اليسار، نحو الطريق الكائن بين بساتين الكروم، ثم هبطوا يمينًا حتى وصلوا إلى الاستراحات ذاتها. توقفت السيارة تحت الشجرة الضخمة وخرج البعض من البيوتات أو أطلّوا من خصاص(*) الأبواب والنوافذ المضيئة لرؤية من القادم. انسحبوا فى احترام من الباب عندما دخل القاضى، الذى أطبق جفنيه فى نور المحل. بقى بيثنتى فى الخارج.

ـ طابت ليلتكم جميعًا.

سكت الجالسون على الموائد، ونظروا إليهما، متصنتين. كان شعر القاضى أشقر ومتموجًا على الجبهة، وكان أطول بكثير من السكرتير ومن الآخرين الواقفين إلى جوار طاولة البار.

ـ كيف حال حضرتك؟- قالت له أوريليا-.

(*) خَصَاص (مفردها خصاصة): وهى الفُرجة أو الخلل فى باب أو غيره - المترجم-.

ـ بخير، شكرًا. أخبرينى، أين مكان ضحية الحادث؟

ـ هنالك، على مقربة- أشارت بيدها ناحية اليسار، باتجاه خارج الباب-. فى المواجهة تقريبًا، بحيث يمكن رؤيته من هنا. ليس عليكما سوى عبور المعديّة. أو، لا... أنت، يا ولد- نادت ناحية المطبخ-.

ظهر على الفور صبى، بين حوْمة القماش المتخذة بابًا.

ـ اخلع هذا الآن لكى تصحب سعادة القاضى- قالت له أوريليا-. بسرعة!

ـ شكرًا، لا داعى لإزعاجه.

ـ (يا عيب الشُّوم)!

خلع الصبى المريلة.

ـ شىء آخر، يا سيدتى؛ هناك تحت لا يوجد نور، أليس كذلك؟

ـ لا يوجد؛ لا، يا سيدى.

ـ هلاّ تكرمت إذن بإعطائنا بطارية.

ـ بطارية؟ هذا لا، يا سيدى؛ لا توجد عندنا هذه الأشياء. لو كانت عندنا لأعطيناها لك عن طيب خاطر- فكّرت للحظة-. يوجد

عندى فانوسان، من تلك التى تعمل بالزيت. يمكننى تزويدك بواحد منها، لو كان يصلح للمهمة.

ـ حسنًا، ليكن فانوسًا إذن– قال القاضى–. ما دامت له فتيلة تشتعل فهو أكثر من كاف.

التفتت أوريليا إلى الصبى.

ـ ها قد سمعت. إنزل، ولكن كالبرق، إلى قَبْو الخمور، وعُدْ إلى هنا بفانوس حالاً. أحضر أفضل فانوس من الاثنين الموجودين هناك. بسرعة!

جرى الصبى.

ـ وامسح التراب العالق به– شيّعته، صائحة–.

وفى اللحظة التالية وجهت الصوت ناحية باب المطبخ.

ـ لويسا، لويسا...، أحضرى فى الحال «جركن» الزيت والفتائل الجديدة الموجودة على رفّ شفّاط الدخان.

ـ حالاً، يا أمى– أجاب صوت شاب من على الجانب الآخر للباب القماش–.

التفتت أوريليا ناحية القاضى.

ـ سيكون جاهزًا حالاً.

ـ شكرًا جزيلاً، يا سيدتى. لدىّ بطارية فى البيت، ولكــن...– هــزّ منكبيه–.

ـ نمد هنا يد العَوْن فيما نقدر عليه، كما ترى حضرتك، دون استياء أو ضيق– توقفت، ثم تابعت وهى تهز رأسها–: مكمــن الأســى والأسف هو أن المساعدة تتم دائمًا فى هذه الظروف المحزنة. كم كنت أتمنى وأرغب فى التعامل معك وخدمتك فى مواقف أخــرى أجمل من هذه التى تجعلك تأتى إلى هنا.

ـ نعم، وهكذا فالأفضل هو عدم رؤيتى.

ـ فى مثل هذه الموضوعات، يا سيدى القاضى، فى هذه المواقــف. من المفضَّل بالطبع؛ رغم كل التقدير الذى نُكِنّه لشخصكم الكريم.

وافق القاضى، ساهمًا:

ـ أنت مُحِقَّة.

ـ آه، ولكن هذا لا يمنع أيضًا من أن تتشجع حضرتك وتأتى إلى هنا مع أصدقائك فى أىّ يوم عطلة، حتى يمكننا استقبالكم الاســتقبال اللائق بمقامكم. لن تكون كل...

ـ ذات يوم؛ شكرًا جزيلاً.

دخلت الفتاة بالزيت والفتائل.

ـ آمل أن يتحقق هذا، يا سعادة القاضى. هات، أنتِ، اتركيه هنا. ولكن فيماذا يفكر الأكحل هذا؟- أطلّت على القبْو-. إرْنى، إرْنستو! ماذا تفعل؟ هل يمكن معرفة ما تفعله؟

استمعت لما أجاب به الصبى؛ وقالت له بعد ذلك:

ـ أحضره كما هو، أنسيت أن سعادة القاضى ينتظر؟

عادت من جديد إلى وسط طاولة البار.

ـ معذرة، سيدى القاضى. هذا الصبى عديم الفائدة أكثر من حِلْية. أنا فى صراع مستمر معه.

ـ لا تشغلى بالك.

ظهر الصبى.

ـ قلت لك، أيها الجاهل، امسح التراب العالق به؛ لا أن تجعله يلمع مثل «الكأس المقدس». هات، هيا، هات يا بلوى.

تدخل أحد الواقفين إلى جوار طاولة البار:

ـ منْ يُربك هذا الصبى ولا يجعله يتعلم هو أنت يا أوريليا، بهذه «السّرينة» التى تطاردينه بها فى كل لحظة.

ـ (نقطنا) بسكاتك!

ـ لا يمكن إذكاء فطنة صبى هكذا. بهذه الطريقة تجعلينه يجبن ويتدهور أكثر فأكثر.

ـ هل طلب أحد رأيك؟ قُل.

ـ تصب جام غضبها علىّ، اللعنة، تصب جام غضبها علىّ.

ضرب الرخام بقبضة يده وخرج من المحل.

ـ عجبًا...!- قالت أوريليا، ملتفتة إلى اثنين آخرين عند طاولة البار-. ولكن، هل رأيتما شيئًا مشابهًا؟ دون مراعاة حتى لوجود سعادة القاضى أمامنا هنا...

نظرا إليها بوجهين جامدين، ولم يقولا شيئًا. هزّت منكبيها. فتحت الباب الصغير للفانوس وأخرجت صندوق الصفيح الذى يتكون منه القنديل.

ـ أتسمحين لي بأن أساعدك؟- قال لها السكرتير-.

ـ سوف تبقّع نفسك بالزيت.

ـ أعطه لي، سوف أتسلى بإخراج الفتيلة المحروقة منه.

فتحت أوريليا الصندوق الصفيح وأعطت السكرتير نصفه العلوى.

ـ خذ. إنه متسخ كله. لم أستخدمه منذ ستة أو ثمانية أشهر. من الشتاء الماضى.

شرعت فى تنظيف الجزء السفلى بخرقة، بينما كان السكرتير يستخرج، بخِلّة أسنان، بقايا الفتيلة التى تسد أنبوب الغطاء. وبعد ذلك قامت أوريليا بلىّ الفتيلة بين أصابعها.

ـ أتسمح لي؟

سلمها السكرتير الغطاء فأدخلت الفتيلة فى الأنبوب. ملأت بعد ذلك الخزان الصغير بزيت نظيف، ومسحت بإصبعها نقطة الزيت المنزلقة على فم «الجركن». جَمَّعت الجزء الأول مع الثانى، وعندئذ انغلق الصندوق الصفيح للقنديل وأصبح جاهزًا. وضعته بعد ذلك فى الفانوس وثبتته على الحواف البارزة الموجودة فى قاعدته. أشعل أحد الرجلين عود ثقاب وقرّبه من الفتيلة.

ـ مدهش!– قال القاضى عندما أضاء اللهب–.

أغلقت أوريليا الفانوس، وبقى اللهب محاصـرًا بالزجـاج مـن الجهات الأربع. رفعته من المقبض العلوى وأعطته للصبى.

ـ خذ، احمله أنت. وحذار أن يسقط منك.

ـ ليس من الضرورى قدومه– قال القاضى–. سنحمله نحن.

ـ تحملانه! كيف! بهذه الملابس التى تلبسونها فـى يـوم العطلـة. سيحمله الصبى لحضرتيكما، فليس لديه مـا يوسـخه. وسـوف يتقدمكما، حتى تريا أين تضعان أقدامكما، لأن الأرض هناك فـى الخارج سيئة للغاية.

ـ لنذهب إذن. إلى اللقاء، يا سيدتى، وشكرًا جزيلاً.

ثم اتجه إلى الحاضرين:

ـ طابت ليلتكم جميعًا.

رنّت همهمات التحية على الموائد. اصطحبتهم أوريليا حتى عتبة الباب.

ـ هنالك، على مقربة. لا شىء سوى اجتياز المعديّة، القنطرة الخشبية الموجودة. على الجانب الآخر، سترى حضرتك الشرطيين بمجرد عبور المعديّة. سوف يرشدكما الصبى.

ـ معلوم- قال القاضى، مبتعدًا-.

أخذ السكرتير حافظة أوراق وبطانية من السيارة. مــرّوا مــن تحت الشجرة الضخمة، التى تحجب قمتهــا القمــر وتجعــل الأرض تحتها غارقة فى ظلام دامس. وبعد خروجهم مــن تحــت الــشجرة، توغلوا فى ممر ضيق، محفوف بالأحراج ونباتات العوسج، التى تُزيد الطريق ضيقًا وتجعلهم مضطرين للسير فى صــفّ. كــان الــصبى يمشى فى المقدمة: ذراعه النحيل ممدود إلى أعلى، والفانوس فــوق، يتأرجح من المقبض المعلّق فى أصابعه؛ وبعد ذلك الخيال الــصغير للسكرتير، المرتدى الــسواد، بــصلعته الورديــة، والعدســتين ذات «الشّنبر» المعدنى؛ وأخيرًا القاضى، أشقر وسامق القامة، وكان قــد تأخر لكنه سرعان ما لحق بهما، بالخطوات الواسعة لساقيه الشابتين. وبعد أن وصلوا إلى ضفة الذراع الميت توقف السكرتير علــى بُعــد خطوتين من قنطرة الألواح الخشبية.

ـ انتظر، يا فتى.

توقف الصبى. التفت السكرتير نحو القاضى.

ـ سيدى القاضى.

ـ ماذا جرى، يا إميليو؟

ـ لم أجرؤ على إخبارك به من قبل، يا دون أنخل، هل نظرت حضرتك إلى طية السُترة؟

ـ لا. وماذا بها؟

أحنى رأسه ناحية الصدر وشاهد القرنفلة.

ـ عندك حق. لم أنتبه إلى ذلك حتى. أشكرك على لفْت نظرى فى الوقت المناسب.

اقترب من السكرتير، مقدمًا له طية السترة.

ـ انزعها، من فضلك؛ لأنها مثبتة بدبوسين من الخلف.

ـ اقترب بالنور، يا فتى.

امتثل الصبى ورفع، قدر الإمكان، الفانوس نحو الرأس العالية للقاضى المحقِّق، بشعرها الذهبى الذى لمع بشدّة إلى جوار ضوء اللهب. حاول السكرتير بخَرَق فى البداية، مقربًا عدستيه من طية السترة؛ لكنه تمكن أخيرًا من انتزاع الدبوسين، وعندئذ سحب القاضى القرنفلة وأخرجها من العِرْوة.

ـ شكرًا، يا إميليو. يمكننا الآن متابعة السير.

اجتازت الهيئات الثلاث، فى صف، القنطرة الخشبية. الصبى دائمًا فى المقدمة، بالفانوس الذى يتأرجح فى طرف الذراع. الأخير فى العبور كان القاضى، الذى ألقى بالقرنفلة نحو المستنقع، فى أثناء طأطأة الألواح الخشبية تحت ثقله. وعندما عبروا القنطرة كان الشرطى جوميرسيندو قد خفَّ للقائهم، إذ شوهد لمعان مشمع قبعته المثلثة لدى دخوله منطقة ضوء الفانوس.

ـ تحت أمر سيادتك.

خففت الرمال من وقْع ضربة كعب حذائه.

ـ طابت ليلتك- قال له القاضى-. لنرى هذا-.

اقتربوا من الضفة، وعندئذ نهض الموجودون جميعًا والتفوا، صامتين، حول الجثمان. كانت فتحة الهويس ترنّ، صاخبة. أمسك القاضى برقبة الصبى.

ـ اقترب، يا جميل؛ قف هنا. ارفع هذا النور إلى أعلى، ولا تخف.

مدّ الصبى ذراعه العارى وجعله أفقيا، بحيث أصبح الفانوس معلقًا فوق الجثمان.

ـ لنرى. اكشفوا عنه الغطاء– قال القاضى–.

تقدم الشرطى الشاب ليفعل هذا.

ـ عندك. السكرتير.

انحنى السكرتير على الجسد وسحب من عليه الفستان والفوطة. كان لون الجلد، بجانب سواد المايوه، أبيض مشوبًا بالزرقة. أقعى القاضى، وطاف بصره بالجسد كله، متفحصًا إيّاه عن قُرب.

ـ اجعلوه مضطجعًا على الظهر.

رفع السكرتير من جانب فاستجاب الجسد، ثم تداعى هامدًا فى وضعه الجديد. كانت حبيبات الرمال ملتصقة بالجزء الذى كان ملامسًا الأرض. أزاح القاضى الشعر من على العينين.

ـ أعطنى هذا النور.

أخذ الفانوس من يد الصبى وقرّبه من وجه لوثيتا. كان بالحدقتين بريق متعكر، مثل شظايا مرآة ملوثة بالتراب، أو جذامات صغيرة من الصفيح. كان الفم مفتوحًا؛ بإيماءة على الشفتين تجعل المرء يستحضر صورة فم السمكة. نهض القاضى.

ـ متى وصلتما؟

ـ نحن، يا سعادة القاضى؟

ـ نعم، أنتما.

ـ وصلنا فى اللحظة الحرجة التى وضع فيها هؤلاء السادة الضحية على الأرض.

ـ كم كانت الساعة؟

ـ يجب أن يكون هذا قد حدث فى التاسعة وخمس وأربعين تقريبًا، إن لم يكن هناك خطأ.

ـ عُلم. فى العاشرة إلا ربعًا، باختصار– قال القاضى–. وأية سادة تقصد؟

ـ يقصدنا، يا سيدى– تقدم ليقول فتى سان كارلوس–. نحن الأربعة.

ـ حسنًا. هل كانت تستحم معكم؟

ـ لا، يا سيدى القاضى. ألقينا بأنفسنا فى الماء حين سمعنا صيحات الاستغاثة.

ـــ هل رأيتموها جيدًا من على الضفة؟

ـــ كان الجو مظلمًا، يا سيدى، ولا يسمح إلا بتمييز الحركة على سطح الماء.

ـــ منْ الذى كان يطلب النجدة؟

ـــ هذا السيد وهذه الآنسة، من داخل النهر.

التفت القاضى لينظر إلى بولينا وسيبستيان. سأل الطالب من جديد:

ـــ هل يمكنك تقدير المسافة التى كانت تفصل بينهما وبين الضحية آنذاك؟

ـــ عشرون مترًا تقريبًا.

ـــ ألم تكن أقل؟

ـــ لا أعتقد، يا سيدى.

ـــ ألم يكن فى الماء شخص آخر، أكثر قربًا من الضحية؟

ـــ لا، يا سيدى القاضى؛ لم يكن يُرى أحد آخر فى النهر.

التفت القاضى نحو سيبستيان:

ـ هل أنتما متفقان، مبدئيًا، مع ما يقوله هذا السيد؟

ـ نعم، يا سيدى القاضى.

ـ وحضرتك، يا آنسة؟

ـ وأنا أيضًا- أجابت بولينا، مطأطئة الرأس-.

ـ لا تجيبيى بـ «أيضًا»؛ قولى نعم أو لا.

ـ نعم، نعم يا سيدى.

كان صوتها باكٍ.

ـ شكرًا،- يا آنسة. اتجه إلى الطلاب- من بين حضراتكم، منْ هو الذى وصل أولاً إلى الضحية فى النهر؟

ـ أنا، يا سيدى- أجاب رفائيل-. تعثرت فى الجسد على سطح الماء.

ـ ألم تحس فيه، وقتذاك، بأى أثر للحياة؟

ـ لا، يا سيدى القاضى؛ لم يكن به على الإطلاق أثر لحياة.

ـ شكرًا جزيلاً. يكفى هذا الآن. أرجو ألا يمشى أحد من الذين تحدثوا معى هنا، ولا أىّ شخص طلبه الشرطيان من قبل للإدلاء

بشهادته. وليبق أيضًا أىّ فرد آخر يرغب من تلقاء نفسه فى تقديم معلومات تتصل بالواقعة.

اتجه إلى السكرتير:

- أيها السكرتير: اتخذ الإجراءات القانونية لرفع الجثة، واستلم بنفسك الملابس والأغراض الخاصة بالضحية.

- أمرك، يا سيدى.

- يمكنك دعوة ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الشبان ليساعدوك فى عملية النقل. سوف نصعد بها، مؤقتًا، إلى بيت أوريليا، إلى أن يأتى المسئول عن مستودع الجثث. ليحضر شرطى!

- تحت أمر سعادتك.

- عليك بالاتصال هاتفيًا بالمسئول عن المستودع. اذهب الآن. قل له تعال فى الحال لتمثل أمام القاضى.

- عُلم، يا سيدى. أوامرك.

- وهكذا نودعها هناك فى أقرب وقت ممكن، لتكون تحت تصرف الطبيب الشرعى.

اقترب رفائيل وزملاؤه من السكرتير. قال له صاحب البنطال المبلل بصوت خفيض:

ـ يمكننا مساعدتك، لو أردت. هؤلاء الآخرون يعرفونها وسيكون الأمر صعبًا عليهم.

ـ اتفقنا، انتم إذن. هيا بنا. اقترب، يا بنى، بالنور.

اقترب الصبى، وبيده الفانوس. فرد السكرتير البطانية التى أحضرها بجوار جسد لوثى. قام رفائيل بعد ذلك وصاحب البنطال المبلل بدحرجة الجسد حتى منتصف البطانية، ثم أغلقا طرفاها من علٍ، وبقى الجسد مغطى بالكامل.

ـ (كده تمام).

أخذ السكرتير من يد الشرطى كيس وصينية لوثيتا، ليضمهما إلى الفوطة والفستان اللتين يحتفظ بهما.

ـ هل هذا كل ما لديها؟

ـ نعم يا سيدى.

إلى الأمام إذن،. بحذر. وأنت، أيها الصبى، اسبق بالنور مثلما فعلت وأنت قادم معنا إلى هنا. سعادة القاضى.

كان القاضى ينظر إلى النهر؛التفت:

ـ الآن؟ حسنًا. ليتكفل الشرطى بإحضار المطلوبين للشهادة. هيا بنا.

أمسك بكل طرف من أطراف البطانية طالب، ورفعوها فيما بينهم. أما صاحب الهارمونيكا فكان يحيط بذراعه الجسد من منتصف البطانية، رافعًا إيّاه حتى لا يحتك بالأرض. مشت المجموعة كلها، صامتة، فى إثر صبى الضوء. كان يمشى خلف الجسد كل من القاضى والسكرتير؛ ثم أصدقاء لوثيتا، متبوعين بالشرطى الذى يعلق إصبعه الإبهام فى حزام البندقية. عبروا القنطرة الصغيرة فى احتراس شديد، وبعد ذلك عانى حاملوا الجسد من ضيق ممر نباتات العوسج الذى لا يكاد يسعهم. كان الصبى يوجه الفانوس نحوهم، ماشيًا القهقرى، ليضيئ المسيرة الصعبة للجثة. كانت الملابس تتعلق بالأشواك، عند احتكاك حائطى الأحراج بجوانبهم. خرجوا إلى الشجرة الكبيرة، وعندئذ تقدم القاضى وقال لهم:

ـ انتظروا هنا لعدة دقائق. سأعود فى الحال.

وضعوا الجسد على الأرض، بين الكراسى والموائد التى تغطى الساحة الصغيرة. اقترب السائق بيثنتى لرؤيته، فى الضوء الخافت للمصباحين اللذين ظلا مُضاءين. وصل الأخيرون، ووقفوا جميعًا،

منتظرين. على بُعد عشر خطوات منهم، كان شعاع النور يصل إلى تروس الهويسين: عجلتان مسننتان، بقضبانهما الحديدية، المستقيمة والعالية، فى نهاية الرصيف، حيث تُرعد المياه. تقابل القاضى مع الشرطى المسنّ الذى كان خارجًا من الخان.

ــ هل أبلغته، حضرتك؟

ــ تحت أمرك. نعم يا سيدى. وسيأتى على الفور.

ــ جيد- قال القاضى وهو يجتاز عتبة الاستراحة-. سيدتى.

ــ أمرك، يا سيدى القاضى.

اقتربت فى إذعان، وهى تجفف يديها فى المريلة.

ــ (شوفى)، أريد أن أترك فى أى مكان عندك جثة الضحية إلى أن يأتى مسئول المستودع لاستلامها.

نظرت إليه أوريليا، مترددة.

ــ هنا بالداخل؟- سألت بصوت هامس-. سيدى القاضى، أرجو أن تتفهم أن الزبائن مازالوا موجودين...

ــ أنا متفهم، ولكن لا يوجد أمامى خيار آخر.

- أرجو أن تفهمنى، يا سيدى القاضى؛ لو كان الأمر يتعلق بـــى... أو بأية ساعة أخرى لا يوجد فيها أحد...

- أنت صاحبة القرار. هذا عمل تطوّعى. من حقك رفــض تقــديم المأوى لجسد الضحية.

- أوى، لا يا سيدى؛ كيف يتسنى لي فعل هذا! يا للهول!؛ ولا هــذا أيضًا، يا سيدى القاضى. أرجو أن تفهمنى، أقول ما أقول بــسبب الزبائن.

- سيدتى- ألقى القاضى بالقول الفصل-؛ هذه الحالة غيــر منطقيــة ولا تحتاج إلى أسانيد؛ ومن ثمّ فلستِ مضطرة لشرح الأسباب لي. الشيء الوحيد الذى أود معرفته هو: تريدين أم لا تريدين.

- وماذا تريدنى أن أفعل، يا سيدى القاضى؟ كيــف أُغلــق أمامهــا الأبواب؟- رفعت عينيهــا-. تــضعون الواحــدة بــين النِّطــع والسيف...

. أنا آسف، يا سيدى؛ ولكن هذه هــى مهنتــى بالتحديــد: وضــع الأشخاص بين النِّطع والسيف. لا يمكننى العمل بطريقة أخــرى. ألن تخبرينى بالمكان؟

ـ المكان؟ (شوف)، فى قبْو الخمور هنا، ما رأيك؟. هنا فى الخلف.

كانت تشير بإصبعها الإبهام إلى ستارة الخيش الموجودة خلف ظهرها.

ـ تمام. شكرًا. سأقول لهم أحضروها.

خرج.

ـ يمكنكم الدخول الآن. سوف ترشدكم صاحبة الخان إلى المكان الذى تضعونها فيه- ثم وجّه الصوت إلى المؤخرة-: أريد شرطيًا- صاح وإصبعه السبّابة مرفوع إلى أعلى-. ليأت أيضًا شرطى، ولينتظر الباقون هنا فى الخارج.

ـ تحت أمر سعادتك.

كان الشرطى الشاب. ردّ عليه القاضى بإيماءة، ثم دخل باب الخان بظهره، سابقًا الخمسة الذين يحملون الجثة.

ـ ارفعوا قليلاً. حذارِ، توجد درجة.

وقف كل الرجال الموجودين بالمحل وخلعوا أغطية رؤوسهم. ظلوا ساكنين، يلفهم الصمت، ووجوههم معلقة بالجسد الذى يمر. رسم أحدهم علامة الصليب على صدره، تاركًا فى الهواء الطقطقة الخفيفة للقبلة التى طبعها على إبهامه.

ـ من هنا– قالت أوريليا–. إنها نصف دستة من الدرجات.

جعلتهم يدخلون وراء طاولة البار.

ـ انتظروا، فأنتم لا ترون شيئًا.

جمّعت طرفى غُلالة بلاستيكية قابلة للطىّ معلقة على الحائط، وعندئذ شوهد القبو مضيئًا، من خلال قطعة الخيش المتخذة ستارة. أسرعت بإزاحتها ولملمتها إلى جانب، لكى يمر الآخرون بجسد لوثيتا ويهبطوا الدرجات الست للسلم، متبوعين بالقاضى، ثم السكرتير، وأخيرًا الشرطى. وجدوا أنفسهم فى كهف مصطنع، محفور فى الأحجار الكلسية باتجاه أعلى المنحدر الذى يسند ظهر البيت ويشكل حائطه الخلفى. يتوغل الكهف فى الصخرة لمسافة تتراوح بين ثمانية وعشرة أمتار، بعرض خمسة أمتار، ومثلها تقريبًا فى الارتفاع، مشكلاً قبة بدائية، منحوتة بطريقة فظة، على غرار الحوائط. تراكمت فوق السطح الوعر للصخرة، وبمرور السنين، طبقات بيضاء؛ والآن كثافة الجير تجعل النتوءات تأخذ شكلاً مستديرًا، كما تُبرز القياطين والأطراف. حطّوا جسد لوثيتا.

ـ ستبقى أنت، ويعود الباقون إلى الخارج.

طافت عينا رفائيل بالقبة فى أثناء خروج زملائه. كان بياض كلْسها القديم متعكرًا فحسب فى أحد المواضع، ببعض البقع الرطبة الضاربة للاخضرار، والمتوّجة بطحالب تتدلى، فى نُسالات طويلة، من السقف والحوائط. كانت أوريليا ما تزال على العتبة، فى قمة الدرجات الست المنحوتة فى الصخرة، والتى تهبط إلى الكهف.

ــ معروف آخر، يا سيدتى: نحتاج إلى مائدة وثلاثة كراسى، لو تكرمت.

ــ ما عليك إلا طلبها، يا سيدى. سوف تنزل إليك حالاً.

أخرج القاضى سجائره.

ــ سنبذل ما فى وسعنا حتى لا تتأخروا كثيرًا. إنها إجراءات ينبغى استيفاؤها. هل تدخن؟

ــ شكرًا؛ لا أدخن الآن.

كانت تُرى على جانب، مصطفة: ثلاثة دلاء كبيرة جدًا وبعض البراميل وعدّة خابيات من الفخار؛ وفى الخلفية: كتل خشب مركونة، مواسير مدخنة سوداء من الهباب، أحبال من الحلفاء وحمير خشب وألواح، متسخة بالجبس، لإحدى سقالات البناء؛ وعلى الأرض:

زورق منكفىء وألواحه ملتوية وجافة، باب، مدفأة من الحديد، بضعة كراسى مهشمة وعربة يد، صفائح، وكثيــر مــن عبــوات الــدهان الصغيرة. تقدم رفائيل لمساعدة ابنة أوريليا وصبى النــور، اللــذين ظهرا على السلم ومعهما مائدة وثلاثة كراسى قابلة للطىّ، مدهونــة باللون الأخضر. وضعوها فى منتصف القبو، ونظرت الفتــاة إلــى اللمبة المعلقة فى السقف لتجعل المائدة تحتها بالضبط. كانت أوريليــا قد عادت وبيدها صحيفة من الصحف اليومية.

ـ أنا آسفة، يا سيدى القاضى، لم يبق لدىّ اليوم ولا حتــى مفــرش واحد نظيف؛ فى أيام العطل تتسخ المفارش كلها، مهمــا بلغــت كثرتها...

بسطت الصحيفة على المائدة. خرجت ابنتها والصبى.

ـ ومن ثمّ، معذرة على التقــصير، وإن كنــت أرى أن هــذا يفــى بالغرض.

ـ شكرًا؛ لا تشغلى بالك– قال لها السكرتير–. (كده تمام).

ـ لو احتجتم لأى شىء آخر، فأنتم تعرفون أين أكــون. مــا علــيكم إلا أن تنادوا علىّ. أنا موجودة هنالك– أشارت إلى السلم–، خلف هذه الستارة.

ـ اتفقنا، شكرًا– قال القاضى بنبرة نفاد صبر–. لا نحتاج الآن إلى شىء.

ـ تعرف حضرتك الآن أين تجدنى.

صعدت أوريليا الدرجات من جديد، معتمدة بيديها على ركبتيها، ثم تجاوزت ستارة الخيش. نظر السكرتير إلى القاضى.

ـ إنها مثل دونيا لوْرا.

ابتسم الاثنان. كان الشرطى الشاب ينظر إلى الأمتعة المكدَّسة فى خلفية الكهف. أطفأ القاضى عُقب سيجارته فى بطن إحدى الخابيات.

ـ اجلسا، لو سمحتما.

جلس رفائيل والسكرتير، كل منهما فى مواجهة الآخر. أزاح الشرطى، بمؤخرة البندقية، شيئًا على الأرض ، ليخرجه من بين التراب. كانت لوحة من الصفيح لعربة كارّو. أخرج السكرتير أوراقه. ظل القاضى واقفًا.

ـ اسمك ولقبك؟

ـ رفائيل سوريانو فرناندث.

ـ السنّ؟

ـ أربع وعشرون سنة.

ـ الحالة الاجتماعية؟

كتب السكرتير: «على أثر ذلك مَثُل، بشخصه، أمام الهيئة القضائية، المدعو رفائيل سوريانو فرناندث، وعمره أربع وعشرون سنة، أعزب، ومهنته طالب، يقطن فى مدريد، وعنوانه شارع بينيا سكالس، رقم واحد، الدور السابع، وسط، بدون سوابق؛ والذى أقسم بعد أن تم إرشاده وتحذيره وفقًا للقانون، ليقر بـ:

ـ لنرى، يا رفائيل، أخبرنى حضرتك، ما هو أول شىء لفت انتباهك لما جرى؟

ـ سمعنا صرخات استغاثة فى النهر.

ـ حسنًا. وأخبرنى، هل استطعت تحديد مصدر هذه الصرخات؟

ـ نعم، يا سيدى القاضى؛ هرعنا إلى الشاطئ وظلت الصرخات مستمرة، وشاهدت أنها صادرة عن اثنين متجاورين فى النهر.

ـ وهل صرخت الضحية؟

ـ لا، يا سيدى القاضى؛ لو صرخت لاستطعت تمييز صراخها من صرخات الاثنين الآخريْن. لقد كانا هنا، وهى هناك؛ أى أنه كانت توجد بينهما مسافة كافية لا تسمح بالخلط بين الأصوات، هذا فى حالة ما إذا كانت الفتاة الأخرى قد صرخت، هذه- أشار إلى الخلف، بإيماءة خفيفة من رأسه تجاه جسد لوثيتا، المسَجَّى وراء ظهره.

ـ وهذا يعنى أنك لمحت فى الحال أيضًا الضحية وهى فى الماء، أليس كذلك؟

ـ لم أبصرها بنفس قدر رؤيتى للآخريْن، بل بوضوح أقل، ولكنه لا يسمح بالخلط.

ـ حسنًا، يا رفائيل، وهل تستطيع تقدير المسافة التى كانت تفصل بينها، وقتئذ، وبين صديقيها؟

ـ نعم، من عشرين إلى خمسة وعشرين مترًا.

ـ حسنًا، نسجل عشرينًا. والآن احكِ لي ما حدث؛ استمر حضرتك.

ـ لا شىء، سيدى القاضى، بمعنى أننا شاهدنا الفتاة... أو بالأحرى لم نكن نعرف أنها فتاة، بل عرفنا هذا فيما بعد، لأننا لم نكن نشاهد فى تلك اللحظات سوى جِرْم شخص يخفق فى الماء...

كان الشرطى يقف ساكنًا، إلى جوار جسد لوثيتا المغطًّى، مستمعًا إلى رفائيل. كان السكرتير يكتب: «... مميزًا جرْم شخص يخفق فى الماء... ». لم يكن القاضى قد جلس، بل كان يستمع واقفًا، معتمدًا بذراعه على أحد الدِّلاء.

تثاءب الشرطى ورفع بصره تجاه القبة. كان يوجد نسيج عنكبوت بجانب اللمبة، وتلمع خيوطه فى النور.

سأله القاضى بعد ذلك:

ـ أخبرنى إذن، هل تعتقد أنه قد تجمعت لديك، من كل ما استطعت مشاهدته، معلومات كافية لتؤكد، دون خوف من الوقوع فى خطأ، بأن الأمر يتعلق بحادث عرضى، خالٍ من المسئولية الجنائية بالنسبة لطرف ثالث؟، مع الأخذ فى الاعتبار أن الطيش وعدم التبصر يعتبران أيضًا إحدى مراتب المسئولية الجنائية.

ـ نعم، يا سيدى القاضى؛ بالاستناد إلى ما عاينته، تتوافر لدىّ أسباب كافية للتأكيد على أن الأمر مجرد حادث».

ـ جيد. شكرًا جزيلاً. لا يوجد المزيد من الأسئلة.

كتب السكرتير بعد ذلك «هذا، وبعد إطلاعه على ما صدر منه من أقوال، فقد قام بالتصديق عليها وإمهارها بتوقيعه». وعندئذ سُمع صوت خلف الستارة.

ـ هل تأذن، يا سيادة القاضى؟

ـ يمكنك الانصراف. ليأت أى واحد. آه، أرسل إلى بزميله، من فضلك؛ الآخر الذى تحدث معى من قبل عند النهر.

ـ أمرك، يا سيدى؛ سأرسله حالاً. طابت ليلتك.

ـ فى أمان الله.

عبر رجل ستارة الخيش. وفى أثناء هبوطه الدرجات، والقبعة فى يده، تقابل مع رفائيل.

ـ مساء الخير. المسئول عن المستودع. تحت أمرك، يا سيدى القاضى.

كان قد توقف على بُعد ثلاث خطوات من المائدة.

ـ أتذكرك الآن. مساء الخير.

اقترب الرجل.

ـ (شوف) حضرتك- استمر القاضى-؛ أرسلت فى طلبك لكى تفتح المستودع وتجهزه لاستقبال جثمان فتاة غرقت فى النهر هذا المساء. سوف نذهب إلى هناك فى خلال فترة وجيزة؛ أرجو أن يكون جاهزًا، مفهوم.

ـ عُلم، يا سيدى القاضى. سيكون كما أمرت.

نظر السكرتير إلى الباب. كان فتى سان كارلوس داخلاً.

ـ حسنًا؛ وبعد ذلك يجب أن تنتظر، متيقظًا، الطبيب الشرعى، الذى سيحضر هذه الليلة. ها قد عرفت.

ـ عُلم، يا سيدى القاضى.

ـ لا شيء إذن. اذهب حالاً. كلما أسرعت، كلما كان أفضل.

كان الطالب منتظرًا، دون أن ينظر إليهم، عند مطلع السلم.

ـ إلى اللقاء قريبًا، يا سيدى القاضى.

ـ إلى اللقاء. اقترب، من فضلك؛ اجلس.

ألقى طالب الطب التحية لدى اقترابه، بإيماءة خفيفة من رأسه. اجتاز اللّحّاد الستّارة.

ـ اسمك ولقبك؟

ـ كتب السكرتير فى المحضر:«على أثر ذلك، مَثُل بشخصه أمام الهيئة القضائية، المدعو دون خوسيه مانويل جيّاردو إسبينوسا، وعمره ثمان وعشرون سنة، أعزب، ومهنته طالب، يقطن فى مدريد، وعنوانه شارع ثيابيرمودث، رقم ١٣٩، الدور الثالث، حرف E، بدون سوابق؛ والذى أقسم بعد أن تم إرشاده وتحذيره وفقًا للقانون ليقر بـ:

أنه عندما كان فى رحلة مع عدد من أصدقائه، فى يوم الواقعة، على مقربة من المكان المسمى "بالسدّ"، سمع، فى حوالى العاشرة إلا ربع مساءً، صرخات استغاثة قادمة من النهر، وعندئذ هرع على الفور بصحبة ثلاثة من زملائه واستطاع أن يميز من على الشاطىء فى اللحظة التالية جِرْم شخص يبدو أنه يغرق، على بُعد خمسة

وثلاثين مترًا تقريبًا من موقع الشاهد وأصدقائه، وعلى مسافة لا تقل عن عشرين مترًا تقريبًا فى الماء ممنْ كانا يطلقان صرخات الاستغاثة تلك. وإزاء خطورة الموقف، فقد بادر المذكور خوسيه مانويل بإلقاء نفسه فى الماء، فى معيّة رفقائه الثلاثة المشار إليهم آنفًا، بهدف نجدة الشخص المتعرض لذلك الخطر، ومن ثمّ فقد قاموا كلهم بالسباحة نحو النقطة التى عاينوها من قبل. وفى أثناء توجههم إلى الشخص المنكوب، كان التيار قد سحبه من مكانه السابق، بحيث لم يتمكنوا من الاهتداء إليه؛ وبهذا الشكل أُجهضت محاولة إنقاذه على جناح السرعة؛ وقد تبدت فى الوقت نفسه همّة خوسيه مانويل ومساعديه فى عقدهم العزم على البحث عنه من جديد والعثور عليه، ولكن محاولتهم باءت بالفشل؛ كما يؤكد أيضًا على أن شابًا آخر قد انضم إليهم فى الماء، وهو أحد الاثنين اللذين كانا يطلبان النجدة قبل لحظات، وأنه قد حذره وطلب منه الانسحاب من المهمة عندما لاحظ أنه لا يجيد العوم؛ ولكن الشاب المذكور قاوم وأصر على الاستمرار ولم ينسحب إلا بعد أن خارت قواه. وبعد ذلك بعدة دقائق تم العثور فى النهاية على الضحية، وكان أول منْ لمسها هو الشاهد السابق رفائيل، وقد لحق به على الفور الماثل أمامنا هنا برفقة الآخرين الذين كانوا فى الماء آنذاك، وأنهم تحققوا فى اللحظة التالية من مفارقة

الضحية للحياة، وأنهم قاموا بعد ذلك بسحبها إلى الشاطئ حيث أودعوها هناك. وعلى الشاطيء، وبما أنه مؤهل لذلك لكونه طالبًا فى كلية الطب، فقد قام المذكور خوسيه مانويل بإجراء الفحص المناسب، وتبين له على الفور أنها مجرد جثة. وعندما سأله سيادة القاضى عما إذا كان بإمكانه، وبناءً على ما عاينه، التأكيد، تأكيدًا جازمًا لا يقبل الشك، على أن الأمر مجرد حادث عرضى، خالٍ من أية مسئولية جنائية لطرف ثالث، أجاب بنعم.

هذا، وبعد إطلاعه على ما صدر منه من أقوال، فقد قام الشاهد بالتصديق عليها وإمهارها بتوقيعه».

ـ شكرًا جزيلاً– قال القاضى–. لا داعى لشهادة أحد آخر من زملائك. وهكذا فأنتم أحرار؛ يمكنكم الذهاب وقتما تريدون.

ـ إذا لم ترغب حضرتك فى شىء آخر...

ـ لا شىء. فى أمان الله.

ـ طابت ليلتك، يا سيدى القاضى، طابت ليلتك.

ردّ السكرتير على التحية بإيماءة من رأسه. شرع الطالب فى صعود السلّم.

ـ آه، معذرة؛ أرسل إلى، لو تكرمت، بالفتاة. الشابة التى كانت فى النهر، أنت تعرفها.

ـ مفهوم. حالاً، يا سيدى القاضى.

اختفى وراء ستارة الخيش.

ـ لنرى الآن الفتاة، وأرجو ألا تبدد الكثير من وقتنا. لا يبدو أن لديها الحماس للإدلاء بشهادتها.

ـ النساء– علّق السكرتير، مشيحًا بوجهه–.

كان القاضى ينفث الدخان، وهو ينظر إلى أعلى، متفحصًا القبّة، ثم قال:

ـ لقد أعدوا قبوا رائعًا هنا. لاشك أنهم بذلوا جهدًا مضنيًا فى نحْت الصخرة.

ـ لابد أنه قديم جدًا– ردّ السكرتير–. لا يمكن التكهن بالزمن الذى مرّ عليه.

ـ قرون، على الأرجح.

ـ ممكن، ممكن.

صمتنا هنيهة، ثم أردف القاضى:

ـ إنه مكان رطب، صح؟

ـ فعلاً. إنه مناسب جدًا لكى يقضى فيه المرء فصل الصيف. لو كان عندى مثله فى بيتى...

ـ لاشك فى هذا. وأنا. أماكن قليلة تجدها رطبة هكذا، فى مثل هذه الشهور.

ـ ولا مكان واحد...- نظر إلى أعلى-.

فُتحت الستارة.

ـ ها هى الفتاة- أعلن السكرتير-.

دعس القاضى عُقب السيجارة فى الأرض. كانت بولينا تهبط درجات السلم، وبيدها منديل مبلل، بينما كانت تشفط بأنفها المخاط. وقع بصر القاضى على البنطال، المُشَمَّر من على العقبين، والواسع عليها وغير مهندم.

ـ تحت أمر حضرتك- قالت بولينا بصوت خافت، لدى وصولها إلى المائدة.

كانت تدعك زعنفتى أنفها بالمنديل المتكوّم.

ــ اجلسى، يا آنسة– قال القاضى–. ماذا حدث لك؟– أضاف بلطف، مشيرًا إلى البنطال–. هل فقدت تنّورتك فى النهر؟

كانت بولينا تنظر بخذلان.

ــ لا، يا سيدى– أجابت، رافعة وجهها–؛ لقد أتيت هكذا.

كانت شفتاها حائلتى اللون، وعيناها محمرتين.

قال القاضى:

ــ عفوا؛ اعتقدت أن ...

أبعد النظر تجاه خلفية الكهف وضمّ قبضتيه. مرّت فترة صمت. نظر السكرتير إلى أوراقه. جلست بولينا.

ــ تحت أمر حضرتك– كررت برنّة أنف–.

نظر إليها القاضى من جديد.

ــ حسنًا، ياآنسة– قال لها، ملطفًا الصوت–. لن نُثقل عليك. اهدئى وحاولى الإجابة بشكل مباشر على أسئلتى، اتفقنا؟. لا داعى

للقلق، الأمر يسير، وسأجعله سهلاً عليك. أخبرينى، يا آنسة ما هو اسمك ولقبك؟

ـ بولينا ليموس جوتييرث.

ـ وعمرك؟

ـ إحدى وعشرون سنة.

ـ هل تعملين؟

ـ أساعد والدتى فى البيت.

ـ وما هو عنوانك؟

ـ بيرناردينو أوبريجون، رقم خمسة، بجوار سكة بلنسية- نظرت إلى المَخْرج-.

ـ عزباء، أليس كذلك؟

وافقت.

ـ تعرفين القراءة والكتابة؟

ـ نعم يا سيدى.

ـ هل اتُّخِذت من قبل إجراءات قضائية ضدك؟

ـ ماذا...؟ لا، لا يا سيدى.

ـ هل تعرفين الضحية؟

ـ نعم أعرفها يا سيدى- خفضت بصرها إلى الأرض-.

ـ أخبرينى، هل لك صلة قرابة بها؟

ـ صداقة، صداقة فحسب.

ـ أتعرفين اسمها ولقبها؟

ـ نعم يا سيدى: لوثيتا جارّيدو.

ـ ألا تتذكرين لقبها الثانى؟

ـ لا، لا أعتقد أننى سمعته. ربما أتذكره.

التفت القاضى إلِى السكرتير.

ـ لا تنسَ تكملة هذه الألقاب فيما بعد. سنرى إذا كان أحد من الآخرين يعرفها.

ثم إلى الفتاة:

ـ هل لوثيتا هو اسمها الحقيقى؟

ـ لوثيتا. أعتقد أنه لوثيا، لكننا كنا نناديها دائمًا بلوثيتا أو لوثى فقط.

ـ حسنًا، وهل تعرفين عنوانها؟

ـ انتظر... رقم تسعة بشارع كاراباكا.

ـ هل كانت تعمل؟

ـ نعم يا سيدى. كانت تعمل هذا الصيف فى شركة «إلسا»، تبيع في كشك من أكشاك الجيلاتى. الجيلاتى المصنّع فوريًا وحسب الطلب، تعرف حضرتك ما أقصده؟؛ كانت تبيع فى الكشك المواجه لمحطة أتوتشا...

ـ حسنًا– قاطعها القاضى–. كم كان عمرها؟

ـ إنها فى مثل عمرى: إحدى وعشرون سنة.

ـ جميل، يا آنسة. لنرى الآن ما حدث. حاولى أن تحكى لي بالترتيب، ودون إغفال التفاصيل. بهدوء، ودون خوف، سأساعدك. لنبدأ، هيا.

رفعت بولينا يديها إلى فمها.

ـ فكّرى قبل أن تتكلمى إن شئت. نحـن لا نـستعجلك. لا داعـى للاضطراب أو القلق.

ـ سيدى القاضى، (شوف) حضرتك، لقد كان عالقًا بأجسادنا جميعًـا كمّ كبير من التراب والطين... ووردت بخـاطر الاثنـين فكـرة النزول إلى الماء لإزالة هذا التراب...أما أنا، فلم أكن أريد، وقلت لهما كيف ننزل في هذه الساعة المتأخرة... ولكنهما أصرّا قائلين ماذا سيحدث لنا... وأمام شدّة إلحاحهما اقتنعت ونزلنا الماء نحـن الثلاثة...- كانت تتحدث شبه باكية-.

قاطعها القاضى:

ـ عفوا، منْ هو الثالث الذى نزل معكما؟

ـ الشاب الآخر الذى تحدث مع حضرتك عنـد النهـر، سيبـستيان نابارّو، خطيبى. المهم أننا نزلنا نحن الثلاثة، وكنت أقول لخطيبى المرافق لي يجب ألا نتوغل كثيرًا فى الداخل...- أوقفها البكاء-؛ يجب ألا نتوغل كثيرًا فى الداخل، وهو يشجعنى ويقـول لـي لا تخافى يا بولينا... وبينما نحن، خطيبى وأنا، فى هـذا، افتقـدت لوثيتا وعندئذ سألت: أين هى لوثيتا؟...ألا تراها؟، كانـت الميـاه معتمة والظلام مطبقًا وأخذت أنادى عليها: لوثيتا!، تعالى معنـا،

ماذا تفعلين وحدك بعيدًا... وهى لا تجيب ونحن ننـــادى عليهـــا وننادى، غير مدركين أنها تغرق... ولما تكررت النـــداءات ولـــم تصل من ناحيتها إجابة صرخت فى سيبستيان: يا إلهـــىَ، لوثيتـــا تغرق! ألا ترى أنها تغرق!. شىء فظيع، سيدى القاضى، لقد كان الماء يملأ فمها فى تلك اللحظة ولا يمكنهـــا مـــن الـــرد علينـــا، ويحركها هنا وهناك رغمًا عنها... شىء مرعب، كأنها دوّامـــة، وهى فى النزع الأخير تضرب بذراعيها ضربات واهنـــة يُمنـــة ويسارًا... وعندئذ أخذنا نحن الاثنان نصرخ ونصرخ– توقفت من جديد، مختنقة بالبكاء–. ثم أحسسنا بأن هؤلاء الآخرين قد ألقـــوا بأنفسهم فى النهر لانتشالها، وكنت أدعو بأن يـــصلوا إليهـــا فـــى الوقت المناسب وينقذوها... وقد خفّ خطيبى ســـيبس للانـــضمام إليهم رغم أنه لا يعرف العوم تقريبًا... ولكن التيار كـــان أســـرع منهم وسحبها إلى المنطقة العميقة عند السدّ... اعترانـــى كـــرْب مخيف فى تلك اللحظات... لن يعثروا عليها يا إلهى، لن يعثـــروا عليها، لأن الظلام مطبق ولا يُرى لها أثر...– لم تتمالك نفـــسها وبكت بحرقة، مخفية وجهها بيديها وكومْة المنديل–.

وقف القاضى خلفها ووضع يده على ظهرها:

اهدئى، يا آنسة، اهدئى، بالله عليك...

نظرا للمرة الأخيرة نحو وادى الأضواء: كان يتذبذب فى الخلفية، فى دبيب دقيق ولا نهائى، البريق الأزرق والأحمر والأخضر للافتات التجارية؛ وتطفو كتل البيوت فى ألواح رأسية لعتمة زرقاء ضاربة للسواد، مثل أوجه موشور على لحاء صخرة؛ وتمتد صفوف طويلة من المصابيح ناحية الحقول لتغرق فى سواد الأرض؛ وفى الأعالى، تطفو الهالة البنفسجية مثل قبة شاسعة ومتعكرة بالضوء المُذَرَّى فى الهواء. القمر فحسب، عاليًا، كان يضيىء الحقول. اكتشفا اللمعان الساكن لمعدن الدراجة، الملقاة بين الأخاديد.

أمسكها سانتوس من المقود ومشى بها حتى الطريق. كانت كارمن تخاصره، دافنة وجهها فى رقبته.

ــ ماذا دهاكِ؟- قال سانتوس-.

ــ لا شيء. حنان فائض- كانت تضحك-.

ــ هيا، هيا بنا، لقد تأخرنا.

ركبا الدراجة، وبعد أن استلما ناصية طريق بلنسية، أخذ سانتوس فى التبديل بسرعة، وظل يدفع الدراجة قُدُما إلى الأمام حتى

جعلها على وشك الطيران. اجتازا، والهواء يلفح وجهيهما، قرية بابيكاس، حيث يُرى أناس قليلون فى الشارع. خرجا إلى الطريق ثانية وشاهدت كارمن القرية خلفها: كان ضوء القمر يحددها من جانب واحد، واضعًا إياه فى حلية من الجصّ، تجرى على طول الأسطح كلها. كان يبتعد بأقصى سرعة، والدراجة تهتز وتنتفض على بلاط الرّصيف.

ـ هذه هى نفحات النعيم المقيم، يا سانتوس! أسرع ما استطعت.

كان يحس بشعر كارمن متطايرًا إلى جوار وجهه. دخلا بعد ذلك «قنطرة بابيكاس»، واندهشت الفتاة لرؤية نفسها فجأة بين اللافتات المضيئة لدور السينما والبارات وجموع البشر والأنوار وجلبة المدينة؛ سألت:

ـ ما هذه؟

كان سانتوس قد خفّف السرعة، ضابطًا إيقاع الدراجة على إيقاع حركة الناس.

ـ هذه؟ هذه هى بابيكاس «سيتى»، المدينة الحدودية– أجاب ضاحكًا–.

غادر الطلاب؛ أما زملاء لوثيتا فقد ظلوا جالسين، فى صمت، على كراسى الشرفة، تحت ضوء مصباح. كانت رؤوسهم متداعية على الموائد، ووجوههم مخبوءة بين أذرعتهم. كان زكريا يسترق النظر إلى الشرطى المسنّ الذى يتجاذب أطراف الحديث مع السائق بيثنتى. لم يكن يسمع ما يقولان، نتيجة لصخب الماء. كان الاثنان واقفين على الرصيف، إلى جوار العجلتين المسننتين اللتين ترفعان الهويسين. أخرج السائق تبغًا، ولكن الشرطى اعتذر عن التدخين، بحجة أنه ما زال فى الخدمة. كانا ينظران إلى المياه المتلاطمة، حيث يندفع بقوة المسيل كله.

ـــ (بقى ده) كلام!- قال السائق-. يا للخدمة الميمونة! حضراتكم تتحملون الكثير.

ـــ أخشى أن يخرج السيد القاضى ويضبطنى متلبسًا بالتدخين، وهذه ملاحظة فى غير صالحى. عندما ينتهى هذا كله.

ـــ لا أحد يدرى له نهاية!

ـــ كل هذا يتم بخطوات محسوبة؛ والعجلة فيها لا تفيد.

ـــ العجلة! لا توجد عجلة على الإطلاق. وما ظنك بالعجلة فى مهنتى هذه؟. أنا محروم منها، ويجب علىّ فحسب الانتظار ثم الانتظار.

حتى بعد المشى، ليس أمامى من سبيل سوى ضبط الإيقاع على خبب «الباليّا». إن سرعتها كما تعرف لا تزيد عن الستين فى الساعة؛ ولن تسوقها بخيزرانة. وهكذا فإن السرعة لا تعرفها حتى. أنا فى سبات عميق، ألا يبدو لك هذا؟

- بلى. فاقدو الصبر لا يسمنون.

- لهذا السبب بالضبط. ولذا فإنهم عندما يسألوننى فى البيت: ومتى ستعود؟ أجيب بطريقة آلية لا تتغير: ليست لدىّ أدنى فكرة. من أجل ماذا أجعل القلق يساورهم؟ يمكن أن يحدث عطل، أوتداهم المرء بليّة غير متوقعة، وعندئذ تعرف أنه لا ينتظرك أحد، ولا تشغل بالك بأنهم سيقلقون عليك ويتساءلون فيما بينهم عما حدث لهذا الرجل وجعله يتأخر.

- هذا هو الأفضل بالتأكيد لمنْ هو فى مثل حالتك–قال دون اهتمام الشرطى جوميرسيندو–.

وبعد هنيهة من الصمت أضاف:

- من المؤكد أنك سوف تحمل الجثة إلى المستودع. من سيكون سوى حضرتك؟

ـ وهذا ما أخشاه. إنه لا يعجبنى، ولا يروق لي.

ـ لماذا، يا رجل؟- ردّ جوميرسيندو-. الأمر لا يستحق. إنها مجرد تهيؤات أو حساسية مفرطة من جانبك. وماذا سيفرق معـك، لـو كانوا أحياء أو موتى؟

ـ تهيؤات أو سمِّها ما شئت، ولكن النتيجة بالنسبة لي واحدة. لم أقل هذا لأحد من قبلك صراحة.

رمى عقب السيجارة فى المياه السوداء ونفث الـدخان بتـؤدة، ثم أضاف:

ـ لا يعجبنى على الإطلاق حمل الموتى فى سـيارتى. لا يعجبنـى ولو مثقال ذرة.

فى مستطيل الضوء الذى يقذف به باب أوريليا نحـو الـساحة، تعرف جوميرسيندو على خيال القبعة المثلثة لزميله الذى أطلّ لينادى على سيبستيان. مرق الأخير من بين الموائد ودخل الاسـتراحة مـع الشرطى. استأنف جوميرسيندو الحديث الذى انقطع:

ـ الأكثر خطرًا هم الأحياء- قال-. هـؤلاء هـم الـذين يجلبـون الأحزان؛ أما الموتى، المساكين، فجانبهم مأمون.

- أنا متفق معك، ولكن العالم كله يتأذى من هذا الأمر ويحسب له ألف حساب، وبالقطع لسبب ما. القضية لا تتعلق، إذن، بالتهيؤات أو الحساسية المفرطة.

- (شوف)، لو خيرونى بين الاحتكاك بالأموات وبين ملاحقة المجرمين على مدار الساعة والتعامل المأفون مع الرؤساء، لاخترت الأمر الأول وأنا مغمض العينين، تصوّر.

- أما أنا، فلا. قد يستثير ضحكك ما أقوله، ولكن ما يحدث لي بهذا الخصوص هو شيء جد غريب. وهذا ما عرفته من مرات سابقة كان لزامًا عليّ فعله. أتدرى ما هو الانطباع أو الأثر الذى يظل بداخلى بعد حملى ميتًا فى السيارة؟- توقف هنيهة ثم تابع-. ينتابنى الإحساس بأن الكرسى قد بقى كالمتسخ، تخيل حضرتك هذا الهراء. اسمع، لدرجة أننى أخاف من لمسه، وكأن الجرذان والأفاعى تمرح عليه. ولا تظن حضرتك أنه ينفك عنى بعد أيام قليلة. وبعد ذلك أنسى وكأن شيئًا لم يكن.

أمال الشرطى رأسه إلى جانب:

إنها التخيلات- قال-. لكل منا تخيلاته الخاصة.

ــ ولهذا لا يعجبنى. ولا يرجع الأمر إلى مسألة الحمل فى حد ذاتها إلى أىّ مكان، لأنها لا تستغرق إلا وقتًا قصيرًا؛ بل لما يحدث لي فى الأيام التالية، وتذكرى بأنه كان جالسًا عندى هنا، وتصورى بأنه قد ترك شيئًا ملزوقًا على فرش الكرسى، أو ما أدرانى، ولا يفارقنى هذا الإحساس.

ــ يمكن أن يكون هذا مبررًا فى حالة الخوف من العدوى. أما فى هذه...

ــ لقد أتيت بالمفيد- قال السائق-؛ بالنسبة لي، الخوف من الجثث مثل الخوف من العدوى.

ــ إنها قناعات يفتح المرء لها بابًا كى تعشش فى رأسه، ولا يكلف خاطره بالبحث عما يُعينه من أسباب منطقية لطردها.

ــ لا فض فوك! أنا أعترف بهذا؛ كلما كانت الفكرة أشد بلاهة ولا تعتمد على أساس، كلما كان من الصعب على المرء اقتلاعها من مخّه. وهذه هى التهيؤات، لا أكثر ولا أقل، نعم يا سيدى.

هنالك على الموائد، كان الجميع ساكنًا بلا حراك، فى لُمَّة خائرة القوى وصامتة.

خرج صبى النور لجمع الموائد والكراسى المقصيّة وأخذ يطويها، واحدًا بعد آخر، ويضعها فى مخزن ملحق بالبيت. أُخليت الشرفة من الموائد والكراسى، ولم يبق سوى المشغولة بزملاء لوثيتا، كأنها متراس: كل ما حوله خالٍ. خرجت الفتاة بعد ذلك بالمقشة وشرعت فى كنس الأرضية حولهم: أوراق مدعوسة، قشر فواكه وفوط ورقية، علب صغيرة فارغة وأعقاب سيجار وأغطية زجاجات بيرة وبرتقال وكوكاكولا، صوانى كرتون وعلب محطمة وعليها عناوين محلات الحلوى، سدّادات فلّينية، قشر فول سودانى، صحف يومية، وكلها مبعثرة ومكفّتة بالتراب، بعد انتهاء الحفل. كانت تسحبه بالمقشة، وتكوّمه بجوار الرصيف؛ ثم تقوم بعد ذلك بدفعه لكى يتخطى «الوَزَرة» الأسمنتية ويسقط فى الماء. كانت الفضلات الآبقة تلمع بالبياض للحظة ثم تختفى سريعًا فى الدوّامة المعتمة للهويس، مع هروب النهر.

خرج الشرطى الشاب من جديد، ومعه سيبستيان وبولينا؛ وبعد أن تحدث مع زميله أبلغ الجميع بصوت عالٍ أن بإمكانهم المغادرة، لأن سعادة القاضى، أمر بإطلاق سراحهم. نهضوا متثاقلين، متعبين، وعندئذ خرج الصبى ثانية لجمع الكراسى الباقية.

ـ ونحن سنذهب إلى حيث يوجد سعادة القاضى- قال الشرطى الشاب لجوميرسيندو-.

ظل بيثنتى وحيدًا فى الساحة. لم يكن قد تبقى أحد تقريبًا فى المحل عندما اتجه الشرطيان نحو المنعطف.

ـ تحت أمرك يا سعادة القاضى.

ـ هل أخليتما سبيلهم؟

ـ نعم يا سيدى.

ـ حسنًا، انتظرا هنا.

أخذ القاضى بعد ذلك كيس لوثيتا وأغراضها ثم اتجه إلى السكرتير:

ـ لنفرغ من هذا.

كتب السكرتير: «وبعد ذلك تم إحصاء وجرد الملابس والمتعلقات الشخصية الخاصة بالضحية، حيث تبين أنها كالتالى:»

فتح القاضى الكيس وأملى عليه:

ـ كيس من القماش؛ فستان مطبوع بالألوان؛ إيشارب للرقبة شرحه- كان يُبعد على الكرسى الأشياء التى يعدّها- اكتب:

ملابس داخلية، قطعتان. هل دوّنتها؟ جيد؛ فردتا صندل من... البلاستيك؛ منديل جيب؛ فوطة بخطوط زرقاء؛ حزام أحمر من البلاستيك- توقفِ-. حسناً، المايوه موجود عليها. لنرى ماذا يوجد هنا؟- دسّ يده فى الكيس وعندئذ رنّت بعض الأغراض-. مشط- تابع-؛ صينية ألومنيوم؛ شوكة عادية؛ فوطة طعام؛ مرآة صغيرة؛ علبة كريم للشمس- كان يرصّ بالترتيب الأشياء التى يستخرجها أمام أوراق السكرتير على المائدة.

توقف لحظة، وبيده كيس نقود، محاولاً فتحه.

ـ حسناً، كيس نقود أزرق اللون- أفرغ محتواه على المائدة-. لنرى الموجود فيه- عدّ النقود-. استمر فى الكتابة بدون فاصل؛ سبع بيزيتات معدنية وخمسة وثمانون سنتيمًا؛ طابع بريد- توقف مرة أخرى لملاحظة شىء بين أصابعه، استمر-؛ مشبك من المجوهرات المقلدة على شكل رأس كلب. أضِف بين قوسين «S ونقطة ثم V ونقطة»، أىّ بدون قيمة؛ إصبع أحمر شفاه؛ وخمس صور- ألقى عليها نظرة سريعة-. أعتقد أن هذا هو كل شىء. راجِعْه ثانية، والقائمة فى يدك، لعل وعسى.

أخرج القاضى علبة سجائره وأشعل منها واحدة. كان يتمشى. انتهى السكرتير بعد ذلك من مراجعة أوراقه.

ـ لا ينقص شيء. كله تمام.

ـ هيا بنا إذن. لملم أوراقك. يمكن لحضرتيكما الصعود بالجثة.

حمل الشرطيان جسد لوثيتا وصعدا به حتى الساحة الخارجية.

ـ لقد أحضرت لك الهدية- همس الشرطى المسنّ فى أذن بيثنتـــى، عندما وصلا إليه-.

ـ ما باليد حيلة!- أجاب متنهدًا فى أثناء فتحه للباب الصغير.

أراحوا جسد لوثيتا على المقعد الخلفى. كانت أوريليا خارجة مع القاضى.

ـ اجلس هنا فى الخلف، مع الضحية- قال القاضى للسكرتير-.

ـ ها أنت تعرف، يا سيدى القاضى- كانت صاحبة الخان تودعه-، أتمنى أن تشرفونا بالزيارة ذات مساء لكى نقوم معكم بالواجب... وأن...

ـ بإذن الله، شكرًا على كل شيء، يا سيدتى. إلى اللقاء- ردّ عليهـــا وهو يركب السيارة-.

ـ هل تأمر سيادتك بأى شيء؟- سأل الشرطى المسنّ-.

ـ لا شيء. يمكنكما استئناف مهام خدمتكما. فى أمان الله.

رنّت صفقتا البابين، وأخذ بيثنتى موقعه أمام عجلة القيادة.

ـ تحت أمرك.

ـ إلى اللقاء، يا سيدى القاضى- ودّعته المرأة-. ها أنت تعرف...!

ـ مع السلامة- ردّ القاضى، مقاطعًا إيّاها-.

كانت قد خرجت إلى الساحة أيضًا الابنة، برفقة الصبى ورجلين آخرين. كان الشرطيان فى وضع الثبات، فى أثناء شروع بيثنتى فى إجراء المناورة بالسيارة. سقط ضوء الكشّافين على العجلتين المسننتين للهويسين واستدار نحو الحوض الفارغ من المياه حتى وصل إلى طرف نهاية منطقة الأشجار والقنطرة الصغيرة؛ وكشف بوَهَن، هنالك، عن كثافة جذوع وقمم الأشجار؛ ثم انحسر من جديد بالمكان نفسه، عندما حجزه خِطْم المنحدر والجذع الضخم لشجرة التوت، إلى أن انتهت الاستدارة فى مواجهة الطريق. أدخل بيثنتى السرعة الثانية، وتهادت السيارة على المنحدر الخفيف الصاعد نحو طريق بساتين الكروم، تاركة خلفها، فى تراب العجلات، الهيئتين الساكنتين للشرطيين اللذين كانا يؤديان التحية، ثابتين، والذراع الأيمن

لكل منهما مستعرض على الصدر. وبعد اجتياز بساتين الكروم انحرفت «الباليّا» جهة اليسار، آخذة طريق سان فرناندو. كان متبقيًا أقل من كيلومتر للوصول إلى القرية، وكانت أعمدة الإنارة العامة هى وحدها التى مازالت مضاءة تقريبًا، بالإضافة إلى عدد من أبواب الحانات. كانوا صامتين فى السيارة. مشوا فى شارع على اليمين ووصلوا إلى ميدان مستدير واسع، تحفّ به بيوت واطئة، وتتوسطه نافورة مياه وشجرة صنوبر وتمثال. ومن على الجانب الآخر للميدان خرجوا مجددًا من القرية ثم هبطوا بحذاء دير وبيت كبير لأعمال الفلاحة، باتجاه النهر. كانت المقابر هناك، تحت، فى الأراضى البور، على يمين الطريق، وعلى بُعد ما لا يزيد عن مائة متر من الخراما. خرج مسئول المستودع لدى سماعه لضجيج السيارة وفتح لهم البوابة الحديدية. أوقف بيثنتى السيارة على الطريق. ترجّلوا.

ـ مساء الخير. هل كل شىء جاهز؟

ـ نعم، يا سيدى القاضى؛ كله جاهز.

ـ هيا إذن.

ساعد اللحّاد السكرتير فى نقل الجسد ووضعه على مائدة الرخام، ثم خلعا من عليه المايوه.أملى السكرتير بيانات لوثيتا، ووقّع

على تذكرة الدخول. وفى النهاية أخذ السكرتير البطانية والمايوه، ثم خرج الرجال الثلاثة من المستودع، تاركين جسد لوثيتا ممددًا على رخام المائدة المائلة. أطفأ المسئول النور وأغلق الباب بالمفتاح.

ــ لن يتأخر الطبيب الشرعى فى الوصول– قال القاضى المحقِّق–.

ــ حسنًا، يا سيدى القاضى، تصحبكم السلامة.

ــ شكرًا. فى أمان الله.

أغلق المسئول باب السيارة، وصعدت «البليّا» من جديد نحو سان فرناندو، طريق ألكالا.

صعدوا نحو الخان. كان صخب الهويس يتضاءل، شيئًا فشيئًا، خلف ظهرانيهم.تيتو ودانييل كانا يمشيان فى المؤخرة، وأمامهما، زكريا مع ميلى. تأخر فرناندو ليقول له:

ــ ما يمكنك عمله يا زكريا، هو العودة على دراجتها.

ــ أنا فكرت فى هذا. ولكن فيما بعد، ماذا ترون أنّى فاعل بهذه الدراجة؟

- إيه...؟ لا أدرى. لا أدرى ماذا نفعل. ولكن...

- اسكت، يا فرناندو- قاطعته ميلى-. اتركه الآن، أستحلفك بالرب والعذراء، سوف نهتدى إلى حلّ فيما بعد.

تقدّم تيتو حتى وصل إليهم.

- لا، يا ميلى- قال لها هائجًا، فيما يشبه الصراخ-؛ الآن يجب أن نفكر فيه، الآن! منْ الذى سيقوله لوالدتها هذه الليلة؟ أخبرينى!، منْ سيمثّل هناك والدراجة فى يده...؟

توقفوا على قارعة الطريق.

- لا تصرخ، يا تيتو، بالله عليك- توسلت إليه ميلى، بنغمة باكية-؛ دع هذا الآن، دعه؛ سنفكر فيه بعد ذلك؛ لا ترهقونى أكثر من ذلك، يكفى ما أنا فيه...!

- بل ينبغى التفكير فيه الآن، يا ميلى، منْ الذى سيلقى عليها الخبر؟، منْ؟

- اهدأ؟ يا تيتو- تدخل دانييل-؛ التمادى فى الغمّ بلا طائل، سيزيد الطين بلّة.

ـ ولكن المرء يعتريه القنوط، يا دانييل، عندما يفكر في مسألة الذهاب إلى والدتها هناك...

ـ يجب فعل هذا، على أىّ حال– قاطعه زكريا–.

ـ نعم يا زكريا– قال تيتو–، يجب أن نخبرها، أنا أعرف. ولكن المعضلة هى كيف؟ كيف نقوله لها؟

استأنفوا السير من جديد.

ـ لا أعتقد أن هناك طريقة أفضل من أخرى– أجاب زكريا– لإخبار أم بموت ابنتها. كل الطرق فى السوء سواء.

ـ إنه يصيبنى بالهلع– تأوّه تيتو–.

ـ دعه– قالت ميلى–. سنذهب كلنا... على أىّ حال. لا تفكروا فيه الآن، من فضلكم.

ـ نعم. يجب أن نذهب جميعًا– قال تيتو–. كلنا معًا. أمّا على نحو آخر، فليست لدىّ الشجاعة.

ـ ولا أىّ أحد غيرك– قال دانييل–. لو كان علىّ الذهاب بمفردى لهربت؛ لن أقوى على صعود سلّم البيت، بل سأولّى الأدبار من على البوابة ذاتها.

كان ميجيل وأليثيا وبولينا وسيبستيان ينتظرونهم على مقربة من الخان.

ــ ليأت أحد منكم بالأغراض من الداخل– قال سيبس–، لوضعها فى صندوق الموتوسيكل. سننتظر هنا. أنا لا أرغب فى الدخول، لو لم يكن لديكم مانع.

ــ لا تشغل بالك – قال له زكريا–، سندخل نحن، ونحضر لك الأمتعة.

ظلت بولينا مع سيبستيان فى الخارج، بينما دخل الآخرون. ألقى ميجيل بالتحية:

ــ مساء الخير.

ــ ماذا؟ كيف حالكم– ردّ موريثيو–. لا تدرون، أيها الفتيان، كم هو مبلغ أسفنا على تلك المصيبة التى لم تكن على البال أو الخاطر، البقاء لله.

نظر إليه ميجيل، لكى يرد بشىء، ولكنه لم يجد ما يقوله. أطبق الصمت.

ــ هذا هو حال الدنيا.

ـ حسنًا، اعمل لنا الحساب، لو تكرمت. سوف نمشى حالاً.

ـ فى الحال. لو تحتاجون لأى شىء...

ـ شكرًا– ردّ ميجيل–. سندخل، بعد إذنك، لإحضار الدراجات.

ـ انتظروا حتى أضيىء لكم النور.

كان الرجل صاحب الحذاء الأبيض ينظر إلى الأرض؛ والقروىّ إلى قاع الكأس. لاحظ كارميلو الوجوه كلها، واحدًا تِلْو آخر، لدى مرورهم فى صف لدخول الدهليز، المفضى إلى الحديقة. وعند رجوعهم بالدراجات، أطلّت المرأتان من نافذة المطبخ.

قالت فاوستينا:

ـ رحمتك يا رب!، لقد قضيتم رحلة تعيسة... وا أسفاه على الفتاة الشابة! يا للحسرة، يا إلهى! نتقدم إليكم بخالص العزاء، وكان الله فى عونكم.

وبعد ذلك أخذ فرناندو الصوانى التى وضعها موريثيو على طاولة البار. بقى ميجيل، والدراجة فى يده، منتظرًا إعداد موريثيو للحساب، بين صمت الجميع.

دفع أخيرًا وخرج، عندما كان سيبستيان على أهبة الرحيل بالموتوسيكل.

ــ انتظرانا عند مخرج الطريق السريع، على ناصية شارع كارتاخينا- نادى ميجيل بأعلى صوته على سيبستيان، وسط صخب الموتوسيكل-. مفهوم؟ سوف نتحدث هناك.

ــ اتفقنا.

داس سيبستيان على بِدال البنزين واستلم الطريق. كان ماكاريو وكارميلو قد خرجا إلى عتبة الباب لرؤيتهم وهم يغادرون. تنهدت أليثيا:

ــ ومنْ لديه القدرة الآن لكى يبدّل حتى مدريد؟

ــ لابد من الذهاب على أىّ حال.

سبقهم الموتوسيكل، والآن يُرى وميض كشّاف الموتوسيكل لدى استلامه لناصية الطريق العام. كان دانييل آخر فرد يمتطى دراجته. ابتعدت، بسرعة، المجموعة كلها، والصمت يلفها. عاد ماكاريو وكارميلو من جديد إلى داخل المحلّ.

ــ المساكين!

ـ وكانوا يحبونها- قال ماكاريو-. من الواضح أنهم جميعًا كانوا يحبون الفتاة التى غرقت. لقد دققت النظر فيهم، حين قدومهم، ولاحظت أثر الدموع، قليلة أم كثيرة، فى مآقيهم جميعًا. لقد بكوها بصدق، ولا يقتصر الأمر على الفتيات، بل يشمل أيضًا عددًا من الفتيان. عندما يبكى إنسان هكذا، فهذا يعنى أنه يقاسى من ألم عظيم، من شىء يفرى بداخله- وضع يده على شكل عنكبوت فوق بطنه ثم ضغط عليها-.

ـ هذه المصائب الفُجائية تُذهب عقل أشد الناس حلمًا- قال الراعى-؛ وبشكل أكبر عندما تقع فى يوم عُطلة؛ فى اليوم المخصص لراحة البال والبهجة، والذى يفكر المرء فى قضائه بالطول والعرض أو «بطريقة وحشية»، كما يقول شباب هذه الأيام؛ ومن ثمّ فإن وقع المصيبة فيه يماثل الأثر الذى يحدثه السقوط المباغت من الأبيض إلى الأسود.

قال القروى:

ـ من المعروف عن المدريديين، أن أعيادهم لا تمر أبدًا بسلام. اللهو والتسلية عندهم يتسببان فى حوادث أكثر بكثير من الناجمة

عن العمل. وبهذا الشكل تقتل الأعياد منهم أضعاف ما تقتله أيام العمل. وعلى هذا المنوال يقضى المدريديون عطلاتهم وأعيادهم.

ـ وهذا ما يَبدو لي– وافقه الرّاعى–. إنهم يريدون، من شدة لهفتهم على اللهو والتسلية، لمس السماء بأيديهم، ولكنهم فى أغلب الأحيان يسقطون ويتهشمون. وبهذه اللهفة وهذا التهتك يبدو أنهم مجانين؛ أناس يائسون من الحياة، لا يُهدئ من روعهم سوى الفوضى والصخب.

ـ وهذا ما أظنه– وافق القروىّ–.

ـ لا يبالون كثيرًا بالرحلات وفنون التسلية؛ ولكن لا داعى أيضًا للمبالغة، لأن مدريد هى أم الدنيا، وفيها كل شىء.

ـ مدريد هى أفضل ما فى إسبانيا كلها– قال كارميلو بإيماءة حاسمة–.

ـ الأفضل– قال لوثيو، بتؤدة– والأسوأ أيضًا.

احتسى ماكاريو النبيذ دفعة واحدة.

ـ حسنًا،– قال بعد ذلك–؛ أعتقد أننى رأيت كل ما كان ينبغى رؤيته اليوم؛ منْ سيمشى معى؟

ـ الكل– قال الراعى–. هذا وأنا، على الأقل– أمسك القروىّ من كمّ قميصه–.

ـ انتظر ثانية– احتجّ القروىّ–. هل يجرى أحد وراءنا؟

ـ أبدًا، قلت إلى البيت ولا شيء أكثر. يجب التبكير غدًا. النعاج لا تأكل إلا فى (الطراوة)، ولو تأخرت (هَبَابة) تتسد نفسها من الحرّ، والحكاية (مش ناقصة) لأنها فى الأساس جلد على عظم. أنا أصْحو الخامسة فجرًا، كما تعرف. «الرّن رنّ» واحتساء القهوة وحىّ على العمل، لأركل الحجارة بقدمىّ هناك. أنت تعرف حياتى. لا تماطل إذن، يا ليودورو، ولا تُدخلنى فى متاهات. اخلع نفسك بالتى هى أحسن وأمامى، النوم حق أيضًا من حقوق أجسادنا علينا.

ـ حسنًا، يا رجل، حسنًا! دعنى على الأقل حتى أفرغ مما تبقى فى كأسى. هذه هى الأنانية بعينها؛ لأنك تصحو مبكرًا تريد أن تجعلنا جميعًا نخلد إلى النوم. واتركنى، لأنك ستمزق القميص، ولو تمزق لن أجد بعد ذلك ما أستر به نفسى.

التفت إلى طاولة البار فى أثناء تَرْك الآخر لكمّ القميص.

ـــ حسابى، يا موريثيو؟

ـــ أربعة عشر كأسًا- أجرى عملية الضرب فى ذهنه-. الحساب: أربع بيزيتات وعشرون سنتيمًا، لا أكثر.

أخرج القروىّ «دورو»(*) من جيب فى وسطه.

ـــ وأنا أيضًا، بعد إذنكم- قال كارميلو-.

قام الأربعة المغادرون بدفع الحساب، واحدًا بعد آخر.

ـــ طابت ليلتكم.

ـــ إلى اللقاء، يا أصدقاء.

ـــ مع السلامة؛ إلى اللقاء.

بقى لوثيو والرجل صاحب الحذاء الأبيض.

ـــ وحاول أن تتعشى يا رجل، تناول عشاءك- قال ماكاريو لهذا الأخير.

(*) «دورو» (Duro): عملة معدنية فئة الخمس بيزيتات. والبيزيتة كانت العملة المستخدمة فى إسبانيا قبل انضمامها إلى منطقة اليورو- المترجم-.

ـ سنرى– ابتسم بجفاف–. مع السلامة.

خرج الأربعة. مرت فترة صمت طويلة. كـان الرجـل صـاحب الحذاء الأبيض ينظر إلى ظاهر قدميه ويعلو ويهبط على طرفيهما. أمـا مورثيو فكان يرتكز بكوعيه على خشب طاولة البار، وفكّه بـين يديـه، اللتين يمسك بهما رأسه، وكأنها كرة مصمتة من خشب شجر اللوز. كان نظره معلقًا بنقطة محددة، لا يحيد عنها. وكان لوثيو ينظر إلـى صَـفار السقف، الأملس، والمنبعج من الوسط، مثل كرْش كبير، تطلّ من شـقّ فيه حصيرة البوص. كانـت دُرَف النوافـذ مدهونـة بـاللون الأزرق الرصاصى. تبدو أرجل الموائد رفيعة، مقارنة بحمل الرخام الثقيل الجاثم فوقها؛ كما تبدو الأرفف وكأنها سوف تسقط على رأس موريثيـو، مـن كثرة ما عليها من زجاجات. كانت قد دخلت من قبل فراشـات معتمـة صغيرة، وهى تحوم الآن حول المصباح المتدلى من السقف. وهنالـك، خارج الباب، وتحت ضوء القمر، يبرز البرج المكسور* لمـصنع سـان فرناندو القديم، المتهدم. لم تكن الصور الملوّنة للتقاويم تُفصح عن نفسها، لأن الكرتون المقعّر كان يعكس النور. كما كان الفراغ الـضيق للبـاب يكشف عن ثخانة الجدارين الجاثمين على العتبة.

ـ وأوكانيا هذا؛ ما الذى يجعله يأتى لرؤيتك كل صيف؟

- يأتى نعم- أجاب موريثيو-. ولكن لماذا تسألنى عن هذا الآن؟

- أبدًا، لقد تذكرت فحسب. بمعنى أنه يكنّ لك التقدير، وأنك موضع اعتباره؟

- بالطبع يكنّه له- تدخل الرجل صاحب الحذاء الأبيض طرفًا ثالثًا فى الحوار-، حين يأتى لزيارتهم من منطلق الوفاء بالواجب، حتى لو أدّى ذلك إلى تضييعه ليوم عطلة، ورغم مشقة حمله لهذه العائلة الكبيرة فوق ظهره.

- إنه رجل طيب- قال موريثيو-؛ ولكن طيب بجد.

- يكفى أن تسمعه. الناس يُعرفون من كلامهم.

- قد يكون طيبًا بالرغم من اللقب- قال لوثيو، مبتسمًا-. اللقب لا يعجبنى.

- أىّ لقب تقصد؟

- أوكانيا؛ وهل هناك غيره؟. ألا يوحى إليكما بشىء؟ بالنسبة لي، يوحى.

ابتسم موريثيو، رافعًا ذقنه.

ـــ آه، فهمت.

صمتوا، وبعد ذلك تحدث لوثيو من جديد:

ـــ لقد حكت لنا ابنتك عما كان بينكما هناك، فى المستشفى الإقليمى.

ـــ كنا نتقاسم الهموم، لكى نخفف من أوجاعنا.

ـــ لم تكن كبيرة جدًا، على ما أظن.

عادوا للصمت.

ـــ ألن تتناول عشاءك، يا موريثيو؟

ـــ بعد قليل من الآن.

ـــ أرجو ألا نكون السبب فى بقائك هنا. سوف أغادر فى التوّ.

ـــ لا؛ لا تشغل بالك؛ لستما السبب. أنتما محل ثقة، والحمد لله. الحكاية وما فيها إن نفسى مسدودة.

ـــ لأنك تستيقظ فى الوقت الذى تريده، فلست فى عجلة على الإطلاق.

ـ أنا أعرف ماذا جرى له هذه الليلة– تدخل لوثيو، طرفًا ثالثًا–. لقد شمّ رائحة العدس كما شممته أنا، يعرف أنه الموجود للعشاء، ولذا فإنه لا يعيره أدنى اهتمام. صح، يا موريثيو؟، أليس كذلك؟

ـ أنا لست من المتعبدين فى محراب العدس، ولم أكن كذلك فى يوم من الأيام.

ـ العدس يُكتب بحروف من نور فى معظم البيوت. أنت إذن من طبقة السّادة.

ـ إنه من الأطباق الحامية والثقيلة فى الصيف...– قال الرجل صاحب الحذاء الأبيض–.

هاجمته (كَرْشة نَفَس).

ـ ماذا حدث؟– سأل موريثيو بفزع–.

كان الرجل صاحب الحذاء الأبيض يتنفس بصعوبة، لكنه قال:

ـ من تذكرى فحسب... للطعام. لقد تراءى لي العدس... أرأيتما؟ يا له من شىء يجلب الضيق!. هذا ما قلته.

نظر موريثيو ولوثيو إلى وجهه، الذى كان شاحبًا.

ـ سامحنى- قال لوثيو-؛ لم أكن أظن أننى بهذا سوف أجعل الهاجس يتملكك.

كان الآخر يطوّق بيديه رقبته ويتنفس بعمق. هاجمته (كَرْشة النَفَس) مرة أخرى وبشكل أكثر حدّة، مما جعله يغطى فمه. خرج مسرعًا إلى الطريق. لحق به موريثيو. سُمع سعال عوائى مّبرح. دخل بعد ذلك، وهو ينظف فمه بمنديل مكوىّ، ومطوىّ بعناية. سأله لوثيو:

ـ هل تقيأت؟

قال الرجل صاحب الحذاء الأبيض «نعم» بإيماءة من رأسه.

ـ لقد تخلصت إذن من كل مكروه بداخلك.

ـ تناول كوبًا من الماء- قال موريثيو، وهو يعاود الدخول خلف طاولة البار-.

ـ ها أنتما تريان المشهد الذى كان لزامًا علىّ عرضه أمامكما فى النهاية- قال الرجل صاحب الحذاء الأبيض-. يا للخجل!- ابتسم، محزونًا-. وبالطبع لا يمكننى الذهاب به إلى أىّ مكان.

شرب جرعة ماء من الكوب الذى قدمه له موريثيو.

ـ كلام فارغ! ترهات! وما ذنبك أنت، إذا كانت الحوادث تؤثر فيك هكذا؟

ـ هل تشعر بأنك أفضل الآن؟

ـ نعم، يا لوثيو، شكرًا جزيلاً. سامحانى على هذا التصرف الأخرق.

ـ طلب السماح فى غير محله- قال موريثيو-. وهل يستطيع المرء السيطرة على نفسه فى هذه الظروف؟. لا تشغل بالك بما حدث، أرجوك.

ـ إنه شىء غريب. من المثير للسخرية أن يبدو المرء هكذا- صمت صمتًا متشككًا-. حسنًا، يا سادة، وإزاء النجاح الملموس الذى تحقق أعلن الانسحاب إلى البيت، حتى لا أضايقكما أكثر من هذا.

تململ موريثيو:

ـ أية غُمّة هذه التى ملكت عليك نفسك! أرأيت كيف تريد أن تتركنا وتمشى بسبب تفاهة من التفاهات؟ إياك واللجوء إلى هذا الصنيع، طوال حياتك، بسبب شىء مماثل.

ـ لن أفعل، ولكن الوقت قد تأخر أيضًا– ردّ الرجل صاحب الحــذاء الأبيض–. لابد إنها الثانية عشرة والنصف– لمس الــساعة فــى معصمه، دون أن ينظر إليها–؛ وكما تعرفان فإن هناك مــسافة لا بأس بها حتى كوسلادا، وعما قريب سوف يختفــى القمــر وراء التلال، ألا تريان أنه البدر؟. وأنا أرجو ألا يفوتنى الوقــت حتــى يمكننى الاهتداء بنوره لحين بلوغى عتبة الباب. أما خلاف هــذا، فسأكون عُرضة للتخبط بين تلك الوعورات.

ـ كما تريد حضرتك، عندئذ– قال موريثيو–. مــاذا ســنفعل لــك، مادمت تُصعِّب علينا الأمور!. المهم، ألا تصدع رأسك بــالتفكير فيما حدث، فهذا ما لا أرضاه.

ـ حسابى، كم؟

ـ الإجمالى: ست بيزيتات وأربعون سنتيمًا.

أخرج حافظة نقود داكنة من الجيب الخلفى للبنطال وسلّم موريثيو سبع بيزيتات فى أثناء قوله:

ـ هذا... أرجو منكما، إن لم يكن لديكما مانع، عــدم إخبــار أحــد بموضوع التقيؤ الأحمق هذا، اتفقنا؟

ـ اسمع– قال له موريثيو–؛ أنت تهيننى بهذا التحذير. أنا لا أكاد أصدق مجرد نطقك به؛ لأنه، من جهة، يتنافى مع الصداقة العميقة التى تربط بيننا؛ ولأنه، من جهة أخرى، يتنافى مع الأخلاقيات المعمول بها فى محلّى، والمتمثلة فى عدم ذكر أحد فى غيابه. ولذا فسوف أعتبر ما صدر عنك فى التوّ مجرد هفْوة أو زلّة لسان– أعطاه الفكّة الزائدة عن الحساب: الستين سنتيما–.

ـ معذرة، يا موريثيو؛ سامحنى مرة أخرى– قال الرجل صاحب الحذاء الأبيض، وهو يأخذ الباقى–. يبدو أن الصواب يجافينى هذه الليلة. من الوضح أنها ليست ليلتى. لنرى إذا كنت، بعد النوم، سأصحو بحظ مغاير– أعاد حافظة نقوده إلى مكانها السابق–. إلى اللقاء إذن، وأحلامًا سعيدة.

ـ مع السلامة، يا رجل– قال موريثيو–. عذرك معك، أنت مغتفر على الدوام؛ وأرجو أن يستمر معك ضوء القمر حتى باب البيت.

ـ إلى اللقاء– ودّعه لوثيو–.

توقف الرجل صاحب الحذاء الأبيض هنيهة على عتبة الباب، لملاحظة ارتفاع القمر.

وبعد ذلك التفت بوجهه نحو الداخل، ليُؤمِّن بابتسامة جادة:

ـ نعم، سيستمر معى، نعم. ما حسبتة إذن.

لوّح بيده محييًا، ثم انصرف.

ـ يا له من رجل!– قال لوثيو فور انصراف الآخر–. إنه يقع منى موقعًا حسنًا، وأحبه لله فى لله، أقسم لك.

ـ نعم، إنه شخص نقى السريرة– قال موريثيو بتؤدة–. تكفى رؤية مدى تعذيبه لنفسه لمجرد أنه تقيأ. لن تصدق أن هذه الحساسية المفرطة قد أثارت إعجابى.

ـ لقد نال منه الأمر (وصعبت) عليه نفسه– قال لوثيو–. أو خمّن أنت ما تشاء. أو أنه قد بدا له ما حدث وكأنه عيب كبير يتنافى مع مبادئ التربية. أو أىّ شىء آخر.

ـ أعرف أشخاصًا آخرين يحدث لهم شىء قريب الشّبه من هذا. يهاجمهم المرض عندما يشاهدون حادثة. ورغم أنهم لا صلة لهم بها، لا من قريب ولا من بعيد، لكن هذا لا يمنع.

ـ أنا أعرف هذا. أعرف أناسًا يتمتعـون بتركيبـة مرهفـة، ومـا يشاهدونه ينعكس فورًا على عضو من أعضاء الجسد ويؤثر فيه، سواء كان الكبد أو المعدة أو أىّ عضو داخلى آخر.

باغتهما الدخول المفاجىء لخوستينا:

ـ أبتاه: ألا تفكر حضرتك فى تناول العشاء هذه الليلـة؟ لقـد بـرد الطعام كله، ولم تتبقَ جذوات تقريبًا لإعادة تسخينه.

ـ سأتعشى، لا تشغلى بالك.

ـ سوف ننام، أمى وأنا، حالاً؛ وعليك تدبير أمرك بنفسك.

التفتت بغتة إلى لوثيو واستمرت قائلة:

ـ وحضرتك، ماذا تفعل هنا إلى الآن؟- تظاهرت بالصرامة-.

ـ أنتظر قدومك، أيتها الجميلة، لكى تقـومى أنـت بطـردى إلـى الشارع.

ـ عجبًا! ما أقوله هو أن هذا يكفى- حرّكت يـدها بإيمـاءة تعنـى الزيادة عن الحدّ-. حضرتك جالس هنا منذ فترة!

ـ عندئذ، ماذا؟ ستلقين بى إلى الشارع؟

ـ أنا؟ حاشا لله. إنه والدى، الذى لا يستطيع التملص من حـضرتك كما ينبغى.

ـ أنت التى تأمرين هنا أكثر من والدك. بالنسبة لي، على الأقل.

ـ مفهوم؛ لأنى أرى مدى انقياد والدى لك، لدرجة أنه أصـبح فـى عِداد مواليك. لا تتركه لي ولا حتى لتناول العشاء أو لغلق المحل أو للذهاب إلى السرير. لا يفعل هنـا سـوى المكـوث، متـأملاً حضرتك. أتعتقد أن الآخرين مثل حضرتك، يعيشون على الهواء مثل نُسَّاك الهند؟

ـ هذه كلها محض افتراءات، يا خوستينيتا- قال لوثيو، ضـاحكًا-. خدامك يتناول الطعام كما يتناوله الآخرون؛ ولكنى أوزّعه علـى طريقتى.

ـ بدليل أنك مثل فزّاعـة الطيـور!. وبالنـسبة لـي، لا تنـادينى بخوستينيتا(*) لأن وزنى هو ضعف وزنك- غيّرت نغمة صوتها.

(*) خوستينيتا: تصغير للاسم العلم «خوستينا» . أما «خوستى» فهو اختصار لذلك الاسم، ويستخدم بقصد التدليل- المترجم-.

حسنًا، ابقيا هنا كما يحلو لكما، وافعلا ما تريدان. أما أنا، فسوف أنام. تصبح على خير، يا أبى.

ـ مع السلامة يا خوستى، يا بنتى، نومًا هانئًا وأحلامًا سعيدة.

ـ وأنا؟

ـ لحضرتك؟- ابتسمت خوستينا من علٍ، وهى تنظر إلى لوثيو الجالس-. لحضرتك ولا حتى تصبح على خير، لأنك لا تستحقها.

مشت نحو الدهليز.

شرع لوثيو فى التململ:

ـ يبدو لي، يا فتى، أننى سأعمل بنصيحة ابنتك. سأنصرف إلى البيت. لدىّ ما أعمله صباحًا.

ـ أنت؟

ـ وما الداعى للدهشة؟

ـ (شوف) أنت!

ـ كنت أودّ الاحتفاظ به لحين أن يصبح أمرًا مؤكدًا، ولكن مادمت قد نوّهت إليه، فسوف أخبرك بفحواه. إنه شىء تافه، لن تصدق،

(حاجة كده) مؤقتة عُرضت علىّ اليوم السابق، عن طريق الصُّدفة البحتة.

ـ أفصح عما تريد قوله، هيا.

ـ المسألة ببساطة تكمن فى القيام بالعجْن فى أعياد ثلاث أو أربع قرى بالمنطقة هنا. جاتوهات، تورتات، كرواسونات، دَنَش، إلى آخر تلك الأصناف التى تعرفها للحلويات. هو حلوانى متجول، ينتقل من عيد إلى عيد، وسوف يتخذنى مساعدًا له، أنت تفهمنى؟. وإجمالى المدّة حوالى شهر ونصف، لأننا يمكن أن نمضى فى كل قرية ما بين خمسة إلي سبعة أيام. ما سأفعله غدًا يقتصر على الحديث مع الرجل، وإذا وجدت أن الموضوع (يستاهل) سأتشجع. ما رأيك؟

ـ جميل. لو توصلت مع الرجل إلى اتفاق مرضٍ، سيكون عملاً لا بأس به، ومناسبًا لك فى الوقت ذاته.

ـ إنه شىء مختصر، بالطبع، وعلى نطاق ضيق، ولن يكون عائده كبيرًا على ما أظن، ولكنه ينفع على أىّ حال فى سدّ خانة الرزائل

الصغيرة(*)، ألا توافقنى الرأى؟ مكمن الخوف الوحيد يتمثل فى العمر؛ هذا لأن الرجل لم يرنى حتى، ولم يذكر له الطرف الثالث، الوسيط الذى تحدث معه فى الموضوع، شيئًا عن سنّى. وهذا ما أخشاه، فمن المحتمل أن يصرف الرجل النظر عنى ويفضل الاستعانة بشاب، لأن إنتاجه سيكون أكبر.

ــ لا أعتقد حدوث هذا، لأن القيمة تكمن أساسًا فى إتقان المهنة. وما علاقة السنّ بما يؤديه المرء من عمل؟ بل على العكس؛ لأن التقدم فى السنّ بمثابة الدليل الواضح على امتلاكك لسنوات طويلة من الخبرة.

ــ لنرى إن كان هذا حقيقيًا. أنا سعيد بهذا الأمر، يا رجل. لا أدرى كم مرّ من سنوات وأنا لم أضع يدىّ هاتين- أظهرهما- بين الدقيق والخميرة. وبعد الفراغ من قولى هذا من الواجب الانصراف، ولكن على وجه السرعة- اعتمد على يديه لكى ينهض . لابد أن الوقت متأخر الآن، وأنت أيضًا ينبغى أن تتناول عشاءك.

نهض.

(*) المقصود بالرزائل الصغيرة: التدخين واحتساء النبيذ أو غيره من الخمور - المترجم-.

ـ إنها الواحدة إلا عشر دقائق.

تمطى لوثيو. شدّ ثنيات البنطال ليبعدها عن الجلد الذى كانت ملزوقة فيه، ثم رفع ركبتيه عدة مرات، واحدة تِلْو أخرى، بالتناوب، ليزيل خَدر الساقين.

ـ حسنًا، تصبح على خير.

ـ بالتوفيق، وحظًا سعيدًا. ستحكى لي فيما بعد.

ـ بالطبع. سنرى إن كان كل هذا سوف يأتى بنتيجة. مع السلامة.

خرج لوثيو إلى الطريق وتبوّل إلى ما لا نهاية، تحت ضوء القمر، الذى كان يلامس، تقريبًا، أهداب الأفق من على تلال كوسلادا. سمع، خلف ظهره، صوت انغلاق باب موريثيو؛ وعندما استأنف السير من جديد، كان قد تلاشى مستطيل الضوء الخارج من الخان. ومن بين مزارع الزيتون، حمله الطريق حتى الأسوار الواطئة لسان فرناندو ذاتها. أما دوىّ ماء النهر الذى كان يصدح، هناك تحت، فى فتحة الهويس، فقد اختفى فجأة، من ورائه، عندما اعترضت سبيله طلائع المبانى. كانت بيوتًا حديثة، طوبها ظاهر للعيان، ومعظمها ما زال شاغرًا من السكان.

[... ثم يدخل من جديد أراضٍ ذات عروق معدنية ليتلقى من الجهة اليسرى، عند« ميخورا دل كامبو»، نهير «هنارس». وفى «باثيا مدريد» ينضم إليه، من الضفة اليمنى وتحت قنطرة «أرجندا»، نهر «المنثنارس»؛ كما ينضم إليه، ولكن من الضفة اليسرى هذه المرة، نهر «تاخونيا»، عند «تيتوليثيا». وهو يزود بالماء الساقية الكبيرة المعروفة باسم «ريال دل خراما»؛ وفى غوْطات«أرنخويث» يسلّم مياهه إلى«التاجُه»، الذى يحملها بدوره نحو الغرب، إلى البرتغال، ثم إلى المحيط الأطلسى.]

مدريد، فى ١٠ أكتوبر، ١٩٥٤

ومدريد فى ٢٠ مارس، ١٩٥٥

المؤلف فى سطور

رفائيل سانتتشث فيرلوسيو

- روائى وعالم لغوى إسبانى، مولود فى الرابع من ديسمبر عام ١٩٢٧.
- درس الفلسفة والآداب، وأطلع على الأدب الإيطالي والفرنسى والإسبانى، وكان متزوجًا بالروائية المعروفة كارمن مارتين جايتى، التى توفيت عام ٢٠٠٠م.
- صدر كتابة الأول، الذى يحمل عنوان "حيل وألاعيب ألفانوى"، فى عام ١٩٥١؛ وفى ١٩٥٦ نشر روايته الرائعة "نهر الخراما". وبعد إصدار هذه الرواية انصرف عن الإبداع الروائى لمدة عشرين عامًا تقريبًا، عكف خلالها على التأليف العلمى واللغوى، الذى أثمر العديد من العناوين الهامة فى كلا المجالين.
- نال العديد من الجوائز الأدبية والعلمية داخل إسبانيا وخارجها.

المترجم فى سطور:

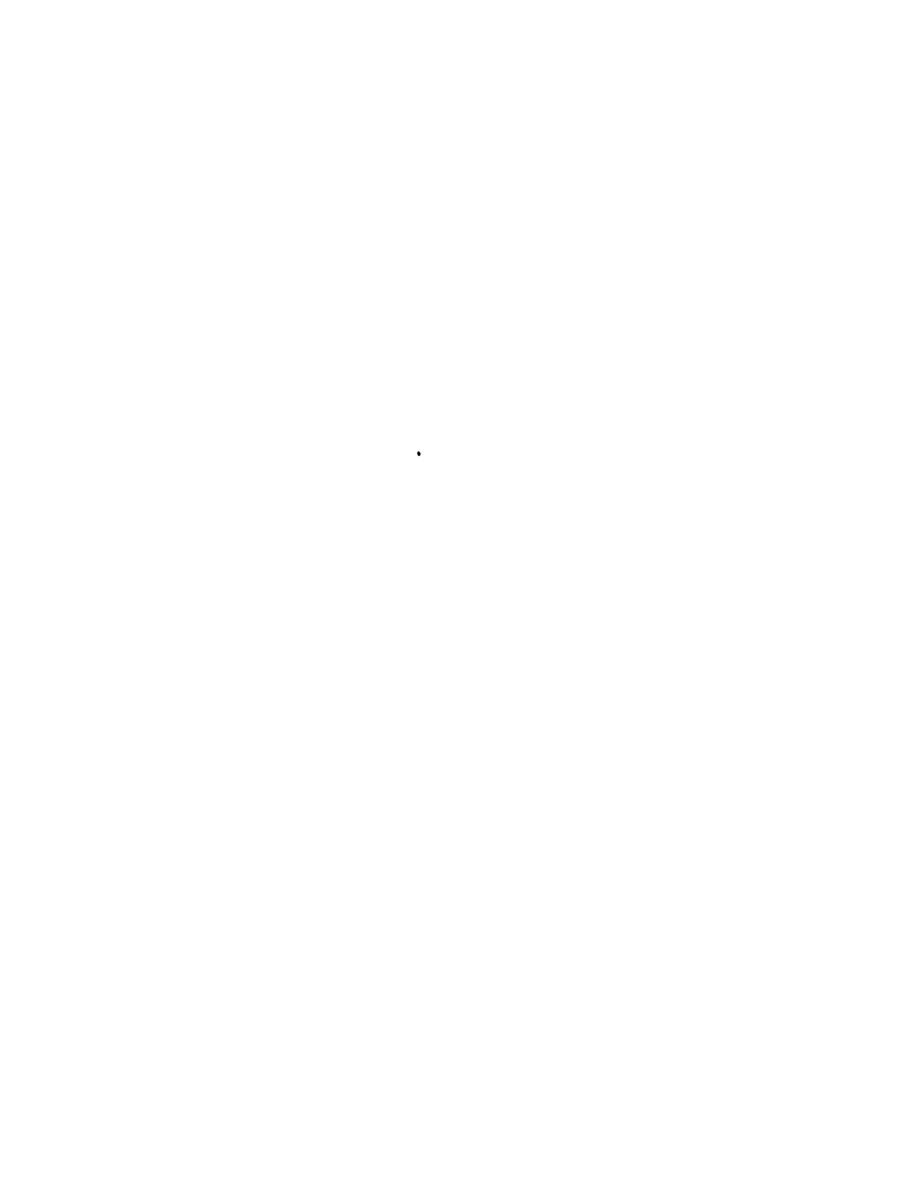
على عبد الرءوف اليمبى

- أستاذ فقه اللغة الإسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر)، ورئيس قسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة (جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا).
- من العشرة الأوائل على الثانوية الأزهرية (معهد طنطا الأحمدى)، فى الدفعة المزدوجة لعام ٦٩/ ١٩٧٠م.
- حصل فى ١٩٧٤ على الإجازة العالية (الليسانس) من قسم اللغة الإسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر)، بتقدير عام ممتاز مع مرتبة الشرف، وكان ترتيبه الأول على الدفعة.
- حصل فى يناير ١٩٨٧ على الدكتوراه من كلية فقه اللغه بجماعة **Salamanca** (إسبانيا).

- الرئيس السابق لقسم اللغة الإسبانية وآدابها بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر)، ولقسم اللغة الإسبانية بالمعهد العالى للغات (مدينة الثقافة والعلوم)، والأمين الحالى للجنة العلمية الدائمة بجامعة الأزهر لترقية أعضاء هيئة تدريس اللغة الإسبانية .
- نشر أكثر من عشرين كتابًا، ما بين مؤلفات علمية وترجمات (منها تسعة عناوين فى المشروع القومى للترجمة)، وعددًا كبيرًا من الأبحاث (باللغتين: العربية والإسبانية) فى مصر وفى غيرها من البلدان العربية.

التصحيح اللغوى: نورهان صلاح .

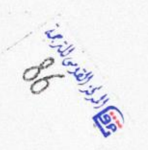
الإشراف الفنى: حسن كامل





أحدثت رواية «نهر الخراما»، فور صدورها (1956)، دويًّا هائلاً فى الأوساط الأدبية الإسبانية، وكان لها فيما بعد تأثير عميق على الإبداع الروائى، ولذا تعتبر من المعالم الخالدة للأدب الإسبانى فى القرن العشرين. ويجمع النقاد على أنها من أفضل الروايات فى ذلك القرن، بل إن البعض منهم يعدها الأفضل على الإطلاق.

والقيمة الحقيقية للرواية لا تكمن فى المضمون (وقائع رحلة قام بها أحد عشر مدريديًا، ما بين شاب وفتاة، إلى شاطئ نهر الخراما، لقضاء عطلة يوم أحد من شهر أغسطس القائظ)، بل فى لغة الحوار بين الشخصيات (التى وصلت إلى درجة من الإتقان لم تعهد من قبل)، وفى الدقة المتناهية فى وصف عناصر الطبيعة والمشاهد الروائية، باقتضاب واقتدار، من خلال لغة راقية متشامخة تهتك أستار الإعجاز.



تصميم الغلاف: نادية كشك